

تَفَاتِيحُ
ابْنِ حَكِيمٍ وَوَيْدِي

المُتَسَيِّغِ

بِكِتَابِهِ لِلْمَبْرُورِ، وَدِيْوَانِ الْمُتَسَيِّغِ وَالْمُبْتَدِئِ، فِي أَيَّامِ الْمَرْيَةِ وَالْمَعْسَمِ وَالْبَدْرِ
وَمَنْ مَخَّصَرَهُمْ مِنْ دَوَائِجِ الشَّيْطَانِ الْأَكْبَرِ

بِإِيجَادِ عَضُدِ الْعَيْشَةِ تَهْتَبِئُ الرَّحْمَنُ بْنُ مُسَدِّ بْنِ قَيْسِ بْنِ الْكَيْسَانِيِّ الْهَمَيْرِيِّ
الْمَوْتَلِيَّ سَنَةِ ٨٤٤ هـ

المجلد الأول

مُطْبَعَةُ مَجْمَعَةِ تَرْغِيْبِ الْعِلْمِ وَالنَّهْضَةِ

بِهَيْبَةِ - لَهْنَات

تَلَايحُ ابْنِ خَلْدُونَ

المُسَيَّمِي

بِكِتَابِ الْعِبَرِ، وَدِيْوَانِ الْمُبْتَدِئِ وَالْحَبْرِ، فِي أَيَّامِ الْعَرَبِ وَالْعَجَمِ وَالْبُرْبُرِ
وَمَنْ عَايَرَهُمْ مِنْ ذَوِي السُّلْطَانِ الْأَكْبَرِ

لِوَحْيِدِ عَصْرِهِ الْعِلْمِيَّةِ عِبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ خَلْدُونَ الْكُفَيْتِيِّ الْمَغْرِبِيِّ
المتوفى سنة ٨٠٨ هجرية

الجزء الأول

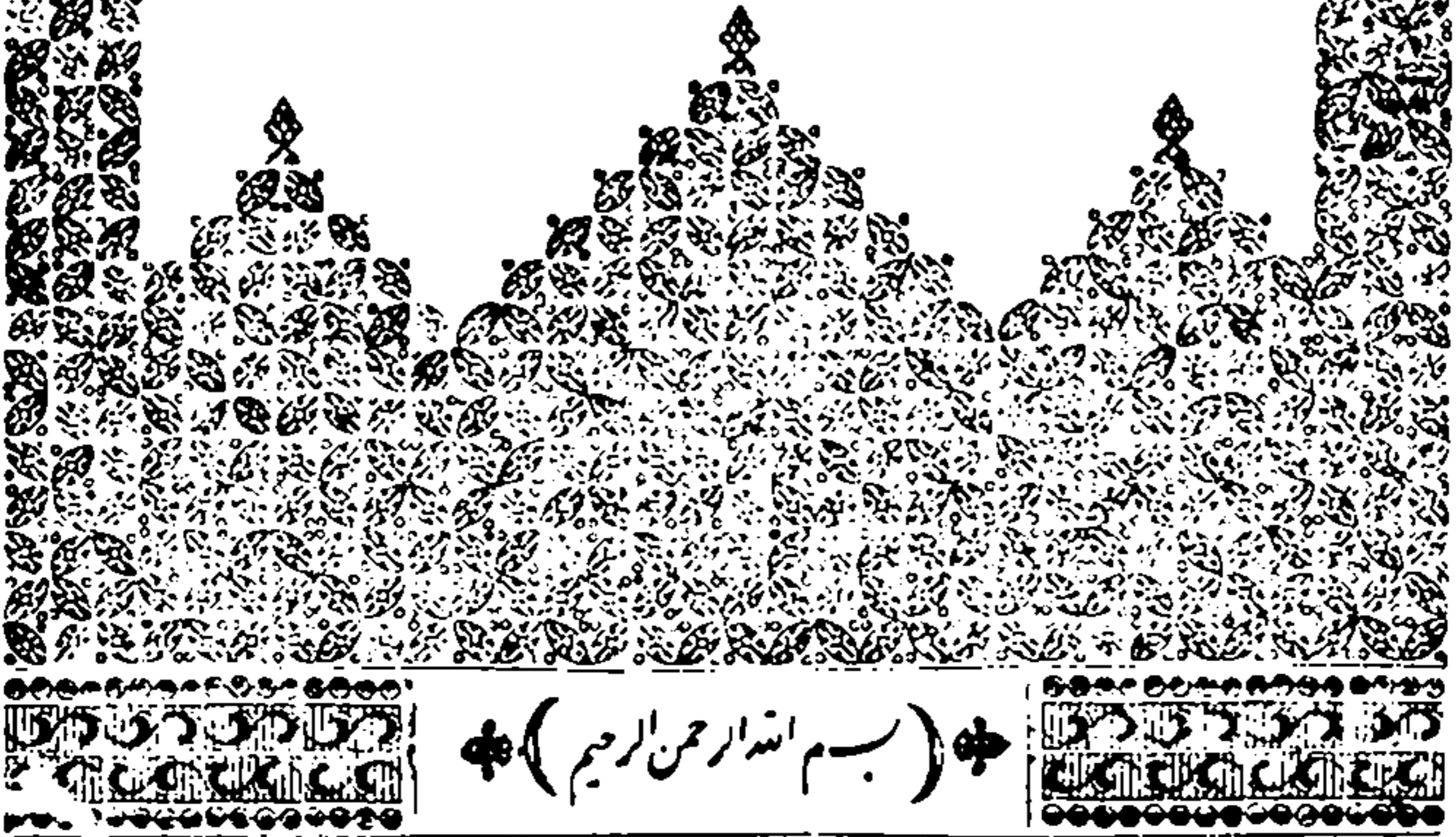


مؤسسة جمال للطباعة والنشر

وطن للطباعة - شارع حبيب أفيد شهلا - نهاية النكك

بيروت - لبنان

131648



{ يقول العبد الفقير الى رحمة ربه الغني بلفظه عبد الرحمن }
{ ابن محمد بن خالدون الحضرمي وفاته الله تعالى }

الممد لله الذي له العزة والجلوت * ويده الملك والمكوت * وله الاسماء الحسنى
والنعوت * العالم فلا يعزب عنه ما تظهره النجوى أو يخفيه السكوت * القادر
فلا يعجزه شئ في السموات والارض ولا يقوت * أنشأنا من الارض نساء * واستعمرنا
فيها أجيالا وأماما * وبسر لنا منها أرزاقا وقسما * تكفنا الارحام والبيوت
* ويكفلنا الرزق والقوت * وتبلينا الايام والوقوت * رتقنا رنا الآجال التي خط
علمنا كتابها الموقوت * وله البقاء والثبوت * وهو الحي الذي لا يموت * والصلاة
والسلام على سيدنا ومولانا محمد النبي الامي العربي المكتوب في التوراة والانجيل
المنعوت * الذي تخض لفصاله الكون قبل أن تتعاقب الآحاد والسيوت * ويتباين
زحل واليهاموت * وشهد بصدقه الحمام والعنكبوت * وعلى آله وأصحابه الذين
لهم في محبته واتباعه الاثر البعيد والصيت * والشمل الجميع في مظاهره ولعدوهم
الشمل الثابت * صلى الله عليه وعليهم ما اتصل بالاسلام جده المنجوت * وانقطع

بالبكر حبله المبتوت * وسلم كثيرا (أما بعد) فان فن التاريخ من الفنون التي
 يتداولها الامم والاجيال * وتشد اليه الركائب والرحال * وتسمو الى معرقتيه
 السوقه والاعتقال * وتتنافس فيه الملوك والاقبال * ويتساوى في فهمه العلماء
 والجهال * اذ هو في ظاهره لا يزيد على اخبار عن الايام والدول * والسوابق
 من القرون الاول * تنمى فيها الاقوال * وتضرب فيها الامثال * وتطرف فيها
 الادب اذ اغصها الاحتفال * وتؤدي الناشأ الخلقه كيف تقلبت بها الاحوال
 * واتسع للدول فيها النطاق والمجال * وعمرو الارض حتى نادى بهم الاوتقال
 * وحان منهم الزوال * وفي باطنه نظر وتحقيق * وتعليل للكائنات ومبادئها دقيق
 * وعلم بكيفيات الوقائع واسبابها عميق * فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق
 * وجدير بأن يعتدى علومها رخليق * وان فحول المؤرخين في الاسلام قد استوعبوا
 أخبار الايام وجعواها * وسطروها في صفحات الدفاتر وأدعواها * وخطبها
 المتفلون بدسائس من الباطل وهموا فيها أو ابتدعوها * وزخارف من الروايات
 المضعفة لفقوها ووضعوها * واقتنى تلك الآثار الكثير من بعدهم وانبعثوا
 * وأدوها البنا كما سمعوا * ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والاحوال ولم يراعوا
 * ولا رفضوا ترهات الاحاديث ولا دفعوها * فالتحقيق قليل * وطرف التتبع في
 الغالب قليل * وانغلط والوهم نسيب للاخبار وخليق * والتقليد عربى في
 الآدميين وسليل * والتطفل على الفنون عريض وطويل * ومرعى الجهل بين
 الانام وخيم وبيل * والحق لا يقاوم سلطانه * والباطل يقذف بشهاب النظر شيطانه
 * والناقل انما هو يلى وينقل * والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل * والعلم يجلولها
 صفحات الصواب ويصقل * (هذا) وقد دون الناس في الاخباروا كثيرا * وجعوا
 تاريخ الامم والدول في العالم وسطروا * والذين ذهبوا بفضل الشهرة والامانة المعتبرة
 * واستشرغوا دواوين من قبلهم في صحفهم المتأخرة * هم قليلون لا يكادون
 يجاوزون عدد الانامل * ولا حركات العوامل * مثل ابن اسحق والطبرى وابن
 الكلبي ومحمد بن عمر الواقدي وسيف بن عمر الاسدي والمسعودي وغيرهم من المشاهير
 * المنمزين عن الجماهير * وان كان في كتب المسعودي والواقدي من المطعن والمغمز
 ما هو معروف عند الاثبات * ومنهور بين الحفظه الثقات * الا ان الكفاة
 اختصتهم بقبول اخبارهم * واقتفاء سننهم في التصنيف واتباع آثارهم * والناقد
 البصير قسطاس نفسه في تزييفهم فيما ينقلون أو اعتبارهم * فللعمران طبائع في
 أحواله ترجع اليها الاخبار * وتحتمل عابها الروايات والآثار * ثم ان أكثر

التواريخ لهؤلاء عامة المناهج والمسالك * لعموم الدولتين صدر الاسلام في الاتاق
 والممالك * وتناولها البعيد من الغايات في المآخذ والتسارن ومن هولاء من
 استوعب ما قبل الملة من الدول والامم * والامر العمم * كالمعردى ومن نحا
 منحاها وجاء من بعدهم من عدل عن الاطلاق الى التقييد * ووقف في العموم
 والاحاطة عن الشأ والبعيد * فقيده شوارد عصره * واستوعب أخبار أفضه وقطره
 * راقصر على أحاديث دولته ومصره * كما فعل أبو حيان مؤرخ الاندلس والدولة
 الاموية بها وابن الرقيق مؤرخ افرى بقة والدول التي كانت بالقيروان ثم لم يأت من بعد
 هؤلاء الا مقلد * وبليد الطبع والعقل أو متبلد * ينسج على ذلك المنوال *
 ويحتذى منه بالمثل * ويذهل عما حالته الايام من الاحوال * واستبدلت به من
 عوائد الامم والاجيال * فيجلبون الاخبار عن الدول * وحكايات الوقائع في
 العصور الاول * صور اقد تجردت عن موادها * وصفاحا اتضيت من أعماها
 * ومعارف تستنكر للجهل بطارفيها وتلادها * انما هي حوادث لم تعلم أصولها *
 وأنواع لم تعتبر أجناسها ولا تحققت فصولها * يكررون في موضوعاتهم الاخبار
 المتداولة بأعيانها * اتباعا لمن عني من المتقدمين بشأنها * ويغفلون أمر الاجيال
 الناشئة في ديوانها * بما أعوز عليهم من ترجمانها * فتستهمم صحفهم عن بيانها
 * ثم اذا تعرضوا لذكر الدولة نسقوا أخبارها نسقا * محافظين على نقلها وهما
 أو صدقا * لا يتعرضون لبدايتها * ولا يذكرون السبب الذي رفع من رايها *
 وأظهر من آيتها * ولا علة الوقوف عند غايتها * فيبقى الناظر مستطعلا بعدا الى
 افتقاد أحوال مبادئ الدول ومراتبها * مفتشاعن أسباب تراجمها وتعاقبها *
 باحثاعن المقنع في تباينها وتناسبها حسبما ذكر ذلك كله في مقدمة الكتاب *
 ثم جاء آخرون بأقراط الاختصار * وذهبوا الى الاكتفاء بأسماء الملوك والاقصار
 * مقطوعة عن الانساب والاخبار * موضوعة عليها أعداد أيامهم بحروف الفبار
 * كما فعله ابن رشيقي في ميزان العمل * ومن اقتنى هذا الاثر من الهمل * وليس يعتبر
 لهؤلاء مقال * ولا يعدلهم ثبوت ولا انتقال * لما أذهبوا من الفوائد * وأخلوا
 بالمذاهب المعروفة للمؤرخين والعوائد (ولما طالعت) كتب القوم * وسبرت غور
 الامس واليوم * نهت عين القريحة من سنة الغفلة والنوم * وسعت التصنيف
 من نفسى وأنا المفلس أحسن السوم * فأنشأت في التاريخ كتابا * رفعت
 به عن أحوال الناشئة من الاجيال حجابا * وفصلته في الاخبار والاعتبار بابا بابا *
 وأبدت فيه لأولية الدول والعمران عللا وأسبابا * وبنيت على أخبار الامم الذين

عمرو المغرب في هذه الاعصار * وملوا كفاف النواحي منه والامصار * وما كان
 لهم من الدول الطوال أو القصار * ومن سلف من الملوك والانصار * وهم العرب
 والبربر * اذ هما الجبلان اللذان عرف بالمغرب مأواهما * وطال فيه على الاحقاب
 مئاها * حتى لا يكاد يتصور فيه ما عداها * ولا يعرف أهلها من أجيال الآدميين
 سواها * فهذبت مناخيه تهديبا * وقربته لافهام العلماء والخاصة تقرينا *
 وسلكت في ترتيبه وتبويبه مسلكا غريبا * واخترعته من بين المناحي مذهبا
 عجيبا * وطريقة مبتدعة وأسلوبا * وشرحت فيه من أحوال العمران والتمدن وما
 يعرض في الاجتماع الانساني من العوارض الذاتية ما يمتنعك بعقل الكوائن وأسبابها
 * ويعرفك كيف دخل أهل الدول من أبوابها * حتى تنزع من التقليد يدك *
 وتقف على أحوال من قبلك من الايام والاجيال وما بعدك * (ورتبته) على مقدمة
 وثلاثة كتب

(المقدمة) في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع بمغالط المؤرخين *
 (الكتاب الاول) في العمران وذكر ما يعرض فيه من العوارض الذاتية من الملك
 والسلطان والكسب والمعاش والصنائع والعلوم وما لذلك من العلل والاسباب
 (الكتاب الثاني) في أخبار العرب وأجيالهم ودولهم منذ مبدا الخليقة الى هذا
 العهد وفيه الاماع ببعض من عاصرهم من الامم المشاهير ودولهم مثل النبط
 والسريانيين والفرس وبني اسرائيل والقبط ويونان والروم والترک والافرنجة
 (الكتاب الثالث) في أخبار البربر ومن اليهم من زناة وذكر أوليتهم وأجيالهم
 وما كان لهم بديار المغرب خاصة من الملك والدول ثم كانت الرحلة الى المشرق لاجتلاء
 أنزاره * وقضاء الفرض والسنة في مطافه ومزاره * والوقوف على آثاره
 في دواوينه وأسفاره * فأفدت ما نقص من أخبار ملوك العجم بتلك الديار * ودول
 الترک فيما ملكوه من الاقطار * واتبع بها ما كتبه في تلك الاسطار * وأدرجتها
 في ذكر المعاصرين لتلك الاجيال من أمم النواحي * وملوك الامصار والضواحي
 * سالك سبيل الاختصار والتلخيص * مفتديا بالمرام السهل من العويص *
 داخل من باب الاسباب على العموم الى الاخبار على الخصوص فاستوعب أخبار
 الخليقة استيعابا * وذلك من الحكم النافرة صعابا * وأعطى لحوادث الدول عللا
 وأسبابا * وأصبح للحكمة صوانا وللتاريخ مخجرا با * (ولما كان) مشتملا على أخبار
 العرب والبربر * من أهل المدن والوبر * والاماع بمن عاصرهم من الدول الكبر *
 وأنصح بالذكرى والعبير * في مبتدأ الاحوال وما بعدها من الخبر (سميته) كتاب

العبر * وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر * ومن عاصرهم من
 ذوى السطان الأكبر * ولم أترنسياً في أولية الاجيال والدول * وتعاصر الامم
 الاول * وأسباب التصرف والجول * في القرون الخالية والملل * وما يعرض
 في العمران من دولة وملة * ومدينة وحلة * وعزة وذلة * وكثرة وقلة * وعلم
 وصناعة * وكسب واطاعة * وأحوال متقلبة مشاعة * وبدو وحضر * وواقع
 ومنتظر * الاواسم وعبت جله * وأوضعت براهينه وعمله * فجاء هذا الكتاب
 فذا بما ضمنته من العلوم الغريبة * والحكم المحجوبة القرينة * وأنام بعدها
 موقن بالقصور * بين أهل العصور * معترف بالعجز عن المضاء * في مثل هذا القضاء
 * راغب من أهل البد البيضاء * والمعارف المتسعة الفضاء * النظر بعين الانتقاد
 لأبعين الارضاء * والتغمد لما يعثرون عليه بالاصلاح والاعضاء * فالبضاعة بين
 أهل العلم منجاة * والاعتراف من اللوم منجاة * والحسنى من الاخوان منجاة *
 والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم وهو حسبي ونعم الوكيل
 (وبعد) أن استوفيت علاجه * وأتت مشيخته للمستبصرين وأذ كيت سراج
 * وأوضعت بين العلوم طريقه ومنهاجه * وأوسعت في فضاء المعارف نطاقه وأدرت
 سياجه * اتحفت بهذه النسخة منه (٨) خزانة مولانا السلطان الامام المجاهد *
 الفاتح الماهد * المحلى منذ خلع التمام * ولوث العمام * بجلى القانت الزاهد
 * المتوشح من زكاء المناقب والمحامد * وكرم الشمايل والشواهد * بأجل
 من القلائد * في نحو والولائد * المتناول بالعزم القوى الساعد * والجد المواتى
 المساعد * والمجد الطارف والتائد * ذواب ملكهم الرامى القواعد * الكريم
 المعالى والمساعد * جامع أشات العلوم والقوائد * وناظم شمل المعارف الشوارد
 * ومظهر الآيات الربانية * في فضل المدارك الانسانية * بفكره الثاقب
 الناقد * ورأيه الصحيح المعاقيد * النير المذاهب والعقائد * نور الله الواضح
 المرشد * ونعمته العذبة الموارد * ولطفه الكامن بالمرصد للشدائد * ورجته
 الكريمة المقالد * التى وسعت صلاح الزمان الفاسد * واستقامة المائد من
 الاحوال والعوائد * وزهبت بالخطوب الاوابد * وخلعت على الزمان رونق
 الشباب العائد * ووجهه التى لا يظلمها انكار الجاحد ولا شبهات المعاند * (أمير المؤمنين)
 أبو فارس عبد العزيز ابن مولانا السلطان الكبير المجاهد المقدس أمير المؤمنين *
 أبو الحسن ابن السادة الاعلام من بنى مرين * الذين جددوا الدين * ونهجوا
 السبيل للمهتدين * ومحو آثار البغاة المفسدين * أفاء الله على الامة ظلاله *

وبلغه في نصر دعوة الاسلام آماله • وبعثته الى خزانتهم الموقفة لطلبة العلم بجامع
 القرويين من مدينة فاس حضرة ملكهم • وكرسى سلطانهم • حيث مقر
 الهدى • ورياض المعارف خضلة الزدى • وفضاء الاسرار الزبانية فسيح المدى
 • والامامة الكريمة الفارسية (١) العزيرة ان شاء الله بنظرها الشريف • وفضلها
 الغنى عن التعريف • تبسط له من العناية مهادا • وتفصح له في جانب القبول
 آمادا • فتوضح بها أدلة على رسوخه واشهادا • فني سوقها تنفق بضائع الكتاب
 • وعلى حضرتها تعكف ركائب العلوم والآداب • ومن مدد بصائر المنيرة
 نتائج القرائح والالباب • والله يوزعنا شكر نعمتها • ويوفر لنا حظوظ المواهب
 من رحمتها • ويعيننا على حقوق خدمتها • ويجعلنا من السابقين في ميدانها •
 المحلين في حومتها • ويضئ على أهل ايلاتها • وما أرى من الاسلام الى حرم عمالتها
 • لبوس حمايتها وحرمتها • وهو سبحانه المستول أن يجعل أعمالنا خالصة في
 وجهتها • بريئة من شوائب الغفلة وشبهتها • وهو حسبنا ونعم الوكيل

(المقدمة)

في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين
 من المغالط والاهام وذكر شيء من اسبابها

(اعلم) أن فن التاريخ يخفقن عزيز المذهب جتم الفوائد شريف الغاية اذ هو يوقنا على
 أحوال الماضين من الامم في أخلاقهم • والانبيا في سيرهم • والملوك في دولهم
 وسياستهم • حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرومه في أحوال الدين والدينا فهو
 محتاج الى ما خدمته مددة ووعارف متنوعة وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما
 الى الحق وينبكان به عن المزلات والمغالط لان الأخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل ولم
 تحكم اصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والاحوال في الاجتماع
 الانساني ولا قيس الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فرمالم يؤمن فيها من العثور
 ومنلة القدم والجيد عن جادة الصدق وكثيرا ما وقع للمؤرخين والمفسرين
 راعة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غشاؤ
 سمينالم بعرضوها على اصولها ولا فاسوها بأشباهاها ولا سبروها بعبارة الحكمة
 والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلا عن الحق
 وتاهوا في بقاء الوهم والغلط سيما في احصاء الاعداد من الاموال والعساكر

اذا عرضت في الحكايات اذ هي مظنة الكذب وهطية الهذرو لا بد من ردها الى
 الاصول وعرضها على القواعد وهذا كما نقل المسعودي وكثير من المورخين في
 جيوش بني اسرائيل وان موسى عليه السلام أحصاهم في التيه بعد أن أجاز من
 يطبق حمل السلاح خاصة من ابن عشر بن فافوقها فكانوا ستمائة ألفاً ويزيدون
 ويذهل في ذلك عن تقدير مصر والشام واتساعها مماثل هذا العدد من الجيوش لكل
 مملكة من الممالك حصه من الحامية تتسع لها وتقوم بوظائفها وتضيق عما فوقها تشهد
 بذلك العوائد المعروفة والاحوال المألوفة ثم ان مثل هذه الجيوش البالغة الى مثل هذا
 العدد يعد أن يقع بينها زحف أو قتال لضيق ساحة الارض عنها وبعد هذا اذا اصطفت
 عن مدى البصر مرتين أو ثلاثاً وأزيد فكيف يقتتل هذان الفريقان أو تكون
 غلبة أحد الصفيين وشئ من جوانبه لا يشعر بالجانب الآخر والحاضر يشهد لذلك
 فالماضي أشبه بالآتي من الماء بالماء (ولقد كان) ملك الفرس ودولتهم أعظم
 من ملك بني اسرائيل بكثير يشهد لذلك ما كان من غلب بختنصر لهم والتهامه بلادهم
 واستيلائه على أمرهم وتخريب بيت المقدس قاعدة ملتهم وسلطانهم وهو من بعض
 عمال مملكة فارس يقال انه كان مرزبان المغرب من تخومها وكانت ممالكهم
 بالعراقين وخراسان وما وراء النهر والابواب أوسع من ممالك بني اسرائيل بكثير ومع ذلك
 لم تبلغ جيوش الفرس قط مثل هذا العدد ولا قريبان منه وأعظم ما كانت جيوشهم
 بالقادسية مائة وعشرون ألفاً كلهم متبوع على ما نقله سيف قال وكانوا في أتباعهم أكثر
 من مائتي ألف (وعن عائشة والزهرى) أن جوع رسم التي زحف بها بعد
 بالقادسية انما كانوا اثنين ألفاً كلهم متبوع وايضاً فلو بلغ بنو اسرائيل مثل هذا
 العدد لانتفع نطاق ملكهم وانسفع مدى دولتهم فان العمالات والممالك في الدول على
 نسبة الحامية والقبيل القائم بها في قلتها وكثرتها حسبما نيز في فصل الممالك
 من الكتاب الاول والاقوم لم تتسع ممالكهم الى غير الاردن وفلسطين من الشام وبلاد
 يثرب وخيبر من الحجاز على ما هو المعروف وايضاً فالذي بين موسى واسرائيل انما هو
 أربعة آباء على ما ذكره المحققون فانه موسى بن عمران بن بصهر بن قاهت بفتح الهاء
 وكسرهما ابن لاوى بكسر الواو وفتحها ابن يعقوب وهو اسرائيل الله هكذا نسبه في
 التوراة والمدة بينهما على ما نقله المسعودي قال دخل اسرائيل مصر مع ولده الاسباط
 وأولادهم حين أتوا الى يوسف سبعين نفساً وكان مقامهم بمصر الى أن خرجوا مع موسى
 عليه السلام الى التيه مائتين وعشرين سنة تتداولهم ملوك القبط من القراعنة ويعد
 أن يتشعب النسل في أربعة أجيال الى مثل هذا العدد وان زعموا أن عدد تلك الجيوش

انما كان في زمن سليمان ومن بعده فبعيد أيضا اذ ليس بين سليمان واسرائيل
الأحد عشر أبافانه سليمان بن داود بن ايشابن عوفيد و يقال بن عوفد بن باعز و يقال
بوعز بن سلون بن نحشون بن عمنوذب و يقال حينئذ اب بن رم بن حصرون و يقال
حصرون بن پارس و يقال پيرس بن يهوذا بن يعقوب ولا يتشعب النسل في أحد عشر
من الولد الى مثل هذا العدد الذي زعموه اللهم الى المثني والآلاف فر بما يكون
وأما أن يتجاوز الى ما بعدهما من عقود الاعداد فبعيد واعتبر ذلك في الحاضر المشاهد
والقريب الماروف تجد زعمهم باطلا ونقلهم كاذبا (والذي ثبت في الاسرائيليات)
أن جنود سليمان كانت اثني عشر ألفا خاصة وأن مقرباته كانت ألفا وأربعمائة
فرس مرتطة على أبوابه هذا هو الصحيح من أخبارهم ولا يلتفت الى خرافات العامة
منهم (وفي أيام سليمان عليه السلام ومملكه) كان عنقوان دولتهم واتساع ملكهم
هذا وقد نجد الكافة من أهل العصر اذا تفاوضوا في الحديث عن عساكر الدول التي
لعهدهم أو قريباته وتفاوضوا في الاخبار عن جيوش المسلمين أو النصارى
أو أخذوا في احصاء أموال الجبايات وخراج السلطان ونسقات المترفين وبضائع
الاغنياء الموسرين توغلو في العدد وتجاوزوا حدود العوائد وطاوعوا وساوس
الاعتراب فاذا استكشفت أصحاب الدواوين عن عساكرهم وانتهت أحوال أهل
الثروة في بضائعهم وفوائدهم واستجلبت عوائد المترفين في نفقاتهم لم تجد معشار
ما يعدونه وما ذلك الا لولوع النفس بالغرائب وسهولة التجاوز على اللسان والغفلة على
المتعقب والمتقد حتى لا يحاسب نفسه على خطأ ولا عمد ولا يبطأ لها في الخبر بتوسط ولا
عدالة ولا يرجعها الى بحث وتفطيش فيرسل عنانه ويسيم في مراتع الكذب لسانه
ويتخذ آيات الله هزا ويشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله وحسبك بها صفقة
خاسرة (ومن الاخبار الواهية للمؤرخين) ما ينقلونه كافة في أخبار التبايعه ملوك
اليمن وجزيرة العرب أنهم كانوا يغزون من قراهم باليمن الى افر يقية والبربردن بلاد
المغرب وأن افر يقش بن قيس بن صيفي من أعظم ملوكهم الاول وكان لعهدده وسمى
عليه السلام أو قبله بقليل غزا افر يقية وأثنى في البربر وأن الذي سماهم بهذا الاسم
حين سمع وطانهم وقال ما هذه البربرة فأخذ هذا الاسم عنه ودعوا به من حينئذ وأنه
لما انصرف من المغرب حجز هنالك قبائل من حمير فأقاموا بها واختلطوا بأهلها ومنهم
صنهاجة وكامة ومن هذا ذهب الطبري والجرجاني والمسعودي وابن الكلبي
والبيهقي الى أن صنهاجة وكامة من حمير وتأباه نسبة البربر وهو الصحيح (وذكر
المسعودي أيضا) أن ذالاذغار من ملوكهم قبل افر يقش وكان على عهد سليمان

عليه السلام غزا المغرب ودوخه وكذلك ذكر مثله من يأسر ابنه من بعده وأنه بلغ
وادي الرمل من بلاد المغرب ولم يجد فيه مسلحاً كالكرة الرمل فرجع وكذلك يقولون
في سبع الآخرة هو أسعد أبو كرب وكان على عهد يستألف من ملوك النرس الكيانية
أنه ملك الموصل وأذر بيجان واني الترك فهمز مهم وأثنى ثم غزاهم ثانية وثالثة كذلك
وأنه بعد ذلك أغزى ثلاثة من بنيه بلاد فارس والى بلاد الصغد من بلاد أمم الترك وراء
النهر والى بلاد الروم فلك الأول البلاد الى سمرقند وقطع المفازة الى الصين فوجد
أخاه الثاني الذي غزا الى سمرقند قد سبته اليه فأثخن في بلاد الصين ورجعاً جاعاً
بالغنائم وتركوا بلاد الصين قبائل من حيرفهم بهم الى هذا العهد وبلغ الثالث
الى قسطنطينية فدرسها ودوخ بلاد الروم ورجع (وهذه الاخبار) كلها بعبدعة عن
الصحة عريضة في الوهم والغلط وأشبهه بأحاديث القصص الموضوعة * وذلك
أن ملك التبايعه انما كان بجزيرة العرب وقرارههم وكرسهم بصنعاء اليمن وجزيرة
العرب يحيط بها البحر من ثلاث جهاتها فبحر الهند من الجنوب وبحر فارس
الهابط منه الى البصرة من المشرق وبحر السويس الهابط منه الى السويس من
أعمال مصر من جهة المغرب كما تراهم في مصور البحر افيافلا يجسد السالكون من
اليمن الى المغرب طريقاً من غير السويس والمسالك هنالك ما بين بحر السويس والبحر
الشمالي قدر مرحلتين فمادونهم ما وبعدها أن يمر بهذا الملك ملك عظيم في عسائر
موفورة من غير أن تصير من أعماله هذا ممنوع في العادة * وقد كان بتلك الاعمال
العمالة وكنعان بالشام والقطب بمصر ثم ملك العمالة مصر وملك بنو اسرايل
الشام ولم ينقل قط أن التبايعه حاربوا أحداً من هؤلاء الامم ولا ملكوا شيئاً من تلك
الاعمال وأيضاً فالشقة من البحر الى المغرب بعيدة والازودة والعلوفة للعساكر
كثيرة فاذا ساروا في غير أعمالهم احتاجوا الى انتهاب الزرع والاشجار وانتهاب البلاد
فيما يمررون عليه ولا يكتفي ذلك للازودة وللعلوفة عادة وان نقلوا كفايتهم من ذلك من
أعمالهم فلا تفي لهم الرواحل بنقله فلا بد وان يمر في طريقهم كلها بأعمال قدم ملكوها
ودوخوها لتسكون الميرة منها وان قلنا ان تلك العساكر تمر بهؤلاء الامم من غير
أن تمجهم فتحصل لهم الميرة بالمسألة فذلك أبعد وأشد استناعاً فدل على أن هذه
الاجبار واهية أو موضوعة (وأما) وادي الرمل الذي يعجز السالك فلم يسمع قط ذكره
في المغرب على كثرة الكهوم يقص طريقه من الركاب والقرى في كل عصر وكل
جهة وهو على ما ذكره من القرابة تتوفر الدواعي على نقله * وأما غزوهم بلاد
الشرق وأرض الترك وان كانت طريقه أوسع من مسالك السويس الا أن الشقة

هنا بعد و أم فارس والروم معترضون فيما دون الترك ولم يتقل قط أن التبابعة ملكوا
 بلاد فارس ولا بلاد الروم وإنما كانوا يجارون أهل فارس على حدود بلاد العراق
 وما بين البحرين والخيبر والجزيرة بين دجلة والفرات وما بينهما في الأعمال وقد وقع
 ذلك بين ذى الأذعار منهم وكياوس من ملوك الكيانية وبين تبع الأصغر أبو كرب
 ويستأسف منهم أيضا مع ملوك الطوائف بعد الكيانية والساسانية من بعدهم بمجاورة
 أرض فارس بالفرز والى بلاد الترك والتبت وهو ممتنع عادة من أجل الامم المعترضة
 منهم والحاجة الى الأزودة والعلوفات مع بعد الشقة كما مر فالأخبار بذلك واهية
 مدخولة وهي لو كانت صحيحة النقل لكان ذلك قاصدا فيها فكيف وهي لم تنقل من
 وجه صحيح وقول ابن اسحق في خبر نيرب والاوز والخزرج ان تبعا الآخرا الى
 المشرق محمول على العراق وبلاد فارس وأما بلاد الترك والتبت فلا يصح عزوهم اليها
 بوجه ما تقرر فلا تثقن بما يلقى اليك من ذلك وتأمل الأخبار واعرضها على القوانين
 الصحيحة يقع لك تمحيصها بأحسن وجه والله الهادي الى الصواب .

(فصل) وأبعد من ذلك وأحرق في الوهم ما تناقله المفسرون في تفسير سورة والتجبر
 في قوله تعالى ألم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد فيجعلون لفظه ارم اسم المدينة
 وصفت بأنها ذات عماد أي أساطين وينقلون أنه كان لعاد بن عوص بن ارم ابنان هما
 شديد وثداد ملكا من بعده وهلك شديد فخلص الملك لشداد ودانت له ملوكهم وسمع
 وصف الجنة فقال لابن ميثم بن عمار في مدينة ارم في صحارى عدن في مدة ثمانمائة سنة وكان
 عمره تسعمائة سنة وانها مدينة عظيمة قصورها من الذهب وأساطينها من الزبرجد
 والياقوت وفيها أصناف الشجر والانهار المطردة ولما تم بناؤها سار اليها بأهل مملكته
 حتى اذا كان منها على مسيرة يوم وليله بعث الله عليهم صيحة من السماء نهلكوا كلهم
 ذكر ذلك الطبري والثعالبي والزنجشري وغيرهم من المفسرين وينقلون عن
 عبد الله بن قلابة من الصحابة انه خرج في طلب ابل له فوقع عليها وحمل منها ما قدر
 عليه وبلغ خبره الى معاذ بن جهم فحضره وقص عليه فبحث عن كعب الاحبار وسأله عن
 ذلك فقال هي ارم ذات العماد وسيدخلها رجل من المسلمين في زمانك أحرأشقر قصير
 على حاجبه خال وعلى عنقه خال يخرج في طلب ابل له ثم التفت فأبصر ابن قلابة فقال
 هذا والله ذلك الرجل وهذه المدينة لم يسمعها خبر من يومئذ في شيء من بقاع الارض
 وصحارى عدن التي زعموا انها بنيت فيها هي في وسط اليمن وما زال عمران متعاقبا
 والادلاء تقص برفه من كل وجه ولم ينقل عن هذه المدينة خبر ولا ذكرها أحد
 من الاخباريين ولا من الامم ولو قالوا انها درست فيما درس من الآثار لكان

أشبه الآن ظاهر كلامهم انها موجودة وبعضهم يقول انها دمشق بناء على
 ان قوم عاد ملكوها وقد ينتهي الهذيان ببعضهم الى انها غابية وانما يعثر عليها
 أهل الرياضة والسحر من اعم كلها أشبه بالخرافات والذي حل المفسر من على ذلك
 ما اقتضته صناعة الاعراب في لفظ ذات العماد أنها صفة ارم وحلوا العماد على
 الاساطين فتعين أن يكون بناء ورشح له -م ذلك قراءة ابن الزبير عاد ارم على الاضفة
 من غير توين ثم وقفوا على تلك الحكايات التي هي أشبه بالاقاصيص الموضوعة
 التي هي أقرب الى الكذب لانه رواية في عداد المخفكات والاقالعماد هي عماد الاخيرة
 بل الخيام وان أريد به الاساطين فلا بدع في وصفهم بأنهم أهل بناء واساطين على
 العموم بما اشتهر من قوتهم لانه بناء خاص في مدينة معينة أو غيرها وان أضفت
 كما في قراءة ابن الزبير فعلى اضافة النصيب الى القبيلة كما تقول قريش كأنه واليس
 مضروربيعة نزار واي ضرورة الى هذا الحمل البعيد الذي تجملت لوجهه لامثال
 هذه الحكايات الواهية التي ينزه كتاب الله عن مثلها البعدها عن العصة (ومن
 الحكايات) المدخولة للمؤرخين ما ينقلونه كافة في سبب نكبة الرشيد للبرامكة من
 قصة العباسية أخته مع جعفر بن يحيى بن خالد مولاة وانه لكافه بمكانهما من معارفة
 اياهما الخراذن لهما في عقد النكاح دون الخلوه حرصا على اجتماعهما في مجلسه
 وأن العباسية تجملت عليه في التماس الخلوه به لما شغفها من حبه حتى واقعها زعوا
 في حالة سكر فحمت ووثنى بذلك للرشيد فاستغضب وهيئات ذلك من منصب العباسية
 في دينها وأبو يها وجلالها وأنها بنت عبد الله بن عباس ليس بينها وبينه الأربعة
 رجال هم أشرف الدين وعظماؤا الملة من بعده . والعباسية بنت محمد المهدي بن عبد
 الله أبي جعفر المنصور بن محمد السجاد بن علي أبي الخلفا من عبد الله تر جان
 القرآن بن العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ابنة خليفة أخت خليفة محفوفة
 بالملك العزيز والخلافة النبوية وصحبة الرسول ولحمومته وامامة الملة ونور الوحي
 ومهبط الملائكة من سائر جهاتها قرية عهدية داوة العروبية وسذاجة الدين
 البعيدة عن عوائد الترف ومراتع الفواحش فأين يطلب الصون والعفاف اذا ذهب
 عنها وأين توجد الطهارة والذكاء اذا فقد من بيتها وكيف تلحم نسبها بجعفر بن يحيى
 وتدنس شرفها لعربي عولى من موالى العجم بل كة جده من الفرس أو بولاء جدها من
 عمومة الرسول وأشرف قريش وغايبته أن جديت دولتهم بضيعه وضيع أبيه
 واستخلصتهم ورقتهم الى منازل الاشرف وكيف يسوغ من الرشيد أن يهمل الى
 موالى الاعاجم على بعد عمته وعظم آبائه ولو نظر المتأمل في ذلك نظر المصنف وقاس

العباسة بآبنة ملك من عظماء ملوك زمانه لاستنكف لها عن مثله مع مولى من موالى
دولتها وفي سلطان قومه واستنكره وبلغ في تكذيبه وأين قدر العباسية والرشيديين من
الناس وانما مكب البرامكة ما كان من استبدادهم على الدولة واحتجابهم أموال
الجباية حتى كان الرشيد يطلب اليسير من المال فلا يصل اليه فغلبوه على أمره
وشاؤوا في سلطانه ولم يكن لهم معهم نصير في أمورهم فعمت آثارهم وبعدهم بيتهم
وعمر وامن اب الدولة وخطها بالروساء من ولدهم وصناعتهم واحتازوها عن سواهم
من وزارة وكتابة وقيادة وجماعة وسيف وقلم يقال انه كان بدار الرشيد من ولده يحيى بن
خالد خمسة وعشرون ريسا من بين صاحب سيف وصاحب قلم زاحوا فيها أهل الدولة
بالمناكب ودفعوهم عنها بالراح لمكان أبيهم يحيى من كفالة هرون ولي عهد و خليفة
حتى شب في حجره ودرج من عشه وغلب على أمره وكان يدعوها بآبنة فتوجه الاينار
من السلطان اليهم وعمت الدالة منهم وانبسط الجاه عندهم وانصرفت نفوسهم
الوجوه وخفضت لهم الرقاب وقصرت عليهم الآمال وتختت اليهم من أقصى الضوم
هدايا الملوك وتحف الامراء وسيرت الى خزائهم في سبيل الترف والاستمالة أموال
الجباية وأفاضوا في رجال الشيعة وعظماء القرابة العطاء وطوقوهم المنز وكسبوا من
بيوتات الاشراف المعدم وفكوا العاني ومدحوا بما لم يدح به خليفتهم وأسنوا
لعفاتهم الجوائز والصلوات واستولوا على القرى والضباع من الضواحي والامصار
في سائر الممالك حتى آسفوا البطانة وأحقدوا الخاصة وأغصوا أهل الولاية
فكشفت لهم وجوه المنافسة والحسد ودبت الى مهاذهم الوثير من الدولة
عقارب السعاية حتى اقد كان بنو قحطبة اخوال جعفر من أعظم الساعين عليهم لم
تعطفهم لما قر في نفوسهم من الحسد عواطف الرحم ولا وزعتهم أو اصر القرابة
وقارن ذلك عند مخدومهم نواشي الغيرة والاستنكاف من الجبر والانفة وكان من
الحقود التي بهتت انهم صفات الدالة وانتهى بها الاصرار على شأنهم الى بكاء المخالفة
كقصتهم في يحيى بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب أخي محمد المهدي
الملقب بالنفس الزكية الخارج على المنصور ويحيى هذا هو الذي استنزله الفضل بن
يحيى من بلاد الديلم على أمان الرشيد بخطه وبذل لهم فيه ألف ألف درهم على ما ذكره
الطبري ودفعه الرشيد الى جعفر وجعل اعتقاله بداره والى نظره فحبسه مدة ثم حمله
الدالة على تخليه سبيله والاستبداد بجعل عقاله حرما لدماء أهل البيت بزعمه ودالة
على السلطان في حكمه * وسأله الرشيد عنه لما وثني به اليه فظن وقال أطلقته
فأبدي له وجه الاستحسان وأمرها في نفسه فأوجد السبيل بذلك على نفسه وقومه

حتى نزل عرشهم وألقيت عليهم سماؤهم ونخسفت الأرض بهم وبادرهم وذهبت
سلفا ومثلا لآخريين أيامهم ومن تأمل أخبارهم واستقصى سير الدولة وسيرهم
وجد ذلك محققا لآثر محمد الأسباب (وانظر) ما نقله ابن عبد ربه في مفاوضه الرشيد
عم جده داود بن علي في شأن نكبتهم وما ذكره في باب الشعراء من كتاب العقد في
محاورة الاصمعي للرشيد والفضل بن يحيى في سمرهم تفهم انه انما اقتنتهم الغيرة والمنافسة
في الاستبداد من الخليفة فن دونه وكذلك ما تحيل به أعداؤهم من البطانة فيما دسوه
للمغنين من الشعراء حثيا لاعلى اسماعه للخليفة وتحريك حفاظته لهم وهو قوله

ليت هذا أنجزت ما تعد * وشت أنفسنا مما نجد

واستبدت مرة واحدة • انما العاجز من لا يستبد

وان الرشيد لما سمعها قال اي والله انى عاجز حتى بعثوا بأمثال هذه كما من غيرته
وسلطوا عليهم بأس انتقامه نعوذ بالله من غلبة الرجال وسوء الحال (وأما) ما عتوه
به الحكاية من معاقره الرشيد النجر واقتران سكره بسكر الندمان فحاش لله ما علمنا عليه
من سوء وأين هذا من حال الرشيد وقيامه بما يجب لمنصب الخلافة من الدين والعدالة
وما كان عليه من صحابة العلماء والاولياء ومحاوراته للفضيل بن عياض وابن السمالك
والعمرى ومكاتبته سفيان الثوري وبكائه من مواعظهم ودعائه بمكة في طوافه وما
كان عليه من العبادة والمحافظة على أوقات الصلوات وشهود الصبح لاول وقتها
(حكى) الطبرى وغيره انه كان يصلى في كل يوم مائة ركعة نافله وكان يغزو عاما ويحج
عاما ولقد زجر ابن أبي مریم منحه في سمره حين تعرض له بمثل ذلك في الصلاة لما سمعه
يقرا ومالى لأعبد الذى فطرنى وقال والله ما أدري لم فإتمالك الرشيد أن ضحك ثم
التفت اليه مغضبا وقال يا ابن أبي مریم فى الصلاة أيضا اياك والقرآن والدين
ولك ما شئت بعدهما وأيضا فقد كان من العلم والسداجة بمكان لقرب عهده من سلفه
المتكلمين لذلك ولم يكن بينه وبين جده أبى جعفر بعيد من انما خلفه غلاما وقد كان
أبو جعفر بمكان من العلم والدين قبل الخلافة وبعدها وهو القائل للمالك حين أشار
عليه بتأليف الموطأ يا أبا عبد الله انه لم يبق على وجه الارض أعلم منى ومنك وانى قد
شغلتنى الخلافة فضع أنت للناس كما يبتفعون به تجنب فيه رخص ابن عباس
وشدائد ابن عمرو وطئه للناس توطئة قال مالك فوالله لقد علمنى التصنيف يومئذ
واقدا أدركه ابنه المهدي أبو الرشيد هذا وهو يتورع عن كسوة الحديد لعياله من بيت
المال ودخل عليه يوما وهو يجلسه يباشر الخياطين فى ارتفاع الخلقان من ثياب عياله
فاستنكف المهدي من ذلك وقال بأمر المؤمنين على كسوة العيال عامنا هذا من

عطاني فقال له ذلك ولم يصده عنه ولا سمح بالاتفاق من أموال المسلمين فكيف
يليق بالرشيد على قرب العهد من هذا الخليفة وأبوتيه وماربى عليه من أمثال هبذه
السيرة في أهل بيته والتخلق بها أن يعاقر الخمر أو يجاهر بها وقد كانت حالة الاشراف
من العرب الجاهلية في اجتناب الخمر معلومة ولم يكن الكرم شجرتهم وكان شربها
مذمة عند الكثير منهم والرشيد وآبؤه كانوا على نهي من اجتناب المذمومات في دينهم
ودنياهم والتخلق بالمحامد وأوصاف الكمال ونزعات العرب (وانظر) ما نقله الطبري
والمسعودي في قصة جبريل بن مجتيشوع الطيب حين أحضر له السمك في مائده
فجاءه عنه ثم أمر صاحب المائدة بحمله الى منزله وفطن الرشيد وارتاب به ودس
نادمه حتى عاينه يتناول فأعد ابن مجتيشوع للاعتذار ثلاث قطع من السمك في ثلاثة
أقداح خلط احداها باللحم المعالج بالتوابل والبقول والبوارد والحلوى وصب
على الثانية ماء مثلجا وعلى الثالثة خمر صرفا وقال في الاول والثاني هذا طعام أمير
المؤمنين ان خلط السمك بغيره أولم يخلطه وقال في الثالث هذا طعام ابن مجتيشوع
ودفعها الى صاحب المائدة حتى اذا اتبه الرشيد وأحضره للتوبيخ أحضر الثلاثة
الاقداح فوجد صاحب الخمر قد اختلط وأماع وتفتت ووجد الاخرين قد فسدا
وتغيرت رائحتهم فكانت له في ذلك معذرة وتبين من ذلك ان حال الرشيد في اجتناب
الخمر كانت معروفة عند بطائنه وأهل مائده ولقد ثبت عنه انه عهد بحبس أبي نواس
لما بلغه من انها كفة في المعاقرة حتى تاب وأقلع وانما كان الرشيد يشرب نبيذ
التمر على مذهب أهل العراق وقتناو بهم فيها معروفة وأما الخمر الصرفة فلا سبيل
الى اتهامه به ولا تقليد الاخبار الواهية فيها فلم يكن الرجل يجتنب يواقع محترما
من أكابر الكفار عند أهل الله ولقد كان أولئك القوم كلهم بمنجاة من ارتكاب
السرف والترف في ملابسهم وزينتهم وسائر متناولاتهم لما كانوا عليه من خشونة
البدانة وسداجة الدين التي لم يفارقوها بعد فاطنك بما يخرج عن الاباحة الى الحظر
وعن الخلية الى الحرمة ولقد اتفق المؤرخون الطبري والمسعودي وغيرهم على
أن جميع من سلف من خلفاء بني أمية وبني العباس انما كانوا يركبون بالخلية
الخفيفة من الفضة في المناطق والسيوف واللجم والسروج وأن أول خليفة أحدث
الركوب بحلية الذهب هو المعتز بن المتوكل ثامن الخلفاء بعد الرشيد وهكذا كان
حالهم أيضا في ملابسهم فاطنك بمشاربهم ويتبين ذلك بآتم من هذا اذا فهمت
طبيعة الدولة في أولها من البدانة والغضاضة كما تشرح في مسائل الكتاب الاقل
ان شاء الله وافته الهادي الى الصواب (ويناسب) هذا أو قريب منه ما نقلونه كافة

عن يحيى بن أكرم قاضي المأمون وصاحبه وأنه كان يعاقر المأمون الخمر وأنه سكر ليلة
مع شربه فدفن في الریحان حتى أفاق وينشدون على لسانه
ياسمیدی وأمر الناس كلهم * قد جاز في حكمه من كان يدعيني
اني غفلت عن الساقی فصبرني * كما ترى سلب العقل والدين
وحال ابن أكرم والمأمون في ذلك من حال الرشيد وشرابهم انما كان النبيذ ولم يكن
مخظورا عندهم وأما السكرك فليس من شأنهم وصحابته للمأمون انما كانت خلة في
الدين ولقد ثبت انه كان ينام معه في البيت ونقل من فضائل المأمون وحسن عشرته
انه اتبسه ذات ليلة عطشان فقام يتحسس ويلتمس الاناء مخافة أن يوقظ يحيى بن
أكرم وثبت أنهم ما كان يصلحان الصبح جميعا فأين هذا من المعافرة وأيضاً فان يحيى
ابن أكرم كان من عليّة أهل الحديث وقد أثنى عليه الامام أحمد بن حنبل واهم عمل
القاضي وخرج عنه الترمذي كتابه الجامع وذكر المزي الحافظ أن البخاري روى
عنه في غير الجامع فالقدح فيه قدح في جميعهم وكذلك ما يبرزه الجمان بالميل الى الغلمان
بهم تانا على الله وفريته على العلماء ويستندون في ذلك الى أخبار القصاص الواهية التي
لعلها من افتراء أعدائه فانه كان محسودا في كماله وخطته للسلطان وكان مقامه من
العلم والدين منزها عن مثل ذلك ولقد ذكر لابن حنبل ما يرميه به الناس فقال سبحان
الله سبحان الله ومن يقول هذا وانكر ذلك انكارا شديدا وأثنى عليه اسمعيل القاضي
فقبل له ما كان يقال فيه فقال معاذ الله أن تزول عدالة مثله بتكذب باغ وحاسد وقال
أيضا يحيى بن أكرم أبرأ الى الله من أن يكون فيهما شيء مما كان يرمى به من أمر الغلمان
ولقد كنت أقف على سرائره فأجده شديدا الخوف من الله لكنه كانت فيه دعابة
وحسن خلق فرمى بما يرمى به وذكره ابن حبان في الثقات وقال لا يستغل بما يحكى
عنه لان أكثرها لا يصح عنه (ومن أمثال هذه الحكايات) ما نقله ابن عبد ربه
صاحب العقد من حديث الزبير في سبب اصهار المأمون الى الحسن بن مهمل في بقة
بوران وأنه عثر في بعض الليالي في تطوافه بسكك بغداد في زبير مدلى من بعض
السطوح بمعاليق وجدل مغارة الفتل من الحرير فاقعده وتناول المعاليق فاهتزت
وذهب به صعدا الى مجلس شأنه كذا ووصف من زينة فرشه وتنضيد أبنيته وجمال
رؤيته ما يستوقف الطرف ويملك النفس وأن امرأته برزت له من خلل الستور في ذلك
المجلس راتقة الجمال فتانه المحاسن فحينه ودعته الى المنادمة فلم يزل يعاقرها الخمر حتى
الصباح ورجع الى أصحابه بمكانهم من انتظاره وقد شغفته حبا بعنه على الاصهار الى
أبيها وأبن هذا كله من حال المأمون المعروفة في دينه واهله واقتفانه سنن الخلفاء

الراشدين من آباءه وأخذ به سيرة الخلفاء الأربعة أركان الله ومناظرته للعلماء وحفظه
 لحدود الله تعالى في صلواته وأحكامه فكيف تصح عنه أحوال الفساق المستهترين
 في التطواف بالليل وطروق المنازل وغشيان الحرم سبيل عشاق الأعراب وأين
 ذلك من منصب ابنة الحسن بن سهل وشرفها وما كان يدارأى بها من الصون والعفاف
 وأمثال هذه الحكايات كثيرة وفي كتب المؤرخين معروفة وانما يعث على وضعها
 والمحدثين بها إلا أنها في اللذات المحترمة وهتك قناع المخدرات ويتعللون بالناسي
 بالقوم فيما يأتونه من طاعة لذاتهم فلذلك تراهم كثيرا ما يلهبون بأشياء هذه الأخبار
 وينقرون عنها عند تصفحهم لا وراق الدواوين ولو اتسوا بهم في غير هذا من
 أحوالهم وصفات الكمال اللاتفة بهم المشهورة عنهم لكان خير لهم لو كانوا يعملون
 ولقد عدت يوما بعض الأمر من أبناء المولى في كفه بتعلم الفناء وولوعه بالأوتار
 وقلت له ليس هذا من شأنك ولا يليق بمنصبك فقال لي أفلا ترى إلى إبراهيم بن المهدي
 فكيف كان امام هذه الصناعة ورئيس المغنين في زمانه فقلته يا سبحان الله وهلا
 تأسيت بأبيه أو أخيه أو مارأيت كيف تعد ذلك بإبراهيم عن مناصبهم فصم عن عدلى
 وأعرض والله يهدي من يشاء (ومن الأخبار الواهية) ما يذهب إليه الكثير من
 المؤرخين والاثبات في العبيد بين خلفاء الشيعة بالقبروان والقاهرة من نصيبهم عن
 أهل البيت صلوات الله عليهم والظن في نسبهم إلى اسمعيل الامام ابن جعفر الصادق
 يعتمدون في ذلك على أحاديث لفتت للمستضعفين من خلفاء بني العباس زلفا اليهم
 بالقدح فيمن ناصبهم وتفننا في الشتمات بعد وهم حسبنا ذكر بعض هذه الأحاديث
 في أخبارهم ويفعلون عن التفضل لشواهد الواقعات وأدلة الأحوال التي اقتضت
 خلاف ذلك من تكذيب دعواهم والرد عليهم فانهم متفقون في حديثهم عن مبدأ
 دولة الشيعة أن أباعبد الله المحتسب لما دعي بكامة للرضي عن آل محمد واشترخ به
 وعلم فهو يمه على عبيد الله المهدي وابنه أبي القاسم خشياعلى أنفسهم ما فهر با من
 المشرق محل الخلافة واجتازا بمصر وأنهما خرجا من الاسكندرية في زى التجار ونفى
 خبرهما إلى عيسى النوشري عامل مصر والاسكندرية فسرّح في طلبهما الخيالة حتى
 إذا دركا حتى حالهما على نابهما بمالسوا به من الشارة والزي فأنفتوا إلى المغرب
 وأن المعتضد أعز إلى الاغالبه أمره افر يقية بالقبروان وبني مدرار أمره اسجلماسة
 بأخذ الا فاق عليهم واذا كاه العيون في طلبهما فعثر اليسع صاحب بجلماسة
 من آل مدرار على خفي مكانهما ببلده واعتقلهما مرضاة للخليفة هذا قبل أن تظهر
 الشيعة على الاغالبه بالقبروان ثم كان بعد ذلك ما كان من ظهور دعوتهم بالمغرب

واقريضة ثم باليمن ثم بالاسكندرية ثم بحمص والشام والجزيرة وطاهوا بنى العباس في
 محالك الاسلام حتى الابله وكادوا يطبون عليهم مواطنهم ويزابلون من أمرهم وخذ
 أظهر دعوتهم بيقداد وعراقها الامير الباسيرى من موالى الذيل المتغلبين على خلفاء
 بنى العباس في مفاضية جرت بينه وبين أمراء الهجم وخطب لهم على منابر طاهولا
 كدلا وما زال بنو العباس يفتنون بمكانهم ودولتهم ومولوك بنى أمية وراء البصر تادون
 بالويل والحرب منهم وكيف يقع هذا كله له في القسب يكذب في اتصال الامر
 واعتبر حال القرمطي اذ كان دعيا في اتسابه كيف تلاشت دعونه وتمزقت آتساعه
 وظهر سر يعا على خبيثهم ومكرهم فسامت عاقبتهم وذاقوا وبال أمرهم ولو كان أمر
 العبيدين كذلك لعرف ولو بعد مهلة

ومهما تكن عند امرئ من خليقة • وان خالها تخنى على الناس تعلم
 فقد اتصلت دولتهم فحوامن مائتين وسبعين سنة وملكوا مقام ابراهيم عليه السلام
 ومصلاه وموطن الرسول صلى الله عليه وسلم ومدقته وموقف الطيغ ومهبط الملائكة ثم
 انقرض أمرهم وشيعتهم في ذلك كله على آتم ما كانوا عليهم من الطاعة لهم والحب
 فيهم واعتقادهم بنسب الامام اسمعيل بن جده الصادق ولقد خرجوا امرارا بعد
 ذهاب الدولة ودروس اثرها داعين الى بدعتهم هاتفين بأسماء صبيان من أعقابهم
 يزعمون استحقاقهم للخلافة ويذهبون الى تعيينهم بالوصية عن سلف قبلهم من الاثمة
 ولوارثا في نسبهم لما ركبوا أعناق الاخطار في الانتصار لهم فصاحب البدعة
 لا يلبس في أمره ولا يشبه في بدعته ولا يكذب نفسه فيما يتكلمه (والهيب) من القاضي
 أبي بكر الباقلا في شيخ النظار من المتكلمين يهجم الى هذه المقالة المرجوحة ويرى
 هذا الرأي الضعيف فان كان ذلك لما كانوا عليه من الالحاد في الدين والتعمق في
 الرافضة فليس ذلك بدافع في صدور دعوتهم وليس اثبات متسبهم بالذي يفنى عنهم من
 الله شيئا في كفرهم فقد قال تعالى لنوح عليه السلام في شأن ابنه انه ليس من أهلك
 انه عمل غير صالح فلان ما ليس لك به علم وقال صلى الله عليه وسلم لفاطمة بعظما
 يا فاطمة اعلمي فلن أغنى عنك من الله شيئا ومتى عرف امر وقضية أو استيقن أمرا
 وجب عليه أن يصدق به والله يقول الحق وهو يهدي السبيل والقوم كانوا في مجال
 لظنون الدول بهم وتحت رقبة من الطاعة لتوفر شيعتهم وانتشارهم في القاصية بدعوتهم
 وتكثر خروجهم مرة بعد أخرى فلاذت رجالهم بالاختفاء ولم يكادوا يعرفون
 كما قبل

فلونسأل الايام ما اسمي مادرت • وأين مكاني ما عرفني مكانيا

حتى لقد سعى محمد بن اسمعيل الامام جده عبيد الله المهدي بالملكوت - ثم بذلك شيعتهم
 لما اتفقوا عليه من اخفائه حذرا من المتغلبين عليهم فتوصل شبيعة بن العباس بذلك
 عند ظهورهم الى الطعن في نسبهم وازدلفوا بهذا الرأي القائل للمستضعفين من
 خلفائهم وأعجب به أولياؤهم وأمر اعدولتهم المتولون لحروبهم مع الاعداء يدفعون
 به عن أنفسهم وسلطانهم معزة العجز عن المقاومة والمدافعة لمن غلبهم على الشام ومصر
 والجزاز من البربر الكامينين شبيعة العبيديين وأهل دعوتهم - ثم حتى لقد أهمل القضاة
 بغداد بتضييقهم عن هذا النسب وشبه ذلك عندهم من اعلام الناس جماعة منهم
 الشريف الرضي وأخوه المرتضى وابن البطحاوي ومن العلماء أبو حامد الاسفرايني
 والقنطري والصمري وابن الاكفاني والابن يوردي وأبو عبد الله بن النعمان
 فقه الشيعة وغيرهم من اعلام الامة ببغداد في يوم مشهود وذلك سنة ستين وأربعمائة
 في أيام القادر وكانت شهادتهم في ذلك على السماع لما اشتهر وعرف بين الناس
 ببغداد ونحوها شبيعة بن العباس الطاعنون في هذا النسب فنقله الاخباريون كما
 سمعوه ورووه حجا وعوه والحق من ورائه وفي كتاب المعتضد في شأن عبيد الله الى
 ابن الاغلب بالقروان وابن مدرار بسجل مائة أصدق شاهد وأوضح دليل على صحة
 نسبهم فالمعتضد أقعد بنسب أهل البيت من كل أحد والدولة والسلطان سوق للعالم
 تجلب اليه بضائع العلوم والصنائع وتنافس فيه ضوال الحكم وتحمدي اليه ركائب
 الروايات والاخبار وما اتفق فيها اتفق عند الكفاية فان تنزهت الدولة عن التعسف والميل
 والافن والفسفة وسلكت النهج الامم ولم تجر عن قصد السبيل نفق في سوقها الا بريز
 الخالص والبعين المصنعي وان ذهبت مع الاغراض والحقود وما جت بسعاسة البغي
 والباطل نفق البهرج والزائف والناقد البصير قسطاس نظره وميزان بحشه وملتمسه
 (ومثل هذا) وأبعد منه كثيرا ما يتناجى به الطاعنون في نسب ادريس بن ادريس بن عبد
 الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضوان الله عليهم أجمعين الامام بعد أبيه
 بالمغرب الاقصى ويعرضون تعريض الحد بالتظن في الجهل المخلف عن ادريس الاكبر
 أنه لا راشد مولاهم فجهم الله وأبعدهم ما أجهلهم أما يعلمون أن ادريس الاكبر كان
 أصهاره في البربر وأنه منذ دخل المغرب الى أن توفاه الله عز وجل عريق في البسكو
 وأن حال البادية في مثل ذلك غير خافية اذ لا مكان لهم بتأني فيها الرب وأحوال
 حرمهم أجمعين بما رأى من جارائهم ومسمع من جيرانهم لتلاصق الجدران وتطامن
 البنيان وعدم الفواصل بين المساكن وقد كان راشدي تولى خدمة الحرم أجمع من
 بعده ولاءه بمشيد من أولياؤهم وشيعتهم ومراقبه من كافتهم وقد اتفق برابرة المغرب

الاقصى عامة على بيعة ادريس الاصغر من بعده وآتوه طاعتهم عن رضا واصفاق
 وبابعوه على الموت الاجر وخالصوا دونه بحمار المنيا في حروبه وغزواته ولو حدثوا
 أنفسهم بمنزل هذه الرية أوقرعت أسماعهم ولو من عدو كائنه أو منافق مرتاب لتصف
 عن ذلك ولو بعضهم كلا والله انما صدرت هذه الكلمات من بنى العباس أقتالهم
 ومن بنى الاغلب عمالهم كانوا بافر بقية وولاتهم وذلك انه لما قرأ ادريس الاكبر الى
 المغرب من وقعة بيج أو عز الهادي الى الاغالبه أن يقعدوا له بالمرصاد واذ كوا عليه
 العيون فلم يظفروا به وخلص الى المغرب فتم أمره وظهرت دعونه وظهر الرشيد من
 بعد ذلك على ما كان من وانح مولا هم وعاملهم على الاسكندرية من دسيبة التسيح
 لتلوية وادها في نجاة ادريس الى المغرب فقتله ودس الشماخ من موالى المهدي
 إليه للتحميل على قتل ادريس فأظهر للمعاك به والبراءة من بنى العباس مواليه فاشتمل
 عليه ادريس وخالطه بنفسه وناول الشماخ في بعض خلواته مما استهلكه ووقع
 خبره هلكه من بنى العباس أحسن المواقع لما رجوه من قطع أسباب الدعوة العلوية
 بالمغرب واقتلاع جرنومتها ولما نادى اليهم خبر الحمل المخلف لادريس فلم يكن لهم
 الاكاذولا واذا بالدعوة قد عادت والشعبة بالمغرب قد ظهرت ودولتهم بادر يس بن
 ادريس قد تجددت فكان ذلك عليهم أنسكى من وقع السهام وكان الفشل والهزم
 قد نزل بدولة الغرب عن أن يسهوا الى القاصية فلم يكن ينتهى قدرة الرشيد على ادريس
 الاكبر بمكانه من قاصية المغرب واشتمال البربر عليه الا التحيل في اهلا كه بالسوم
 فعند ذلك فرزوا الى أولياتهم من الاغالبه بافر بقية في سدة تلك الفرجة من ناحيتهم
 وحسم الداء المتوقع بالدولة من قبلهم واقتلاع تلك العروق قبل أن تشج منهم
 يخاطبهم بذلك المأمون ومن بعده من خلفائهم فكان الاغالبه عن برابرة المغرب
 الاقصى أعجز ولماها من الزبون على ملوكهم أحوج لما طرق الخلافة من انتزاع
 ممالك العجم على سدةها واستطائهم صهوة التغاب عليها ونصر يفهم أحكامها
 طوع أغراضهم في رجالها وجبايتها وأهل خططها وسائر فتنها وبراها كما قال
 شاعرهم

خليفة في قصص • بين وصيف وبغا

يقول ما قاله • كما تقول البيضا

نفشى هؤلاء الامراء الاغالبه بوادر السعايات وتلوا بالمعاذيرة طورا باحتقار المغرب
 وأهله وطورا بالارهاب بشأن ادريس الخارج به ومن قام مقامه من أعصابه
 يخاطبونهم بتجاوز حدود النجوم من ٤- له و٦- ذون سكتة في تحفهم وهذا ١٥- م

ومرتفع جباياتهم تعريضا باستخفافه وتهويلا باشتداد شوكره وتعظيما بالمادة هو اليه
 من مطالبته ومراسه وتهديدا بقلب الدعوة ان ألبوا اليه وطورا يطعنون في نسب
 ادريس يمثل ذلك الطعن الكاذب تخفيفا لشأنه لا يبالون بصدقه من كذبه لبعده
 المسافة وأفن عقول من خلف من صبية بنى العباس ومما اليكم هم العجم في القبول من
 كل قائل والسبع اكل ناعق ولم يزل هذا دأبهم حتى انتفى أمر الاغالبه ففرغت هذه
 الكلمة الشنعاء أسمع لغوغاه وصر عليها بعض الطاعنين أذنه واعتد هاذر بعه الى
 النيل من خلفهم عند المناسفة ومالهم قبحهم الله والعادل عن مقاصد الشريفة
 فلا تعارض فيها بين المقطوع والمظنون وادريس ولد على فراش أبيه والولد للفراش
 على أن تنزبه أهل البيت عن مثل هذا من عقائد أهل الايمان فانه سبحانه قد أذهب
 عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا فقراش ادريس طاهر من اللبس ومنزه عن الرجس
 بحكم القرآن ومن اعتقد خلاف هذا فقد باء بائعه وولج الكفر من بابه وانما أطنبت في
 هذا الرقعة الابواب الرب ودفعنا في صدر الحاسد لما سمعته اذ نأى من قائله المعتدى
 عليهم به القاصح في نسبهم بقرية وينقله بزعمه عن بعض مؤرخي المغرب عن الفخرف
 عن أهل البيت وارتاب في الايمان بسلفهم والافالمحل منزه عن ذلك معصوم منه وثني
 العيب حيث يستحيل العيب عيب لكني جادلت عنهم في الحياة الدنيا وأرجو
 أن يجادوا عني يوم القيامة (ولتعلم) أن أكثر الطاعنين في نسبهم انما هم الحسدة
 لاعتقاب ادريس هذا من منتم الى أهل البيت أو دخيل فيهم فان ادعاء هذا النسب
 الكريم دعوى شرف عريضة على الامم والاجيال من أهل الآفاق تعرض التهمة
 فيه ولما كان نسب بنى ادريس هؤلاء باطنهم من فاس وسائر ديار المغرب قد بلغ
 من الشهرة والوضوح مبلغا لا يكاد يلحق ولا يطمع أحد في دركه اذ هو نقل الامة
 والجيل من الخلف عن الامة والجيل من السلف وبيت جدهم ادريس محتفظ فاس
 ومؤسسها بين يوتهم ومسجده لصق محلاتهم ودر وجههم وسيفه منتضى برأس المأذنة
 العظمى من قرار بلادهم وغير ذلك من آثاره التي جاوزت أخبارها حدود التواتر
 مرات وكادت تلحق بالعبان فاذا اطرغبرهم من أهل هذا النسب الى ما آتاهم الله من
 أمثانها وما عاضد شرفهم النبوي من جلال المائت الذي كان لسلفهم بالمغرب واستيقن
 انه بعزل عن ذلك وأنه لا يبلغ مدا حدهم ولا نصيفه وأن غاية أمر المنتمين الى البيت
 الكريم من لم يحصل له أمثال هذه الشواهد أن يلم لهم حالهم لان الناس مصدقون
 في أنسابهم وبون ما بين العلم والظن واليقين والتسليم فاذا علم ذلك من نفسه غص
 بريقه وود كثير منهم ليردوهم عن شرفهم ذلك سرقة ووضعها حسدا من عند أنفسهم

يرجعون الى العناد وارتكاب اللجاج والبهت بمثل هـد! الطعن الفاتل والقول
بالتكذيب تهللاً بالمساواة في الظنة والمثابرة في تطرف الاحتمال وهيهات لهم ذلك
ليس في المغرب فيما نعلمه من أهل هذا البيت الكريم من يبلغ في صراحة نسبه
ووضوحه مبالغ أعقاب ادريس هذا من آل الحسن وكبراؤهم لهذا العهد
بنوعمران بفاس من ولد يحيى الحوطي بن محمد بن يحيى العوام بن القاسم بن ادريس
ابن ادريس وهم نقباء أهل البيت هنالك والسالكون بيت جدهم ادريس ولهم
السيادة على أهل المغرب كافة حسبما ذكرهم عند ذكر الادارة ان شاء الله تعالى
(وله الحق) بهذه المقالات الفاسدة والمذاهب الفاتلة ما يتناوله ضفة الرأي من فقهاء
المغرب من القدرح في الامام المهدي صاحب دولة الموحدين ونسبته الى الشعوذة
والتليس فيما اتاه من القيام بالتوحيد الحق والنبي على أهل البغي قبله وتكذيبهم
لجميع مدعيانه في ذلك حتى فيما يزعم الموحدون اتباعه من اتسابه في أهل البيت
وانما جعل الفقهاء على تكذيبه ما كمن في نفوسهم من حسده على شأنه فانهم لما رأوا
من أنفسهم مناهضة في العلم والفتيا وفي الدين بزعمهم ثم امتاز عنهم بأنه متبوع الرأي
سموع القول موطن العقب نفوذ ذلك عليه وغضوا منه بالقدرح في مذاهب
والتكذيب لمدعيانه وأيضاً كانوا يؤنسونه من ملوك المتونة أعدائه تجلة وكرامة لم تكن
لهم من غيرهم لما كانوا اعلميه من السذاجة واتصال الديانة فكان لجملة العلم بدولتهم
مكان من الوجاهة والانتصاب للشورى كل في بلده وعلى قدره في قومه فأصبحوا
بذلك شيعة لهم وسر بالعدوهم ونقموا على المهدي ما جاء به من خلافهم والتريب
عليهم والمناسبة لهم تشيعاً للمتونة وتعصباً لدولتهم ومكان الرجل غير مكانهم وحاله
على غير معتقداتهم وما ظنك برجل نقم على أهل الدولة ما نقم من أحوالهم وخالف
اجتهاده فقهاءهم فنادى في قومه ودعا الى جهادهم بنسبه فاقبلت الدولة من أصولها
وجعل عاليها سافلها أعظم ما كانت قوة وأشد شوكة وأعز أنصاراً وحامية رتساقت
في ذلك من أتباعه نفوس لا يخصصها الا حالتها قد يبعوه على الموت ووقوه بأنفسهم
من الهلكة وتفرقوا الى الله تعالى بالتلاف مهجهم في اظهار تلك الدعوة والنصب
اتلك الكلمة حتى علت على الكلم ودالت بالعدوتين من الدول وهو بحالة من
التعسف والحصر والصبر على المكاره والتقليل من الدنيا حتى قبضه الله وليس على
شي من الخلف والمتاع في دنياه حتى الولد الذي ربما يخرج اليه النفوس وتخادع عن
غيبه فليت شعري ما الذي قصه بذلك ان لم يكن وجه الله وهو لم يحصل له حظ من
الدنيا في عاجله ومع هذا لو كان تصده غير صالح لما تم أمره وانفسحت دعونه سنة الله

التي قد خلت في عبادته (وأما) انكارهم نسبة في أهل البيت فلا تعضده جملة لهم مع
 انه ان ثبت أنه ادعاه واتدب اليه فلا دليل يقوم على بطلانه لان الناس مصدقون
 في أنسابهم وان قالوا ان الرياسة لا تكون على قوم في غير أهل جلدهم كما هو الصحيح
 حسب ما بقى في الفصل الاوّل من هذا الكتاب والرجل قد رأس سائر المصامدة ودانوا
 باتباعه والالتقياد اليه والى عصابته من هرغة حتى تم أمر الله في دعوته فاعلم أن هذا
 النسب الفاطمي لم يكن أمر المهدي يتوقف عليه ولا تبعه الناس بسببه وانما كان
 اتباعهم له بعصية الهرغية والمصمودية ومكانه منها ورسوخ شجرته فيها وكان ذلك
 النسب الفاطمي خفيا قد درس عند الناس وبقى عنده وعند عشيرته يتناقلونه بينهم
 فيكون النسب الاوّل كأنه انسلخ منه ولبس جلدة هؤلاء وظهر فيها فلا يضره
 الاتسباب الاوّل في عصيته اذ هو مجهول عند أهل العصاية ومثل هذا واقع كثيرا اذ
 كان النسب الاوّل خفيا (وانظر) قصة عرّفة وجرير في رياسة بجيلة وكيف كان
 عرّفة من الازد ولبس جلدة بجيلة حتى تنازع مع جرير رياستهم عند عمر رضى الله عنه
 كما هو مذكور تفهم منه وجه الحق والله الهادي للصواب (وقد) كدنا أن نخرج عن
 غرض الكتاب بالاطناب في هذه المغالط فقد زلت أقدام كثير من الاثبات والمؤرخين
 الحفاظ في مثل هذه الاحاديث والآراء وعلقت بأفكارهم ونقلها عنهم الكفاية من
 ضعف النظر والغفلة عن القياس وتلقوها هم أيضا كذلك من غير بحث ولا روية
 واندرجت في محفوظاتهم حتى صار فن التاريخ واهيا مختلطا وناظره مرتسكا وعدت
 من مناحي العامة فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى تعلم بقواعد السياسة وطبائع
 الموجودات واختلاف الامم والبقاع والاعصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل
 والمذاهب وسائر الاحوال والاحاطة بالحاضر من ذلك ومماثلة ما بينه وبين الغائب
 من الوفاق أو بون ما بينهما من الخلاف وتعليل المتفق منها والمختلف والقيام على
 أصول الدول والممال ومبادئ ظهورها وأسباب حدودها ودواعي كونها واحوال
 القائم بها وأخبارهم حتى يكون مستوعبا لاسباب كل حادث واقفا على أصول كل
 خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ما عنده من القواعد والاصول فان وافقها
 وجرى على مقتضاها كان صحيحا والازيفه واستغنى عنه وما استكبر القصد ما علم
 التاريخ الا لذلك حتى اتعنه الطبري والبخاري وابن اسحق من قبلهما وأمثالهم من
 علماء الامة وقد ذهل الكثير عن هذا السرفية حتى صار اتعاله مجهولة واستخف
 العوام ومن لا رسوخ له في المعارف مطالعته وحمله والخوض فيه والتطفل عليه
 فاختلط المرعى بالهمل واللباب بالقشر والصادق بالكاذب والى انه عاقبة الامور

(ومن الغلط) الخلق في التاريخ الذهول عن تبدل الاحوال في الامم والاجيال بتبدل الاعصار وروم والايام وهو داء دوى شديد الخفاء اذ لا يقع الا بعد احقاب متطاولة فلا يكاد يتفطن له الا الاحاد من اهل الخليفة (وذلك) ان احوال العالم والامم وعواندهم ونحلهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر انما هو اختلاف على الايام والازمنة وانتقال من حال الى حال وكما يكون ذلك في الاشخاص والاوقات والامصار فكذلك يقع في الآفاق والاقطار والازمنة والدول سنة الله التي قد دخلت في عبادته وقد كانت في العالم أمم الفرس الاولى والسر يانيون والنبط والنبابعة وبنو اسرائيل والقبط وكانوا على احوال خاصة بهم في دولهم وممالكهم وسياساتهم وصنائعهم وانعامهم واصطلاحاتهم وسائر مشاركاتهم مع ابناء جنسهم واهوال اعتمارهم للعالم تشهد بها آثارهم ثم جاء من بعدهم الفرس الثانية والروم والعرب فتبدلت تلك الاحوال وانقلبت بهم العوائد الى ما يجانسها ويشابهها والى ما يباينها أو يباينها ثم جاء الاسلام بدولة مضر فأنقلبت تلك الاحوال أجمع انقلاباً أخرى وصارت الى ما أكثر متعارف لهذا العهد ياخذ الخلف عن السلف ثم درست دولة العرب وأيامهم وذهبت الاسلاف الذين شيدوا وعزهم ومهدوا وملكهم وصار الامر في أيدي سواهم من العجم مثل الترك بالشرق والبربر بالمغرب والفرنجة بالشمال فذهبت بدهابهم أمم وانقلبت احوال وعوائد نسي شأنها واغفل أمرها (والسبب) الشائع في تبدل الاحوال والعوائد أن عوائد كل جيل تابعة لعوائد سلطانه كما يقال في الامثال الحكيمية الناس على دين الملك وأهل الملك والسلطان اذا استولوا على الدولة والامر فلا بد وأن يفزعوا الى عوائد من قبلهم ويأخذوا الكثير منها ولا يغفلوا عوائد جيلهم مع ذلك فيقع في عوائد الدولة بعض المخالفة لعوائد الجيل الأول فاذا جاءت دولة أخرى من بعدهم ومنزجت من عوائدهم وعوائد خالفت أيضاً بعض الشيء وكانت الاولى أشد مخالفة ثم لا يزال التدرج في المخالفة حتى ينتهي الى المباينة بالجملة فمادامت الامم والاجيال تتعاقب في الملك والسلطان لا تزال المخالفة في العوائد والاحوال واقعة والقياس والمحاكاة للانسان طبيعة معروفة ومن الغلط غير ما مونة تتخرج مع الذهول والغفلة عن قصده وتعوج به عن صرامه فربما يسمع السامع كثيراً من اخبار الماضين ولا يتفطن لما وقع من تغير الاحوال وانقلابها فيجبر بها الآول وهله على ما عرف ويقسمها بما شهد وقد يكون الفرق بينهما كثيراً فيقع في مهواة من الغلط (فمن هذا الباب) ما يتقله المؤرخون من احوال الحجاج وأن أباه كان من المعلمين مع أن التعليم لهذا العهد من جملة الصنائع

المعاشية البعيدة من اعتزاز أهل العصبية والمعلم المستضعف مسكين منقطع الخدم
فتشرف الكثير من المستضعفين أهل الحرف والصنائع المعاشية إلى نيل الرتب التي
ليسوا لها بأهل ويعتدونها من الممكّنات لهم فتذهب بهم وساوس المطامع وربما انقطع
حبها من أيديهم فسقطوا في مهوأة الهلكة والتاف ولا يعلمون استحالتها في حقهم
وأنهم أهل حرف وصنائع للمعاش وأن التعليم صدر الإسلام والدولتين لم يكن كذلك
ولم يكن العلم بالجملة صناعة إنما كان نقلا لما سمع من الشارع وتعلما لما جهل من
الذين على جهة البلاغ فكان أهل الانساب والعصبية الذين قاموا بالله هم الذين
يعلمون كتاب الله ودينه نبيه صلى الله عليه وسلم على معنى التبليغ الخبرى الأعلى وجه
التعليم الصناعي اذ هو كتابهم المنزل على الرسول منهم وبه هداياتهم والإسلام دينهم
قاتلوا عليه وقتلوا واختصوا به من بين الأمم وشرفوا فيحرصون على تبليغ ذلك
وتفهيمه للأمة لاتصددهم عنه لأئمة الكبر ولا يزعهم عادل الاثمة ويشهد لذلك بعث
النبي صلى الله عليه وسلم بكبار أصحابه مع وفود العرب يعلمونهم حدود الإسلام وما جاء به
من شرائع الدين بعث في ذلك من أصحابه العشرة فمن بعدهم فلما استقر الإسلام
ووثجت عروق الأمة حتى تناوواها الأمم البعيدة من أيدي أهلها واستحالت بمرور الأيام
أحوالها وكثرت منبئات الأحكام الشرعية من النصوص لتعدد الوقائع وتلاحقها
فاحتاج ذلك لقانون يحفظه من الخطا وصار العلم ملكة يحتاج إلى التعلم فأصبح من
جملة الصنائع والحرف كما يأتي ذكره في فصل العلم والتعليم واشتغل أهل العصبية
بالقيام بالملك والسلطان فدفع للعلم من قام به من سواهم وأصبح حرفة للمعاش
وشمخت أنوف المترفين وأهل السلطان عن التصدي للتعليم واخص اتصاله
بالمستضعفين وصار منجمله محقرا عند أهل العصبية والملك والحجاج بن يوسف كان
أبوه من سادات ثقف وأشرافهم ومكانهم من عصبية العرب ومناهضة قريش في
الشرف ما علمت ولم يكن تعليمه للقرآن على ما هو الأمر عليه لهذا العهد من أنه حرفة
للمعاش وإنما كان على ما وصفناه من الأمر الأول في الإسلام (وذكر هذا الباب)
أيضا ما يتوهمه المتصفعون لكاتب التاريخ اذا سمعوا أحوال القضاة وما كانوا عليه
من الرياسة في الحروب وقود العساكر فتراهم بهم وساوس الهمم إلى مثل تلك
الرتب يحسبون أن المشان في خطة القضاء لهذا العهد على ما كان عليه من قبل
ويظنون بأن أبي عامر صاحب هشام المستبد عليه وابن عباد من ملوك الطوائف
باشيلية اذا سمعوا أن آباءهم كانوا قضاة أنهم مثل القضاة لهذا العهد ولا يتفطنون لما
وقع في رتبة القضاء من مخالفة العوائد كما بينه في فصل القضاء من الكتاب الأول

وابن أبي عامر وابن عباد كانا من قبائل العرب القاطنين بالدولة الاموية بالاندلس وأهل
عصبتها وكان مكانهم فيها معلوما ولم يكن ينلهم لما تأوه من الرياسة والملك بخطه القضاء
كما هي لهذا العهد بل انما كان القضاء في الامر القديم لاهل العصبة من قبيل الدولة
ومواليها كما هي الوزارة لعهدنا بالمغرب وانظر خروجهم بالعساكر في الطوائف
وتقليدهم عظام الامور التي لا تقلد الا لمن له الغنى فيها بالعصبة فيغلط السامع في
ذلك ويحمل الاحوال على غير ما هي وأكثرا يقع في هذا المثلط ضعفاء البصائر من
أهل الاندلس لهذا العهد لفقدان العصبة في مواطنهم منذ أعمار بعيدة لفناء العرب
ودولتهم بها وخروجهم عن ملكة أهل العصبية من البر ببقية أنسابهم العربية
محفوفة والذريعة الى العزم من العصبة والتناصر مفقودة بل صاروا من جملة الرعايا
المتخاذلين الذين تعبدتهم القهروورثوا الممذلة يحسبون ان أنسابهم مع مخالطة الدولة
هي التي يكون لهم بها الغلب والتحكيم فجدد أهل الحرف والصنائع منهم متصددين
لذلك ساعين في نيته فأما من باشر أحوال القبائل والعصبة ودولهم بالعدوة الغربية
وكيف يكون التغلب بين الامم والعشائر فتعلموا يغلطون في ذلك ويخطئون في اعتباره
(ومن هذا الباب) أيضا ما يسلكه المؤرخون عند ذكر الدول ونسب ملوكها فيذكرون
اسمه ونسبه وأباه وأمه ونسبه ولقبه وخاتمه وقاضيه وحاجبه ووزيره كل ذلك تقليد
لمؤرخي الدولتين من غير تنظير لمقاصدهم والمؤرخون لذلك العهد كانوا يضعون
تواريخهم لاهل الدولة وأبناءها منشوفون الى سير أسلافهم ومعرفة أحوالهم ليقتفوا
آثارهم وينسجوا على منوالهم حتى في اصطناع الرجال من خلف دولتهم وتقليد الخطط
والمراتب لآباء صنائعهم وذويهم والقضاة أيضا كانوا من أهل عصبة الدولة وفي
عداد الوزراء كما ذكرناه لك فيحتاجون الى ذلك كله وأما حين تباينت الدول
وتباعد ما بين العصور ووقف الغرض على معرفة الملوك بأنفسهم خاصة ونسب الدول
بعضها من بعض في قوتها وغلبتها ومن كان يناهضها من الامم أو يقصر عنها فما الفائدة
للمصنف في هذا العهد في ذكر الابناء والنساء ونقش الخاتم واللقب والقاضي والوزير
والحاجب من دولة قديمة لا يعرف فيها أصولهم ولا أنسابهم ولا مقاماتهم انما جعلهم على
ذلك التقليد والغفلة عن مقاصد المؤلفين الاقدمين والذهول عن تحري الاغراض
من التاريخ اللهم الا ذكر الوزراء الذين عظمت آثارهم وعفت على الملوك أخبارهم
كالجراح وبني المهلب والبرامكة وبني سهيل بن نوبخت وكافور الاخشيدى وابن أبي عامر
وأمثالهم فغير تكثير اللماع بآبائهم والاشارة الى أحوالهم لا تنظامهم في عداد الملوك
(ولتذكر) هنا فائدة تفتختم كلامنا في هذا الفصل به او هي أن التاريخ انما هو ذكر

الاخبار الخاصة بعصر أو جيل (فاما) ذكر الاحوال العامة للاتفاق والاجيال
 والاعصار فهو أس للمؤرخ تبني عليه أكثره مقاصده وتبين به أخباره وقد كان الناس
 يوردونه بالتأليف كما فعله المسعودي في كتاب مروج الذهب شرح فيه أحوال الامم
 والاتفاق لعهد في عصر الثلاثين والثلاثمائة غربا وشرقا وذكر نحلهم وعوائدهم
 ووصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول وفرق شعوب العرب والعجم فصار
 اما للمؤرخين يرجعون اليه وأصلا يعولون في تحقيق الكثير من أخبارهم
 عليه ثم جاء البكري من بعده ففعل مثل ذلك في المسالك والممالك خاصة دون غيرها
 من الاحوال لان الامم والاجيال لعهد لم يقع فيها كثيرا انتقال ولا عظيم تغير وأما هذا
 العهد وهو آخر المائة الثامنة فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه وتبدلت
 بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهل على القدم بمن طرأ فيه من لدن المائة الخامسة
 من أجيال العرب بما كسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الاوطان وشاركوهم فيما
 بقي من البلدان لملكهم هذا الى ما نزل بالعمران شرقا وغربا في منتصف هذه المائة
 الثامنة من الطاعون الجارف الذي نحيف الامم وذهب بأهل الجبل وطوى كثيرا من
 محاسن العمران ومحاها وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص
 من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت الى التلاشي والاضمحلال
 أحوالها وانتقص عمران الارض بانتقاص البشر فخربت الامصار والمصانع ودرست
 السبل والمعالم وختل الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن
 وكأني بالمشرق قد نزل بمثل ما نزل بالمغرب لكن على نسبه ومقدار عمران
 وكأني نادى لسان الكون في العالم بالجنول والانتباض فيبادر بالاجابة والله وارث
 الارض ومن عليها واذا تبدلت الاحوال جملتها فكأنما تبدل الخلق من أصله وتحوّل
 العالم بأسره وكأني خلق جديد ونشأة مستأنفة وعالم محدث فاحتاج لهذا العهد من
 يدون أحوال الخليفة والاتفاق وأجباها والعوائد والنحل التي تبدلت لأهلها ويقضو
 مسلك المسعودي لعصره ليكون أصلا يقتدى به من يأتي من المؤرخين من بعده
 (وأنا ذكر في كتابي) هذا ما أمكنني منه في هذا القطر المغربي اما صريحا أو مندرجا في
 أخباره وتلويحا لاختصاص قصدي في التأليف بالمغرب وأحوال أجياله وأعمه وذكر
 عمالكه ودوله دون ما سواه من الاقطار لعدم اطلاعي على أحوال المشرق وأعمه وان
 الاخبار المتناقلة لا توفي كنه ما أريده منه والمسعودي انما استوفى ذلك بعد رحلته
 وتقلبه في البلاد كما ذكر في كتابه مع أنه لما ذكر المغرب قصر في استيفاء أحواله وفوق كل
 ذي علم عليهم ومن ذالهم كله الى الله والبشر عاجز قاصر والاعتراف متعين واجب ومن

كان الله في عونته يسرت عليه المذاهب وأنجحت له المساعي والمطالب (ونحن)
 آخذون بعون الله فيما رماه من أغراض التأليف والله المسدد والمعين وعليه التكلان
 (وقد) بقى علينا أن نقدم مقدمة في كيفية وضع الحروف التي ليست من لغات
 العرب إذا عرضت في كتابنا هذا (اعلم) أن الحروف في النطق كما يأتي شرحه بعد
 هي كيفية الأصوات الخارجة من الخنجرة تعرض من تقطيع الصوت بقرع اللهاة
 وإطراف اللسان مع الحنك والخلق والاضراس أو بقرع الشفتين أيضا فتتغير
 كيفية الأصوات بتغير ذلك القرع وتجي الحروف متميزة في السمع وتتركب
 منها الكلمات الدالة على ما في الضمائر وليست الأمم كلها متساوية في النطق بتلك
 الحروف فتد يكون لأمة من الحروف ما ليس لأمة أخرى والحروف التي نطقت بها
 العرب هي ثمانية وعشرون حرفا كما عرفت ونجد للعبرانيين حروفا ليست في لغتنا وفي
 لغتنا أيضا حروف ليست في لغتهم وكذلك الأفرنج والترك والبربر وغير هؤلاء من
 العجم ثم إن أهل الكتاب من العرب اصطلموا في الدلالة على حروفهم المسموعة بأوضاع
 حروف مكتوبة متميزة بأشخاصها كوضع ألف وباء وجم وراء وطاء إلى آخر
 الثمانية والعشرين وإذا عرض لهم الحرف الذي ليس من حروف لغتهم بقى مهمل عن
 الدلالة الكتابية مفضلا عن البيان وربما رسمه بعض الكتاب بشكل الحرف الذي
 يليه من لغتنا قبله أو بعده وليس ذلك بكاف في الدلالة بل هو تغير للحرف من أصله
 (ولما) كان كتابنا مشتملا على أخبار البربر وبعض العجم وكانت تعرض لنا في أسمائهم
 أو بعض كلماتهم حروف ليست من لغة كتابتنا ولا اصطلاح أوضاعنا اضطررنا إلى بيانه
 ولم نكتف برسم الحرف الذي يليه كما قلناه لأنه عندنا غير وافي بالدلالة عليه
 فاصطلت في كتابي هذا على أن أضع ذلك الحرف العجمي بمليد على الحرفين اللذين
 يكتفانه ليتوسط القارئ بالنطق به بين مخرجي ذين الحرفين فتصل تأديته وانما
 اقتبست ذلك من رسم أهل المصحف حروف الأشمام كالصراط في قراءة خلف فان
 النطق بصاده فيها معجم متوسط بين الصاد والزاي فوضعوا الصاد ورسموا في داخلها
 شكل الزاي ودل ذلك عندهم على التوسط بين الحرفين فكذلك رسمت أنا كل
 حرف يتوسط بين حرفين من حروفنا كالكاف المتوسطة عند البربر بين الكاف
 الصريحة عندنا والجيم أو القاف مثل اسم بلكين فأضعها كافا وأنقطها بنقطة الجيم
 واحدة من أسفل أو بنقطة القاف واحدة من فوق أو ثنتين فيدل ذلك على أنه متوسط
 بين الكاف والجيم أو القاف وهذا الحرف أكثر ما يجي في لغة البربر وما جاء من
 غيره فعلى هذا القياس أضع الحرف المتوسط بين حرفين من لغتنا بالحرفين مع العلم

القارى أنه متوسط فينطق به كذلك فيكون قد دللنا عليه ولو وضعناه برسم الحرف الواحد عن جانبه لكافد صرفناه من مخرجه الى مخرج الحرف الذى من لغتنا وغيرنا لغة القوم فاعلم ذلك والله الموفق للصواب بحنه وفضله

الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليفة وما يمرض فيها من الابدو والمخرو والتغلب
والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من الغل والاسباب

(اعلم) أنه لما كانت حقيقة التاريخ أنه خبر عن الاجتماع الانسانى الذى هو عمران العالم وما يمرض ابطيعة ذلك العمران من الاحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض وما ينشأ عن ذلك من الملك والدول ومراتبها وما يتعمده البشر باعمالهم ومسايعهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث في ذلك العمران بطبيعته من الاحوال (ولما كان) الكذب منظر فالخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التعميص والنظر حتى تبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأى أو نخلة قبلت ما يوافقها من الاخبار لا قول وهله وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الاتقاده والتعميص فتقع في قبول الكذب ونقله (ومن الاسباب) المقتضية للكذب في الاخبار أيضا الثقة بالناقلين وتعميص ذلك يرجع الى التعديل والتجريح (ومنها) الذهول عن المقاصد فكثير من الناقلين لا يعرف ان قصد جماعين أو سمع وينقل الخبر على ما في ظنه وتخمينه فيقع في الكذب (ومنها) توهم الصدق وهو كثير وانما يجي في الاكثر من جهة الثقة بالناقلين (ومنها) الجهل بتطبيق الاحوال على الوقائع لاجل ما يداخلها من التليس والتصنع في نقلها الخبر كما رآها وهي بالتصنع على غير الحق في نفسه (ومنها) تقرب الناس في الاجبكثر لاصحاب النجدة والتراتب بالثناء والمدح وتحسين الاحوال واشاعة الذكر بذلك فيستفيض الاخبار بهما على غير حقيقة فالنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاعون الى الدنيا واسبابها من جاء أو ثروة وايسوا في الاكثر براغمين في الفضائل ولا متنافسين في أهلها (ومن الاسباب) المستفضية له أيضا وهي سابقة على جميع ما تقدم الجهل بطبائع الاحوال في العمران فان كل حادث من الحوادث ذاتا كان أو فعلا لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله فاذا كان السامع عارفا بطبائع الحوادث والاحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تعميص الخبر على تمييز الصدق من الكذب وهذا

أبلغ في التصحيح من كل وجه بعرض وكثيرا ما بعرض للسامعين قبول الاخبار
المتصلة وينقلونها وتؤثر عنهم كما نقله المسعودي عن الاسكندر لما صدته دواب البحر
عن بناء الاسكندرية وكيف اتخذت ابوت الخشب وفي باطنه صندوق الزجاج ونحاس
فيه الى قعر البحر حتى كتب صور تلك الدواب الشيطانية التي رآها وعمل تماثيلها من
أجساد معدنية ونصبها حذاء البنيان ففرت تلك الدواب حين خرجت وعمايتها وتم له
بناءؤها في حكاية طويلة من أحاديث خرافة مستحيلة من قبل اتخاذ التابوت
الزجاجي ومصادمة البحر وأما وجه بجرمه ومن قبل ان الملوك لا تحمل أنفسهم على
مثل هذا الغرور من اعتمده منهم فقد عرض نفسه للهلكة وانتفاض العقدة واجتماع
الناس الى غيره وفي ذلك اتلافه ولا ينتظرون به رجوعه من غروره ذلك طرفه عين ومن
قبل ان الجن لا يعرف لها صور ولا تماثيل تختص بها انما هي قادرة على التشكل وما
يذكر من كثرة الرؤس لها فانما المراد به البشاعة والتهويل لانه حقيقة (وهذه) كلها
قادحة في تلك الحكاية والقادح المحيل لها من طريق الوجود ابين من هذا كله وهو
ان المنعصر في الماء ولو كان في الصندوق يضيق عليه الهواء لتنفس الطبيعي وتضيق
روحه بسرعة تقلبه فيفقد صاحبه الهواء البارد المعدل لمزاج الرئة والروح القلبي
ويهلك مكانه وهذا هو السبب في هلاك أهل الحمامات اذا طبقت عليهم عن الهواء
البارد والمتدليز في الآبار والمطامير العميقة المهوي اذا سخن هواها بالعفونة ولم
تدخلها الرياح فتخلطها فان المتدلي فيها يهلك لحينه وبهذا السبب يكون موت الخوت
اذا فارق البحر فان الهواء لا يكفيه في تعديل رئته اذ هو حار بافراط والماء الذي
يعتله بارد والهواء الذي خرج اليه حار فيستولى الحار على روح الحيواني ويهلك
دفعه ومنه هلاك المصعوقين وأمثال ذلك (ومن الاخبار) المتصلة ما نقله
المسعودي أيضا في شمال الزرور الذي برومة تجتمع اليه الزرور في يوم معلوم من
السنة حاملة لازيتون ومنه يتخذون زيتهم واقطر ما أبعده ذلك عن الجري الطبيعي في
اتخاذ الزيت (ومنها) ما نقله البكري في بناء المدينة المسماة ذات الابواب تحيط
بأكثر من ثلاثين مرحلة وتشتغل على عشرة آلاف باب والمدن انما اتخذت للتحصن
والاعتصام كما يأتي وهذه خرجت عن ان يحاط بها فلا يكون فيها حصن ولا معتصم وكما
نقله المسعودي أيضا في حديث مدينة النحاس وانها مدينة كل بنائها نحاس بطحاء
مجلسه نقر بها موسى بن نصير في غزوته الى المغرب وانها مغلقة الابواب وان
الضاعد اليها من أسوارها اذا أشرف على الحائط صفق ورى بنفسه فلا يرجع آخر
الدهر في حديث مستحيل عادة من خرافات القصاص وصحراء جلامسة قد نفضها

الركاب والادلاء ولم يقفوا هذه المدينة على خبر ثم ان هذه الاحوال التي ذكرواعنها
كلها مستحيل عادة منافع الامور الطبيعية في بناء المدن واختطاطها وان المعادن غاية
الموجود منها أن بصرف في الآنية والخيرى وأما تشييد مدينة منها فكما تراه من
الاستحالة واللبعد وأمثال ذلك كثير وتخصه انما هو بمعرفة طبائع العمران وهو
أحسن الوجوه وأوثقها في تميمص الاخبار وتميز مدقها من كذبا وهو سابق على
التخصيص بتعديل الرواة ولا يرجع الى تعديل الرواة حتى يعلم ان ذلك الخبر في نفسه
ممكن أو ممنوع وأما اذا كان مستحيلا فلا فائدة للنظر في التعديل والتجريح ولقد عد
أهل النظر من المطاعن في الخبر استحالة مدلول اللنظ وتأويله أن يؤول بما لا يقبله
العقل وانما كان التعديل والتجريح هو المعترف في صحة الاخبار الشرعية لان
معظمها تكاليف انشائية أوجب الشارع العمل بها حتى حصل الظن بصدقها
وسيل صحة الظن الثقة بالرواة بالعدالة والضبط (وأما الاخبار) عن الواقعات فلا بد
في صدقها وصحتها من اعتبار المطابقة فذلك وجب أن ينظر في امكان وقوعه وصار
فيها ذلك أهم من التعديل ومقدما عليه اذ فائدة الانشاء تتبسه منه فقط وفائدة
الخبر منه ومن الخارج بالمطابقة واذا كان ذلك فالقانون في تميز الحق من الباطل في
الاخبار بالامكان والاستحالة أن تنظر في الاجتماع البشرى الذي هو العمران وغير
ما يلحقه من الاحوال لذاته ويتقتضى طبعه وما يكون عارضا لا يعتد به وما لا يمكن أن
يعرض له واذا فعلنا ذلك كان ذلك لنا فانونا في تميز الحق من الباطل في الاخبار والصدق
من الكذب بوجه برهاني لا مدخل للشك فيه وحينئذ اذا معناه عن شئ من الاحوال
الواقعة في العمران علمنا ما نحكم بتسوله مما نحكم بتزييفه وكان ذلك لنا معيارا صحيحا
يتحرى به المؤرخون طريق الصدق والصواب فيما نقلونه وهذا هو غرض هذا
الكتاب الاول من تأليفنا وكان هذا علم مستقل بنفسه فانه ذو موضوع وهو العمران
البشرى والاجتماع الانساني وذو مسائل وهي بيان ما ينحصر من العوارض
والاحوال لذاته واحده بعد اخرى وهذا شأن كل علم من العلوم رصعا كذا وعقليا
(واعلم) ان الكلام في هذا الغرض - - تحدث الصنعة غريب النزعة عزيز
لفائدة اعتر عليه البهت وأذى اليه القوس وايسر من علم الخطابة الذي هو أحد
العلوم المنطقية فان موضوع الخطابة انما هو الاقوال المقلعة النافعة في استئالة
لجمهور الى رأى أو صدقهم عنه ولا هو ايضا من علم السياسة المدنية اذ السياسة المدنية
هي تدبير المنزل أو المدينة بما يجب بتقتضى الاخلاق والحكمة ليحمل الجمهور على
نجاح يكون فيه حفظ النوع وبقاؤه فقد خالف موضوعه موضوع هذين الفنين الذين

وبما يشبهانه وكأني علم مستنبط النشأة ولعمري لم أفت على الكلام في خفاء لاحد من
 الخليفة ما أدري لغفلتهم عن ذلك وليس الظن بهم أو لعلمهم كتبوا في هذا الغرض
 واستوفوه ولم يصل البناء العلوم صك كثيرة والحكمة في أمم النوع الانساني متقدون
 وما يصل البناء العلوم أكثر مما وصل فأين علوم القرض التي أمر عمر رضي الله
 عنه بمحوها عند الفتح وأين علوم الكلدانيين والسريانيين وأهل بابل وما ظهر عليهم
 من آثارها وتآخفها وأين علوم القبط ومن قبلهم وانما وصل البناء علوم أمة واحدة
 وهم يونان خاصة لكلف المأمون باخراجها من لغتهم واقتداره على ذلك بكثرة المترجمين
 وبذل الاموال فيها ولم تقف على شيء من علوم غيرهم واذا صك كانت كل حقيقة متعلقة
 طبيعية يصلح أن يبحث عما يعرض لها من العوارض لذاتها وجب أن يكون باعتبار
 كل مفهوم وحقيقة علم من العلوم يخصه لئلا يمكن الحكماء لعلمهم انما لاحظوا في ذلك
 العناية بالثمرات وهذا التماخر في الاخبار فقط كما رأيت وان كانت مسائله في ذاتها
 وفي اختصاصها شريفة لكن ثمرته تصحيح الاخبار وهي ضعيفة فلها هذا هجره والله أعلم
 وما أوتيتم من العلم الا قليلا (وهذا الفن) الذي لاح لنا النظر فيه نجد منه مسائل
 تجري بالعرض لاهل العلوم في براهين علومهم وهي من جنس مسائله بالموضوع
 والطلب مثل ما يذكره الحكماء والعلماء في اثبات النبوة من أن البشر متعاونون في
 وجودهم فيحتاجون فيه الى الحاكم والوازع وممثل ما يذكر في أصول الفقه في باب
 اثبات اللغات أن الناس يحتاجون الى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون
 والاجتماع وتبيان العبارات أخف ومثل ما يذكره الفقهاء في تعليل الاحكام الشرعية
 بالمقاصد في أن الزنا مخلط للانساب فسد للنوع وأن القتل أيضا مفسد للنوع وان
 الظلم مؤذن بخراب العمران المفضي لفساد النوع وغير ذلك من سائر المقاصد
 الشرعية في الاحكام فانها كلها مبنية على المحافظة على العمران فكان لها النظر فيما
 يعرض له وهو ظاهر من كلامنا هذا في هذه المسائل المثلة (وكذلك) أيضا يقع البناء
 القليل من مسائله في كلمات متفرقة لحكماء الخليفة لكنهم لم يستوفوه (فن كلام)
 الموبدان بهرام بن بهرام في حكاية اليوم التي نقلها المسعودي أيها الملك ان الملك لا يتم
 عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيه ولا قوام للشريعة
 الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة
 ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ونصبه الرب وجعل
 له قيبا وهو الملك (ومن كلام أنوشروان) في هذا المعنى بعينه الملك بالجند والجند
 بالمال والمال بالخراج والخراج بالعمارة والعمارة بالعدل والعدل بالصلاح العمال

واصلاح العمال باستقامة الوزراء . ورأس الكل باقتفاد الملك حال رعيته بنفسه
 واقصداره على تأديها حتى يملكها ولا تملكه (وفي الكتاب) المتسوب لارسطو في
 السياسة المتداول بين الناس جز مصالغ منه الا أنه غير مستوفى ولا معطى حقه من
 البراهين ومختلط بغيره وقد أشار في ذلك الكتاب الى هذه الكلمات التي نقلناها عن
 الموبدان وأنوشروان وجعلها في الدائرة القريبة التي أعظم القول فيها وهو قوله
 العالم بستان سباجه الدولة الدولة سلطان تحببه السنة السنة سياسة يسودها الملك
 الملك نظام بعضده الجند الجند أعوان يكفلهم المال المال رزق نجومه مع الرعية
 الرعية عبيد يكتفهم العدل العدل مألوف وبه قوام العالم العالم بستان ثم ترجع الى
 أول الكلام فهذه ثمان كلمات حكيمه سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتدت
 أعجازها على صدورها وانصلت في دائرة لا يتعين طرفها فخر بعنودها وعظم من
 فوائدها وأنت اذا تأملت كلامنا في فصل الدول والملك وأعطينه حقه من
 التصفح والتفهم عثرت في أثناءه على تفسير هذه الكلمات وتفصيل اجمالها مستوفى
 بنا بأوضح بيان وأوضح دليل وبرهان أطلعنا الله عليه من غير تعليم ارسطو ولا افادة
 موبدان وكذلك تجد في كلام ابن المقفع وما يستطرد في رسائله من ذكر السياسات
 الكثير من مسائل كتابنا هذا غير مبرهنة كما برهننا انما يجلبها في الذكر على منحي
 الخطابة في أسلوب الترسل وبلاغة الكلام وكذلك حوتم القاضي أبو بكر
 الطرطوشي في كتاب سراج الملوك وبؤبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا
 ومسائله لكنه لم يصادف فيه الرمية ولا أصاب الشاكلة ولا استوفى المسائل
 ولا أوضح الأدلة انما يتوب الباب للمسئلة ثم يستكثر من الاحاديث والآثار
 وينقل كلمات متفرقة كما قال فرس مثل بزرجهر والموبدان وحكام الهند والمأثور
 عن دانيال وهرمس وغيرهم من أكابر الخليفة ولا يكشف عن التحقيق قناعا
 ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاب انما هو نقل وترغيب شبيهة بالمواعظ وكانه حوتم على
 الغرض ولم يصادفه ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله ونحن ألهنا الله الى ذلك الهاما
 وأعترنا على علم جعلنا بين بكره وجهينة خبره فان كنت قد استوفيت مسائله وميزت
 عن سائر الصنائع أنظاره وأنحاءه فتوفيق من الله وهداية وان فاتني شيء في احصائه
 واشتبهت بغيره مسائله فللناظر المحقق اصلاحه ولي الفضل لاني تمجيت له السبيل
 وأوضحت له الطريق والله يهدي بنوره من يشاء (ونحن) الآن نبين في هذا الكتاب
 ما يعرض للبشر في اجتماعهم من أحوال العمران في الملك والكسب والعلوم
 والصنائع بوجوه برهانية ينضح بها المحقق في معارف الخاصة والعامه وتدفع

بها الاوهام وترفع الشكوك (ونقول) لما كان الانسان متعززا عن سائر الحيوانات
بمخوَص اختصاص بها ففيها العلوم والصناعات التي هي نتيجة الفكر الذي تمزجه عن
الحيوانات وشرف بوصفه على المخلوقات ومنها الحاجة الى الحكم الوازع والى لطفان
التأهر اذ لا يمكن وجوده دون ذلك من بين الحيوانات كلها الا ما يقال عن النمل
والجراد وهذه وان كان لها مثل ذلك فبطريق الهامى لا يفكر روية ومنها السهي
في المعاش والاعمال في تحصيله من وجوهه واكتساب أسبابه لما جعل الله فيه من
الافتقار الى الغذاء في حياته وبقائه وهداه الى التماسه وطلبه قال تعالى أعطى كل
شيء خلقه ثم هدى ومنها العمران وهو اتساكن والتنازل في مصر أو حله ثلاثين
بالعشر واقضاء الحاجات لما في طباعهم من التعاون على المعاش كما نبينه ومن هذا
العمران ما يكون بدويا وهو الذي يكون في الضواحي وفي الجبال وفي الحلال المنتجة
في القفار وأطراف الرمان ومنه ما يكون حصريا وهو الذي بالامصار والقرى والمدن
والمداثر لا يتصام بها والتحصن بجدرانها وله في كل هذه الاحوال أمور تعرض
من حيث الاجتماع عروضاً اتياله فلا جرم انحصر الكلام في هذا الكتاب في ستة
فصول (الاول) في العمران البشري على الجملة وأصنافه وقسطه من الارض
(والثاني) في العمران البدوي وذكر القبائل والامم الوحشية (والثالث) في
الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية (والرابع) في العمران الحضري
والبلدان والامصار (والخامس) في الصناعات والمعاش والكسب ووجوهه
(والسادس) في العلوم واكتسابها وتعلمها (وقد) قدمت العمران البدوي لانه
سابق على جميعها كما ينزل لك بعد وكذا تقدم الملك على البلدان والامصار وأما تقديم
المعاش فلان المعاش ضروري طبيعي وتعلم العلم كالمحتاج والطبيعي أقدم
من الكمال وجعلت الصناعات مع الكسب لانها منه ببعض الوجوه ومن حيث
العمران كما ينزل لك بعد والله الموفق لصواب والمعين عليه

(الفصل الاول من الكتاب الاول)

(في العمران البشري على الجملة وفيه مقدمات)

(الاولى) في أن الاجتماع الانساني ضروري وبعبارة الحكماء عن هذا بتواهم الانسان
مدني بالطبع أي لا بد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو معنى
العمران ويبيانه أن الله سبحانه خلق الانسان ورصصه على صورة لا يصح حياتها
وبقاؤها الا بالغذاء وهذا الى التماسه مفاطوره وعمار كب فيه من القدرة على تحصيله

الا ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن محصيل حاجته من ذنق الغذاء غير موفية له
 بمادة حياته منه ولو فرضنا منه أقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الخنطة مثلا فلا
 يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال الثلاثة
 يحتاج الى موازين وآلات لانتم الابصناعات متعددة من حداد ونجار وفاخوري
 هب أنه يأكله حيا من غير علاج فهو أيضا يحتاج في تحصيله أيضا حيا الى أعمال أخرى
 أكثر من هذه من الزراعة والحصاد والدراس الذي يخرج الحبوب من غلاف الشغل
 ويحتاج كل واحد من هذه الى آلات متعددة وصناعات كثيرة أكثر من الأولى بكثير
 ويستحيل أن توفى بذلك كله أو ببعضه قدرة الواحد فلا بد من اجتماع القدر
 الكثير من أبناء جنسه ليحصل القوت له ولهم فيحصل بالتعاون قدر الكفاية من
 الحاجة لا أكثر منهم بأضعاف وكذلك يحتاج كل واحد منهم أيضا في الدفاع عن نفسه
 الى الاستعانة بأبناء جنسه لان الله سبحانه لما ركب الطباع في الحيوانات كاه او قسم
 القدر بينها جعل حظوظ كثيرة من الحيوانات العجم من القدرة أكمل من حظ الانسان
 فقدره الفرس مثلا أعظم بكثير من قدر الانسان وكذا قدرة الحمار والثور وقدره
 الاسد والقبيل أضعاف من قدره ولما كان العدو ان طبيعيا في الحيوان جعل
 لكل واحد منها عضوا يختص بدفعه ما يصل اليه من عادية غيره وجعل للانسان
 عوضا من ذلك كله الفكر واليد فاليد مهينة للصناعات بخدمة الفكر والصناعات
 تحصل له الآلات التي تنوبه عن الجوارح المعدة في سائر الحيوانات للدفاع
 مثل الرماح التي تنوب عن القرون الناطحة والسيوف النابتة عن المخالب الجارحة
 والتراس النابتة عن البشيرات الجلدية الى غير ذلك مما ذكره جالينوس في كتاب
 منافع الاعضاء فالواحد من البشر لا تقاوم قدرته قدرة واحد من الحيوانات العجم
 سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده بالجملة ولا تفي قدرته أيضا باستعمال الآلات
 التي تلمد افعلة لكثيرتها او كثرة الصناعات والمواهب المعدة لها فلا بد في ذلك كله من
 التعاون عليه بأبناء جنسه وما لم يكن هذا التعاون فلا يحصل له قوت ولا غذاء ولا تتم
 حياته لما ركب الله تعالى عليه من الحاجة الى الغذاء في حياته ولا يحصل له أيضا
 دفاع عن نفسه لفقده ان السلاح فيكون فريسة للحيوانات ويعاجله الهلاك عن
 مدى حياته ويقتل نوع البشر واذا كان التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح
 للمدافعة وتمت حكمة الله في بقائه وحفظ نوعه فاذن هذا الاجتماع ضروري لنوع
 الانساني والام يكمل وجودهم وما أراد الله من اعتمار العالم بهم واستخلافه اياهم
 وهذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا لهذا العلم وفي هذا الكلام نوع اثبات

للموضوع في فنه الذي هو موضوع له وهذا وان لم يكن واجبا على صاحب الفن لما
 تقر في الصناعة المنطقية أنه ليس على صاحب علم اثبات الموضوع في ذلك العلم فليس
 أيضا من المنوعات عندهم فيكون اثباته من التبرعات والله الموفق بنضله ثم إن
 هذا الاجتماع إذا حصل للبشر كما قرناه وتم عمران العالم بهم فلا بد من وازع يدفع
 بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم وليست السلاح التي
 جعلت دافعة لعدوان الحيوانات العجم عنهم كافية في دفع العدوان عنهم لأنها
 موجودة للجميع هم فلا بد من شيء آخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يكون من
 غيرهم لتصور جميع الحيوانات عن مداركهم والهائمات فيكون ذلك الوازع واحدا
 منهم يكون له عليهم الغلبة والسلطان واليد القاهرة حتى لا يصل أحد إلى غير بعدوان
 وهذا هو معنى الملك وقد تميز لك بهذا أنه خاصة للانسان طبيعية ولا بد لهم منها
 وتبدو جدي في بعض الحيوانات العجم على ما ذكره الحكماء كما في النحل والجراد لما
 ستقرى فيها من الحكم والانتقاد والاتباع لرئيس من أخصاصها تميز عنهم في خلقه
 وجمانه إلا أن ذلك موجودا غير الانسان بمقتضى النظرة والهداية لا بمقتضى النكرة
 والسياسة أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتزيد الغلاصة على هذا البرهان حينه
 يحاولون اثبات النبوة بالدليل العقلي وأنها خاصة بطبيعة للانسان فيقررون هذا
 البرهان إلى غاية وأنه لا بد للبشر من الحكم الوازع ثم يقولون بعد ذلك ذلك الحكم
 يكون بشرع مفروض من عند الله يأتي به واحد من البشر وأنه لا بد أن يكون متميزا
 عنهم بما يودع الله فيه من خواص هدايته ليتبع التسليم له والقبول منه حتى يتم
 الحكم فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف وهذه القضية للمعكاه غير هانية كما تراها إذا
 الوجود وحياة البشر قد تتم من دون ذلك بما يفرضه الحاكم لنفسه أو بالعصية التي
 يقتدر بها على قهرهم وجلوهم على جأته فأهل الكتاب والمبصرين للانبياء قليلون
 بالنسبة إلى الجحوس الذين ليس لهم كتاب فانهم أكثر أهل العالم ومع ذلك فقد كانت
 لهم الدول والآثار فمنعنا عن الحياة وكذلك هي أهم لهذا العهد في الاقاليم المنحرفة
 في الشمال والجنوب بخلاف حياة البشر فونى دون وازع لهم البتة فانه يمنع
 وجه هذا تبيين لك عظمتهم في وجوب النبوات وأنه ليس بعقلي وانما مدركه الشرع
 كما هو مذهب السلف من الامة والله ولي التوفيق والهداية

(المقدمة الثانية)

(في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه من الاشجار والانهار والاقاليم)

(اعلم) أنه قد تميز في كتب الحكماء الناظرين في أحوال العالم أن شكل الأرض كرى وأنها مضمومة بعنصر الماء كأنها غلبة طافية عليه فانحصر الماء عن بعض جوانبها لما أراد الله من تكوير الحيوانات فيها وعمارتهما بالنوع البشري الذي له الخلافة على سائرها وقد يتوهم من ذلك أن الماء تحت الأرض وليس بصحيح وإنما التصت الطبيعي قلب الأرض ووسط كرتها الذي هو مركزها والكل يطلبه بما فيه من النقل وما عد ذلك من جوانبها وأما الماء المحيط بها فهو فوق الأرض وإن قيل في شيء منها أنه تحت الأرض فبالإضافة إلى جهة أخرى منه وأما الذي انحصر عنه الماء من الأرض فهو النصف من سطح كرتها في شكل دائرة أحاط العنصر المائي بها من جميع جهاتها بجرا يسمى البحر المحيط ويسمى أيضا بسلاية بتفخيم اللام الثمانية ويسمى أوقيانوس أسماء أجمية ويقال له البحر الأخضر والأسود ثم إن هذا المنكشف من الأرض للعماران فيه القنار والخلاء أكثر من عمارته وانحالي من جهة الجنوب منه أكثر من جهة الشمال وإنما المعمور منه قطعة أميل إلى الجانب الشمالي على شكل مسطح كرى ينتهي من جهة الجنوب إلى خط الاستواء ومن جهة الشمال إلى خط كرى ووراءه الجبال الناصلة بينه وبين الماء العنصري الذي بينهما سداً بأجوج ومأجوج وهذه الجبال مائلة إلى جهة المشرق وينتهي من المشرق والمغرب إلى عنصر الماء أيضاً بقطعتين من الدائرة المحيطة وهذا المنكشف من الأرض قالوا هو مقدار النصف من الكرة أو أقل والمعمور منه مقدار ربعه وهو المنقسم بالأقاليم السبعة وخط الاستواء يقسم الأرض بنصفين من المغرب إلى المشرق وهو طول الأرض وأكبر خط في كرتها كما أن منطقة فلك البروج ودائرة معدل النهار أكبر خط في الفلك ومنطقة البروج منقسمة بثلاثمائة وستين درجة والدرجة من مسافة الأرض خمسة وعشرون فرسخاً والفرسخ اثنا عشر ألف ذراع في ثلاثة أميال لأن الميل أربعة آلاف ذراع والذراع أربعة وعشرون أصبعاً والأصبع ست حبات شعير مصفوفة ملصق بعضها إلى بعض ظهراً لبطن وبين دائرة معدل النهار التي تقسم الفلك بنصفين وتسامت خط الاستواء من الأرض وبين كل واحد من القطبين تسعون درجة لكن العمارة في الجهة الشمالية من خط الاستواء أربع وستون درجة والباقي منها خلاء لا عمارة فيه لشدة البرد والجود كما كانت الجهة الجنوبية خلاء كلها لشدة الحر كما بين ذلك كله إن شاء الله تعالى ثم إن المخبرين عن هذا المعمور وحدوده وما فيه من الأمصار والمدن والجبال والبحار والأنهار والقفار والرمال مثل بطليموس في كتاب الجغرافيا وصاحب كتاب زجبار من بعده قسما هذا المعمور

بسبعة أقسام يسمونها الأقاليم السبعة بحدود وهمية بين المشرق والمغرب متساوية
في العرض مختلفة في الطول فالاقليم الأول أطول مما بعده وكذا الثاني إلى آخرها
فيكون السابع أقصر لما اقتضاه وضع الدائرة الناشئة من انحناء الماء عن كرة
الأرض وكل واحد من هذه الأقاليم عندهم منقسم بعشرة أجزاء من المغرب إلى
المشرق على التوالي وفي كل جزء الخبر عن أحواله وأحوال عمرانه (وذكروا)
أن هذا البحر المحيط يخرج منه من جهة المغرب في الاقليم الرابع البحر الرومي
المعروف يبدأ في خليج متضيق في عرض اثني عشر ميلاً ونحوها ما بين طنجة وطريف
ويسمى الزقاق ثم يذهب مشرقاً وينفتح إلى عرض ستمائة ميل ونهايته في آخر
الجزء الرابع من الاقليم الرابع على ألف فرسخ ومائة وستين فرسخاً من مبدئه وعليه
هنالك سواحل الشام وعليه من جهة الجنوب سواحل المغرب وأما طنجة عند
الخليج ثم اقرية ثم برقة إلى الاسكندرية ومن جهة الشمال سواحل القسطنطينية
عند الخليج ثم البنادقة ثم رومة ثم الافرنجة ثم الاندلس إلى طريف عند الزقاق قبالة
طنجة ويسمى هذا البحر الرومي والشامي وفيه جزر كثيرة عامرة كبار مثل اقر بطس
وقبرص وصقلية وسيورقة وسردانية ودانية (قالوا) ويخرج منه في جهة الشمال بجران
آخان من خليجين أحدهما مسامت للقسطنطينية يبدأ من هذا البحر متضيقاً
في عرض رمبسة السهم ويمتد ثلاثة بحار فيتمسك بالقسطنطينية ثم ينفتح في عرض
أربعة أميال ويمتد في جريبه ستين ميلاً ويسمى خليج القسطنطينية ثم يخرج من فوهة
عرضها ستة أميال فيمجد بحر بطس وهو بحر ينحرف من هنالك في مذهب إلى ناحية
الشرق فيمجد بأرض هرقلية وينتهي إلى بلاد الخزرية على ألف وثمثة ميل من
فوهته وعليه من الجانبين أمم من الروم والترك وبران والروم والبحر الثاني
من خليجي هذا البحر الرومي وهو بحر البنادقة يخرج من بلاد الروم إلى سمت الشمال
فإذا انتهى إلى سمت الجبل المنحرف في سمت المغرب إلى بلاد البنادقة وينتهي إلى
بلاد انكلابية على ألف ومائة ميل من مبدئه وعلى حافته من البنادقة والروم وغيرهم
أمم ويسمى خليج البنادقة (قالوا) وينحرف من هذا البحر المحيط أيضاً من الشرق
على ثلاث عشرة درجة في الشمال من خط الاستواء بحر عظيم متسع يمتد إلى الجنوب
قليلاً حتى ينتهي إلى الاقليم الأول ثم يترقبه مغرباً إلى أن ينتهي في الجزء الخامس
منه إلى بلاد الحبشة والزيج وإلى بلاد باب المندب منه على أربعة آلاف فرسخ
وخمسمائة فرسخ من مبدئه ويسمى البحر الصيني والهندي والحبشي وعليه من جهة
الجنوب بلاد الزيج وبلاد بربر التي ذكرها امرؤ القيس في شعره وليسوا من البربر

الذين هم قبائل المغرب ثم بلاد مقدشون ثم بلاد سفانة وأرض الواق واق وأهم أخرييس
 بعدهم إلا القفار والخلاء وعليه من جهة الشمال الصين من عند مبدئه ثم الهند
 ثم السند ثم سواحل اليمن من الاحقاف وزيد وغيرهما ثم بلاد الزنج عند نهايته
 وبعدهم الحبشة (قالوا) ويخرج من هذا البحر الحبشي بجران آخران (أحدهما)
 يخرج من نهايته عند باب المندب فيبدأ متضايقا ثم يمر مستجرا إلى ناحية الشمال
 ومغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى مدينة القلزم في الجزء الخامس من الاقليم الثاني على
 ألف وأربعمائة ميل من مبدئه ويسمى بحر القلزم وبحر السويس وبينه وبين
 فسطاط مصر من هنالك ثلاث مراحل وعليه من جهة الشرق سواحل اليمن ثم
 الحجاز وجدّة ثم مدين وأيلة وفاران عند نهايته ومن جهة الغرب سواحل الصعيد
 وعيذاب وسواكن وزيلع ثم بلاد الحبشة عند مبدئه وآخره عند القلزم يسامت البحر
 الرومي عند العريش وبينهما نحو ست مراحل وما زال الملوك في الاسلام وقبله
 رومون خرق ما بينهما ولم يتم ذلك (والبحر الثاني) من هذا البحر الحبشي ويسمى
 الخليج الأخضر يخرج ما بين بلاد السند والاحقاف من اليمن ويمر إلى ناحية الشمال
 مغربا قليلا إلى أن ينتهي إلى الأيلة من سواحل البصرة في الجزء السادس من الاقليم
 الثاني على أربعمائة فرسخ وأربعين فرسخا من مبدئه ويسمى بحر فارس وعليه من
 جهة الشرق سواحل السند ومكرن وكرمان وفارس والأيلة عند نهايته ومن جهة
 الغرب سواحل البحرين واليمامة وعمان والشحر والاحقاف عند مبدئه وفيما بين
 بحر فارس والقلزم جزيرة العرب وكانها دخلت من البرقي البحر يحيط بها البحر
 الحبيبي من الجنوب وبحر القلزم من الغرب وبحر فارس من الشرق وتفضي إلى
 العراق فيما بين الشام والبصرة على ألف وخمسمائة ميل بينهما وهنالك الكوفة
 وناقادية وبغداد واپوان كسرى والحيرة ووراء ذلك أم الاعاجم من الترك والخرز
 وغيرهم وفي جزيرة العرب بلاد الحجاز في جهة الغرب منها وبلاد اليمامة والبحرين
 وعمان في جهة الشرق منها وبلاد اليمن في جهة الجنوب منها وسواحلها على البحر
 الحبشي (قالوا) وفي هذا المعمر بحر آخر منقطع من سائر البحار في ناحية
 الشمال بأرض الديلم يسمى بحر جرجان وطبرستان طول ألف ميل في عرض ستمائة
 ميل في غربيه أذربيجان والديلم وفي شرقيه أرض الترك وخوارزم وفي جنوبيه
 طبرستان وفي شماليه أرض الخزر واللان (هذه) جملة البحار المشهورة التي ذكرها
 أهل الجغرافيا (قالوا) وفي هذا الجزء المعمر أنهار كثيرة أعظمها أربعة أنهار
 وهي النيل والفرات ودجلة ونهر بلخ المسمى جيحون (فأما النيل) فمبدؤه من

جبل عظيم وراء خط الاستواء بست عشرة درجة على سمت الجزء الرابع من الاقليم
 الاول ويسمى جبل القمر ولا يعلم في الارض جبل أعلى منه تخرج منه عيون كثيرة
 فيصب بعضها في بحيرة هناك وبعضها في أخرى ثم تخرج أنهار من البصيرتين فتصب
 كلها في بحيرة واحدة عند خط الاستواء على عشر مراحل من الجبل ويخرج من
 هذه البصيرة نهران يذهب أحدهما الى ناحية الشمال على سمتهم ويمر ببلاد النوبة
 ثم بلاد مصر فاذا جاوزها تشعب في شعب متقاربة يسمى كل واحد منها خليجا وتصب
 كلها في البحر الرومي عند الاسكندرية ويسمى نيل مصر وعليه الصعيد من شرقيه
 والواحات من غربيه ويذهب الآخر منعطفا الى المغرب ثم يمر على سمتة الى أن يصب
 في البحر المحيط وهو نهر السودان وأسمهم كلهم على ضفتيه (وأما الفرات) فبدؤه من
 بلاد أرمينية في الجزء السادس من الاقليم الخامس ويمر جنوبا في أرض الروم
 وملطية الى منبج ثم يمر بصفين ثم بالرقه ثم بالكوفة الى أن ينتهي الى البطحاء التي بين
 البصرة وواسط ومن هناك يصب في البحر الحبشي وتجلب اليه في طريقه أنهار كثيرة
 ويخرج منه أنهار أخرى تصب في دجلة (وأما دجلة) فبدؤها عين ببلاد
 خلاط من أرمينية أيضا وتز على سمت الجنوب بالموصل وأذربيجان وبغداد الى
 واسط فتتفرق الى خلمان كلها تصب في بحيرة البصرة وتفضي الى بحر فارس وهو في
 الشرق على بين الفرات وينجلب اليه أنهار كثيرة عظيمة من كل جانب وفيما بين
 الفرات ودجلة من أوله جزيرة الموصل قبالة الشام من عدوى الفرات وقبالة
 أذربيجان من عدوة دجلة (وأما نهر جيحون) فبدؤه من بلخ في الجزء الثامن
 من الاقليم الثالث من عيون هناك كثيرة وتجلب اليه أنهار عظام ويذهب من
 الجنوب الى الشمال فيمر ببلاد خراسان ثم يخرج منها الى بلاد خوارزم في الجزء الثامن
 من الاقليم الخامس فيصب في بحيرة الجرجانية التي بأسفل مدينتها وهي مسيرة شهر في
 مثله واليهما يصب نهر قرغانة والشاش الآتي من بلاد الترك وعلى غربي نهر جيحون
 بلاد خراسان وخوارزم وعلى شرقيه بلاد بخاري وترمدو وخرقندو ومن هناك الى
 ما وراء بلاد الترك وقرغانة والخزلية وأم الاعاجم وقد ذكر ذلك كاه بطليموس في كتابه
 والشريف في كتاب زجار وصوروا في الجغرافيا جميع ما في المعمور من الجبال
 والبحار والودية واستوفوا من ذلك ما لا حاجة انساب اطوله ولان عنايتنا في الاكثر
 انما هي بالمغرب الذي هو وطن البربر والاطنان التي للعرب من المشرق والله الموفق

تكملة لهذه المقدمة الثانية

في أن الربع الشمالي من الارض اكثر عمرا من الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك

ونحن نرى بالمشاهدة والاختبار المتواترة أن الأول والثاني من الأقاليم المعمورة أقل
 عمرا مما بعدهما وما وجد من عمرانه فينخلله الخلاء والقفار والرمال والبحر الهندي
 الذي في الشرق منهما وأما هذين الأقليمين وأناسيهما ليست لهم الكثرة البالغة
 وأمصاره ومدنه كذلك والثالث والرابع وما بعدهما بخلاف ذلك فالقنار فيها قليلة
 والرمال كذلك أو معدومة وأما هاتين تجوزا لخدم الكثرة وأمصارها ومدنها
 تجاوزا لخدم عدد العمران فيها مندرج ما بين الثالث والسادس والجنوب خلاء كله
 وقد ذكر كثير من الحكماء أن ذلك لأفراط الحر وقلة ميل الشمس فيها عن سمت
 الرأس فلتوضع ذلك برهانه وتبين منه سبب كثرة العمارة فيما بين الثالث والرابع
 من جانب الشمال إلى الخامس والسابع (فنقول) إن قطبي الفلك الجنوبي والشمال
 إذا كانا على الأفق فهناك دائرة عظيمة تقسم الفلك بنصفين هي أعظم الدوائر المارة من
 المشرق إلى المغرب وتسمى دائرة معدل النهار وقد تميز في موضعه من الهيئة أن الفلك
 الأعلى متحرك من المشرق إلى المغرب حركة يومية بحركتها سايرا للأفلاك التي في جوفه
 فها وهذه الحركة محسوسة وكذلك تميز أن للكواكب في أفلاكها حركة مخالفة
 لهذه الحركة وهي من المغرب إلى المشرق ويختلف مؤداهما باختلاف حركة الكواكب
 في السرعة والبطء وممرات هذه الكواكب في أفلاكها توازيها كلها دائرة عظيمة من
 الفلك الأعلى تقسمه بنصفين وهي دائرة فلك البروج منقسمة بأثنى عشر برجاً وهي على
 ما تميز في موضعه مقاطعة لدائرة معدل النهار على نقطتين متقابلتين من البروج هما
 أول الحمل وأول الميزان فتقسمها دائرة معدل النهار بنصفين نصف مائل عن معدل
 النهار إلى الشمال وهو من أول الحمل إلى آخر السنبلة ونصف مائل عنه إلى الجنوب
 وهو من أول الميزان إلى آخر الخوت وإذا وقع القطبان على الأفق في جميع نواحي
 الأرض كان على سطح الأرض خط واحد يامت دائرة معدل النهار يمر من المغرب
 إلى المشرق ويسمى خط الاستواء ووقع هذا الخط بأرض مد على ما زعموا في مبدأ الأقليم
 الأول من الأقليم السبعة والعمران كله في الجهة الشمالية عنه والقطب الشمالي
 يرتفع عن آفاق هذا المعمور بالتدريج إلى أن ينتهي ارتفاعه إلى أربع وستين درجة
 وهناك ينقطع العمران وهو آخر الأقليم السابع وإذا ارتفع على الأفق تسعين
 درجة وهي التي بين القطب ودائرة معدل النهار صار القطب على سمت الرأس وصارت
 دائرة معدل النهار على الأفق وبقيت ستة من البروج فوق الأفق وهي الشمالية
 وستة تحت الأفق وهي الجنوبية والعمارة فيما بين الأربعة والستين إلى التسعين
 ممنوعة لأن الحر والبرد حينئذ لا يحصلان مما ترجح بعد الزمان بينهما فلا يحصل لتكوين

فانما الشمس تسامت الرؤس على خط الاستواء في رأس الحمل والميزان ثم تميل عن
المسامة الى رأس السرطان ورأس الجدى ويصكون نهاية ميلها عن دائرة
معدل النهار أربعاً وعشرين درجة ثم اذا ارتفع القطب الشمالي عن الافق مالت
دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس بمقدار ارتفاعه وانخفض القطب الجنوبي
صكذلك بمقدار متساو في الثلاثة وهو المسمى عند أهل المواقيت عرض
البلد واذا مالت دائرة معدل النهار عن سمت الرؤس علت عليها البروج الشمالية
من درجة في مقدار علوها الى رأس السرطان وانخفضت البروج الجنوبية من
الافق كذلك الى رأس الجدى لانحرانها الى الجانبين في أفق الاستواء كما قلناه فلا
يزال الافق الشمالي يرتفع حتى يصير أبعد الشمالية وهو رأس السرطان في سمت
الرؤس وذلك حيث يكون عرض البلد أربعاً وعشرين في الجواز وما يليه وهذا
هو الميل الذي اذا مال رأس السرطان عن معدل انهار في أفق الاستواء ارتفع
بارتفاع القطب الشمالي حتى صار مسامتاً فاذا ارتفع القطب أكثر من أربع وعشرين
نزلت الشمس عن المساممة ولا تزال في انخفاض الى أن يكون ارتفاع القطب أربعاً
وستين ويكون انخفاض الشمس عن المساممة كذلك وانخفاض القطب الجنوبي
عن الافق مثلها فينقطع التكوين لافراط البرد والجد وطول زمانه غير محتزج بالحر
ثم ان الشمس عند المساممة وما يقاربها تمت الاشعة على الارض على زوايا قائمة وفيها
دون المساممة على زوايا منفرجة وحادة واذا كانت زوايا الاشعة قائمة عظم الضوء
وانشرب بخلافه في المنفرجة والحادة فلهذا يكون الحر عند المساممة وما يقرب منها
أكثر منه فيما بعد لان الضوء سبب الحر والتسخين ثم ان المساممة في خط
الاستواء تكون مرتين في السنة عند نقطتي الحمل والميزان واذا مالت فغير بعيد ولا
يكاد الحر يمتدل في آخر ما لها عند رأس السرطان والجدى الا وقد صعدت الى
المساممة فبقى الاشعة القائمة الزوايا تلج على ذلك الافق ويطول مكثها ويديم فيشتعل
الهواء حرارة ويفرط في شدتها وكذا ما دامت الشمس تسامت مرتين فيما بعد خط
الاستواء الى عرض أربعة وعشرين فان الاشعة ملحة على الافق في ذلك بقريب من
المحاحها في خط الاستواء وافراط الحريفة في الهواء تجفيفاً ويسايع من التكوين
لانه اذا فرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان
والنبات اذا التكوين لا يكون الا بالرطوبة ثم اذا مال رأس السرطان عن سمت
الرؤس في عرض خمسة وعشرين فما بعده نزات الشمس عن المساممة فصير الحر الى
الاعتدال أو ميل عنه ميلاً قليلاً فيكون التكوين ويتزايد على التدريج الى أن يفرط

البرد في شدته لقله الضوء وكون الأشعة منفرجة الزوايا فينقص التكوين ويضد
 الآن فساد التكوين من جهة شدة الحر أعظم من جهة شدة البرد لان الحر أسرع
 تأثيرا في الضيف من تأثير البرد في الجهد فلذلك كان العمران في الاقليم الاول والثاني
 قليلا وفي الثالث والرابع والخامس متوسطا لا عندال الحر ينقصان الضوء وفي
 السادس والسابع كثير النقصان الحر وأن كيفية البرد لا تؤثر عند أولها في فساد
 التكوين كما يفعل الحر اذ لا يضيف فيها الا عند الافراط بما يعرض لها حينئذ من
 اليبس كما بعد السابع فلهذا كان العمران في الربع الشمالي أكثر وأوفر والله أعلم •
 ومن هنا أخذ الحكماء خلاصة خط الاستواء وما وراءه وأورد عليهم أنه معمور بالمشاهدة
 والاختبار المتوازنة فكيف يتم البرهان على ذلك والظاهر أنهم لم يريدوا امتناع العمران
 فيما لكلمة انما اذا هم البرهان الى أن فساد التكوين فيه قوى بافراط الحر والعمران
 فيه انما يمنع أو يمكن أقل وهو كذلك فان خط الاستواء والذي وراءه وان كان فيه
 عمران كما نقل فهو قليل جدا (وقد زعم) ابن رشد أن خط الاستواء معتدل وأن ما وراءه
 في الجنوب بمثابة ما وراءه في الشمال فيعمر منه ما عمر من هذا والذي قاله غير ممنوع من
 جهة فساد التكوين وانما يمنع فيما وراء خط الاستواء في الجنوب من جهة أن
 العنصر المائي يخرج من وجه الارض هناك الى الحد الذي كان مقابله من الجهة الشمالية
 قابلا للتكوين ولما امتنع المعتدل لغلبة الماء تبعه ما سواه لان العمران متدرج
 ويأخذ في التدرج من جهة الوجود لا من جهة الامتناع وأما القول بامتناعه في خط
 الاستواء فيرده النقل المتواتر والله أعلم • ولترسم بعده هذا الكلام صورة الجغرافيا
 كما رسمها صاحب كتاب زجارتهم ناخذ في تفصيل الكلام عليها الخ

تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا .

اعلم أن الحكماء قسموا هذه المعمور كما تقدم ذكره على سبعة أقسام من الشمال الى
 الجنوب يسمون كل قسم منها اقليما فانقسم المعمور من الارض كله على هذه السبعة
 الاقاليم كل واحد منها آخذ من الغرب الى الشرق على طوله • فالاول منها ما رت من
 المغرب الى المشرق مع خط الاستواء بمجده من جهة الجنوب وليس وراءه هناك الا
 القفار والرمال وبعض عمارة ان صحت فهي كلا عمارة ويليه من جهة شماليه الاقليم
 الثاني ثم الثالث كذلك ثم الرابع والخامس والسادس والسابع وهو آخر العمران من
 جهة الشمال وليس وراء السابع الا الخلاء والقفار الى أن ينتهي الى البحر المحيط

كلال فيما وراء الاقاليم الاقل في جهة الجنوب الا ان الخلاء في جهة الشمال اقل
 بكثير من الخلاء الذي في جهة الجنوب • ثم ان ازمة الليل والنهار تتفاوت في
 هذه الاقاليم بسبب ميل الشمس عن دائرة معدل النهار وارتفاع القطب الشمالي عن
 آفاقها فيتفاوت قوس النهار والليل لذلك وينتهي طول الليل والنهار في آخر الاقليم
 الاقل وذلك عند حلول الشمس برأس الجدى لليل وبرأس السرطان للنهار كل واحد
 منهما الى ثلاث عشرة ساعة وكذلك في آخر الاقليم الثاني مما يلي الشمال فينتهي طول
 النهار فيه عند حلول الشمس برأس السرطان وهو منقطبها الصيفي الى ثلاث عشرة
 ساعة ونصف ساعة ومثله أطول الليل عند منقطبها الشتوي برأس الجدى ويبقى
 للاقصر من الليل والنهار ما يبقى بعد الثلاث عشرة ونصف من جملة أربع وعشرين
 الساعات الزمانية لمجموع الليل والنهار وهو دورة الفلك الكاملة وكذلك في آخر
 الاقليم الثالث مما يلي الشمال أيضا ينتهيان الى أربع عشرة ساعة وفي آخر الرابع الى
 أربع عشرة ساعة ونصف ساعة وفي آخر الخامس الى خمس عشرة ساعة وفي آخر السادس
 الى خمس عشرة ساعة ونصف وفي آخر السابع الى ست عشرة ساعة وهناك ينقطع
 العمران فيكون تفاوت هذه الاقاليم في الاطول من ليالها ونهارها بنصف ساعة
 لكل اقليم يتزايد من أوله في ناحية الجنوب الى آخره في ناحية الشمال موزعة على
 أجزاء هذا البعد • وأما عرض البلدان في هذه الاقاليم فهو عبارة عن بعد ما بين سمت
 رأس البلد ودائرة معدل النهار الذي هو سمت رأس خط الاستواء وبمثله سواء ينخفض
 القطب الجنوبي عن افق ذلك البلد ويرتفع القطب الشمالي عنه وهو ثلاثة أبعاد
 متساوية تسمى عرض البلد كما مر ذلك قبل • والمتكلمون على هذه الجغرافيا
 قسموا كل واحد من هذه الاقاليم السبعة في طولها من المغرب الى المشرق بعشرة
 أجزاء متساوية ويذكرون ما اشتمل عليه كل جزء منها من البلدان والامصار والجبال
 والانهار والمسافات بينها في المسالك ونحن الآن نوجز القول في ذلك وتذكر مشاهير
 البلدان والانهار والبحار في كل جزء منها ونحاذي بذلك ما وقع في كتاب نزعة المشتاق
 الذي ألفه العلوي الادريسي اليهودي ملك صقلية من الافرنج وهو زيار بن زيار
 عندما كان نازلا عليه بصقلية بعد خروج صقلية من امارة مالقة وكان تأليفه للكتاب
 في منتصف المائة السادسة وجمع له كتابا جمة للمعويدي وابن خرداذبة والحوقلي
 والقدرى وابن اسحق المنصير وبطليموس وغيرهم ونبدأ منها بالاقليم الاقل الى آخرها
 والله سبحانه وتعالى يعصمنا عنه وفضله

• (الاقليم الاقل) • وفيه من جهة غربيه الجزائر الخالدات التي منها بدأ بطليموس

بأخذ أطوال البلاد وليست في بسيط الاقليم وانما هي في البحر المحيط جزر متكثرة
 أكبرها وأشهرها ثلاثة ويقال انها معمورة وقد بلغنا أن سفائن من الأفرنج مرت بها
 في أواسط هذه المائة وقاتلوهم فقتلوا منهم وسبوا وباعوا بعض أسرارهم بسواحل
 المغرب الأقصى وصاروا إلى خدمة السلطان فلما تعلموا اللسان العربي أخبروا عن حال
 جزائرهم وأنهم يحترفون الأرض للزراعة بالقرون وأن الحديد مفعود بأرضهم
 وعيشهم من الشعير وما شئتهم المعز وقتالهم بالحجارة يرمونها إلى خلف وعبادتهم
 السجود للشمس إذا طلعت ولا يعرفون ديناً ولم تبلغهم دعوة ولا يوقف على مكان هذه
 الجزائر إلا بالعثور لا بالقصد إليها لأن سفن السفن في البحر انما هو بالرياح ومعرفة جهات
 مهاجها وإلى أين يوصل إذا مرت على الاستقامة من البلاد التي في عمر ذلك المهب وإذا
 اختلف المهب وعلم حيث يوصل على الاستقامة حوذي به القلع محاذة يحمل
 السفينة بها على قوائير في ذلك محصلة عند النواتية والملاحين الذي هم رؤساء السفن
 في البحر والبلاد التي في حفا في البحر الرومي وفي عدونه مكتوبة كها في صحيفة
 على شكل ما هي عليه في الوجود وفي وضعها في سواحل البحر على ترتيبها ومهاب الرياح
 وعمراتها على اختلافها مرسوم معها في تلك الصحيفة ويسمونها الكنباص وعليها
 يعقدون في أسفارهم وهذا كله منقود في البحر المحيط فلذلك لا تلجج فيه السفن
 لأنها ان غابت عن مرأى السواحل فقل أن تهتدي إلى الرجوع إليها مع ما يعتد في
 جوه هذا البحر وعلى سطح مائه من الأبحر الممانعة للسفن في مسيرها وهي أبعدها
 لا تدركها أضواء الشمس المنعكسة من سطح الأرض فتحلها فلذلك عبر الأعتداء
 إليها وصعب الوقوف على خبرها وأما الجزء الأول من هذا الاقليم ففيه مصب النيل
 الآتي من مبدئه عند جبل القمر كما ذكرناه ويسمى نيل السودان ويذهب إلى البحر
 المحيط فيصب فيه عند جزيرة أوليك وعلى هذا النيل مدينة سلاوتسكرو وروغانة
 وكلها هذا العهد في ملكة ملك مالى من امم السودان وإلى بلادهم توافر تجار المغرب
 الأقصى وبالقرب منها من شمالها بلاد تونة وسائر طوائف الملتين ومقارز يجولون
 فيها وفي جنوبى هذا النيل قوم من السودان يقال لهم لملم وهم كفار ويكنون في
 وجوههم وأصدانهم وأهل غانة والتكرور يغيرون عليهم ويسبونهم ويبيعونهم للتجار
 فيجلبونهم إلى المغرب وكلهم عامة رقيقهم وليس وراءهم في الجنوب عمران يعتبر إلا
 أناسي أقرب إلى الحيوان العجم من المناطق يسكنون الضيافي والكهوف وبأكلون
 العشب والحبوب غير مهياة وربما يأكل بعضهم بعضا وإسوانى عداد البشر وفواكه
 بلاد السودان كلها من قصور هراء المغرب مثل نوات وتسكرار بن ووركلان

• فكان في غاية فيما يقال ملك ودولة تقوم من الصالين يعرفون بين صالح وقال
 صاحب كتاب زجاراته صالح بن عبد الله بن حسن بن الحسن ولا يعرف صالح هذا
 في ولد عمه الله بن حسن وقد ذهبت هذه الدولة لهذا العهد وصارت غاية سلطان مالي
 وفي شرقي هذا البلد في الجزء الثالث من هذا الاقليم بلد كوكو على نهر ينبع
 من بعض الجبال هناك ويمر مغرباً فيفوس في زمال الجزء الثاني • وكان ملك كوكو
 قائماً بنفسه ثم استولى عليها سلطان مالي وأصبحت في مملكه وخربت لهذا العهد
 من أجل قسنة وقعت هنالك تذكرها عند ذكر دولة مالي في محلها من تاريخ البربر وفي
 جنوبي بلد كوكو بلاد كاتم من ام السودان وبعدهم وثغارة على ضفة النيل من شماليه
 وفي شرقي بلاد وثغارة وكنتم بلاد زغاوة وتاجرة المتصلة بأرض النوبة في الجزء الرابع
 من هذا الاقليم وفيه يمر نيل مصر ذاهباً من مبدئه عند خط الاستواء الى البحر
 الرومي في الشمال • ومخرج هذا النيل من جبل القمر الذي فوق خط الاستواء
 بست عشرة درجة واختلفوا في ضبط هذا اللفظة فضعها بعضهم بفتح القاف والميم
 نسبة الى قمر السماء لشدة بياضه وكثرة ضوئه وفي كتاب المشتركين ياقوت يضم
 القاف وسكون الميم نسبة الى قوم من أهل الهند وكذا ضبطه ابن سعيد فيخرج
 من هذا الجبل عشر عيون تجتمع كل خمسة منها في بحيرة ويبعد عنها أميال ويخرج
 من كل واحدة من البحيرتين ثلاثة أنهار تجتمع كلها في بطيخة واحدة في أسفلها جبل
 معترض يشق البحيرة من ناحية الشمال وينقسم ماؤها بقسمين يمر أحدهما الى
 بلاد السودان مغرباً حتى يصب في البحر المحيط ويخرج الشرق منه ذاهباً الى
 الشمال على بلاد الحبشة والنوبة وفيما بينهما وينقسم في أعلى أرض مصر فيصب
 ثلاثة من جداوله في البحر الرومي عند الاسكندرية ورشيد ودمياط ويصب واحد في
 بحيرة ملحة قبل أن يتصل بالبحر في وسط هذا الاقليم الاول • وعلى هذا النيل بلاد
 النوبة والحبشة وبعض بلاد الواحات الى أسوان وحاضرة بلاد النوبة مدينة دنقلة
 وهي في غربي هذا النيل وبعدها علوة وبلاق وبعدهما جبل الجنادل على ستة
 مراحل من بلاق في الشمال وهو جبل عال من جهة مصر وخص من جهة النوبة
 فينفذ فيه النيل ويصب في مهوى بعيد صبا مهولاً فلا يمكن أن تسلكه المراكب
 بل يحول الواسق من مراكب السودان فيحمل على الظهر الى بلد أسوان قاعدة
 الصعيد وكذا واسق مراكب الصعيد الى فوق الجنادل وبين الجنادل وأسوان اثنا
 عشرة مرحلة والواحات في غربيها عدوة النيل وهي الآن خراب وبها آثار العمارة
 القديمة • وفي وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس منه بلاد الحبشة على وادي أبي من

وراء خط الاستواء ذاهبا الى أرض النوبة فيصب هناك في النيل الهابط الى مصر
وقد وهم فيه كثير من الناس وزعموا أنه من نيل القمرو و بطليموس ذكره في كتاب
الجغرافيا وذكر أنه ليس من هذا النيل * والى وسط هذا الاقليم في الجزء الخامس
ينتهي بحر الهند الذي يدخل من ناحية الصين وبغمر عاتق هذا الاقليم الى هذا الجزء
الخامس فلا يبقى فيه عمران الا ما كان في الجزائر التي في داخله وهي ممتدة بقال تنتهي
الى ألف جزيرة أو فيما على سواحله الجنوبية وهي آخر المعهور في الجنوب أو فيما على
سواحل من جهة الشمال وليس منها في هذا الاقليم الا اول الاطراف من بلاد الصين في
جهة الشرق وفي بلاد اليمن * وفي الجزء السادس من هذا الاقليم فيما بين البحرين
الهابطين من هذا البحر الهندي الى جهة الشمال وعما ببحر قنزم و بحر فارس وفيما
بينهما جزيرة العرب وشتمل على بلاد اليمن وبلاد الشحر في شرقها على ساحل هذا البحر
الهندي وعلى بلاد الحجاز اليمامة وما اليهما كما ذكره في الاقليم الثاني وما بعده فأما
الذي على ساحل هذا البحر من غربيه فبلد زالع من أطراف بلاد الحبشة ومجالات
التي في شمال الحبشة ما بين جبل العلاف في أعالي الصعيد وبين بحر القنزم الهابط
من البحر الهندي وتحت بلاد زالع من جهة الشمال في هذا الجزء خليج باب المندب
يضيق البحر الهابط هناك بزاحة جبل المندب المائل في وسط البحر الهندي تمتد مع
ساحل اليمن من الجنوب الى الشمال في طول اثني عشر ميلا فيضيق البحر بسبب ذلك
الى أن يصير في عرض ثلاثة أميال أو نحوها ويسمى باب المندب وعليه تمر مر اكب
اليمن الى ساحل السويس قريبا من مصر وتحت باب المندب جزيرة سواكن
ودهلك رقباته من غربيه مجالات اليجه من أمم السودان كما ذكرناه ومن شرقيه في
هذا الجزء تهائم اليمن ومنها على ساحل بلد على بن يعقوب وفي جهة الجنوب من بلاد زالع
وعلى ساحل هذا البحر من غربيه قرى بربر يتلو بعضها بعضا وبنه طاب مع جنوبيه الى
آخر الجزء السادس ويلبها هنالك من جهة شرقها بلاد الزنج ثم بلاد سفالة على ساحل
الجنوبي في الجزء السابع من هذا الاقليم وفي شرق بلاد سفالة من ساحل الجنوب
بلاد الواق واقمتصلة الى آخر الجزء العاشر من هذا الاقليم عند مدخل هذا البحر
من البحر المحيط * وأما جزائر هذا البحر فكثيرة من أعظمها جزيرة سرنديب
مدورة الشكل وبها الجبل المشهور ويقال ليس في الارض أعلى منه وهي قبالة سفالة
* ثم جزيرة القمرو وهي جزيرة مستطيلة تبدأ من قبالة أرض سفالة وتذهب الى الشرق
منحرفة بكثير الى الشمال الى أن تقرب من سواحل أعالي الصين ويحتفبها في
هذا البحر من جنوبها جزائر الواق واق ومن شرقها جزائر السبلان الى جزائر

آخر في هذا البحر كثرة العدد وفيها أنواع الطيب والافاويه وفيها يقال معادن الذهب
والزمرّد وعامة أهلها على دين المجوسية وفيهم ملوك متعدّدون وبهذه الجزائر من
أحول العمران عجائب ذكرها أهل الجغرافيا وعلى الضفة الشمالية من هذا البحر
في الجزء السادس من هذا الاقليم بلاد اليمن كما في من جهة بحر القلزم بلد زبيد والمهجم
وتهامة اليمن وبعدها بلد معدة منتر الامامة الزيدية وهي بعيدة عن البحر الجنوبي
وعن البحر الشرقي وفيما بعد ذلك مدينة عدن وفي شمالها صنعاء وبعدهما الى
المشرق أرض الاحتاف وظنار وبعدها أرض حضرموت ثم بلاد الشحر ما بين البحر
الجنوبي وبحر فارس * وهذه القطعة من الجزء السادس هي التي انكشف عنها
البحر من أجزاء هذا الاقليم الوسطى وينكشف بعدها قليل من الجزء التاسع وأكثر
منه من العاشر فيه أعالي بلاد اليمن ومن مدنه الشهيرة خاسكو وقبالته من جهة
المشرق جزائر السيلان وقد تقدم ذكرها وهذا آخر الكلام في الاقليم الاول
والله سبحانه وتعالى ولى التوفيق بمنه وفضله

* (الاقليم الثاني) * وهو متصل بالاول من جهة الشمال وقبالة المغرب منه في البحر
المحيط بحر برنان من الجزائر الخالدات التي مر ذكرها وفي الجزء الاول والثاني
منه في الجانب الاهلي منها أرض قنورية وبعدها في جهة المشرق أعالي أرض غانة
ثم مجالات زغاوة من السودان وفي الجانب الايسر منها صحراء يسرمة على من
المغرب الى لشرق ذات مناو زنتك فيهما التجار ما بين بلاد المغرب وبلاد السودان
وفيها مجالات الملثمين من منهاجة وهم شعوب كثيرة ما بين كزولة ولتونة ومسرانة ولماطة
ووربكة وعلى سمت هذه المناو شرقا أرض فزان ثم مجالات أركار من قبائل
البربر ذاهبة الى أعالي الجزء الثالث على سمتها في المشرق وبعدها من هذا الجزء بلاد
كوار من أم السودان ثم قطعة من أرض الباجو بين وفي أسفل هذا الجزء لثالث
وهي جهة الشمال منه بقية أرض ودان وعلى سمتها شرقا أرض سنترية وتسمى
الواحات الداخلة وفي الجزء الرابع من أعلاه بقية أرض الباجو بين ثم يعترض في
وسط هذا الجزء بلاد الصعيد حناني النيل الذاهب من مبدئه في الاقليم الاول الى
مصبه في البحر فيرمي في هذا الجزء بين الجبلين الحاجرين وهما جبل الواحات من غربيه
وجبل المنظم من شرقيّه وعليه من أعلاه بلاد اسناو أرهنت ويتصل كذلك
حنانيه الى أسبوط وقوص ثم الى صول * ويفترق النيل هناك على شعبين ينتهي
الايمن منهما في هذا الجزء عند اللاهون والابسر عند دلاص وفيما بينهما أعالي ديار
مصر وفي المشرق من جبل المقطم صحارى عيذاب ذاهبة في الجزء الخامس الى أن

تنتهي الى بحر السويس وهو بحر القلزم الهابط من البحر الهندي في الجنوب الى
جهة الشمال وفي عدوته الشرقية من هذه الجزء أرض الحجاز من جبل بلالم الى بلاد
يثرب وفي وسط الحجاز مكة ثم فيها الله وفي ساحلها مدينة جدة تقابل بلدة عيذاب
في العدو والغربية من هذا البحر وفي الجزء السادس من غربيه بلاد نجد أعلاها في
الجنوب وتباله وجرش الى عكاظ من الشمال وتحت نجد من هذه الجزء بقية أرض
الحجاز وعلى سمتها في الشرق بلاد نجران وخيبر وتحتها أرض اليمامة وعلى سمت نجران
في الشرق أرض سبأ ومأرب ثم أرض الشحر وينتهي الى بحر فارس وهو البحر
الثاني الهابط من البحر الهندي الى الشمال كما سر ويذهب في هذه الجزء بانحراف
الى الغرب فيمر ما بين شرقيه وجوفيه قطعة مثلثة عاينها من أعلاه مدينة قلهاث وهي
ساحل الشحر ثم تحتها على ساحل بلاد عمان ثم بلاد البحر بن وهجر ومنها في آخر الجزء
وفي الجزء السابع في الأعلى من غربيه قطعة من بحر فارس تتصل بالقطعة الأخرى في
السادس ويغمر بحر الهند جانبه الأعلى كله وعليه هنالك بلاد الهند الى بلاد مكران
ويقال لها بلاد الطوربان وهي من الهند أيضا فيتصل السند كله في الجانب الغربي
من هذا الجزء وتحول المذاوز بينه وبين أرض الهند ويعرف به نهره الآتي من ناحية
بلاد الهند ويصب في البحر الهندي في الجنوب وأول بلاد الهند على ساحل البحر
الهندي وفي سمتها شرقا بلاد بلهرا وتحتها اللتان بلاد الصنم المعظم عندهم ثم الى أسفل
من الهند ثم الى أعلى بلاد سجستان وفي الجزء الثامن من غربيه بقية بلاد بلهرا من
الهند وعلى سمتها شرقا بلاد الهند هارثم بلاد منيبار وفي الجانب الأعلى على ساحل
البحر الهندي وتحتها في الجانب الأسفل أرض كابل وبعد هاشرقا الى البحر المحيط
بلاد التنوج ما بين قشمير الداخلة وقشمير الخارجة عند آخر الأقليم وفي الجزء التاسع
ثم في الجانب الغربي منه بلاد الهند الأقصى ويتصل فيه الى الجانب الشرقي فيتصل
من أعلاه الى العاشر وتبقى في أسفل ذلك الجانب قطعة من بلاد الصين في مدينة
شيفون ثم تتصل بلاد الصين في الجزء العاشر كله الى البحر المحيط والله ورسوله أعلم وبه
سبحانه التوفيق وهو ولي النضل والكرم

(الأقليم الثالث) هو متصل بالثاني من جهة الشمال ففي الجزء الأول منه وعلى
نحو الثلث من أعلاه جبل درن معترض فيه من غربيه عند البحر المحيط الى الشرق
عند آخره ويمكن هذا الجبل من البربر أنهم لا يحصيهم الاخالقهم حسب ما يأتي ذكره
وفي القطعة التي بين هذا الجبل والأقليم الثاني وعلى البحر المحيط منها رباط ماسة
ويتصل به شرقا بلاد سوس ونول وعلى سمتها شرقا بلاد درعة ثم بلاد سبجلماسة ثم قطعة

من صحراء نيسر المفازة التي ذكرناها في الاقليم الثاني وهذا الجبل مطل على هذه
البلاد كلها في هذه الجزر وهو قليل الثنايا والمسالك في هذه الناحية الغربية الى
أن يسامت وادي ملوية فتكثر ثماياه ومسالكه الى أن ينتهي وفي هذه الناحية منه أم
المصامدة ثم عتانة ثم تينك ثم كدمبود ثم مشكورة وهم آخر المصامدة فيه ثم قبائل
صنهاكة وهم صنهاجة وفي آخر هذه الجزر منه بعض قبائل زناتة ويتصل به هنالك
من حوفيه جبل أوراس وهو جبل كامة وبعد ذلك أم أخرى من البرابرة تذكرهم
في أماكنهم ثم إن جبل درن هذا من جهة غربية مطل على بلاد المغرب الاقصى
وهي في حوفيه في الناحية الجنوبية منها بلاد مراكش وانغمات وتادلا وعلى
البحر المحيط منها رباط اسفي ومدينة لالا وفي الجوف عن بلاد مراكش بلاد قاس
ومكاسة وتازا وقصر كامة وهذه هي التي تسمى المغرب الاقصى في عرف أهلها وعلى
ساحل البحر المحيط منها بلدان أصبلا والعرايش وفي سمت هذه البلاد شرقا بلاد
المغرب الاوسط وقاعدتها التمان وفي سواحلها على البحر الرومي بلاد هين ووهران
والجزائر لان هذا البحر الرومي يخرج من البحر المحيط من خليج طنجة في الناحية
الغربية من الاقليم الرابع ويذهب مشرقا فينتهي الى بلاد الشام فاذا خرج من الخليج
المتضيق غير بعيد انفسح جنوبا وشمالا فدخل في الاقليم الثالث والخامس فلهذا كان
على ساحله من هذه الاقليم الثالث الكثير من بلاد ثم يتصل ببلاد الجزائر من
شرقها بلاد بجاية في ساحل البحر ثم قسنطينة في الشرق منها في آخر الجزء الاول
وعلى مرحلة من هذا البحر في جنوب هذه البلاد دومة تدا الى جنوب المغرب
الاطلس بلاد اشير ثم بلاد الميلة ثم الزاب وقاعدتها باب كرتة تحت جبل أوراس المتصل
بدرن كما مر وذلك عند آخر هذا الجزء من جهة لشرق والجزء الثاني من هذا الاقليم
على هيئة الجزء الاول ثم جبل درن على نحو الثلث من جنوبه ذاهبا فيه من غرب
الى شرق فيقسمه بقطعتين وبغمر البحر الرومي من سفاهة من شماله فالقطعة الجنوبية
عن جبل درن غربها ككله مناووز وفي لشرق منها بلاد غدامس وفي سمتها شرقا
أرض وغان التي بقيتها في الاقليم الثاني كما مر والقطعة الجنوبية عن جبل درن ما بينه
و بين البحر الرومي في الغرب منها جبل أوراس وتبسة والاطلس وعلى ساحل البحر
بلد بونة ثم في سمت هذه البلاد شرقا بلاد افر بقية فعلى ساحل البحر مدينة تونس ثم
سوسة ثم المهديية وفي جنوب هذه البلاد تحت جبل درن بلاد الجريد توزر وقنصة
ونفزاوة وفيما بينها وبين السواحل مدينة القيروان وجبل وسلات وسيطة وعلى
سمت هذه البلاد كلها شرقا بلاد طرابلس على البحر الرومي وبازائها في الجنوب جبل

دمر ونقرة من قبائل هواة متصلة بجبل درن وفي مقابلة غذا من التي مر ذكرها في
آخر القطعة الجنوبية وآخر هذه الجزء في الشرق سويقة ابن مشكورة على البحر وفي
جنوبها مجالات العرب في أرض ودان وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم يمر أيضا في
جبل درن الا أنه ينعطف عند آخره الى الشمال ويذهب على سمتة الى أن يدخل في
البحر الرومي ويسمى هنالك طرف أو ثان والبحر الرومي من شماليه غمر طاغمة منه الى
أن يضيق ما بينه وبين جبل درن فالذي وراءه الجبل في الجنوب وفي الغرب منه بقية
أرض ودان ومجالات العرب فيها ثم زويلة ابن خطاب ثم رمال وقفار الى آخر الجزء
في الشرق وفيما بين الجبل والبحر في الغرب منه بلاد سرت على البحر ثم خلا وقفار تجول
فيها العرب ثم اجدانية ثم برقة عند منعطف الجبل ثم طلسة على البحر هنالك ثم في شرق
المنعطف من الجبل مجالات هيب ورواحة الى آخر الجزء وفي الجزء الرابع من هذا
الاقليم وفي الاعلى من غربيه صحارى برقيق وأسفل منها بلاد هيب ورواحة ثم يدخل
البحر الرومي في هذا الجزء فيغمر طاغمة منه الى الجنوب حتى يراحم طرفه الاعلى ويبقى
بينه وبين آخر الجزء قفار تجول فيها العرب وعلى سمتها شرقا بلاد الصوم وهي على مصب
أحد الشعبين من النيل الذي يمر على اللاهون من بلاد الصعيد في الجزء الرابع من
الاقليم الثاني ويصب في بحيرة فيوم وعلى سمتة شرقا أرض مصر ومدنها الشهيرة على
الشعب الثاني الذي يمر بدلاص من بلاد الصعيد عند آخر الجزء الثاني ويفترق
هذا الشعب افتراقا ثانية من تحت مصر على شعبين آخرين من شاطئون ورفتي
ويتقسم الايمن منهما من قرمط بشعبين آخرين ويصب جميعها في البحر الرومي فعلى
مصب الغربي من هذا الشعب بلاد الاسكندرية وعلى مصب الوسط بلدرشيد وعلى
مصب الشرقي بلددمياط وبين مصر والقاهرة وبين هذه السواحل البحرية أسافل
الديار المصرية كلها محشوة عمراناً ونبجا وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم بلاد
الشام وأكثرها على ما أصف وذلك لان بحر القلزم ينتهي من الجنوب وفي الغرب منه
عند السويس لانه في عمره مبتدئ من البحر الهندي الى الشمال ينعطف آخذا الى
جهة الغرب فتكون قطعة من انعطافه في هذا الجزء طويلة فينتهي في الطرف
الغربي منه الى السويس وعلى هذه القطعة بعد السويس فاران ثم جبل الطور ثم
أيلة مدين ثم الحوراء في آخرها ومن هنالك ينعطف بساحله الى الجنوب في أرض
الحجاز كما مر في الاقليم الثاني في الجزء الخامس منه وفي الناحية الشمالية من هذا
الجزء قطعة من البحر الرومي غمرت كثير من غربيه عليها القرما والعريش وقارب
طرفها بلاد القلزم فيضيق ما بينهما من هنالك ويبقى شبه الباب مفضيا الى أرض الشام

وفي غربتي هذا الباب فخص التيه أرض جرداء لا تنبت كانت مجالا لبني اسرائيل بعد
 خروجهم من مصر وقبل دخولهم الى الشام أربعين سنة كما قصه القرآن وفي هذه
 القطعة من البحر الرومي في هذا الجزء طائفة من جزيرة قبرس وبقيتها في الاقليم
 الرابع كما ذكره وعلى ساحل هذه القطعة عند الطرف المتضيق لبحر السويس بلد
 العريش وهو آخر الديار المصرية وعسقلان وبينهما طرف هذا البحر ثم تعطف هذه
 القطعة في انعطافها من هنالك الى الاقليم الرابع عند طرابلس وغزة وهنالك ينتهي
 البحر الرومي في جهة الشرق وعلى هذه القطعة أكثر سواحل الشام ففي شرقه
 عسقلان وبانحراف يسير عنها الى الشمال بلاد قيسارية ثم كذلك بلاد عكا ثم صور ثم
 صيدا ثم غزة ثم تعطف البحر الى الشمال في الاقليم الرابع ويقابل هذه البلاد
 الساحلية من هذه القطعة في هذا الجزء جبل عظيم يخرج من ساحل ايلة من بحر القلزم
 ويذهب في ناحية الشمال منحرفا الى الشرق الى أن يجاوز هذا الجزء ويسمى جبل
 اللكام وكأنه حاجز بين أرض مصر والشام ففي طرفه عند ايلة العقبة التي يمر عليها
 الحجاب من مصر الى مكة ثم بعدها في ناحية الشمال مدفن الخليل عليه الصلاة
 والسلام عند جبل السراة يتصل من عند جبل اللكام المذكور من شمال العقبة ذاهبا
 على سمت الشرق ثم تعطف قليلا وفي شرقه هنالك بلاد الحمر وديار عمود وديار دومة
 الجندل وهي أسافل الحجاز وفوقها جبل رضوى وحصون خيبر في جهة الجنوب عنها
 وفيما بين جبل السراة وبحر القلزم صحراء تبوك وفي شمال جبل السراة مدينة القدس
 عند جبل اللكام ثم الاردن ثم طبرية وفي شرقها بلاد الغور الى اذرعان وفي سمتها شرقا
 دومة الجندل آخر هذا الجزء وهي آخر الحجاز * وعند منعطف جبل اللكام الى
 الشمال من آخر هذا الجزء مدينة دمشق مقابلة صيدا وبيروت من القطعة البحرية
 وجبل اللكام يعترض بينهما وبينها وعلى سمت دمشق في الشرق مدينة بعلبك ثم مدينة
 حصن في الجهة الشمالية آخر الجزء عند منقطع جبل اللكام وفي الشرق عن بعلبك
 وحصن بلد تدمر ومجالات البادية الى آخر الجزء وفي الجزء السادس من أعلاه
 مجالات الاعراب تحت بلاد نجد واليمامة ما بين جبل العرج والصحان الى البحرين
 وجزيرة علي بحر فارس وفي أسافل هذا الجزء تحت المجالات بلاد الحيرة والقاسية
 ومغابض الفرات * وفيما بعدها شرقا مدينة البصرة وفي هذا الجزء ينتهي بحر
 فارس عند عبادان رالابلة من أسافل الجزء من شماله ويصب فيه عند عبادان نهر
 دجلة بعد أن ينقسم بمجداول كثيرة وتختلط به جداول أخرى من الفرات ثم تجتمع
 كلها عند عبادان وتصب في بحر فارس وهذه القطعة من البحر متسعة في أعلاه

متضابفة في آخر في شرفيه وضيقه عند منتهاه مضابفة للحد الشمالي منه وعلى
عدوتها الغربية منه أسافل البحرين وهجر والاحسا وفي غربها أخطب والعمان
وبقية أرض اليمامة وعلى عدوته الشرقية سواحل فارس من أعلاها وهو من عند
آخر الجزء من الشرق على طرف قدامته من هذا البحر مشرقا ووراءه الى الجنوب في
هذا الجزء جبال القفص من كرمان وتحت هرمز على الساحل بلاد سيراف ونجيم على
ساحل هذا البحر * وفي شرقه الى آخر الجزء وتحت هرمز بلاد فارس مثل صابور
ودارابجرد ونسا واصطخر والشاهجان وشيراز وهي قاعدتها كلها وتحت بلاد فارس
الى الشمال عند طرف البحر بلاد خوزستان ومنها الاهواز وتسترو صدى وصابور
والسوس ورام هرمز وغيرها وأرجان وهي حد ما بين فارس وخوزستان وفي شرق
بلاد خوزستان جبال الاكرامتصلة الى نواحي اصبهان وبها مساكنهم ومجالاتهم
وراءها في أرض فارس وتسمى الرسوم وفي الجزء السابع في الاعلى منه من المغرب
بقية جبال القفص ويليها من الجنوب والشمال بلاد كرمان ومكران ومن مدنها
الرودان والشيرجان وجيرفت ويزد شير والبهرج وتحت أرض كرمان الى الشمال
بقية بلاد فارس الى حدود اصبهان ومدينة اصبهان في طرف هذا الجزء ما بين غربه
وشماله ثم في المشرق عن بلاد كرمان وبلاد فارس أرض سجستان وكوهستان في
الجنوب وأرض كوهستان في الشمال عنها ويتوسط بين كرمان وفارس وبين سجستان
وكوهستان في وسط هذا الجزء المقاوز العظمى القليلة المسالك لصعوبتها ومن مدن
سجستان بست والطاق وأما كوهستان فهي من بلاد خراسان ومن مشاهير بلادها
سرخس وقوهستان آخر الجزء * وفي الجزء الثامن من غربه وجنوبه مجالات
الجلج من أم الترك متصلة بأرض سجستان من غربها وأرض كابل الهند من
جنوبها وفي الشمال عن هذه المجالات جبال الغور وبلادها وقاعدتها غزنة قرنة
الهند وفي آخر الغور من الشمال بلاد استراباذ ثم في الشمال عنها الى آخر الجزء بلاد
هراة وأوسط خراسان وبها اسفراين وقاشان وبوشنج وهر والروذ والطاقان والبلوزجان
وتنتهي خراسان هنالك الى نهر جيحون * وعلى هذا النهر من بلاد خراسان من
غربيه مدينة بلخ وفي شرقه مدينة ترمذ ومدينة بلخ كانت كرسى مملكة الترك وهذا النهر
نهر جيحون يخرج من بلاد وبار في حدود بدخشان مما يلي الهند ويخرج من
جنوب هذا الجزء وعند آخره من الشرق فينعطف عن قرب مغربا الى وسط الجزء
ويسمى هنالك نهر خراب ثم ينعطف الى الشمال حتى يمر بخراسان ويذهب على سمته
الى أن يصب في بحيرة خوارزم في الاقليم الخامس كما ذكره ويمتد عند انعطافه في وسط

الجزء من الجنوب الى الشمال خمسة أنهار عظيمة من بلاد الختل والوخش من شرقيه
وأنهار أخرى من جبال البتم من شرقيه أيضا وجوفى الجبل حتى يتسع ويعظم بما
لا كفاة له ومن هذه الأنهار الخمسة المدة له نهر وخشاب يخرج من بلاد التبت وهي
بين الجنوب والشرق من هذا الجزء فيمر مغربا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى
الجزء التاسع قريبا من شمال هذا الجزء يعترضه في طريقه جبل عظيم يمر من وسط
الجنوب في هذا الجزء ويذهب مشرقا بانحراف الى الشمال الى أن يخرج الى الجزء
التاسع قريبا من شمال هذا الجزء فيجوز بلاد التبت الى القطعة الشرقية الجنوبية من
هذا الجزء ويحول بين الترك وبين بلاد الختل وليس فيه الامسالك واحد في وسط الشرق
من هذا الجزء جعل فيه النضل بن يحيى سدا وبني فيه بابا كسد يا جوج وما جوج فاذا
خرج نهر وخشاب من بلاد التبت واعترضه هذا الجبل فيمر تحته في مدى بعيد الى
أن يمر في بلاد الوخش ويصب في نهر جيحون عند حدود بلخ ثم يمرها بطا الى الترمذ في
الشمال الى بلاد الخوزجان وفي الشرق عن بلاد الغور فيما بينها وبين نهر جيحون بلاد
الناسان من خراسان وفي العدة الشرقية هنالك من النهر بلاد الختل وأكثرها
جبال وبلاد الوخش ويحدها من جهة الشمال جبال البتم تخرج من طرف
خراسان غربى نهر جيحون وتذهب مشرقا الى أن يتصل طرفها بالجبل العظيم الذى
خلفه بلاد التبت ويمر تحته نهر وخشاب كما قلناه في متصل به عند باب الفضل بن
يحيى ويمر نهر جيحون بين هذه الجبال وأنهار أخرى تصب فيه منها نهر بلاد الوخش
يصب فيه من الشرق تحت الترمذ الى جهة الشمال ونهر بلخ يخرج من جبال البتم
من مبدئه عند الخوزجان ويصب فيه من غربيه وعلى هذا النهر من غربيه بلاد آمد
من خراسان وفي شرقى النهر من هنالك أرض الصغد وأسر وشنة من بلاد الترك وفي
شرقها أرض فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا وكل بلاد الترك تحوزها جبال البتم
الى شمالها وفي الجزء التاسع من غربيه أرض التبت الى وسط الجزء وفي جنوبها بلاد
الهند وفي شرقها بلاد الصين الى آخر الجزء وفي أسفل هذا الجزء شمالا عن بلاد التبت
بلاد الخزر الحبيسة من بلاد الترك الى آخر الجزء شرقا وشمالا ويتصل بها من غربيها أرض
فرغانة أيضا الى آخر الجزء شرقا ومن شرقها أرض التفرغ من الترك الى آخر الجزء
شرقا وشمالا وفي الجزء العاشر فى الجنوب منه جميعا بقية الصين وأساقه وفي
الشمال بقية بلاد التفرغ ثم شرقا منهم بلاد خرخر من الترك أيضا الى آخر الجزء شرقا
وفي الشمال من أرض خرخر بلاد كمان من الترك وقبالتها فى البحر المحيط جزيرة
الباقوت فى وسط جبل مستدير لا منبذ منه اليها ولا مسالك وانصعودانى أعلاه من

خارجة صعب في الغاية وفي الجزيرة حياة قتالة وحصى من الباقوت كثيرة فيحتمل
 أهل تلك الناحية في استخراجها بما يلهمهم الله اليه وأهل هذه البلاد في هذا الجزء
 التاسع والعاشر فيما وراء خراسان والجبال كلها مجالات للترك أم لا تحصى وهم
 ظوا عن رحالة أهل ابل وشاه وبقرو خيل للتساج والركوب والاكل وطوائفهم
 كثيرة لا يحصون الاخالقهم وفيهم مسلمون مما يلي بلاد النهر نهر جيحون ويغزون
 الكفار منهم الدائنين بالمجوسية فيبيعون رقيقهم لمن يلبسهم ويخرجون الى بلاد
 خراسان والهند والعراق

(الاقليم الرابع) يتصل بالثالث من جهة الشمال * والجزء الاول منه في غربيه
 قطعة من البحر المحيط مستطيلة من اوله جنوبا الى آخره شمالا وعليها في الجنوب
 مدينة طنجة ومن هذه القطعة تحت طنجة من البحر المحيط الى البحر الرومي في خليج
 متضيق بمقدار اثني عشر ميلا بين طرف والجزيرة الخضراء شمالا وقصر المجرار
 وسبعة جنوبا ويذهب مشرقا الى أن ينتهي الى وسط الجزء الخامس من هذا الاقليم
 وينفسح في ذهابه بتدرج الى أن يغمر الاربعة أجزاء وأكثر الخامس ويغمر عن
 جانبه طرفا من الاقليم الثالث والخامس كما سنذكره ويسمى هذا البحر البحر الشامي
 أيضا وفيه جزائر كثيرة أعظمها في جهة الغرب يابسة ثم مايرقة ثم منرقة ثم سردانية ثم
 صقلية وهي أعظمها ثم بلونس ثم اقريطش ثم قبرص كما ذكرها كلها في أجزاءها
 التي وقعت فيها ويخرج من هذا البحر الرومي عند آخر الجزء الثالث منه وفي الجزء
 الثالث من الاقليم الخامس خليج البنادقة يذهب الى ناحية الشمال ثم تعطف عند
 وسط الجزء من جوفيه ويمر مغربا الى أن ينتهي في الجزء الثاني من الخامس ويخرج
 منه أيضا في آخر الجزء الرابع شرقا من الاقليم الخامس خليج القسطنطينية يمر في
 الشمال متضايقا في عرض رمية السهم الى آخر الاقليم ثم يقضي الى الجزء الرابع
 من الاقليم السادس وينعطف الى بحر ينطش ذاهبا الى الشرق في الجزء الخامس
 كله ونصف السادس من الاقليم السادس كما ذكر ذلك في أما كنه وعند ما يخرج هذا
 البحر الرومي من البحر المحيط في خليج طنجة وينفسح الى الاقليم الثالث يبقى في الجنوب
 عن الخليج قطعة صغيرة من هذا الجزء فيها مدينة طنجة على مجمع البحرين وبعدها
 مدينة سبتة على البحر الرومي ثم قطاون ثم باديس ثم يغمر هذا البحر بقية هذا الجزء
 شرقا ويخرج الى الثالث وأكثر العمارة في هذا الجزء في شماله وشمال الخليج منه وهي
 كاهابلا والاندلس الغربية منها ما بين البحر المحيط والبحر الرومي أولها طرف عند مجمع
 البحرين وفي الشرق منها على ساحل البحر الرومي الجزيرة الخضراء ثم مالقة ثم المنكب

ثم المربة وتحت هذه من لدن البحر المحيط غربا وعلى مغربه منه شريش ثم لبله وقبالها
فيه جزيرة قادس وفي الشرق عن شريش وابله اشيلية ثم اسنجة وقرطبة ومدية
ثم غرناطة وجيان وأبدة ثم وادياش وبسطة وتحت هذه شنترية وشلب على البحر
المحيط غربا وفي الشرق عنهما بطليوس وماردة وبابرة ثم عاقق ووزجالة ثم قلعة
رياح وتحت هذه أشبونة على البحر المحيط غربا وعلى نهر باجة وفي الشرق عنها
شنترين وموزية على النهر المذكور ثم قنطرة السيف ويسامت اشبونة من جهة
الشرق جبل الشارات يبدأ من المغرب هنالك ويذهب مشرقا مع آخر الجزء من
شماله فينتهي الى مدينة سالم فيما بعد النصف منه وتحت هذا الجبل طليبة في الشرق
من فورنه ثم طليطة ثم وادي الحجارة ثم مدينة سالم وعند أول هذا الجبل فيما
بينه وبين اشبونة بلد قلريه هذه غربي الاندلس * وأما شرقي الاندلس فعلى ساحل
البحر الرومي منها بعد المربة قرطاجنة ثم افقة ثم دانية ثم بلنسية الى طرطوشة آخر الجزء
في الشرق وتحتها شمالا ليورقة وشقورة تتاخجان بسطة وقلعة رياح من غرب
الاندلس ثم مرسية شرقا ثم شاطبة تحت بلنسية شمالا ثم شقر ثم طرطوشة ثم طركونة
آخر الجزء ثم تحت هذه شمالا أرض منبالة وريدة متاخجان لشقورة وطلطلة من
الغرب ثم افراغة شرقا تحت طرطوشة وشمالا عنها ثم في الشرق عن مدينة سالم
قلعة أيوب ثم سرقسطة ثم لاردة آخر الجزء شرقا وشمالا * والجزء الثاني من
هذا الاقليم غمر الماء جميعه الاقطعة من غريبه في الشمال فيها بقية جبل البرنات
ومعناه جبل الثنايا والسالك يخرج اليه من آخر الجزء الاول من الاقليم الخامس يبدأ
من الطرف المنتهي من البحر المحيط عند آخر ذلك الجزء جنوبا وشرقا ويرتفع في الجنوب
بانحراف الى الشرق فيخرج في هذا الاقليم الرابع منحرفا عن الجزء الاول منه الى هذا
الجزء الثاني فيقع فيه قطعة منه تنضى ثناياها الى البر المتصل وتسمى أرض
عشكونية وفيه مدينة خرادة وقرتسونة وعلى ساحل البحر الرومي من هذه القطعة
مدينة برسلونة ثم أربونة وفي هذا البحر الذي غمر الجزء جزائر كثيرة والكثير منها غير
مسكون لصغر هافتى غريبه جزيرة سردانية وفي شرقه جزيرة صقاية متسعة الاقطار
يقال ان دورها سبعمائة ميل وبها مدن كثيرة من مشاهيرها سرقوسة وبلرم
وطرابغة ومازروميني وهذه الجزيرة تقابل أرض افريقية وفيما بينهما جزيرة
أعدوش ومالطة * والجزء الثالث من هذا الاقليم مغمر أيضا بالبحر الاثلاث
قطع من ناحية الشمال الغربية منها أرض قلورية والوسطى من أرض ابكرد
والشرقية من بلاد البنادقة * والجزء الرابع من هذا الاقليم مغمر أيضا بالبحر كما مر

وجزائره كثيرة وأكثرها غير مسكون كما في الثالث والمعروف منها جزيرة بلونس في
 الناحية الغربية الشمالية وجزيرة اقريطش مستطيلة من وسط الجزء الى ما بين
 الجنوب والشرق منه * والجزء الخامس من هذا الاقليم غير البحر منه مثلثة كبيرة
 بين الجنوب والغرب ينتهي الضلع الغربي منها الى آخر الجزء في الشمال وينتهي الضلع
 الجنوبي منها الى نحو الثلثين من الجزء ويبقى في الجانب الشرقي من الجزء قطعة نحو
 الثلث يمر الشمالي منها الى الغرب من عطف البحر كما قلناه وفي النصف الجنوبي منها
 أسافل الشام ويمر في وسطها جبل اللكام الى أن ينتهي الى آخر الشام في الشمال
 فينعطف من هناك ذاهبا الى القطر الشرقي الشمالي ويسمى بعد انعطافه جبل
 السلسلة ومن هناك يخرج الى الاقليم الخامس ويجوز من عند انعطافه قطعة من
 بلاد الجزيرة الى جهة الشرق ويقوم من عند انعطافه من جهة المغرب جبال متصلة
 بعضها ببعض الى أن ينتهي الى طرف خارج من البحر الرومي متأخر الى آخر الجزء من
 الشمال وبين هذه الجبال ثنايا تسمى الدروب وهي التي تفضى الى بلاد الارمن وفي هذا
 الجزء قطعة منها بين هذه الجبال وبين جبل السلسلة فأما الجهة الجنوبية التي قد منا أن
 فيها أسافل الشام وأن جبل اللكام معترض فيها بين البحر الرومي وآخر الجزء من الجنوب
 الى الشمال فعلى ساحل البحر منه بلد أنطروتوس في أول الجزء من الجنوب متاخمة لغزة
 وطرابلس على ساحله من الاقليم الثالث وفي شمال أنطروتوس جبلة ثم اللاذقية ثم
 اسكندرونة ثم ساوقية وبعدها شمالا بلاد الروم وأما جبل اللكام المعترض بين
 البحر وآخر الجزء بمخاضيه فيصافيه من بلاد الشام من أعلى الجزء جنوبا من غريبه
 حصن الخواني وهو للعشيرة الاسماعيلية ويعرفون لهذا العهد بالصدافية ويسمى
 الحصن مصيات وهو قبالة انطروتوس وقبالة هذا الحصن في شرق الجبل بلد سلمية في
 الشمال عن حصن وفي الشمال عن مصيات بين الجبل والبحر بلد انطاكية ويقابلها
 في شرق الجبل المعرة وفي شرقها المراغة وفي شمال انطاكية المصيصة ثم أذنة ثم
 طرسوس آخر الشام ويحاذيها من غرب الجبل قنسرين ثم عين زربة وقبالة قنسرين في
 شرق الجبل حلب ويقابل عين زربة منبج آخر الشام * وأما الدروب فعن يمينها ما بينها
 وبين البحر الرومي بلاد الروم التي هي لهذا العهد للتركان وسلطانها ابن عثمان وفي ساحل
 البحر منها بلد انطاكية والعلايا * وأما بلاد الارمن التي بين جبل الدروب
 وجبل السلسلة ففيها بلد مرعش وملطية والمعرة الى آخر الجزء الشمالي ويخرج من
 الجزء الخامس في بلاد الارمن نهر جيحان ونهر سيحان في شرقيه فيمر بهما جيحان جنوبا
 حتى يتجاوز الدروب ثم يمر بطرسوس ثم بالمصيصة ثم ينعطف هابطا الى الشمال ومغتربا

حتى يصب في البحر الرومي جنوب سلوقية ويمر ثم - رسيحان - وازي بالنهر جيحان فيمضي
 المعرة ومرشش ويتجاوز جبال الدروب الى أرض الشام ثم يمر بعين زربة ويجوز عن
 نهر جيحان ثم يعطف الى الشمال مغرباً يمتلط بنهر جيحان عند المصبية ومن غربها
 * وأما بلاد الجزيرة التي يحيط بها، نعطف جبل اللكام الى جبل السلسلة ففي جنوبها
 بلاد الرافضة والرقعة ثم حران ثم سروج والرها ثم نصيبين ثم - سباط - وآمد تحت جبل
 السلسلة وآخر الجزء من شماله وهو أيضاً آخر الجزء من شرقيه ويمر في وسط هذه
 القطعة ثم - الرات - ونهر دجلة يخرج من الاقليم الخامس ويمر في بلاد الارمن
 جنوباً الى أن يتجاوز جبل السلسلة فيمر نهر الفرات من غربي سبساط وسروج
 وينحرف الى الشرق فيمر بقرب الرافضة والرقعة ويخرج الى الجزء السادس وتمردجلة
 في شرق آمد وتنعطف قريبا الى الشرق فيخرج قريبا الى الجزء السادس * وفي
 الجزء السادس من هذا الاقليم من غربيه بلاد الجزيرة وفي الشرق منها بلاد العراق
 متملة بها انتهى في الشرق الى قرب آخر الجزء، وترض من آخر العراق هنالك جبل
 اصبهان هابطاً من جنوب الجزء منحرفاً الى الغرب فاذا انتهى الى وسط الجزء من آخره
 في الشمال يذهب مغرباً الى أن يخرج من الجزء السادس ويتصل على سمنه بجبل
 السلسلة في الجزء الخامس فينقطع هذا الجزء السادس بقطعتين غربية وشرقية ففي
 الغربية من جنوبها يخرج الفرات من الخامس وفي شمالها يخرج دجلة منه أما
 الفرات فأول ما يخرج الى السادس يمر بقربها ويخرج من هنالك جدول الى
 الشمال ينساب في أرض الجزيرة ويغوص في نواحيها ويمر من قريسيبا غير بعيد ثم
 يعطف الى الجنوب فيمر بقرب الحابور الى غرب الرحبة ويخرج منه جدول من هنالك
 يمر جنوباً ويبقى صفيين في غربيه ثم يعطف شرقاً وينقسم بشعوب فيمر بعضها بالكوفة
 وبعضها بقصر ابن هبيرة وبالجامعين وتخرج جميعاً في جنوب الجزء الى الاقليم الثالث
 فيغوص هنالك في شرق الحيرة والقادسية ويخرج الفرات من الرحبة مشرفاً على
 سمنه الى هيت من شمالها يمر الى الزاب والانباز من جنوبها ثم يسب في دجلة عند
 بغداد * وأما نهر دجلة فاذا دخل من الجزء الخامس الى هذا الجزء يمر مشرفاً على
 سمنه ومحماديا لجبل السلسلة المتصل بجبل المراق على سمنه فيمر بجزيرة ابن عمر على شمالها
 ثم بالموصل كذلك وتكررت وينتهي الى الحديثة فينعطف جنوباً وتبقى الحديثة في
 شرقه والزاب الكبير والصغير كذلك ويمر على سمنه جنوباً وفي غرب القادسية الى أن
 ينتهي الى بغداد ويختلط بالفرات ثم يمر جنوباً على غرب جرابا الى أن يخرج من الجزء
 الى الاقليم الثالث فتنتشر هنالك شعوبه وجداوله ثم يجتمع ويصب هنالك في بحر فارس

عند عبادان وفيما بين نهر الدجلة والفرات قبل مجعها ما بين بغداد هي بلاد الجزيرة
ويختلط بنهر دجلة بعد مسارقه بغداد نهر آخر يأتي من الجهة الشرقية الشمالية منه
ويفتي الى بلاد النهر وان قبالة بغداد شرقا ثم يعطف جنوبا ويختلط بدجلة قبل خروجه
الى الاقليم الثالث ويبقى ما بين هذا النهر وبين جبل لعراق والاعاجم بلاد جلولا وفي
شرقها عند الجبل بلاد حلوان وصيرة . وأما القطعة الغربية من الجزء فيعترضها جبل
يبدأ من جبل الاعاجم مشرقا الى آخر الجزء ويسمى جبل شهرزور ويسمى بها بتطعتين
وفي الجنوب من هذه القطعة الصغرى بلاد خوجان في الغرب والشمال عن اصبهان
وتسمى هذه القطعة بلاد الهلوس وفي وسطها بلدنهاوند وفي شمالها بلاد شهرزور غربا عند
ملتقى الجبلين والدي نور شرقا عند آخر الجزء وفي القطعة الصغرى الثانية طرف من بلاد
ارمينية قاعدتها المراغة والذي يقابلها من جبل العراق يسمى باريا وهو مسكن
للاكراد والزاب الكبير والصغير الذي على دجلة من يرانه وفي آخر هذه القطعة من
جهة الشرق بلاد اذربيجان ومنها تبريز واليلقان وفي الزاوية الشرقية الشمالية من
هذا الجزء قنعة من بحر بطش وهو بحر الخزر . وفي الجزء السابع من هذا الاقليم من
غربه وجنوبه معظم بلاد الهلوس وفيها همدان وقزوین وبقيتها في الاقليم الثالث
وفيها هنالك اصبهان ويحيط بها من الجنوب جبل يخرج من غربها ويمر بالاقليم
الثالث ثم يعطف من الجزء السادس الى الاقليم الرابع ويصل بجبل العراق في شرقه
الذي مر ذكره هنالك وأنه محيط ببلاد الهلوس في القطعة الشرقية ويحيط
هذا الجبل المحيط باصبهان من الاقليم الثالث الى جهة الشمال ويخرج الى هذا الجزء
الدايع فيحيط ببلاد لهلوس من شرقها وتحت هنالك قناتان ثم تقم وينعطف في قرب
النصف من طريقته مغربا بعض الشيء ثم يرجع مستديرا فيذهب مشرقا ومنحرفا
الى الشمال حتى يخرج الى الاقليم الخامس ويشتمل على منعطفه واستدارته على بلد
الري في شرقه ويبدأ من منعطفه جبل آخر يمر غربا الى آخر الجزء ومن جنوبه من
هنالك قزوین ومن جانبه الشمالي وجانب جبل الري المتصل معه ذاهبا الى الشرق
والشمال الى وسط الجزء ثم الى الاقليم الخامس بلاد طبرستان فيما بين هذه الجبال
وبين قطعة من بحر طبرستان ويدخل من الاقليم الخامس في هذا الجزء في نحو النصف
من غربه الى شرقه ويعترض عند جبل الري وعند انعطافه الى الغرب جبل متصل
يمر على شاطئه مشرقا ومنحرفا قليلا الى الجنوب حتى يدخل في الجزء الثامن من غربه
ويبقى بين جبل الري وهذا الجبل من عند مبدئها بلاد جرجان فيما بين الجبلين ومنها
بسطام ووراء هذا الجبل قطعة من هذا الجزء فيها بقية المفازة التي بين فارس وخراسان

وهي في شرقي قاشان وفي آخرها عند هذا الجبل بلاد استراباد وحفا في هذا الجبل من شرقه الى آخر الجزء بلاد نيسابور من خراسان في جنوب الجبل وشرق المفازة بلاد نيسابور ثم مر والشاهجان آخر الجزء وفي شماله وشرقي جرجان بلدهم جرجان وخازرون وطوس آخر الجزء شرقا وكل هذه تحت الجبل وفي الشمال منها بلاد نسا ويحيط بها عند زاوية الجزأين الشمال والشرق حفا وزمعة * وفي الجزء الثامن من هذا الاقليم وفي غربيه نهر جيجون ذاهبا من الجنوب الى الشمال في عدوته الغربية ثم وآمل من بلاد خراسان والظاهرية والجرجانية من بلاد خوارزم ويحيط بالزاوية الغربية الجنوبية منه جبل استراباد المترض في الجزء السابع قبله ويخرج في هذا الجزء من غربيه ويحيط به هذه الزاوية وفيها بقية بلاد هراة ويمتد الجبل في الاقليم الثالث بين هراة والبلوزجان حتى يصل بجبل البتم كما ذكرناه هنالك وفي شرقي نهر جيجون من هذا الجزء وفي الجنوب منه بلاد بخاري ثم بلاد الهفند وقاعدتها سمرقند ثم بلاد أسروشنه ومنها نخندة آخر الجزء شرقا وفي الشمال عن سمرقند وأسروشنه أرض يلاق ثم في الشمال عن يلاق أرض الشاش الى آخر الجزء شرقا وبأخذ قطعة من الجزء التاسع في جنوب تلك القطعة بقية أرض فرغانة ويخرج من تلك القطعة التي في الجزء التاسع نهر الشاش يمر معترضا في الجزء الثامن الى أن ينصب في نهر جيجون عند مخرجه من هذا الجزء الثامن في شماله الى الاقليم الخامس ويحتمل معه في أرض يلاق نهر يأتي من الجزء التاسع من الاقليم الثالث من تخوم بلاد التبت ويحتمل معه قبل مخرجه من الجزء التاسع نهر فرغانة وعلى سمت نهر الشاش جبل جيراغون يسلم من الاقليم الخامس وينعطف شرقا ومنحرفا الى الجنوب حتى يخرج الى الجزء التاسع محيطا بأرض الشاش ثم ينعطف في الجزء التاسع فيحيط بالشاش وفرغانة هنالك الى جنوبه فيدخل في الاقليم الثالث وبين نهر الشاش وطرف هذا الجبل في وسط الجزء بلاد فأراب وبينه وبين أرض بخاري وخوارزم مفاوز معطلة وفي زاوية هذا الجزء من الشمال والشرق أرض نخندة وفيها بلاد السحاب وطرازه وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في غربيه بعد أرض فرغانة والشاش أرض الخزلية في الجنوب وأرض الخلية في الشمال وفي شرق الجزء كله أرض الكهكسية ويتصل في الجزء العاشر كله الى جبل قوقيا آخر الجزء شرقا وعلى قطعة من البحر المحيط هنالك وهو جبل بأجوج وماجوج وهذه الامم كلها من شعوب الترك انتهى

* (الاقليم الخامس) الجزء الاول منه أكثره مغمور بالماء الا قليلا من جنوبه وشرقه لان البحر المحيط بهذه الجهة الغربية دخل في الاقليم الخامس والسادس

والابع عن الدائرة المحيطة بالاقليم فأما المنكشف من جنوبه فتقطعة على شكل مثلث
متصلة من هنالك بالانديلس وعليها بقية المحيط بهم البحر من جهتين كأنهم ما
ضلعان في طان بزواوية المثلث ففيها من بقية غرب الانديلس سعيور على البحر عند أول
الجزء من الجنوب والغرب وسلكة شرقا عنها وفي جوفها عمورة وفي الشرق عن سلكة
ايلا آخر الجنوب وأرض قستالية شرقا عنها وفيها مدينة شقونية وفي شمالها أرض
ليون وبرغشت ثم وراءها في الشمال أرض جليقية الى زاوية القطعة وفيها على البحر
المحيط في آخر الضلع الغربي بلد شنتياقور ومعناه يعقوب وفيها من شرق بلاد الانديلس
مدينة شطاية عند آخر الجزء في الجنوب وشرقاً عن قستالية وفي شمالها وشرقها
وشقة ونبلاونة على سبيلها شرقاً وشمالاً وفي غرب نبلاونة قسطالة ثم نازحة فيما بينها وبين
برغشت ويعترض وسط هذه القطعة جبل عظيم محاذ للبحر والضلع الشمالي الشرقي
منه وعلى قرب ويتصل به وبطرف البحر عند نبلاونة في جهة الشرق الذي ذكرنا من
قبل أن يتصل في الجنوب بالبحر الرومي في الاقليم الرابع ويصير حجراً على بلاد الانديلس
من جهة الشرق وشبابها أبواب لها تفضي الى بلاد غنكونية من امم الفرينج فمنها من
الاقليم الرابع برتلونة واربونة على ساحل البحر الرومي وخريدة وقرقشوند وراعي
في الشمال ومنها من الاقليم الخامس طلوشة شمالاً عن خريدة * وأما المنكشف
في هذا الجزء من جهة الشرق فتقطعة على شكل مثلث مستطيل زاويته الحادة وراء
البرنات شرقاً وفيها على البحر المحيط على رأس القطعة التي يتصل بها جبل البرنات
بلدنيونة وفي آخر هذه القطعة في الناحية الشرقية لشمالية من الجزء أرض بنطون
الفرنج الى آخر الجزء وفي الجزء الثاني في الناحية الغربية منها أرض غنكونية وفي
شمالها أرض بنطون وبرغشت وقد ذكرناهما وفي شرق بلاد غنكونية في شمالها قطعة
أرض من البحر الرومي دخلت في هذا الجزء كالفنرس مائله الى الشرق قليلاً
وصارت بلاد غنكونية في غربها داخله في جون من البحر وعلى رأس هذه القطعة شمالاً
بلاد جنوة وعلى سمتها في الشمال جبل نيت جون وفي شماله وعلى سمتها أرض برغونة
وفي الشرق عن طرف جنوة الخارج من البحر الرومي طرف آخر خارج منه يمتد بينهما
جون داخل من البر في البحر في غربيه بيش وفي شرقيه مدينة رومة العظمى كرسى ملك
الافرنجة وممكن البابا بتركهم الانتظم وفيها من المبانى النخمة ولها كل
المهولة والكائنات العبادية ما هو معروف الاخبار ومن بجانبها النهر الجاري في وسطها
من المشرق الى المغرب مندروش قاعه يبلط النحاس وفيها كنيسة تدرس وبواس من
الحواريين وهما مدفونان بها وفي الشمال عن بلاد رومة بلاد افرنصية الى آخر الجزء

وعلى هذا الطرف من البحر الذي في جنوب رومة بلاد دابل في الجانب الشرقي منه
متصلة ببلد قلورية من بلاد القرنج وفي شمالها طرف من خليج البنادقة دخل في هذا
الجزء من الجزء الثالث فتر باومحادي الشمال من هذا الجزء وانتهى الى نحو الثلث
منه وعليه \equiv ثم من بلاد البنادقة دخل في هذا الجزء من جنوبه فيما بينه وبين
البحر المحيط ومن شماله بلاد انكلانية في الاقليم السادس • وفي الجزء الثالث من هذا
الاقليم في غربيه بلاد قلورية بين خليج البنادقة والبحر الرومي يحيط به من شرقيه
يصل من رها في الاقليم الرابع في البحر الرومي في جون بين طرفين خرجا من البحر الى
سمت الشمال الى هذا الجزء وفي شرق بلاد قلورية بلاد انكبرده في جون بين خليج
البنادقة والبحر الرومي ويدخل طرف من هذا الجزء في الجون في الاقليم الرابع وفي
البحر الرومي ويحيط به من شرقيه خليج البنادقة من البحر الرومي ذاهبا الى سمت
الشمال ثم يعطف الى الغرب محاذيا لآخر الجزء الشمالي ويخرج على سمت من الاقليم
الرابع جبل عظيم يوازيه ويذهب معه في الشمال ثم يغرب معه في الاقليم السادس الى
أن ينتهي قبالة خليج في شماله في بلاد انكلانية من أم اللمايين كما ذكر وعلى هذا
الخليج وبينه وبين هذا الجبل ماداما ذاهبين الى الشمال بلاد البنادقة فذا ذهابا الى
المغرب فيبينهما بلاد حرواياتم بلاد اللمايين عند طرف الخليج • وفي الجزء الرابع من
هذا الاقليم قطعة من البحر الرومي خرجت اليه من الاقليم الرابع مضمرة كلها
بقطع من البحر ويخرج منها الى الشمال وبين \equiv ل ذر من منها طرف من البحر
في الجون بين ما وفي آخر الجزء شرقا قطع من البحر ويخرج منها الى الشمال خليج
القسطنطينية يخرج من هذا الطرف الجنوبي ويذهب على سمت الشمال الى أن
يدخل في الاقليم السادس ويعطف من هنالك عن قرب مشرقا الى بحر طبر في
الجزء الخامس وبعض الرابع قبله والسادس بعده من الاقليم السادس كما ذكر وبلد
القسطنطينية في شرقي هذا الخليج عند آخر الجزء من الشمال وهي المدينة
العظيمة التي كانت كرمي القياصرة وبها من آثار البناء والعمارة ما كثر عنه
الاحاديث والقطعة التي ما بين البحر الرومي وخليج القسطنطينية من هذا الجزء وفيها
بلاد مقدونية التي كانت لليونانيين ومنها ابتداء ملكهم وفي شرقي هذا الخليج الى آخر
الجزء قطعة من أرض باطوس وأظنها هذا العهد مجالات للتركمان وبها ملك ابن عثمان
وقاعدته بهارصة وكانت من قباهم للروم وغلبهم عليها الامم الى أن صارت للتركمان •
وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم من غربيه وجنوبه أرض باطوس وفي الشمال عنها
الى آخر الجزء بلاد عوربية وفي شرقي عوربية نهر قبايقب الذي يمد الفرات بحرين من

جبل هنالك ويذهب في الجنوب حتى يخالط الفرات قبل وصوله من هذا الجزء الى عمرة
 في الاقليم الرابع وهنالك في غربيه آخر الجزء في مبداء نهر سيجان ثم نهر جيجان غربيه
 الذاهين على سمته وقدم ذكرهما وفي شرقه هنالك مبداء نهر الدجلة الذاهب على
 سمته وفي موازاته حتى يخالطه عند بغداد وفي الزاوية التي بين الجنوب والشرق من
 هذا الجزء وراه الجبل الذي يبدأ منه نهر دجلة بلديا فارقين ونهر قبايقب الذي ذكرناه
 يقسم هذا الجزء بقاعدتين احدهما غربية جنوبية وفيها أرض باطوس كما قلناه
 وأسافلها الى آخر الجزء شمالا ووراه الجبل الذي يبدأ منه نهر قبايقب أرض عمورية
 كما قلناه والقطعة الثانية شرقية شمالية على الثالث في الجنوب منها مبداء الدجلة
 والفرات وفي الشمال بلاد البيلقان متصلة بأرض عمورية من وراه جبل قبايقب
 وهي عريضة وفي آخرها عند مبداء الفرات بالدرثنة وفي الزاوية الشرقية الشمالية
 قطعة من بحر نيطنس الذي يمتد خليج القسطنطينية * وفي الجزء السادس من هذا
 الاقليم في جنوبه وغربه بلاد ارمينية متصلة الى أن يتجاوز وسط الجزء الى جانب
 الشرق وفيها بلاد أردن في الجنوب والغرب وفي شمالها تقيس وديبل وفي شرق أردن
 مدينة خلاط ثم بردعة وفي جنوبها بانحراف الى الشرق مدينة ارمينية ومن هنالك
 يخرج بلاد ارمينية الى الاقليم الرابع وفيها هنالك بلاد المراغة في شرق جبل الاكراد
 المسمى بارمي وقدم ذكره في الجزء السادس منه ويتاخم بلاد ارمينية في هذا
 الجزء وفي الاقليم الرابع قبله من جهة الشرق فيها بلاد أذر بيجان وآخرها في هذا الجزء
 شرقا بلاد أردبيل على قطعة من بحر طبرستان دخلت في الناحية الشرقية من الجزء
 السابع ويسمى بحر طبرستان وعليه من شماله في هذا الجزء قطعة من بلاد الخزر
 وهم التركمان ويبدأ من عند آخر هذه القطعة البحرية في الشمال جبال يتصل بعضها
 ببعض على سمت الغرب الى الجزء الخامس فتمت فيه منعطفة ومحيطة ببلده ماغارون
 ويخرج الى الاقليم الرابع عند آمد ويتصل بجبل اسله في أسافل الشام ومن هنالك
 يتصل بجبل اللكام كما روي بين هذه الجبال الشمالية في هذا الجزء ثانيا كالأبواب
 تفضى من الجانبين فتي جنوبها بلاد الأبواب متصلة في الشرق الى بحر طبرستان
 وعليه من هذه البلاد مدينة باب الأبواب وتتصل بلاد الأبواب في الغرب من ناحية
 جنوبها ببلاد ارمينية وبينهما في الشرق وبين بلاد أذر بيجان الجنوبية بلاد الزاب
 متصلة الى بحر طبرستان وفي شمال هذه الجبال قطعة من هذا الجزء في غربها مملكة
 السير في الزاوية الغربية الشمالية منها وفي زاوية الجزء ككله قنطرة أيضا من بحر
 نيطنس الذي يمتد خليج القسطنطينية وقدم ذكره ويحرف به هذه القطعة من نيطنس بلاد

السرير وعليها منها بلد أطراب ريدة وتصل بلاد السرير بين جبل الابواب والجهة
 الشمالية من الجزء الى أن ينتهي شرقا الى جبل حاجز بينها وبين أرض الخزر وعند
 آخرها مدينة صول ووراء هذا الجبل الحاجر قطعة من أرض الخزر تنتهي الى الزاوية
 الشرقية الشمالية من هذا الجزء من بحر طبرستان وآخر الجزء شمالا * والجزء
 السابع من هذا الاقليم غربيه كله مغمور بحر طبرستان وخرج من جنوبه في الاقليم
 الرابع القطعة التي ذكرنا هنالك أن عليها بلاد طبرستان وجبال الديلم الى قزوين
 وفي غربي تلك القطعة متصلة بها القطعة التي في الجزء السادس من الاقليم الرابع
 ويتصل بها من شمالها القطعة التي في الجزء السادس من شرقه أيضا وينكشف من
 هذا الجزء قطعة عند زاوية الشمالية الغربية يصب فيها نهر اثل في هذا البحر ويبنى من
 هذا الجزء في ناحية الشرق قطعة منكشفة من البحر هي مجالات للغز من أم الترك يحيط
 بها جبل من جهة الجنوب داخل في الجزء الثامن ويذهب في الغرب الى مادون وسطه
 فيعطف الى الشمال الى أن يلاقى بحر طبرستان فيحذف به ذاهبا معه الى بستانه في
 الاقليم السادس ثم يعطف مع طرفه وينارقه ويسمى هنالك جبل سياه ويذهب مغربا
 الى الجزء السادس من الاقليم السادس ثم يرجع جنوبا الى الجزء السادس من الاقليم
 الخامس وهذا الطرف منه هو الذي اعترض في هذا الجزء بين أرض السرير وأرض
 الخزر واتصلت أرض الخزر في الجزء السادس والسابع حد في هذا الجبل المسمى جبل
 سياد كاساني * والجزء الثامن من هذا الاقليم الخامس كله مجالات للغز من أم الترك
 وفي الجهة الجنوبية الغربية منه بحيرة خوارزم التي يصب فيها نهر جيجون دورها
 ثمانية ميل ويصب فيها أنهار كثيرة من أرض هذه المجالات وفي الجهة الشمالية
 الشرقية منه بحيرة عرعون دورها أربعة امانه ميل وماؤها حلو وفي الناحية الشمالية
 من هذا الجزء جبل مرغار ومعناه جبل الثلج لانه لا يذوب فيه وهو متصل بآخر الجزء
 وفي الجنوب عن بحيرة عرعون جبل من الحجر الصلد لا يثبت شيئا يسمى عرعون وبه
 سميت البحيرة وينجلب منه ومن جبل مرغار شمال البحيرة أنهار لا تنحصر عدتها
 فتصب فيها من الجانبين * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم بلاد أركس من أم
 الترك في غرب بلاد الغز وشرق بلاد الكيما كية ويحذف به من جهة الشرق آخر الجزء
 جبل قوقيا المحيط بياجوج وماجوج يعترض هنالك من الجنوب الى الشمال حتى
 ينعطف اول دخوله من الجزء العاشر وقد كان دخل اليه من آخر الجزء العاشر
 من الاقليم الرابع قبله احتف هنالك بالبحر المحيط الى آخر الجزء في الشمال ثم انعطف
 مغربا في الجزء العاشر من الاقليم الرابع الى مادون نصفه وأحاط من أوله الى هنا بلاد

الكيمياء كية ثم خرج الى الجزء العاشر من الاقليم الخامس فذهب فيه مغربا الى آخره
وبقيت في جنوبيه من هذا الجزء قطعة مستطيلة الى الغرب قبل آخر بلاد الكيمياء كية
ثم خرج الى الجزء التاسع في شرقيه وفي الاعلى منه وانعطف قريبا الى الشمال وذهب
على سبيله الى الجزء التاسع من الاقليم السادس وفيه السد هنالك كما ذكره وبقيت
منه القطعة التي أحاط بها جبل قوقيا عند زاوية الشرقية الشمالية من هذا الجزء
مستطيلة الى الجنوب وهي من بلاد يأجوج ومأجوج وفي الجزء العاشر من هذا
الاقليم أرض يأجوج متصلة فيه كله الاقطعة من البحر المحيط غمرت طرفا في شرقيه
من جنوبيه الى شماله والاقطعة التي يفصلها الى جهة الجنوب والغرب جبل قوقيا
حين مرت فيه وما سوى ذلك فأرض يأجوج ومأجوج والله سبحانه وتعالى أعلم

• (الاقليم السادس) • فالجزء الاول منه غمر البحر أكثر من نصفه واستدار شرقا مع
الناحية الشمالية ثم ذهب مع الناحية الشرقية الى الجنوب وانتهى قريبا من
الناحية الجنوبية فأنكشفت قطعة من هذه الارض في هذا الجزء داخله بين طرفين وفي
الزاوية الجنوبية الشرقية من البحر المحيط كالبحون فيه وينفسح طولا وعرضا وهي كلها
أرض بريطانيا وفي بابها بين الطرفين وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بلاد
صاقس متصلة ببلاد بنطو التي مر ذكرها في الجزء الاول والثاني من الاقليم الخامس
• والجزء الثاني من هذا الاقليم دخل البحر المحيط من غربه وشماله من غربه قطعة
مستطيلة أكبر من نصفه الشمالي من شرق أرض بريطانيا في الجزء الاول واتصلت بها
القطعة الاخرى في الشمال من غربه الى شرقه وانفصلت في النصف الغربي منه
بعض الشيء وفيه هنالك قطعة من جزيرة انكاطرة وهي جزيرة عظيمة متسعة مستقلة
على مدن وبها ملك ضخم وبقيتها في الاقليم السابع وفي جنوب هذه القطعة وجزيرتها
في النصف الغربي من هذا الجزء بلاد ارمنسية وبلاد افلاطس متصلين بها ثم بلاد
افرنسية جنوبا وغربا من هذا الجزء وبلاد برغونية شرقا عنها وكلها الامم الافرنجية
وبلا德的المانيين في النصف الشرقي من الجزء فجنوبه بلاد انكلابية ثم بلاد برغونية شمالا
ثم أرض لهو وبكة وشطونية وعلى قطعة البحر المحيط في الزاوية الشمالية الشرقية
أرض افريرة وكلها الامم اللمانيين • وفي الجزء الثالث من هذا الاقليم في الناحية
الغربية بلاد مراتيه في الجنوب وبلاد شطونية في الشمال وفي الناحية الشرقية بلاد
انكوية في الجنوب وبلاد بلونية في الشمال يعترض بينهما جبل بلواط داخل من الجزء
الرابع ويمر مغربا نحو ارف الى الشمال الى أن يقف في بلاد شطونية آخر النصف الغربي
• وفي الجزء الرابع في ناحية الجنوب أرض جنولية وتمتها في الشمال بلاد الروسية

ويفصل بينهما جبل بلواط من أول الجزء غربا إلى أن يقف في النصف الشرقي وفي شرق
 أرض بثولية بلاد جرمانية وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أرض القسطنطينية
 ومدينتها عند آخر الخليج الخارج من البحر الرومي وعند مدفعه في بحر نيطنش فيقع
 قطعة من بحر نيطنش في أعالي الناحية الشرقية من هذا الجزء ويمتد هذا الخليج
 و بينهما في الزاوية ببلاد مسينا • وفي الجزء الخامس من الأقليم السادس ثم في الناحية
 الجنوبية عند بحر نيطنش يتصل من الخليج في آخر الجزء الرابع ويخرج على سمته
 مشرقا فيمتر في هذا الجزء كله وفي بعض السادس على طول ألف وثلاثمائة ميل من
 مبدئه في عرض ستمائة ميل ويبقى وراء هذا البحر في الناحية الجنوبية من هذا الجزء
 في غربها إلى شرقها بر مستطيل في غربه هرقلية على ساحل بحر نيطنش متصلة بأرض
 ليلقان من الأقليم الخامس وفي شرقه بلاد اللانية وقاعدتها سوتلي على بحر نيطنش
 وفي شمال بحر نيطنش في هذا الجزء غربا أرض ترخان وشرقها بلاد الروسية وكلها على
 ساحل هذا البحر وبلاد الروسية محيطة ببلاد ترخان من شرقها في هذا الجزء من شمالها
 في الجزء الخامس من الأقليم السابع ومن غربها في الجزء الرابع من هذا الأقليم •
 وفي الجزء السادس في غربيه بقية بحر نيطنش وينحرف قليلا إلى الشمال ويبقى
 بينه هنالك وبين آخر الجزء شمالا بلاد قانية وفي جنوبه ومنقسما إلى الشمال بما
 انحرف هو كذلك بقية بلاد اللانية التي كانت آخر جنوبه في الجزء الخامس وفي
 الناحية الشرقية من هذا الجزء متصل أرض الخزر وفي شرقها أرض برطاس وفي
 الزاوية الشرقية الشمالية أرض بلغار وفي الزاوية الشرقية الجنوبية أرض
 بلجر يجوزها هنالك قطعة من جبل سياه كوه المنهط مع بحر الخزر في الجزء السابع
 بعده ويذهب بعد مفارقه مغربا فيجوز في هذه القطعة ويدخل إلى الجزء السادس
 من الأقليم الخامس فيتصل هنالك بجبل الابواب وعليه من هنالك ناحية بلاد الخزر
 • وفي الجزء السابع من هذا الأقليم في الناحية الجنوبية ما جازة جبل سياه بعد
 مفارقه بحر طبرستان وهو قطعة من أرض الخزر إلى آخر الجزء غربا وفي شرقها
 القطعة من بحر طبرستان التي يجوزها هذا الجبل من شرقها وشمالها ووراء جبل
 سياه في الناحية الغربية الشمالية أرض برطاس وفي الناحية الشرقية من الجزء
 أرض سحر ويخنال وهم أم الترك • وفي الجزء الثامن والناحية الجنوبية منه
 كلها أرض الجولخ من الترك في الناحية الشمالية غربا والأرض المتنة وشرق
 الأرض التي يقال إن بأجوج وما أجوج خربوها قبل بناء السد وفي هذه الأرض
 المتنة مبدأ نهر الأثل من أعظم أنهار العالم وممره في بلاد الترك ومصبه في بحر طبرستان

في الاقليم الخامس في الجزء السابع منه وهو كثير الانعطاف يخرج من جبل
 في الارض المنتنة من ثلاثة بنايع تجتمع في نهر واحد ويمر على سمت الغرب الى آخر
 السابع من هذا الاقليم فينعطف شمالا الى الجزء السابع من الاقليم السابع فيمضي طرفه
 بين الجنوب والمغرب فيخرج في الجزء السادس من السابع ويذهب مغربا غير بعيد
 ثم ينعطف ثانيا الى الجنوب ويرجع الى الجزء السادس من الاقليم السادس ويخرج
 منه جدول يذهب مغربا ويصب في بحر نيطنس في ذلك الجزء ويمر في قطعة بين
 الشمال والشرق في بلاد بلغار فيخرج في الجزء السابع من الاقليم السادس ثم
 ينعطف ثالثة الى الجنوب وينفذ في جبل سياه ويمر في بلاد الخزر ويخرج الى الاقليم
 الخامس في الجزء السابع منه فيصب هنالك في بحر طبرستان في القطعة التي انكشفت
 من الجزء عند الزاوية الغربية الجنوبية وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في
 الجانب الغربي منه بلاد خفشاخ من الترك وهم قفقياق وبلاد التركس منهم أيضا
 وفي الشرق منه بلاد باجوج يفصل بينهما جبل قوقيا المحيط وقد مر ذكره في بلد أمن
 البحر المحيط في شرق الاقليم الرابع ويذهب معه الى آخر الاقليم في الشمال ويفارقه
 مغربا وانحراف الى الشمال حتى يدخل في الجزء التاسع من الاقليم الخامس فيرجع
 الى سمتة الاول حتى يدخل في هذا الجزء التاسع من الاقليم من جنوبه الى شماله بانحراف
 الى المغرب وفي وسطه ههنا السد الذي بناه الاسكندر ثم يخرج على سمتة الى
 الاقليم السابع وفي الجزء التاسع منه فيمضي الى الجنوب الى أن يلقى البحر المحيط في
 شماله ثم ينعطف معه من هنالك مغربا الى الاقليم السابع الى الجزء الخامس منه
 فيتصل هنالك بقطعة من البحر المحيط في غربيه وفي وسط هذا الجزء التاسع هو السد
 الذي بناه الاسكندر كما قلناه والصحيح من خبره في القرآن وقد ذكره عبد الله بن خرداذبه
 في كتابه في الجغرافيا أن الواثق رأى في منامه كأن السد انفتح فاتبه فزعا وبعث
 ملاما الترجمان فوقف عليه وجاء بخبره ووصفه في حكاية طويلة ليست من مقاصد
 كتابنا * وفي الجزء العاشر من هذا الاقليم بلاد ما جوج متصلة فيه الى آخره على
 قطعة من هنالك من البحر المحيط أحاطت به من شرقه وشماله مستطيلة في الشمال
 وعريضة بعض الشيء في الشرق

(الاقليم السابع) والبحر المحيط قد غمر عامته من جهة الشمال الى وسط الجزء الخامس
 حيث يتصل بجبل قوقيا المحيط بيا جوج وما جوج فالجزء الاول والثاني مغموران
 بالماء الا ما انكشفت من جزيرة انكلطرة التي معظمها في الثاني وفي الاول منها طرف
 انعطاف بانحراف الى الشمال وبقيتها مع قطعة من البحر مستديرة عليه في الجزء الثاني

من الاقليم السادس وهي مذكورة هنالك والمجاز منها الى البر في هذه القطعة تسعة اثنى عشر ميلا ووراء هذه الجزيرة في شمال الجزء الثاني جزيرة رسلانده مستطيلة من الغرب الى الشرق * والجزء الثالث من هذا الاقليم مغموراً كثيراً بالبحر الاقطعة مستطيلة في جنوبه وتتسع في شرقها وفيها هنالك متصل أرض فلونية التي مر ذكرها في الثالث من الاقليم السادس وانها في شماله وفي القطعة من البحر التي تغمر هذا الجزء ثم في الجانب الغربي منها مستديرة فسيحة وتتصل بالبر من باب في جنوبها يفضى الى بلاد فلونية وفي شمالها جزيرة بوقاعة مستطيلة مع الشمال من المغرب الى المشرق * والجزء الرابع من هذا الاقليم شماله كله مغمور بالبحر المحيط من المغرب الى المشرق وجنوبه منكشف وفي غربه أرض قيمانك من الترك وفي شرقها بلاد طست ثم أرض رسلانده الى آخر الجزء شرقا وهي دائرة الثلوج وعمرانها قليل ويتصل ببلاد الروسية في الاقليم السادس وفي الجزء الرابع والخامس منه * وفي الجزء الخامس من هذا الاقليم في الناحية الغربية منه بلاد الروسية وينتهي في الشمال الى قطعة من البحر المحيط التي يتصل بها جبل قوقيا كما ذكرناه من قبل وفي الناحية الشرقية منه متصل أرض القمانيه التي على قطعة بحر نيطنش من الجزء السادس من الاقليم السادس وينتهي الى بحيرة طرمي من هذا الجزء وهي عذبة تنجلب اليها انهار كثيرة من الجبال عن الجنوب والشمال وفي شمال الناحية الشرقية من هذا الجزء أرض التتارية من التركمان الى آخره * وفي الجزء السادس من الناحية الغربية الجنوبية متصل بلاد القمانيه وفي وسط الناحية بحيرة عذبة تنجلب اليها الانهار من الجبال في النواحي الشرقية وهي جامدة دائماً الشدة البرد الا قليلا في زمن الصيف وفي شرق بلاد القمانيه بلاد الروسية التي كان مبدؤها في الاقليم السادس في الناحية الشرقية الشمالية من الجزء الخامس منه وفي الزاوية الجنوبية الشرقية من هذا الجزء بقية أرض بلغارا التي كان مبدؤها في الاقليم السادس وفي الناحية الشرقية الشمالية من الجزء السادس منه وفي وسط هذه القطعة من أرض بلغار من عطف نهر اثل القطعة الاولى الى الجنوب كما مر وفي آخر هذا الجزء السادس من شماله جبل قوقيا متصل من غربه الى شرقه * وفي الجزء السابع من هذا الاقليم في غربه بقية أرض بخنال من أم الترك وكان مبدؤها من الناحية الشمالية الشرقية من الجزء السادس قبله وفي الناحية الجنوبية الغربية من هذا الجزء ويخرج الى الاقليم السادس من فوقه وفي الناحية الشرقية بقية أرض صهر ب ثم بقية الارض المنتنة الى آخر الجزء شرقا وفي آخر الجزء من جهة الشمال جبل قوقيا المحيط متصلا من غربه الى شرقه * وفي الجزء

الثامن من هذا الاقليم في الجنوبية الغربية منه متصل الارض المنتنة وفي شرقها الارض المحفورة وهي من العجائب خرق عظيم في الارض بعيد المهوى فسيح الاقطار ممنوع الوصول الى قعره يستدل على عمرانه بالدخان في النهار والنيران في الليل تضيء وتغني وربما رؤى فيها نهر يشقها من الجنوب الى الشمال وفي الناحية الشرقية من هذا الجزء البلاد الخراب المتاخمة للسد وفي آخر الشمال منه جبل قوقيا متصلا من الشرق الى الغرب * وفي الجزء التاسع من هذا الاقليم في الجانب الغربي منه بلاد خضناخ وهم قفقق يجوزها جبل قوقيا حين يتعطف من شماله عند البحر المحيط ويذهب في وسطه الى الجنوب بانحراف الى الشرق فيخرج في الجزء التاسع من الاقليم السادس ويمر معترضا فيه وفي وسطه هنالك سد ياجوج وماجوج وقد ذكرناه في الناحية الشرقية من هذا الجزء ارض ياجوج وراء جبل قوقيا على البحر قليلة العرض مستطيلة أحاطت به من شرقه وشماله * والجزء العاشر غمر البحر جميعه * هذا آخر الكلام على الجغرافيا واقاليمها السبعة وفي خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لايات للعالمين

(المقدمة الثالثة)

(في المعتدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في احوال البشر والكثير من احوالهم)

(قدينا) أن المعمور من هذا المنكشف من الارض انما هو وسطه لا فراط الحرف في الجنوب منه والبرد في الشمال * ولما سكن الجانبان من الشمال والجنوب متضادين في الحار والبرد وجب أن تتدرج الكيفية من كليهما الى الوسط فيكون معتدلا فالاقليم الرابع يعدل العمران والذي حفا عليه من الثالث والخامس أقرب الى الاعتدال والذي يليهما والسادس بعيدان من الاعتدال والاول والسابع أبعد بكثير فلهمذا كانت العلوم والصناعات والمباني والملابس والاقوات والفواكه بل والحجوانات وجميع ما يتبعون في هذه الاقاليم الثلاثة المتوسطة مخصوصة بالاعتدال وسكانها من البشر أعدل أجساما وانواوا وأخلاقا وأديانا حتى النبوات فانما توجد في الاكثرفيها ولم تنفق على خبر بعثة في الاقاليم الجنوبية ولا الشمالية وذلك أن الانبياء والرسول انما يختص بهم أكمل النوع في خلقهم وأخلاقهم قال تعالى كنتم خيرا منه أخرجت للناس وذلك ايمت القبول لما يأتونهم به الانبياء من عند الله وأهل هذه الاقاليم أكمل لوجود الاعتدال لهم فتجدهم على غاية من التوسط في مساكنهم وملابسهم وأقواتهم ومصناعاتهم يتخذون البيوت

المنجدة بالحجارة المنقحة بالصناعة ويتناغون في استجددة الآلات والمواعين ويذهبون
 في ذلك الى الغاية وتوجد لديهم المعادن الطبيعية من الذهب والفضة والحديد
 والنحاس والرصاص والقصدير ويتصرفون في معاملاتهم بالنقد من العزيرين
 ويعبدون عن الانحراف في عامة أحوالهم وهؤلاء أهل المغرب والشام والحجاز
 واليمن والعراق والهند والسند والصين وكذلك الاندلس ومن قرب منها من الفرنجة
 والجلالقة والروم واليونانيين ومن كان مع هؤلاء أوقرياء منهم في هذه
 الاقاليم المعتدلة وهذا كان العراق والشام أعدل هذه كلها لانها وسط من جميع
 الجهات * وأما الاقاليم البعيدة من الاعتدال مثل الاول والثاني والسادس
 والسابع فأهلها أبعد من الاعتدال في جميع أحوالهم فبناؤهم بالطين والقصب
 وأقواتهم من الذرة والعشب وملابسهم من أوراق الشجر يخفضونها عليهم أو الجلود
 وأكثرهم عرايا من اللباس وفواكه بلادهم وأدمها غريبة التكوين مائلة الى
 الانحراف ومعاملاتهم بغير الحجرين الشريفين من نحاس أو حديد أو جلود يقدرونها
 للمعاملات وأخلاقهم مع ذلك قريبة من خلق الحيوانات العجم حتى يتقل عن الكثير
 من السودان أهل الاقاليم الاول أنهم يسكنون الكهوف والغياض ويأكلون
 العشب وأنهم متوحشون غير مستأنسين يأكل بعضهم بعضا وكذا الصقالب
 والسبب في ذلك أنهم أبعدهم عن الاعتدال يقرب عرض أمر جتهم وأخلاقهم من
 عرض الحيوانات العجم ويعبدون عن الانسانية بمقدار ذلك وكذلك أحوالهم في
 الديانة أيضا فلا يعرفون نبوة ولا يدينون بشريعة الامن قرب منهم من جوانب
 الاعتدال وهو في الاقل النادر مثل الحبشة المجاورين لليمن الدائنين بالنصرانية فيما
 قبل الاسلام وما بعده لهذا العهد ومثل أهل مالي وكوكو والتكرور والمجاورين
 لأرض المغرب الدائنين بالاسلام لهذا العهد يقال انهم دانوا به في المائة السابعة
 ومثل من دان بالنصرانية من أمم الصقالب والافرنجة والترك من الشمال ومن سوى
 هؤلاء من أهل تلك الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا فالدين مجهول عندهم والعلم مفقود
 بينهم وجميع أحوالهم بعيدة من أحوال الاناسي قريبة من أحوال البهائم ويخلق
 ما لا تعلمون ولا يعترض على هذا القول بوجود اليمن وحضر موت والاحقاف وبلاد
 الحجاز واليهامة وما اليها من جزيرة العرب في الاقاليم الاول والثاني فان جزيرة العرب
 كلها أحاطت بها البحار من الجهات الثلاث كما ذكرنا فكان لربطها أثر في رطوبة
 هوائها فنقص ذلك من اليبس والانحراف الذي يقتضيه الحسرو صار فيها بعض
 الاعتدال بسبب رطوبة البحر * وقد توهم بعض النسابين عن لاعلم لديه بطبائع

الكائنات أن السودان هم ولد حام بن نوح اختصوا ببلون السواد لدعوة كانت
عليه من أبيه ظهر أثرها في لونه وفيما جعل الله من الرق في عقبه وينقلون في ذلك حكاية
من خرافات القصص ودعاء نوح على ابنه حام قد وقع في التوراة وليس فيه ذكر
السواد وإنما دعا عليه بأن يكون ولده عبدا للولد أخوته لا غيره وفي القول بنسبة
السواد إلى حام غفلة عن طبيعة الحز والبرد وأثرهما في الهواء وفيما يتكون فيه من
الحيوانات وذلك أن هذا اللون يشمل أهل الأقليم الأول والثاني من مزاج هوائهم
للحرارة المتضاعفة بالجنوب فإن الشمس تسامت رؤسهم مرتين في كل سنة قريبة
أحدهما من الأخرى فتطول المسامحة العامة الفصول فيكثر الضوء لاجلها ويبلغ القميص
الشديد عليهم وتسود جلودهم لافراط الحز ونظير هذين الأقليمين مما يقابلها من
الشمال الأقليم السابع والسادس يشمل سكانها أيضا البياض من مزاج هوائهم للبرد
المفرط بالشمال إذا الشمس لا تزال بأفقهم في دائرة مرقى العين أو ما قرب منها
ولا ترتفع إلى المسامحة ولا ما قرب منها فيضعف الحز فيها ويشتد البرد عامة الفصول
تبيض ألوان أهلها وتنتهي إلى الزعورة ويتبع ذلك ما يقتضيه مزاج البرد المفرط
من زرقة العيون وبرش الجلود وصهوبة الشعور وتوسط بينهما الأقاليم الثلاثة
الخامس والرابع والثالث فكان لها في الاعتدال الذي هو مزاج المتوسط حظ وافر
والرابع أبلغها في الاعتدال غاية لنهايته في المتوسط كما قد تمناه فكان لأهله
من الاعتدال في خلقهم وخلقهم ما اقتضاه مزاج أهو يتهم وتبعه عن جانبيه الثالث
والخامس وإن لم يبلغا غاية المتوسط لميل هذا قليلا إلى الجنوب الحار وهذا قليلا إلى
الشمال البارد لأنهم لم ينتهيا إلى الانحراف وكانت الأقاليم الأربعة منحرفة وأهلها
كذلك في خلقهم وخلقهم فالأول والثاني للحز والسواد والسابع والسادس للبرد
والبياض ويسمى سكان الجنوب من الأقليمين الأول والثاني باسم الحبشة والزنج
والسودان أسماء مترادفة على الأمم المتغيرة بالسواد وإن كان اسم الحبشة مختصا منهم
بمن تجاه مكة واليمن والزنج بمن تجاه بحر الهند وليست هذه الأسماء لهم من أجل
اتسابهم إلى آدمي أسود لآحام ولا غيره وقد نجد من السودان أهل الجنوب من
يسكن الرابع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض فتبيض ألوان أعقابهم على
التدريج مع الأيام وبالعكس فيمن يسكن من أهل الشمال أو الرابع بالجنوب تسود
ألوان أعقابهم وفي ذلك دليل على أن اللون تابع لمزاج الهواء قال ابن سينا في
أرجوزته في الطب

بالزنج حرق غير الأجساد * حتى كسا جلودها سوادا

والصقلب اكتبت البياضا * حتى غدت جلودها بياضا
وأما أهل الشمال فلم يسموا باعتبار ألوانهم لأن البياض كان لونا لأهل تلك اللغة
الواضحة للأسماء فلم يكن فيه غرابة تحمل على اعتباره في التسمية لموافقته واعتياده
ووجدنا سكانه من الترك والصقالبة والطغرغرو والخزرو واللان والكثير من الأفرنجية
ويأجوج وماجوج أسماء متفرقة وأجبالا متعددة مسمين بأسماء متنوعة وأما أهل
الأقاليم الثلاثة المتوسطة أهل الاعتدال في خلقهم وخلقهم وسيرهم وكافة الأحوال
الطبيعية لا عتبار لديهم من المعاش والمساكن والصنائع والعلوم والرياسات والملك
فكانت فيهم النبوات والملك والدول والشرائع والعلوم والبلدان والامصار والمباني
والفراصة والصنائع الفاتحة وسائر الأحوال المعتدلة وأهل هذه الأقاليم التي وقفنا
على أخبارهم مثل العرب والروم وفارس وبنو اسرائيل واليونان وأهل الهند
والهند والصين * ولما رأى التسابون اختلاف هذه الامم بسماتها وشعارها حبرا
ذلك لأجل الانساب فجعلوا أهل الجنوب كلهم السودان من ولد حام وارتابوا في
ألوانهم فتمكفوا نقل تلك الحكاية الواغية وجعلوا أهل الشمال كلهم أوا كثرهم
من ولد يافث وأكثر الامم المعتدلة وأهل الوسط المنتهين للعلوم والصنائع والمال
والشرائع والسياسة والملك من ولد سام وهذا الزعم وان صادف الحق في انتساب
هؤلاء فليس ذلك بقياس مطرد انما هو اخبار عن الواقع لأن تسمية أهل الجنوب
بالسودان والحيشان من أجل انتسابهم الى حام الاسود وما أذا هم الى هذا الغلط
الاعتقادي ان التمييز بين الامم انما يقع بالانساب فقط وليس كذلك فان التمييز للجبل
والامة يكون بالنسب في بعضهم كالعرب وبنو اسرائيل والفرس ويكون بالجهة
والسمة كالزنج والحيشة والصقالبة والسودان ويكون بالعوائد والشعار والنسب
كالعرب ويكون بغير ذلك من أحوال الامم وخواصهم ومميزاتهم فتعميم القول في
أهل جهة معينة من جنوب أو شمال بأنهم من ولد فلان المعروف لما شملهم من نخلة
أولون أو سمة وجدت لذلك الاب انما هو من الاعاليط التي أوقع فيها الغفلة عن طبائع
الأكوان والجهات وأن هذه كلها تبدل في الاعقاب ولا يجب استمرارها سنة الله في
عباده ولن تجدل سنة الله تبديلا والله ورسوله أعلم بغيبه وأحكم وهو المولى المنعم
الرؤف الرحيم

(المقدمة الرابعة)

(في اثر الهواء في اخلاق البشر)

(قد رأينا) من خلق السودان على العموم الخفة والطيش وكثرة الطرب فتجددهم

من لعين بالرخص على كل توقيع موصوفين بالحق في كل قطروا السبب الصحيح في ذلك أنه
تتوزع في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيوانية
وتنفسه وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه وتقرر أن الحرارة قمشية
للجواء والبخار مخللة له زائدة في كميته ولهذا يجد المنتشى من الفرح والسرور
مالا يبرعنه وذلك بما يدخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها
سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتقشئ الروح وتنجي طبيعة الفرح وكذلك نجد
المتنعين بالجمامات اذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في ارواحهم فتسخت
لذلك حدث لهم فرح ورجاء تبعث الكثير منهم بالغناء الناشئ عن السرور ولما كان
السودان ساكنين في الاقليم الحار واستولى الحر على امرجتهم وفي أصل تكويتهم
كان في ارواحهم من الحرارة على نسبة ابدانهم واقليمهم فتكون ارواحهم بالقياس
الى ارواح أهل الاقليم الرابع أشد حرًا فتكون أكثره شيا فتكون أسرع فرحا
وسرورا وأكثر انبساطا ويحي الطيش على اثر هذه وكذلك يلحق بهم قلة أهل البلاد
البحرية لما كان هوائها متضاعف الحرارة بما يعكس عليه من أضواء بسبب البحر
وأشعته كانت حصتهم من نوابع الحرارة في الفرح والخفة موجودة أكثر من بلاد
التلول والجبال الباردة وقد نجد يسيرا من ذلك في أهل البلاد الجزيرية من الاقليم
الثالث لتوفر الحرارة فيها وفي هوائها الانعريفية في الجنوب عن الازيف والتلول
واعتبر ذلك أيضا بأهل مصر فانها في مثل عرض البلاد الجزيرية أو قريبا منها كيف
غلب الفرح عليهم والخفة والغفلة عن العواقب حتى انهم لا يتدخرون أقوات سنتهم ولا
شهرهم وعمتهم ما كلهم من أسواقهم * ولما كانت فاس من بلاد المغرب بالعكس منها
في التوغل في التلول الباردة كيف ترى أهلها مطرقين اطراق الحزن وكيف أفرطوا
في نظار العواقب حتى ان الرجل منهم ليتدخرقوت سنتين من حبوب الخنطة ويباكر
الاسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يرزأ شيئا من مدخره وتتبع ذلك في الاقاليم
والبلدان تجدد في الاخلاق اثر من كيفيات الهواء والله الخلاق العالم * وقد تعرض
المسعودي للبحث عن السبب في خفة السودان وطيشهم وكثرة الطرب فيهم وحاول
تعليله فلم يأت بشيء أكثر من أنه نقل عن جالينوس ويعقوب بن اسحق الكندي
أن ذلك لضعف أدمغتهم وما نشأ عنه من ضعف عقولهم وهذا كلام لا يحصل له ولا
برهان فيه والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(المقدمة الخاصة)

في اختلاف احوال العمران في النحب والجوع وما ينشأ عن ذلك من الآثار في ابدان البشر واخلاقهم

(اعلم) أن هذه الاقاليم المعتدلة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش بل فيها ما يوجد لاهله خصب العيش من الحبوب والادم والحنطة والفواكه لزكاء المنابت واعتماد الطينة ووفور العمران وفيها الارض الحرة التي لا تنبت زرعاً ولا عشباً بالجملة فسكانها في شتظف من العيش مثل أهل الحجاز و جنوب اليمن ومثل الملتين من صنهاجة السالكين بصحراء المغرب وأطراف الرمال فيما بين البربر والسودان فان هؤلاء يفتقدون الحبوب والادم جملة وانما أغذيتهم وأقواتهم الالبان واللحوم ومثل العرب أيضاً الجائلين في القفار فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والادم من التلول الا أن ذلك في الاحياء وتحت ربة من حاءيتها وعلى الاقلال لقله وجددهم فلا يتوصلون منه الى سد الخلة أو دونه افضل عن الرغد والخصب وتجدهم يقتصرون في غالب أحوالهم على الالبان وتعوضهم من الحنطة أحسن معاض وتجسد مع ذلك هؤلاء الفاقدين للحبوب والادم من أهل القفار أحسن حالاً في جسورهم وأخلاقهم من أهل التلول المنغمسين في العيش فالوانهم أصنى وأبدانهم أنقى وأشكالهم أتم وأحسن وأخلاقهم أبعد من الانحراف وأذهانهم أثقب في المعارف والادراكات هذا أمر تشهد له التجربة في كل جيل منهم فكثير ما بين العرب والبربر فيما رصفناه وبين الملتين وأهل التلول يعرف ذلك من خبره والسبب في ذلك والله أعلم ان كثرة الاغذية ورطوبة التي تولد في الجسم فضلات رديئة ينشأ عنها بعد أنظار في غير نسبة وكثرة الاخلاط الفاسدة العفنة ويتبع ذلك انكساف الالوان وقبح الاشكال من كثرة اللحم كما قلناه وتغطي الرطوبات على الازهان والافكار بما يصعد الى الدماغ من أنجزتها الرديئة فتقيء البلاد والغفلة والانحراف عن الاعتدال بالجملة واعتبر ذلك في حيوان القفر ومواطن الجذب من الغزال والنعام والمهي والزرافة والحمر الوحشية والبقر مع أمثالها من حيوان التلول والارياف والمراعي الخصبه كيف تجرد بينها بونا بعيداً في صفاء أديمها وحسن رونقها وأشكالها وتناسب اعضائها وحادثة مداركها فالغزال أخو المعز والزرافة أخو البعير والحمار والبقر أخو الحمار والبقر والبون بينهما مرات وما ذاك الا لاجل أن الخصب في التلول فعل في أبدان هذه من الفضلات الرديئة والاخلاط الفاسدة ما ظهر عليها أثره والجوع لحيوان القفر حسن في خلقها وأشكالها ماشاء واعتبر ذلك في الآدميين أيضاً فان نجد أهل الاقاليم المخصبة العيش الكثيرة الزرع والضرع والادم والفواكه يتصف أهلها غالباً بالبلادة في أذهانهم والخشونة في أجسامهم وهذا شأن البربر المنغمسين في الادم والحنطة مع المتقشفين في عيشهم المقتصرين على الشعير والذرة

مثل المصامدة منهم وأهل غمارة والسوس نجد هؤلاء أحسن حالاً في عقولهم
 وجسومهم وكذا أهل بلاد المغرب على الجملة المنغمسون في الادم والبر مع أهل
 الاندلس المفقود بأرضهم السمن جملة وغالب عيشهم الذرة فجد لأهل الاندلس من
 ذككاه العقول وحققة الاجسام وقبول التعليم ما لا يوجد لغيرهم وكذا أهل
 الضواحي من المغرب بالجملة مع أهل الحضرة والامصار فان أهل الامصار وان كانوا
 مكثرين مثلهم من الادم ومخصبين في العيش الا أن استعمالهم اياها بد العلاج بالطبخ
 والتلطيف بما يخلطون معها فيذهب لذلك غلظها ويرق قوامها وعامة ما كلكهم لحوم
 الضأن والدجاج ولا يغبطون السمن من بين الادم لتفاهته فتقل الرطوبات لذلك في
 أغذيتهم ويحتم ما تؤديه الى أجسامهم من الفضلات الرديئة فلذلك تجد جسوم أهل
 الامصار ألطف من جسوم البادية المخشنين في العيش وكذلك تجد المعتودين
 بالجوع من أهل البادية لافضلات في جسومهم غليظة ولا لطيفة * واعلم أن أثر هذا
 الخصب في البدن وأحواله يظهر حتى في حال الدين والعبادة فتجد المتقشفين من أهل
 البادية أو الحاضرة ممن يأخذون بالجويع والتجافي عن الملاذ أحسن ديناً واقبالاً
 على العبادة من أهل الترف والخصب بل تجد أهل الدين قليلين في المدن والامصار لما
 يعمها من المساواة والغفلة المتصلة بالاصكثار من اللعمان والادم ولباب البر
 ويختص وجود العباد والزهاد لذلك بالمتقشفين في غذائهم من أهل البوادي وكذلك
 تجد حال أهل المدينة الواحدة في ذلك مختلفاً باختلاف حالها في الترف والخصب
 وكذلك نجد هؤلاء المخصبين في العيش المنغمسين في طبيباته من أهل البادية وأهل
 الحواضر والامصار اذا نزلت بهم السنون وأخذتهم الجماعات يسرع اليهم الهلاك
 أكثر من غيرهم مثل برابرة المغرب وأهل مدينة فاس ومصر فيما يغننا مثل
 العرب أهل القفر والصحراء ولا مثل أهل بلاد النخل الذين غالب عيشهم التمرو ولا مثل
 أهل افريقية لهذا العهد الذين غالب عيشهم الشعير والزيت وأهل الاندلس الذين
 غالب عيشهم الذرة والزيت فان هؤلاء وان أخذتهم السنون والجماعات فلا تنال منهم
 ما تنال من أولئك ولا يكثرون فيهم الهلاك بالجوع بل ولا يندر والسبب في ذلك والله
 أعلم أن المنغمسين في الخصب المعتودين للادم والسمن خصوصاً انكتسب من ذلك
 أمواتهم رطوبة فوق رطوبتها الاصلية المزاجية حتى تجاوز حدتها فاذا خولف بها
 العادة بقله الاقوات وفقدان الادم واستعمال الخشن غير المألوف من الغذاء أسرع
 الى المعى اليبس والانكماش وهو عضو ضعيف في الغاية فيسرع اليه المرض ويهلك
 صاحبه دفعة لانه من المقاتل قائلها الصكون في الجماعات انما قتلهم الشبع المعتاد

السابق لا الجوع الحادث اللاحق * وأما المتعودون لقلة الأدم والسمن فلا
تزال وطوبتهم الأصلية واقفة عند حدتها من غير زيادة وهي قابلة لجميع الأغذية
الطبيعية فلا يقع في معاهم بتبديل الأغذية يس ولا انحراف فيسلون في الغالب من
الهلاك الذي يعرض لغيرهم بالخصب وكثرة الأدم في المأكول وأصل هذا
كله أن تعلم أن الأغذية والتلافها أو تركها إنما هو بالعادة فمن عود نفسه غذاء
ولامه تناولها كان لها لوفاء وصار الخروج عنه والتبديل به داء ما لم يخرج عن غرض
الغذاء بالجملة كالسوم واليتوع وما أفرط في الانحراف فأما ما وجد فيه التغذية
والملازمة فصير غذاء ما لوفاء بالعادة فإذا أخذ الإنسان نفسه باستعمال اللبن
والبقل عوضاً عن الخنطة حتى صار له ديدنا فقد حصل له ذلك غذاء واستغنى به
عن الخنطة والحبوب من غير شك وكذا من عود نفسه الصبر على الجوع
والاستغناء عن الطعام كما ينقل عن أهل الرياضات فإنا نسمع عنهم في ذلك أخباراً
غريبة يكاد ينكرها من لا يعرفها والسبب في ذلك العادة فإن النفس إذا ألفت شيئاً
صار من جبلتها وطبيعتها لأنها كثيرة التآون فإذا حصل لها اعتياد الجوع بالتدريج
والرياضة فقد حصل ذلك عادة طبيعية لها وما يتوهمه الأطباء من أن الجوع مهلك
فليس على ما يتوهمونه إلا إذا حلت النفس عليه دفعة وقطع عنها الغذاء بالكلية فإنه
حينئذ ينحس المعى ويناله المرض الذي يخشى معه الهلاك وأما إذا كان ذلك القدر
تدريجياً ورياضة باقلال الغذاء شيئاً بشياً كما يفعله المتصوفة فهو معزل عن
الهلاك وهذا التدرج يجرى حتى في الرجوع عن هذه الرياضة فإنه إذا رجع به
إلى الغذاء الأول دفعة خفيف عليه الهلاك وإنما يرجع به كبدأ في الرياضة بالتدريج
واقصد شاهدنا من يصبر على الجوع أربعين يوماً صالوا أكثر * وحضر أشياخنا
عجلت السلطان أبي الحسن وقد رفع إليه أمر أنان من أهل الجزيرة الخضراء وروى
حينئذ أنفسهما عن الأكل جملة منذ سنين وشاع أمرهما ووقع اختبارهما فصح
أنهما واتصل على ذلك حالهما إلى أن ماتا ورأينا كثيراً من أصحابنا أيضاً من يقتصر
على حليب البقر المعز يتقم ثدياً في بعض النهاراً وعند الإفطار ويكون ذلك غذاءه
واستدام على ذلك خمس عشرة سنة وغيرهم كثيراً لا يستنكر ذلك * واعلم أن الجوع
أصلح للبدن من أكثار الأغذية بكل وجه لمن قدر عليه أو على الاقلال منها وأنه
أثر في الأجسام والعقول في صفاتها وصلاتها كما قلناه واعتبر ذلك آثاراً للأغذية
التي تحصل عنها في الحسوم فقد رأينا المأخذين بلهوم الحيوانات الفاسدة العظيمة
الجمان نشأ أجبالهم كذلك وهذا ما شاهد في أهل البلادية مع أهل الحاضرة وكذا

المتغذون باللبان الابل ولحومها أيضاً ما يؤثر في أخلاقهم من الصبر والاحتمال والقدر وعلى حل الاثقال الموجود ذلك للابل وتنشأ أمعاؤهم أيضاً على نسبة أمعاء الابل في احمه والغلط فلا يطرقها الوهن ولا الضعف ولا ينالها من مضار الاغذية ما ينال غيرهم فيشربون البتوعات لاستطلاق بطونهم غير محجوبة كالحنظل قبل طبعه والدياس والقريون ولا ينال أمعاؤهم منها ضرر وهي لوتناولها أهل الحضرة الرقيقة أمعاؤهم بمائتات عليه من لطيف الاغذية لكان الهلاك أسرع اليهم من طرفة العين لما فيها من السمية ومن تأثير الاغذية في الابدان ما ذكره أهل الفساحة وشاهده أهل التجربة أن المباح اذا غذيت بالحبوب المطبوخة في بعر الابل واتخذ يصحها ثم حضرت عليه جاء المباح منها أعظم ما يكون وقديس تغنون عن تغذيتها وطبخ الحبوب بطرح ذلك البعر مع البيض المحض فيجىء دجاجها في غابة العظم وأمثال ذلك كثير فاذا رأينا هذه الاثام من الاغذية في الابدان فلا شد أن للبروع أيضاً آثارا في الابدان لان الضدين على نسبة واحدة في التأثير وعدمه فيكون تأثير الجوع في نفا الابدان من الزيادات الفاسدة والرطوبات المختلطة المخلة بالجسم والعقل كما كان الغذاء مؤثرا في وجود ذلك الجسم والله محيط بعلمه

(المقدمة السادسة)

(في أصناف المدر كين للغيب من البشر بالفطرة او بالرياضة وتقدمة الكلام في الوحي والرؤيا)

(اعلم) أن الله سبحانه اصطفى من البشر أشخاصا افضلهم بخطابه وفطرهم على معرفته وجعلهم وسائل بينه وبين عبادته يعرفونهم بمصالحهم ويحترضونهم على هدايتهم ويأخذون بحجزاتهم عن النار ويدلونهم على طريق النجاة وكان فيما يقبض اليهم من المعارف ويظهره على ألسنتهم من الخوارق والاخبار الكائنات المغيبة عن البشر التي لا سبيل الى معرفتها الا من الله بوساطتهم ولا يعلمونها الا بتعليم الله اياهم قال صلى الله عليه وسلم الاواني لا أعلم الا ما علمني الله واعلم أن خبرهم في ذلك من خاصيته وضرورته الصديق لما يتبين له عند بيان حقيقة النبوة وعلامة هذا الصنف من البشر أن توجد لهم في حال الوحي غيبة عن الحاضرين معهم مع غطيط كأنهم اغشى أو انغماء في رأى العين وليست منهم ما في شئ وانما هي في الحقيقة استغراق في لقاء الملك الروحاني بأدراكهم المناسب لهم الخارج عن مدارك البشر بالكيفية ثم يتنزل الى المدارك البشرية اما بسماع دوى من الكلام فيقتنهم أو يتمثل له صورة شخص يخاطبه بما جاء به من عند الله ثم تعجبى عنه تلك الحال وقد وعى ما ألقى اليه قال صلى الله

عليه وسلم وقد سئل عن الوحي أحبا بنا يا نبي مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم
عني وقد وعيت ما قال وأحبا بنا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول ويدركه أشباه
ذلك من الشدة والغط ما لا يعبر عنه في الحديث ~~كان مما يعالج من التزبل شدة~~
وقالت عائشة كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه
ليتفصد عرقا وقال تعالى أنا سئلي عليك قولا ثقيلا ولاجل هذه الحالة في تنزل الوحي
كان المشركون يرمون الأنبياء بالجنون ويقولون له رقي أو تابع من الجن وإنما ليس
عليهم بما شاهدوه من ظاهرتلك الأحوال ومن يضل الله فله من هاد * ومن
علاماتهم أيضا أنه يوجد لهم قبل الوحي خاق الخير والركاء وبجانبه المذمومات
والرجس أجمع وهذا هو معنى العصمة وكأنه منظور على التزهر عن المذمومات
والمناقرة لها وكانها منافقة لخبثته وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس
لبناء الكعبة فجعلها في آزاره فأنكشف فسقط مغشيا عليه حتى استتر بأزاره ودعى
إلى مجتمع ولية فيها عرس ولعب فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر
شيئا من شأنهم بل نزهه الله عن ذلك كله حتى أنه يجبلته يتزهر عن المطعومات المتكرهه
فقد كان صلى الله عليه وسلم لا يقرب البصل والثوم فقبل له في ذلك فقال انى أنا جى
من لا تاجون (وانظر) لما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم خديجة رضى الله عنها بحال
الوحي أول ما فجأه وأرادت اختباره فقالت اجعلنى بينك وبين ثوبك فلما فعل ذلك
ذهب عنه فقالت انه ملك وليس بشيطان ومعناه أنه لا يقرب النساء وكذلك سأله عن
أحب الثياب إليه أن يأتبه فيها فقال البياض والخضرة فقالت انه الملك يعنى أن
البياض والخضرة من ألوان الخير والملائكة والسواد من ألوان الشر والشياطين
وأمثال ذلك * ومن علاماتهم أيضا دعاؤهم إلى الدين والعبادة من الصلاة
والصدقة والعفاف وقد استدل خديجة على صدقه صلى الله عليه وسلم بذلك وكذلك
أبو بكر ولم يحتاجا فى أمره إلى دليل خارج عن حاله وخلقه وفي الصحيح أن هرقل حين
جاءه كتاب النبي صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام أحضره من وجد يلبسه من قريش
وفيه اسم أبوسفیان ليسألهم عن حاله فكان فيما سأل أن قال بهم يا أمركم فقال أبوسفیان
بالصلاة والزكاة والصلة والعفاف إلى آخر ما سأل فأجابه فقال ان يمكن ما تقول
حقا فهونى وسيملك ما تحت قدمى هاتين والعفاف الذى أشار إليه هرقل هو العصمة
فانظر كيف أخذ من العصمة والدعاء إلى الدين والعبادة دليل على صحة نبوته ولم يحتاج
إلى معجزة فدل على أن ذلك من علامات النبوة (ومن علاماتهم) أيضا أن يكونوا
ذوى حسب فى قومهم وفى الصحيح ما بعث الله نبيا إلا فى منعة من قومه وفى رواية اخرى

في ثروة من قومه استدركه الحاكم على العصيين وفي مساهلة هرقل لابي سفيان كما هو في
 الصحيح قال كيف هو فيكم فقال أبو سفيان هو فيناذ وحسب فقال هرقل والرسل تبعث
 في أحساب قومها ومعناه أن تكون له عصبه وشوكة تمنعه عن أذى الكفار حتى
 يبلغ رسالة وبه ويتم مراد الله من كمال دينه وملته (ومن علاماتهم) أيضا وقوع
 الخوارق لهم شاهدة بصدقهم وهي أفعال يعجز البشر عن مثلها فسميت بذلك معجزة
 وليست من جنس مقدور العباد وإنما تقع في غير محل قدوتهم وللناس في كيفية
 وقوعها ودلائلها على تصديق الانبياء خلاف فالتكلمون بناء على القول بالفاعل
 المختار قائلون بأنها واقعة بقدره الله لا بفعل النبي وان كانت أفعال العباد عند المعتزلة
 صادرة عنهم إلا أن المعجزة لا تكون من جنس أفعالهم وليس للنبي فيها عند سائر
 المتكلمين إلا التحدي بها بآذن الله وهو أن يستدل بها النبي صلى الله عليه وسلم قبل
 وقوعها على صدقه في مدعاه فاذا وقعت تنزل منزلة القول الصريح من الله بأنه
 صادق وتكون دلائلها حثث على الصدق قطعية فالمعجزة الدالة بمجموع الخوارق
 والتحدي ولذلك كان التحدي جزءا منها (وعبارة المتكلمين) صفة نفسها وهو واحد لانه
 معنى الذاتي عندهم والتحدي هو الفارق بينها وبين الكرامة والسحر اذ لا حاجة فيهما
 الى التصديق فلا وجود للتحدي إلا أن وجد اتفاقا وان وقع التحدي في الكرامة عند
 من يحجزها وكانت لها دلالة فأنها هي على الولاية وهي غير النبوة ومن هذا منع الاستاذ
 أبو إسحق وغيره وقوع الخوارق كرامة فرار من الالتباس بالنبوة عند التحدي
 بالولاية وقد أرينا المغايرة بينهما وأنه يتحدي بغير ما يتحدي به النبي فلا يلبس على أن
 النقل عن الاستاذ في ذلك ليس صريحا وربما حمل على انكار أن تقع خوارق الانبياء
 لهم بناء على اختصاص كل من الفريقين بخوارقه * وأما المعتزلة فالمانع من وقوع
 الكرامة عندهم أن الخوارق ليست من أفعال العباد وأفعالهم معتادة فلا فرق
 وأما وقوعها على يد الكاذب تليسا فهو محال أما عند الأشعرية فلأن صفة نفس
 المعجزة التصديق والهداية فلورقت بخلاف ذلك انقلب الدليل شبهة والهداية ضلالة
 والتصديق كذبا واستحالت الحقائق وانقلبت صفات النفس وما يلزم من فرض وقوعه
 المحال لا يكون ممكنا وأما عند المعتزلة فلأن وقوع الدليل شبهة والهداية ضلالة قبيح
 فلا يقع من الله * وأما الحكماء فالخوارق عندهم من فعل النبي ولو كان في غير محل
 القدرة بناء على مذهبهم في الإيجاب الذاتي ووقوع الحوادث بعضها عن بعض
 متوقف على الأسباب والشروط الحادثة مستندة أخيرا الى الواجب الفاعل بالذات
 لا بالاختيار وأن النفس النبوية عندهم لها خواص ذاتية منها صدور هذه الخوارق

بقدرته وطاعة العناصر له في التكوين والنبي عندهم محبوب على التصريف في
الأكوان سها توجه إليها واستجمع لها بما جعل الله من ذلك والخارق عندهم يقع
للنبي كان للتعدي أولم يكن وهو شاهد بصدق من حيث دلالاته على تصرف النبي
في الأكوان الذي هو من خواص النفس النبوية لإبانه يتنزل منزلة القول الصريح
بالتصديق فلذلك لا تكون دلالاتها عندهم قطعية كما هي عند المتكلمين ولا يكون
التعدي جزأ من المعجزة ولم يصح فارقها عن السحر والكرامة وفارقها عندهم عن
السحر أن النبي محبوب على أفعال الخير مصروف عن أفعال الشر فلا يلم الشر
بفوارقه والسحر على الضد فأفعاله كلها شر وفي مقاصد الشر وفارقها عن الكرامة
أن خوارق النبي مخصوصة كالصعود إلى السماء والتفوذ في الأجسام الكثيفة
وأحياء الموتى وتكليم الملائكة والطيران في الهواء وخوارق الولي دون ذلك كتكثير
القليل والحديث عن بعض المستقبل وأمثاله مما هو قاصر عن تصريف الأنبياء وبأني
النبي بجميع خوارقه ولا يقدر هو على مثل خوارق الأنبياء وقد قرر ذلك المتصوفة
فيما كتبوه في طريقهم ولقنوه عن أخبارهم وإذا تقرر ذلك فاعلم أن أعظم المعجزات
وأشرفها وأوضحها دلالة القرآن الكريم المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فإن
الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي وبأني بالمعجزة شاهدة
بصدقه والقرآن هو بنفسه الوحي المدعي وهو الخارق المعجز فشاهده في عينه
ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي فهو أوضح دلالة لاتحاد الدليل
والمدلول فيه وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم ما من نبي من الأنبياء إلا وأوتي من
الآيات ما مثله آمن عليه البشر وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إلى قأنا
أرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة
في الوضوح وقوة الدلالة وهو كونها نفس الوحي كان الصدق لها أكثر وضوحاً فكثر
المصدق المؤمن وهو التابع والامة

ولنذكر الآن تفسير حقيقة النبوة على ما شرحه كثير من المحققين ثم نذكر حقيقة
الكهانة ثم الرؤيا ثم شأن المرافين وغير ذلك من مدارك النسي فنقول

• (اعلم) • أرشدنا الله وإياله أن نشاهد هذا العالم بما فيه من المخلوقات كلها على
هيئة من الترتيب والاحكام وربط الاسباب بالمسيبات واتصال الأكوان بالأكوان
واستحالة بعض الموجودات إلى بعض لا تنقضي عما به في ذلك ولا تنتهي غاياته وأبدأ
من ذلك بالعالم المحسوس الجفماني وأقوال العالم العناصر المشاهدة كيف تدرج صاعداً
من الأرض إلى الماء ثم إلى الهواء ثم إلى النار متصلاً ببعضها بعض وكل واحد منها

مستعداً الى أن يستحيل الى ما يليه صاعداً وهابطاً ويستحيل بعض الاوقات والصاعد
منها اللفظ مما قبله الى أن ينتهي الى عالم الافلاك وهو اللفظ من الكل على طبقات
اتصل بعضها ببعض على هيئة لا يدرك الحس منها الا الحركات فقط وبها يهتدى بعضهم
الى معرفة مقاديرها وأوضاعها وما بعد ذلك من وجود الذوات التي لها هذه الآثار
فيها ثم انظر الى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان على هيئة
بديعة من التدرج آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر
لهو آخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الحلزون
والصدف ولم يوجد لهما الاقوة اللمس فقط ومعنى الاتصال في هذه المكونات أن آخر
أفق منها مستعد بالاستعداد الغريب لان يصير أول أفق الذي بعده واتسع عالم
الحيوان وتعددت أنواعه وانتهى في تدرج التكوين الى الانسان صاحب الفكر
والروية ترتفع اليه من عالم القدرة الذي اجتمع فيه الحس والادراك ولم ينته الى الروية
والفكر بالنعل وكان ذلك أول أفق من الانسان بعده وهذا غاية شهودنا ثم اننا نجد في
العوالم على اختلافها آثاراً متنوعة في عالم الحس آثار من حركات الافلاك والعناصر
وفي عالم التكوين آثار من حركة النمو والادراك تشهد كلها بأن لها مؤثرات مابينها للجسام
فهو راجحاً ويتصل بالمكونات لوجود اتصال هذا العالم في وجودها وذلك هو النفس
المدركة والمحركة ولا بد فوقها من وجود آخر يعطيها قوى الادراك والحركة ويتصل بها
أيضاً ويكون ذاته ادراكاً كصرفا وتعلقاً بمحضها وهو عالم الملائكة فوجب من ذلك
ان يكون للنفس استعداد للانسلاخ من البشرية الى الملكية ليصير بالنعل من جنس
الملائكة وقما من الاوقات في لحظة من اللحظات وذلك بعد أن تكمل ذاتها الروحانية
بالفعل كما نذكره بعد ويكون لها اتصال بالافق الذي بعدها شأن الموجودات المرتبة
كما قدمنا فلها في الاتصال جهتا العلو والسفل هي متصلة بالبدن من أسفل منها
ومكتسبة به الدارك الحسية التي تستعدت بها للعصول على التعقل بالفعل ومتصلة من
جهة الاعلى منها بأفق الملائكة ومكتسبة به المدارك العلية والغيبية فان عالم الحوادث
موجود في تعقلاتهم من غير زمان وهذا على ما قدمنا من الترتيب المحكم في الوجود
باتصال ذواته وقواه بعضها ببعض ثم ان هذه النفس الانسانية غائبة عن العيان
وآثارها ظاهرة في البدن فكأنه وجميع أجزائه مجتمعة ومفترقة آلات للنفس ولقواها
أما الفاعلية فالبطش باليد والمشى بالرجل والكلام باللسان والحركة الكلية
بالبدن متدافعا وأما المدركة وان كانت قوى الادراك مرتبة ومرتبعة الى القوة
العلية منها ومن المفكرة التي يعبر عنها بالناطقة فقوى الحس الظاهرة بآلاته من

السمع والبصر وسائرها يرتقي الى الباطن وأوله الحس المشترك وهو قوة تدرك
 المحسوسات مبصرة ومسموعة وملوسة وغيرها في حالة واحدة وبذلك فارقت قوة
 الحس الظاهر لان المحسوسات لا تزدحم عليها في الوقت الواحد ثم يؤدبه الحس
 المشترك الى الخيال وهي قوة تمثل الشيء المحسوس في النفس كما هو مجرد عن المواد
 الخارجة فقط وآلة هاتين القوتين في تصرفهما البطن الاقل من الدماغ مقسمة
 للاولى ومؤخره لثمانية ثم يرتقي الخيال الى الواهمة والحافظة فالواهمة لا تدرك
 المعاني المتعلقة بالخصائص كعداوة زيد وصدقة عمرو ودرجة الاب واقتراس الذئب
 والحافظة لا يداع المدركات كلها متخيلة وغير متخيلة وهي لها كالتخزينه تحفظها الوقت
 الحاجة اليها والآلة هاتين القوتين في تصرفهما البطن المؤخر من الدماغ آوله للاولى
 ومؤخره للاخرى ثم ترتقي جميعها الى قوة الفكر وآله البطن الاوسط من الدماغ وهي
 القوة التي يقع بها حركة الروية والتوجه نحو العقل فتحرك النفس به اذا تم الماركة
 فيها من النزوع للتخلص من درك القوة والاستعداد الذي للبشرية وتخرج الى الفعل
 في تعقلها تشبها بالملا الاعلى الروحاني وتصير في اول مراتب الروحانيات في
 ادراكها بغير الآلات الجسمانية فهي متحركة دائما ومتوجهة نحو ذلك وقد تنسلخ
 بالكلية من البشرية وروحانيتها الى الملكية من الافق الاعلى من غير اكتساب
 بل بما جعل الله فيها من الجيلة والقطرة الاولى في ذلك (والنفوس البشرية) على ثلاثة
 اصناف صنف عاجز بالطبع عن الوصول الى الادراك الروحاني فيقطع بالحركة الى
 الجهة السفلى فحور المدارك الحسية والخيالية وتركيب المعاني من الحافظة والواهمة
 على قوانين محصورة وترتيب خاص يستفيدون به العلوم التصورية والتصديقية التي
 للفكر في البدن وكلها خيالي منحصر نطاقه اذ هو من جهة مبدئه ينتهي الى الاوليات
 ولا يتجاوزها وان فسد فسد ما بعدها وهذا هو في الاغلب نطاق الادراك البشري
 الجسماني واليه تنتهي مدارك العلماء وفيه ترسخ أقدمهم وصنف متوجه بتلك
 الحركة الفكرية نحو العقل الروحاني والادراك الذي لا يفتقر الى الآلات البدنية
 بما جعل فيه من الاستعداد لذلك فيتسع نطاق ادراكه عن الاوليات التي هي نطاق
 الادراك الاول البشري ويسرح في فضاء المشاهدات الباطنية وهي وجدان كلها
 لانطاقها من مبدئها ولا من منتهاها وهذه مدارك العلماء الاواباء أهل العلوم
 الدنيوية والمعارف الربانية وهي الحاصلة بعد الموت لاهل السعادة في البرزخ وصنف
 مفلور على الانسلاخ من البشرية بجيلة جسمانيتها وروحانيتها الى الملائكة من
 الافق الاعلى له صفة في لحظة من اللحظات ملكا بالفعل ويحصل له شهود الملا الاعلى

في أفقهم وسماع الكلام النفساني والخطاب الالهي في تلك اللحظة وهو لاء الانبياء
 صلوات الله وسلامه عليهم جعل الله لهم الانسلاخ من البشرية في تلك اللحظة وهي
 حالة الوحي فطرة فطرهم الله عليها وجبلة صورهم فيها وزههم عن موانع البدن
 وعوائقه ماداموا ملبسين لها بالبشرية بتماركة في غير انزهم من القصد والاستقامة
 التي يحاذون بها تلك الوجهة وركز في طبائعهم رغبة في العبادة تكشف تلك الوجهة
 وتسيغ نحوها فهم يتوجهون الى ذلك الافق بذلك النوع من الانسلاخ متى شاؤوا
 بتلك الفطرة التي فطروا عليها الابا كتساب ولاصناعة فلذا توجهوا وانسلخوا عن
 بشريتهم وتلقوا في ذلك الملا الاعلى ما يتلقونه عاجوابه على المدارك البشرية منزلا
 في قواها الحكمة التبليغ للعبادة فتارة يسمع دويا كانه رمز من الكلام يأخذ منه المعنى
 الذي ألقى اليه فلا ينقضى الدوى الا وقد وعاه وفهمه وتارة يتمثل له الملك الذي يلقي اليه
 رجلا فيكاهه ويبي ما يقوله والتلقى من الملك والرجوع الى المدارك البشرية وفهمه
 ما ألقى عليه كله كأنه في لحظة واحدة بل أقرب من لمح البصر لانه ليس في زمان بل كلها
 تقع جميعا فيظهر كأنها سريعة ولذلك سميت وحيا لان الوحي في اللغة الاسراع (واعلم)
 ان الاولى وهي حالة الدوى هي رتبة الانبياء غير المرسلين على ما حققوه والثانية
 وهي حالة تمثيل الملك رجلا يخاطب هي رتبة الانبياء المرسلين ولذلك كانت اكمل من
 الاولى وهذا معنى الحديث الذي فسرفيه النبي صلى الله عليه وسلم الوحي لما سألته
 الحرث بن هشام وقال كيف يأتيك الوحي فقال أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو
 أشده على ثم يفصم عني وقد وعيت ما قال وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي
 ما يقول وانما كانت الاولى أشد لانهم ابداً الخروج في ذلك الاتصال من القوة الى
 الفعل فيعسر بعض العسر ولذلك لما عاج فيها على المدارك البشرية اختصت بالسمع
 وصعب ما سواه وعند ما يتكرر الوحي ويكثر التلقى يسهل ذلك الاتصال فعند ما يعرج
 الى المدارك البشرية يأتي على جميعها وخصوصا الاوضح منها وهو ادراك البصر وفي
 العبارة عن الوحي في الاولى بصيغة الماضي وفي الثانية بصيغة المضارع لطيفة من
 البلاغة وهي ان الكلام جاء مجي التعميل لحالات الوحي فمثل الحالة الاولى بالدوى
 الذي هو في المتعارف غير كلام وأخبر ان الفهم والوعي يتبعه غيب انقضائه فناسب عند
 تصوير انقضائه وانفصاله العبارة عن الوعي بالماضي المطابق للانقضاء والانقطاع
 ومثل الملك في الحالة الثانية برجل يخاطب ويتكلم والكلام يساوقه الوعي فناسب
 العبارة بالمضارع المقتضى للتجدد واعلم ان في حالة الوحي كلها صعوبة على الجملة وشدة
 قد أشار اليها القرآن قال تعالى اناس ليق عليك قولاً ثقيلاً وقالت عائشة كان

مما يعانى من التزليل شدة وقالت كان ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيه صم
 عنه وان جبينه ليتفصد عرقا ولذلك كان يحدث عنه في تلك الحالة من الغيبة
 والغبط ما هو معروف وسبب ذلك ان الوحي كما قررنا بمفارقة البشرية الى المدارك
 الملكية وتلقى كلام النفس فيحدث عنه شدة من مفارقة الذات ذاتها وانسلاخها عنها
 من أفتها الى ذلك الافق الآخر وهذا هو معنى الغط الذي عبر به في مبدء الوحي في
 قوله فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ فقلت ما أنا بقارئ وكذا ثمانية
 وثلاثة كما في الحديث وقتا يقضى الاعتياد بالتدريج فيه شيئا فشيئا الى بعض السهولة
 بالقياس الى ما قبله ولذلك كان تنزل نجوم القرآن وسوره وآيه حين كان بمكة أقصر
 منها وهو بالمدينة وانظر الى ما نقل في نزول سورة براءة في غزوة تبوك وانها نزلت كلها
 أو أكثرها عليه وهو يسير على ناقته بعد أن كان بمكة ينزل عليه بعض السورة من قصار
 المفصل في وقت وينزل الباقي في حين آخر وكذلك كان آخر ما نزل بالمدينة آية الدين
 وهي ما هي في الطول بعد أن كانت الآيه تنزل بمكة مثل آيات الرحمن والذاريات والمدثر
 والنجم والقلق وأمثالها واعتبر من ذلك علامة تميز بين المكي والمدني من السور
 والآيات والله المرشد للصواب هذا محصل أمر النبوة (وأما الكهانة) فهي أيضا
 من خواص النفس الانسانية وذلك أنه قد تقدم لنا في جميع ما مر أن للنفس الانسانية
 استعداد الانسلاخ من البشرية الى الروحانية التي فوقها وأنه يحصل من ذلك لمحة
 للبشر في صنف الانبياء بما فطر واعلمه من ذلك وتقرأ أنه يحصل لهم من غير اكتساب
 ولا استعانة بشيء من المدارك ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاما وحركة
 ولا بأمر من الامور انما هو انسلاخ من البشرية الى الملكية بالفطرة في لحظة أقرب
 من لمح البصر واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعداد موجودا في الطبيعة البشرية
 فيعطى التقسيم العقلي أن هنا صنفا آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الاول
 نقصان الضد عن ضده الكامل لان عدم الاستعانة في ذلك الادراك ضد الاستعانة
 فيه وشتان ما بينهما فاذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفا آخر من البشر مفطورا
 على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عندما يعينها النزوع لذلك
 وهي ناقصة عنه بالجبله فيكون لها بالجبله عندما يعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور
 جزئية محسوسة أو تخيلية كالأجسام الشفاقة وعظام الحيوانات وسجع الكلام
 وما سخ من طير أو حيوان فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعينا به في ذلك
 الانسلاخ الذي يقصده ويكون كالمشييع له وهذه القوة التي فهم مبدء ذلك الادراك
 هي الكهانة ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص والقصور عن الكمال كان

ادراكها في الجزئيات أكثر من الكلبيات ولذلك تكون المخيلة فيهم في غاية القوة لانها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذات ما في نوم أو يقظة وتكون عندها حاضرة عبيدة تخضرها المخيلة وتكون لها كالمراة تنظر فيها دائماً ولا يقوى الكاهن على الكمال في ادراك المعقولات لان وحيه من وحي الشيطان وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذي فيه السجع والموازنة ليستغل به عن الحواس ويقوى بعض الشيء على ذلك الاتصال الناقص فيهبس في قلبه عن تلك الحرصكة والذي يشبهها من ذلك الاجنبي ما يقذفه على لسانه فربما صدق ووافق الحق وربما كذب لانه يتم نقصه بأمر اجنبي عن ذاته المدركة وبما ين لها غير ملامم فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به وربما يفزع الى الظنون والتخمينات حرصاً على الظفر بالإدراك البرزخي وعمومها على السائلين وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لانهم أرفع سائر أصنافهم وقد قال صلى الله عليه وسلم في مثله هذا من سجع الكهان فجعل السجع محتصاً بهم بمقتضى الاضافة وقد قال ابن صياد حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار كيف أتيتك هذا الامر قال يأتيني صادق وكاذب فتقال خلط عليك الامر يعني أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعترى بها الكذب بحال لانها اتصال من ذات النبي بالمالا الاعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبي والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الاجنبية فكانت داخله في ادراكه والتبست بالادراك الذي توجه اليه فصار مختلطاً بهم وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة وانما قلنا ان أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرتبات والمسموعات وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز بعض الشيء (وقد زعم) بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شأن رجم الشياطين بالشهب بين يدي البعثة وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع في القرآن والكهان انما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ولا يقوم من ذلك دليل لان علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه وأيضاً فالآية انما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء وهو ما يتعلق بخبر البعثة ولم يمنعوا مما سوى ذلك وأيضاً فانما كان ذلك الانقطاع بين يدي النبوة فقط ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه وهذا هو الظاهر لان هذه المدارك كلها تخمد في زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرير عند وجود الشمس لان النبوة هي النور الاعظم الذي يخفي معه كل نور ويذهب

وقد زعم بعض الحكماء أنها انما توجد بين يدي النبوة ثم تقطع وهكذا مع كل نبوة
وقعت لان وجود النبوة لا بد له من وضع فلكي يقتضيه وفي تمام ذلك الوضع تعلم
تلك النبوة التي دل عليها ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضي وجود طبيعة من ذلك
النوع الذي يقتضيه ناقصة وهو معنى الكاهن على ما قررناه فقبل أن يتم ذلك الوضع
الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضي وجود الكاهن اما واحدا أو متعددا فاذا تم
ذلك الوضع تم وجود النبي بكامله وانقضت الارضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة
فلا يوجد منها شيء بعد وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكي يقتضي بعض أثره وهو
غير مسلم فلعل الوضع انما يقتضي ذلك الاثر بهيئته الخاصة ولو نقص بعض أجزائها
فلا يقتضي شيئا لأنه يقتضي ذلك الاثر ناقصا كما قالوه ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا
زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبي ودلالة معجزته لان لهم بعض الوجود ان من
أمر النبوة كالكل انسان من أمر اليوم ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن
بأشد مما للأنام ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم في التكذيب الاقوة المطامع في أنها نبوة
لهم فيقومون في العناد كما وقع لامية بن أبي الصلت فانه كان يطمع أن يتنبأ وكذا وقع
لابن صباد ولمسيلة وغيرهم فاذا غلب الايمان وانقطعت تلك الاماني آمنوا أحسن
ايمان كما وقع لطايحة الاسدي وسواد بن قارب وكان لهما في الفتوحات الاسلامية
من الآثار الشاهدة بحسن الايمان * (وأما الرؤيا) فحقيقته مطالعة النفس
الناطقية في ذاتها الروحانية لمحمة من صور الواقعات فانها عندما تكون روحانية تكون
صور الواقعات فيها موجودة بالفعل كما هو شأن الذوات الروحانية كلها وتصير روحانية
بأن تجرد عن المواد الجسمانية والمدارك البدنية وقد يقع لها ذلك لمحمة بسبب النوم كما
نذكر فتقربس بها علم ما تشوف اليه من الامور المستقبله وتعود به الى مداركها
فان كان ذلك الاقباس ضعيفا وغير جلي بالمحاكاة والمثال في الخيال لتخلطه فحتاج
من أجل هذه المحاكاة الى التعبير وقد يكون الاقباس قويا يستغنى فيه عن المحاكاة
فلا يحتاج الى تعبير مخلوصه من المثال والخيال والسبب في وقوع هذه اللحمة للنفس
أنها ذات روحانية بالقوة مستكمله بالبدن ومداركه حتى تصير ذاتها عقلا محضا
ويكمل وجودها بالفعل فتكون حينئذ ذاتا روحانية مدركة بغير شيء من الآلات
البدنية الا أن نوعها في الروحانيات دون نوع الملائكة أهل الافق الاعلى على الذين
لم يستكملوا ذاتهم بشيء من مدارك البدن ولا غيره فهذا الاستعداد حاصل لهم
مادامت في البدن ومنه خاص كالذي للاولياء ومنه عام للبشر على العموم وهو أمر
الرؤيا * وأما الذي للانبياء فهو استعداد بالانسلاخ من البشرية الى الملكية

المهضة التي هي أعلى الروحانيات ويخرج هذا الاستعداد فيهم متكررا في حالات
 الوحي وهو عندما يعرج على المدارك البدنية ويقع فيها ما يقع من الادراك شبيها بحال
 النوم شبيها بناوان كان حال النوم أدون منه بكثير فلاجل هذا الشبه عبر الشارع
 عن الرؤيا بأنهم اجزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة وفي رواية ثلاثة وأربعين وفي
 رواية سبعين وليس العدد في جميعها مقصودا بالذات وانما المراد الكثرة في تفاوت هذه
 المراتب بدليل ذكر السبعين في بعض طرقه وهو للتكثير عند العرب وما ذهب اليه
 بعضهم في رواية ستة وأربعين من أن الوحي كان في مبتدئه بالرؤيا ستة أشهر وهي
 نصف سنة وتمد النبوة كلها بمكة والمدينة ثلاثة وعشرون سنة فنصف السنة منها جزء
 من ستة وأربعين فكلام بعيد من التحقيق لانه انما وقع ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم
 ومن أين لنا أن هذه المدة وقعت لغيره من الانبياء مع أن ذلك انما يعطى نسبة زمن
 الرؤيا من زمن النبوة ولا يعطى نسبة حقيقتها من حقيقة النبوة واذا تبين لك هذا مما
 ذكرناه أولا علمت أن معنى هذا الجزء نسبة الاستعداد الاوّل الشامل للبشر الى
 الاستعداد القريب الخاص بصنف الانبياء الفطري لهم سلوات الله عليهم اذ هو
 الاستعداد البعيد وان كان عامّا في البشر ومعه عوائق وموانع كثيرة من حصوله
 بالفعل ومن أعظم تلك الموانع الحواس الظاهرة ففطر الله البشر على ارتفاع حجاب
 الحواس بالنوم الذي هو جبلي لهم فتعرض النفس عند ارتفاعه الى معرفة
 ما تشوف اليه في عالم الحق فتدرك في بعض الاحيان منه لمحة يكون فيها الظفر
 بالمطلوب ولذلك جعلها الشارع من المبشرات فقال لم يبق من النبوة الا المبشرات
 قالوا وما المبشرات يا رسول الله قال الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له
 (وأما سبب ارتفاع حجاب الحواس) بالنوم فعلى ما أصفه لك وذلك أن النفس الناطقة
 انما ادراكها وأفعالها بالروح الحيواني الجسماني وهو بخار لطيف مركزه بالتجويف
 الايسر من القلب على ما في كتب التشریح بحال ينوس وغيره وينبعث مع الدم في
 الشريانات والعروق فيعطى الحس والحركة وسائر الافعال البدنية ويرتفع لطيفه الى
 الدماغ فيعدل من برده وتم أنفعال القوى التي في بطونه فالنفس الناطقة انما تدرك
 وتعقل بهذا الروح البخاري وهي متعلقة بما اقتضته حكمة التكوين في أن
 اللطيف لا يؤثر في الكثيف ولما لطف هذا الروح الحيواني من بين المواد البدنية صار
 محلا لآثار الذات المبينة له في جسمانيته وهي النفس الناطقة وصارت آثارها حاصلة
 في البدن بواسطة زقد كما قدمنا أن ادراكها على نوعين ادراكا بالظاهر وهو بالحواس
 الخمس وادراكا بالباطن وهو بالقوى الدماغية وأن هذا الادراك كله صارف لها عن

ادراكها ما فوقها من ذواتها الروحانية التي هي مستعدة له بالفطرة ولما كانت
الحواس الظاهرة جسمانية كانت معرضة للوسن والفسل بما يدركها من التعب
والكلال وتغشى الروح بكثرة التصرف فخلق الله لها طلب الاستجمام لتجرد الادراك
على الصورة الكاملة وانما يكون ذلك بانحناس الروح الحيواني من الحواس الظاهرة
كلها ورجوعه الى الحس الباطن ويعين على ذلك ما يغشى البدن من البرد بالليل
فتطلب الحرارة الغريزية أعماق البدن وتذهب من ظاهره الى باطنه فتكون مشبعة
مركبها وهو الروح الحيواني الى الباطن ولذلك كان النوم للبشر في الغالب انما هو بالليل
فاذا انحنس الروح عن الحواس الظاهرة ورجع الى القوى الباطنة وخفت عن النفس
شواغل الحس وموانعه ورجعت الى الصورة التي في الحافظة تمثل منها بالتركيب
والتحليل صور خيالية وأكثر ما تكون معتادة لانها منتزعة من المدركات المتعاهدة
قريبا ثم ينزاه الحس المشترك الذي هو جامع الحواس الظاهرة فيدركها على أنحاء
الحواس الخمس الظاهرة وربما التفتت النفس افقة الى ذاتها الروحانية مع منازعتها
القوى الباطنية فتدرك اذراكها الروحانية لانها فقطرة عليه وتقتبس من صور
الاشياء التي صارت متعلقة في ذاتها حينئذ ثم يأخذ الخيال تلك الصور المدركة فيمثلها
بالحقيقة أو المحاكاة في القوالب المعهودة والمحاكاة من هذه هي المحتاجة للتعبير
وتصرفها بالتركيب والتحليل في صور الحافظة قبل أن تدرك من تلك اللوحة ما تدركه
هي أضغاث أحلام (وفي الصحيح) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال الرؤيا ثلاث رؤيا
من الله ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان وهذا التفصيل مطابق لما ذكرناه فالجلى
من الله والمحاكاة الداعية الى التعبير من الملك وأضغاث الأحلام من الشيطان لانها
كلها باطل والشيطان ينبوع الباطل هذه حقيقة الرؤيا وما يسببها ويشيعها من النوم
وهي خواص للنفس الانسانية موجودة في البشر على العموم لا يختص بها أحد منهم
بل كل واحد من الانسائي رأى في نومه ما صدر له في يقظته مرارا غير واحدة وحصل
له على القطع أن النفس مدركة للغيب في النوم ولا بد واذا جاز ذلك في عالم النوم
فلا يتنع في غيره من الاحوال لان الذات المدركة واحدة وخواصها عامة في كل حال
والله الهادي الى الحق بمنه وفضله

(فصل) ووقوع ما يقع للبشر من ذلك غالب انما هو من غير قصد ولا قدرة عليه وانما
تكون النفس متشوقة لذلك الشيء فيقع لها بتلك اللوحة في النوم لانها تقصد الى ذلك
فتراه وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضات ذكر أسماء تذكر عند
النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يتشوف اليه ويسمونها الخالومية وذكر منها مسلمة في

كتاب الغاية حاكمة سماها حاكمة الطباع التام وهو أن يقال عند النوم بعد فراغ
 السر ووجه الترجمة هذه الكلمات الالغمية وهي تماغس بعدات يسواد ونغاس
 نوقنا غادس ويذكر حاجته فانه يرى بالكشف عما يسأل عنه في النوم (وحكى)
 أن رجلا فعل ذلك بعد رياضة ليل في ما كله وذكره فتأمل له شخص يقول له أنا طباعك
 النام فسأله وأخبره عما كان يشوف اليه وقد وقع لي أنا بهذه الاسماء مراني عجيبه
 اطلعت بها على أمور كنت أتشوف اليها من أحوالي وليس ذلك بدليل على أن المقصد
 للرؤيا يحدثها وانما هذه الحالومات تحدث استعدادا في النفس لوقوع الرؤيا فاذا قوى
 الاستعداد كان أقرب الى حصول ما يستعد له وللشخص أن يفعل من الاستعداد
 ما أحب ولا يكون دليلا على ايقاع المستعد له فالقدرة على الاستعداد غير القدرة
 على الشيء فاعلم ذلك وتدبره فيما يجدمن أمثاله وانته الحكيم الخبير

(فصل) ثم انما نجد في النوع الانساني أشخاصا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها
 بطبيعة فيهم يتميزها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك الى صناعة ولا
 يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها انما نجد مداركهم في ذلك يقتضي دطرهم
 التي فطروا عليها وذلك مثل العزاقين والناظرين في الاجسام الشفافة كالمرآيا
 وطساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأبصارها وعظامها وأهل الزجر في
 الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الخنطة والنوى وهذه كلها
 موجودة في عالم الانسان لا يسع أحدا بجدها ولا انكارها وكذلك المجانين ينطق على
 ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها وكذلك النائم والميت لا قول مؤنه أو نومه
 يتكلم بالغيب وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك في الغيب على سبيل
 الكرامة معروفة ونحن الآن نتكلم على هذه الادراكات كلها ونبتدئ منها
 بالكهانة ثم تأتي عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة في أن النفس
 الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب في جميع الاصناف التي ذكرناها وذلك أنها
 ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات كما ذكرناه قبل وانما يخرج من
 القوة الى الفعل بالبدن وأحواله وهذا أمر مدرك لكل أحد وكل ما بالقوة فله مادة
 وصورة وصورة هذه النفس التي بها يتم وجودها وعين الادراك والتعقل فهي توجد
 أولا بالقوة مستعدة للادراك وقبل الصور الكلية والجزئية ثم يتم نشوها ووجودها
 بالفعل بمساحة البدن وما يعتردها بورود مداركها المحسوسة عليها وما تنزع من تلك
 الادراكات من المعاني الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الادراك
 والتعقل طورا بالفعل فتم ذاتها وتبقى النفس كالهياولى والصور متعاقبة عليها بالادراك

واحدة بعد واحدة ولذلك نجد انصبى في قول نشأته لا يقدر على الادراك الذي لها من
ذاتها لا بنوم لا بكشف ولا بغيره ما وذلك لان صورتها التي هي عين ذاتها وهي
الادراك والتعقل لم يتم بعد بل لم يتم لها انتزاع الكليات ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصل
لها ما دامت مع البدن نوعان من الادراك اذراك الباتالات الجسم تؤذيه اليها المدارك
البدنية وادراك بذاتها من غير واسطة وهي محجوبة عنه بالانغماس في البدن والحواس
وبشواغلها لان الحواس ابدأ جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه اترامن الادراك
الجسماني وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة اما بالخاصية
التي هي للانسان على الاطلاق مثل النوم وبالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل
الكهانة والطرق أو وبالرياضة مثل أهل الكشف من الصوفية فتلقت حينئذ الى
الذوات التي فوقها من الملا الاعلى لما بين أفضها وأفقها - م من الاتصال في الوجود كما
قرناه قبل وتلك الذوات روحانية وهي ادراك محض وعقول بالفعل وفيها صور
الموجودات وحقائقها كما تر في تجلي فيها شيء من تلك الصور وتقبس منها علوما وربما
دفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه في القوالب المعتادة ثم يراجع الحس بما
أدركت اما مجردا أو في قوالبه فتجرب به * هذا هو شرح استعداد النفس لهذا
الادراك الغيبي * ولترجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه (فاما) الناظرون في
الاجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكادها وعظامها
وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلمهم من قبيل الكهان الا أنهم أضعف رتبة فيه في
أصل خالقهم لان الكاهن لا يحتاج في رفع حجاب الحس الى كثير معاناة وهو لا يعانيه
بانحصار المدارك الحسية كلها في نوع واحد منها وأشر فيها البصر فيعكف على المرئي
اليسيط حتى يبدو له مدركه الذي يجرب به عنه وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء المايرونه هو
في سطح المرأة وليس كذلك بل لا يزالون يتظرون في سطح المرأة الى أن يغيب عن البصر
ويبدو فيها بينهم وبين سطح المرأة حجاب كأنه غمام تمثل فيه صور هي مداركهم فيشربون
اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من ثقب أو اثبات فيجربون بذلك على نحو
ما أدركوه وأما المرأة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه في تلك الحال وانما ينشأ لهم
بها هذا النوع الآخر من الادراك وهو نفساني ليس من ادراك البصر بل يتشكل به
المدرك النفساني للعس كما هو معروف ومثل ذلك ما يعرض للناظرين في قلوب
الحيوانات وأكادها وللناظرين في الماء والطساس وأمثال ذلك * وقد شاهدنا من
هؤلاء من يشغل الحس بالبحور فقط ثم بالعزائم للاستعداد ثم يجرب كما أدرك ويرى عن أنهم
يرون الصور متشخصة في الهواء تحكي لهم أحوال ما يتوجهون الى ادراكه بالمثال

والاشارة وغيبه هو لا عن الحس أخف من الاولين والعالم أبو الغرائب * وأما الزبير
وهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سوح طائر أو حيوان والفكر
فيه بعد مغيبه وهي قوة في النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرفق
أو مسمع وتكون قوته المخيلة كما قدمناه قوية فيبعثها في البحث مستعينا بما رآه
أو سمعه فيؤديه ذلك الى ادراكه كما تفعله القوة المخيلة في النوم وعند ركود الحواس
توسط بين المحسوس المرئي في يقظته وتجميعه مع ما عقلته فيكون عنها الرؤيا *
وأما المجائين فنفسهم الناطقة ضعيفة التعلق بالبدن لفساد أمر جنتهم غالباً وضعف
الروح الحيوانية فيها فتكون نفسه غير مستغرقة في الحواس ولا منغمسة فيها بما شغلها
في نفسها من ألم النقص ومرضه وربما زاحمها على التعلق به روحانية أخرى شيطانية
تثبت به وتضعف هذه عن ممانعتها فيكون عنه التخييل فاذا أصابه ذلك التخييل أما
لفساد مزاجه من فساد في ذاتها أو لمزاجه من النفوس الشيطانية في تعلقه غاب عن
حسه جله قادر لهمة من عالم نفسه وانطبع فيها بعض الصور وصر فيها الخيال وربما نطق
على لسانه في تلك الحال من غير ارادة النطق وادراك هؤلاء كلهم مشوب فيه الحق
بالباطل لانه لا يحصل لهم الاتصال وان فقدوا الحس الا بعد الاستعانة بالتصورات
الاجنبية كما قرزناه ومن ذلك يجيء الكذب في هذه المدارك * وأما العرافون فهم
المتعلقون بهذا الادراك وليس لهم ذلك الاتصال فيسلطون الفكر على الامر الذي
يتوجهون اليه ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك
الاتصال والادراك ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة (هذا تحصيل
هذه الامور) وقد تكلم عليها المسعودي في مروج الذهب فاصادف تحقيقاً ولا
اصابة ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ في المعارف فينقل ما سمع من
أهله ومن غير أهله وهذه الادراكات التي ذكرناها موجودة كلها في نوع البشر
فقد كان العرب يفرعون الى الكهان في تعرف الحوادث ويتنافرون اليهم في
الخصومات ليغترفوهم بالحق فيها من ادراك غيبهم وفي كتب أهل الادب كثير من ذلك
واشتهر منهم في الجاهلية شق من انمار بن زرار وسطيح بن مازن بن غسان وكان يدرج كما
يدرج الثوب ولا عظم فيه الا الجمجمة ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة
ابن مضر وما أخبراه به من ملك الحبشة للين وملك مضر من بعدهم وظهور النبوة
المحمدية في قريش ورؤيا المويذان التي أولها سطح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح
فأخبره بشأن النبوة وخراب ملك فارس وهذه كلها مشهورة وكذلك العرافون كان
في العرب منهم كثير وذكروهم في أشعارهم قال

فقات لعراف الإمامة داووني * فأنك ان داويتني لطيب

وقال الآخر

جعلت لعراف الإمامة حكمه * وعراف نجدان هما شنيان

فقلا شفاك الله والله مالنا * بما حلت منك الضلوع يدان

وعراف الإمامة هو رباح بن عجلة وعراف نجد الاباق الاسدي (ومن هذه المدارك الغيبية) ما يصدر لبعض الناس عند مفارقة البقطة والتباسة بالنوم من الكلام على الشيء الذي يتشوق اليه بما يعطيه غيب ذلك الامر كما يريد ولا يقع ذلك الا في مبادئ النوم عند مفارقة البقطة وذهاب الاختيار في الكلام فيتكلم كما انه مجبول على النطق وغايته ان يسمعه ويفهمه وكذلك يصدر عن المقتولين عند مفارقة رؤسهم وأوساط أبدانهم كلام بمثل ذلك * ولقد بلغنا عن بعض الجبابرة الظالمين أنهم قتلوا من محبوبهم أشخاصا ليتعرفوا من كلامهم عند القتل عواقب أمورهم في أنفسهم فأعلموهم بما يستبشع * وذكر مسلمة في كتاب الغاية له في مثل ذلك أن آدميا اذا جعل في دن مملوء بدهن السمسم ومكث فيه أربعين يوما يغذى بالتين والجوز حتى يذهب لحمه ولا يبقى منه الا العروق وشئون رأسه فيخرج من ذلك الدهن فحين يجف عليه الهواء يجيب عن كل شيء يسئل عنه من عواقب الامور الخاصة والعامة وهذا فعل من مناكير أفعال السحرة لكن يفهم منه عجائب العالم الانساني * ومن الناس من يحاول حصول هذا المدرك الغيبي بالرياضة فيحاولون بالمجاهدة موتا صناعيا بامانة جميع القوى البدنية ثم محو آثارها التي تلونت بها النفس ثم تغذيتها بالنكاح لتزداد قوة في نشئها ويحصل ذلك بجمع الفكر وكثرة الجوع ومن المعلوم على القطع أنه اذا نزل الموت بالبدن ذهب الحس وحجابه واطلعت النفس على ذاتها وعالمها فيحاولون ذلك بالاكتساب ليقع لهم قبل الموت ما يقع لهم بعده وتطلع النفس على المغيبات ومن هؤلاء أهل الرياضة السحرية يرتاضون بذلك ليحصل لهم الاطلاع على المغيبات والتصرفات في العوالم وأكثر هؤلاء في الاقاليم المنحرفة جنوبا وشمالا خصوصا بلاد الهند ويسمون هنالك الحوكية ولهم كتب في كيفية هذه الرياضة كثيرة والاخبار عنهم في ذلك غريبة * وأما المتصوفة فرياضتهم دينية وعربية عن هذه المقاصد المنعومة وانما يقصدون جمع الهمة والاقبال على الله بالكلية ليحصل لهم أذواق أهل العرفان والتوحيد ويريدون في رياضتهم الى الجمع والجوع التغذية بالنكاح فربها تتم وجهتهم في هذه الرياضة لانه اذا نشأت النفس على الذكر كانت أقرب الى العرفان بالله واذا عريت عن الذكر كانت شيطانية وحصول ما يحصل من معرفة الغيب والتصرف

لهؤلاء المتصوفة انما هو بالعرض ولا يكون مقصودا من أول الامر لانه اذا قصد ذلك كانت الوجهة فيه لغير الله وانما هي لقصد التصرف والاطلاع على الغيب وأخسرها صفقة فانها في الحقيقة شرك قال بعضهم من آثر العرفان للعرفان فقد قال بالثاني فهم يقصدون بوجهتهم المعبود لاشياء سواه واذا حصل أثناء ذلك ما يحصل فبالعرض وغير مقصود لهم وكثير منهم يفر منه اذا عرض له ولا يحتفل به وانما يريد الله لذاته لا لغيره وحصول ذلك لهم معروف ويسمون ما يقع لهم من الغيب والحديث على الخواطر فراسة وكشفا وما يقع لهم من التصرف كرامة وليس شيء من ذلك بنكر في حقهم وقد ذهب الى انكاره الاستاذ أبو المصطفى الاسفرايني وأبو محمد بن أبي زيد المالكي في آخرين فرار من النباس المعجزة بغيرها والمعول عنه عند المتكلمين حصول التفرقة بالتمتدّي فهو كاف * وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ان فيكم محدثين وان منهم عمر وقد وقع للصحابه من ذلك وقائع معروفة تشهد بذلك في مثل قول عمر رضى الله عنه ياسارية الجبل وهو سارية بن زبير كان قائدا على بعض جيوش المسلمين بالعراق أيام الفتوحات وورط مع المشركين في معتك وهم بالانهمزام وكان بقريه جبل يجهز اليه فرفع له مر ذلك وهو يخطب على المنبر بالمدينة فناداه ياسارية الجبل وسمعه سارية وهو بمكانه ورأى شخصه هنالك والقصة معروفة ووقع مثله أيضا لأبي بكر في وصيته عائشة ابنته رضى الله عنها في شأن ما نحلها من أوسق التمر من حديثه ثم نبهها على جذاده لتخوزه عن الورثة فقال في سياق كلامه وانما هما أخوال وأختان فقالت انما هي أسماء فن الاخرى فقال ان ذابطن بنت خارجة أراها جارية فكانت جارية وقع في الموطأ في باب ما لا يجوز من النحل ومثل هذه الوقائع كثيرة لهم ولمن بعدهم من الصالحين وأهل الاقتداء الا أن أهل التصوف يقولون انه يقل في زمن النبوة اذ لا يبقى للمريد حالة بحضور النبي حتى انهم يقولون ان المريد اذا جاء للمدينة النبوية يسلب حاله مادام فيها حتى يفارقها والله يرزقنا الهداية ويرشدنا الى الحق

(فصل) ومن هؤلاء المریدین من المتصوفة قوم به السبل معتوهون أشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية وأحوال الصديقين وعلم ذلك من أحوالهم من يفهم عنهم من أهل الذوق مع أنهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن المغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء أنهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو غلط فان فضل الله يؤتية من

بشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية
ثابتة الوجود فانه تعالى يخصها بمثلثا من مواهبه وهؤلاء القوم لم تصدم نفوسهم
الناطقة ولا فسدت كمال المجانين وانما فقد لهم العقل الذي ينط به التكليف وهي
صفة خاصة للنفس وهي علوم ضرورية للانسان يستدبها نظره ويعرف أحوال
معاشه واستقامة منزله وكأنه اذا برأحوال معاشه واستقامة منزله لم يتق له عذري قبول
التكليف لا صلاح معاده وليس من فقد هذه الصفة بقا قد لنفسه ولا ذاهل عن
حقيقته فيكون موجود الحقيقة معدوم العقل التكليفي الذي هو معرفة المعاش
ولا استحالة في ذلك ولا يتوقف اصطفاؤه الله عباده للمعرفة على شيء من التكليف
واذا صح ذلك فاعلم أنه ربما يلتبس حال هؤلاء بالمجانين الذين تصد نفوسهم الناطقة
ويلتصقون بالبهايم ولك في تمييزهم علامات منها أن هؤلاء البهائم يجعلهم وجهة ما
لا يخلون عنها أصلا من ذكركم وعبادة لكن على غير الشروط الشرعية لما قلناه
من عدم التكليف والمجانين لا يجعلهم وجهة أصلا ومنها أنهم يخلقون على البهيم
أول نسايتهم والمجانين يعرض لهم الجنون بعد مدة من العمر لعوارض بدنية طبيعية
فاذا عرض لهم ذلك وفسدت نفوسهم الناطقة ذهبوا بالثبية ومنها كثر تصرفهم في
الناس بالخير والشر لانهم لا يتوقفون على اذن لعدم التكليف في حقهم والمجانين
لا تصرف لهم وهذا فصل انتهى بنا الكلام اليه والله المرشد للصواب

(فصل) وقد يزعم بعض الناس أن هنا مدارك للغيب من دون غيبة عن الحس فتمهم
المنجمون القائلون بالدلالات النجومية ومقتضى أوضاعها في الفلك وآثارها في
العناصر وما يحصل من الامتزاج بين طباعها بالنظر ويتأدى من ذلك المزاج الى
الهواء وهؤلاء المنجمون ليسوا من الغيب في شيء انما هي ظنون حدسية وتخمينات
مبنية على التأثير النجومية وحصول المزاج منه للهواء مع مز يدحدث يقف به الناظر
على تفصيله في الشخصيات في العالم كما قاله بطليموس ونحن نبين بطلان ذلك في محله ان
شاء الله وهو لو ثبت فغايبه حدس وتخمين وليس مما تصكركم في شيء * ومن
هؤلاء قوم من العامة استنبطوا الاستخراج الغيب وتعرف الكائنات صناعة سموها
خط الرمل نسبة الى المادة التي يضعون فيها عملهم ومحصل هذه الصناعة أنهم صيروا
من النقط أشكالا ذات أربع مراتب مختلف باختلاف مراتبها في الزوجية والفردية
واستوائها فيهما فكانت ستة عشر شكلا لانها ان كانت أزواجا كلها أو أفرادا
كلها فشكلا وان كان الفرد فيهما في مرتبة واحدة فقط فأربعة أشكال وان كان
الفرد في مرتبتين فسبعة أشكال وان كان في ثلاثة مراتب فأربعة أشكال جاءت

ستة عشر شكلا ميزوها كلها باسمائها وأنواعها الى سعود ونحوس شأن الكواكب
 وجعلوا لها ستة عشر يتا طبيعياً بزعمهم وكانها البروج الاثنا عشر التي للأفلاك
 والاورتادا الاربعة وجعلوا لكل شكل منها يتارحظوظا ودلالة على صنف من
 موجودات عالم العناصر يختص به واستنبطوا من ذلك فنا حاذوا به فن النجامة ونوع
 قضاه الا أن أحكام النجامة مستندة الى أوضاع طبيعية كما زعم بطليموس زهدا إنما
 مستندة الى أوضاع تحككية وأهواء اتفاقيه لا دليل يقوم على نبي منها ويرزعمون
 أن أصل ذلك من النبوة القديمة في العالم وربما نسبوها الى دانيال أو الى ادريس
 صلوات الله عليهما شأن الصنائع كلها وربما يدعون مشروعيتهما ويحججون بقوله صلى
 الله عليه وسلم كان نبي يحط فن وافق خطه فذاك وليس في الحديث دليل على مشروعية
 خط الرمل كما يزعمه بعض من لا تحصيل لديه لان معنى الحديث كان نبي يحط فيأتيه
 الوحي عند ذلك الخط ولا استحالة في أن يكون ذلك عادة لبعض الانبياء فن وافق
 خطه ذلك النبي فهو الذي هو صحيح من بين الخط بما عنده من الوحي لذلك النبي
 الذي كانت عادته أن يأتيه الوحي عند الخط وأما إذا أخذ ذلك من الخط مجردا من غير
 موافقة وحي فلا وهذا معنى الحديث والله أعلم * فاذا أرادوا استخراج مغيب
 بزعمهم عمدوا الى قرطاس أو رمل أو دقيق فوضعوا النقطة سطورا على عدد المراتب
 الاربعة ثم ككروا ذلك أربع مرات فتبي ستة عشر سطرا ثم بطرحون النقطة
 أزواجا ويضعون ما بقي من كل سطر زوجا كان أو فرديا في مرتبه على الترتيب فتبي
 أربعة أشكال يضعونها في سطر متتالية ثم يولدون منها أربعة أشكال أخرى من جانب
 العرض باعتبار كل مرتبه وما قابلها من الشكل الذي بازائه وما يجتمع منهما من زوج
 أو فرد فتكون ثمانية أشكال موضوعة في سطر ثم يولدون من كل شكلين شكلا فحتما
 باعتبار ما يجتمع في كل مرتبه من مراتب الشكلين أيضا من زوج أو فرد فتكون أربعة
 أخرى تحتها ثم يولدون من الاربعة شكلين كذلك تحتها ثم من الشكلين شكلا كذلك
 فحتما ثم من هذا الشكل الخامس عشر مع الشكل الاول شكلا يكون آخر السته عشر
 ثم يحكمون على الخط كله بما اقتضته أشكاله من السعودة والنحوسة بالذات
 والنظر والحلول والامتزاج والدلالة على أصناف الموجودات وسائر ذلك تحكما غريبا
 وكثرت هذه الصناعة في العمران ووضعت فيها التاليف واشتهر فيها الاعلام من
 المتقدمين والمتأخرين وهي كما رأيت تحكم وهوى والنحس الذي ينبغي أن يكون
 نصب فكل أن الغيوب لا تدرك بصناعة البتة ولا سبيل الى تعرفها الا للخواص من
 البشر المفطورين على الرجوع عن عالم الحس الى عالم الروح ولذلك يسمى المنجمون هذا

الصنف كلهم بالزهرين نسبة الى ما تقتضيه دلالة الزهرة بزعمهم في أصل مواليدهم على ادراك الغيب فالخط وغيره من هذه ان كان الناظر فيه من أهل هذه الخاصية وقصد بهذه الامور التي ينظر فيها من النقط أو العظام وغيرها اشغال الحس لترجع النفس الى عالم الروحانيات لحظة ما فهو من باب الطرق بالخصي والنظر في قلوب الحيوانات والمرايا الشفافة كما ذكرناه وان لم يكن كذلك وانما قصد معرفة الغيب بهذه الصناعة وأنها تفيد ذلك فهدر من القول والعمل والله يهدي من يشاء * والعلامة لهذه القطرة التي فطر عليها أهل هذا الادراك الغيبي أنهم عند توجيههم الى تعريف الكائنات يمتريهم خروج عن حالتهم الطبيعية كالنشاوب والتمطط ومبادئ الغيبة عن الحس ويختلف ذلك بالقوة والضعف على اختلاف وجودها فيهم فمن لم يوجد له هذه العلامة فليس من ادراك الغيب في شيء وانما هو ساع في تنقيح كذبه

(فصل) ومنهم طوائف يضعون قوانين لاستخراج الغيب ليست من الطور الاول الذي هو من مدارك النفس الروحانية ولا من الحدس المبني على تأثيرات النجوم كما زعمه بطليموس ولا من الظن والتخمين الذي يحاول عليه العرافون وانما هي مغالط يجعلونها كالمصايد لاهل العقول المتضعفة وليست اذ كرم ذلك الا ما ذكره المصنفون بولع به الخواص * فمن تلك القوانين الحساب الذي يسمونه حساب النيم وهو مذكور في اشركاب السياسة المنسوب لارسطو يعرف بالغالب من المغلوب في المتحاربين من الملوك وهو أن تحسب الحروف التي في اسم أحدهما بحسب الجمل المصطلح عليه في حروف أبجد من الواحد الى الالف آحادا وعشرات ومئين وألوفاً فاذا حسبت الاسم وتحصل لك منه عدد فاحسب اسم الآخر كذلك ثم اطرح كل واحد منهما تسعة تسعة واحفظ بقية هذا وبقية هذا ثم انظر بين العددين الباقيين من حساب الاسم فان كان العددان مختلفين في الكمية وكانا معاً زوجيين أو فرديين معاً فصاحب الاقل منهما هو الغالب وان كان أحدهما زوجياً والاخر فردياً فصاحب الاكبر هو الغالب وان كانا متساويين في الكمية وهما معاً زوجيان فال المطلوب هو الغالب وان كان معاً فرديين فالطالب هو الغالب ويقال هنالك بيتان في هذا العمل اشترابين الناس وهما

أرى الزوج والافراد يسموا قلها * وأكثرها عند المخالف غالب

ويغلب مطلوب اذا الزوج يستوى * وعند استواء الفردي غالب طالب

ثم وضعوا لمعرفة ما بقي من الحروف بعد طرحها بتسعة قانوناً معروفاً عندهم في طرح تسعة وذلك أنهم جمعوا الحروف الالف على الواحد في المراتب الاربع وهي ا

الدالة على الواحد وى الدلة على العشرة وهي واحد في مرتبة العشرات و ق
 الدالة على المائة لانها واحد في مرتبة المئين و ش الدالة على الالف لانها واحد
 في مرتبة الآلاف و ليس بعد الالف عدد يدل عليه بالحروف لان الشين هي آخر
 حروف أبجد ثم رتبوا هذه الاحرف الاربعة على نسق المراتب فكان منها كلمة رباعية
 وهي ايقش ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة على اثنين في المراتب الثلاث وأسقطوا
 مرتبة الآلاف منها لانها كانت آخر حروف أبجد فكان مجموع حروف الاثنين
 في المراتب الثلاث ثلاثة حروف وهي ب الدالة على اثنين في الآحاد و ل الدالة
 على اثنين في العشرات وهي عشرون و ر الدالة على اثنين في المئين وهي مائتان
 وصيروها كلمة واحدة ثلاثية على نسق المراتب وهي بكر ثم فعلوا ذلك بالحروف الدالة
 على ثلاثة فنشأت عنها كلمة جلس وكذلك الى آخر حروف أبجد وصارت تسع
 كلمات نهاية عدد الآحاد وهي ايقش بكر جلس دمت هنت وصح زعد حفظ
 طضع مرتبة على توالي الاعداد ولكل كلمة منها عدد لها الذي هي في مرتبته فالواحد
 لكلمة ايقش والاثنان لكلمة بكر والثلاثة لكلمة جلس وكذلك الى
 التاسعة التي هي طضع فتكون لها التسعة فاذا ارادوا طرح الاسم بتسعة نظروا كل
 حرف منه في أى كلمة هو من هذه الكلمات وأخذوا عدد ما كانه ثم جمعوا الاعداد
 التي يأخذونها بدلا من حروف الاسم فان كانت زائدة على التسعة أخذوا ما فضل
 عنها والا أخذوه كما هو ثم يفعلون كذلك بالاسم الاخر وينظرون بين الخارجين بما
 قدمناه والسرى هذا القانون بين وذلك أن الباقي من كل عقد من عقود الاعداد
 بطرح تسعة انما هو واحد فكانه يجمع عدد العقود خاصة من كل مرتبة فصارت
 أعداد العقود كأنها آحاد فلا فرق بين الاثنين والعشرين والمائتين والالفين
 وكما الاثنان وكذلك الثلاثة والثلثون والثلثمائة والثلاثة الالف كلها ثلاثة ثلاثة
 فوضعت الاعداد على التوالي دالة على اعداد العقود لا غير وجعلت الحروف الدالة
 على أصناف العقود في كل كلمة من الآحاد والعشرات والمئين والالوف رصار عدد
 الكلمة الموضوع عليها نائبا عن كل حرف فيها سواء دل على الآحاد والعشرات
 أو المئين فيؤخذ عدد كل كلمة عوضا من الحروف التي فيها وتجمع كلها الى آخرها
 كما قلناه هذا هو العمل المتداول بين الناس منذ الامم القديم وكان بعض من لقيناه
 من شيوخنا يرى أن الصحيح في الكلمات أخرى تسعة مكان هذه ومتواليه كتواليها
 ويفعلون بها في الطرح بتسعة مثل ما يفعلونه بالآخرى سواء وهي هذه أرب يسقك
 جزلط مدوص هف تحذن عش خغ نضظ تسع كلمات على توالي العدد

ولكل كلمة منها عدد دها الذي في مرتبته فيها الثلاثي والرابعي والثلاثي وليست
جارية على أصل مطرد كما تراه لـكن كان شـيـمـو خـنـا يـنـقـلـونـهـا عن شيخ المغرب
في هذه المعارف من السيميا وأسرار الحروف والنجامة وهو أبو العباس بن البناء
ويقولون عنه ان العمل بهذه الكلمات في طرح حساب النيم أصح من العمل
بكلمات ايقش والله أعلم كيف ذلك وهذه كلها مدارك للغيب غير مستندة الى برهان
ولا تحقيق والكتاب الذي وجد فيه حساب النيم غير معزوق الى ارسطو وعند المحققين
لما فيه من الآراء البعيدة عن التحقيق والبرهان يشهد ذلك بذلك تصفحه ان كنت
من أهل الرسوخ اه ومن هذه القوانين الصناعية لاستخراج الغيوب فيما يزعمون
الزايحة المسماة بزايحة العالم المعزوقة الى أبي العباس سيدي أحمد السبتي من
أعلام المتصوفة بالمغرب كان في آخر المائة السادسة بمراكش ولعهده أبي يعقوب
المنصور من ملوك الموحدين وهي غريبة العمل صناعة وكثير من الخواص يواعون
بإفاد الغيب منها بعنماها المعروف الملقب فيحرضون بذلك على حل رمزه وكشف
غامضه وصورتها التي يقع العمل عندهم فيها دائرة عظيمة في داخلها دوائر متوازية
للافلاك والعناصر والمكونات والروحانيات وغير ذلك من أصناف الكائنات والعلوم
وكل دائرة مقسومة بأقسام فلكها اما البروج واما العناصر أو غيرهما وخطوط
كل قسم مارة الى المركز ويسمونها الاوتار وعلى كل وتر حروف متتابعة موضوعة
فمنها برشوم الزمام التي هي أشكال الاعداد عند أهل الدواوين والحساب بالمغرب
لهذا العهد ومنها برشوم الغبار المتعارفة في داخل الزايحة وبين الدوائر أسماء
العلوم ومواضع الاكوان وعلى ظاهرها الدوائر جدول متكثير البيوت المتقاطعة
طولا وعرضا تمل على خمسة وخمسين بيتا في العرض ومائة واحد وثلاثين في الطول
جوانب منها معمورة البيوت تارة بالعدد وأخرى بالحروف وجوانب خالية
البيوت ولا تعلم نسبة تلك الاعداد في أوضاعها ولا القسمة التي عينت البيوت الامرة
من الخالية ووجهها في الزايحة آيات من عروض الطويل على روى اللام المنصوبة
تتم من صورة العمل في استخراج المطلوب من تلك الزايحة الا أنهم من قبيل
الانغاز في عدم الوضوح والجلال وفي بعض جوانب الزايحة بيت من الشعر
منسوب لبعض كبار أهل الحديثان بالمغرب وهو مالك بن وهيب من علماء اشيلية
كان في الدولة اللاتونية ونص البيت

سؤال عظيم الخلق حزن فغن اذن * غرائب شك ضبطه الجده مثلا
وعو البيت المتداول عندهم في العمل لاستخراج الجواب من السؤال في هذه

الزايحة وغيرها فاذا ارادوا استخراج الجواب عما يسئل عنه من المسائل ~~كتبوا~~
ذلك السؤال وقطعوه حروفا ثم أخذوا الطالع لذلك الوقت من بروج الفلك ودرجها
وعمدوا الى الزايحة ثم الى الوتر المكتشف فيها بالبرج الطالع من قوله مارا الى المركز
ثم الى محيط الدائرة قبالة الطالع فيأخذون جميع الحروف المكتوبة عليه من قوله الى
آخره والاعداد المرسومة بينهم ما يصيرونها حروفا بحسب الجمل وقد ينقلون آحادها
الى العشرات وعشراتهما الى المئين وبالعكس فيما كما يتيقن منه قانون العمل عندهم
ويضعونها مع حروف السؤال ويضيفون الى ذلك جميع ما على الوتر المكتشف بالبرج
الثالث من الطالع من الحروف والاعداد من قوله الى المركز فقط لا يتجاوزونه الى
المحيط ويفعلون بالاعداد ما فعلوه بالاول ويضيفونها الى الحروف الاخرى ثم
يقطعون حروف البيت الذي هو أصل العمل وقانونه عندهم وهو بيت مالك بن وهيب
المتقدم ويضعونها ناحية ثم يضربون عدد درج الطالع في أس البرج وأسه عندهم
هو بعد البرج عن آخر المراتب عكس ما عليه الأس عند أهل صناعة الحساب
فانه عندهم البعد عن أول المراتب ثم يضربونه في عدد آخر يسمونه الأس الاكبر
والدورا الاصلى ويدخلون بما تجمع لهم من ذلك في بيوت الجدول عن قوانين معروفة
وأعمال مذكورة وأدوار معدودة ويستخرجون منها حروفا ويسقطون أخرى
ويقتابلون بما معهم في حروف البيت وينقلون منه ما ينقلون الى حروف السؤال
وما معها ثم يطرحون تلك الحروف بأعداد معلومة يسمونها الادوار ويخرجون في
كل دور الحرف الذي ينتهي عنده الدور معاودون ذلك بعدد الادوار المعينة عندهم
لذلك فيخرج آخرها حروف متقطعة وتؤلف على التوالي فتصير كلمات منظومة في
بيت واحد على وزن البيت الذي يقابل به العمل ورويه وهو بيت مالك بن وهيب
المتقدم حسبما نذكر ذلك كله في فصل العلوم عند كيفية العمل بهذه الزايحة •
وقد رأينا كثيرا من الخواص يتهاقون على استخراج الغيب منها بتلك الاعمال
ويحسبون أن ما وقع من مطابقة الجواب للسؤال في توافق الخطاب دليل على مطابقة
الواقع وائس ذلك بصحيح لانه قد مر لك أن الغيب لا يدرك بأمر صناعي البتة وانما
المطابقة التي فيها بين الجواب والسؤال من حيث الافهام والتوافق في الخطاب حتى
يكون الجواب مستقيما وموافقا للسؤال ووقوع ذلك بهذه الصناعة في تفسير
الحروف المنجثة من السؤال والادوار والدخول في الجدول بالاعداد المنجثة من
ضرب الاعداد المنروضة واستخراج الحروف من الجدول بذلك وطرح أخرى
ومعاودة ذلك في الادوار المعدودة ومقابله ذلك كله بحروف البيت على التوالي غير

مستنكر وقد يقع الاطلاع من بعض الاذكياء على تناسب بين هذه الاشياء فيقع له
معرفة المجهول فالتناسب بين الاشياء هو سبب الحصول على المجهول من المعلوم
الحاصل للنفس وطريق الحصول سببها من أهل الرياضة فانها تقيده العقل قوة على
القياس وزيادة في الفكر وقد مرت على ذلك غير مرة ومن أجل هذا المعنى ينسبون
هذه الزايرة في الغالب لأهل الرياضة فهي منسوبة للسبقي ولقد وقعت على أخرى
منسوبة لـ سهل بن عبد الله ولعمري انها من الاعمال الغربية والمعاناة العجيبة
والجواب الذي يخرج منها فالسرف في خروجه منظوما يظهر لي انما هو المقابلة بحروف
ذلك البيت ولهذا يكون النظم على وزنه ورويه ويندل عليه انا وجدنا أعمالا أخرى
لهم في مثل ذلك أسقطوا فيها المقابلة بالبيت فلم يخرج الجواب منظوما كما تراهم عند
الكلام على ذلك في موضعه وكثير من الناس تضيق مداركهم عن التصديق بهذا
العمل وتنفذوا الى المطالب فينكرون صحتها ويحسب انهم من التخيلات والايهامات
وأن صاحب العمل بهما ثبت حروف البيت الذي ينظمه كما يريد بين أثناء حروف
السؤال والاولى يروى يفعل تلك الصناعات على غير نسبة ولا قانون ثم يجيىء بالبيت
ويوهم أن العمل جاء على طريقة منضبطة وهذا الحسبان توهم فاسد جل عليه التصور
عن فهم التناسب بين الموجودات والمعدومات والتفاوت بين المدارك والعقول
والممكن من شأن كل مدارك انكار ما ليس في طوقه ادراكه ويكفيينا في رد ذلك
مشاهدة العمل بهذه الصناعة والحديث القطعي فانها جاءت بعمل مطرد وقانون
صحيح لا مريية فيه عند من ييثر ذلك ممن له ذكاء وحسب وان كان كثير من المعايات
في العدد الذي هو أوضح الواضحات بعسر على الفهم ادراكه بعد النسبة فيه وخدائها
فما ظنك بمثل هذا مع خفاء النسبة فيه وغرابتها فلنذكر مسئلة من المعايات يتضح لك
بها شئ مما ذكرنا مثاله لو قيل لك خذ عددا من الدراهم واجعل بازاها ~~ص~~كل
دراهم ثلاثة من الفلوس ثم اجمع الفلوس التي أخذت واشتر بها طائر ثم اشتر بالدراهم
كلها طورا رابسه ذلك الطائر فكم الطيور المشتراة بالدراهم فجوابه أن تقول هي
تسعة لانك تعلم أن فلوس الدراهم أربعة وعشرون وأن الثلاثة منها وأن عدة أثمان
الواحد ثمانية فاذا جمعت الثمن من الدراهم الى الثمن الآخر فكان كل من طائر فهي
ثمانية طيور عدة أثمان الواحد وتزيد على الثمانية طائرا آخر وهو المشتري بالفلوس
الماخوذة آنزلا وعلى سعره اشترت بالدراهم فتكون تسعة فانت ترى كيف خرج
لك الجواب المضمر بسر التناسب الذي بين اعداد المسئلة وانوهم أول ما ياتي اليك هذه
وأمثالها انما يجعله من قبيل الغيب الذي لا يمكن معرفته وظهر أن التناسب بين

الامور هو الذي يخرج مجهولها من معلومها وهذا انما هو في الواقعات الحاصلة في الوجود أو العلم وأما الكائنات المستقبلة اذ لم نعلم أسباب وقوعها ولا يثبت لها خبر صادق عنها فهو غيب لا يمكن معرفته واذا تبين لك ذلك فالاعمال الواقعة في الزايرة كلها انما هي في استخراج الجواب من ألفاظ السؤال لانها كما رأيت استنباط حروف على ترتيب من تلك الحروف بعينها على ترتيب آخر وسر ذلك انما هو من تناسب بينهما يطلع عليه بعض دون بعض فمن عرف ذلك التناسب تسر عليه استخراج ذلك الجواب بتلك القوانين والجواب يدل في مقام آخر من حيث موضوع ألفاظه وتراكيبه على وقوع أحد طرفي السؤال من نفي أو اثبات وليس هذا من المقام الاقل بل انما يرجع لمطابقة الكلام لما في الخارج ولا سبيل الى معرفة ذلك من هذه الاعمال بل البشر محجوبون عنه وقد استأثر الله بعلمه والله بهم لم وأنتم لاتعلمون

(الفصل الثاني)

في العمران البدوي والامم الوحشية والقبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتهديات

١ (فصل في ان اجيال البدو والحضر طبيعية)

• (اعلم) • ان اختلاف الاجيال في احوالهم انما هو باختلاف نحلتهن من المعاش فان اجتماعهم انما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحياجي والكالي ففهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة ومنهم من يتعمل القيام على الحيوان من الغنم والبقرة والمعز والنحل والادود ولتأجها واستخراج فضلاتها وهؤلاء القائلون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولا بد الى البدو لانه منسج لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والقدن والمسارح للحيوان وغير ذلك فـ ان اختصاص هؤلاء بالبدو امر اضروري اليهم وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم في حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكن والدفاء انما هو بالمقدار الذي يحفظ الحياة ويحصل بلفة العيش من غير مزيد عليه للمجزع ما وراء ذلك ثم اذا اتسعت احوال هؤلاء المتحايين للمعاش وحصل لهم ما فوق الحاجتهم من الغنى والزفدهم ذلك الى السكون والادعة وتعاونوا في الزائد على الضرورة واستمدتروا من الاقوات والملابس والتأنيق فيها وتوسعة البيوت واختطاط المدن والامصار للتحضر ثم تزيد احوال الرفه والدعة فتهيء عوائد الترف الباطنة مبالغة في التأنيق في علاج

القوت واستجادة المطامخ واتتفاء الملابس الفاخرة في أنواعها من الحرير والدياج وغير ذلك ومعالة البيوت والصروح واحكام وضعها في تهيئتها والانتباه في الصنائع في الخروج من القوة الى الفعل الى غاياتها فيتخذون القصور والمنازل ويمجرون فيها المياه ويعالون في صرحها ويالقون في تهيئتها ويختلفون في استجادة ما يتخذونه لمعاشهم من ملبوس أو فراش أو آنية أو ماعون وهو لامهم الحضر ومعناه الحاضر أهل الامصار والبلدان ومن هؤلاء من يتصل في معاشه الصنائع ومنهم من يتصل التجارة وتكون مكاسبهم أنمي وأرفه من أهل البدولان أحوالهم زائدة على الضرورى ومعاشهم على نسبة وجد هم فقدين أن أجيال البدو والحضر طبيعية لا بد منهم ما كفلناه

٢ (فصل في ان جيل العرب في الخلقة طبيعي)

قد قدمنا في الفصل قبله أن أهل البدو هم المتصلون للمعاش الطبيعي من الفلح والقيام على الانعام وأنهم مقتصرون على الضرورى من الاقوات والملابس والمسكن وسائر الاحوال والعوائد ومقتصرون عما فوق ذلك من حاجى أو كالى يتخذون البيوت من الشعر والوبر أو الشجر أو من الطين والحجارة غير منجدة انما هو قصد الاستظلال والكن لا ما وراءه وقد يآوون الى الغيران والكهوف وأما اقواتهم فيتناولون بها بسرا بعلاج أو بغير علاج البتة الاماسته النار فمن كان معاشه منهم في الزراعة والقيام بالفلح كان المقام به أذى من الطعن وهو لا مسكان المداشر والقرى والجبال وهم عامة البربر والاعاجم ومن كان معاشه في السائمة مثل الغنم والبقر فهم ظعن في الاغاب لا رتياد المسارح والمياه لحبواناتهم فالتقاب في الارض أصح بهم ويسعون شايبة ومعناه القائمون على الشاء والبقر ولا يبعدون في القفر لفقدان المسارح الطيبة وهو لا مثل البربر والترك واخوانهم من التركمان والصفالبة وأما من كان معاشهم في الابل فهم أكثر ظعننا وأبعد في القفر مجالا لان مسارح التلول ونباتها وشجرها لا يستغنى بها الابل في قوام حياتها عن مراعى الشجر بالقفر وورد مياهه الملهة والتقلب فصل الشتاء في نواحيه فرار من أذى البرد الى دفاء هو انه وطلبها لما خض الساج في رماله اذا الابل أصعب الحيوان فصلا ومخاضا وأحوالها في ذلك الى الدفاء فاضطروا الى ابعاد النجعة وبعاد اذاتهم الحامية عن التلول أيضا وغلوا في القفار نفرة عن الضعة منهم فكانوا لذلك أشد الناس توحشا وينزلون من أهل الحواضر منزلة الوحش غير المقدور عليه والمختس من الحيوان العجم وهو لا هم

العرب وفي معناهم ظعون البر ووزناته بالمغرب والاكراد والتركان والتراب بالمشرق
الا أن العرب بعد نجعة وأشدها تدبواة لانهم مختصون بالقيام على الابل فقط وهؤلاء
يقومون عليها وعلى الشياه والبقر معها فقد تبين لك أن جيل العرب طبيعي لا بد منه في
العمران والله سبحانه وتعالى أعلم

٣ فصل في ان البدو اقدم من الحضرة سابق عليه وان البادية اصل العمران والامصار مدولهما

قد ذكرنا أن البدو هم المقتصرون على الضروري في أحوالهم العاجزون عما فوقه
وأن الحضرة المعتنون بمجارات الترف والكمال في أحوالهم وعوائدهم ولا شك
أن الضروري أقدم من الحاجي والكمالي وسابق عليه لأن الضروري أصل والكمالي
فرع ناشئ عنه فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أقل مطالب الانسان
الضروري ولا ينتهي الى الكمال والترف الا اذا كان الضروري حاصلًا فخشونة
البداءة قبل رقة الحضارة ولهذا نجد التمدن غاية للبدو يجرى اليها وينتهي بسعيه
الى مقترحه منها ومتى حصل على الرياش الذي يحصل له به أحوال الترف وعوائده عاج
الى الدعة وأمكن نفسه الى قياد المدينة وهكذا شأن القبائل المتبدية ككاهم
والحضرى لا يتشوف الى أحوال البادية الا للضرورة تدعوه اليها أو لتقصير عن
أحوال أهل مدنته ومما يشهد لنا أن البدو أصل للحضر ومتقدم عليه أنا اذا اقتننا
أهل مصر من الامصار وجدنا أولية أكثرهم من أهل البدو والذين بناحية ذلك المصر
وفي قراه وأنهم أسروا فسكنوا المصر وعدلوا الى الدعة والترف الذى فى الحضرة وذلك
يدل على أن أحوال الحضارة ناشئة عن أحوال البداءة وأنها أصل لها فتفهمه ثم
ان كل واحد من البدو والحضر متفاوت الاحوال من جنسه فرب حى أعظم من حى
وقبيلة أعظم من قبيلة ومصر أوسع من مصر ومدينة أكثر عمراناً من مدينة فقد تبين
أن وجود البدو متقدم على وجود المدن والامصار وأصل لها بما أن وجود المدن
والامصار من عوائد الترف والدعة التى هى متأخرة عن عوائد الضرورة المعاشية
والله أعلم

٤ (فصل في ان اهل البدو اقرب الى الخير من اهل الحضرة)

وسببه ان النفس اذا كانت على الفطرة الاولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها
وينتبع فيها من خيراً وشرّاً قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة
فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه وبقدر ما سبق اليها من أحد الخلقين تبعه
عن الآخرة يصعب عليها اكتسابه فصاحب الخير اذا سبقته الى نفسه عوائد

الخير وحصلت لها ملكته بعد عن الشر وصعب عليه طريقه وكذا صاحب الشر
اذ أسبقت اليه أيضا عوائده وأهل الحضرة لكثرة ما يعانون من فنون الملاذ وعوائد
الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على شهوراتهم منها قد تلقت أنفسهم بكثير
من مذمومات الخلق والشر وبعثت عليهم طرق الخير ومسالمة بقدر ما حصل لهم
من ذلك حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الخسمة في أحوالهم فجد الكثير منهم يذعنون
في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يبصدهم عنه وازع
الخشمة لما أخذتهم به عوائد السوء في التظاهر بالفواحش قولاً وعملاً وأهل البدو
وان كانوا مقبلين على الدنيا مثلهم إلا أنه في المقدار الضروري لافي الترف ولا في شيء
من أسباب الشهوات والذات ودواعيها فعوائدهم في معاملاتهم على نسبتها
وما يحصل فيهم من مذاهب السوء ومذمومات الخلق بالنسبة إلى أهل الحضرة أقل
بكثير فيهم أقرب إلى النظرة الأولى وأبعد عما ينطبع في النفس من سوء الملكات بكثرة
العوائد المذمومة وقبحها فيسهل علاجهم عن علاج الحضرة وهو ظاهر وقد توضح فيما
بعد أن الحضارة هي نهاية العمران وخروجها إلى الفساد ونهاية الشر والبعد عن
الخير فقد تبين أن أهل البدو أقرب إلى الخير من أهل الحضرة والله يحب المتقين
ولا يعترض على ذلك بما ورد في صحيح البخاري من قول الجراح لـلمة بن الأكوع وقد
بلغه أنه خرج إلى سكنى البادية فقال له ارتددت على عقبيك تعربت فقال لا ولكن
رسول الله صلى الله عليه وسلم أذن لي في البدو فأعلم أن الهجرة افترضت أول الإسلام
على أهل مكة ليكونوا مع النبي صلى الله عليه وسلم حيث حل من المواطن ينصرونه
ويظاهرونه على أمره ويحرسونه ولم تكن واجبة على الأعراب أهل البادية لأن أهل
مكة يمسهم من عصبية النبي صلى الله عليه وسلم في المظاهرة والحراسة ما لا يمس غيرهم
من بادية الأعراب وقد كان المهاجرون يستعيذون بالله من التعرب وهو سكنى البادية
حيث لا تجب الهجرة وقال صلى الله عليه وسلم في حديث سعد بن أبي وقاص عند
مرضه بكفة اللهم أمض لأصحابي هجرتهم ولا تردهم على أعقابهم ومعناه أن يوفقهم
للازمة المدينة وعدم التحول عنها فلا يرجعوا عن هجرتهم التي ابتدوا بها وهو من
باب الرجوع عن العقب في السعي إلى وجهه من الوجه وقيل إن ذلك كان خاصاً
بما قبل الفتح حين كانت الحاجة داعية إلى الهجرة لقله المسلمين وأما بعد الفتح وحين
كثر المسلمون واعتزوا وتكفل الله أئمة بالعصمة من الناس فإن الهجرة ساقطة حينئذ
لقوله صلى الله عليه وسلم لا هجرة بعد الفتح وقيل سقط انشاؤها عن يسلم بعد الفتح
وقيل سقط وجوبها عن أسلم وهاجر قبيل الفتح والكل مجمعون على أنها بعد الوفاة

ساقطة لان اصحابه افتروا من يومئذ في الآفاق وانتشروا ولم يبق الا فضل السكني
 بالمدينة وهو هجرة نقول الحجاج لسلمة حين سكن البادية ارتددت على عقبيك
 تعربت نبي عليه في ترك السكني بالمدينة بالاشارة الى الدعاء المأثور الذي قدمناه وهو
 قوله ولا تردهم على أعقابهم وقوله تعربت اشارة الى أنه صار من الاعراب الذين
 لا يهاجرون وأجاب سلمة بانكار ما ألزمه من الامرين وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم
 أذن له في البدو ويكون ذلك خاصا به كشهادة خزيمه وعناق أبي ردة أو يكون الحجاج
 انما نبي عليه ترك السكني بالمدينة ففضله لعله يستقو الهجرة بعد الوفاة وأجابه سلمة بأن
 اغتنامه لاذن النبي صلى الله عليه وسلم أولى وأفضل فآثره به واختصه الالمعنى
 علمه فيه وعلى كل تقدير فليس دليلا على مذمة البدو الذي عبر عنه بالتعرب لان
 مشروعية الهجرة انما كانت كما علمت لمظاهرة النبي صلى الله عليه وسلم وحراسته لا لمذمة
 البدو فليس في النبي على ترك هذا الواجب بالتعرب دليل على مذمة التعرب والله
 سبحانه أعلم به التوفيق

ه (فصل في ان اهل البدو اقرب الى الشجاعة من اهل الحضرة)

والسبب في ذلك ان اهل الحضرة القوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة وانغمسوا
 في النعيم والترف ووككوا امرهم في المدافعة عن أنفسهم وانفسهم الى واليهم
 والحاكم الذي يسوسهم والحامية التي تولت حراستهم واستنماوا الى الاسوار التي
 تحوطهم والحرز الذي يحول دونهم فلا تهم هبعة ولا يفرلهم صيد فهم غارتون
 آمنون قد ألقوا السلاح ونوالت على ذلك منهم الاجيال وتنزلوا منزلة النساء والولدان
 الذين هم عيال على أبي مشواهم حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعية وأهل
 البدو وتفردتهم عن المجتمع وتوحشهم في الصواحي وبعدهم عن الحامية وانتبذهم
 عن الاسوار والابواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونهم الى سواهم
 ولا يثقون فيها بغيرهم فهم دائما يحملون السلاح وينلقون عن كل جانب في الطرق
 ويتجافون عن الهجوع الاغرار في المجالس وعلى الرجال وفوق الاقتاب ويتوجسون
 للنساء ويتفردون في القفر والبيداء مدلين بأسهم واثقين بأنفسهم قد صار
 لهم البأس خلقا والشجاعة هجيرة يرجعون اليها متى دعاهم داع أو استنفرهم صارخ
 وأهل الحضرة مها خلطوهم في البادية أو صاحبوهم في السفر عيال عليهم لا يملكون
 معهم شيئا من أمر أنفسهم وذلك مشاهد بالعيان حتى في معرفة النواحي والجهات
 وموارد المياه ومشارع السبل وبب ذلك ما شرحناه وأصله أن الانسان ابن عوائده

وأوفه لا ابن طبيعته ومن اجبه فالذى ألفه في الاحوال حتى صار خلقا وملاكت
زعادة تنزل منزلة الطبيعة والجملة واعتبر ذلك في الآدميين تجده كثيرا والله يخلق
ما يشاء

(فصل في ان معاناة اهل الحضرة الاحكام مفسدة للباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم)

وذلك أنه ليس كل أحد مالك أمر نفسه اذ الرؤساء والامراء المملكون لامر الناس
قليل بالنسبة الى غيرهم فن الغالب أن يكون الانسان في ملكة غيره ولا بد فان كانت
الملكة رقيقة وعادلة لا يعانى منها حكم ولا منع وصدد كان من تحت يدها مدلين
بما فى أنفسهم من شجاعة أو جبن واثقين بعدم الوازع حتى صار لهم الادلال جملة
لا يعرفون سواها وأما اذا كانت الملكة وأحكامها بالقهر والسطوة والاخافة فتكسر
حينئذ من سورة بأسهم وتذهب المنفعة عنهم لما يكون من التكاسل في النفوس
المضطهدة كما بينه وقد نهي عمر سعد ارضى الله عنهما عن مثلها لما أخذ زهرة بن
حوية سلب الجالنوس وكانت قيمته خمسة وسبعين ألفا من الذهب وكان اتسع
الجالنوس يوم القادسية فقتله وأخذ سلبه فانزعه منه سعد وقال له هلا انتظرت في
اتساعه اذنى وكتب الى عمر يستأذنه فكتب اليه عمر نعمد الى مثل زهرة وقد صلى بما
صلى به وبقي عليك ما بقي من حربك وتكسر فوقه وتفسد قلبه ولأمنى له عمر سلبه وأما
اذا كانت الاحكام بالعقاب فذهبة للباس بالكلية لان وقوع العقاب به ولم
يدافع عن نفسه يكسبه المذلة التي تكسر من سورة بأسه بلا شك وأما اذا كانت
الاحكام تأديبية وتعليمية وأخذت من عهد الصبا أثرت في ذلك بعض الشيء لم يراه على
المخافة والا نقياد فلا يكون مدلا يأسه ولهذا نجد المتوحشين من العرب أهل البدو
أشد بأسا ممن تأخذ الاحكام ونجد أيضا الذين يعاونون الاحكام وملكتهم من لدن
مرباهم في التأديب والتعليم في الصنائع والعلوم والديانات ينقص ذلك من بأسهم
كثيرا ولا يكافون يدفعون عن أنفسهم عادية بوجه من الوجوه وهذا شأن طلبة
العلم المنتحلين للقراءة والاختذ عن المشايخ والائمة المبارسين للتعليم والتأديب في
مجالس الوفاق والهيبة فيهم هذه الاحوال وذهابها بالمنفعة والبأس ولا تستنكر
ذلك بما وقع في الصحابة من أخذهم بأحكام الدين والشريعة ولم ينقص ذلك من بأسهم
بل كانوا أشد الناس بأسا لان الشارع صلوات الله عليه لما أخذ المسلمون عنه دينهم
كانوا زرعهم فيهم من أنفسهم لما تلى عليهم من الترغيب والترهيب ولم يكن بتعليم
صناعي ولا تأديب تعليمي انما هي أحكام الدين وآداب المتلقة نقلها بأخذون أنفسهم

بها بما رشح فيهم من عقائد الايمان والتصديق فلم تزل سورة بأسهم مستحكمة كما كانت ولم تتخذها أظفار التأديب والحكم قال عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصا على أن يكون الوازع لكل أحد من نفسه ويقينا بأن الشارع أعلم بمصالح العباد ولما ناقص الدين في الناس وأخذوا بالأحكام الوازعة ثم صار الشرع علما وصناعة يؤخذ بالتعليم والتأديب ورجع الناس الى الحضارة وخلق الانقياد الى الاحكام نقصت بذلك سورة البأس فيهم فقد تبين أن الاحكام السلطانية والتعليمية مفسدة للبأس لان الوازع فيها أجنبي وأما الشرعية فغير مفسدة لان الوازع فيها ذاتي ولهذا كانت هذه الاحكام السلطانية والتعليمية مما تؤثر في أهل الحواضر في ضعف نفوسهم وخضد الشوكه منهم بمعانتهم في وليدهم وكهولهم والبدو بمعزل عن هذه المنزلة لبعدهم عن أحكام السلطان والتعليم والآداب ولهذا قال محمد بن أبي زيد في كتابه في أحكام المعلمين والمتعلمين انه لا ينبغي للمؤدب أن يضرب أحدا من الصبيان في التعليم فوق ثلاثة أسواط نقله عن شريح القاضي واحتج له بعضهم بما وقع في حديث بدء الوحي من شأن الغط وأنه كان ثلاث مرات وهو ضعيف لا يصلح شأن الغط أن يكون دليلا على ذلك لبعده عن التعليم المتعارف والله الحكيم الخبير

٧ (فصل في ان سكنى البدو لا يكون الا للقبائل اهل العصبية)

* (اعلم) * أن الله سبحانه ركب في طبائع البشر الخير والشر كما قال تعالى وهديناهم النجدين وقال فالهمها فجورها وتقواها والشر أقرب الخلال اليه اذا أهمل في مرعى عوائده ولم يهذب الاقتداء بالدين وعلى ذلك الجتم الغضير الامن وفقه الله ومن أخلاق البشر فيهم الظلم والعدوان بعض على بعض فمن امتدت عينه الى متاع أخيه امتدت يده الى أخذه الا أن يصد وازع كما قال

والظلم من شيم النفوس فان تجرد * ذاعنة فلعلة لا ينظم

فأما المدن والامصار فعدوان بعضهم على بعض تدفعه الحكام والدولة بما قبضوا على أيدي من تحتهم من الكافة أن يمتد بعضهم على بعض أو يعدو عليه فيهم مكموحون بحكمة القهر والسلطان عن التظالم الا اذا كان من الحكام بنفسه أما لعدوان الذي من خارج المدينة فيدفعه سياج الاسوار عند الغنلة أو الغرة قليلا العجز عن المقاومة نهارا أو يندفعه ذباد الحامية من أعوان الدولة عند الاستعداد والمقاومة وأما أحماء البدو فيزع بعضهم عن بعض مشايخهم وكبرائهم بما وقع في نفوس الكافة لهم من الوفا والتمهل وأما حلالهم فأنبايدون منها من خارج حامية المي من انجادهم

وقتيانهم معروفين بالشجاعة فيهم ولا يصدق دفاعهم وزيادهم الا اذا كانوا عصبية
وأهل نسب واحد لانهم بذلك تشتد شوكتهم ويخشى جانبهم اذ نغرة كل أحد على
نسبه وتعصيته أهم وما جعل الله في قلوب عباده من الشفقة والنغرة على ذوى أرحامهم
وقرباتهم موجودة في الطبائع البشرية وبها يكون التعاضد والتناصر وتعظم رهبة
العدولهم واعتبر ذلك فيما حكاه القرآن عن اخوة يوسف عليه السلام حين قالوا
لا يبه لنا أكله الذئب ونحن عصابة انا اذ الخاسرون والمعنى أنه لا يتوهم العدو ان
على أحد مع وجود العسبة له وأما المتفردون في انسابهم فهل أن تصيب أحد منهم
نغرة على صاحبه فاذا أظلم الجوق بالشر يوم الحرب تسلسل كل واحد منهم يبغي النجاة
لنفسه حيفة واستيحاشا من التخاذل فلا يقدرين من أجل ذلك على سكنى القفر
لما أنهم حينئذ طعمة لمن يلتمهم من الأمم سواهم واذا تبين ذلك في السكنى التي
محتاج للمدافعة والحماية فبمثلها تبين لك في كل أمر يحمل الناس عليه من نبوة أو إقامة
ملك أو دعوة اذ بلوغ الغرض من ذلك كانهما يتم بالقتال عليه لما في طبائع البشر من
الاستعصاء ولا بد في القتال من العصبية كما ذكرناه آنفا فاختذه اماما تقسدى به فيما
ورده عليك، بد والله الموفق للصواب

(فصل في ان العصبية انما تكون من الالتحام بالنسب او ما في معناه)

وذلك أن صلة الرحم طبعية في البشر الا في الاقل ومن صلته النغرة على ذوى القرى
وأهل الارحام أن ينالهم ضميم أو تصيبهم هلكة فان القريب يجد في نفسه غضاضة
من ظلم قريبه أو العدا عليه ويود لو يحول بينه وبين ما يصله من المعاطب والمها لك نزعة
طبيعية في البشر مذك كانوا فاذا كان النسب المتواصل بين المتناصرين قريبا جدا
بحيث حصل به الاتحاد والائتمام كانت الوصلة ظاهرة فاستدعت ذلك بجردها
ووضوحها واذا بعد النسب بعض الشيء قرب ما تنوسى بعضها ويبقى منها شهرة فتعمل
على النصرة لذوى نسبه بالامر المشهور منه فرار من الغضاضة التي يتوهمها في نفسه
من ظلم من هو منسوب اليه بوجه ومن هذا الباب الولاء والخلق اذ نغرة كل أحد على
أهل ولانه وحلفه لذلالة التي تلحق النفس من اهتضام جارها أو قريبيها ونسبها بوجه
من وجوه النسب وذلك لاجل اللحمة الخاضعة من الولاء مثل لحمه النسب أو قريبا
منها ومن هذا تفهم معنى قوله صلى الله عليه وسلم تعلموا من انسابكم ما تصلون به
أرحامكم يعني أن النسب انما قائده هذا الالتحام الذي يوجب صلة الارحام حتى تقع
المناصرة والنغرة وما فوق ذلك مستغنى عنه اذ النسب أمر وهو لا حقيقة له

وتفقه انما هو في هـ هذه الوصلة والالتحام فاذا كان ظاهرا واضحا حمل النفوس على طبيعتها من المغرة كما نلناه واذا كان انما يستفاد من الخبر البعيد ضعف فيه الوهم وذهبت فائده وصار الشغل به مجانا ومن أعمال الله والمنهى عنه ومن هذا الاعتبار معنى قولهم الذئب علم لا يتقع وجهاله لاتضر عني أن النسب اذا خرج عن الوضوح وصار من قبيل العلوم ذهبت فائده الوهم فيه عن النفس وانفتحت المغرة التي تحمل عليها العصية فلا منفعة فيه حيث ذوالله سبحانه وتعالى أعلم

٩ (فصل في ان الصريح من النسب انما يوجد للتوحشين
في المقفر من العرب ومن في معانهم)

وذلك لما اختصوا به من كد العيش وشظف الاحوال وسوء المواطن حملتهم عليها الضرورة التي عينت لهم تلك القسمة وهي لما كان معاشهم من القيام على الابل وتاجها ورعايتها والابل تدعوهم الى التوحش في القفر لرعيها من شجره وتساخها في رماله كما تقدم والقفر مكان الشظف والسغب فصار لهم الفاء عادة وريت فيه أجيالهم حتى تمكنت خلقا وجبله فلا ينزع اليهم أحد من الامم أن يساهمهم في حالهم ولا يأنس بهم أحد من الاجيال بل لو وجدوا أحد منهم السبيل الى الفرار من حاله وأمكنه ذلك لما تركه فيؤمن عليهم لاجل ذلك من اختلاط انسابهم وفسادها ولا تزال بينهم محفوظات صريحة واعتبر ذلك في مضر من قريش وكثانة وثقيف وبني أسد وهذيل ومن جاورهم من خزاعة كما كانوا أهل شظف ومواطن غرذات زرع ولا ضرع وبعدوا من أرياف الشام والعراق ومعادن الأدم والحبوب كيف كانت انسابهم صريحة محفوظات لم يدخلها اختلاط ولا عرف فيهم شوب * وأما العرب الذين كانوا بالنول وفي معادن الخصب للمراعي والعيش من حيرة كهلان مثل لحم وجدام وغسان وطبي وقضاعة وايدا فاختلفت انسابهم وتداخلت شعوبهم فني كل واحد من بيوتهم من الخلاف عند الناس ما تعرف وانما جاءهم ذلك من قبل العجم ومخالطتهم وهم لا يعتبرون المحافظة على النسب في بيوتهم وشعوبهم وانما هذا العرب فقط * قال عمر رضي الله تعالى عنه تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد اذا سئل أحدكم عن أمه قال من قرية كذا هذا اي ما لحق هؤلاء العرب أهل الأرياف من الأزد حام مع الناس على البلد الطيب والمراعي الخصبية فكثرت الاختلاط وتداخلت الانساب وقد كان وقع في صدر الاسلام الانتماء الى المواطن فيقال جند قنسرين جند دمشق جند العواصم واتقل ذلك الى الأندلس ولم يكن لا طراح العرب أمر النسب وانما كان لاختصاصهم

بالمواطن بعد الفتح حتى عرفوا بها وصارت لهم علامة زائدة على النسب يتميزون بها عند
أمراتهم ثم وقع الاختلاط في الحواضر مع العجم وغيرهم وفسدت الانساب بالجملة
وفقدت ثمرتها من العصبية فاطرحت ثم ثلاث القبائل ودثرت فدثرت العصبية
بدورها وبقي ذلك في البدو كما كان والله وارث الارض ومن عليها

١٠ (فصل في اختلاط الانساب كيف يقع)

* (اعلم) * أنه من بين أن بعضا من أهل الانساب يسقط الى أهل نسب آخر بقربا
اليهم أو حلف أو ولاء أو لفرا من قومه بجناية أصابها فدعى بنسب هؤلاء ويعتمدونهم
في ثمراته من النغرة والقود وحل الديات وسائر الاحوال واذا وجدت ثمرات النسب
فكانه وجدلانه لا معنى لكونه من هؤلاء ومن هؤلاء الاجريان أحكامهم وأحوالهم
عليه وكأنه النعم بهم ثم انه قد يتناسى النسب الاول بطول الزمان ويذهب أهل العلم به
فيختلج على الاكثروما زالت الانساب تسقط من شعب الى شعب ويلتحم قوم بالآخرين في
الجاهلية والاسلام والعرب والعجم * وانظر خلاف الناس في نسب آل المنذر
وغيرهم يبين لك شي من ذلك ومنه شأن بجيلة في عرجة بن هرثة لما ولاء عمر عليهم فسألوه
الاعفاء منه وقالوا هو نينا الزيق أي دخيل ولصيق وطلبوا أن يولي عليهم جريرا فسأله
عمر عن ذلك فقال عرجة صدقوا يا أمير المؤمنين ان ارجل من الازد أصبت دما في قومي
ولحقت بهم وانظر منه كيف اختلط عرجة بجيلة وتلبس جلدتهم ودعى بنسبهم حتى
ترشح للرياسة عليهم لولا علم بعضهم بدشائمه ولو غفلوا عن ذلك وامتد الزمن لتنسى
بجيلة وعتمدونهم بكل وجه ومدى فانهم واعتبروا لله في خليقته ومثل هذا كثير
بهذا العهد ولم قبله من العهود والله الموفق للصواب بمنه وفضله وكرمه

١١ (فصل في ان الرياسة لا تزال في نصابها المخصوص من اهل العصبية)

* (علم) * أن كل حي أو بطن من القبائل وان كانوا عصابة واحدة تنسبهم العام
ففيهم أيضا عصبية أخرى لانساب خاصة هي أشد التماسا من النسب العام
لهم مثل عشير واحد أو أهل بيت واحد أو اخوة بنى أب واحد لا مثل بنى العم
الاقربين أو الابعدين فهو ولاء فعد بنسبهم المخصوص ويشاركون من سواهم
من العصاب في النسب العام والنغرة تقع من أهل نسبهم المخصوص ومن أهل
النسب العام الا أنها في النسب الخاص أشد تقرب للجمعة والرياسة فيهم انما
نكون في نصاب واحد منهم ولا تكون في الكل ولما كانت الرياسة انما تكون
لغلب وجب أن تكون عصبية ذلك النصاب أقوى من سائر العصاب ليقع الغلب

بهلونتم الرياسة لاهلها فاذا وجب ذلك تعين أن الرياسة عليهم لا تزال في ذلك النصاب
 المخصوص أهل الغلب عليهم اذ لو خرجت عنهم وصارت في العصائب الاخرى النازلة
 عن عصابتهم في الغلب لما تمت لهم الرياسة فلا تزال في ذلك النصاب متناقلة من فرع منهم
 الى فرع ولا تنتقل الا الى الاقوى من فروعها لما قلناه من سر الغلب لان الاجتماع
 والعصية بمثابة المزاج للمتكون والمزاج في المتكون لا يصلح اذا تكافأت العناصر
 فلا بد من غلبة أحدها والاليم التكوين فهذا هو سر اشتراط الغلب في العصية ومنه
 تعين استمرار الرياسة في النصاب المخصوص بما كما قررناه

١٢ (فصل في ان الرياسة على اهل العصية لا تكون في غير نسبهم)

وذلك أن الرياسة لا تكون الا بالغلب والغلب انما يكون بالعصية كما قدمناه فلا بد في
 الرياسة على القوم أن تكون من عصية غالبية لعصياتهم واحدة واحدة لان كل عصية
 منهم اذا أحست بغلب عصية الرئيس لهم أفرّت وابلادعان والاتباع والساقط في نسبهم
 بالجملة لا تكون له عصية فيهم بالنسب انما هو ملصق لزيق وغاية التعصب له بالولاء
 والخلق وذلك لا يوجب له غلبا عليهم البتة واذا فرضنا أنه قد التحم بهم واختلط وتنوبى
 عهده الاوّل من الالتصاق وليس جلدتهم ودعى بنسبهم فكيف له الرياسة قبل هذا
 الالتحام أو لاحد من سلفه والرياسة على القوم انما تكون متناقلة في منبت واحد
 تعين له الغلب بالعصية فالاولية التي كانت لهذا الماصق قد عرف فيها التصاقه من غير
 شك ومنه ذلك الالتصاق من ارياسة حيث تدفق كيف تنقلت عنه وهو على حال
 الالتصاق والرياسة لا بد وأن تكون موروثه عن مستحقها لما قلناه من الغلب بالعصية
 وقديت شرف كثير من الرؤساء على القبائل والعصائب الى انسلب يلهمجون بها اما
 لمخصوصية فضيلة كانت في أهل ذلك النسب من شجاعة أو كرم أو ذكر كيف انفق
 فنزعون الى ذلك النسب وتورطون بالدعوى في شعوبه ولا يعلمون ما يوقعون فيه
 أنفسهم من القدر في رياحتهم والطمع في شرفهم وهذا كثير في الناس لهذا العهد فمن
 ذلك ما يدعيه زناة جملة أنهم من العرب ومنه ادعاء اولاد رباب المعروفين بالجزائريين من
 بني عامر أحد شعوب زغبة أنهم من بني سليم ثم من الشريد منهم لحق جد هم بني عامر
 نجارا يصنع الحرجان واختلط بهم والتحم بنسبهم حتى رأس عليهم ويسمونه الججازي
 ومن ذلك ادعاء بني عبد القوي بن العباس بن توجين أنهم من ولد العباس بن عبد
 المطلب زغبة في هذا النسب الشريف وغلط باسم العباس بن عطية أبي عبد القوي
 ولم يعلم دخول أحد من العباسيين الى المغرب لانه كان منذ أول دولتهم على دعوة
 العلويين أعدائهم من الادارسة والعبيديين فكيف يسقط العباس الى أحد من شيعة

الغلوين * وكذلك ما يدعيه أبناء زيان ملوكة تلسان من بني عبد الواحد أنهم من
 ولد القاسم بن ادريس ذهابا الى ما اشتهر في نسبهم انهم من ولد القاسم فيقولون بلسانهم
 الزناني أنت القاسم أي بنو القاسم ثم يدعون أن القاسم هذا هو القاسم بن ادريس أو
 القاسم بن محمد بن ادريس ولو كان ذلك صحيحا فغاية القاسم هذا انه قرين مكان سلطانه
 مستحرا بهم فكيف تتم له الرياسة عليهم في باديتهم وانما هو غلط من قبل اسم القاسم
 فانه كثير الوجود في الادارسة فتوهموا أن قاسمهم من ذلك النسب وهم غير محتاجين
 لذلك فان منالهم للملك والعزة انما كانوا بعصبيتهم ولم يكن بادعاء علوية ولا عباسية
 ولا شي من الانساب وانما يحمل على هذا المتقربون الى الملوك بخنازعتهم ومذاهبهم
 ويشتهر حتى يبعد عن الرد * واقد بلغني عن يغمراسن بن زيان موثلا سلطانهم انه لما
 قيل له ذلك أنكروه وقال بلغته الزانية ما معناه أما الدنيا والملك فنلتنا بسبوقنا لا بهذا
 النسب وأما نشعه في الآخرة فردود الى الله وأعرض عن التقرب اليه بذلك * ومن
 هذا الباب ما يدعيه بنو سعد شيوخ بن يزيد بن زغبة أنهم من ولد أبي بكر الصديق رضي
 الله عنه وبنو سلامة شبوخ بن يديلتز من توجين أنهم من سليم والزواودة شيوخ رباح
 أنهم من أعقاب البرامكة وكذا بنو مهني أمراء طي بالمشرق يدعون فيما بلغنا أنهم من
 أعقابهم وأمثال ذلك كثير ورياستهم في قومهم مانعة من ادعاء هذه الانساب كما
 ذكرناه بل تعين أن يكونوا من صرح ذلك النسب وأقوى عصيانه فاعتبره واجتنب
 المغالط فيه ولا تجعل من هذا الباب الحاق مهدي الموحدين بنسب العلوية فان
 المهدي لم يكن من منبت الرياسة في هرثمة قومه وانما رأس عليهم بعد اشتهاره بالاسم
 والدين ودخول قبائل المصامدة في دعوته وكان مع ذلك من أهل المنابت المتوسطة
 فيهم والله عالم الغيب والشهادة

١٣ فصل في ان البيت والشرف بالاصالة والحقيقة لاهل

العصبية ويكون لغيرهم بالمجاز والشبه

وذلك أن الشرف والحسب انما هو بالخلال ومعنى البيت أن بعد الرجل في آبائه
 أثر اقامد كورين تكون له بولادتهم ايام والانتساب اليهم تجلة في أهل بلدته لما
 وقر في بنوهم من تجلة لانه وشرفهم بخلالهم والناس في نشأتهم وتناسلهم معادن
 قال صلى الله عليه وسلم لم الناس معادن خبارهم في الجاهلية خبارهم في الاسلام اذا
 فقها وانفعني الحسب راجع الى الانساب وقد بينا أن نعمة الانساب وفائدتها انما هي
 العصبية للنفرة والتناصر فحسب تكون العصبية مرهوبة ومخشبة والمنبت فيها زكي
 محمي تكون فائدة النسب أوضح وغرثها أقوى زعميد الاشراف من الآباء زائد في
 فائدتهم فيكون الحسب والشرف أصيلا في أهل العصبية لوجود نعمة النسب وتفاوت

البيوت في هذا الشرف بتفاوت العصية لانه سرها ولا يكون للمنفردين من أهل
 الامصار بيت الا بالمجاز وان توهه وهه فزخرف من الدعوى واذا اعتبرت الحسب في أهل
 الامصار وجدت معناه أن الرجل منهم يعد سلفا في خلال الخيرو ومخالطة أهله مع
 الركون الى العافية ما استماع وهذا مغاير لسر العصية التي هي ثمرة الذنب وتعدد
 الآباء لكنه يطلق عليه حسب بيت بالمجاز لعلاقة ما فيه من تعدد الآباء المتعاقبين
 على طريقة واحدة من الخيرو. سالكه وليس حسب بالحقيقة وعلى الاطلاق وان ثبت
 أنه حقيقة فيها بالوضع اللغوي فيكون من المشكك الذي هو في بعض مواضعه أولى
 وقد يكون للبيت شرف أول بالعصية والخلال ثم ينسبون منه لذهابها بالاضارة
 كما تقدم ويحتلطنون بالعمار ويبقى في نفوسهم وسواس ذلك الحسب يعدون بانفسهم
 من أشرف البيوتات أهل المصائب وليسوا منها في شيء لذهاب العصية جملة وكثير من
 أهل الامصار الناشئين في بيوت العرب أو العجم لا أول عهدهم وسوسون بذلك وأكثر
 ما رشح الوسواس في ذلك لبني امير ايل فانه كان لهم بيت من أعظم بيوت العالم بانبت
 أولا لما تعدد في سلفهم من الانبياء والرسل من لدن ابراهيم عليه السلام الى موسى
 صاحب ملتهم وشريعتهم ثم بالعصية ثانيا وما آتاهم الله به من الملك الذي وعدهم
 به ثم انسلخوا من ذلك أجمع وضربت عليهم الذلة والمسكنة وكتب عليهم الجلاء في
 الارض وانفردوا بالاستعباد للكفر الآفان السنين وما زال هذا الوسواس مصاحبا
 لهم فتجدهم يقولون هذا هاروني هذا من نسل يوشع هذا من عقب كالب هذا من
 سبط يهوذا مع ذهاب العصية ورسوخ الذل فيهم منذ أحقاب متطاولة وكثير من
 أهل الامصار وغيرهم المنقطعين في أنسابهم عن العصية يذهب الى هذا الهديان •
 وقد غلط أبو الوليد بن رشد في هذا الماد كالحسب في كتاب الخطابة من تلخيص كتاب
 المعلم الاقول والحسب هو أن يكون من قوم قديم نزلهم بالمدينة ولم يتعرض الماد كرهناه
 وليت هري ما الذي يقع قدم نزلهم بالمدينة ان لم تكن له عصابة يرهب بها جانبه
 وتحمل غيرهم على القبول منه فكانه أطلق الحسب على تعدد الآباء فقط مع أن
 الخطابة انما هي استمالة من تؤثر استمالاته وهم أهل الحل والعقد وأما من لا قدرة
 له البتة فلا يلتفت اليه ولا يقدر على استمالة أحد ولا يستمال هو وأهل الامصار من
 الحضر بهذا المناسبة الا أن ابن رشد ربي في جيل وبلد لم يمارسوا العصية ولا آتسوا
 أحوالها فبقي في أمر البيت والحسب على الامر المشهور من تعدد الآباء على الاطلاق
 ولم يراجع فيه حقيقة العصية وسرها في الخطابة والله بكل شيء عليم ٥١

١٤ فصل في ان البيت والشرف لله والى واهل الاصطناع انما هو بهو اليم لابانسابهم

وذلك أنفة، فما أن الشرف بالاصالة والحقيقة انما هو لاهل العصية فاذا اصطنع
 اهل العصية قوما من غير نسبهم أو استرقوا العبدان والموالي والهموا به كما قلناه
 ضرب معهم! ولتلك الموالى والمدطنعون بندبهم في تلك العصية ولبسوا جلدها كأنها
 عصبتهم وحصل لهم من الانتظام في العصية مساهمة في نسبها كما قال صلى الله تعالى
 عليه وسلم مولى القوم منهم وسواهم ~~كان~~ مولى رفق أو مولى اصطناع وحذف وليس
 نسب ولادته يتأفع له في تلك العصية اذ هي مباينة لذلك النسب وعصية ذلك النسب
 مفقودة لذهاب سرها عند التمام بهذا النسب الاخر وفقدانه اهل عصيته يفتصر
 من هولاء ويندرج فيهم فاذا تعددت له الآباء في هذه العصية كان له بينهم شرف وبيت
 على نسبه في ولايتهم واصطناعهم لا يتجاوز الى شرفهم بل يكون أدون منهم على كل
 حال وهذا شأن الموالى في الدول والمدمة كاهم فانهم انما يشرفون بالرسوخ في ولاء
 الدولة وخدمتها وتعددا لآباءه في ولايتها الا ترى انى موالى الازال في دولة بنى العباس
 والى بنى برمك من قباهم وبنى نوبخت كيف أدركوا البيت والشرف وبنوا المجد
 والاصالة بالرسوخ في ولاء الدولة فكان وجه شرف بن يحيى بن خالد من أعظم الناس بيتا
 وشرفا بالانتساب الى ولاء الرشيد وقومه لا بالانتساب فى الفرس وكذا والى كل دولة
 وخدمها انما يكون لهم البيت والحسب بالرسوخ فى ولايتها والاصالة فى اصطناعها
 ويضمحل نسبه الاقدم من غير نسبها ويبنى على لغيره في اصالته ومجده وانما المعنى
 نسبة ولادته واصطناعه اذ فيه سر العصية التى بها البيت والشرف فكان شرفه مشتقا
 من شرف مواليه وبنائه من بنائهم فلم يتفقه نسب ولادته وانما بنى مجده نسب الولاء
 فى الدولة ولحمة الاصطناع فيها والتربية وقد يكون نسبه الاول فى لحمة نصيبته ودولته
 فاذا ذهبت وصار ولاءه واصطناعه فى أخرى لم تفعه الاولى لذهاب عصيتها واتفقع
 بالثانية لوجودها وهذا حال بنى برمك اذا المنقول أنهم كانوا أهل بيت فى الفرس من
 سدنة بيوت النار عندهم ولما صاروا الى ولاء بنى العباس لم يكن بالاول اعتبار وانما
 كان شرفهم من حيث ولايتهم فى الدولة واصطناعهم وما سوى هذا فهوهم فوسوس به
 الندوس الجائحة ولا حجة لغيره والوجود شاهد بما قلناه وان أكرمكم عند الله اتقاكم
 والله ورسوله أعلم

١٥ (فصل فى ان نهاية الحسب فى العقب الواحد اربعة آباء)

* (اعلم) • أن العالم العنصرى بما فيه كائن فاسد لامن ذواته ولا من أحواله
 فالمكونات من المعدن والنبات وجميع الحيوانات الانسان وغيره كائنة فاسدة

بالمعانيه وكذلك ما يعرض لها من الاحوال وخصوصا الانسانية فالعلوم تنشأ
ثم تدرس وكذا الصنائع وأمثالها والحسب من العوارض التي تعرض للادميين
فهو كائن فاسد لا محالة وليس يوجد لاحد من أهل الخليقة شرف متصل في آباءه من لدن
آدم اليه الا ما كان من ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم كرامة به وحياطة على السرفيه
وأول صكك شرف خارجية كما قيل وهي الخروج عن الرياسة والشرف الى الضعة
والابتذال وعدم الحسب ومعناه أن كل شرف وحسب فعدمه سابق عليه شأن كل
محدث ثم ان نهايته في أربعة آباء وذلك ان باني المجد عالم بما عاناه في بنيانه ومحافظ على
الخلال التي هي أسباب كونه وبقائه وابنه من بعده مباشرة لا به قد سمع منه ذلك وأخذه
عنه الا أنه مقصر في ذلك تقصير السامع بالشيء عن المعاني له ثم اذا جاء الثالث كان
حظه الاقتفاء والتقليد خاصة فقصر عن الثاني تقصير المقلد عن المجتهد ثم اذا جاء الرابع
قصر عن طريقته جملة وأضاع الخلال الحافظة لبنائه مجدهم واحتقرها وتوهم أن
ذلك البناء لم يكن بمعاناة ولا تكلف وانما هو أمر واجب لهم منذ أول النشأة بمجرد
اتسابهم وليس بعصاة ولا بخلال لما يرى من التجلة بين الناس ولا يعلم كيف كان
حدوثها ولا سببها ويتوهم أنه النسب فقط فيربأ بنفسه عن أهل عصيته ويرى الفضل
له عليهم وثوقا بما ربي فيه من استتباعهم وجهلا بما أوجب ذلك الاستتباع من الخلال
التي منها التواضع لهم والاخذ بجماع قلوبهم فيحتقرهم بذلك فينغصون عليه
ويحتقرونه ويديلون منه سواه من أهل ذلك المنبت ومن فروعه في غير ذلك العقب
للاذعان لعصيتهم كما قلناه بعد الوثوت بما يرضونه من خلاله فتمنوا فروع هذا وتذوى
فروع الاقوال وينهدم بناء بيته هذا في الملوك وهو كذا في بيوت القبائل والامراء
وأهل العصية أجمع ثم في بيوت أهل الامصار اذا انحطت بيوت نشأت بيوت أخرى
من ذلك النسب ان يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز واشتراط
الاربعة في الاحساب انما هو في الغالب والافقد يثر البيت من دون الاربعة ويتلاشى
وينهدم وقد يتصل أمرها الى الخامس والسادس الا أنه في انحطاط وذهاب واعتبار
الاربعة من قبل الاجيال الاربعة بان ومباشرة ومقلدوها دم وهو أقل ما يمكن
وقد اعتبرت الاربعة في نهاية الحسب في باب المدح والثناء قال صلى الله عليه وسلم
انما الكرم ابن الكرم ابن الكرم ابن الكرم يوسف بن يعقوب بن اسحق بن ابراهيم
اشارة الى أنه بلغ الغاية من المجد وفي التوراة ما معناه أنا الله ربك طائق غير مرطاب
بنوب الآباء المبين على الثوالت وعلى الروابع وهذا يدل على أن الاربعة الاعقاب غايه
في الانتساب والحسب * ومن كتاب الانعاني في أخبار عزيز الغواني أن كسرى

قال النعمان هل في العرب قبيلة تشرف على قبيلة قال نعم قال بأى شيء قال من كان له
ثلاثة آباء متواليه رؤس ثم اتحل ذلك بكال الرابع قاليت من قبيلته وطلب ذلك فلم
يجده الا في آل حذيفة بن بدر النزارى وهم بيت قيس وآل ذى الجدين بيت شيبان
وآل الاشعث بن قيس من كندة وآل حاجب بن زرارة وآل قيس بن عاصم المنقرى
من بني تميم فجاء هؤلاء الرهط ومن تبعهم من عشائرهم واقعد لهم الحكام والعدول
فقام حذيفة بن بدر ثم الاشعث بن قيس لقرابته من النعمان ثم بساطام بن قيس بن
شيبان ثم حاجب بن زرارة ثم قيس بن عاصم وخطبوا واثروا فقال كسرى كلهم سيد
يصلح لموضعه وكانت هذه البيوتات هي المذكورة في العرب بعد بني هاشم ومعهم
بيت بنى الذين من بنى الحرث بن كعب بيت الينى وهذا كله يدل على أن الاربعة
الآباء نهاية في الحسب والله أعلم

١٦ (فصل في ان الامم الوحشية اقدر على التغلب ممن سواها)

هـ (اعلم) * أنه لما كانت البداوة سببا في الشجاعة كما قلنا في المقدمة الثالثة لاجرم
كان هذا الجيل الوحشى أشد شجاعة من الجيل الاخر فهم اقدر على التغلب وانتزاع
ما في أيدي سواهم من الامم بل الجيل الواحد يختلف أحواله في ذلك باختلاف الاعصار
فكما نزلوا الارياف وتفنكوا النعيم والفواعد وانما انصب في المعاش والنعيم تقس
من شجاعتهم بمقدار ما نقص من نوحشهم وبدوتهم واعتبر ذلك في الحيوانات العجم
بدواجن الطيبار البقر الوحشية والجر اذا زال نوحشها بمخالطة الآدميين وأخصب
هشها كيف يختلف حالها في الانتهاض والشدة حتى في مشيتها وحسن أدبها
وكذلك الآدمي المتوحش اذا أنس وألف وبيبه أن تكون السجاياء والطبايع انما هو
عن المألوفات والعوائد اذا كان الغلب للامم انما يكون بالاقدام والبسالة فمن كان من
هذه الاجيال أعرق في البداوة وأكثر نوحشا كان أقرب الى التغلب على سواه اذا
تقارب في العدد وتكافأ في القوة والعصية وانظر في ذلك شأن مضر مع من قبلهم من
حمير وكهلان السابقين الى المنك والنعيم ومع ربيعة المتوطنين ارياف العراق
ونعيمه لما بقى مضر في بداوتهم وتقدمهم الآخرون الى خصب العيش وغضارة النعيم
كيف أرهفت البداوة حدهم في التغلب فغلبوهم على ما في أيديهم وانتزعوهم وهذا
حال بنى طي وبنى عامر بن صعصعة وبنى سليم بن منصور من بعدهم لما تأخروا في باديتهم
عن سائر قبائل مضر واليمن ولم يتلبسوا بشيء من دنياهم كيف أمكنت حال البداوة
عليهم قوة عصيتهم ولم تخلفها مذاهب الترف حتى صاروا أغاب على الامم منهم وكذا

كل من العرب يلى نعيمًا وعيشًا خصبًا دون الخي الأخرقات الخي المبتدى يكون
أغلب هو وأقدر عليه إذا تكافأ في القوة والعدد سنة الله في خلقه

١٧ (فصل في ان الغاية التي تجري اليها العصبية هي الملك)

وذلك لانا قد منا أن العصبية به ان تكون الحماية والمدافعة والمطالبة وكل أمر يجمع
عليه وقد منا أن الآدميين بالطبيعة الانسانية يحتاجون في كل اجتماع الى رازع وحاكم
يزع بعضهم عن بعض فلا بد أن يكون متغلبا عليهم بتلك العصبية والالم تتم قدرته على
ذلك وهذا التغلب هو الملك وهو أمر زائد على الرياسة لان الرياسة انما هي رودة
وصاحبها متبوع وليس له عليهم قهر في أكامه وأما الملك فهو التغلب والحكم
بالقهر وصاحب العصبية اذا بلغ الى رتبة طلب ما فوقها فاذا بلغ رتبة السودد والاتباع
ووجد السبيل الى التغلب والقهر لا يتركه لانه مطلوب للنفس ولا يتم اقتدارها عليه
الا بالعصبية التي يكون بها متبوعا فالتغلب الملكي غاية للعصبية كما رأيت ثم ان القبيل
الواحد وان كانت فيه بيوتات متفرقة وعصبيات متعددة فلا بد من عصبية تكون
أقوى من جميعها تغلبها وتتبعها وتلحق جميع العصبيات فيها وتصير كأنها عصبية
واحدة ككبرى والواقع الافتراق المنضى الى الاختلاف والتنازع ولولا دفع الله
الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ثم اذا حصل التغلب بتلك العصبية على قومها
طلبت بطبعها التغلب على أهل عصبية أخرى بعيدة عنها فان كفايتها أو مانعتها كانوا
اقتالا وأنظارا لكل واحدة منهما التغلب على حوزتها وقومها شأن القبائل والامم
المفترقة في العالم وان غلبتها واستتبعتها التهمت بها أيضا وزادتها قوة في التغلب الى
قوتها وطلبت غاية من التغلب والتحكم أعلى من الغاية الاولى وأبعد وهكذا دائما
حتى تكافئ بقوة الدولة فان أدركت الدرلة في هرمها ولم يكن لها مانع من
أولياء الدولة أهل العصبيات استولت عليها وانتزعت الامر من يدها وصار الملك
أجمع لها وان انتهت الى قوتها ولم يقارن ذلك هرم الدولة وانما قارن حاجتها الى
الاستظهار بأهل العصبيات انظمتها الدولة في أوليائها استظهر بها على ما يعن من
مقاصدها وذلك ملك آخر دون الملك المستنبد وهو كما وقع للترك في دولة بني العباس
ولصنهاجة وزبانية مع كامة ولبنى حمدان مع ملوك الشيعة من العلوية والعباسية
فقد ظهر أن الملك هو غاية العصبية وانها اذا بلغت الى غايتها حصل للتبيلة الملك اما
بالاستبداد أو بالمظاهرة على حسب ما يسهه الرقت المتقارن لذلك وان عاقبها عن بلوغ
الغاية عواتق كإنيته وتفتت في مقامها الى أن يقضى الله بأمره

١٨ فصل في ان من عوائق الملك حصول الترف و انغماس القبيل في النعيم

وسبب ذلك ان القبيل اذا غلبت بعصبيتها بهض القلب استوت على الذممة بمقداره وشاركت أهل النعم والخصب في نعمتهم وخصبهم وضربت معهم في ذلك بسهم وحصه بمقدار غلبها واستظهار الدولة به فان كانت الدولة من القوة بحيث لا يطمع أحد في انتزاع أمرها ولا مشاركتها فيه أذعن ذلك القبيل لولايتها والقنوع به يستوعون من نعمتها ويشركون فيه من جبايتها ولم تسم آمالهم الى شيء من منازع الملك ولا أسبابه انما همستهم النعيم والكسب وخصب العيش والسكون في ظل الدولة الى الدعة والراحة والاخذ بما ذهب الملك في المباني والملابس والاستكثار من ذلك والتأنق فيه بمقدار ما حصل من الرياش والترف وما يدعو اليه من توابع ذلك فتذهب خشونة البداوة وتضعف العصية والبسالة ويتعمون فيما آتاهم الله من البسطة وتنشأ بنوهم وأعقابهم في مثل ذلك من الترف عن خدمة أنفسهم وولاية حاجاتهم ويستكفون عن سائر الامور الضرورية في العصية حتى يصير ذلك خلافا لهم وسجية فتنقص عصيتهم وبسالتهم في الاجيال بعدهم بتعاقبها الى أن تنقرض العصية فيأذنون بالانقراض وعلى قدر ترفهم ونعمتهم يكون اثر افهم على الفناء فضلا عن الملك فان عوارض الترف والغرق في النعيم كاسر من سورة العصية التي بها التغلب واذا انقرضت العصية قصر القبيل عن المدافعة والحماية فضلا عن المطالبة والتمتع الامم سواهم فقد تبين أن الترف من عوائق الملك والله يوفق ما يشاء

١٩ (فصل في ان من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سوام)

وسبب ذلك أن المذلة والانقياد كاسر ان لسورة العصية وشدها فان انقيادهم ومذلتهم دليل على فقدانها فمارعوا المذلة حتى يجزوا عن المدافعة ومن يجز عن المدافعة فأولى أن يكون عاجزا عن المقاومة والمطالبة واعتبر ذلك في بني اسرائيل لما دعاهم موسى عليه السلام الى ملك الشام وأخبرهم بأن الله قد كتب لهم ملكها كيف يجزوا عن ذلك وقالوا ان فيهم اقواما جبارين واننا لن ندخلها حتى يخرجوا منها أي يخرجهم الله تعالى منها بضرب من قدرته غير عصيتنا تكون من معجزاتك يا موسى ولما عزم عليهم لحوا وارتكبوا العصيان وقالوا له اذهب أنت وربك فقاتلا وما ذلك الا لما آتسوا من أنفسهم من العجز عن المقاومة والمطالبة كما تقتضيه الآية وما يؤثر في تفسيرها وذلك بما حصل فيهم من خلق الانقياد ومارعوا من الذل للتبسط أحقابا حتى ذهبت العصية منهم جملة مع أنهم لم يؤمنوا بحق الايمان بما أخبرهم به موسى مر

أن الشأم لهم وأن العاقبة الذين كانوا بأريحا نريستهم بحكمهم من الله قدر لهم
 فأقصروا عن ذلك وعجزوا وتويعوا على ما علموا من أنفسهم من العجز عن المطالبة لما
 حصل لهم من خلق المذلة وطعنوا فيما أخبرهم به نبيهم من ذلك وما أمرهم به فعاقبهم
 الله باليه وهو أنهم تاهوا في قفر من الأرض ما بين الشأم ومصر أربعين سنة لم يأووا
 فيها العمران ولا نزلوا مصر ولا خالطوا بشرا كما قصه القرآن لغاظة العدالة بالشأم
 والقبط بمصر عليهم لعجزهم عن مقاومة كازعموه ويظهر من مساق الآية ومفهوهما
 أن الحكمة ذلك التيهمة مقصودة وهي فناء الجيل الذين خرجوا من قبضة الذل
 والقهر والقوة وتخلقوا به وأفسدوا من عصيتهم حتى ذنأ في ذلك التيه جيل آخر
 عزيز لا يعرف الأحكام والقهر ولا يهاب المذلة فنشأت لهم بذلك عصية أخرى اقتدروا
 بها على المطالبة والتغلب ويظهر لك من ذلك أن الأربيعين سنة أقل مما يأتي فيها من جيل
 ونشأة جيل آخر سبحانه الحكيم العليم وفي هذا أوضح دليل على شأن العصية وأنها هي
 التي تكون بها المدانعة والمقاومة والحماية والمطالبة وأن من فقد ما عجز عن جميع ذلك
 كله ويلتق بهذا الفصل فيما يوجب المذلة للتبيل شأن المغارم والضرائب فان القبيل
 الغارمين ما أعطوا اليد من ذلك حتى رضوا بالمذلة فيه لأن في المغارم والضرائب
 ضمنا ومذلة لا تحتها لها النشوس الآية الا اذا استوتته عن القتل والتلف وان
 عصيتهم حينئذ ضعيفة عن المدافعة والحماية ومن كانت عصيته لا تدفع عنه الضيم
 فكيف له بمقاومة والمطالبة وقد حصل له الانقصاد للذل والمذلة عاتقة كما تقدمناه ومنه
 قوله صلى الله عليه وسلم لم في شأن الحرث لما رأى سكة المحراث في بعض دزر الانصار
 ما دلت هذه دار قوم الأدخلهم الذل فهو دليل صريح على أن المغرم موجب للمذلة
 هذا الى ما يوجب ذل المغارم من خلق المكر والخديعة بسبب ملكة القهر فاذا رأيت
 القبيل بالمغارم في ربيعة من الدل فلا تدافع لها بل لا آخر الدهر ومن هنا تبين لك غلط
 من يزعم أن زنانية بالمغرب كانوا شاموية يؤدون المغارم ان كان على عهدهم من
 الملوك وهو غلط فاحش كما رأيت اذ لو وقع ذلك لما استتب لهم ملك ولا تمت لهم دولة
 وانظر فيما قاله شهر براز ملك الباب عبد الرحمن بن ربيعة لما أطل عليه وسأل شهر براز
 أمانه على أن يكون له فقال أنا اليوم منكم يدي في أيديكم وصعري معكم فرحبا بكم
 وبارك الله لنا ولكم وجزيتنا اليكم النصر اكم والقيام بما نحبون ولا تذونا بالجزية
 فتوهنونا عدوكم فاعتبر هذا فيما قلناه فانه كاف

٢٠ (فصل في ان من علامات الملك المتنافس في الخلال الحميدة وبالعكس)

لما كان الملك طيباً بالانسان لما فيه من طبيعة الاجتماع كما قاناه وكان الانسان
أقرب الى خلال الخير من خلال الشر بأصل فطرته وقوته الناضجة العاقلة لان الشر
انما جاءه من قبل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير
وخلاله أقرب والملك والسياسة انما كان له من حيث هو انسان لانها خاصة للانسان
للاحيوان فاذن خلال الخير فيه هي التي تناسب السياسة والملك اذ الخير هو المناسب
للسياسة وقد ذكرنا أن المجدله أصل ينبت عليه وتتحقق به حقيقة وهو العصبية
والعشيرة وقرع يتم وجوده ويكمله وهو اللال واذا كان الملك غاية للعصبية فهو غاية
لقروعها وتمماتها وهي اللال لان وجوده دون متماته كوجود شخص مقطوع
الاعضاء أو ظهوره عربانياً بين الناس واذا كان وجود العصبية نقط من غير اتحاد
اللال الحميدة نقصاً في أهل البيوت والاحساب فما ظنك بأهل الملك الذي هو غاية
لكل مجد ونهاية لكل حسب وأيضاً فالسياسة والملك هي كذالة للخلق وخلافة لله في
العبادة لتنفيذ أحكامه فيهم وأحكام الله في خلقه وعبادته انما هي بالخير ومراعاة
المصالح كما تشهد به الشرائع وأحكام البشر انما هي من الجهل والشيطان بخلاف
قدرة الله سبحانه وقدره فانه فاعل للخير والشر معا وقد رهما اذ لافاعل سواء فمن
حصلت له العصبية الكفيلة بالقدره وأرست منه خلال الخير المناسبة لتنفيذ أحكام
الله في خلقه فقد تم بالخلافة في العباد وكفالة الخلق ووجدت فيه الصلاحية
لذلك وهذا البرهان أرتق من الاول وأصح مبني فقتين أن خلال الخير شاهدة بوجود
الملك من وجدت له العصبية فاذا نظرنا في أهل العصبية ومن حصل لهم الغلب على كثير
من الزواحي والامم فوجدناهم يتنافسون في الخير وخلاله من الكرم والعفوعن
الزلات والاحتمال من غير القادر والقوى للضيوف وحمل الكل وكسب المعدم
والصبر على المكاره والوفاء بالعهد وبذل الاموال في مسون الاعراض وتعظيم الشريعة
واجلال العلماء الحاملين لها والوقوف عند ما يحدثونه اهم من فعل أو تركه وحسن
الظن بهم واعتقاد أهل الدين والتبرك بهم ورغبة الدعاء منهم والحياء من الاكابر
والمشايع وتوقيرهم واجلالهم والانقياد الى الحق مع الداعي اليه وانصاف
المتضعفين من أنفسهم والتبذل في أحوالهم والانقياد للحق واتواضع للمسكين
واعتراف شكوى المستغنين والتدين بالشرائع والعبادات والقيام عليها وعلى
أسبابها والتجافي عن القدر والمكر والخديعة ونقض العهد وأمثال ذلك علمنا أن هذه
خلق السياسة قد حصلت لديهم واستحقوا بها أن يكونوا سياسة لمن تحت أيديهم وعلى
العموم وأنه خير ما قاله الله تعالى اليهم مناسب لعصيتهم وغلبهم وليس ذلك سدى فيهم

ولا وجد عبثا منهم والملك أنسب المراتب والخبرات لعصبيتهم فعملنا بذلك أن الله تآذن لهم بالملك وساقه اليهم وبالعكس من ذلك إذا تآذن الله بانقراض الملك من أمة جلهم على ارتكاب المذمومات وانفعال الرذائل وسلوك طرقها فتفقد الفضائل السياسية منهم جملته ولا تزال في انتقاص الى أن يخرج الملك من أيديهم ويتبدل به سواهم ليكون نعم عليهم في سلب ما كان الله قد آتاهم من الملك وجعل في أيديهم من الخير وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا واستقر ذلك وتبعه في الامم السابقة تجدد كثيرا مما قلناه ورسمناه والله يخلق ما يشاء ويختار (واعلم) أن من خلال الكمال التي يتنافس فيها القبائل أو لولا العصبية وتكون شاهدة لهم بالملك اكرام العلماء والصالحين والاشراف وأهل الاحساب وأصناف التجار والغرباء وانزال الناس منازلهم وذلك أن اكرام القبائل وأهل العصبية والعشائر لمن يتاهضهم في الشرف ويمجذبهم جبل العشير والعصبية ويشاركهم في اتساع الجاه أمر طبيعي يحمل عليه في الاكثر الرغبة في الجاه أو المخافة من قوم المكرم أو التماس مثلها منه وأما أمثال هؤلاء ممن ليس لهم عصبية تتق ولا جاه يرتجى فيندفع الشك في شأن كرامتهم ويتعمد القصد فيهم أنه لا يجد وانفعال الكمال في الخلال والاقبال على السياسة بالكلية لان اكرام اقاتله وأمناله ضروري في السياسة الخاصة بين قبيله ونظرائه واکرام الطارين من أهل الفضائل والخصوصيات كمال في السياسة العامة فالصالحون للدين والعلماء للجاه اليهم في اقامة مراسم الشريعة والتجار للترغيب حتى تم المنفعة بما في أيديهم والغرباء من مكارم الاخلاق وانزال الناس منازلهم من الانصاف وهو من العدل فيعلم بوجود ذلك من أهل عصبية انما وهم للسياسة العامة وهي الملك وأن الله قد تآذن بوجودها فيهم لوجود علاماتها وهذا كان أول ما يذهب من القبيل اهل الملك إذا تآذن الله تعالى بسلب ملكهم وسلطانهم اكرام هذا الصنف من الخلق فاذا رأيتهم قد ذهب من أمة من الامم فاعلم أن الفضائل قد أخذت في الذهاب عنهم وارتقب زوال الملك منهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له والله تعالى أعلم

٢١ (فصل في انه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها اوسع)

وذلك لانهم أقدر على التغلب والاستبداد كما قلناه واسعة بماد الطوائف لقد رتهم على محاربه الامم سواهم ولانهم يتنزلون من الاهلين منزلة المفترس من الحيوانات العجم وهؤلاء مثل العرب وزناتة ومن في معناهم من الاكراد والتركان وأهل اللثام من

صنهاجة وأيضا فهو لاء المتوحشون ليس لهم وطن يرتافون منه ولا بلد ينجحون
اليه فنسبة الاقطار والمواطن اليهم على السواء فلهذا لا يقتصرون على ملكة قطرهم
وما جاورهم من البلاد ولا يفتنون عند حدود أفقهم بل يطفرون الى الاقاليم البعيدة
ويتغلبون على الامم النائية وانظر ما يحكى في ذلك من عمر رضى الله عنه لما بويع
وقام يحرض الناس على العراق فقال ان الجبار ليس لكم يد ارا لى الفضة ولا يقوى
عليه اهل الابدلك أين القراء المهاجرون عن موعد الله سيروا فى الارض التى وعدكم
الله فى الكتاب أن يورثكموها فقال ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون واعتبر
ذلك أيضا بحال العرب السالفة من قبل مثل التبابعة وحبر كيف كانوا يخطون من
اليمين الى المغرب مرة والى العراق والهند أخرى ولم يكن ذلك لغير العرب من الامم
وكذا حال الملتين من المغرب لما تزعموا الى الملك طغروا من الاقليم الاول ومجالاتهم منه
فى جوار السودان الى الاقليم الرابع والى الخامس فى ممالك الاندلس من غير واسطة
وهذا شأن هذه الامم الوحشية فلذلك تكون دولتهم أوسع نطاقا وأبعد من مراكزها
نهاية والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا شريك له

٢٢ فصل فى ان الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من امة فلا بد من
عوده الى شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية

والسبب فى ذلك أن الملك انما حصل لهم بعد سورة الغلب والاذعان لهم من سائر الامم
سواهم فيتعين منهم المباشرون للامر الحاملون لىرير الملك ولا يكون ذلك لغيرهم
لما هم عليه من الكثرة التى يضيق عنها نطاق المزاجية والغيرة التى تجدد أنوف كثير
من المتطاوين للرتبة فاذا تعين أولئك القائمون بالدولة انغمسوا فى النعيم وغرقوا فى
بجز الترف والخصب واستعبدوا اخوانهم من ذلك الجيل وأنفقوهم فى وجوه الدولة
ومذاهبها وبقى الذين بعدوا عن الامر وكجوا عن المشاركة فى ظل من عز الدولة التى
شاركوها بنسبهم وبعناية من الهرم لبعدهم عن الترف وأسبابه فاذا استولت على
الاولين الايام وأباد غمراء هم الهرم فطجنتهم الدولة وأكل الدهر عليهم وشرب بما
أرهب النعيم من حذهم واشتفت غريزة الترف من ماتهم وبلغوا غايتهم من طبيعة
القدن الانسانى والتغلب السياسى (شعر)

كدود القز ينسج ثم يفتى • بمر كرسجه فى الانعكاس

كانت حينئذ عصبية الآخر من موفورة وسورة غلبهم من الكاسر محفوظه وشارتهم
فى الغلب معلومة فتسوا آمالهم الى الملك الذى كانوا ممنوعين منه بالقوة الغالبة من

جنس عصبيتهم وترتفع المنازعة لما عرف من غلبهم فيستولون على الامر ويصير اليهم
وكذا يتفق فيهم مع من بنى أيضا منتبذا عنه من عشائر أمتهم فلا يزال الملك ملجأ في
الامة الا أن تنكسر سورة العصية منها أو يقضى سائر عشائرها سنة الله في الحياة
الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين واعتبر هذا بما وقع في العرب لما انقرض ملك
عاد قام به من بعدهم اخوانهم من عمود ومن بعدهم اخوانهم العمالقة ومن بعدهم
اخوانهم من جبر ومن بعدهم اخوانهم التبايعه من حمير أيضا ومن بعدهم الاذواء
كذلك ثم جاءت الدولة لمضر وكذا الفرس لما انقرض أمر الكينية ملك من بعدهم
الساسانية حتى تأذن الله بانقرضهم أجمع بالاسلام وكذا اليونانيون انقرض أمرهم
وانتقل الى اخوانهم من الروم وكذا البربر بالمغرب لما انقرض أمر مغراوة وكامة
المولك الاول منهم رجع الى صنهجة ثم المائين من بعدهم ثم المصامدة ثم من بقي من
شعوب زناتة وهكذا سنة الله في عبادته وخلقه وأصل هذا كله انما يكون بالعصية
وهي متفاوتة في الاجيال والملك يخلق الترف ويذهب كما سئذ كره بعد فان انقرضت
دولة فانما يتناول الامر منهم من له عصية مشاركة لعصبيتهم التي عرف لها التسليم
والانقياد وأونس منها الغلب لجميع العصبيات وذلك انما يرجع في النسب القريب
منهم لان تفاوت العصية بحسب ما قرب من ذلك النسب التي هي فيه أو بعد حتى اذا
وقع في العالم تبدل كبير من تحويل ملة أو ذهاب عمران أو ما شاء الله من قدرته فينشد
يخرج عن ذلك الجيل الى الجيل الذي يأذن الله بقيامه بذلك التبدل كما وقع لمضر حين
غلبوا على الامم والدول وأخذوا الامر من أيدي أهل العالم بعد أن كانوا مكبوحين
عنه أحقابا

٢٣ فصل في ان المغلوب مولع ابدا بالاقْتداء بالغالب في شعاره وزيه
ونخلته وسائر احواله وعوائده

والسبب في ذلك أن النفس أبدت اعتد الكمال فيمن غلبها وانقادت اليه اما نظره
بالكمال بما وقر عندها من تعظيمه أو لما تغالط به من أن انقيادها ليس لغلب طبيعي
انما هو لكمال الغالب فاذا غالطت بذلك واتصل لها حصل اعتقادا فانحلت جميع
مذاهب الغالب وتشبهت به وذلك هو الاقتداء أو لما تراه والله أعلم من أن غلب الغالب
له ليس بعصية ولا قوة بأس وانما هو بما انحلت من العوائد والمذاهب تغالط أيضا
بذلك عن الغلب وهذا راجع للاول ولذلك ترى المغلوب يتشبه به ابدا بالغالب في ملبسه
ومركبه وسلاحه في اتخاذها وأشكالها بل وفي سائر احواله وانظر ذلك في

الإيحاء مع آياتهم - كيف تجدهم متشبهين بهم دائماً وما ذلك إلا اعتقادهم الكمال فيهم
وانظر إلى كل قطر من الاقطار كيف يغلب على أهله زى الحامية وجند السلطان في
الاكثر لانهم الغالبون لهم حتى انه اذا كانت أمة تجاور أخرى ولها الغلب عليها
فيسرى اليهم من هذا التشبه والافتداء حظ كبير كما هو في الاندلس لهذا العهد مع أم
الملافة فانك تجدهم يتشبهون بهم في ملابسهم وشاراتهم والكثير من عوائدهم
وأحوالهم حتى في رسم التماثيل في الجدران والمصانع والبيوت حتى لقد يستشعر
من ذلك الناظر بعين الحكمة انه من علامات الاستيلاء والامر لله • وتأمل في هذا
سر قولهم العامة على دين الملك فانه من بابها اذا الملك غالب لمن تحت يده والرعية مقتدون
به لاعتقاد الكمال فيه اعتقاد الابناء بآبائهم والمتعلمين بمعلميهم والله العليم الحكيم وبه
سبحانه وتعالى التوفيق

٢٤ (فصل في ان الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها امرع اليها الفناء)

والسبب في ذلك والله أعلم ما يحصل في النفوس من التكاسل اذا ملك أمرها عليها
وصارت بالاستعجاب آله لسواها وعالة عليهم فيقصر الامل ويضعف التناسل والاعتماد
انما هو عن جدة الامل وما يحدث عنه من النشاط في القوى الحيوانية فاذا ذهب
الامل بالتكاسل وذهب ما يدعو اليه من الاحوال وكانت العصبية ذاهبة بالغلب
الحاصل عليهم تناقص عمرانهم وتلاشت مكاسبهم ومساعيتهم وعجزوا عن المدافعة عن
أنفسهم بما خضد الغلب من شوكتهم فأصبحوا مغلبين لكل متغلب طعمة لكل آكل
وسواء كانوا حصولوا على غايتهم من الملك أو لم يحصلوا وفيه والله أعلم سر آخر وهو أن
الانسان رئيس بطبعه بمقتضى الاستخلاف الذي خلق له والرئيس اذا غلب على رياسته
وكبح عن غاية عزه تكاسل حتى عن شبع بطنه وري كبده وهذا موجود في أخلاق
الاناسي ولقد يقال مثله في الحيوانات المفترسة وانها لا تسافر اذا كانت في ملكة
الآدميين فلا يزال هذا القبيل المملوك عليه أمره في تناقص واضمحلال الى أن
يأخذهم الفناء والبقاء لله وحده واعتبر ذلك في أمة الفرس كيف كانت قدملاات
العالم كثرة ولما نبت حاميتهم في أيام العرب بقي منهم كبروا أكثر من الكثير يقال
ان عدداً أحصى من وراء المدائن فكانوا مائة ألف وسبعة وثلاثين ألفاً منهم سبعة
وثلاثون ألفاً ربيبت ولما تحصلوا في ملكة العرب وقبضة القهر لم يكن بقاؤهم
الاقلة لا ودثروا كأن لم يكونوا ولا تحسبن أن ذلك لظلم نزل بهم أو عدوان شملهم
فلئكة الاسلام في العدل ما علمت وانما هي طبيعة في الانسان اذا غلب على أمره

وصار آلة تغير. واهذا انما تذعن للرق في الغالب أم السودان انقص الانسانية فيهم
وقربهم من عرض الحيوانات العجم كما قلناه أو من يرجو بان نظامه في ربة الرق حصول
رتبة أو افادة مال أو عز كما يقع لممالك الترك بالشرق والعلوج من الملاقة والافرنجة
بالاندلس فان العادة جارية باستخلاص الدولة اهلهم فلا يأتون من الرق لما يملونه من
الجاه والرتبة باصطفاء الدولة والله سبحانه وتعالى أعلم به التوفيق

٢٥ (فصل في ان العرب لا يتغلبون الا على البسائط)

وذلك أنهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث فتنبون ما قدر واعليه
من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويثرون الى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون الى المزارحة
والمحاربة الا اذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه
الى ما يسهل عنه ولا يعرضون له والقائل الممتنع عليهم بأوعار الجبال بمنجاة من عيشهم
وفسادهم لانهم لا يتسمنون بهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ولا يحاولون الخطر
وأما البسائط متى اقتدروا عليها فقد ان الحامية وضعف للدولة فهي تهب لهم
وطعمة لا كلهم يردون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم الى أن يصبح
أهلها مغلبين لهم ثم يتعاورونهم باختلاف الأيدي وانحراف السياسة الى أن ينقرض
عمرانهم والله قادر على خاقه وهو الواحد القهار لارب غيره

٢٦ (فصل في ان العرب اذا تغلبوا على اوطان اسرع اليها الخراب)

والسبب في ذلك أنهم أمة وحشية باستحكام موائل التوحش بأسبابه فيهم فصار لهم
خلقاً وجبله وكان عندهم ملذوذ المافية من الخروج عن ربة الحكم وعدم الانقياد
للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الاحوال العادية كلها
عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له فالجر مثلاً
انما حاجتهم اليه لنصبه أثافي للقدر فينتقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعتونه
لذلك والخشب أيضاً انما حاجتهم اليه ليعمر وابه خيامهم ويتخذوا الاوتاد منه لبيوتهم
فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل
العمران هذا في حالهم على العموم وأيضاً طبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس
وان رزقهم في ظلال رماحهم وليس عندهم في أخذ أموال الناس حتى ينتهون اليه
بل كلما استدت أعينهم الى مال أو متاع أو ماعون انتبهوه فاذا تم اقتدارهم على ذلك
بالتغلب والمك بطلت السياسة في حفظ أموال الناس وخرب العمران وأيضاً فلانهم

يتلفون على أهل الأعمال من الصنائع والحرف أعمالهم لا يرون لها قيمة ولا قسطا من
الأحر والتمن والأعمال كما سئذ كره هي أصل المكاسب وحقبة قتها وإذا فسدت
الأعمال وصارت مجانا ضعفت الآمال في المكاسب وانقبضت الأيدي عن العمل
وابذع السالكين وفسد العمران وأيضافانهم ليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس
عن المناسد ودفاع بعضهم عن بعض انما هم ما يأخذونه من أمثال الناس نهباً
أو مغرماً فاذا توصلوا إلى ذلك وحصلوا عليه أعرضوا عما بعده من تسديد أحوالهم
والنظر في مصالحهم وقهر بعضهم عن أغراض المناسد وربما رضوا العتوبات
في الأموال حرصاً على تحصيل الفائدة والجباية والاستكثار منها كما هو شأنهم وذلك
ليس بعن في دفع المناسد وزجر المترضى لها بل يكون ذلك زائداً فيها الاستسهال الغرم
في جانب حصول الغرض فتبقى الرعايا في ملكتهم كأنها فوضى دون حكم والقوضى
مهلكة للبشر مفسدة للعمران بما ذكرناه من أن وجود الملك خاصة طبيعية للإنسان
لا يستقيم وجودهم واجتماعهم إليها وتقدم ذلك أقل الفصل وأيضافهم متنافسون
في الرياسة وقل أن يسلم أحد منهم الأمر لغيره ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته
إلا في الأقل وعلى كره من أجل الحياة فيتعهد الأحكام منهم والأمرات وتختلف الأيدي
على الرعية في الجباية والأحكام فيفسد العمران وينتقض قال الأعرابي الوافد على
عبد الملك لما سأله عن الحجاج وأراد الثناء عليه عند بعض السياسة والعمران فقال
تركته يظلم وحده وانظر إلى ما ملكوه وتغلبوا عليه من الأوطان من لدن الخليفة
كيف تقوض عمرانه وأقفر ساكنه وبدلت الأرض فيه غير الأرض فاليمين قرارهم
خراب الأقبليان المصاروعراق العرب كذلك قد خرب عمرانه الذي كان للفرس
أجمع والشام لهذا العهد كذلك وافريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم
منذ أقل المائة الخامسة وتمرسوا بها ثلاثمائة وخمسين من السنين قد لحق بهم أوجاع
بسائطه خراباً كلها بعد ان كان ما بين السودان والبحر الرومي كماه عمراناته بذلك
آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمد اشروا الله يرث الأرض
ومن عليها وهو خير الوارثين

٢٧ فصل في ان العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة

او ولاية او اثر عظيم من الدين على الجملة

والسبب في ذلك أنهم خلقوا التوحش الذي فيهم أصعب الامم انقياداً بعضهم لبعض
للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة فقلما تجتمع أهواؤهم فاذا كان

الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من أنفسهم وذهب خلق الكبر والمناقسة
منهم فسهل انقيادهم واجتماعهم وذلك بما يشتملهم من الدين المذهب للغلظة والانفة
الوازع عن التماسد والتنافس فاذا كان فيهم النبي أو الولي الذي يعينهم على القيام
بأمر الله ويذهب عنهم مذمومات الاخلاق ويأخذهم بمحمودها ويؤلف كلمتهم
لاظهار الحق ثم اجتمعهم وحصل لهم التغلب والملك وهم مع ذلك أمرع الناس
قبول الحق والهدى لسلامة طباعهم من عوج الملكات وبراءتهم من ذم الاخلاق
الاما كان من خلق التوحش القريب المعاناة المنهي لقبول الخير ببقائه على الفطرة
الاولى وبعده عما ينطبع في النفوس من قبيح العوائد وسوء الملكات فان كل مولود
يولد على الفطرة كما ورد في الحديث وقد تقدم

٢٨ (فصل في ان العرب ابعد الامم عن سياسة الملك)

والسبب في ذلك أنهم أكثر بداهة من سائر الامم وأبعد مجالا في القفر وأغنى عن
حاجات التناول وحبو بها الاعتيادهم الشظف وخشونة العيش فاستغنوا عن غيرهم
فصعب انقياد بعضهم لبعض لا يلا فهم ذلك والتوحش ورئيسهم محتاج اليهم غالبا
للعصية التي بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراعاتهم لئلا يحتمل
عليه شأن عصيته فيكون فيها هلاكا وهلاكهم وسياسة الملك والسلطان تقتضي
أن يكون السائس وازعا بالقهر والالتمس تقم سياسته وأيضافان من طبيعتهم كما
قدمناه أخذنا في أيدي الناس خاصة والتجاني عما سوى ذلك من الاحكام بينهم ودفاع
بعضهم عن بعض فاذا ملكوا أمة من الامم جعلوا غاية ملكهم الاتقاع بأخذنا في
أيديهم وتركوا ما سوى ذلك من الاحكام بينهم وربما جعلوا العقوبات على المفسد في
الاموال حرصا على تكثير الجبايات وتحصيل القوائد فلا يكون ذلك وازعا وربما يكون
باعثا بحسب الاغراض الباعثة على المفسد واستهانة ما يعطى من ماله في جانب غرضه
فتنوا المفسد بذلك ويقع تخريب العمران فتبقى تلك الامة كأنهم افوضى مستطيلة
أيدي بعضها على بعض فلا يستقيم لها عمران وتخرب سريعاً شأن الفوضى كما قدمناه
فبعدت طباع العرب لذلك ككله عن سياسة الملك وانما يصيرون اليها بعد انقلاب
طباعهم وتبذرها بصيغة دينية تحوز ذلك منهم وتجعل الوازع لهم من أنفسهم
وتحملهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض كما ذكرناه واعتبر ذلك بدواتهم في الملة لما
شبه لهم الدين أمر السياسة بالشريعة وأحكامها المراعية لمصالح العمران ظاهرا
وباطنا وتتابع فيها الخلفاء عظم حينئذ ملكهم وقوى سلطانهم كان رسم اذا رأى

المسلمين يجتمعون للصلاة يقول كل عمر كبدى يعلم الكلاب الآداب ثم انهم بعد ذلك
انقطعت منهم عن الدولة أجيال نبذوا الدين قسوا السياسة ورجعوا الى قفرهم
وجهلوا شأن عصبيتهم مع أهل الدولة يبعدهم عن الانقياد واعطاء النصفة فتوحشوا
كما كانوا ولم يبق لهم من اسم الملك الا أنهم من جنس الخلفاء ومن جيلهم ولما ذهب
أمر الخلافة وانمحي ربهما انقطع الامر بجملة من أيديهم وغلب عليهم الهجم دونهم
وأقاموا بادية في قنارهم لا يعرفون الملك ولا سياسته بل قد يجهل الكثير منهم أنهم قد
كان أهم ملك في القديم وما كان في القديم لاحد من الامم في الخلية تما كان لاجيالهم
من الملك ودول عاد وثمود والعمالقة وجبر والتباينة شاهدة بذلك ثم دولة مضر في
الاسلام بنى أمية وبنى العباس لكن بعد عهدهم بالسياسة لما نسوا الدين فرجعوا الى
أصلهم من البداوة وقد يحصل لهم في بعض الأحيان غلب على اللول المستضعفة كما
في المغرب لهذا العهد فلا يكون ما له وغايتة الا تخريب ما يستولون عليه من
العمران كما قدمناه والله يوثق ما يهوى من يشاء

٦٩ (فصل في ان البوادي من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار)

قد تقدم لنا أن عمران البادية ناقص عن عمران الحواضر والامصار لان الامور
الضرورية في العمران ليس كلها موجودة لاهل البدو وانما توجد لديهم في مواطنهم
أمور الفلح رمواتها معدومة ومعظمها الصنائع فلا توجد لديهم بالكلية من نجار
وخباط وحداد واما ذلك مما يقيم لهم ضروريات معاشهم في الفلح وغيره وكذا
الدنانير والدراهم مفقودة لديهم وانما بأيديهم أعراضا من مغل الزراعة وأعيان
الحيوان أو فضلاته ألبانها وبارا وأشعارا واهابا مما يحتاج اليه أهل الامصار
فيعوضونهم عنه بالدنانير والدراهم الا أن حاجتهم الى الامصار في الضرورى وحاجة
أهل الامصار اليهم في الحاجتى والكالى فهم محتاجون الى الامصار بطبيعة
وجودهم فناداموا في البادية ولم يحصل لهم ملك ولا استيلاء على الامصار فهم
محتاجون الى أهلها ويتصرفون في مصالحهم وطاعتهم متى دعوهم الى ذلك
وطالبوهم به وان كان في المصر ملك كان خضوعهم وطاعتهم لغلب الملك وان لم يكن في
المصر ملك فلا بد فيه من رياسة ونوع استبداد من بهض أهل على الباقي والانتقص
عمرانه وذلك الرئيس يحملهم على طاعته والسعى في مصالحه اما طوعا يبذل المال لهم
ثم يبدى لهم ما يحتاجون اليه من الضروريات في مصره فيستقيم عمرانهم واما كرها
ان فت قدرته على ذلك ولو بالتغريب بينهم حتى يحصل له جانب منهم يغالب به الباقي

فيضطر الباقين الى طاعته بما يتوقعون لذلك من فساد عمرانهم وورعهم لا يسعهم مفارقة تلك النواحي الى جهات أخرى لان كل الجهات معمور بالسد والذين غلبوا عليها ومنعوا من غيرهم فلا يجد هؤلاء ملجأ الاطاعة المصرفة بهم بالضرورة مغلوبون لاهل الامصار والله فاهر فوق عباده وهو الواحد الاحد القهار

الفصل الثالث من الكتاب الاول في الدولة العامة والملك والمراتب السلطانية وما يعرض في ذلك الاحوال ، وفيه قواعد ومتمات .

١ (فصل في ان الملك والدولة العامة انما يحصل بالقبيل والعصية)

وذلك انما قررنا في الفصل الاول ان المغالبة والمماذمة انما تكون بالعصية لما فيها من النغرة والتذاهر واستمانه كل واحد منهم دون صاحبه ثم ان الملك منصب شريف ملذوذ يشتمل على جميع الخيرات الدنيوية والشهوات البدنية والملاذات النفسانية فيقع فيه التنافس غالباً وقل أن يسلمه أحد لصاحبه الا اذا غلب عليه فتقع المنازعة وتفضي الى الحرب والقتال والمغالبة وشئ منها لا يقع الا بالعصية كما ذكرناه انما وهذا الامر بعيد عن افهام الجمهور بالجمله ومتناسون له لانهم نسوا عهد تمهيد الدولة منذ اولها وطال امد مر باهم في الحضارة وتهاقمهم فيها جيلا بعد جيل فلا يعرفون ما فعل الله اول الدولة انما يدركون اصحاب الدولة وقد استحكمت صبغتهم ووقع التسليم لهم والاستغناء عن العصية في تمهيد امرهم ولا يعرفون كيف كان الامر من اوله ومالقي اولهم من المتعاب دونه وخصوصاً اهل الاندلس في نسيان هذه العصية واثرها الطول الامد واستغنائهم في الغالب عن قوة العصية بما تلاشى وطنهم وخلانهم العصاب والله قادر على ما يشاء وهو بكل شئ عليم وهو حسبنا ونعم الوكيل

٢ (فصل في انه اذا استقرت الدولة وتمهدت فقد تستغني عن العصية)

والسبب في ذلك ان الدول العامة في اولها يصعب على النفوس الانقياد لها الا بقوة قوية من الغلب للغرابه وان الناس لم يألفوا ملكها ولا اعتادوه فاذا استقرت الرياسة في اهل النصاب المخصوص بالملك في الدولة وتوارثوه واحدا بعد آخر في أعقاب كثيرين ودول متعاقبة نسبت النفوس شأن الاولية واستحكمت لاهل ذلك النصاب صبغة الرياسة ورمخ في العقائد الانقياد لهم والتسليم وقاتل الناس معهم على امرهم قتالهم على العناد الايمانية فلم يحتاجوا حينئذ في امرهم الى كبير عصابة بل كان طاعتها

كتاب الله لا يتدل ولا يعلم خلافه ولا أمر ما يوضع الكلام في الامامة آخر الكلام على
 العقائد الايمانية كائمن بجملة حقوقها ويصكون استظهارهم حينئذ على سلطانهم
 ودولتهم المخصوصة اما بالموالي والمصطنعين الذين نشوا في ظل العصبية وغيرها واما
 بالعصائب الخارجين عن نسبها الداخلين في ولايتها ومثل هذا وقع لبني العباس فان
 عصبة العرب كانت فسدت لعهد دولة المعتصم وابنه الواثق واستظهارهم بعد ذلك
 انما كان بالموالي من العجم والترک والديلم والسجوقية وغيرهم ثم تغلب العجم الاولياء
 على النواحي وتقلص ظل الدولة فلم تكن تعد وأعمال بغداد حتى زحف اليها الديلم
 وملكوها وصار الخلائق في حكمهم ثم انقراض أمرهم وملك السجوقية من بعدهم
 فصاروا في حكمهم ثم انقراض أمرهم وزحف آخر التتار فقتلوا الخليفة ومحو رسم
 الدولة وكذا صنهاجة بالمغرب فسدت عصبيتهم منذ المائة الخامسة أو ما قبلها وانقرضت
 لهم الدولة متقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور افریقىة وربما انتزى
 تلك الثغور من نازعهم الملك واعتمهم فيها والسلطان والملك مع ذلك مسلم لهم حتى
 تأذن الله بانقراض الدولة وجاء الموحدون بقوة قوية من العصبية في المصامدة فمحووا
 آثارهم وكذا دولة بني امية بالاندلس لما فسدت عصبيتها من العرب استولى ملوك
 الطوائف على أمرها واقتسموا اخطتها وتنافسوا بينهم وتوزعوا بممالك الدولة وانتزى
 كل واحد منهم على ما كان في ولايته وشمخ بانفقه وبلغهم شأن العجم مع الدولة
 العباسية فتلقبوا بألقاب الملك ولبسوا اشارته وأمنوا ممن ينقض ذلك عليهم أو يغيره
 لان الاندلس ليس بدار عصائب ولا قبائل كما سئذ كره واستقر لهم ذلك كما قال ابن شرف
 مما رزها - دنى في أرض اندلس * أسماء معتصم فيها ومعتصم
 ألقاب مملكة في غير موضعها * كالهز يحكى اتفا خصورة الاسد

فاستظهروا على أمرهم بالموالي والمصطنعين والطرائع على الاندلس من أهل العدو
 من قبائل البربر وزنانية وغيرهم اقتداء بالدولة في آخر أمرها في الاستظهار بهم حين
 ضعفت عصبة العرب واستبد ابن أبي عامر على الدولة فكان لهم دول عظيمة استبد كل
 واحد منها بجانب من الاندلس وحظ كبير من الملك على نسبة الدولة التي اقتسموها ولم
 ير الوافي سلطانهم ذلك حتى جاز اليهم البحر المرابطون أهل العصبية القوية من ملتونة
 فاستبدوا بهم وأزالوهم عن مراكزهم ومحو آثارهم ولم يتدرروا على مدافعهم لئلا يندون
 العصبية لديهم فهذه العصبية بكون تمهيد الدولة وحمايتها من أولها وقد ظن
 الطرطوشي أن حامية الدول باطلاقهم الجند أهل العطاء المفروض مع الاهله ذكر
 ذلك في كتابه الذي سماه سراج الملوك وكلامه لا يتناول تأسيس الدول العامة في أولها

وانما هو مخصوص بالدول الاخيرة بعد التمهيد واستقرار الملك في النصاب واسـتحكام الصبغة لاهله فالرجل انما ادرك الدولة عندهم ما وخلق بدتهم وارجوعها الى الاستظهار بالموالى والصنائع ثم الى المستخدمين من ورائهم بالاجر على المدافعة فانه انما ادرك دول الطوائف وذلك عند اختلال دولة بني امية وانقراض عصبيتها من العرب واستبداد كل أمير بقطره وكان في ابالة المستعيز بن هود وابنه المظفر أهل سرقسطة ولم يكن ببقى لهم من أمر العصبية شئ الا متيلا انترف على العرب منذ اثنتائة من السنين وهلاكهم ولم ير الاساطانا سنبدا بالملك عن عشائره قد استحكمت له صبغة الاستبداد منذ عهد الدولة وبقية العصبية فهو لذلك لا ينزع فيه ويستعين على أمره بالاجراء من المرتزقة فأطلق الطرطوشى القول في ذلك ولم يتفطن لكيفية الامر منذ أقول الدولة وأنه لا يتم الا لاهل العصبية فقط أنت له وافهم سر الله فيه والله يوتى ملكه من يشاء

٣ (فصل في انه قد يحدث لبعض ادل النصاب الملكي دولة تستغني عن العصبية)

وذلك أنه اذا كان لعصبية غلب كثير على الامم والاجيال وفي نفوس القائلين بأمره من أهل القاصية اذعان لهم وانقياد فاذا نزع اليهم هذا الخارج واتبذ عن مقر ملكه ومنبت عزه اشتلوا عليه وقاموا بأمره وظاهره على شأنه وعنوا بتمهيد دولته يرجون استقراره في نصابه وتناوله الامر من يداء اصمه وجزاه لهم على مظاهرتهم باصطفائهم لقب الملك وخططه من وزارة أو قيادة أو ولاية نغرو ولا يطمعون في مشاركته في شئ من سلطانه تسايما لعصبيته وانقياد المماسحكم له ولقومه من صبغة الغاب في العالم وعقيدة ايمان استقرت في الأذعان لهم فلوراموها معه أو دونه لزلت الارض زلالها وهذا كما وقع للادارسة بالمغرب الاقصى والعبيدين بافريقية ومصر لما اتبذ الطالبيون من المشرق الى القاصية وابتعدوا عن مقر الخلافة وسموا الى طلبها من أيدي بني العباس بعد أن استحكمت الصبغة ابني عبد مناف لبني أمية أو لا ثم لبني هاشم من بعدهم فخرجوا بالقاصية من المغرب ودعوا لانفسهم وقام بأمرهم البرابرة مرة بعد أخرى فأوربة ومغيلة للادارسة وكامة وصنهاجة وهوارة للعبيد يرفشيدوا دولتهم ومهدوا بعصائيرهم أمرهم زاقطعوا من ممالك العباسيين المغرب كله ثم افريقية ولم يرزل ظل الدولة يتقلص وظل العبيدين يمتد الى أن ملكوا مصر والشام والجزيرة فقاموا في الممالك الاسلامية شق الابامة وهؤلاء البرابرة القائلون بالدولة مع ذلك كانوا مسلمون للعبيدين أمرهم مذعنون بالملكهم وانما كانوا يتنافسون

في الرتبة عندهم خاصة تسليما لما حصل من صبغة الملك لبني هاشم ولما استحكم من
الغلب لقريش ومضر على سائر الامم فلم يزل الملك في اعتناهم - م الى أن انقرضت دولة
العرب بامرها والله يحكم لامعقب حكمه

٤ فصل في ان الدول العامة الاستيلاء العظيمة الملك اصلها الدين امامن نبوة او دعوة حق
وذلك لان الملك انما يحصل بالتغلب والتغلب انما يكون بالعصية واتفاق الاهواء
على المطالبة وجمع القلوب وتآلفها انما يكون بمعونة من الله في اقامة دينه قال تعالى
لو أنفقت ما في الارض جميعا ما ألفت بين قلوبهم وسرء أن القلوب اذا تداعت الى
أهواء الباطل والميل الى الدنيا حصل التنافس ونشأ الخلاف واذا انصرفت الى الحق
ورفضت الدنيا الباطل وأقبلت على الله انحدرت وجهتها فذهب التنافس وقل
الخلاف وحسن التعاون والتعاقد واتسع نطاق الكلمة لذلك فعظمت الدولة كما بين
لك بعد ان شاء الله سبحانه وتعالى وبه التوفيق لارب سواه

٥ فصل في ان الدعوة الدينية تزيد الدولة في اصلها
قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عدو

السبب في ذلك كما قدمناه ان الصبغة الدينية تذهب بالتنافس والاعاصم الذي في أهل
العصبية وتفرّد الوجهة الى الحق فاذا حصل لهم الاعتصار في أمرهم لم يقف لهم شيء
لان الوجهة واحدة المطلوب متساو عندهم وهم مستمتنون عليه وأهل الدولة التي هم
طالبوها وان كانوا أضعافهم فأغراضهم متباينة بالباطل وتخاذلهم لتتمة الموت حصل
فلا يتعاونونهم وان كانوا أكثر منهم لم يغلبون عليهم ويعاجلهم الفناء بما فيهم
من الترف والذل كما قدمناه وهذا كما وقع للعرب صدر الاسلام في الفتوحات فكانت
جيوش المسلمين بالقادسية واليرموك بضعا وثلاثين ألفا في كل معسكر وجوع فارس
مائة وعشرين ألفا بالقادسية وجوع هرقل على ما قاله الواقدي أربع مائة ألف فلم
يقف للعرب أحد من الجانبين وعزمواهم وغلبواهم على ما بأيديهم واعتبر ذلك أيضا في
دولة التتونة ودولة الموحدين فقد كان بالمغرب من التباين كثير من جهة ومهم في العدد
والعصية أو يشف عليهم - م الا أن الاجتماع الديني ضاعف قوة عصبيتهم بالاعتصار
والاستمارة كما قلناه فلم يقف لهم شيء واعتبر ذلك اذا حلت صبغة الدين وفسدت
كيف يتنقض الامر ويصير الغاب على نسبة العصبية وحدها دون زيادة الدين فتغلب
الدولة من كان تحت يدها من العصاب المكافئة لها أو الزائدة القوة عليها الذين غلبتهم
بمضاعفة الدين لذوتهم ولو كانوا أكثر عصبية منها زادت بدارة واعتبر هذا في الموحدين

مع زناة المصحات زناة أبدى من المصامدة وأشد توخشا وكان للمصامدة الدعوة الدينية باتباع المهدي فلبسوا صبغتها وتضاعفت قوة عضيتهم بها فغلبوا على زناة أولوا واستبعوهم وان كانوا من حيث العصبية والبداوة أشد منهم فلما خلوا عن تلك الصبغة الدينية انتقضت عليهم زناة من كل جانب وغلبوهم على الأمر وانتزعوه منهم والله غالب على أمره

٦ (فصل في ان الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم)

وهذا لما قدمنا من أن كل أمر تحمل عليه الكفاة فلا بد له من العصبية وفي الحديث الصحيح كما مر ما بعث الله نبياً الا في منعة من قومه واذا كان هذا في الانبياء وهم أولى الناس بمخرق العوائد فما ظنك بغيرهم أن لا تخرق له العادة في الغلب بغير عصبية وقد وقع هذا لابن قسي شيخ الصوفية وصاحب كتاب خلع النعلين في التصوف نار بالاندلس داعياً الى الحق وسمى أصحابه بالمرابطين قبيل دعوة المهدي فاستتب له الأمر قليلاً لثقل لتونه بما لا همهم من أمر الموحدين ولم تكن هناك عصائب ولا قبائل يدفعونه عن شأنه فلم يابث حين استولى الموحدون على المغرب أن أذعن لهم ودخل في دعوتهم وتابعهم من عتله بمحصن اركش وأه كنهم من ثغره وكان أول داعية لهم بالاندلس وكانت ثورته تسمى ثورة المرابطين ومن هذا الباب أحوال النوار القائمين بتغيير المنكر من العامة والفتهاء فان كثيراً من المنتحلين للعبادة وسلوك طرق الدين يذهبون الى القيام على أهل الجور من الأمر داعين الى تغيير المنكر والنهي عنه والامر بالمعروف ورجاء في الثواب عليه من الله فيكثر اتباعهم والمتشبهون بهم من الغوغاء والدهماء ويعرضون أنفسهم في ذلك للمهالك وأكثرهم يهلكون في تلك السبيل مأزورين غير مأجورين لان الله سبحانه لم يكتب ذلك عليهم وانما أمر به حيث تكون القدرة عليه قال صلى الله عليه وسلم من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فان لم يستطع فليأمنه فان لم يستطع فليقلبه وأحوال الملوك والدول راسخة قوية لا يرحزها ويهدم بناءها الا المطالبة القوية التي من ورائها عصبية القبائل والعشائر كما قدمنا وهكذا كان حال الانبياء عليهم الصلاة والسلام في دعوتهم الى الله بالعشائر والعصائب وهم المؤيدون من الله بالكون كله لو شاء لكنه انما أجرى الأمور على مستقر العادة والله حكيم عليم فاذا ذهب أحد من الناس هذا المذهب وكان فيه محقق صريحه الانفراد عن العصبية فطاح في هوة الهلاك وأما ان كان من المتلبسين بذلك في طلب الرياسة فأجدر أن نعوقه العوائق وتنقطع به المهالك لانه أمر الله لا يتم الا برضاه واعانته والاخلاص

له والنصيحة للمسلمين ولا يشك في ذلك مسلم ولا يرتاب فيه - مذوب بصيرة وأول ابتداء هذه
 النزعة في الملة ببغداد حين وقعت فتنة طاهر وقتل الامين وأباطا المأمون بخراسان عن
 مقدم العراق ثم عهد لعلی بن موسى الرضا من آل الحسين فكشف بنو العباس عن
 وجه النكير عليه وتداءع واللقيام وخلع طاعة المأمون والاستبدال منه وبويع
 ابراهيم بن المهدي فوق الهرج ببغداد وانطلقت أيدي الزعرة بهامس الشطار
 والحريية على أهل العافية والصون وقطعوا السبيل وامتلأت أيديهم من نهاب
 الناس وباعوها علانية في الاسواق واستعدى أهلها للحكام فلم يعدوهم فتوافر أهل
 الدين والصلاح على منع الفساق وكف عاديتهم وقام ببغداد رجل يعرف بخالد
 الدريوس ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابه خلق وقاتل أهل
 الزعرة فغلبهم وأطلق يده فيهم بالضرب والتكيل ثم قام من بعده رجل آخر من سواد
 أهل بغداد يعرف بسهل بن سلامة الانصاري ويكنى أبا حاتم وعلق مصحفه في عنقه
 ودعا الناس الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة نبيه صلى
 الله عليه وسلم فاتبعه كافة الناس من بين شريف ووضيع من بني هاشم فن دونهم
 ونزل قصر طاهر واتخذ الديوان وطاف ببغداد و منع كل من أخاف المارة ومنع
 الخفارة لاوائد الشطار وقاتله خالد الدريوس أنا الأعباب على السلطان فقال له سهل
 لكني اقاتل كل من خالف الكتاب والسنة كائن من كان وذلك سنة احدى وماتت
 وجهز له ابراهيم بن المهدي العساكر فغلبه وأمره وانحل أمره سريرا وذهبون بما
 بنفسه ثم اقتدى بهذا العمل بعد كثير من الموسوسين يأخذون أنفسهم باقامة الحق ولا
 يعرفون ما يحتاجون اليه في اقامته من العصبية ولا يشعرون بعقبة أمرهم ومآل
 أحوالهم والذي يحتاج اليه في أمر هؤلاء اما المداواة ان كانوا من أهل الجنون واما
 التنكيل بالقتل أو الضرب ان أحدثوا هرجا واما اذا دعاة السخرية منهم وعدهم من جملة
 الصفاةين وقد يتسبب بعضهم الى الفاطمي المنتظرا ما بأنه هو أو بأنه داع له وليس مع
 ذلك على علم من أمر الفاطمي ولا ما هو وأكثرا المتخيلين مثل هذا تجدهم موسوسين
 أو مجانين أو ملبسين بطلبون بمثل هذه الدعوة ورياسة امتلات بهم اجوانحهم وعجزوا عن
 التوصل اليها بشئ من أسباب العادية فيحسبون ان هذا من الاسباب البالغة بهم
 الى ما يؤملونه من ذلك ولا يحسبون ما يناله لهم فيه من الهلكة فيسرع اليهم القتل بما
 يحدثونه من الفتنة وتسوء عاقبة مكرهم وقد كان لأول هذه المائة خرج بالسوس
 رجل من المتصوفة يدعى التوبذري عمدا الى مسجد مائة بساحل البحر هناك وزعم أنه
 الفاطمي المنتظر تليسا على العامة هنالك بما ملا قلوبهم من الحدنان بانتظاره

هنالك وان من ذلك المبحر يكون أصل دعوته فتهاقت عليه طوائف من عمارة البربر
تهاقت الفراش ثم خشي رؤسائهم اتساع نطاق الفتنة فدرس اليه كبار المصامدة
يومئذ عمر السكبيوي من قتله في فراشه وكذلك خرج في عمارة أيضا لأول هذه
المائة رجل يعرف بالعباس وادعى مثل هذه الدعوة واتبع نعيضه الاوذلون من سفهاء
تلك القبائل ونمازهم وزحف الى بادس من أمصارهم ودخلها عنوة ثم قتل لاربين يوما
من ظهور دعوته ومضى في الهالكين الاولين وأمثال ذلك كثير وان غلط فيه من
الغفلة عن اعتبار العصبية في مثلها وأما ان كان التلبس فأحرى أن لا يتم له
أمر وأن يوبق بانه وذلك جزاء انظالمين والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لارب غيره
ولامعبود سواه

٧ (فصل في ان كل دولة لها حصة من الممالك والارطان لا تزيد عليها)

والسبب في ذلك أن عصابة الدولة وقومها القائلين بها الممهدين لها لا بد من توزيعهم
حصصا على الممالك والثغور التي تصير اليهم ويستولون عليها لما يتها من العدو وامضاء
أحكام الدولة فيها من جباية وردع وغير ذلك فاذا توزعت العصابات كلهم على الثغور
والممالك فلا بد من تعداد عددهم وقد بلغت الممالك حينئذ الى حد يكون ثغرا
للدولة وتحمالوطنها ونضا للمركز ملكها فان تكلفت الدولة بعد ذلك زيادة على
ما يدها بقي دون حامية وصكان موضعالاتها زالفرة من العدو والمجاور
ويعود وبال ذلك على الدولة بما يكون فيه من التجاسر وخرق سياج الهيبة
وما كانت العصابة موفورة ولم يتعد عددها في توزيع الحصص على الثغور والنواحي
بقي في الدلة قوة على تناول ما وراء الغاية حتى ينفسح نطاقها الى غايته والعله الطبيعية
في ذلك هي قوة العصبية من سائر التوى الطبيعية ويككل قوة بصدر عنها
فعمل من الافعال فشاها ذلك في فعلها والدولة في مركزها أشد مما يكون في الطرف
والنطاق واذا انتهت الى النطاق الذي هو الغاية عجزت وأقصرت عما وراءه شان
الاشعة والانوار اذا انبعثت من المراكز والدوائر المنفضحة على سطح الماء من
النقر عليه ثم اذا أدركها الهرم والضعف فانما تأخذ في التناقص من جهة الاطراف
ولا يزال المركز محفوظا الى أن يتأذن الله بانقرض الامر حمله فيئذ يكون انقراض
المركز واذا غلب على الدولة من مركزها فلا تنعها بقاء الاطراف والنطاق بل تضجعل
لوقتها فان المركز كالأقلب اذى تنبعث منه الروح فاذا غلب القلب وهلك انهمزم
جميع الاطراف وانظر هذا في الدولة النارية كان مركزها المدائن فلما غلب المسلمون

على المدائن انقرض أمر فارس أجمع ولم يتفع يزدجرد ما بقي بيده من اطراف ممالكه
وبالعكس من ذلك الدولة الرومية بالشام لما كان مركزها القسطنطينية وغلبهم
المسلمون بالشام فتحزوا الى مركزهم بالقسطنطينية ولم يضرهم انتزاع الشام من أيديهم
فلم يزل ملكهم متصلا بها الى أن تآذن الله بانقراضه وانظر أيضا شان العرب أول
الاسلام لما كانت عصائبهم موفورة كيف غلبوا على ما جاورهم من الشام والعراق
ومصر لاسرع وقت ثم تجازروا ذلك الى ما وراءه من الهند والحبشة وافريقية
والمغرب ثم الى الاندلس فلما انشروا حوصا على الممالك والثغور ونزلوها حاكمة ونقد
عدددهم في تلك التوزيعات أقصروا عن الفتوحات بعد وانتهى أمر الاسلام ولم
يتجاوز تلك الحدود ومنها تراجعت الدولة حتى تآذن الله بانقراضها وكذا كان حال
الدول من بعد ذلك كل دولة على نسبة القائمين بها في القوة والكره وعند نقاد عدددهم
بالتوزيع ينتفع لهم الفتح والاستيلاء سنة الله في خلقه

٨ فعل في ان عظم الدولة واتساع نطاقها وطول امدها على نسبة القائمين بها في القوة والكره

والسبب في ذلك أن الملك انما يكون بالعصية وأهل العصية هم الخاسمة الذين ينزلون
بممالك الدولة وقطارها وينقصون عليها فمما كان من الدولة العامة قبيلها وأهل
عصاتها أكثر كانت أقوى وأكثر ممالك وأوطانا وكان ملكها أوسع لذلك واعتبر ذلك
بالدولة الاسلامية لما ألفت الله كلمة العرب على الاسلام وكان عدد المسلمين في غزوة
تبوك آخر غزوات النبي صلى الله عليه وسلم مائة ألف وعشرة آلاف من مضر وخطان
مابين فارس وراجل الى من أسلم منهم بعد ذلك الى الوفاة فلما توجهوا والطلب ما في أيدي
الامم من الملك لم يكن دونه حتى ولاوزر فاستبجح حتى فارس والروم أهل الدواتين
العظيمتين في العالم لعهدهم والترنك بالمشرق والافرنجة والبربر بالمغرب والقوط بالاندلس
وخطوا من الحجاز الى السوس الاقصى ومن اليمن الى الترنك بأقصى الشمال واستولوا
على الاقاليم السبعة ثم انظر بعد ذلك دولة صنهاجة والموحدين مع العبيدين قبلهم لما
كان قبيل كامة القائمين بدولة العبيدين أكثر من صنهاجة ومن المصامدة كانت
دولتهم أعظم فلكوا افريقية والمغرب والشام ومصر والحجاز ثم انظر بعد ذلك دولة زناتة
لما كان عدددهم أقل من المصامدة قصر ملكهم عن ملك الموحدين لقصور عدددهم
عن عدد المصامدة منذ أول أمرهم ثم اعتبر بعد ذلك حال الدولتين لهذا العهد زناتة بنى
مرين وبنى عبد الواد لما كان عدد بنى مرين لا أول ملكهم أكثر من بنى عبد الواد كانت
دولتهم أقوى منها وأوسع نطاقا وكان لهم عليهم الغلب مرة بعد أخرى • يقال ان

عدد بني مرين لاقل ملكهم كان ثلاثة آلاف وان بنى عبد الواد كانوا ألفا الا ان الدولة
 بارقه وكثرة التابع كرت من أعدادهم وعلى هذه النسبة في أعداد المتغلبين لاقل الملك
 يكون اتساع الدولة ووقتها وأما طول أمدها أيضا فعلى تلك النسبة لان عمر الحادث من
 قوة مزاجه ومزاج الدول انما هو بالعصية فاذا كانت العصية قوية كان المزاج
 تابع لها وكان أمد العمر طويلا والعصية انما هي بكثرة العدد ووفوره كما قلناه والسبب
 النصح في ذلك ان النقص انما يدور في الدولة من الاطراف فاذا كانت بمالكها كثيرة
 كانت أطرافها بعيدة عن مركزها وكثيرة وكل نقص يقع فلا بد له من زمن فتكثر أزمان
 النقص لكثرة الممالك واختصاص كل واحد منها بنقص وزمان فيكون أمدها طويلا
 وانظر ذلك في دولة العرب الاسلامية كيف كان أمدها أطول الدول لابن العباس
 أهل المركز ولا بنو أمية المستبدون بالاندلس ولم ينقص أمر جميعهم الا بعد الاربعمائة
 من الهجرة ودولة العبيديين كان أمدها قريبا من مائتين وثمانين سنة ودولة صنهاجة
 دونهم من لدن تقليد معز الدولة أمر افر يقية اباكين بن زيري في سنة ثمان وخمسين
 وتثمانية الى حين استيلاء الموحدين على القلعة وبجاية سنة سبع وخمسين وخمسمائة
 ودولة الموحدين لهذا العهد تناهز مائتين وسبعين سنة وهما كذلك انساب الدول في
 أعمارها على نسبة القاعين به سنة الله التي قد خلت في عباده

٩ (فصل في ان الاوطان انكثيرة القبائل والعصائب قل ان تستحكم فيها)

والسبب في ذلك اختلاف الآراء والاهواء وان وراء كل رأي منها وهوى عصبية
 تمنع دونها فيكثر الالتقاض على الدولة والخروج عليها في كل وقت وان كانت ذات
 عصبية لان كل عصبية ممن تحت يدها تنظن في نفسها منعة وقوة وانظر ما وقع من ذلك
 بافر يقية والمغرب منذ أول الاسلام ولهذا العهد فان ساكن هذه الاوطان من
 البربر أهل قبائل وهصبيات فلم يغن فيهم الغلب الاقل الذي كان لابن ابي سرح عليهم
 وعلى الافرنجية ثيا وعاودوا بعد ذلك الثورة والرذة مرة بعد أخرى وعظم الانحياز من
 المسلمين فيهم ولما استقر الدين عندهم عادوا الى الثورة والخروج والاخذ بدين
 الخوارج مرات عديدة قال ابن أبي زيد ارتدت البرابرة بالمغرب اثنتي عشرة مرة ولم
 تستقر كلمة الاسلام فيهم الا لعهد ولاية موسى بن نصير فابعدوه وهذا معنى ما ينقل عن
 عمران افر يقية مفرقة لفلوب أهلها اشارة الى ما فيها من كثرة العصائب والقبائل
 الحاملة لهم على عدم الاذعان والانقياد ولم يكن العراق لذلك العهد بذلك الصفة
 ولا الشام انما كانت حاميتها من فارس والروم والكافة دهماء أهل مدن وأمصار

فلما غلبهم المسلمون على الامر وانتزعوه من أيديهم لم يبق فيها معانع ولا مشاق والبربر
 قبائلهم بالمغرب أكثر من أن تحصى وكاهم بادية وأهل عصاب وعشائر وكلما هلكت
 قبيلة عادت الأخرى مكانها وإلى دينها من الخلف والرذة فطال أمر العرب في تهديد
 الدولة بوطن أفريقيا والمغرب وكذلك كان الأمر بالشام لعهد بني إسرائيل كان
 فيه من قبائل فلسطين وكنعان وبني عيصو وبني مدين وبني لوط والروم ويونان
 والعمالقة واكر بكش والنبط من جانب الجزيرة والموصل ما لا يحصى كثرة وتتنوعا
 في العصية فصعب على بني إسرائيل تهديد دولتهم ورسوخ أمرهم واضطرب عليهم
 الملك مرة بعد أخرى وسرى ذلك الخلاف اليهم فاختلفوا على سلطانهم وخرجوا عليه
 ولم يكن لهم ملك موطن سائر أيامهم إلى أن غلبهم الفرس ثم يونان ثم الروم آخر أمرهم
 عند الجلاء والله غالب على أمره وبعكس هذا أيضا الأوطان الخالية من العصابات
 يسهل تهديد الدولة فيها ويكون سلطانها وازعاقها الهرج والانتقاض ولا تحتاج
 لدولة فيها إلى كثير من العصية كما هو الشأن في مصر والشام لهذا العهد اذ هي خلو
 من القبائل والعصابات كأن لم يكن الحام معدناتهم كما قلنا ذلك مصر في غاية الدعة
 والرسوخ لقله الخوارج وأهل العصاب انما هو سلطان ورعية ودولتها قائمة بملوك
 الترك وعصائبهم يغلبون على الامر واحدا بعد واحد وينقل الامر فيهم من منبت
 المنبت والخلافة مسماة للعباسي من أعتاب الخلفاء ينفذون وكذا شأن الاندلس
 لهذا العهد فان عصية ابن الأحمر سلطانها لم تكن لأول دولتهم بقوية ولا كانت كرات
 انما يكون أهل بيت من بيوت العرب أهل الدولة الاموية بقوا من ذلك القلة وذلك أن
 أهل الاندلس لما انقضت الدولة العربية منه ولم يكن لهم البربر من متونة والموحدين
 سمو املكهم وثقلت وطأتهم عليهم فأشربت القلوب بغضاهم وأمكن الموحدون
 والسادة في آخر الدولة كثير من الحصون للطاغية في سبيل الاستظهار به على شأنهم
 من تملك الحضرة مراكش فاجتمع من كان بقي بها من أهل العصية القديمة معادن من
 بيوت العرب تتجافى بهم المنبت عن الحاضرة والامصار بعض الشيء ورضوا في العصية
 مثل ابن هود وابن الأحمر وابن مردنيش وأمثالهم فقام ابن هود بالامر ودعا بدعوة
 الخلافة العباسية بالمشرق وحمل الناس على الخروج على الموحدين فنبذوا اليهم
 العهد وأخرجوهم واستقل ابن هود بالامر بالاندلس ثم سما ابن الأحمر الامر وخالف
 ابن هود في دعونه فدعا هؤلاء لابن أبي حفص صاحب افر بقة من الموحدين وقام
 بالامر وتناوله بعصاية قليلة من قرابته كانوا يسمون الرؤساء ولم يحتج لاكثر منهم لقله
 العصاب بالاندلس وانما سلطان ورعية ثم استظهر بعد ذلك على الطاغية عن مجيز

اليه البحر من اعيان زنانه فصار وامعه عصبية على المناخرة والرباط ثم بما صاحب
 المغرب من ملوك زنانه أمل في الاستيلاء على الاندلس فصار أولئك الاعيان عصابة
 ابن الاجر على الامتناع منه الى أن تأثر أمره ورسخ وألفته النفوس وعجز الناس
 عن مطالبته وورثه أعقابه لهذا العهد فلا تظن أنه بغير عصابة فليس كذلك وقد كان
 مبدؤه بعصابة الا أنها قبله وعلى قدر الحاجة فان قطر الاندلس اقله العصاب
 والقبائل فيه بغنى عن كثرة العصبية في التغلب عليهم والله غنى عن العالمين

١٠ (فصل في ان طبيعة الملك والانفراد بالمجد)

وذلك أن الملك كما قدمناه انما هو بالعصية والعصية متألفة من عصابات كثيرة تكون
 واحدة منها أقوى من الاخرى كلها فتغلبها وتستولى عليها حتى تصيرها جميعا في ضمها
 وبذلك يكون الاجتماع والغلب على الناس والدول وسرّه أن العصبية العامة للقبيل
 هي مثل المزاج للمتكون والمزاج انما يكون عن العناصر وقد تبين في موضعه
 ان العناصر اذا اجتمعت متكافئة فلا يقع منها مزاج أصلا بل لا بد أن تكون واحدة
 منها هي الغالبة على الكل حتى تجمعها وتوَلّفها وتصيرها عصبية واحدة شاملة لجميع
 العصاب وهي موجودة في ضمها وتلك العصبية الكبرى انما تكون لقوم أهل بيت
 ورياسة فيهم ولا بد أن يكون واحد منهم رئيسا لهم غالباً عليهم فيتعين رئيساً للعصبيات
 كلها لغلب منبته لجمعها واذا تعين له ذلك من الطبيعة الحيوانية خلق الكبر والافتخار
 فبأنف حينئذ من المساهمة والمشاركة في استباعتهم والتحكّم فيهم ويجب خلق
 التآله الذي في طباع البشر مع ما تقتضيه السياسة من انفراد الحاكم لفساد الكل
 باختلاف الحكام لو كان فيهما آلهة الا الله افسدنا فتجدع حينئذ انوف العصبيات
 وينبج شكائهم عن أن يسموا الى مشاركتهم في التحكّم وتفرع عصبيتهم عن ذلك
 وينفرد به ما استطاع حتى لا يترك لاحد منهم في الامر لاناقة ولا جلا فيمضرب ذلك الجهد
 بكليته ويدفعهم عن مساهمته وقد يتم ذلك للاول من ملوك الدولة وقد لا يتم الا لثاني
 والثالث على قدر عمانية العصبيات وقوتها الا أنه أمر لا بد منه في الدول سنة الله
 التي قد دخلت في عباده والله تعالى أعلم

١١ (فصل في ان من طبيعة الملك الترف)

وذلك أن الامة اذا تغلبت وملكت ما بأيدي أهل الملك قبلها كثر رياستها ونعمتها
 فتكثر عوائدهم وينجاوزون ضرورات العيش وخشونته الى نوافله ورقته وزينته
 ويذهبون الى اتباع من قبلهم في عوائدهم وأحوالهم وتصير تلك النوافل عوائد

ضرورية في تحصيلها وينزعون مع ذلك الى رقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والآنية ويتفخرون في ذلك ويفخرون فيه غيرهم من الامم في أكل الطيب ولبس الاتيق وركوب القاره ويناعى خلفهم في ذلك ملقهم الى آخر الدولة وعلى قدر ملكهم يكون حظهم من ذلك وترفعهم فيه الى أن يبلغوا من ذلك الغاية التي للدولة أن تبلغها بحسب قوتها وعوائدها من قبلها سنة الله في خلقه والله تعالى أعلم

١٢ - فصل في ان طبيعة الملك الدعة والسكون .

وذلك أن الامة لا يحصل لها الملك الا بالمطالبة والمطالبة غايتها الغلب والملك واذا حصلت الغاية انقضى السعي اليها (قال الشاعر)

عجبت لسعي الدهريني وبينها * فلما انقضى ما بيننا مكن الدهر
فاذا حصل الملك أقصروا عن المتاعب التي كانوا يتكلفونها في طلبه وآثروا الراحة والسكون والدعة ورجعوا الى تحصيل ثمرات الملك من المباني والمساكن والملابس فيبنون القصور ويجرون المياه ويفرسون الرياض ويستمتعون بأحوال الدنيا ويؤثرون الراحة على المتاعب ويتأنقون في أحوال الملابس والمطاعم والآنية والفرش ما استطاعوا وبالفنون ذلك ويورثونه من بعدهم من أجيالهم ولا يزال ذلك يتزايد فيهم الى أن يتأذن الله بأمره وهو خير الحاكمين والله تعالى أعلم

١٣ - فصل في انه اذا استعكمت طبيعة الملك من الانفراد بالمجد

وحصول الترف والدعة اقبلت الدولة على الهرم .

وبيانه من وجوه * الاول أنها تقتضي الانفراد بالمجد كما قلناه ومهما كان المجد مشتركاً بين العصاة وكان سعيهم له واحداً كانت همهم في التغلب على الغير والذب عن الخوزة اسوة في طموحها وقوة شكائهم ومرماهم الى العز جميع وهم يستطيعون الموت في بناء مجدهم ويؤثرون الهلكة على فسادهم واذا انفرد الواحد منهم بالمجد قرع عصبيتهم وكبح من أعنتهم واستأثر بالاموال دونهم فتكاملوا عن الغزو وفشل ربحهم ورغمو المذلة والاستعباد ثم ربي الجيل الثاني منهم على ذلك يحسبون ما ينالهم من العطاء أجر من السلطان لهم على الحماية والمعونة لا يجري في عقولهم سواء وقبل أن يستأجر أحد نفسه على الموت فيصير ذلك وهناً في الدولة وخضاً من الشوكة وتقبل به على مناحي الضعف والهرم لفساد العصية بذهاب البأس من أهلها * الوجه الثاني أن طبيعة الملك تقتضي الترف كما قدمناه فتكثر عوائدهم وتزيد نفقاتهم على إعطياتهم ولا يبقى دخلهم بخروجهم فالفقير منهم يملك والمترف يستغرق عطاه بترفه ثم

يزداد ذلك في أجيالهم المتأخرة إلى أن يقصر العطاء كله عن الترف وعوائده وتمسهم
الحاجة وتطالبهم ملوكهم بمحصر نفقاتهم في الغزو والحروب فلا يجسدون ولا يجهت عنها
فدوة ونهبهم العقوبات وبتزعون ما في أيدي الكثر منهم - م يستأثرون به عليهم - م
أربؤثرون به أبناءهم وصنائع دولتهم فيضعفونهم لذلك عن إقامة أحوالهم ويضعف
صاحب الدولة بضعفهم - م وأيضا إذا كثر الترف في الدولة وصار عطاؤهم متصرا عن
حاجاتهم ونفقاتهم احتاج صاحب الدولة الذي هو السلطان إلى الزيادة في إعطياتهم
حتى يستدخولهم ويزيح عنهم والجباية متداهم معلوم ولا تزيد ولا تنقص وإن زادت بما
يستحدث من المكوس فيصير مقدارها بعد الزيادة محدودا فإذا وزعت الجباية على
الإعطيات وقد حدثت فيها الزيادة لكل واحد بما حدث من ترفهم وكثرة نفقاتهم - م
تنقص عدد الحامية حينئذ عما كان قبل زيادة الإعطيات ثم يعظم الترف وتكثر
مقادير الإعطيات لذلك فينتقص عدد الحامية وثالثا ورابعيا إلى أن يعود العسكر إلى
أقل الأعداد فتضعف الحماية لذلك وتسقط قرة الدولة ويتجاسر عليها من يجارها
من الدول أو من هو تحت يديها من القبائل والعصائب ويأذن الله فيها. الفناء الذي
كبه على خليقته وأيضا فالترف مفسد للخلق بما يحصل في النفس من ألوان الشر
والفسفة وعوائدها كما يأتي في فصل الحضارة فتذهب منهم خلال الخبر التي كانت
علامة على الملك ودليلا عليه ويتصفون بما يناقضها من خلال الشر فيكون علامة
عن الأدبار والانقراض بما جعل الله من ذلك في خليقته وتأخذ الدولة مبادئ العطب
وتتضعع أحوالها وتنزل بها أمراض مزمنة من الهرم إلى أن يقضى عليها *
الوجه الثالث أن طبيعة الملك تقضى الدعة كما ذكرناه وإذا اتخذ الدعة والراحة
مألفا وخلق أصار لهم ذلك طبيعة وجبلة شأن العوائد كلها وإلا فهاقربى أجيالهم
الحاذئة في غضارة العيش ومهاد الترف والدعة وينقلب خلق التوحش وينسون
عوائد البداوة التي كان بها الملك من شدة البأس وتعود الافتراض وركوب البداوة
وهداية التفرقة لا يفرق بينهم وبين السوقة من الحضرة إلا في الثقافة والشارة فتضعف
حمايتهم ويذهب بأسهم وتخذشوكتهم ويعود وبال ذلك على الدولة بما تلبس به من
ثياب الهرم ثم لا يزالون يتلقون بعوائد الترف والحضارة والسكون والدعة ورقة
الحاشية في جميع أحوالهم وينغمسون فيها وهم في ذلك يبعدون عن البداوة والخشونة
وينسخون عنها شيئا فشيئا وينسون خلق البسالة التي كانت بهم الحماية والمدافعة حتى
يعودوا على الأعلى حامية أخرى إن كانت لهم واعتم برذلك في الدول التي أخبارها
في الصحف لديك تجد ما قلته لك من ذلك صحيحا من غيرية وربما يحدث في الدولة إذا

طرقها هذا الهرم بالترف والراحة أن يتخير صاحب الدولة أنصارا وشيعة من غير
جلدتهم عن تعود الخسونة فيتخذهم جندا يكون أصبر على الحرب وأقدر على معاناة
الشدائد من الجوع والشظف ويكون ذلك دواء للدولة من الهرم الذي عساه
أن يطرقها حتى يأذن الله فيها بأمره وهذا كما وقع في دولة الترك بالشرق فإن غالب
جندها الموالي من الترك فتتخير ملوكهم من أولئك المماليك المجلوبين اليهم فرسانا
وجندا فيكونون أجراء على الحرب وأصبر على الشظف من أبناء المماليك الذين كانوا
قبلهم وروا في ماء النعيم والسلطان وظله وكذلك في دولة الموحدين باقر بضية
فإن صاحبها كثيرا ما يتخذ أجنادا من زناته والعرب ويستكثر منهم ويترك أهل الدولة
المتعودين للترف فتستجد الدولة بذلك عمرا آخر مما من الهرم والله وارث الارض
ومن عليها

١٤ (فصل في ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص)

اعلم أن العمر الطبيعي للاشخاص على ما زعم الاطباء والمخيمون مائة وعشرون سنة
وهي سنو القمر الكبرى عند المخيمين ويختلف العمر في كل جيل بحسب القرانات
فيزيد عن هذا وينقص منه فتكون أعمار بعض أهل القرانات مائة مائة وبعضهم
خمسين أو ثمانين أو سبعين على ما تقتضيه أدلة القرانات عند الناظرين فيها وأعمار هذه
الأمم ما بين الستين إلى السبعين كما في الحديث ولا يزيد على العمر الطبيعي الذي هو مائة
وعشرون إلا في الصور النادرة وعلى الاوضاع الغريبة من الفلك كما وقع في شأن نوح
عليه السلام وقليل من قوم عاد وعود وأما أعمار الدول أيضا وإن كانت تختلف بحسب
القرانات الآن الدولة في الغالب لا تعدو أعمار ثلاثة أجيال والجيل هو عمر شخص
واحد من العمر الوسط فيكون أربعين الذي هو انتهاء النمو والنشوء إلى غاية قال
تعالى حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة وهذا قلنا أن عمر الشخص الواحد هو
عمر الجيل ويؤيده ما ذكرناه في حكمة التيه الذي وقع في بني اسرائيل وأن المتصود
بالأربعين فيه فناء الجيل الاحياء ونشأة جيل آخر لم يعهدوا الذل ولا عرفوه فدل على
اعتبار الأربعين في عمر الجيل الذي هو عمر الشخص الواحد وانما قلنا أن عمر الدولة
لا يعدو في الغالب ثلاثة أجيال لأن الجيل الاوّل لم ير الواعى خلق البداوة وخشونتها
ونوحشها من شظف العيش والبسالة والافتراس والاشترال في الجهد فلا تزال بذلك
سورة العصبية محفوظة فيهم فذهب من هف وجانبهم من هوب والناس لهم
مفلوبون والجيل الثاني تحول حالهم بالملك والترفة من البداوة إلى الحضارة ومن

الشغف الى الترف والخصب ومن الاشتراك في المجد الى انفراد الواحد به و كسل
 الباقيين عن السعي فيه ومن عز الاستطالة الى ذل الاستكانة فشكسورة العصبية
 بعض الشيء وتونس منهم المهانة والخضوع ويبقى لهم الكثير من ذلك بما أدركوا الجبل
 الاول وباشروا أحوالهم وشاهدوا من اعتزازهم وسعهم الى المجد ومراهم
 في المدافعة والحماية فلا يسعهم ترك ذلك بالكليّة وان ذهب منه ما ذهب ويكونون على
 رجاء من مراجعة الاحوال التي كانت للجبل الاول أو على ظن من وجودها فيهم
 وأما الجيل الثالث فينسبون عهد البداوة والخشونة كان لم تكن وينفذون حلاوة
 العز والعصبية بما هم فيه من ملذّة التهور ويبلغ فيهم الترف غايته بما تنكوه من
 النعيم وغضارة العيش فيصرون عيالاً على الدولة ومن جملة النساء والولدان المحتاجين
 للمداينة عنهم وتسقط العصبية بالجملة وينسون الحماية والمدافعة والمطالبة ويلبسون
 على الناس في الشارة والزي وركوب الخيل وحسن الثقافة يتوهون بها وهم
 في الاكثر أجزء من الدولة وان على ظهورها فاذا جاء المطالب لهم لم يقاوموا مدافعتهم
 فيحتاج صاحب الدولة حينئذ الى الاستظهار بسواهم من أهل النجدة ويستكثر
 بالموالي ويصطنع من يغني عن الدولة بعض الغناء حتى يتأذن الله بانقرضها فتذهب
 الدولة بما حلت فهذه كما تراها ثلاثة أجيال فيها يكون هرم الدولة وتخلقها ولهذا كان
 انقرض الحسب في الجيل الرابع كما مر في أن المجد والحسب انما هو في أربعة آباء
 وقد أتينا لقيه ببرهان طبيعي كاف ظاهر مبني على ما مهدنا قبل من المقدمات
 فتأمل فلن نعدو وجه الحق ان كنت من أهل الانصاف وهذه الاجيال الثلاثة
 عمرها مائة وعشرون سنة على ما مر ولا نعدو الدول في الغالب هذا العمر بتقريب قبله
 أو بعده الا ان عرض لها عارض آخر من فقدان المطالب فيكون الهرم حاصل
 متولياً والمطالب لم يحضرها ولو قد جاء المطالب لما وجد مدافعا فاذا جاء أجالهم
 لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون فهذا العمر للدولة بمثابة عمر الشخص من التزيد
 الى سن الوقوف ثم الى سن الرجوع ولهذا يجري على السنة الناس في المشهور ان عمر
 الدولة مائة سنة وهذا معناه فاعتبره واتخذ منه قانونا يصح لك عدد الآباء في عمود
 النسب الذي تزيد من قبل معرفة السنين الماضية اذا كنت قد استرقت في عددهم
 وكانت السنين الماضية منذ أولهم محصلة لديك فعد لكل مائة من السنين ثلاثة من
 الآباء فان نفذت على هذا القياس مع نفود عددهم فهو صحيح وان نفذت عنه بجبل
 فتد غلط عددهم بزيادة واحد في عمود النسب وان زادت بمثل فقد سقط واحد وكذلك
 تأخذ عدد السنين من عددهم اذا كان محصلا لديك فتأمل تجده في الغالب صحيحا

اعلم أن هذه الاطوار طبيعية للدول فان الغلب الذي يكون به الملك انما هو بالعصية
 وبما يتبعها من شدة البأس وتعود الافتراس ولا يكون ذلك غالبا لامع البداوة فتطور
 الدولة من اولها بداوة ثم اذا حصل الملك تبعه الرفه واتساع الاحوال والحضارة انما
 هي تفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ
 والملابس والمباني والفرش والابنية وسائر عوائد المنزل وأحواله فلكل واحد منها
 صنائع في استجاده والتأنق فيه تختص به ويتلو بعضها بعضها وتتكرر باختلاف
 ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ والتسليم بأحوال الترف وما تتلون به من
 العوائد فصار تطور الحضارة في الملك يتبع تطور البداوة ضرورة لضرورة تبعية الرفه
 للملك وأهل الدول ابدأ يقلدون في تطور الحضارة وأحوالها للدولة السابقة قبلهم
 فأحوالهم يشاهدون ومنهم في الغالب يأخذون ومثل هذا وقع للعرب لما كان
 الفتح وملكوا فارس والروم واستخدموا بناتهم وأبناءهم ولم يكونوا ذلك العهد
 في شئ من الحضارة فقد حكى أنه قدم لهم المرقق فكانوا يحسبونه رقا عا وعر واعلى
 الكافور في خراش كسرى فاستعملوه في عجينهم ملحيا وأمثال ذلك فلما استعبدوا أهل
 الدول قبلهم واستعملوهم في مهنتهم وحاجات منازلهم واختاروا منهم المهرة في أمثال
 ذلك والقومة عليه أفادوهم علاج ذلك والقيام على عمله والتفنن فيه مع ما حصل لهم
 من اتساع العيش والتفنن في أحواله فباغوا الغاية في ذلك وتطوروا بطور الحضارة
 والترف في الاحوال واستجداد المطاعم والمشارب والملابس والمباني والاسلحة
 والفرش والآنية وسائر الماعون والخزني وكذا أحوالهم في أيام المباشرة
 والولائم والى الاعراس فانوا من ذلك وراء الغاية وانظر ما نقله المسعودي
 والطبري وغيرهما في اعراس المأمون بيوران بنت الحسن بن سهل وما بذل أبوها
 لحاشية المأمون حين وافاه في خطبتها الى داره بقم الصلح وركب اليها في السفين
 وما أنفق في املاكها وما نحلها المأمون وأنفق في عرسها اتفق من ذلك على العجب
 فانه أن الحسن بن سهل نثر يوم الاملاك في الصنيع الذي حضره حاشية المأمون فنثر
 على الطبقة الاولى منهم بنادق المهدك ملثثة على الرقاع بالضياع والبقارم وسوغة لمن
 حصلت في يده يقع لكل واحد منهم ما أذاه اليه الاتفاق والبحت وفرق على الطبقة
 الثانية بدر الدنانير في كل بدرة عشرة آلاف وفرق على الطبقة الثالثة بدر الدراهم

كذلك بعد أن أنفق في مقامة المأمون بداره أضعاف ذلك ومنه أن المأمون أعطاها
في مهرها إليه زفافها ألف حصة من الباقوت وأوقد شموع العنبر في كل واحدة مائة
من وهو رطل وثلثان وبسط لها فرشاً كان الحصر منها مذووجاً بالذهب كلالاً بالدر
والياقوت وقال المأمون حين رآه قاتل الله أبانواس كأنه أبصر هذا حيث يقول
في سفة الحجر

كان صغرى وكبرى من فواقعهما * حسباً درت على أرض من الذهب
وأعدت دار الطبخ من الحطب لليلة الوليمة نقل مائة وأربعين بغلام مدة عام كامل ثلاث
مرات في كل يوم وبنى الحطب لليلتين وأوقدوا الجريد يصبون عليه الزيت وأرسل إلى
النواحية بأحضار السفن لاجلزة الخواص من الناس بدجلة من بغداد إلى قصور
الملك بدينة المأمون لحضور الوليمة فكانت الحزاقات المعتة لذلك ثلاثين ألفاً جازوا
الناس فيها أخريات نهارهم وكثير من هنا وأمثاله وكذلك عرس المأمون بن ذى
النون بطليلة نقله ابن بسام في كتاب الذخيرة وابن حبان بعد أن كانوا كلهم في الطور
الأول من البداوة عاجزين عن ذلك جله لفقدان أسبابه والقائمين على صنائعه في
غضاضتهم وسداجتهم يذكر أن الخجاج أولم في اختتان بعض ولده ناس تمحضر بعض
الدهاقين يسأله عن ولائم الفرس وقال أخبرني بأعظم صنيع لاهل فارس صنيعاً أحضر فيه صحاف
الذهب على أخونة النضة أربعاً على كل واحد وتحملة أربع وصائف ويجلس عليه
أربعة من الناس فاذا اطعموا اتبعوا أربعهم المائدة بصحافها ووصائفها فقال الخجاج
يا غلام انحر الجزر وأطعم الناس وعلم أنه لا يستقل بهذه الأبهة وكذلك كان
* ومن هذا الباب أعطية بنى أمية وجوائزهم فانما كان أكثرها الأبل أخذاً
بعذاب العرب وبدانوتهم ثم كانت الجوائز في دولة بنى العباس والعبيد بن من بعدهم
ما علمت من أجمال المال وتخوت الثياب وأعداد الخيل بمراكبها وهكذا كان شأن
كامة مع الأغلبة بأفر يقية وكذلك بنى طنج بمصر وشان لتونة مع ملوك الطوائف
بالاندلس والموحدين كذلك وشان زمانة مع الموحدين وهلم جرات تتل الحضارة من
الدول السالفة إلى الدول الخالفة فانتقلت حضارة الفرس للعرب بنى أمية وبنى
العباس وانتقلت حضارة بنى أمية بالاندلس إلى ملوك المغرب من الموحدين زمانة
لهذا العهد وانتقلت حضارة بنى العباس إلى الديلم ثم إلى الترك ثم إلى السلجوقية ثم إلى
الترك المماليك بمصر والترب بالعراقين وعلى قدر عظم الدولة يكثر شأنها في الحضارة
إذا مور الحضارة من توابع الترف والترف من توابع الثروة والنعمة والثروة والنعمة

من توابع الملك ومقدار ما يستولى عليه أهل الدولة فعلى نسبة الملك يكون ذلك كله
فاعتبره وتفهمه وتأمله تجده **صحيحاً في العمران والله واثق الارض ومن عليها وهو**
خير الوارثين

١٦ (فصل في ان الترف يزيد الدولة في اولها قوة الى قوتها)

والسبب في ذلك أن القبيل اذا حصل لهم الملك والترف كثر التناسل والولد و لعمومية
فكثرت العصابة واستكثروا أيضاً من الموالى والصنائع وريت أجيالهم في جو ذلك
النعيم والرفه فازدادوا بهم عدد الى عدد هم وقوة الى قوتهم -م بسبب كثرة العصاب
حينئذ بكثرة العدد ذاهب الجيل الاوّل والثاني وأخذت الدولة في الهرم لم تنقل
أولئك الصنائع والموالى بأنفسهم في تأسيس الدولة وتمهيد ملكها لانهم ليس لهم من
الامر شيء انما كانوا عيالاً على أهلها ومعونة لها فاذا ذهب الاصل لم يستقل
الفرع بالروح فيذهب ويتلاشى ولا تبقى الدولة على حالها من الذوة واعتبر هذا
بما وقع في الدولة العربية في الاسلام كان عدد العرب كما قلنا لعهد النبوة والخلافة مائة
ونحوها ألفاً وما يقاربهم من مضر وقحطان ولما بلغ الترف مبالغته في الدولة وتوفر
بتوفر النعمة واستكثرت الخلفاء من الموالى والصنائع بلغ ذلك العدد الى أضعافه يقال
ان المعتصم نازل عمورية لما افتتحتها في تسعمائة ألف ولا يعد مثل هذا العدد ان
يكون صحيحاً اذا اعتبرت حامية في الثغور الدائبة والقاصية شرقاً وغرباً الى الجند
الحاملين سرير الملك والموالى المصطنعين وقال المصطفى أحصى بنو العباس بن
عبد المطلب خاصة أيام المأمون للانفاق عليهم فكانوا ثلاثين ألفاً في ذكران واناث
فانظر مبالغ هذا العدد لاقل من مائتي سنة واعلم أن سببه الرفه والنعيم الذي حصل
للدولة وربى فيه أجيالهم والاف عدد العرب لا قول الفتح لم يبلغ هذا ولا قرياً منه والله
الخالق العليم

١٧ (فصل في اطوار الدولة واختلاف احوالها وخلق اهلها باختلاف الاطوار)

(اعلم) أن الدولة تنتقل في أطوار مختلفة وحالات متجددة ويكتسب القائمون بها في
كل طور خلقاً من أحوال ذلك الطور لا يكون مثله في الطور الاخر لان الخلق تابع
بالطبع لمزاج الحال الذي هو فيه وحالات الدولة وأطوارها لا تعدد وفي الغالب خمسة
أطوار الطور الاوّل طور انضرب البغية وغلب المدافع والممانع والاستيلاء على الملك
وانتزاعه من أيدي الدولة السالفة قبله ان يكون صاحب الدولة في هذا الطور راسوة
قومه في اكتساب الحد وجباية المال والمدافعة عن الحوزة والحماية لا يتفردونهم -م

بشيء لان ذلك هو مقتضى العصية التي وقع بها القلب وهي لم تزل بعد مجالها الطور
الثاني طور الاستبداد على قومه والانفراد دونهم بالملك وكمبهم عن التطاول
للمساهمة والمشاركة ويكون صاحب الدرلة في هذا الطور معنيا باصطناع الرجال
واتخاذ الموالى والصنائع والاستكثار من ذلك بل يدع أنوف أهل عصيته وءشيرة
المقاسمين له في نسبة الضاربين في الملك مثل سهمه فهو يدافعهم عن الامر ويصدتهم
عن مواريده ويرددهم على أعقابهم أن يخلصوا اليه حتى يقر الامر في نصابه ويفرد أهل
بنته بما يدنى من مجده فيعاني من مدافعتهم ومما البتم مثل ما عاناه الاولون في طلب
الامر أو أشد لان الاولين دافعوا لاجاب فكان ظهرا زهم على مدافعتهم أن يل
العصية بأجمعهم وهذا يدفع لا قارب لا يظا هره على مدافعتهم الا الاقل من الابعاد
فيركب صعبا من الامر الطور الثالث طور الفراغ والدعة لتحصيل ثمرات الملك
عما تنزع طباع البشر اليه من تحصيل المال وتخليد الآثا ر وبعد الصب فيستفرغ
وسعه في الجباية وضبط الدخل والخرج واحصاء النفقات والقصد فيها وتشييد المباني
الحافلة والمسانع العظيمة والامصار المتسعة والهياكل المرتفعة واجارة الوفود من
أشراف الامم ووجوه القبائل وبت المعروف في أهله هذا مع التوسعة على صانعه
وحاشيته في أحوالهم بالمال والجاه واعتراض جنوده وادرار أوزاقهم وانصافهم في
أعطياتهم لكل هذا حتى يظهر أثر ذلك عليهم في ملابسهم وشكوتهم وشاراتهم ثم يم
الزينة فيباهي بهم الدول المسالمة ويرهب الدول المحاربة وهذا الطور آخر أطوار
الاستبداد من أصحاب الدولة لانهم في هذه الاطوار كلها استقلون بأرائهم بانون اعزهم
موضحون الطرق لمن بعدهم الطور الرابع طور القنوع والمسالمة ويكون صاحب
الدولة في هذا فانه بما يبني أولوه سلما لا نظاره من الملوك واقتاله مقلدا للماضين من
سابقه فيتبع آثارهم حذر النعل بالنعل وبقية طرقهم بأحسن منافع الاقدار ويرى
أن في الخروج عن تقليدهم فساد أمره وأنهم أبصر بما بنوا من مجده الطور الخامس
طور الاسراف والتبذير ويكون صاحب الدولة في هذا الطور متناهما لجامع أوله في
سبل الشهوات والملاذ والكرم على بطائه وفي مجالسه واصطناع أخذان السوء
وخضراء الدمن وتقليدهم عظيمات الامور التي لا يستقلون بحملها ولا يعرفون
ما يأتون ويذرون منها مستفسد الكبار الاولياء من قومه وصنائع سابقه حتى يضطغفوا
عليه ويتخاذلوا عن نصرته مضيه امن جنده بما أنفق من أعطياتهم في شهواته ووجب
عنهم وجه مباشرته وتفقدته فيكون مخربا لما كان سلفه يؤسسون وهذا لما كانوا
ينون وفي هذا الطور تحصل في الدولة طبيعة الهرم ويسمى على المرض المزمر

الذي لا تكاد تخلص منه ولا يكون لها معه بره الى أن تنقرض كما نبينه في الاحوال التي
نسردها والله خير الوارثين

١٨ (فصل في ان آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في اصلها)

والسبب في ذلك أن الآثار انما تحدث عن القوة التي بها كانت آتوا وعلى قدرها
يكون الاثر فمن ذلك مباني الدولة وهياكلها العظيمة فانما تكون على نسبة قوة الدولة
في أصلها لانها لا تتم الا بكثرة الفعلة واجتماع الأيدي على العمل والتعاون فيه فاذا
كانت الدولة عظيمة فسيحة الجوانب كثيرة الممالك والرعايا كان الفعلة كثيرين جدا
وحشروا من آفاق الدولة وأقطارها فتم العمل على أعظم هياكله الأثرى الى مصانع
قوم عاد وحمود وما قصه القرآن عنهما وانظر ما شاهدته ايوان كسرى وما اقتدر
فيه القرم حتى انه عزم الرشيد على هدمه وتخريبه فتكلم عنه وشرع فيه ثم أدركه
الجزوقصة استشارته ليجي بن خالد في شأنه معروفة فانظر كيف تصدروا دولة على بناء
لاستطيع أخرى على هدمه مع يون ما بين الهدم والبناء في السهولة تعرف من ذلك
يون ما بين الدولتين وانظر الى بلاط الوليد بدمشق وجامع بني أمية بقرطبة والقنطرة
التي على واديهما وكذلك بناء اخنايا لجلب الماء الى قرطاجنة في القناة الراكبة
عليها وآثار شرقي مال بالمغرب والاهرام بمصر وكثير من هذه الآثار الماثلة لآدميان
تعلم منه اختلاف الدول في القوة والضعف واعلم أن تلك الاعمال للاقدمين انما كانت
بالهندام واجتماع الفعلة وكثرة الأيدي عليها فبذلك شيدت تلك الهياكل والمصانع
ولا تتوهم ماتوهمه العاقمة ان ذلك لعظم أجسام الاقدمين عن أجسامنا في أطرافها
وأقطارها فليس بين البشر في ذلك كبيرون كما تجد بين الهياكل والآثار ولقد ولع
القصاص بذلك وتغالوا فيه وسطروا عن عاد وحمود والعمالقة في ذلك أخبارا عريقة
في الكذب من أغربها ما يحكون عن عوج بن عناق رجل من العمالقة الذين قاتلهم
بنو اسرائيل في الشام زعموا أنه كان لطوله يتناول السمك من البحر ويشويه الى
الشمس ويزيدون الى جهلهم بأحوال البشر الجهل بأحوال الكواكب لما اعتقدوا
أن لشمس حرارة وأنها شديدة فيما قريب منها ولا يعلمون أن الحر هو الضوء وأن الضوء
فيما قرب من الارض أكثر لانعكاس الأشعة من سطح الارض بمقابلته الاضواء
فتضعف الحرارة هنا لاجل ذلك واذا تجاوزت مطارح الأشعة المنعكسة فلا حر
هنالك بل يكون فيه البرد حيث مجاري السحاب وان الشمس في نفسها الاحارة ولا باردة
وانما هو جسم بسيط منى لا مزاج له وكذلك عوج بن عناق هو فيما ذكره من
العمالقة أو من الكنعانيين الذين كانوا فرسية بنو اسرائيل ضد قههم الشام

وأطوال بني اسرائيل وجسمانهم لذلك العهد قريية من هياكلنا ثبتت لذلك أبواب
بيت المقدس فانها وان خربت وجددت لم تزل المحافظة على اشكالها ومقادير أبوابها
وكيف يكون التفاوت بين عوج وبين أهل عصره بهذا المقدار وانما مشار غلظهم في
هذا أنهم استعظموا آثار الامم ولم ينهوا واحال الدول في الاجتماع والتعاون وما يحصل
بذلك وبالهندام من الآثار العظيمة فصرفوه الى قوة الاجسام وشدتها بعظم هياكلها
وليس الامر كذلك وقد زعم المسعودي ونقله عن الفلاسفة من عمال مستندله
الا التحكم وهو أن الطبيعة التي هي جبله للاجسام لما برأ الله الخلق كانت في تمام
الكرة ونهاية القوة والكمال وكانت الاعمار أطول والاجسام أقوى لكمال تلك
الطبيعة فان طر والموت انما هو بانحلال اقوى الطبيعة فاذا كانت قوية كانت
الاعمار أزيد فكان العالم في أوايه نشأته تام الاعمار كامل الاجسام ثم لم يزل يتناقص
لنقصان المادة الى أن بلغ الى هذه الحال التي هو عليها ثم لا يزال يتناقص الى وقت
الانحلال وانقرض العالم وهذا رأى لا وجه له الا التحكم كما تراء وليس له الة طبيعية
ولاسبب برهاني ونحن نشاهد مساكن الاقواين وأبوابهم وطرقهم فيما أحدثوه
من البنيان والهياكل والديار والمساكن كديار غود المنحوتة في الصلدم من الصخر بيوتنا
صغارا وأبوابها ضيقة وقد أشار صلى الله عليه وسلم الى أنهم اذ يابزهم ونهى عن
استعمال مباهمهم وطرح ما يحن به وأحرق وقال لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا
أنفسهم الا أن تكونوا باكين أن يصيبكم ما أصابهم وكذلك أرض عاد ومصر والشام
وسائر بقاع الارض شرقا وغربا والحق ما قررناه ومن آثار الدول أيضا حاربا في الاعراس
والولائم كما ذكرناه في ولاية بوران وصنيع الجاج وابن ذى النون وقد رت ذلك كله ومن
آثارها أيضا عطايا الدول وأنها تكون على نسبتها ويظهر ذلك فيها ولو أشرفت على الهرم
فإن الهمم التي لاهل الدولة تكون على نسبة قوتهم وعنايتهم للناس والهمم لا تزال
مصاحبة لهمم الى انقرضت الدولة واعتبر ذلك بجوار ابن ذى برن لو قد قرش كيف
أعطاهم من أرطال الذهب والفضة والاعبدر الوصائف عشر اعشرا ومن كرش
العبر واحدة وأضعف ذلك بعشرة أمثاله لعبد المطلب وانما ملكه يومئذ قرارة اليمن
خاصة تحت استبداد فارس وانما حمله على ذلك همة نفسه بما كان لقومه التبابعة من
الملك في الارض والغلب على الامم في العراقين والهند والمغرب وكان الصنهاجيون
بافريقية أيضا اذا أجازوا الوفد من أمراء زناتة الوافدين عليهم فانما يعطونهم المال
أحبالا والمكاه تتخوننا مملوأة والحملات جنائب عديدة وفي تاريخ ابن الرقيق من ذلك
أخبار كثيرة وكذلك كان عطاء البرامكة وجوائزهم ونفقاتهم وكانوا اذا كسبوا معدما

فانما هو الولاية والنعمة آخر الدهر لا العطاء الذي يستنفده يوم أو بهض يوم وأخبارهم
فذلك صك كثيرة مطبوعة وهي كلها على نسبة الدول ببارية هذا جوهر المصطفى
الكتاب قائد جيش العبيد بين لما ارتحل الى فتح مصر استعد من القيروان بالفحل
من المال ولا انتهى اليوم دولة الى مثل هذا وكذلك وجد بخط أحمد بن محمد بن عبد
الحديد عمل بما يحمل الى بيت المال بغداد أيام المأمون من جميع النواحي نقلته من
جراب الدولة • (غلات السواد) • سبع وعشرون ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة
ألف درهم ومن الحلال النجراينية مائتا حلة ومن طير الختم مائتان وأربعون رطلا
• (كنكر) • أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثمانمائة ألف درهم • (كوردجلة) •
عشرون ألف ألف درهم وثمانية دراهم • (حلوان) • أربعة آلاف ألف درهم
مرتين وثمانمائة ألف درهم • (الاهواز) • خمسة وعشرون ألف درهم مرة ومن
السكك ثلاثون ألف رطل • (فارس) • سبعة وعشرون ألف ألف درهم ومن
ماء الورد ثلاثون ألف فارورة ومن الزيت الاسود عشرون ألف رطل • (كرمان) •
أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومائتا ألف درهم ومن المتاع اليماني خمسمائة ثوب
ومن القز عشرون ألف رطل • (مكران) • أربعة مائة ألف درهم مرة • (السند
وما يليه) • أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وخمسمائة ألف درهم ومن العود الهندي
مائة وخمسون رطلا • (جستان) • أربعة آلاف ألف درهم مرتين ومن الثياب
المعينة ثلاثمائة ثوب ومن الفايده عشرون رطلا • (خراسان) • ثمانية وعشرون
ألف ألف درهم مرتين ومن نقر الفضة ألفانقره ومن البراذين أربعة آلاف ومن
الرقيق ألف رأس ومن المتاع عشرون ألف ثوب ومن الالهليج ثلاثون ألف رطل
• (جرجان) • اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن الابرسم ألف شقة • (قوهس) •
ألف ألف مرتين وخمسمائة ألف من نقر الفضة • (طبرستان والروبان ونهاوند) •
سنة آلاف مرتين وثلاثمائة ألف ومن الفرش الطبري ثمانمائة قطعة ومن
الاكسية مائتان ومن الثياب خمسمائة ثوب ومن المناديل ثمانمائة ومن الحمامات
ثلاثمائة • (الري) • اثنا عشر ألف ألف درهم مرتين ومن العسل عشرون
ألف رطل • (همدان) • أحد عشر ألف ألف درهم مرتين وثلاثمائة ألف ومن
رب الرمان ألف رطل ومن العسل اثنا عشر ألف رطل (ما بين البصرة والكوفة)
عشرة آلاف ألف درهم مرتين وسبع مائة ألف درهم • (ماسبدان والدينار) • أربعة
آلاف ألف درهم مرتين • (شهرزور) • ستة آلاف ألف درهم مرتين وسبع مائة
ألف درهم • (الموصل وما إليها) • أربعة وعشرون ألف ألف درهم مرتين ومن

العسل الايض عشرون ألف الفوطيل • (اذريجان) • أربعة آلاف ألف
 درهم مرتين • (الجزيرة وما يليها من أعمال القرات) • أربعة وثلاثون ألف ألف
 درهم مرتين ومن الرقيق ألف رأس ومن العسل اثنا عشر ألف ذق ومن البراة عشرة
 ومن الاكبية عشرون • (ارمينية) • ثلاثة عشر ألف ألف درهم مرتين ومن
 القسط المحفور عشرون ومن الزقم خمسمائة وثلاثون رطلا ومن المساجح السورماهي
 عشرة آلاف رطل ومن الصونج عشرة آلاف رطل ومن البغال مائتان ومن المهرة
 ثلاثون • (قنشرين) • أربع مائة ألف دينار • (الاردن) • سبعة وثمانون ألف
 دينار • (فلسطين) • ثلاث مائة ألف دينار وعشرة آلاف دينار ومن الزيت ثلثمائة
 ألف رطل • (مصر) • ألف ألف دينار وتسعمائة ألف دينار وعشرون ألف دينار
 • (برقة) • ألف ألف درهم مرتين • (افريقية) • ثلاثة عشر ألف ألف درهم
 مرتين ومن البسط مائة وعشرون • (البحرين) • ثلثمائة ألف دينار وسبعون ألف
 دينار سوى المتاع • (الجزائر) • ثلاث مائة ألف دينار انتهى • وأما الاندلس فالذي
 ذكره الثقات من مؤرخيها أن عبد الرحمن الناصر خلف في بيوت أموال خمسة
 آلاف ألف ألف دينار مكررة ثلاث مرات يكون جملها بالقناطر خمسمائة ألف قنطار
 • يدأيت في بعض تواريخ الرشيد أن الممول الى بيت المال في أيامه سبعة آلاف
 قنطار وخمسمائة قنطار في كل سنة فاعتبر ذلك في نسب الدول بعضها من بعض
 ولا تنكرن ما ليس بمعهود عندك ولا في عصرك شيء من أمثاله فتضيق حوصلتك عند
 ملقط الممكات فكثير من الخواص اذا سمعوا أمثال هذه الاخبار عن الدول السالفة
 بادربالانكار وليس ذلك من الصواب فان أحوال الوجود والعمران متفاوتة ومن
 أدرك منها رتبة منقلى أو وسطى فلا يحصر المدارك كلها فيها ونحن اذا اعتبرنا ما ينقل
 لنا عن دولة بنى العباس وبنى أمية والعباسيين وناسبنا الصحيح من ذلك والذي لا شك
 فيه بالذي نشاهد من هذه الدول التي هي أقل بانسبة اليها وجدنا بينها بونا وهو لما
 بينها من التفاوت في أصل قوتها وعمران ممالكها فالأمارك لها جارية على نسبة
 الأصل في القوة كما قدمناه ولا بد لنا انكار ذلك عنها اذ كثير من هذه الاحوال في غاية
 الشهرة والوضوح بل فيها ما يلحق بالمستفيض والمتواتر وفيها المعايير والمشاهد من آثار
 البناء وغيره فخذ من الاحوال المنقولة مراتب الدول في قوتها وضعفها وضخامتها
 أو فردا باعتبار ذلك بما نقصه عليك من هذه الحكاية المستخرقة وذلك أنه ورد
 بالمغرب لعهد السلطان أبي عنان من ملوك بني مرين رجل من مشيخة طنجة يعرف

بابن بطوطة كان رحل منذ عشرين سنة قبلها الى المشرق وتقلب في بلاد العراق
 واليمن والهند ودخل مدينة دهلي حاضرة ملك الهند وهو السلطان محمد شاه واتصل
 بملكها لذلك العهد وهو فيروز جوهر وكان له منه مكان واستعمله في خطة القضاء بمذهب
 المالكية في عمله ثم انتقل الى المغرب واتصل بالسلطان أبي عنان وكان يحدث عن شأن
 رحلته وما رأى من العجائب بممالك الارض وأكثر ما كان يحدث عن دولة صاحب
 الهند ويأتى من أحواله بما يستغربه السامعون مثل أن ملك الهند اذا خرج الى
 السفر أحصى أهل مدينته من الرجال والنساء والولدان وفرض لهم رزق ستة أشهر
 تدفع لهم من عطايه وأنه عند رجوعه من سفره يدخل في يوم مشهود يبرز فيه الناس
 كافة الى صحراء البلاد ويطوفون به وينصب أمامه في ذلك الحفل منجنيقات على
 الظهر ترمى بها أسكائر الدراهم والدنانير على الناس الى أن يدخل ايوانه وأمثال هذه
 الحكايات فتساجى الناس بتكذيبه • واقعت أيامه وزير السلطان فارس بن
 وردار البعيد الصب ففاوضته في هذا الشأن وأرته انكار اخبار ذلك الرجل لما
 استفاض في الناس من تكذيبه فقال لى الوزير فارس اياك أن تستنكر مثل هذا
 من أحوال الدول بما نكلم تره فتكون كابن الوزير الناشى في السجن وذلك أن وزيراً
 اعتقله سلطانه ومكث في السجن سنين ربي فيها ابنته في ذلك المحبس فلما أدركه وعقل نال
 عن اللحم الذى كان يتغذى به فقال له أبوه هذا لحم الغنم فقال وما الغنم فيصفها له
 أبوه ببياتها زعموا فيه يقول يا أبت تراها مثل النار فيسكر عليه ويقول أين الغنم من
 النار وكذا في لحم الابل والبترا ذم يعاين في محبته من الحيوانات الا النار فيصحبها
 كلها أبناء جنس النار وهذا كثير ما يعتري الناس في الاخبار كما يعتريهم الوسواس في
 الزيادة عند قصد الاغراب كما قدمناه اول الكتاب فليرجع الانسان الى أصوله وليكن
 مهتماً على نفسه ومميزاً بين طبيعة الممكن والممتنع بصريح عقله ومستمح فطرته فما
 دخل في نطاق الامكان قبله وما خرج عنه رفضه وليس مرادنا الامكان العقلي المطلق
 فان نطاقه أوسع شئ فلا يمرض حدابن الواقعات وانما مرادنا الامكان بحسب المادة
 التى لاشئ فاننا اذا نظرنا أصل الشئ وجزئته وصننه ومدار عظمه وقوته أجرنا بالحكم
 من نسبة ذلك على أحواله بحكمه ما بالامتناع على ما خرج من نطاقه وقل رب زدنى علماً
 وأنت أرحم الراحمين والله سبحانه وتعالى أعلم

١٩ (فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه أهل عصبته بالموالي والمصطنعين

(١٤١) أن صاحب الدولة انما يتم أمره كما قلناه بتوهمه فهم عصبته وظهوره على شأنه

وبهم يقارع الخوارج على دولته ومنهم من نقله أعمال مملكته ووزارته دولته ووجباية
 أموالهم أعوانه على الغلب وشركاؤه في الأمر ومساهموه في سائر مهماته هذا
 مادام الطور الأول للدولة كما قلناه فاداجاه الطور الثاني وظهور الاستبداد عنهم
 والانفراد بالمجد ودافعهم عنه بازاح صاروا في حقيقة الأمر من بعض أعدائه
 واحتجاج في مدافعهم عن الأمر وصدهم عن المشاركة إلى أوليه آخرين من غير
 جلدتهم يستظهر بهم عليهم ويتولاهم دونهم فيكونون أقرب إليه من سائرهم وأنحص
 به قربا واصطناعا وأولى ايشلا وجاهلا أنهم يستميون دونه في مدافعة قومه من
 الأمر الذي كان لهم والرتبة التي ألقوها في مشاركتهم فيستخلصهم صاحب الدولة
 حينئذ ويخصهم بمزيد التكرمة والايثار ويقسم لهم مثل مال الكثيرين قومه ويقلدهم
 جليل الأعمال والولايات من الوزارة والقيادة والجبابة وما يخص به نفسه وتكون
 خاصة له دون قومه من ألقاب المملوك لأنهم حينئذ أولياؤه الأقربون ونصاؤه
 المخلصون وذلك حينئذ موذن باهتمام الدولة وعلامة على المرض المزمن فيها الفساد
 العسبية التي كل بناء القلب عليها مرض قلوب أهل الدولة حينئذ من الامتثال
 وعداوة السلطان فيضطغنون عليه ويتربصون به الدوائر ويهود وبال ذلك على الدولة
 ولا يطمع في برئها من هذا الداء لأنه ماضى يتأكد في الاعتقاد إلى أن يذهب معها
 واعتبر ذلك في دولة بني أمية كيف كانوا انما يستظهرون في حروبهم وولاية أعمالهم
 برجال العرب مثل عمرو بن سعد بن أبي وقاص وعبيد الله بن زياد بن أبي سفيان والجباج
 ابن يوسف والمهلب بن أبي صفرة وخالد بن عبد الله القسري وابن هبيرة وموسى بن
 نصير وبلال بن أبي برمجة بن أبي موسى الأشعري ونصر بن سيار وأمثالهم من رجالات
 العرب وكذا صدر من دولة بني العباس كان الاستظهار فيها أيضا برجالات العرب فلما
 صارت الدولة للانفراد بالمجد وكبح العرب عن التطاول للولايات صارت الوزارة للهم
 والصنائع من البرامكة وبني سهل بن نوبخت وبني طاهر ثم بني بويه وموالي الترك مثل
 بغا ووصيف ونامش وباكالك وابن طولون وأبنائهم وغير هؤلاء من موالى الجسم
 فتكون الدولة لغير من مهدا والعز لغير من اجتلبه سنة الله في عباده والله تعالى أعلم

٢٠ (فصل في احوال الموالى والمصطنعين في الدول)

اعلم أن المصطنعين في الدول يتفاوتون في الاتهام بصاحب الدولة بتفاوت قديمهم
 وحديثهم في الاتهام بصاحبها والسبب في ذلك أن المقصود في العسبية من المدافعة
 والمغالبة انما يتم بالنسب لاجل التناصر في ذوى الارحام والقربى والتضاد في

الاجانب والبعدها كما قدمناه والولاية والمخالطة بالرقا وبالخلف تتزل منزلة ذلك لان
 امر النسب وان كان طبيعيا فانما هو وهمي والمعنى الذي كان به الاتصاف انما هو
 العشرة والمدافعة وطول الممارسة والعصبية بالمربي والرضاع وما رآحوال الموت
 والحياة واذ حصل الاتصاف بذلك جاءت العزة والتناصر وهذا ما شهد بين الناس
 واعتبره مثل في الاصطناع فانه يحدث بين المصطنع ومن اصطنعه نسبة خاصة من
 الوصله تتزل هذه المنزلة وتوصف كد اللحمة وان لم يكن نسب فتمرات النسب موجودة
 فاذا كانت هذه الولاية بين القبيل وبين اوليائهم قبل حصول الملك لهم كانت عروقها
 اوثج وعقائدها اصح ونسبها اصح لوجهين أحدهما أنهم قبل الملك اسوة في حالهم
 فلا يميز النسب عن الولاية الا عند الاقل منهم فيتزلون منهم منزلة ذوى قرابتهم وأهل
 ارحامهم واذ اصطنعوهم بعد الملك كانت مرتبة الملك عمرة للسيد عن المولى ولاهل
 القرابة عن أهل الولاية والاصطناع لما تقتضيه احوال الرياسة والملك من تميز الرتب
 وتفاوتها فتميز حالهم ويتزلون منزلة الاجانب ويكون الاتصاف بينهم اضعف والتناصر
 لذلك ابعد وذلك انقص من الاصطناع قبل الملك . الوجه الثاني أن الاصطناع
 قبل الملك بعد عهده عن أهل الدولة بطول الزمان ويختل شأن تلك اللحمة ويظن بها في
 الاحكاثات فيقوى حال العصية وأما بعد الملك فيقرب العهد ويستوى في
 معرفته الا كرفقتين اللحمة وتتميز عن النسب بضعف العصية بالنسبة الى الولاية
 التي كانت قبل الدولة واعتبر ذلك في الدول والرياسات تجده فكل من كان اصطناعه قبل
 حصول الرياسة والملك لمصطنعه تجده أشد التمام به وأقرب قرابة اليه ويتزل منه منزلة
 أبنائه واخوانه وذوى رحمه ومن كان اصطناعه بعد حصول الملك والرياسة لمصطنعه
 لا يكون له من القرابة واللحمة ما للاولين وهذا ما شهد بالعيان حتى ان الدولة في آخر
 عمرها ترجع الى استعمال الاجانب واصطناعهم ولا يبنى لهم مجد كما بناء المصطنعون قبل
 الدولة لقرب العهد حينئذ باوليائهم وشارفة الدولة على الانقراض فيكونون منخطين
 في مهاوى الضعة وانما يحصل صاحب الدولة على اصطناعهم والعدول اليهم عن
 اوليائهم الاقدمين وصنائعها الاولين ما يعترهم في أنفسهم من العزة على صاحب الدولة
 وقلة الخضوع له ونظره بما ينظره به قبيله وأهل نسبه لتأكد اللحمة منذ العصور
 المتطاولة بالمربي والاتصال بآبائه وسلف قومه والانتظام مع كبراء أهل بيته فيحصل لهم
 بذلك دالة عليه واعتزاز فينا فرهم بسببها صاحب الدولة ويعدل عنهم الى استعمال
 سواهم ويكون عهد استخلاصهم واصطناعهم قريبا فلا يلفون رتب المجد ويقون
 على حالهم من الخارجية وهكذا شأن الدول في أواخرها وأكثر ما يطلق اسم الصنائع

والاولياء على الاولين واما هؤلاء المحررون فخدموا أعوان الله ولي المؤمنين وهو على كل شيء وكيل

٢١ (فصل فيما يمرض في الدول من حرم السلطان والاستبداد عليه)

إذا استقر الملك في نصاب معين ومنبت واحد من القبيل الناقمين بالدولة وانفردوا به ودفعوا سائر القبيل عنه وتداوله بنوهم واحدا بعد واحد بحسب الترشيح فربما حدث التغلب على المنصب من وزراءهم وحاشيتهم وبسببه في الاصل كثرة ولايته صبي صغير أو مضعف من أهل المنبت يترشح للولاية بعده أبوه أو بترشيح ذويه وخواه ويؤنس منه العجز عن انقيام بانك فيقوم به كقله من وزراء أبيه وحاشيته ومواليه أو قبيله ويورى بحفظ أمره عليه حتى يؤنس منه الاستبداد ويجعل ذلك ذريعة للملك فيجب الصبي عن الناس ويعوده اللذات التي يدعو اليها زرف أحواله وبسببه في مراعيها متى أمكنه وينسبه النظر في الامور السلطانية حتى يستبد عليه وهو بتاعوده يعتقد أن حفظ السلطان من الملك انما هو جلوس السرير واعطاء الصنقة وخطاب التحويل والقعود مع النساء خلف الحجاب وان الحل والربط والامر وانتهى ومباشرة الاحوال الملوكية وتفقدتها من النظر في الجيوش والمال والثغور انما هو للوزير وبسبب ذلك الى أن تستحكم له صبغة الرياسة والاستبداد ويحول الملك اليه ويؤثر به عشيرته وأبناءه من بعده كما وقع لبني بويه والترك وكافور الاخشيدى وغيرهم بالمشرق والمغرب بن أبي عامر بالاندلس وقد تفتن ذلك المحجور المغلب لشأنه فيحاول على الخروج من رتبة الحجر والاستبداد ويرجع الملك الى نصابه ويضرب على أيدي المتغلبين عليه اما يقتل أو يرفع عن الرتبة فقط الا أن ذلك في المنادر الاقل لان الدولة اذا أخذت في تغلب الوزراء والاولياء استمر لها ذلك وقل أن تخرج عنه لان ذلك انما يوجد في الاكثر عن أحوال الترف ونشأة أبناء الملك منة سين في زعميه قدس واعهد الرجولة والنسب الاخلاق الدايات والاطار وروبو اعلمها فلا ينزعون الى رياسته ولا يعرفون استبدادها من تغلب انما همهم في التفرع بالاثبة والتنز في اللذات وأنواع الترف وهذا التغلب يكون للموالي والمصطنعين عند استبداد عشير الملك على قومهم وانفرادهم به دونهم وهو عارض للدولة ضرورى كما قدمناه وهذا من مرضان لابرء للدولة منهما الا في الاقل النادر والله يؤتى ملكه من يشاء وهو على كل شيء قدير

٢٢ (فصل في ان المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك)

وذلك أن الملك والسلطان حصل لاوليه مذاق اول الدولة بعصية قومه وعصيته التي

استبعتهم حتى استحكمت له ولقومه صبغة الملك والغلب وهي لم تزل باقية وبها
 انحفظ رسم الدولة وبقاؤها وهذا المتغلب وان كان صاحب عصبية من قبيل الملك أو
 الموالي والصنائع فعصيته مندرجة في عصبية أهل الملك وتابعة لها وليس له صبغة في
 الملك وهو لا يحاول في استبداده انتزاع الملك ظاهرا وانما يحاول انتزاع ثمراته من
 الامر والنهي والحل والعقد والابرار والنقض يوهم فيها أهل الدولة أنه متصرف عن
 سلطانه منفذ في ذلك من وراء الحجاب لاحكامه فهو يتجافى عن سمات الملك وشاراته
 وألقابه جهده ويبعد نفسه عن التهمة بذلك وان حصل له الاستبداد لانه مستتر في
 استبداده ذلك بالحجاب الذي ضرب به السلطان وأولو على أنفسهم عن القبيل منذ أول
 الدولة ومغالط عنه بالنيابة ولو تعرض لشيء من ذلك لنفسه عليه أهل العصبية وقبيل
 الملك وحاولوا الاستئثار به دونه لانه لم تستحكم له في ذلك صبغة تحملهم على التسليم له
 والانقياد فيه لك لا قول وهلة وقد وقع مثل هذا العبد الرحمن بن الناصر بن المنصور بن
 ألي عامر حين سما الى مشاركة هشام وأهل بيته في لقب الخلافة ولم يقنع بما قنع به أبوه
 وأخوه من الاستبداد بالحل والعقد والمراسم المتابعة فطلب من هشام خليفته أن
 يعهد له بالخلافة فنفس ذلك عليه بنومروان وسائر قرقيش وبابعو الابن عم الخليفة
 هشام محمد بن عبد الجبار بن الناصر وخرجوا عليهم وكان في ذلك خراب دولة العامرين
 وهلاك المؤيد خليفتهم واستبدل منه سوا من أعياص الدولة الى آخرها واختلت
 مراسم ملكهم والله خير الوارثين

٢٣ (فصل في حقيقة الملك واصنافه)

الملك منصب طبيعي للانسان لانا قد بينا أن البشر لا يمكن حيلتهم ووجودهم
 الا باجتماعهم ونعاونهم على تحصيل قوتهم وضروراتهم واذا اجتمعوا دعت الضرورة
 الى المعاملة واقتضاء الحاجات ومد كل واحد منهم يده الى حاجته يأخذها من صاحبه
 لما في الطبيعة الحيوانية من الظلم والعدوان بعضهم على بعض ويمانه الاخر عنها
 بمقتضى الغضب والانفة ومقتضى القوة البشرية في ذلك فيقع التنازع المقتضى الى
 المقاتلة وهي تؤدى الى الهرج وسفك الدماء وازهاب النفوس المقتضى ذلك الى انقطاع
 النوع وهو مما خصه الباري سبحانه بالمحافظة فاستحال بقاؤهم فوضى دون حاكم يزع
 بعضهم عن بعض واحتاجوا من أجل ذلك الى الوازع وهو الحاكم عليهم وهو بمقتضى
 الطبيعة البشرية الملك القاهر المتحكم ولا بد في ذلك من العصبية لما قدمناه من أن
 المطالبات كلها والمدافع لا تتم الا بالعصبية وهذا الملك كإتزام منصب شريف تتوجه

نحوه المطالبات ويحتاج الى المدافعات ولا يتم شئ من ذلك الا بالعصيات كما امر
والعصيات متفاوتة وكل عصية تغلبها تحكم وتغلب على من يليها من قومها وعشيرها
وامس الملك اكل عصية وانما الملك على الحقيقة لمن يستعبد الرعية ويجبي الاموال
ويبعث البعوث ويحرم الثغور ولا تكون فوق يده يد قاهرة وهذا معنى الملك وحقيقته
في المشهور فمن قصرت به عصيته عن بعضها مثل حياية الثغور او حياية الاموال او
بعث البعوث فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة
الاعاليه بالقيروان وملوك العجم صدر الدولة العباسية ومن قصرت به عصيته ايضا عن
الاستعلاء على جميع العصيات والضرب على سائر الايدي وكان فوقه حكم غيره فهو
ايضا ملك ناقص لم تتم حقيقته وهؤلاء مثل امراء النواحي ورؤساء الجهات الذين
تجمعهم دولة واحدة وكثيرا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق اعني توجد ملوك
على قومهم في النواحي القاصية يدينون بطاعة الدولة التي جمعهم مثل منهاجعة مع
العبيدين وزنانه مع الامويين تارة والعبيدين تارة اخرى ومثل ملوك العجم في دولة
بنى العباس ومثل امراء البربر وملوكهم مع الفرنجة قبل الاسلام ومثل ملوك
الطوائف من الفرس مع الاسكندر وقومه اليونانيين وكثير من هؤلاء فاعتبره تجده
وانه القاهر فوق عباده

٢٤ (فصل في ان ارماف الحد مضر بالملك ومفسد له في الاكثر)

اعلم ان مصلحة الرعية في السلطان ليست في ذاته وجمعه من حسن شكله او ملاحه
وجهه او عظم جثمانه او اتساع عمله او جودة خطه او ثقب ذهنه وانما مصلحة الرعية فيه
من حيث اضافته اليهم فان الملك والسلطان من الامور الاضافية وهي نسبة بين
متسبين فحقيقة السلطان انه المالك للرعية القائم في امورهم عليهم فالسلطان من له
رعية والرعية من لها سلطان والصفة التي له من حيث اضافته لهم هي التي تسمى الملكة
وهي كونه يملكهم فاذا كانت هذه الملكة وتوابعها من الجودة يمكن حصول المتعود من
السلطان على اتم الوجوه فانها ان كانت جميلة سالحة كان ذلك مصلحة لهم وان كانت
سيئة متعسفة كان ذلك ضرا عليهم واهلا كالمهم ويعود حسن الملكة الى الرفق فان
الملك اذا كان قاهرا باطش بالعقوبات منقباعن عورات الناس وتعدد نوبهم شملهم
الخوف والذل والاذوا منه بالكذب والمكر والخديعة فتخلتوا به او فسدت بصائرهم
واخلقتهم وربما خذلوه في مواطن الحروب والمدافعات ففسدت الحياية بنسداد النبات
وربما اجعوا على قتله لذلك ففسد الدولة ويخرب السباج وان دام امره عليهم فمهره

فسدت العصية لما قلناه أو لا وقد البساج من أصله بالعجز عن الحماية وإذا كان
وفيتابهم متجاوزا عن مبدأتهم استناموا إليه ولاذوا به وأشر بواجبه واختاروا دونه
في محاربة أعدائه فاستقام الأمر من كل جانب وتمازج مع حسن الملكة فهي النعمة
عليهم والمدافعة عنهم فالمدافعة بهاتمة حقيقة الملك وأما النعمة عليهم والاحسان لهم
فمن جملة الرفق بهم والنظر إليهم في معاشهم رحي أصل كبير في التحبب إلى الرعية واعلم
أنه قلما تكون ملكة الرفق فيمن يكون يتفنا شديد الذكاء من الناس وأكثر ما يوجد
الرفق في الغنل المتغفل وأقل ما يكون في البتظ أنه يكاف الرعية فوق طاقتهم لنفوذ
نظرة فيما زار مداركهم واطلاعه على عواقب الأمور في مبادئها بالمعينة فيهلكون
لذلك قال صلى الله عليه وسلم سيروا على سيرة منكم ومن هذا الباب اشترط الشارع
في الحاكم قلة الإفراط في الذكاء وما أخذه من قصة زياد بن أبي سفيان لما عزلته عمر عن
العراق وقال لم عزاني بأمر المؤمنين العجز أم لخبانة فقال عمر لم أعزلك لو احدىة منهم ما
والكنى كرهت أن أحمل فضل عتلك على الناس فأخذ من هذا أن الحاكم لا يكون مفراطا
الذكاء والكبير مثل زياد بن أبي سفيان وعمر بن العاصي لما يتبع ذلك من التعسف
وسوء الملكة وجل الوجود على ما ليس في طبعه كما يأتي في آخر هذا الكتاب والله خير
المالكين وتتر من هذا أن الكبير والذكاء عيب في صاحب السياسة لانه افراط في
التفكير كما ان البلادة افراط في الجود والطف من مذسومان من كل صفة انسانية
والمحمود هو التوسط كما في الكرم مع التبذير والجل وكما في الشجاعة مع الهوج
والجبن وغير ذلك من الصفات الانسانية ولهذا يوصف الشديد الكيس بصفات
الشيطان فيقال شيطان ومثبطن وأمثال ذلك والله يحق ما يشاء وهو العليم القدير

(فصل في معنى الخلافة والامامة)

لما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر وقد تناه التغلب والقهر
الذاتية مما من آثار النضب والحيوانية كانت أحكام صاحبه في الغالب جائرة عن
الحق مجعنة بمن يحتيد من الخلق في أحوال دنياهم لجهلهم في الغالب على ما ليس في
طوقهم من أغراضه وشهواته ويختلف ذلك باختلاف المقاصد من الخلف والسلف
منهم فتمس طاعته لذلك وتجيء العصية المنفضة إلى الهرج والقتل فوجب أن يرجع
في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكفاية وينقادون إلى أحكامها كما
كان ذلك للفرس وغيرهم من الأمم وإذا دخلت الدولة من مثل هذه السياسة لم يستتب
أمرها ولا يتم استيلاؤها سنة الله في الذين خلوا من قبل فإذا كانت هذه القوانين

مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة وبصرائها كانت سياسة عقليّة واذا كانت مفروضة من الله بشارعاً يقرّها ويشرعها كانت سياسة دينية رفعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط فإنها كلها عبث وباطل إذ غايتها الموت والفناء والله يقول أخفبتم أعماء خلقناكم عبثاً فالمقصود بهم انما هو دينهم المفضى بهم الى السعادة في آخرتهم سراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض فجاءت الشرائع بمحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الانساني فأجرته على منهاج الدين ليكون اكل محوطاً بنظر الشارع فما كان منه بمتقضى القهر والتغلب واهدال القوة انفضية في مرعاها فجور وعدوان ومذموم عندكم كما هو مقتضى الحكمة السياسية وما كان منه بمتقضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً لانه نظر بغير نور الله ومن لم يجعل الله له نورا فله من نور لان الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو غيب عنهم من امور آخرتهم وأعمال البشر كلها عاتمة عليهم في معادهم من ملك أو غيره قال صلى الله عليه وسلم انما هي أعمالكم ترد عليكم وأحكام السياسة انما تطلع على مصالح الدنيا فقط يعلمون طاهران الحياة الدنيا ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم فوجب بمتقضى الشرائع حمل الكافة على الاحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم وكان هذا الحكم لاهل الشريعة وهم الانبياء ومن قام فيه مقامهم وهم الخلفاء فتدبين ذلك من ذلك معنى الاخلافة وان الملك الطبيعي هو حمل الكافة على متقضى الغرض والشهوة والسبب هو حمل الكافة على متقضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار والخلافة هي حمل الكافة على متقضى النظر الشرعي في مصالحهم الاخرية والدنيوية الراجعة اليها اذا حوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع الى اعتبارها بمصالح الآخرة فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة دنياه فافهم ذلك واعتبره فيما نورد عليكم من بعد والله الحكيم العليم

٢٦ (فصل في اختلاف الامة في حكم بندا المنصب وشروطه)

واذ قد بينا حقيقة هذا المنصب وأنه نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة دنياه تسمى خلافة وامامة والقائم به خليفة واماماً مانسبته اماماً فتشبه به امام الصلاة في اتباعه والاقتراد به وهذا يقال الامامة الكبرى وامامة عمية خليفة فلكونه يخلف النبي في أمته فيقال خليفة باطلاق وخليفة رسول الله واختلف في تسميته خليفة الله فأجازوه بعضهم اقتباساً من الخلافة العاتية التي لا آدميين في قوله تعالى اني

جاعل في الارض خليفة وقوله جعلكم خلائف الارض ومنع الجمهور منه لان معنى
 الآية ليس عليه وقد نهى أبو بكر عنه لما دعي به وقال است خليفة الله ولكن خليفة
 رسول الله صلى الله عليه وسلم ولان الاستخلاف انما هو في حق الغائب وأما الحاضر فلا
 ثم ان نصب الامام واجب قد عرف وجوبه في الشرع باجماع الصحابة والتابعين لان
 اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم عند وفاته يادروا الى بيعة أبي بكر رضى الله عنه
 وتسليم النظر اليه في امورهم وكذا في كل عصر من بعد ذلك ولم تترك الناس فونى في
 عصر من الاعصار واستقر ذلك اجماعا على وجوب نصب الامام وقد ذهب بعض
 الناس الى أن مدرك وجوبه العقل وأن الاجماع الذي وقع انما هو قضاء بحكم العقل
 فيه فالواو انما وجب بالعقل لضرورة الاجتماع للبشر واستحالة حياتهم ووجودهم
 منفردين ومن ضرورة الاجتماع التنازع لازدحام الاغراض فمال يكن الحاكم الوازع
 أفضى ذلك الى المهرج المؤذن به لالك البشر وانقطاعهم مع أن حفظ النوع من مقاصد
 الشرع الضرورية وهذا المعنى بعينه هو الذي لحظه الحكماء في وجوب النبوات في
 البشر وقد نبهنا على فسادها وان احدى مقدماته أن الوازع انما يكون بشرع من الله
 تسلم له الكفاية تسليم ايمان واعةقاد وهو غير مسلم لان الوازع قد يكون بسطوة الملك
 وقهر أهل الشوكه ولولم يكن شرع كما في أمم الجوس وغيرهم عن ليس له كتاب أو لم تبلغه
 الدعوة أو نقول يكفي في رفع التنازع معرفة كل واحد بتحريم الظلم عليه بحكم العقل
 فادعاهم أن ارتفاع التنازع انما يكون بوجود الشرع هناك ونصب الامام هنا غير
 صحيح بل كما يكون بنصب الامام يكون بوجود الرؤساء أهل الشوكه أو بامتناع الناس
 عن التنازع والتظام فلا ينهض دليلهم العقلي المبني على هذه المقدمة فدل على أن
 مدرك وجوبه انما هو بالشرع وهو الاجماع الذي قدمناه وقد شد بعض الناس فقال
 بعدم وجوب هذا النصب رأسا لا بالعقل ولا بالشرع منهم الاصم من المعتزلة وبعض
 الخوارج وغيرهم والواجب عندهم هؤلاء انما هو امضاء أحكام الشرع فاذا تواطأت
 الامة على العدل وتنفيذ أحكام الله تعالى لم يحتج الى امام ولا يجب نصبه وهؤلاء
 محجوجون بالاجماع والذي جعلهم على هذا المذهب انما هو الفرار عن الملك ومذاهبه
 من الاستطالة والتغلب والاستمتاع بالديار أو الشريعة ممتلئة بدم ذلك والنبي
 على أهلهم ومرغبة في رفضه واعلم أن الشرع لم يذم الملك لذاته ولا حظر القيام به وانما
 ذم المفسد الناشئة عنه من القهر والظلم والتمتع باللذات ولا شك أن في هذه مفسد
 محظورة وهي من توابعه كما أنى على العدل والنصفه واقامة مراسم الدين والذب عنه
 وأوجب بازائها الثواب وهي كلها من توابع الملك فاذا انما وقع الذم للملك على صفة

وحال دون حال اخرى ولم يذمه لذاته ولا طلب تركه كما ذم الشهوة والغضب من
 المكلفين وليس مراده تركهما بالكيفية لدعاية الضرورة اليها وانما المراد تنصير
 علي مقتضى الحق وقد كان لداود وسليمان صلوات الله وسلامه عليهم ما الملك الذي لم
 يكن لغيرهما وهما من انبياء الله تعالى واكرم الخلق عنده ثم نقول لهم ان هذا الفرار
 عن الملك بعدم وجوب هذا النصب لا يغنيكم شي الا انكم موافقون علي وجوب
 اقامة احكام الشريعة وذلك لا يحصل الا بالعصية والشوكة والعصية مقتضية
 بطبعها للملك فيحصل الملك وان لم ينصب امام وهو عين ما فررت عنه واذا تقررت
 ان هذا النصب واجب باجماع فهو من فروض الكفاية وراجع الى اختيار اهل
 العتد والحل فيتعين عليهم نصبه ويجب علي الخلق جميعا طاعته لقوله تعالى اطيعوا
 الله واطيعوا الرسول واولى الامر منكم * واما شروط هذا المنصب فهي اربعة العلم
 والعدالة والكفاية وسلامة الخواص والاعضاء مما يؤثر في الرأي والعمل واختلاف
 في شرط خامس وهو النسب القرشي فاما اشتراط العلم فظاهر لانه انما يكون منقادا
 لاحكام الله تعالى اذا كان عالما بما اوامره يعلمها الا يصح تقديمه لها ولا يكفي من العلم
 الا ان يكون مجتهدا لان التقاليد ناقصة والامامة تستدعي الكمال في الاوصاف
 والاحوال واما العدالة فلانه منصب ديني يتطرق في سائر المناصب التي هي شرط
 فيها فكان اولى باشتراطها فيه ولا خلاف في انتفاء العدالة فيه بنسق الجوارح من
 ارتكاب المحظورات واثامها وفي انتفاءها لبدع الاعتقادية خلاف واما الكفاية
 فهو ان يكون جريا علي اقامة الحدود واقحام الحروب بصيرا بها كذيل يحمل
 الناس عليها عارفا بالعصية واحوال الدهاء قوياعلي معارضة السباسة لاصح له بذلك
 ما جعل اليه من حماية الدين وجهاد العدو واقامة الاحكام وتدابير المصالح واما
 سلامة الخواص والاعضاء من المنص والعطلة كالجنون والعمى والصمم والخرس
 وما يؤثر فتد من الاعضاء في العمل كفقيد اليدين والرجلين والاثمين فتشترط
 السلامة منها كلها التأثير ذلك في تمام عمله وقيامه بما جعل اليه وان كان اثابته في
 المنظر فقط كفتد احدى هذه الاعضاء فتشترط السلامة منه شرط كمال ويلحق بنقدان
 الاعضاء المنع من التصرف وهو ضربان ضرب يلحق به هذه في اشتراط السلامة منه
 شرط وجوب وهو القهر والعجز عن التصرف بجملة بالاسر وشبهه وضرب لا يلحق
 به هذه وهو الحجر باستيلاء بعض اعوانه عليه من غير عصيان ولا مشاققة فينتقل النظر
 في حال هذا المستولي فان جرى علي حكم الدين والعدل وحيد السباسة جازا قراره
 والاستنصر المسلمون بمن يقبض يده عن ذلك ويدفع عنه حتى يتفقد فعل الخليفة

وأما النسب القرشي فالاجماع الصحابة يوم السقيفة على ذلك واحتجت قريش على
الانصار لما هموا يومئذ ببيعة سعد بن عبادة وقالوا منا أمير ومنكم أمير بقوله صلى الله
عليه وسلم الاثمة من قريش وبأن النبي صلى الله عليه وسلم أوصانا بأن نحسن إلى
محببتكم وتجاوز عن سيئكم ولو كانت الامارة فيكم لم تكن الوصية بكم فنجبوا
الانصار ورجعوا عن قولهم منا أمير ومنكم أمير وعدلوا عما كانوا هموا به من بيعة
سعد لذلك وثبت أيضا في الصحيح لا يزال هذا الامر في هذا الحى من قريش وأمثال
هذه الأدلة كثيرة الا أنه لما ضعف أمر قريش وتلاشت عصبيتهم بما نالهم من الترف
والزهيم وبعثتهم الدولة في سائر أقطار الارض عجزوا بذلك عن حمل الخلافة
وتغلبت عليهم الامايجم وصار الحل والعقد لهم فاشتبه ذلك على كثير من المحققين حتى
ذهبوا إلى نفي اشتراط القرشية وعولوا على ظواهر في ذلك مثل قوله صلى الله عليه
وسلم اسمعوا وأطيعوا وان ولى عليكم عبد حبشي ذو زبينة وهذا لا تقوم به حجة في ذلك
فانه خرج مخرج التمثيل والفرض للمبالغة في ايجاب السمع والطاعة ومثل قول عمر
لو كان سالم مولى حذيفة حيا لوليته أو لما دخلتني فيه الظنة وهو أيضا لا يصدق ذلك لما
علمت أن مذهب الصحابي ليس بحجة وأيضا فولى القوم منهم وعصية الولا حاصله لم يتم
في قريش وهي الفائدة في اشتراط النسب ولما استعظم عمر أمر الخلافة ورأى شروطها
كأنها مفقودة في ظنه عدل إلى سالم لتوفر شروط الخلافة عنده فيه حتى من
النسب المفيد للعصية كما نذكر ولم يبق الا صراحة النسب فرآه غير محتاج اليه اذا الفائدة
في النسب انما هي العصية وهي حاصله من الولا فكان ذلك حراما من عرض الله
عنه على النظر للمسلمين وتقليد أمرهم لمن لا تلحقه فيه لائمة ولا عليه فيه عهدة ومن
القائلين بنفي اشتراط القرشية القاضي أبو بكر الباقلاني لما أدركه عليه عصية قريش
من التلاشي والاضمحلال واستبداد ملوك العجم على الخلفاء فأسقط شرط القرشية
وان كان موافقا لرأي الخوارج لما رأى عليه حال الخلفاء لهده وبقى الجهور على
القول باشتراطها وصحة الامامة للقرشي ولو كان عاجزا عن القيام بامور المسلمين ورد
عليهم سقوط شرط الكفاية التي يقولون بها على أمره لانه اذا ذهبت الشوكة بذهاب
العصية فقد ذهبت الكفاية واذا وقع الاخلال بشرط الكفاية تطرق ذلك أيضا إلى
العلم والدين وسقط اعتبار شروط هذا المنصب وهو خلاف الاجماع * ولتسكلم الآن
في حكمة اشتراط النسب ليتحقق به الصواب في هذه المذاهب فنقول ان الاحكام
الشرعية كلها لا بد ان يتأهل بها من مقاصد وحكم تشتمل عليها وتشرع لاجلها ونحن اذا
بجئنا عن الحكمة في اشتراط النسب القرشي ومقصود الشارع منه لم يتصرف فيه على

التبر بوصوله النبي صلى الله عليه وسلم كما هو في المشهور وان كانت تلك الوصلة
 موجودة والتبر لغيرها حاصل لكن التبر ليس من المقاصد الشرعية كما علمت فلا بد
 اذن من المصلحة في اشتراط النسب وهي المقصودة من مشروعيها واذا سبرنا وقسمنا لم
 نجد لها الا اعتبار العصبية التي تكون بها الحماية والمطالبة ويرتفع الخلاف والفرقة
 بوجودها صاحب المنصب قد سكن اليه الملة وأهلها وينتظم حبل الالفه فيها وذلك
 أن قريشا كانوا عصبه مضر وأصلهم وأهل الغلب منهم وكان لهم على سائر مضر العزة
 بالكثرة والعصبية والشرف فكان سائر العرب يعترف لهم بذلك ويستكبنون أغلبهم
 فلو جعل الامر في سواهم لتوقع افتراق الكلمة بجماعتهم وعدم انقيادهم ولا يقبل
 غيرهم من قبائل مضر أن يردتهم عن الخلاف ولا يحملهم على الكثرة فتتفرق الجماعة
 وتختلف الكلمة والشارع محذر من ذلك حريص على اتفاقهم ورفع النزاع والشقاق
 بينهم لتحصل اللجمه والعصبية وتحسن الحماية بخلاف ما اذا كان الامر في قريش لانهم
 قادرون على سوق الناس بعصا الغلب الى ما يراهم فلا يخشى من أحد خلاف عليهم
 ولا فرقة لانهم كقبائل حينئذ يدفعها ومنع الناس منها فاشترط نسبهم القرشي في هذا
 المنصب وهم أهل العصبية القوية ليكون أبلغ في انتظام الملة واتفاق الكلمة واذا
 انتظمت كلمتهم انتظمت بانتظامها كلمة مضر أجمع فأذعن لهم سائر العرب وانقادت
 الامم سواهم الى أحكام الملة ووطنت جنودهم فاصية البلاد كما وقع في أيام الفتوحات
 واستمر بعدها في الدولتين الى أن اضمحل أمر الخلاف وتلاشت عصبية العرب ويعلم
 ما كان لقريش من الكثرة والتغلب على بطون مضر من ما رس أخبار العرب
 وسيرهم وتفطن لذلك في أحوالهم * وقد ذكر ذلك ابن اسحق في كتاب السيرة وغيره
 فاذا ثبت أن اشتراط القرشية انما هو لدفع النزاع عما كان لهم من العصبية والغلب
 وعلما أن الشارع لا يخص الاحكام بجبل ولا عصر ولا أمة علما أن ذلك انما هو من
 الكفاية فرددناه اليها وطردها الى العلة المشتملة على المقصود من القرشية وهي وجود
 العصبية فاشترطنا في القائم بامور المسلمين أن يكون من قوم أولى عصبية قوية غالبية
 على من معها العصرها ليستتبعوا من سواهم وتجتمع الكلمة على حسن الحماية ولا يعلم
 ذلك في الاقطار والآفاق كما كان في القرشية اذ الدعوة الاسلامية التي كانت لهم كانت
 عامة وعصبية العرب كانت واقية بهم فغلبوا سائر الامم وانما يخص هذا العهد كل
 قطر عن تكون له فيه العصبية الغالبة واذا نظرت سر الله في الخلافة لم تعد هذا
 لانه سبحانه انما جعل في الخليفة ناسبا عنه في القيام بامور عبادته ليحملهم على مصالحهم
 ويرددهم عن مضارهم وهو مخاطب بذلك ولا يخاطب بالامر الا لمن له قدرة عليه ألا ترى

ما ذكره الامام ابن الخطيب في شأن النساء وانهم في كثير من الاحكام الشرعية جعلن
 نعال الرجال ولم يدخلن في الخطاب بالوضع وانما دخلن عنده بالقياس وذلك لما لم يكن
 لهن من الامر شيء وكان الرجال قوامين عليهن اللهم الا في العبادات التي كل احد فيها
 قائم على نفسه فخطابهم فيها بالوضع لا بالقياس ثم ان الوجود شاهد بذلك فانه لا يقوم
 بأمر أمة أو جيل الا من غلب عليهم وقل ان يكون الامر الشرعي مخالفا لامر
 الوجودي والله تعالى أعلم

٢٧ (فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة)

(اعلم) ان الشيعة لغة هم الصحب والاباع ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين من
 الخلف والسلف على اتباع علي وبنيه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين
 عليه ان الامامة ليست من المصالح العامة التي تفترض الى نظر الامة وتعين القائم بها
 بتعيينهم بل هي ركن الدين وقاعدة الاسلام ولا يجوز لشيء اغفاله ولا تفويضه الى
 الامة بل يجب عليه تعيين الامام لهم ويكون معصوما من الكبار والصغار
 وان علموا رضي الله عنه هو الذي عينه سنوات الله وسلامه عليه بنصوص يتقانونها
 ويؤولونها على مقتضى مذهبهم لا يعرفها جهابذة السنة ولا قلة الشريعة بل أكثرها
 موضوع أو مطعون في طريقه أو بعيد عن تأويلاتهم الفاسدة وتنقسم هذه النصوص
 عندهم الى جلي وخفي فالجلي مثل قوله من كنت مولاه فعلي مولاه قالوا ولم تطرد هذه
 الولاية الا في علي ولهذا قال له عمر أصبحت مولى كل مؤمن ومؤمنة ومنها قوله
 أقضاكم علي ولاة معنى الامامة الا القضاء بأحكام الله وهو المراد بأولى الامر الواجبة
 فاعتهم بقوله أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم والمراد الحكم
 بالقضاء ولهذا كان حكا في قضية الامامة يوم السقيفة دون غيره ومنها قوله من
 يبايعني علي روجه وهو ودي وولي هذا الامر من بعدى فلم يبايعه الا علي ومن الخفي
 عندهم بعث النبي صلى الله عليه وسلم عليا لقراءة سورة براءة في الموسم حين أنزلت
 فانه بعث بها أولا بابكر ثم أوحى اليه ليلته رجل منك أو من قومه فكذبته عليا ليكون
 لتاريخ المبلغ قالوا وهذا يدل على تقديم علي وأيضا لم يعرف أنه قدم أحد اعلى علي
 رأيا أبو بكر وعمر فقدم عليهم ما في غزاتين أسامة بن زيد وعمر بن العاصي أخرى
 وهذه كلها أدلة شاهدة بتعيين علي للخلافة دون غيره فمنها ما هو غير معروف ومنها ما هو
 مبدى من تأويلهم ثم منهم من يرى أن هذه النصوص تدل على تعيين علي وتشخيصه
 كذلك تنتقل منه الى من بعده وهو لاهم الامامية ويتبرون من الشيخين حيث لم

يقدموا عليا ويأبوه بمقتضى هذا النصوص و يغمصون في امامتهم ولا يلتفت
الى نقل القدح فيهم ما من غلاتهم فهو مردود عندنا وعندهم ومنهم من يقول ان هذه
الادلة انما اقتضت تعيين علي بالوصف لا بالشخص والناس مقصرون حيث لم يضعوا
الوصف موضعه وهؤلاء هم الزيدية ولا يترئون من الشيخين ولا يغمصون في امامتهما
مع قولهم بأن علماء أفضل منهما الكهنه يجوزون امامة المفضول مع وجود الافضل ثم
اختلفت نقول هؤلاء الشيعة في مساق الخلافة بعد علي فمنهم من ساقها في ولد فاطمة
بأنص عليهم واحد بعد واحد الى ما يذكر بعد هؤلاء يسمون الامامية نسبة الى
مقاتلهم باشرط معرفة الامام وتعيينه في الايمان وهي أصل عندهم ومنهم من ساقها في
ولد فاطمة لكن بالاختيار من الشيوخ وبشرط أن يكون الامام منهم عالما زاهدا
جوادا شجاعا ويخرج داعيا الى امامته وهؤلاء هم الزيدية نسبة الى صاحب المذهب
وهو زيد بن علي بن الحسين السبط وقد كان يناظر أئمة محمد الباقر على اشترط
الخروج في الامام فيلزمه الباقر أن لا يكون أبوهما زين العابدين اماما لانه لم يخرج ولا
تعرض للخروج وكان مع ذلك ينسب عليه مذاهب المعتزلة وأخذها باها عن واصل بن
عطاء ولما ناظر الامامية زيد في امامة الشيخين ورأوه يقول بامانتهم ما ولا يتبرأ منهم
رفضوه ولم يجعلوه من الأئمة وبذلك هو رافضة ومنهم من ساقها بعد علي وابنيه السبطين
على اختلافهم في ذلك الى أخيه محمد بن الحنفية ثم الى ولده وهم الكيسانية نسبة الى
كيسان مولا وبين هذه الطوائف اختلافات كثيرة تركناها اختصارا ومنهم طوائف
يسمون الغلاة تجاوزوا حد العقل والايمان في القول بالوهية هؤلاء الاثمة اما على انهم
بشر انصفوا بصفات الالهية أو ان الاله حل في ذاته البشرية وهو قول بالحلول
يوافق مذهب النصارى في عيسى صلوات الله عليه ولقد حرق علي رضي الله عنه بالنار
من ذهب فيه الى ذلك منهم ويخط محمد بن الحنفية المختار بن أبي عبيد لما بلغه مثل ذلك
عنه فصرخ بلعنته والبراءة منه وكذلك فعل جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه بمرء
بلغه مثل هذا عنه ومنهم من يقول ان كمال الامام لا يكون لغیره فاذا مات انتقلت
روحه الى امام آخر اكون فيه ذلك الكمال وهو قول بالتنازع ومن هؤلاء الغلاة من
يقف عند واحد من الأئمة لا يتجاوزها الى غيره بحسب من يعين لذلك عندهم وهؤلاء هم
الواقفية فبعضهم يقول هو حي لم يت الأنة غائب عن أعين الناس ويستشهدون لذلك
بقصة الخضر قيل مثل ذلك في علي رضي الله عنه وانه في السحاب والرعد صوته والبرق
في سوطه وقالوا مثله في محمد بن الحنفية وانه في جبل رضوى من أرض الحجاز وقال
شاعرهم

ألا ان الأئمة من قر يش * ولا الحق أربعة سواه
 على والثلاثة من بنيه * هم الاسباط ليس بهم خفاء
 فسب سبط ايمان وبر * وسب غيبته كبر بلاه
 وسب لا يذوق الموت حتى * يقود الجيش يقدمه اللواء
 تغيب لا يرى فيهم زمانا * برضوى عنده غسل رماه

وقال مثله غلاة الامامية وخصوصا الاثني عشرية منهم يزعمون أن الثاني عشر من
 أئمتهم وهو محمد بن الحسن العسكري وياقبونه المهدي دخل في سرداب بدارهم بالحلة
 وتغيب حين اعتقل مع أمه وناب هنالك وهو يخرج آخر الزمان فيملا الأرض عدلا
 بشيرون بذلك الى الحديث الواقع في كتاب الترمذي في المهدي وهم الى الآن ينتظرونه
 ويسمونه المنتظر لذلك ويقضون في كل ليلة بعد صلاة المغرب يباب هذا السرداب وقد
 ندموا مرر كبا فيهم تفون باهه ويدعونه للخروج حتى تشتبك النجوم ثم يقضون
 ويرجعون الامر الى اللبلة الآتية وهم على ذلك لهذا العهد وبعض هؤلاء الواقفة
 قول ان الامام الذي مات يرجع الى حياته الدنيا ويستشهدون لذلك بما وقع في القرآن
 لكريم من قصة أهل الكهف والذي مر على قرية وقتيل بن اسرائيل حين شرب
 مظام البقرة التي أمر وابدبجها وثل ذلك من الخوارق التي وقعت على طريق
 المعجزة ولا يصح الاستشهاد بها في غير مواضعها وكان من هؤلاء السيد المهيري ومن
 مره في ذلك

اذا ما المر شاب له قد زال * وعلمه المواشط بالخضاب
 فقد ذهبت بشاشته وأودى * فقم يا صاح نيك على الشباب
 الى يوم تثوب الناس فيه * الى دنياهه وقبل الحساب
 فليس بعائد ما فات منه * الى أحسد الى يوم الاياب
 أدين بأن ذلك دين حق * وما أتاني النشور بذي ارتياب
 كذا الله أخبر عن أناس * حيوا من بعد درس في التراب

قد كفا نامونة هؤلاء الغلاة أئمة الشيعة فانهم لا يقولون بها ويطلقون احتجاجاتهم
 ليها وأما الكيسانية فساقوا الامامة من بعد محمد بن الحنفية الى ابنه أبي هاشم
 هؤلاء هم الهاشمية ثم افترقوا فذهب منهم من ساقها بعده الى أخيه علي ثم الى ابنه الحسن بن
 علي وآخرون يزعمون أن أباهم لم يات بأرض السراة منصرفا من الشام وأوصى الى
 محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وأوصى محمد الى ابنه ابراهيم المعروف بالانام وأوصى
 ابراهيم الى أخيه عبد الله ابن الحارثية الملقب بالسفاح وأوصى هو الى أخيه عبد الله

أبي جعفر الملقب بالمنصور وانتقلت في ولده بالنص والعهد واحد بعد واحد إلى
آخرهم وهذا مذهب الهاشمية الثمانين بدولة بني العباس وكان منهم أبو مسلم وسليمان
ابن كثير وأبو سلمة الخلال وغيرهم من شيعة العباسية ورجم بعضهم وذلك بأن حقهم
في هذا الأمر يصل إليهم من العباس لأنه كان حيا وقت الوفاة وهو أولى بالوراثة بعصية
العمومة وأما الزيدية فساقوا الإمامة على مذاهبهم فيها وأنهم باختيار أهل الحل
والعقد لابانص فقالوا بإمامة علي ثم ابنه الحسين ثم أخيه الحسين ثم ابنه علي زين
العابد بن ثم ابنه زيد بن علي وهو صاحب هذا المذهب وخرج بالكوفة داعيا إلى
الإمامة فقتل وصلب بالكناسة وقال الزيدية بإمامة ابنه يحيى من بعده فغضب إلى
خراسان وقتل بالجوزجان بعد أن أوصى إلى محمد بن عبد الله بن حسن بن الحسن
السيط ويقال له النفس الزكية فخرج بالجواز وتلقب بالهدى وجاءته عساكر المنصور
فقتل وعهد إلى أخيه إبراهيم فقام بالبصرة ومعه عيسى بن زيد بن علي فوجه إليهم
المنصور عساكره فهزم وقتل إبراهيم وعيسى وكان جعفر الصادق أخبرهم بذلك كله
وهي معدودة في كراماته وذهب آخرون منهم إلى أن الإمام بعد محمد بن عبد الله النضر
الزكية هو محمد بن القاسم بن علي بن عمرو وهو أخو زيد بن علي فخرج محمد بن القاسم
بالبطالقان فتمبض عليه وسبق إلى المعتصم فحبسه ومات في حبسه وقال آخرون من
الزيدية أن الإمام بعد يحيى بن زيد هو أخوه عيسى الذي حضر مع إبراهيم بن عبد الله
في قتاله مع المنصور ونقلوا الإمامة في عقبه واليه انتسب يحيى الزنج كما نذكره في
أخبارهم وقال آخرون من الزيدية أن الإمام بعد محمد بن عبد الله أخوه ادريس
الذي فر إلى المغرب ومات هناك وقام بأمره ابنه ادريس واختط مدينة فاس وكان من
بعده عقبه ملوك بالمغرب إلى أن انقرضوا كما نذكره في أخبارهم وبقى أمر الزيدية بعد
ذلك غير منتظم وكان منهم الداعي الذي ملك طبرستان وهو الحسين بن زيد بن محمد بن
إسماعيل بن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين السبط وأخوه محمد بن زيد ثم قام بهذه الدعوة
في الديلم الناصر الأطروش منهم وأسلموا على يده وهو الحسن بن علي بن الحسن بن علي بن
عمر وعمر أخو زيد بن علي فكانت لبنيه بطبرستان دولة وتوسل الديلم من نسبهم إلى الملك
والاستبداد على الخلفاء ببغداد كما نذكر في أخبارهم وأما الامامية فساقوا الإمامة
من علي الرضا إلى ابنه الحسن بالوصية ثم إلى أخيه الحسين ثم إلى ابنه علي زين العابدين
إلى ابنه محمد الباقر ثم إلى ابنه جعفر الصادق ومن هنا افرقتين فرقة ساقوها إلى
ولده اسمعيل ويعرفونه بينهم بالامام وهم الاسماعيلية وفرقة ساقوها إلى ابنه موسى
الكاظم وهم الاثناعشرية لوقوفهم عند الثاني عشر من الأئمة وقواهم بغيبته إلى آخر

الزمان كما مرنا أما الاسماعيلية فقالوا يا امامة اسمي ل الامام بالنص من أبيه جعفر
وفائدة النص عليه عندهم وان كان قد مات قبل أبيه انما هو بقاء الامامة في عقبه
كقصة هرون مع موسى صلوات الله عليهم ما قالوا ثم انتقلت الامامة من اسمعيل الى
ابنه محمد المكتوم وهو أول الأئمة المستورين لان الامام عندهم قد لا يكرن له شوكة
فيستتر وتكون دعائه ظاهرين اقامة للعبادة على الخلق واذا كانت له شوكة ظهر وأظهر
دعوته قالوا وبعد محمد المكتوم ابنه جعفر الصادق وبعده ابنه محمد الحبيب وهو آخر
المستورين وبعده ابنه عبد الله المهدي الذي أظهر دعوته أبو عبد الله الشيعي في
كافة وتتابع الناس على دعوته ثم أخرجه من معتقل بسجامة وملك القبروان
والعرب وملك بنوه من بعده مصر كما هو معروف في أخبارهم ويسمى هؤلاء الاسماعيلية
نسبة الى القول بامامة اسمعيل ويسمون أيضا بالباطنية نسبة الى قولهم بالامام الباطن
أي المستور ويسمون أيضا الملمدة لما في ضمن مقالاتهم من الالحاد ولهم مقالات قديمة
ومقالات جديدة دعا اليها الحسن بن محمد الصباح في آخر المائة الخامسة وملك حصونا
الشام والعراق ولم تزل دعوته فيها الى أن توزعها الهلال بين ملوك الترك بمصر ولول
الترك بالعراق فانقرضت ومقالة هذا الصباح في دعوته مذكورة في كتاب الملل والنحل
لشهرستاني * وأما الاثنا عشرية فربما خصوا باسم الامامية عند المتأخرين منهم
فقالوا بامامة موسى الكاظم ابن جعفر الصادق لوفاء أخيه الاكبر اسمعيل الامام في
حياة أبيهما جعفر فنص على امامة موسى هذا ثم ابنه علي الرضا الذي عهد اليه المأمون
ومات قبله فلم يتم له أمر ثم ابنه محمد التقي ثم ابنه علي الهادي ثم ابنه محمد الحسن
لعسكري ثم ابنه محمد المهدي المنتظر الذي قدمناه قبل وفي كل واحدة من هذه
لمقالات الشبهة اختلاف كثير الا أن هذه أشهر مذاهبهم ومن أراد استيعابها
رمطالعتها فعليه بكتاب الملل والنحل لابن حزم والشهرستاني وغيرهما ففيها بيان ذلك
والله يضل من يشاء ويهدي من يشاء الى صراط مستقيم وهو العلي الكبير

٢٨ (فصل في انقلاب الخلافة الى الملك)

اعلم أن الملك غاية طبيعة للعصية ليس وقوه عنها باختيار انما هو بضرورة الوجود
وترتيبه كما قلنا من قبل وأن الذرائع والديانات وكل أمر يحمل عليه الجهل ورفلا بد
فيه من العصية اذ المطالبة لا تتم الا بها كما قدمنا فالعصية ضرورة للملة وبوجودها
يتم أمر الله منها وفي العج ما بعث الله نبيا الا في منعة من قوه ثم وجدنا الشارع
قد ذم العصية ونادى الى اطراحها وتركها فقتال ان الله أذهب عنكم عبية الجاهلية

ونفرها بالآباء أنتم بنو آدم وآدم من زاب وقال تعالى إن أكرمكم عند الله أتقاكم
ووجدناه أيضا قد ذم الملك وأهله ونهى على أهله أحوالهم من الاستمتاع بالخلاق
والاسراف في غير القصد والتسكع عن صراط الله وانما حض على الالفة في الدين
وحذر من الخلاف والفرقة * واعلم أن الدنيا كلها وأحوالها عند الشارع مطية
للاخرة ومن فقد المطية فقد الوصول وليس مراده فيما ينهى عنه أو يذمه من أفعال
البشر أو يندب إلى تركه أهمله بالكليّة أو اقتلعه من أصله وتعايل القوى التي ينشأ
عليها بالكليّة انما قصده تصريفها في أغراض الحق جهدا الاستطاعة حتى تصير
المقاصد كلها حقا وتحدد الوجهة كما قال صلى الله عليه وسلم من كانت هجرته إلى الله
ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها
فهجرته إلى ما هجر إليه فلم يذم الغضب وهو يقصد نزعه من الانسان فإنه لو زالت
منه قوة الغضب لفقد منه الاتصاف للعق وبطل الجهاد واعلاء كلمة الله وانما يذم الغضب
للسيطان وللأغراض الذميمة فإذا كان الغضب لذلك كان مذموما وإذا كان
الغضب في الله والله كان محمودا وهو من شمائله صلى الله عليه وسلم وكذا ذم الشهوات
أيضاً ليس المراد ابطالها بالكليّة فإن من بطلت شهوته كان نقصا في حقه وانما المراد
تصريفها فيما أبيع له باشتماله على المصالح ليكون الانسان عبدا متصرفا طوعا أو امر
الالهية وكذا العصبية حيث ذمها الشارع وقال لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم فانما
مراده حيث تكون العصبية على الباطل وأحواله كما كانت في الجاهلية وأن يكون
لا حدنفرها أو حق على أحد لان ذلك مجاز من أفعال العقلاء وغير نافع في الآخرة
التي هي دار القرار فاما إذا كانت العصبية في الحق واقامة أمر الله فأمر مطلوب ولو
بطل لبطلت الشرائع اذ لا يتم قوامها الا بالعصبية كما قلناه من قبل وكذا الملك لما
ذمه الشارع لم يذم منه الغلب بالحق وقهر الكافة على الدين ومراعاة المصالح وانما ذمه
لمغيبه من التغلب بالباطل وتصريف الآدميين طوعا أو اغراض والشهوات كما قلناه
فلو كان الملك مخلصا في غلبه للناس أنه لله وللهم على عبادة الله وجهاد عدوه لم يكن
ذلك مذموما وقد قال سليمان صلوات الله عليه رب هب لي ملكا لا ينبغي لاحد من بعدي
لما علم من نفسه أنه يعزل عن الباطل في النبوة والملك * ولما تلقى معاوية بن عمرو بن
الخطاب رضي الله عنهما عند قدومه إلى الشام في أبيه الملك وزيه من العديب والعدّة
استنكر ذلك وقال اكسروية يا معاوية فقال يا أمير المؤمنين انما في ثغرتي جاه العدو وبنا
إلى مباحاتهم بزينة الحرب والجهاد حاجة فسكت ولم يخطئه لما احتج عليه بقصد من
مقاصد الحق والدين ولو كان القصد رفض الملك من أصله لم يقنعه هذا الجواب في تلك

الكسروية واتعمالها بل كان يحترض على خروجه عنها بالجملة وانما اراد عمر
بالكسروية ما كان عليه أهل فارس في ملكهم من ارتكاب الباطل والظلم والبغي
وسلوك سبله والفضله عن الله واجابه معاوية بأن القصد بذلك ليس كسروية فارس
وباظلمهم وانما قصد بها وجه الله فكنت وهكذا كان شأن العصاة في رفض الملك
وأحواله ونسيان عوائده حذرا من التباسه بالباطل فلما استخضر رسول الله صلى الله
عليه وسلم استخلف أبا بكر على الصلاة اذ هي أهم أمور الدين وارتضاء الناس للخلافة
وهي حل الكافة على أحكام الشريعة ولم يجز للملك ذلك كما أنه مظنة للباطل
وفعله يومئذ لاهل الكفر وأعداء الدين فقام بذلك أبو بكر ما شاء الله متبعاً سنن صاحبه
وقاتل أهل الردة حتى اجتمع العرب على الاسلام ثم عهد الى عمر فاقتنى أثره وقاتل الامم
فغلبهم وأذن للعرب في انتزاع ما بأيديهم من الدنيا والملك فغلبوهم عليه وانتزعوه منهم
ثم صارت الى عثمان بن عفان ثم الى علي رضي الله عنهما والكل متبرؤن من الملك
منكبون عن طريقه وكذلك لديهم ما كانوا عليه من غضاضة الاسلام وبدعوة
العرب فقد كانوا أبعد الامم عن أحوال الدنيا وترفعها لامن حيث دينهم الذي يدعوهم
الى الزهد في النعيم ولا من حيث بدواتهم ومواطنهم وما كانوا عليه من خشونة العيش
يشغفه الذي ألفوه فلم تكن أمة من الامم أسغب عيشاً من مضر لما كانوا بالجواز في
ارض غير ذات زرع ولا ضرع وكانوا ممنوعين من الارياق وجيوبها بالبعدها
واختصاصها بمن وليها من ربيعة واليمن فلم يكونوا يتناولون الى خصبها ولقد كانوا
كثيراً ما يأكلون العقارب والخناس ويفخرون بأكل العلهز وهو وبر الابل يمهونه
بالجارية في الدم ويطبخونه وقر يبا من هذا كانت حال قريش في مطاعهم ومساكنهم
حتى اذا اجتمعت عصبية العرب على الدين بما أكرمهم الله من نبوة محمد صلى الله عليه
وسلم زحفوا الى أم فارس والروم وطلبوا ما كتب الله لهم من الارض بوعد الصديق
فابتزوا ملكهم واستباحوا دنياهم فزخرت بحمار الرقة لديهم حتى سكنان القاروس
الواحد يقسم له في بعض الغزوات ثلاثون ألفاً من الذهب وأنحوها فاستولوا من ذلك
على ما لا يأخذه الحصر وهم مع ذلك على خشونة عيشهم فكان عمر يرفع ثوبه بالجلد
وهو كان على يقول يا صفراء ويا بيضاء غزى غزى وكان أبو موسى يتجافى عن أكل
الدجاج لانه لم يعهد لها للعرب لقلتها ومثذوبات المناخل منقودة عندهم بالجملة وانما
كانوا يأكلون الخنطة بنخالها ومكاسيهم مع هذا أتم ما كانت لاحد من أهل العالم قال
المسعودي في أيام عثمان اقتنى العصاة الضياع والمال فكان له يوم قتل عند خازنه
خسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقية ضياعه بوادي القرى وحنيز

وغيرهما مائة ألف دينار وخلف ابلا وخيلا كثيرة وبلغ الثمن الواحد من متروكة الزبير
 بعد وفاته خمسين ألف دينار وخلف ألف فرس وألف أمة وكانت غله طلحة
 من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك وكان علي مرتبط
 عبد الرحمن بن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم وبلغ الربع من
 متروكة بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا وخلف زيد بن ثابت من الفضة والذهب ما كان
 يكسر بالفوس غير ما خلف من الاموال والضياع بمائة ألف دينار وبني الزبير داره
 بالبصرة وكذلك بني بمصر والكوفة والاسكندرية وكذلك بني طلحة داره بالكوفة وشيد
 داره بالمدينة وبنهاها بالحصن والاجر والساج وبني سعد بن أبي وقاص داره بالعقيق
 ورفع سمكها وأوسع قضاها وجعل على أعلاها شرافات وبني المقداد داره بالمدينة
 وجعلها محصنة الظاهر والباطن وخلف يعلى بن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير
 ذلك ما قيمته ثلثمائة ألف درهم اه كلام المسعودي فكانت مكاسب القوم كما تراه ولم
 يكن ذلك منعيا عليهم في دينهم اذ هي أموال حلال لانها غنائم وفيه ولم يكن تصرفهم
 فيها اسراف انما كانوا على قصد في أحوالهم كما قلنا فلم يكن ذلك بقادح فيهم وان
 كان الاستكثار من الدنيا مذموما فانما يرجع الى ما أشرنا اليه من الاسراف والخروج
 به عن القصد واذا كان حالهم قصدا ووفقاتهم في سبل الحق ومذاهبه كان ذلك
 الاستكثار عونا لهم على طرق الحق واكتساب الدار الآخرة فلما تدرجت البداوة
 والغضاضة الى نهايتها وجاءت طبيعة الملك التي هي مقتضى العصبية كما قلنا وحصل
 التغلب والقهر كان حكم ذلك الملك عندهم حكم ذلك الرنه والاستكثار من الاموال
 فلم يصرفوا ذلك التغلب في باطل ولا خرجوا به عن مقاصد الديانة ومذاهب الحق
 ولما وقعت الفتنة بين علي ومعاوية وهي مقتضى العصبية كان طريقهم فيها الحق
 والاجتهاد ولم يكونوا في محاربتهم لغرض ديني أو لا يثار باطل أو لا تشعار حقد كما قد
 يتوهه متوهم ينزع اليه ملحد وانما اختلف اجتهادهم في الحق وسفه كل واحد
 نظر صاحبه باجتهاده في الحق فاقتتلوا عليه وان كان المصيب عليا فلم يكن معاوية قائم
 فيها بقصد الباطل انما قصد الحق وأخطأ الكل كانوا في مقاصدهم على حق ثم اقتضت
 طبيعة الملك الانفراد بالمجد واستئثار الواحد به ولم يكن لمعاوية أن يدفع ذلك عن نفسه
 وقومه فهو أمر طبيعي ساقته العصبية بطبيعتها واستشعرته بنو أمية ومن لم يكن على
 طريقه معاوية في اقتفاء الحق من أتباعهم فاعصوا وصواعبه واستماتوا وادونه ولو
 حلهم معاوية على غير تلك الطريقة وخالفهم في الانفراد بالامر لوقع في افتراق الكلمة
 التي كان جمعها وتأليفها أهم عليه من أمر ليس وراه كبير مخالفة وقد كان عمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه يقول اذا رأى القاسم بن محمد بن أبي بكر لو كان لي من الامر شيء
 لوليت الخليفة ولو اراد أن يعهد اليه لفعل ولكنه كان يخشى من بني أمية أهل الحل
 والعقد لما ذكرناه فلا يقدر أن يحول الامر عنهم لئلا تقع الفرقة وهذا كله انما حل عليه
 منازع الملك التي هي مقتضى العصية فالملك اذا حصل وفرضنا أن الواحد انفرده به
 وصرفه في مذهب الحق ووجوهه لم يكن في ذلك تكبير عليه ولقد انفرده سليمان وأبوه
 داود صلوات الله عليهما بملك بني اسرائيل لما اقتضته طبيعة الملك فيهم من الانفراد به
 وكانوا ما علمت من النبوة والحق وكذلك عهد معاوية الى يزيد خوفا من افتراق الكلمة
 بما كانت بنو أمية لم يرضوا تسليم الامر الى من سواهم فلو قد عهد الى غيره اختلفوا
 عليه مع أن ظنهم كان به صالحا ولا يرتاب أخذ في ذلك ولا يظن بمعاوية غيره فلم يكن
 ليعهد اليه وهو يعتقد ما كان عليه من الفسق حاشا لله لمعاوية من ذلك وكذلك كان
 مروان بن الحكم وابنه وان كانوا لو كانوا لم يكن مذهبهم في الملك مذهب أهل البطالة
 والبغي انما كانوا متحريين لمقاصد الحق جهدهم الا في ضرورة تحملهم على بعضها مثل
 خشية افتراق الكلمة الذي هو أهم لديهم من كل مقصد يشهد لذلك ما كانوا عليه من
 الاتباع والاعتداء وما علم السلف من أحوالهم فقد احتج مالك في الموطأ بعمل عبد الملك
 وأما مروان فكان من الطبقة الاولى من التابعين وعد التهم معروفه ثم تدرج الامر
 في ولد عبد الملك وكانوا من الدين بالمكان الذي كانوا عليه وتوسطهم عمر بن عبد العزيز
 فنزع الى طريقة الخلفاء الاربعة والحماة جهده ولم يمس لهم ثم جاء خلفهم واستعملوا
 طبيعة الملك في أغراضهم الدنيوية ومقاصدهم ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحري
 القصد فيها واعتماد الحق في مذهبها فكان ذلك مما دعا الناس الى أن نعو عليهم
 افعالهم وأدوا بالدعوة العباسية منهم وولى رجالها الامر فكانوا من العدالة بمكان
 وصرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا حتى جاء بنو الرشيد من بعده فكان
 منهم الصالح والطالح ثم افضى الامر الى بنيهم فأعطوا الملك والترفع حقه وانغمسوا
 في الدنيا وباطلها ونسب ذوالدين وراءهم ظهريا فأتى الله بحربهم وانزع الامر من
 أيدي العرب بجله وأمكن سواهم منه والله لا يظلم مثقال ذرة ومن تأمل سير هؤلاء
 الخلفاء والملوك واختلافهم في تحري الحق من الباطل علم صحة ما قلناه وقد حكى
 المسعودي مثله في أحوال بني أمية عن أبي جعفر المنصور وقد حضر عومته وذكروا
 بني أمية فقال أما عبد الملك فكان جبارا لا يبالي بما صنع وأما سليمان فكان همه بطنه
 وفرجه وأما عمر فكان أعور بين عيمان وكان رجل القوم هشام قال ولم يزل بنو أمية
 ضابطين لمأمرهم من السلطان يحوطونه ويصونون ما وهب الله لهم منه مع تسبهم

معالي الامور ورفضهم دنياها حتى انضى الامر الى ابنائهم المترفين فكانت همستهم
فقد الشهوات وركوب اللذات من معاصي الله جهلا باس تدراجه وامنالمكره مع
اطراحهم صيانة الخلافة واستخفافهم بحق الرياسة وضعفهم عن السياسة فسلبهم
الله العز والبهمة الذل ونفى عنهم النعمة ثم استخضر عبد الله بن مروان فقص عليه
خبره مع ملك التوبة لما دخل أرضه فارتأى السفاح قال أقت ملديا ثم أناني ملككم
فقعدي على الارض وقد بسطت له فرش ذات قيمة فقات له ما منعك من القعود على
ثيابنا فقال اني ملك وحق لكل ملك ان يتواضع لعظمة الله اذ رفعه الله ثم قال لم
تسربون الخروهي محزومة عليكم في كتابكم فقلت اجترأ على ذلك عبيدنا واتباعنا قال
فلم تطون الررع بدوابكم والفساد محترم عليكم قلت فعل ذلك عبيدنا واتباعنا بجهلهم
قال فلم تلبسون الديباج والذهب والحريرو وهو محترم عليكم في كتابكم قات ذهب منا
الملك واتضرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكرم منا فاطرق ينكت
بيده في الارض ويقول عبيدنا واتباعنا واما جهم دخلوا في ديننا ثم رفع رأسه الى وقال
ليس كما ذكرت بل انتم قوم استحلتم ما حرم الله عليكم وانتم ما عنه نهيتهم وظلمتم
فيما ملكتم فسلبكم الله العز واليبسكم الذل بذنوبكم والله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وانا
خائف ان يهل بكم العذاب وانتم يلبدي فينا لاني معكم وانما الضيافة ثلاث فتزودا
ما احتجت اليه وارتمل عن أرضي فتعجب المنصور واطرق فقد تبين لك كيف انقلبت
الخلافة الى الملك وان الامر كان في اوله خلافة ووازع كل احد فيها من نفسه وهو
الدين وكانوا يؤثرونه على امور دنياهم وان افضت الى هلاكهم وحدثهم دون الكافة
فهذا هتمان لما حصر في الدار جاء الحسن والحسين وعبد الله بن عمرو ابن جعفر
وامثالهم يريدون المدافعة عنه فأبى ومنع من سل السيوف بين المسلمين مخافة الفرقة
وحفظ الالفة التي بها حفظ الكلمة ولو ادى الى هلاكه وهذا على اشار عليه المغيرة
لاول ولايته باستبقاء الزبير ومعاوية وطلحة على أعمالهم حتى يجتمع الناس على بيعته
وتتفق الكلمة ولهبعد ذلك ما شاء من أمره وكان ذلك من سياسة الملك فأبى فرار من
الفس الذي ينافيه الاسلام وغدا عليه المغيرة من الغداة فقال لقد أشرت عليك بالامس
بما أشرت ثم عدت الى نظري فعملت أنه ليس من الحق والنصيحة وان الحق فيما رأيت
أنت فقال على لا والله بل أعلم أنك نعصتني بالامس وغششتني اليوم واسكنه نعي مما
أشرت به ذائد الحق وهكذا كانت احوالهم في اصلاح دينهم بفساد دنياهم ونحن
نرفع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا بقي ولا ما نرفع
فقد رأيت كيف صار الامر الى الملك وبقيت معاني الخلافة من تحري الدين

ومذاهبه والجرى على منهاج الحق ولم يظهر التغير الا في الوازع الذي كان ديناً ثم انقلب
عصية وسيفاً وهذا كان الامر لعهد معاوية ومروان وابنه عبد الملك والصدر
الاول من خلفاء بني العباس الى الرشيد وبعض ولده ثم ذهبت معاني الخلافة ولم يبق
الا اسمها وصار الامر ملكاً بجنتنا وجرت طبيعة التغلب الى غايتها واستعملت في
اغراضها من التهور والتقلب في الشهوات والملاذوذ وهذا كان الامر لولد عبد
الملك وان جاء بعد الرشيد من بني العباس واسم الخلافة باقياً فيهم ابقاء عصية العرب
والخلافة والملك في الطورين ملتبس بعضهما ببعض ثم ذهب رسم الخلافة وأثرها
بذهاب عصية العرب وفناء جيلهم وتلاشي أحوالهم وبقى الامر ملكاً بجنتنا كما كان
الثان في ملوك العجم بالشرق يدنون بنااعة الخليفة تبركوا الملك بجميع القاب
ومناحيه اهم وليس للغايفة منه شيء وكذلك فعل ملوك زناتة بالمغرب مثل صنهاجة مع
العبيدين ومغراوة وبني يفرن أيضاً مع خلفاء بني أمية بالاندلس والعبيدين بالقروان
فقد تين أن الخلافة قد وجدت بدون الملك أو لائم التبت. ما نبيها واختلطت ثم انقرد
الملك حيث افتردت عصيته من عصية الخلافة والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد
القهار

٢٩ (فصل في معنى البيعة)

اعلم أن البيعة هي العهد على الناعة وكان المباح يعاهد أميره على أنه يسلم له
النظر في أمر نفسه وأموار المسلمين لا يئازر في شيء من ذلك ويطيعه فيما يكلفه به من
الامر على المنشط والمكروه وكانوا اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده
تأكيداً للعهد فأشبه ذلك فعل البائع والمشتري فسمى بيعة مصدر باع وصارت البيعة
مصاحفة بالأيدي هذا مدلولها في عرف اللغة ومعهود الشرع وهو المراد في الحديث
في بيعة النبي صلى الله عليه وسلم ليلة العقبة وعند الشجرة رحمة ما ورد هذا اللفظ ومنه
بيعة الخلفاء ومنه أيمان البيعة كان الخلفاء يستخلفون على العهد ويستوعبون
الايمن كلها لذلك نسي هذا الاسم لعاب أيمان البيعة وكان الأكرام فيها أكثر وأغلب
ولهذا المأفتى مالك رضي الله عنه بسقوط بين الأكرام أنكرها الوالاتعابه ورأوها
فادحة في أيمان البيعة ووقع ما وقع من محنة الامام رضي الله عنه وأما البيعة
المشهوره لهذا العهد فهي تحية الملوك كما مروية من قبيل الارض أو اليد
أو الرجل أو الذيل أطلق عليهم اسم البيعة التي هي العهد على الطاعة مجازاً كما كان
هذا المنزوع في التحية وانتم الاما آداب من لوازم الطاعة وتوابعها وغلب فيه حتى

صارت حقيقة عرفية واستغنى بها عن مصالحة أيدي الناس التي هي الحقيقة في الأصل لما في المصالحة لكل أحد من التنزل والابتدال المناسمين للرياسة وصون المنصب الملوكي - الأفي الأقل عن يقصد التواضع من الملوكة فأخذ به نفسه مع خواصه ومناهير أهل الدين من رعيته فأفهم معنى البيعة في العرف فنه أكد على الإنسان معرفته لما يلزمه من حق سلطانه وامامه ولا تكون أفعاله عبثا ومجانا واعتبر ذلك من أفعالك مع الملوكة والله القوى العزيز

٣٠ (فصل في ولاية العهد)

اعلم اننا قدمنا الكلام في الامامة ومشروعيتها المانها من المصلحة وأن حقيقتها النظر في مصالح الأمة لدينهم وديناهم فهو وليهم والأمين عليهم ينظر لهم - ذلك في حياته وتبع ذلك أن ينظر لهم بعد مماته ويقسم لهم من يتولى أمورهم كما كان هو يتولى ولا هاوي يتقون بنظره لهم في ذلك كما وثقوا به فيما قبل وقد عرف ذلك من الشرع باجماع الأمة على جوازها وانعقادها اذ وقع بعهد أبي بكر رضي الله عنه لعمر بن الخطاب من الصحابة وأجازوه وأوجبوا على أنفسهم بطاعة عمر رضي الله عنه وعنهم وكذلك عهد عمر في الشورى الى السبعة بقية العشرة وجعل لهم أن يختاروا للمسلمين فقوس بعضهم الى بعض حتى أفضى ذلك الى عبد الرحمن بن عوف فاجتهد وناظر المسلمين فوجدهم متفقين على عثمان وعلى علي فآثر عثمان بالبيعة على ذلك لموافقته اياه على لزوم الاقتداء بالشخصين في كل ما يعين دون اجتهاده فانهقد أمر عثمان لذلك وأوجبوا طاعته والملا من الصحابة حاضرول للاولى والثانية ولم ينكره أحد منهم يدل على أنهم متفقون على صحة هذا العهد عارفون بمشروعيته والاجماع حجة كما عرف ولا يتهم الامام في هذا الامر وان عهد الى ابيه أو ابنه لانه مأمون على النظر لهم في حياته فأولى أن لا يحتمل فيها تبعه بعد مماته خلافا لمن قال باتهامه في الولد والوالد أولن خصص التهمة بالولد دون الوالد فانه بعيد عن الظنة في ذلك كله لاسيما اذا كانت هناك داعية تدعو اليه من اثار مصلحة أو توقع مفسدة فتنتي الظنة عند ذلك رأسا كما وقع في عهد معاوية لابنه يزيد وان كان فعل معاوية مع وفاق الناس له حجة في الباب والذي دعاه معاوية لا يشار ابنه يزيد بالعهد دون من سواه انما هو مراعاة المصلحة في اجتماع الناس واتفاق أهوائهم باتفاق أهل الحل والعقد عليه حينئذ من بني امية اذ بنوا امية يومئذ لا يرضون سواهم وهم عصابه قريش وأهل مكة أجمع وأهل الغاب منهم فآثر بذلك دون غيره ممن يظن أنه أولى بها عدل عن الفاضل الى المفضول حرصا على الاتفاق واجتماع الأهواء الذي شأنه أهم

عند الشارع وان كان لا يظن بمعاوية غير هذا العهد وصحبه مائة من سوري
 ذلك وحضوراً كبار الصحابة لذلك وسكوتهم عنه دليل على انتفاء الريب فيه فليسوا
 ممن يأخذهم في الحق هوادة وليس معاوية ممن تأخذ العزة في قبول الحق فانهم كلهم
 أجل من ذلك وعدا لهم مائة منه وفرار عبد الله بن عمر من ذلك انما هو محمول على
 تورعه من الدخول في شيء من الامور مباحا كان أو محظورا كما هو معروف عنه ولم
 يبق في المخالفة لهذا العهد الذي اتفق عليه الجمهور الا ابن الزبير وندور المخالف
 معروف ثم انه وقع مثل ذلك من بعد معاوية من الخلفاء الذين كانوا يهتروا الحق
 ويعملون به مثل عبد الملك وسليمان من بني أمية والسفاح والمنصور والمهدي والرشد
 من بني العباس وأمثالهم ممن عرفت عدالتهم وحسن رأيهم للمسلمين والنظر لهم ولا
 يعاب عليهم ايشاراً بناتهم واخوانهم وخروجهم عن سنن الخلفاء الاربعة في ذلك
 فشانهم غير شأن اولئك الخلفاء فانهم كانوا على حين لم تحدث طبيعة الملك وكان الوازع
 دينيا فعند كل أحد زارع من نفسه فعهدوا الى من يرتضيه الدين فقط وآثروه على
 غيره ووكوا كل من يسعوا الى ذوق الى وازعه وأما من بعدهم من لدن معاوية فكانت
 العصبية قد أشرفت على غايتها من الملك والوازع الديني قد ضعف واحتج الى الوازع
 السلطاني والعصبي فلو عهدوا الى غير من يرتضيه الاصبقردت ذلك العهد وانقض
 أمره سريرا وصارت الجماعة الى الفرقة والاختلاف ما آل رجل علبارنى الله عنه
 ما بال المسلمين اختلفوا عليك ولم يختلفوا على أبي بكر وعمر فقال لان أبا بكر وعمر
 كانوا والييز على مثلى وأما اليوم والى على مثلك يشير الى وازع الدين أفلا ترى الى المأمون
 لما عهد الى على بن موسى بن جعفر الصادق وسماه الرضا كيف أنكرت العباسية ذلك
 ونقضوا بيعته وبارعوا العمه ابراهيم بن المهدي وظهر من الهرج والخلاف وانقطاع
 السبل وتعدد الثوار والحوارج ما كاد أن يصطلم الامر حتى يادر المأمون من
 خراسان الى بغداد وورد أمرهم لمعاهده فلا بد من اعتبار ذلك في العهد فالعصور تختلف
 باختلاف ما يحدث فيها من الامور والقبائل والعصبيات وتختلف باختلاف المصالح
 ولكل واحد منها حكم يخصه لظمان الله بعباده وأما أن يكون القصد بالعهد حفظ
 التراث على الابناء فليس من المقاصد الدينية اذ هو أمر من الله يخص به من يشاء من
 عباده ينبغي أن تحسن فيه النية ما أمكن خوفا من العيب بالمناسب الدينية والملك لله
 بوثيه من يشاء * وعرض هنا أمور تدعو الضرورة الى بيان الحق فيها * فالاول
 منها ما حدث في يزيد من الفسق أيام خلافته فاياك أن تطن بمعاوية رضى الله عنه
 أنه علم ذلك من يزيد فانه أعدل من ذلك وأفضل بل كان يعدله أيام حياته في سماع

الغناء وينها عنه وهو أقل من ذلك وكانت مذاهيم فيه مختلفة ولما حدث في يزيد
ما حدث من الفسق اختلف الصحابة حينئذ في شأنه فمنهم من رأى الخروج عليه ونقض
بِعنه من أجل ذلك كما فعل الحسين وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ومن اتبعهما في
ذلك ومنهم من أباه لمخافه من اثمارة الفتنة وكثرة القتل مع الهجز عن الوفاء به لأن شوكة
يزيد يومئذ هي عصاية بني أمية وجهور أهل الحل والعقد من قريش وتستبع عصية
مضراً جمع وهي أعظم من كل شوكة ولا نطاق مقاومتهم فأقصروا عن يزيد بسبب ذلك
وأقاموا على الدعاء بهدايته والراحة منه وهذا كان شأن جهو المسلمين والكل مجتهدون
ولا ينكر على أحد من الفريقين فقاصد هم في البر وتجرى الحق معروفة وفقنا الله
للاقتداء بهم * والامر الثاني هو شأن العهد من النبي صلى الله عليه وسلم وما تدعيه
الشيعة من وصيته له صلى الله عليه وسلم وهو أمر لم يصح ولا نقله أحد من أئمة النقل
والذي وقع في الصحيح من طلب الدواة والقرطاس لكتب الوصية وأن عمر متع من ذلك
فدليل واضح على أنه لم يقع وكذا قول عمر رضي الله عنه حين طمن وسئل في العهد فقال
ان العهد قد عهد من هو خير مني يعني أبابكر وان أتلفه فقد ترك من هو خير مني يعني
النبي صلى الله عليه وسلم لم يعهد وكذلك قول علي للعباس رضي الله عنهما حين دعاه
للدخول الى النبي صلى الله عليه وسلم لأنه عن شأنهما في العهد فأبى علي من ذلك
وقال انه ان منعتنا من ان نطعم فيها آخر الدهر وهذا دليل على أن علماء لم يوص
والعهد الى أحد وشبهة الامامية في ذلك انما هي كون الامامة من أركان الدين كما
يزعمون وليس كذلك وانما هي من المصالح العامة المفوضة الى نظر الخلق ولو كانت من
أركان الدين لكان شأنها شأن الصلاة ولكان يستخلف فيها كما استخلف أبابكر في الصلاة
ولكان يشتر كما اشتر أمر الصلاة واحتجاج الصحابة على خلافة أبي بكر بقياسها على
الصلاة في قواهم ارتضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم لدينا فلان رضاه لدينا دليل
على أن الوصية لم تقع ويدل ذلك أيضاً على أن أمر الامامة والعهد بهما لم يكن مهما كما
هو اليوم وشأن العصية المراجعة في الاجتماع والافتراق في مجاري العادة لم يكن يومئذ
بذلك الاعتراف لان أمر الدين والاسلام كان كله بخوارق العادة من تأليف القلوب
عليه واستماتة الناس دونه وذلك من أجل الأحوال التي كانوا يشاهدونها في حضور
الملائكة لتصرهم وتردد خبر السماء بينهم وتجدد خطاب الله في كل حادثة تتلى عليهم فلم
يحتاج الى مراعاة العصية لما تحمل الناس من صبغة الانقياد والاذعان وما يستقرهم
من تتابع المجهزات الخارقة والأحوال الالهية لواقعة والملائكة المترددة التي وجوا
منها ودهشوا من تتابعها فكان أمر الخلافة والملك والعهد والعصية وسائر هذه

الانواع مندرجا في ذلك القبيل كما وقع فلما انحصر ذلك المدد بذهاب تلك المجهزات
 ثم يخناه القرون الذين شاهدوها فاستصالت تلك الصبغة قليلا قليلا وذهبت الخوارق
 وصار الحكم للعامة كما كان فاعتبر أمر العصية ومجاري العوائد فيما ينشأ عنهما من
 المصالح والمقاسد وأصبح الملك والخلافة والعهد بينهما من المهمات الا كبدت كما
 زعموا ولم يكن ذلك من قبل فانظر كيف كانت الخلافة لعهد النبي صلى الله عليه وسلم
 غير مهمة فلم يعمد فيها ثم تدرجت الاهمية زمان الخلافة به من الشيء بما دعت
 الضرورة اليه في الحماية والجهاد وشأن الردة والفتوحات فكانوا بالخيار في العمل
 والترك كما ذكرنا عن عمر رضي الله عنه ثم صارت اليوم من أهم الامور لالفة على الحماية
 والقيام بالمصالح فاعتبرت فيها العصية التي هي سر الوازع عن القرعة والتضائل ومنشأ
 الاجتماع والتوافق الكفيل بمقاصد الشريعة وأحكامها والامر الثالث شأن
 الحروب الواقعة في الاسلام بين العصابة والتابعين فاعلم أن اختلافهم انما يقع في
 الامور الدينية وينشأ عن الاجتهاد في الادلة العصرية والمدارك المعسرة والمجتهدون
 اذا اختلفوا فان قلنا ان الحق في المسائل الاجتهادية واحد من الطرفين ومن لم
 يصادفه فهو مخطئ فان جهته لا تعين باجماع فيبقى العكس على احتمال الاصابة
 ولا تعين المخطئ منها والتأنيم مدفوع عن الكل اجماعا وان قلنا ان الكل حق وان كل
 مجتهد مصيب فاحرى بنى الخطا والتأنيم ونجاة الخلاف الذي بين العصابة والتابعين
 انه خلاف اجتهادي في مسائل دينية ظنية وهذا حكمه والذي وقع من ذلك في
 الاسلام انما هو واقعة على مع معاوية ومع الزبير وعائشة وطلحة وواقعة الحسين مع
 يزيد وواقعة ابن الزبير مع عبد الملك فأما واقعة علي فان الناس كانوا عند مقتل عثمان
 مفترقين في الامصار فلم يشهدوا بيعة علي والذين شهدوا فقتلهم من بايع ومنهم من وقف
 حتى يجتمع الناس ويتفقوا على امام كسعد وسعيد وابن عمر وأسامة بن زيد والمغيرة بن
 شعبه وعبد الله بن سلام وقدامة بن مظعون وأبي سعيد الخدري وكعب بن عجرة
 وكعب بن مالك والنعمان بن بشير وحنان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وفضالة بن عبيد
 وأمثالهم من أكابر العصابة والذين كانوا في الامصار عدلوا عن بيعته أيضا الى الطلب
 بدم عثمان وتركو الامر فوضى حتى يكون شوري بين المسلمين لمن يولونه وظنوا بعلي
 هو اداة في السكوت عن نصر عثمان من قاتليه لاني الممالة عليه فحاش لله من ذلك
 ولقد كان معاوية اذا صرح بعلامته انما يوجهها عليه في سكوته فقط ثم اختلفوا بعد
 ذلك فرأى علي أن بيعته قد انعدت ولزمت من تأخر عنها باجماع من اجتمع عليها
 بالمدينة دار النبي صلى الله عليه وسلم وموطن العصابة وأرجأ الامر في المطالبة بدم

عثمان الى اجتماع الناس واتفاق الكلمة فيمكن حينئذ من ذلك وروى الآخرون
 أن بعثه لم تنقد لا قراق العصابة أهل الحل والعقد - دبالا فاق ولم يحضر الا قليل
 ولا تكون البيعة الا باتفاق أهل الحل والعقد ولا تلزم بعهده من تولاها من غيرهم أو من
 القليل منهم وأن المسلمين حينئذ فونى فيطالبون أو لا بد من عثمان ثم يجتمعون على امام
 وذهب الى هذا معاوية وعمرو بن العاصي وأم المؤمنين عائشة والزبير وابنه عبد الله
 وطلحة وابنه محمد وسعد وسعيد والنعمان بن بشير ومعاوية بن خديج ومن كان على
 رأيهم من العصابة الذين تخلفوا عن بيعة علي بالمدينة كما ذكرنا الا أن أهل العصر
 الثاني من بعدهم اتفقوا على انعقاد بيعة علي ولزومها لله - لمن أجمعين وتصويب رأيه
 فيما ذهب اليه وتعين الخطا من جهة معاوية ومن كان على رأيه وخصوصا طلحة
 والزبير لا تقاضهما على علي بعد البيعة فيما نقل مع دفع التائبين عن كل من الفريقين
 كالتأني في المهتدين وصاد ذلك اجماعا من أهل العصر الثاني على أحد قولي أهل
 العصر الاول كما هو معروف واقدستل علي رضي الله عنه عن قتلى الجمل وصفين فقال
 والذي نفسي بيده لا يموتن أحد من هؤلاء وقلبه نقي الا دخل الجنة يشيرا الى الفريقين
 نقله الطبري وغيره فلا يقعن عندك ريب في عدالة أحد منهم ولا قدح في شيء من ذلك
 فهم من علمت وأقوالهم وأفعالهم انما هي عن المنتديات وعد التهم مفروغ منها عند
 أهل السنة الاقوال للمعتزلة فيمن قاتل عليا لم يلتفت اليه أحد من أهل الحق ولا عزج
 عليه واذا نظرت بعين الانصاف عذرت الناس أجمعين في شأن الاختلاف في عثمان
 واختلاف العصابة من بعد وعلت أنها كانت قسنة ابلى الله بها الامة بينما المسلمون
 قد أذهب الله عدوهم وملكهم أرضهم وديارهم ونزلوا الامصار على حدودهم
 بالبصرة والكوفة والشام ومصر وكان أكثر العرب الذين نزلوا هذه الامصار جفاة لم
 يستكروا من حجة النبي صلى الله عليه وسلم ولا هذبتهم سيرته وآدابه ولا ارتاضوا
 بخلقهم مع ما كان فيهم في الجاهلية من الجفاء والعصية والتفاخر والبعد عن سكينة
 الايمان واذا بهم عند استعمال الدولة قد أصبحوا في ملكة المهاجرين والانصار من
 قريش وكثافة وثقافة هذيل وأهل الجباز ويثر بالسابقين الا وابتدأ الى الايمان
 فاستكفوا من ذلك وغصوا به لما يرون لانفسهم من التفتت بانسابهم وكثرتهم
 ومصادمة فارس والروم مثل قبائل بكر بن وائل وعبد القيس بن ربيعة وقبائل كندة
 والازد من اليمن وقيس من مضر فصاروا الى الغرض من قريش والانتفاة عليهم
 والتمريض في طاعتهم والتعلل في ذلك بالتظلم منهم والاستعداد عليهم والظعن فيهم
 بالهجز عن السرية والعدل في القسم عن السوية وفتت القالة بذلك وانتهت الى

المدينة وهم من علمت فأعظموه وأبغضوه عثمان فبعث إلى الأمصار من يكشف له خبر
 بعث ابن عمرو ومحمد بن مسلمة وأسلمة بن زيد وأمثالهم فلم ينكروا على الأمر شيئاً
 ولا رأوا عليهم طعناً وأتوا ذلك كما علموه فلم يقطع الطعن من أهل الأمصار وما زالت
 الشائعات تنمو حتى الوليد بن عتبة وهو على الكوفة يشرب الخمر وشهد عليه جماعة
 منهم وحده عثمان وعزله ثم جاء إلى المدينة من أهل الأمصار - ألون عزل العمال وشكوا
 إلى عائشة وعلي والزبير وطهمة وعزل بهم عثمان بعض العمال فلم تقطع بذلك السنتم
 بل وفد سعيد بن العاصي وهو على الكوفة فلما رجع اعترضوه بالطريق وردوه معزولاً ثم
 انتقل الخلاف بين عثمان ومن معه من الصحابة بالمدينة ونهضوا عليه امتناعاً عن العزل
 فأبى إلا أن يكون على بركة ثم نقلوا النكير إلى غير ذلك من أفعاله وهو متسك
 بالاجتهاد وهم أيضاً كذلك ثم تجتمع قوم من الفوغاء وجاءوا إلى المدينة يظهر
 طلب النصف من عثمان وهم يضمرون خلاف ذلك من قتله وفيهم من البصرة والكوفة
 ومصر وقام معهم في ذلك علي وعائشة والزبير وطهمة وغيرهم يحارلون فكين
 الأمور ورجوع عثمان إلى رأيهم وعزل لهم عامل مصر فندموا قليلاً ثم رجعوا وقد
 لبوا بكتاب مدلس يزعمون أنهم لم يلقوه في يد عامله إلى عامل مدبر بأن يتلوه
 وحلف عثمان على ذلك فقالوا مكان من مروان فإنه كاتبك خلف مروان فقال عثمان
 ليس في الحكم أكثر من هذا فحاسبوه بداهة ثم يبتوه على حين غفلة من الناس
 وقتلوه وانفتح باب الفتنة فلكل من هؤلاء عذرة فيما وقع وكلهم كانوا مهتمين بأمر الدين
 ولا يضيعون شيئاً من تعلقاته ثم نظروا بدمه هذا الواقع واجتهدوا والله مطلع على
 أحوالهم وعالم بهم ونحن لا نظن بهم إلا خير لما شهدت به أحوالهم ومقالات الصادق
 فيهم • وأما الحسين فإنه لما ظهر فارق يزيد عند الكوفة من أهل عصره بعثت شعبة
 أهل البيت بالكوفة للحسين أن يأتيهم فيقوموا بأمره فرأى الحسين أن الخروج على
 يزيد متعين من أجل فسقه لاسيما من له القدرة على ذلك وظنهم من نفسه بأهليته
 وشوكته فأما لاهلية فكانت كما ظن وزبادة وأما الشوكة فغلط برحمة الله فيها
 لأن عصية مضر كانت في قريش وعصية قريش في عبيد مناف وعصية عبد مناف إنما
 كانت في بني أمية تعرف نفثهم قريش وبائر الناس ولا ينكرونه وانما نسي ذلك أقول
 الإسلام المائل الناس من الذهول بالخوارق وأمر الوحي وتردد الملائكة لنصرة
 المهين فأغفلوا أمورهم وذهب عصية الجاهلية ومنازعتها ولم يبق إلا
 العصية الطبيعية في الحماية والدفاع ينتفع بها في إقامة الدين وجهاد المشركين والدين
 فيها محكم والمادة معزولة حتى إذا انقطع أمر النبوة والخوارق المهولة تراجع الحكم

بعض الشيء للعوائد فعادت العصابة كما كانت ولمن كانت وأصبحت مضر أطوع لبني
أمية من سوادهم بما كان لهم من ذلك قبل (فقد) تينك غلط الحسين إلا أنه في أمر
دينوي لا بصره الغلط فيه وأما الحكم الشرعي فلم يغلط فيه لأنه منوط بظنه وكان
ظنه القدرة على ذلك ولقد عدله ابن العباس وابن الزبير وابن عمر وابن الحنفية أخوه
وغیره في مسيره إلى الكوفة وعلوا غلظه في ذلك ولم يرجع عما هو بسبيله لما أراد الله
وأما غير الحسين من الصحابة الذين ~~ص~~ كانوا بالجواز ومع يزيد بالشأم والعراق ومن
التابعين لهم فرأوا أن الخروج على يزيد وإن كان فاسقا لا يجوز لما نشأ عنه من الهرج
والدما فاقصروا عن ذلك ولم يتابعوا الحسين ولا أنكروا عليه ولا أنموه لأنه مجتهد وهو
أسوة المجتهدين ولا يذهب بك الغلط أن تقول بتأثير هؤلاء بمخالفة الحسين وقعودهم
عن نصره فانهم أكره الصحابة وكانوا مع يزيد ولم يروا الخروج عليه وكان الحسين
بشهادتهم وهو يقابل بكر بلا على فضله وحقه ويقول سألوا جابر بن عبد الله
وأبا سعيد الخدري وأنس بن مالك وسهل بن سهيل وزيد بن أرقم وأمثالهم ولم ينكر
عليهم قعودهم عن نصره ولا تعرض لذلك لعلمه أنه عن اجتهاد منهم كما كان فعله عن
اجتهاد منه وكذلك لا يذهب بك الغلط أن تقول بتصويب قتله لما كان عن اجتهاد وإن
كان هو على اجتهاد ويكون ذلك كما يجحد الشافعي والمالكي الحنفي على شرب
النبيذ واعلم أن الأمر ليس كذلك وقتاله لم يكن عن اجتهاد هؤلاء وإن كان خلافه عن
اجتهادهم وإنما انفرد بقتاله يزيد وأصحابه ولا تقوان أن يزيد وإن كان فاسقا ولم يجز
هؤلاء الخروج عليه فأفعاله عندهم صحيحة واعلم أنه إنما تقدمت أعمال القاسق ما كان
مشروعا وقتال البغاة عندهم من شرطه أن يكون مع الامام العادل وهو مفقود
في مستلنا فلا يجوز قتال الحسين مع يزيد ولا ليزيد بل هي من فعلاته المؤكدة لنفسه
والحسين فيها شهيد مناب وهو على حق واجتهاد والصحابة الذين كانوا مع يزيد على
حق أيضا واجتهاد وقد غلط القاضي أبو بكر بن العربي المالكي في هذا فقال في
كتابه الذي سماه بالعوامم والقواصم ما عناه أن الحسين قتل بشرع جده وهو غلط
حلت عليه الفعلة عن اشتراط الامام العادل ومن أعدل من الحسين في زمانه في امامته
وعدالته في قتال أهل الآراء وأما ابن الزبير فإنه رأى في منامه ما رآه الحسين وظن
كما ظن وغلط في أمر التوسكة أعظم لأن بني أسد لا يقاوه ون بني أمية في جاهلية
ولا إسلام والقول بتعين الخطأ في جهة مخالفة كما كان في جهة معاوية مع علي لا سبيل
إليه لأن الإجماع هنالك نصي لنا به ولم نجد ههنا * وأما يزيد فعين خطاه فسقه
وعبد الملك صاحب ابن الزبير أعظم الناس عدالة وناهيك به - دالته احتجاج مالك

بفعله وعدول ابن عباس وابن عمر الى يعنه عن ابن الزبير وهم معه بالجواز مع أن الكثير من الصحابة كانوا يرون أن بيعه ابن الزبير لم تنقض له لأنه لم يحضرها أهل العقد والحمل كبيعة مروان وابن الزبير على خلاف ذلك والكل مجتهدون محمولون على الحق في الظاهر وان لم يتعين في جهة منهما والقتل الذي نزل به بعد تقرير ما قررناه يحيى على قواعد الفقه وقوانينه مع أنه شهيد مثاب باعتبار قصده وتحريمه الحق هذا هو الذي ينبغي أن تحصل عليه أفعال السلف من الصحابة والتابعين فهم خيار الامتثال اذا جعلناهم عرضة للقدح فمن الذي يختص بالعدالة والنبي صلى الله عليه وسلم يقول خير الناس قرني ثم الذين يلونهم مرتين أو ثلاثا ثم يغشوا الكذب فجعل الخيرة وهي العدالة مختصة بالقرن الاول والذي يليه فإياك أن تعود نفسك أو لسانك التعرض لاحد منهم ولا يشوش قلبك بالرأي في شيء مما وقع منهم والتمس لهم مذاهب الحق وطرفه ما استطعت فهم أولى الناس بذلك وما اختلفوا الا عن بينة وما قاتلوا وقتلوا الا في سبيل جهاد أو اظهار حق واعتقد مع ذلك أن اختلافهم رحمة لمن بعدهم من الامة ليقنطروا كل واحد عن مختاره منهم ويجعله امامه وهاديه ودليله فانهم ذلك الوحيين حكمة الله في خلقه وأكوانه واعلم أنه على كل شيء قدير واليه المرجع والمصير والله تعالى أعلم

٣٢ (فصل في الخطط الدينية الخلافية)

لماتين أن حقيقة الخلافة نيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا فصاحب الشرع متصرف في الامرين أما في الدين فمقتضى التكليف الشرعية الذي هو أمور تبليغها وحل الناس عليها وأما سياسة الدنيا فمقتضى رعايته لمصالحهم في العمران البشري وقد قدمنا أن هذا العمران ضروري للبشر وأن رعاية مصالحه كذلك لتلايضدان أهملت وقد من أن الملك وسطونه كاف في حصول هذه المصالح ثم انما تكون أكل اذا كانت بالاحكام الشرعية لانه أعلم بهذه المصالح فقد صار الملك يدرج تحت الخلافة اذا كان املايا ويكون من توابعها وقد يتفرد اذا كان في غير الملة وله على كل حال مراتب بخدمة ووظائف تابعة تتعين خططا وتوزع على رجال الدولة ووظائف يقوم كل واحد بوظيفته حسبما يعينه الملك الذي تكون يده عالية عليهم فيتم بذلك أمره ويحسن قيامه بسلطانه وأما المنصب الخلفائي وان كان الملك يدرج تحت هذا الاعتبار الذي ذكرناه فتصرفه الديني يختص بخطط ومراتب لا تعرف الا للخلفاء الاسلاميين فان ذكر الآن الخطط الدينية المختصة بالخلافة ونرجع

الى الخطط الملوكية السلطانية فاعلم ان الخطط الدينية الشرعية من الصلاة والفتيا والقضاء والجهاد والحسبة كلها مندرجة تحت الامامة الكبرى التي هي الخلافة فكاتبها الامام الكبير والاصل الجامع وهذه كلها متفرعة عنها وداخله فيها العموم نظر الخلافة وتصرّفها في سائر احوال الملة الدينية والدينية وتنفيذ أحكام الشرع فيها على العموم فاما امامة الصلاة فهي ارفع هذه الخطط كلها وارفع من الملك بخصوصه المندرج منها تحت الخلافة ولقد يشهد لذلك استدلال الصحابة في شأن أبي بكر رضي الله عنه باستخلافه في الصلاة على استخلافه في السياسة في قولهم ارتضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليننا أفلا نرضاه لاني انا فلولا أن الصلاة ارفع من السياسة لم يصح القياس واذا ثبت ذلك فاعلم أن المساجد في المدينة صنفان مساجد عظيمة كثيرة الفاشية معدة للصلوات المشهودة وأخرى دونها محتصة بقوم أو محلة وايسر للصلوات العامة فاما المساجد العظيمة فأمرها راجع الى الخليفة أو من يفوض اليه من سلطان أو وزير أو قاض فينصب لها الامام في الصلوات الخمس والجمعة والعيدين والخسوفين والاستسقاء وتعين ذلك انما هو من طريق الاولى والاستحسان ولتلايفات الرعايا عليه في شئ من النظر في المصالح العامة وقد يقول بالوجوب في ذلك من يقول بوجوب اقامة الجمعة فيكون نصب الامام لها عنده واجبا وأما المساجد المحتصة بقوم أو محلة فأمرها راجع الى الجيران ولا تحتاج الى نظر خليفة ولا سلطان وأحكام هذه الولاية وشروطها والمولى فيها معروفة في كتب الفقه وبسببها في كتب الاحكام السلطانية للماوردي وغيره فلان طول بذكرها ولقد كان الخلفاء الاولون لا يقدونها لغيرهم من الناس وانظر من طعن من الخلفاء في المسجد عند الاذان بالصلاة وترصد هم لذلك في أوقاتها يشهد ذلك بما شرتهم لها وأنهم لم يكونوا يستخفون فيها وكذا كان رجال الدولة الاموية من بعدهم استنثار اربابها واستعظام مراتبها يحكى عن عبد الملك أنه قال لما حجه قد جعلت لك حجابة بابي الاعن ثلاثة صاحب الطعام فانه يفسد بالتأخير والاذن بالصلاة فانه داع الى افة والبريد فان في تأخير فساد القاصية فلما جاءت طبيعة الملك وعوارضه من الغلظة والترفع عن مساواة الناس في دينهم وديناهم استجابوا في الصلاة فكانوا يستأثرون بها في الاحيان وفي الصلوات العاتية كالعيدين والجمعة اشادة وتنويها فعل ذلك كثير من خلفاء بني العباس والعباسيين صدر دولتهم وأما القيا فللخليفة تفصح أهل العلم والتدريس ورد القيا الى من هو أهل لها واعانتة على ذلك ومنع من ليس أهلا لها وزجره لانها من مصالح المسلمين في اديانهم فوجب عليه مراعاتها لتلايعرض لذلك من ليس له بأهل فيفضل الناس وللمدرس

الاتصاف لتعليم العلم وبنه والجلوس لذلك في المساجد فان كانت من المساجد العظام
 التي للسلطان الولاية عام والنظر في أئمتها كما مر فلا بد من استئذانه في ذلك وان كانت
 من مساجد العامة فلا يتوقف ذلك على اذن علي أنه ينبغي أن يكون لكل أحد من
 المفتين والمدرسين زاجر من نفسه يمنع عن التمسك بما ليس له بأهل فيضل به المستهدى
 ويضل به المترشد وفي الأثر أجروكم على الفتيا أجروكم على جرائم جهنم فللسلطان
 فيهم لذلك من النظر ما توجه المصلحة من اجازة أو رده وأما قضاء فهو من الوظائف
 الداخلة تحت الخلافة لانه منصب الفصل بين الناس في الخصومات حسب الادعاء
 وقطع التنازع الا أنه بالأحكام الشرعية المطلقة من الكتاب والسنة فكان لذلك من
 وظائف الخلافة ومن درجاني عمومها وكان الخلفاء في صدر الاسلام يباشرونه بأنفسهم
 ولا يجعلون القضاء الى من سواهم وأول من دفعه الى غيره وقوضه فيه عمر رضي الله
 عنه نولي أبا الدرداء معه بالمدينة وولي ثري بجبالبصرة وولي أبا موسى الأشعري
 السكوفه وكتب له في ذلك الكتاب المشهور الذي تدور عليه أحكام القضاء وهي
 ست وثلاثة فيه يقول أما بعد فان القضاء فرضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدى
 اليك فانه لا يتعم تكلم بحق لا تنازله وأمس بين الناس في وجهك ومجلسك وعدلك
 حق لا بطمع شر يفسد حيفك ولا يأس ضعيف من عدلك البينة على من ادعى واليمين
 على من أنكروا الصلح جائز بين المسلمين الاصلها أحل حراماً وحرم حلالاً ولا يمنعك
 قضاء قضيته أمس فراجعت اليوم فيه عقلك وهديت فيه رشيدك ان ترجع الى الحق
 فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التنادي في الباطل الفهم الفهم فيما تلجج في
 صدرك مما ليس في كتاب ولا سنة ثم اعرف الامثال والاشباه وقس الامور بنظائرها
 واجعل ان ادعى حقا غائباً أو بينة أمددا ينتهي اليه فان أحضر بينته أخذت له بحقه
 والا استعملت القضية عليه فان ذلك أننى لك وأجلى للعلماء المسلمون عدول بعضهم
 على بعض الا مجلودا في حد أو مجز با عليه شهادة زورا وظنيذا في نسب أو ولا فان الله
 سبحانه عفا عن الايمان ودرأ بالبينات والبال والقلق والخبر والتأقف بالخصوم فان
 استقرار الحق في مواطن الحق يظلم الله به الاجر ويحسن به الذكروا السلام انتهى
 كتاب عمر وانما كانوا يتلدون القضاء لغيرهم وان كان مما يتعلق بهم لقيامهم بالسياسة
 العلية وكثرة أشغالها من الجهاد والفتوحات وسد الثغور وحماية البيضة ولم يكن
 ذلك مما يقوم به غيرهم اعظم العناية فاستصقوا القضاء في الواقات بين الناس واستخلفوا
 فيه من يقوم به تخفيفا على أنفسهم وكانوا مع ذلك انما يخلدونه أهل عصبيتهم بالنسب
 او الولا ولا يخلدونه لمن بعد عنهم في ذلك وأما أحكام هذا المنصب وشروطه فمعرفة

في كتب الفقه وخصوصا كتب الاحكام السلطانية الا ان الثاني انما كان له
 في عصر الخلفاء الفصل بين الخصوم فقط ثم دفع اهم بعد ذلك امورا اخرى على التدرج
 بحسب اشتغال الخلفاء والملوك بالسياسة الكبرى واستقر منصب القضاء آخر الامر
 على انه يجمع مع الفصل بين الخصوم استيفاء بعض الحقوق الماسة للمسلمين بالنظر في
 اموال المحجور عليهم من المجانين واليتامى والمفلسين واهل السنه وفي وصايا المسلمين
 ووقوفهم وتزويج اليتامى عند فقدهم الاولياء على رأى من رآه والنظر في مصالح
 الطرقات والابنية وتصحيح الشهود والامناء والنواب واستيفاء العلم والخبرة منهم
 بالعدالة والجرح ليحصل له الوثوق بهم وصارت هذه كلها من تعلقات وظيفته وتوابع
 ولايته وقد كان الخلفاء من قبل يجلبون للقاضي النظر في المظالم وهي وظيفة ممتزجة
 من سطوة السلطنة ونسفة القضاء وتحتاج الى عاويد وعظيم رهبة تتمتع المظالم من
 الخصمين وتزجر المتعدى وكأنه يعنى ما عجز النضارة وغيرهم عن امضائه ويكون نظره
 في البيئات والتقارير واعتماد الامارات والقرائن وتأخير الحكم الى استجلاء الحق
 وحل الخصمين على الصلح واستخلاف الشهود وذلك اوسع من نظر القاضي * وكان
 الخلفاء الاولون يشارونها بانفسهم الى ايام المهدي من بنى العباس وربما كانوا
 يجعلونها لقضائهم كما فعل عمر بنى الله عنه مع قاضيه ابي ادريس الخولاني وكافعله
 المأمون ابي بن ابيكم والمعتصم لاحد بن ابي داود وربما كانوا يجعلون للقاضي
 قيادة الجهاد في عساكر الطوائف وكان يحيى بن اكرم يخرج ايام المأمون بالطائفة
 الى ارض الروم وكذا منذ بنى سعيد قاضي عبد الرحمن الناصر من بنى امية بالاندلس
 فكانت تولية هذه الوظائف انما تكون للخلفاء او من يجعلون ذلك له من وزير مفوض
 او سلطان متغلب وكان ايضا النظر في الجرائم واقامة الحدود في الدولة العباسية
 والاموية بالاندلس والبيديين بمصر والمغرب راجعا الى صاحب الشرطة وهي
 وظيفة اخرى دينية كانت من الوظائف الشرعية في تلك الدول توسع النظر فيها عن
 احكام القضاء قليلا فيجعل للثمة في الحكم مجالا وبفرض العقوبات الزاجرة قبل
 ثبوت الجرائم ويقيم الحدود الثابتة في محالها ويحكم في التودد والتصاص ويقيم التعزير
 والتأديب في حق من لم ينته عن الجريمة ثم تنوسى شأن هاتين الوظيفتين في الدول التي
 تنوسى فيها امر الخلافة فصار امر المظالم راجعا الى السلطان كان له تفويض من الخليفة
 اولم يمكن وانقسمت وظيفة الشرطة قسمين منها وظيفة التهمة على الجرائم واقامة
 حدودها وباشرة القطع والتصاص حيث يتعين ونصب لذلك في هذه الدول كما يحكم
 فيها بموجب السيادة دون مراجعة الاحكام الشرعية ويسمى تارة باسم الوالى وتارة

بإسم الشرطة وبني قسم التعازير وواقاة الحدود في الجرائم الثابتة شرعا لجمع ذلك
للقاضي مع ما تقدم وصار ذلك من توابع وظيفته وولايته وامتقر الامر لهذا العهد
على ذلك وخرجت هذه الوظيفة عن أهل عصبية الدولة لان الامر لما كان خلافة دينية
وهذه الخطة من مراسم الدين فكانوا لا يولون فيها الا من أهل عصبيتهم من العرب
ومواليهم بالخلف أو بالرق أو بالأصغر ممن يوثق بنائيه أو غنائه فيما يدفع اليه
ولما انقرض شأن الخلافة وطورها وصار الامر كله ملكا أو سلطانا صارت هذه
الخطط الدينية بعيدة عن بعض الشئ لانها ليست من أتاب الملك ولا من امرائه ثم خرج
الامر جلة من العرب وصار الملك اسواهم من أم الترك والبربر فزادت هذه الخطط
الخلافة بعد انهم بمخاض وعصبيتها ذلك أن العرب كانوا يرون أن الشريعة
دينهم وأن النبي صلى الله عليه وسلم منهم وأحكامه وشرايعه فحاشيتهم بين الامم وطريقهم
وغيرهم لا يرون ذلك انما يولونها جانب من التعظيم لما كانوا بالملك فقط فصاروا يولدونها
من غير عصبيتهم من كثر أهل لها في دول الخلفاء السالفة وكان أولئك المتأهلون لما
أخذهم ترف الدول منذ من من السنين قد نسوا عهد البداوة وخشونتها والتبسوا
بالحضارة في عوائد ترفهم ودعتهم وقلة الممانعة عن أنفسهم وصارت هذه الخطط في
الدول الملوكية من بعد الخلفاء مختصة بهذا الصنف من المستضعفين في أهل الامصار
ونزل أهلها عن مراتب العزائم الاهلية بأنسابهم وما هم عليه من الحضارة فلهقهم
من الاحتقار ما لحق الخضر المنغمسين في الترف والذعة البعداء عن عصبية الملك
الذين هم عيال على الحماية وصار اعتبارهم في الدولة من أجل قيامها بالملك وأخذها
بأحكام الشريعة لما أنهم الحاملون للأحكام المقتدون به اولم يكن ايتبارهم في
الدولة حينئذ كراما لذواتهم وانما هو لما يتلج من ان يجعل بكانهم في مجالس الملك
لتعظيم الرتب الشرعية ولم يكن لهم فيها من الحل والعقد شئ وان حضوره حضور
رسمي لاحتمية وراه اذ حقيقة الحل والعقد انما هي لأهل القدرة عليه من لا قدرة له
عليه فلا حل له ولا عقد له اللهم الا اخذ الاحكام الشرعية عنهم وتلقى الفتاوى منهم
فتم والله الوفاق ويحافظون بعض الناس أن الحق فيما وراء ذلك وأن فعل الملوك
فيما فعلوه من اخراج النقهاه والنضاه من الشورى مرجوح وقد قال صلى الله عليه
وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن ذلك ليس كما ظنه وحكم الملك والسلطان انما يجري
على ما تقتضيه طبيعة العمران والا كان بعيدا عن السياسة فطبيعة العمران في هؤلاء
لا تقضي لهم شئ من ذلك لان الشورى والحل والعقد لا تكون الا لصاحب عصبية
اي قدره على حل أو عقد أو فعل أو ترك وأما من لا عصبية له ولا يملك من أمر نفسه شئاً

ولامن حبايتها وانما هو بيال على غيره فأى مدخل له في الشورى أرى معنى يدعو
الى اعتبار فيها اللهم الاثوراه فيما بعلمه من الاحكام الشرعية فوجوده في الاستفتاء
خاصة وأما ثوراه في السياسة فهو بعيد عنها فقد انه انصية والقيام على معرفة
أحوالها وحكامها وانما اكرامهم من تبرعات الملوك والامراء الشاهدة لهم بحميل
الاعتقاد في الدين وتعظيم من يتسبب اليه بأي جهة اتسب وأما قوله صلى الله عليه
وسلم العلماء ورثة الانبياء فاعلم أن انتهاها في الاغلب لهذا العهد وما احتف به انما حملوا
الشرعية أقوالا في كيفية الاعمال في العبادات وكيفية القضاء في المعاملات بنصونها
على من يحتاج الى العمل بها هذه غاية اكرامهم ولا يتصفون الا بالاقرب منها وفي بعض
الاحوال والسلف رضوان الله عليهم وأهل الدين والورع من المسلمين حملوا الشرعية
اتصافها وتحققا بذاهبها فنحما اتصافا وتحققا دون نقل فهو من الوارثين مثل أهل
رسالة القسري ومن اجتمع له الامران فهو العالم وهو الوارث على الحقيقة مثل فقهاء
التابعين والسلف والائمة الاربعه ومن اتقى طريقهم وجاء على اثرهم واذ انشرد
واحد من الامة بأحد الامرين فالعابد الحق بالوراثه من انتبه الذي ليس بعابد لان
العابد ورث صفة والفقير الذي ليس بعالم يرث شيئا انما هو صاحب أقوال ينصها علينا في
كيفية العمل وهو لاه اكرامها عصرنا الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم
(العدالة) وهي وظيفة دينية تابعة للقضاء ومنه واذ تصر ينفد وحقيقة هذه
الوظيفة القيام عن اذن القاضي بالشهادة بين الناس فيما لهم وعائهم تحملا عند الاشهاد
وأداء عند التنازع وكتبا في السجلات تحفظ به حقوق الناس واملأهم وديونهم
وسائر معاملاتهم وشرط هذه الوظيفة الاتصاف بالعدالة الشرعية والبراهة من الجرح
ثم القيام بكتب السجلات والاعتقاد من جهة عباراتها وانتظام فصولها ومن جهة
احكام شروطها الشرعية وعقودها فيحتاج حينئذ الى ما يتعلق بذلك من الفقه ولاجل
هذه الشروط وما يحتاج اليه من المران على ذلك والممارسة له اختص ذلك ببعض
العدول وصار الصنف القائمون به كأنهم مختصون بالعدالة وليس كذلك وانما العدالة
من شروط اختصاصهم بالوظيفة ويجب على القاضي تصفح أحوالهم والكشف عن
سيرهم رعاية لشرط العدالة فيهم وأن لا يهمل ذلك لما يتعين عليه من حفظ حقوق
الناس فالهدهة عليه في ذلك كله وهو ضامن دركه واذ اتعين هؤلاء لهذه الوظيفة عمت
النائدة في تعيين من تخفى عدالة على القضاء بسبب اتساع الامصار واشتباها الاحوال
واضطراب القضاء الى الفصل بين المتنازعين بالبينات الموثوقة فيه ولون غالباً في الوثوق
بها على هذا الصنف ولهم في سائر الامصار دكاكين ومصاطب يختصون بالجلوس

عليها في عاهدتهم أصحاب المصالحات للشهاد وتقييده بالكتاب وصار مدلول هذه
اللفظة مشتركة بين هذه الوظيفة التي تبين مدلولها وبين العدالة الشرعية التي هي
اخت الجرح وقد يتواردان ويفترقان والله تعالى أعلم • (الحسبة والسكة) • أما
الحسبة فهي وظيفة دينية من باب الامر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو فرض
على القائم بأمر المسلمين يعين لذلك من يراه اهلاله فيتم فرضه عليه ويتخذ الاعوان
على ذلك ويبحث عن المنكرات ويعززها بؤدب على قدرها ويحمل الناس على المصالح
العامة في المدينة مثل المنع من المضايقة في الطرقات ومنع الجهالين وأهل السفن من
الاكثار في الخمر والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بدمها وازالة
ما يتوقع من ضررها على السابلة والنسب على أيدي المعلمين في المكاتب وغيرها في
الابلاغ في نشرهم للصبيان المعلمين ولا يتوقف حكمه على تنازع أو استعداد بل له
النظر والحكم فيما يصل الى علمه من ذلك ويرفع اليه وليس له امضاء الحكم في الدعاوى
مطلقا بل فيما يتعلق بالغش والتدليس في المناقب وغيرها وفي المكاييل والموازين وله
أيضا حل الماثلين على الانصاف وأما ذلك مما ليس فيه سماع بينة ولا انفاذ حكم
وكأنها أحكام ينزه القاضي عنها لعمومها وهما موله اغراضها فتدفع الى صاحب هذه
الوظيفة ليقوم به فرضها على ذلك أن تكون خادمة لمنصب القضاء وقد كانت في كثير
من الدول الاسلامية مثل العميديين بمصر والمغرب والامويين بالاندلس داخله في
عموم ولاية القاضي يولي فيها باختياره ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة وصار
نظره عاما في أمور السياسة ادرجت في وظائف الملك وافردت بالولاية
• (وأما السكة) • فهي النظر في النقود المتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها
من الغش أو النقص ان كان يتعامل بها عددا أو مائة معلق بذلك ويوصل اليه من جميع
الاعتبارات ثم في وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستحادة والخلوص برسم
تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على
الدينار بعد أن يقدر ويخرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه تلك النقوش وتكون
علامة على جودته بحسب الغاية التي وقف عندها السبك والتخليص في متعارف
أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة فان السبك والتخليص في النقود لا يتفق عند غاية
وانما ترجع غايته الى الاجتهاد فاذا وقف أهل أفق أو قطر على غاية من التخليص بقوا
عندها وسموها اماما وعبارة يتركون به نقودهم وينتقدونها بما ثلته فان نتص عن
ذلك كان زينا والنظر في ذلك كله لصاحب هذه الوظيفة وهي دينية بهذا الاعتبار
فتدرج تحت الخلافة وقد كانت تدرج في عموم ولاية القاضي ثم افردت لهذا

العهد كما وقع في الحسبة هذا آخر الكلام في الوظائف الخلافية و بقيت منها وظائف ذهبت بذهاب ما يتطرق فيه واخرى صارت سلطانية فوظيفة الامارة والوزارة والحرب والمخارج صارت سلطانية تتكلم عليها في اماكنها بعد وظيفة الجهاد ووظيفة الجهاد بطلت بطلانه الا في قليل من الدول يمارسونه ويدرجون احكامه غالباً في السلطانيات وصكذ انقابه الانساب التي توصل به الى الخلافة او اطلق في بيت المال قد بطلت لدور الخلافة ورسومها وبالجملة قد اندرجت رسوم الخلافة ووظائفها في رسوم الملك والسياسة في سائر الدول لهذا العهد والله مصرف الامور كيف يشاء

٣٣ فصل في القلب بأمر المؤمنين وانه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد الخلفاء

وذلك انه لما بويع أبو بكر رضي الله عنه كان الصحابة رضي الله عنهم وسائر المسلمين يسمونه خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يزل الامر على ذلك الى ان هلك فلما بويع لعمر بعهد اليه كانوا يدعونه خليفة خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانهم استثقلوا هذا اللقب بكثرته وطول اضافته وانه يتزايد فيما بعد دائماً الى ان انتهى الى الهجينة ويذهب منه التميز بتعدد الاضافات وكثرها فلا يعرف في كانوا يعدلون عن هذا اللقب الى ما سواه مما يناسبه ويدعى به مثله وكانوا يسمون قواد البعوث باسم الامير وهو فعيل من الامارة وقد كان الجاهلية يدعون النبي صلى الله عليه وسلم أمير مكة وأمير الحجاز وكان الصحابة أيضاً يدعون سعد بن أبي وقاص أمير المؤمنين لامارته على جيش القادسية وهم معظم المسلمين يومئذ واتفق ان دعا بعض الصحابة عمر رضي الله عنه يا أمير المؤمنين فاستحسنه الناس واستصوبوه ودعوه به يقال ان أول من دعا بذلك عبد الله بن جحش وقيل عمرو بن العاصي والمغيرة بن شعبة وقيل يزيد بن جابر بالفتح من بعض البعوث ودخل المدينة وهو يسأل عن عمر يقول أين أمير المؤمنين وسمها أصحابه فاستحسنوه وقالوا أصبت والله اسمه انه والله أمير المؤمنين حقا فدعوه بذلك وذهب لقبه في الناس وتوارثه الخلفاء من بعده سنة لا يشاركون فيها احد سواهم سائر دولة بني أمية ثم ان الشيعة خصوا علياً باسم الامام نعمته بالامامة التي هي أخت الخلافة وتعريضاً عندهم في أنه أحق بالامامة الصلاة من أبي بكر لما هو منهم وبدعتهم فخصوه بهذا اللقب ولمن يسوقون اليه منصب الخلافة من بعده فكانوا كما هم يسمون بالامام ماداموا يدعون لهم في الخلفاء حتى اذا بسدت ولون على الدولة يحولون اللقب فيمن بعده الى أمير المؤمنين كما فعله شيعة بني العباس فانهم ما زالوا يدعون أئمتهم بالامام الى ابراهيم الذي جهروا بالدعاء له وعقدوا الرايات للحرب على

أمره فلما هلك دعى أخوه السفاح بأمر المؤمنين وكذا الرافضة بأفريقية فأنهم ما زالوا
 يدعون أئمتهم من ولد اسمعيل بالامام حتى انتهى الامر الى عبيد الله المهدي وكانوا
 أيضا يدعونه بالامام ولا يسمونه أبي القاسم من بعده فلما استوسق لهم الامر دعوا من
 بعدهما بأمر المؤمنين وكذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمر المؤمنين
 ادريس الأصغر كذلك وهكذا شأنهم وتوارث الخلفاء هذا اللقب بأمر المؤمنين
 وجعلوه عمدة لمن يملك الحجاز والشام والعراق الموطن التي هي ديار العرب ومراكز
 الدولة وأهل الملة والفتح وازداد لذلك في عنقوان الدولة وبذخها لقب آخر للخلفاء
 يتميز به بعضهم عن بعض لما في أمير من الاشتراك بينهم فاستحدث ذلك بنو العباس حجابا
 لاسمائهم الاعلام عن امتنانها في السنة السوقة وصونالها عن الابدال فتلقبوا
 بالسفاح والمنصور والمهدي والهادي والرشيد الى آخر الدولة واقتنى أثرهم في ذلك
 العبيديون بأفريقية ومصر وتجا في بنو أمية عن ذلك بالمشرق قبلهم من الغضاضة
 والسذاجة لان العروبية ومنازعها لم تفارقهم حينئذ ولم يتحول عنهم شعار البداوة
 الى شعار الحضارة وأما بالاندلس فتلقبوا كسلفهم مع ما علموه من أنفسهم من القصور
 عن ذلك بالقصور عن ملك الحجاز أصل العرب والملة والبعث عن دار الخلافة التي هي
 مركز العصية وأنهم انما منعوا اياما القاصية أنفسهم من مهالك بني العباس حتى
 اذا جاء عبد الرحمن الداخل الاخر منهم وهو الناصر بن محمد بن الامير عبد الله بن محمد
 ابن عبد الرحمن الاوسط لا قول المائة الرابعة واشتهر ما نال الخلافة بالمشرق من الحجر
 واستبداد الموالي وعميتهم في الخلفاء بالعزل والاستبدال والقتل والسمل ذهب عبد
 الرحمن هذا الى مثل مذاهب الخلفاء بالمشرق وافريقية وتسمى بأمر المؤمنين وتلقب
 بالناصر لدين الله واخذت من بعده عادة ومذهب اقرن عنه ولم يكن لا بانه وصلف قومه
 واستمر الحال على ذلك الى أن انقرضت عصية العرب أجمع وذهب رسم الخلافة وتغلب
 الموالي من العجم على بني العباس والصنائع على العبيديين بالقاهرة وسموها على
 امراء افريقية وذنانية على المغرب وملوك الطوائف بالاندلس على أمر بني أمية
 واقتسموه وافترق أمر الاسلام فاختلفت مذاهب الملوك بالمغرب والشرق في
 الاختصاص باللقاب بعد أن سمو اجمعيا باسم السلطان فأتا ملوك المشرق
 من العجم فكان الخلفاء يخصوصونهم باللقاب تشريفية حتى يستشعر منها انقيادهم
 وطاعتهم وحسن ولايتهم مثل شرف الدولة وعضد الدولة وركن الدولة ومعز الدولة
 ونصير الدولة ونظام الملك وبيها الدولة وذخيرة الملك وأمثال هذه وكان العبيديون
 أيضا يخصوصون بها أمراء مصر منهاجها فلما استبدت وعلت الخلافة قنعوا بهذه اللقب

وتجافوا عن ألقاب الخلافة أديامها وعدولا عن مسماتها المختصة بها شأن المتغلبين
المستبدن كما قلناه قبل ونزع المتأخرون أعاجم المشرق حين قوى استبدادهم على
الملك وعلا كعبهم في الدولة والسلطان وتلاشت عصية الخلافة وان جعلت بالجملة
الى اتصال الألقاب الخاصة بالملك مثل الناصر والمنصور زيادة على ألقاب يختصون بها
قبل هذا الاتصال مشعرة بالخروج عن رتبة الولاة والاصطناع بما أضافوها الى الدين
فقط فيقولون صلاح الدين أسد الدين نور الدين * وأما ملوك الطوائف بالاندلس
فانقسموا ألقاب الخلافة وتوزعوا القوة استبدادهم عليهم بما كانوا من قبيلها وعصبيتها
فتلقبوا بالناصر والمنصور والمعتمد والمظفر وأمثالها كما قال ابن أبي شرف يعني عليهم
بما زهدنى في أرض اندلس * أسماء معتمد فيها ومعتد
ألقاب مملكة في غير موضعها * كاهر يحيى اتقا صورة الاسد

وأما صحتها فاقصر واعلى الألقاب التي كان الخلفاء العبيديون يلقبون بها للتسوية
مثل نصير الدولة ومعز الدولة واتصل لهم ذلك لما أدوا من دعوة العبيديين بدعوة
العباسيين ثم بعدت الشقة بينهم وبين الخلافة ونسوا عهد هانئ واهذه الألقاب
واقصر واعلى اسم السلطان وكذلك شأن ملوك مغراوة بالمغرب لم يتكلموا شيئا من
هذه الألقاب الا اسم الساطن جريا على مذاهب البداوة والغضاضة ولما سعى رسم
الخلافة وتعمال دستا وقام بالمغرب من قبائل البربر يوسف بن تاشفين ملك المتونة فلك
العدوتين وكان من أهل الخير والاعتدال نزعته به دمه الى الدخول في طاعة
الخليفة تكلم بالمراسم دينه فخاطب المستظهر العباسي وأوفد عليه بيعة عبد الله
ابن العربي وابنه القاضي أبابكر من مشيخة اشيلية يطلبان توليته اياه على المغرب
وتقامه ذلك فانقلبوا اليه بعهد الخلافة له على المغرب واستشعارهم في ابوسه
ورتبته وخاطبه فيه بأمر المؤمنين تشر يفاله واختصاصا فأتخذها لقباً ويقال انه
كان دعى له بأمر المؤمنين من قبل أديام رتبة الخلافة لما كان عليه هو وقومه
المرابطون من اتصال الدين واتباع السنة وجاء المهدي على أثرهم داعيا الى الحق
أخذوا مذاهب الأشعرية ناعيا على أهل المغرب عدولهم عنها الى تقليد السلف في ترك
التأويل لطواهر الشريعة وما يؤول اليه ذلك من التجسيم كما هو معروف من مذهب
الأشعرية ونسبى اتباعه الموحدين تعريضا بذلك النسكرو كان يرى رأى أهل البيت في
الامام المعصوم وان لا يتمنه في كل زمان يحفظ بوجوده نظام هذا العالم فسمى بالامام
أولاً لما انما من مذهب الشيعة في ألقاب خلفائهم وأردف بالمعصوم إشارة الى
مذهبه في عصمة الامام وتنزه عند اتباعه عن أمر المؤمنين أخذوا مذاهب المتقدمين

من الشيعة ولما فيها من مشاركة الاغمار والولدان من أعقاب أهل الخلافة يومئذ
بالمشرق ثم اتحل عبدالمؤمن من ولي عهد اللقب بأمر المؤمنين وجرى عليه من بعده
خلفاء بني عبدالمؤمن وآل أبي حفص من بعدهم استشاراه عن سواهم لما دعا اليه
شيخهم المهدي من ذلك وأنه صاحب الامر وأولياؤه من بعدهم كذلك دون كل
أحد لا تتفاء عصبية قريش وتلاشيها فكان ذلك دأبهم ولما انتقض الامر بالمغرب
وانتزع زنانة ذهب أولهم مذاهب البداوة والسذاجة واتبع لغتونه في اتصال
اللقب بأمر المؤمنين أدبامع رتبة الخلافة التي كانوا على طاعتها لبني عبدالمؤمن أولا
ولبني أبي حفص من بعدهم ثم نزع المتأخرون منهم الى اللقب بأمر المؤمنين واتصلوه
لهذا العهد ابتلاغا في منازع الملك وتيمما لمذاهبه وسماته والله غالب على أمره

٣٤ فصل في شرح اسم البابا البطريرك في الملة النصرانية واسم اللو من عند اليهود

(اعلم) أن الملة لا بد لها من قائم عند غيبة النبي يحملهم على أحكامها وشرائعها ويكون
كالخليفة فيهم للنبي فيما جاء به من التكليف والنوع الانساني أيضا بما تقدم من
ضرورة السياسة فيهم للاجتماع البشري لا بد لهم من شخص يحملهم على مصالحهم
ويزعهم عن مفسدهم بالتهر وهو المسمى بالملك والملة الاسلامية لما كان الجهاد فيها
مشروعا وعموم الدعوة وحمل الكافة على دين الاسلام طوعا أو كرها اتخذت فيها
الخلافة والملك لتوجه الشوكة من القائم بها اليه معا وأما سوى الملة الاسلامية
فلم تكن دعوتهم عامة ولا الجهاد عندهم مشروعا الا في المدافعة فقط فصارا قائم بأمر
الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك وانما وقع الملك لمن وقع منهم بالعرض ولا امر غير
ديني وهو ما اقتضته اهم العصبية لما فيها من الطلب للملك بالطبع لما قدمناه لانهم غير
مكلفين بالتغلب على الامم كما في الملة الاسلامية وانما هم مطلوبون باقامة دينهم في خاصتهم
ولذلك بقى بنو اسرائيل من بعد موسى ويوشع صلوات الله عليهم نحو أربعة مائة سنة
لا يعتنون بشيء من أمر الملك انما هم اقامة دينهم فقط وكان لقائمهم بينهم يسمى
الكوهن كانه خليفة موسى صلوات الله عليه يقيم لهم أمر الصلاة والتعريفان
ويشترطون فيه أن يكون من ذرية هرون صلوات الله عليه لان موسى لم يعقب ثم
اختاروا لاقامة السياسة التي هي للبشر بالطبع سبعين شيخا كانوا يتلون أحكامهم
العامة والكوهن أعظم منهم رتبة في الدين وأبعد عن شغب الاحكام واتصل ذلك
فيهم الى أن استحكمت طبيعة العصبية وتمحضت الشوكة لاهلك فغلبوا الكنعانيين على
الارض التي أوردتهم الله بيت المقدس وما جاورها كما بين لهم على لسان موسى صلوات

الله عليه فخار بهم أمم الفلستين والكنعانيين والاردين وأردن وعمان وما ربه ورباستهم
في ذلك راجعة الى شيوخهم وأقاموا على ذلك نحو من أربعة مائة سنة ولم تكن لهم
صولة الملك وضجر بنوا اسرائيل من مطالبة الامم فطلبوا على لسان شمويل من أنبيائهم
أن يأذن الله لهم في عليك رجل عليهم طالوت وغلب الامم وقتل جالوت ملك الفلستين ثم
ملك بعده داود ثم سليمان صلوات الله عليهم ما واستفعل ملكه وامتد الى الحجاز ثم اطراف
اليمن ثم الى اطراف بلاد الروم ثم افترق الاسباط من بعد سليمان صلوات الله عليه
بعقبة في العصبية في الدول كما قدمنا الى دولتين كانت احدهما بالجزيرة والموصل
للاسباط العشرة والاخرى بالقدس والشام لبني يهوذا وبنيامين ثم غلبهم مجتصر ملك
بابل على ما كان بأيديهم من الملك اولا الاسباط العشرة ثم ثانياً بني يهوذا وبيت
المقدس بعد اتصال ملكهم نحو الف سنة وخرب مسجدهم وأحرق توراتهم وأمات
دينهم ونقلهم الى اصبهان وبلاد العراق الى أن ردهم بعض ملوك الكيانية من افرس
الى بيت المقدس من بعد سبعين سنة من خروجهم فبنوا المسجد وأقاموا أمر دينهم
على الرسم الاوّل للكهننة فقط والملك للفرس ثم غلب الاسكندرويون يونان على الفرس
وصار اليهود في ملكتهم ثم فشل أمر اليونانيين فاعتزالهم ودعاهم بالعصبية الطبيعية
ودفعوهم عن الاستيلاء عليهم وقام بملكهم الكهننة الذين كانوا فيهم من بني حشمتاي
وقاتلوا يونان حتى انقرض أمرهم وغلبهم الروم فصاروا تحت أمرهم ثم رجعوا الى
بيت المقدس وفيها بنو هيردوس اصهار بنى حشمتاي وبقيت دولتهم فحاصروهم مدة
ثم افتكحوها عنوة وأخشوا في القتل والهدم والتحريق وخربوا بيت المقدس
وأجلوهم عنها الى رومة وما وراءها وهو الخراب الثاني للمسيح ويسميه اليهود
بالبلوة الكبرى فلم يبق لهم بعد هاهنا ملك لفقدان العصبية منهم وبقوا بعد ذلك في ملكة
الروم ومن بعدهم يقيم لهم أمر دينهم الرئيس هاهم المسمى بالكوهن ثم جاء المسيح
صلوات الله وسلامه عليه بما جاءهم به من الدين والنسخ لبعض أحكام التوراة
وظهرت على يديه الخوارق العجيبة من ابراء الالكه والابصر واحياء الموتى واجتمع
عليه كثير من الناس وآمنوا به وأكثرهم الخواريون من اصحابه وكانوا اثني عشر
وبعث منهم رسلا الى الآفاق داعين الى دلتته وذلك أيام أوغسطس اول ملوك
القيصرية وفي مدة هيردوس ملك اليهود الذي انتزع الملك من بني حشمتاي اصهاره
فخسده اليهود وكذبوه وكاتب هيردوس ملك القيصرية أوغسطس بغيره به
فأذن لهم في قتله ووقع ما تلاه القرآن من أمره وافترق الخواريون شيعا ودخل
أكثرهم بلاد الروم داعين الى دين النصرانية وكان بطرس كبيرهم قتل برومة دار

ملك القياصرة ثم كتبوا الانجيل الذي انزل على عيسى صلوات الله عليه في نسخ اربع
على اختلاف رواياتهم فكتب متى انجيله في بيت المقدس بالعبرانية ونقله يوحنا بن
زيدى منهم الى اللسان اللطيني وكتب لوقا منهم انجيله باللطيني الى بعض اكابر الروم
وكتب يوحنا بن زيدى منهم انجيله برومة وكتب بطرس انجيله باللطيني ونسبه الى
مرقاس تلميذه وبأختلاف هذه النسخ الاربعة من الانجيل مع أنها ليست كلها وحيا
صرفا بل مشوبة بكلام عيسى عليه السلام وبكلام الحوار بين وكاهن واعظ وقصص
والاحكام فيها قليلة جدا واجتمع الحوار بين الرجل لذلك العهد برومة ووضعوا في
الملة النصرانية وصيروها يدا اقليمطس تلميذ بطرس وكتبوا فيها عدد الكتب التي
يجب قبولها واو اعمل بها فن شرعية اليهود القديمة التوراة وهي خمسة أسفار وكتاب
يوشع وكتاب التثنية وكتاب راعوث وكتاب يرميا وكتاب الملوك اربعة وكتاب
وكتب المتنايين لابن كربون ثلاثة وكتاب عزرا الامام وكتاب اوشير وقصة هامان
وكتاب ايوب الصديق ومن امير داود عليه السلام وكتب ابنه سليمان عليه السلام
خمس ونبوات الانبياء الكبار والصغار ستة عشر وكتاب يشوع بن نوح وزير سليمان
ومن شرعية عيسى صلوات الله عليه المتلقاة من الحوار بين نسخ الانجيل الاربعة
وكتب القتالية ونسب سبب رسائل وثامنها الايريكيس في قصص الرسل وكتاب بولس
اربع عشرة رسالة وكتاب اقليمطس وفيه الاحكام وكتاب ابونا المسيس وفيه رؤيا يوحنا
ابن زيدى واختلف ان القياصرة في الاخذ بهذه الشرعية تارة وتعظيم أهلها ثم
تركها اخرى والتسلط عليهم بالقتل والبغى الى ان جاء قسطنطين واخذها واستمزوا
عليها وكان صاحب هذا الدين والمقيم لمراحمه بسمونه البطريرك وهو رئيس الملة عندهم
وخليفة المسيح فيهم يبعث نوابه وخلفاءه الى ما بعد عنده من أمم النصرانية ويسمونه
الاسقف أي نائب البطريرك ويسمون الامام الذي يقيم الصلوات ويفتيهم في الدين
بالقيس ويسمون المنقطع الذي حبس نفسه في الخلوة لتعبادة بالراهب وأكثر
خلواتهم في الصوامع وكان بطرس الرسول رأس الحوار بين وكبير التلاميذ برومة يقيم
بها دين النصرانية الى ان قتله نبروز خامس القياصرة فيمن قتل من البطارق والاساقفة
ثم قام بخلافته في كرسي رومة اريوس وكان مرقاس الانجيلي بالاسكندرية ومصر
والمغرب داعيا سبع سنين فقام بعده حنانيا وتسمى بالبطريرك وهو اول البطاركة فيها
وجعل معه اثني عشر قسا على أنه اذا مات البطريرك يكون واحدا من الاثني عشر مكانه
ويختار من المؤمنين واحدا مكان ذلك الثاني عشر فكان أمر البطاركة الى القسوس
ثم لما وقع الاختلاف بينهم في قواعدهم وعقائده واجتمعوا بانيقية أيام قسطنطين

لتصريح الحق في الدين واتفق ثلثمائة وثمانية عشر من أساقفتهم على رأي واحد في الدين
 فكتبوه وسموه الامام وصبروه أملا ليرجعون اليه وكان فيما كتبوه أن البطريرك القائم
 بالدين لا يرجع في تعيينه الى اجتهاد الاقصة كما قرره حنايسا تبايذ مر قاس وأبطلوا ذلك
 الرأي وانما يبق. قدم عن ملا واختيار من أئمة المؤمنين ورؤسائهم فبقى الامر كذلك ثم
 اختلفوا بعد ذلك في تقرير قوادد الدين وكانت لهم مجتمعات في تقريره ولم يختلفوا في
 هذه القاعدة فبقى الامر فيها على ذلك وتصل فيهم زيادة الاساقفة عن البطاركة وكان
 الاساقفة يدعون البطريرك بالاب أيضا تعظيما له فالتبها الاسم في أعصار متطارلة يقال
 آخره بطر كية حرقل بالاسكندرية نأرادوا أن يميزوا البطريرك عن الاسقف في التظيم
 فدعوه البابا ومعناه أبو الآباء وظهر هذا الاسم أول ظهوره بمصر على ما زعم جر جيس
 ابن العميد في تاريخه ثم نقلوه الى صاحب الكرسي الاعظم عندهم وهو كرسي رومة لانه
 كرسي بدارس الرسول كما قدمنا فلم يزل سمة عليه الى الآن ثم اختلفت النصارى في دينهم
 بعد ذلك وفيما يعتقدونه في المسيح وصاروا طوائف وفرقا واستظهروا بملوك النصرانية
 كل على صاحبها فاختلف الحال في العصور في ظهور فرقة دون فرقة الى أن استقرت
 لهم ثلاثة طوائف هي فرقةهم ولا يلتفتون الى غيرها هم الملاكية واليعقوبية
 والنسطورية ولم نراهم نسخهم أوراق الكتاب بذكر مذاهب كفرهم فهي على الجملة
 معروفة وكلاهما كفر كما صرح به القرآن الكريم ولم يبق بيننا وبينهم في ذلك جدال
 ولا استدلال انما هو الاسلام أو الجزية أو القتل ثم اختلفت كل فرقة منهم ببطريرك
 رومة اليوم المسمى بالبابا على رأي الملكية ورومة للفرنجة وملكهم قائم بتلك الماحية
 وبطريرك المعاهد في مصر على رأي اليعقوبية وهو ساكن بين ظهرانينهم والحبشة
 يدينون بدينهم ولبطريركهم فيهم أساقفة ينوبون عنه في اقامة دينهم هنالك واختص
 اسم البابا ببطريرك رومة لهذا العهد ولا تسمى اليعاقبة بطريركهم بهذا الاسم وضبط هذه
 الانظمة بيابين موحدتين من أسفل والنطق بها مخزومة والثنائية شديدة ومن مذاهب
 البابا عند الافرنجة أنه يحضهم على الانتقاد لملك واحد يرجعون اليه في اختلافهم
 واجتماعهم فخرجان افتراق الكلمة ويتحرى به العصبية التي لانوقها منهم لتكون
 يده عالية على جميعهم ويسمونه الانبرذور وحرفه الوسط بين الذال والطاء المعجمتين
 ومباشرة بضع التساج على رأسه لتبرك فيسمى المتوج ولعله معنى لفظه الانبرذور وهذا
 ملخص ما وردناه من شرح هذين الاسمين اللذين هما البابا والكوهن والله يضل من
 يشاء ويهدي من يشاء

٣٤ (فصل في مراتب الملك والسلطان والقائما)

اعلم أن السلطان في نفسه ضعيف يحمل أمراً ثقيلاً فلا بد له من الاستعانة بأبناء جنسه
وإذا كان يستعين بهم في ضرورة معاشه وديارهم فبما فائدة سياسة نوعه ومن
استرعاه الله من خلقه وعباده وهو محتاج إلى حياطة الكفاية من عند قومه بالمدافعة عنهم
والى كف عهدهم وان بعضهم على بعض في أنفسهم بأضواء الاحكام الموزعة بينهم وكف
العدوان عليهم في أموالهم بإصلاح سبلهم والى حمايتهم على مصالحهم ومنعتهم من
البلوى في معاشهم وملازمهم من تفقد المعاش والمكاييل والموازين حذرهم من
انتطيف والى النظر في السكة بحفظ النقود التي يتعاملون بها من الغش والى سياستهم
بما يريد منهم من الانقياد والرضا بقاصدهم وانفرادهم بالمجدد منهم فيتحمل من
ذلك فوق العناية من معاناة القلوب قال بعض الاشراف من الحكماء المعاناة نقل
الجبال من أماكنها أهون على من معاناة قلوب الرجال ثم ان الاستعانة اذا كانت بأولى
القربى من أهل النسب أو التربية أو الاصطناع القديم للدولة كانت أكمل لما يقع في
ذلك من مجانسة خلقهم لخلافه فتمت المشاكلة في الاستعانة قال تعالى واجعل لي وزيراً
من أهلي هرون أخى أشد به أزرى وأشرك في أمرى وهو أمانى يستعين في ذلك
بسيفه أو قلبه أو رأيه أو معارفه أو بحجابه عن الناس أن يزدجوا عليه فيشغلوه عن
النظر في مهماتهم أو يدفع النظر في الملك كله ويعول على كفايته في ذلك واضطلاعه
فلذلك قد توجد في رجل واحد وقد تفرق في أشخاص وقد يتفرع كل واحد منها إلى
فروع كثيرة كالقلم يتفرع إلى قلم الرسائل والمخاطبات وقلم الصكوك والاقطاعات والى
فلم الهاميات وهو صاحب الجباية والعطاء وديوان الجيش وكالسيف يتفرع إلى
صاحب الحرب وصاحب الشرطة وصاحب البريد وولاية الثغور ثم اعلم أن الوظائف
السلطانية في هذه الملة الاسلامية مندرجة تحت الخلافة لاشتغال منصب الخلافة على
الدين والدنيا كما قدمناه فالاحكام الشرعية المتعلقة بجميعها وموجودة لكل واحدة
منها في سائر وجوه العالم مومتهما في الحكم الشرعي بجميع أفعال العباد والفقهاء
ينظر في مرتبة الملك والسلطان وشروط تقايدها استبداداً على الخلافة وهو معنى
السلطان أو نوعاً من غيرها وهو معنى الوزارة عندهم كما يأتي وفي نظره في الاحكام
والاموال وسائر السياسات مطلقاً وقيداً وفي موجبات العزل ان عرضت وغير ذلك
من معاني الملك والسلطان وكذا في سائر الوظائف التي تحت الملك والسلطان من وزارة
أوجباية أو ولاية لا بد لانقيه من النظر في جميع ذلك كما قدمناه من انساب حكم
الخلافة الشرعية في الملة الاسلامية على رتبة الملك والسلطان الا أن كلامنا في وظائف
الملك والسلطان ورتبته انما هو بمقتضى طبيعة العمران ووجود البشر لا بما يخصها

من أحكام الشرع فليس من غرض كتابنا كما علمت فلا نحتاج الى تفصيل أحكامها
الشرعية مع أنهم استوفوا في كتب الاحكام السلطانية مثل كتاب القاضي أبي الحسن
الماوردي وغيره من أعلام الفقهاء فان أردت استمناها نعلمك بطاعتها هنالك وانما
تلك في الوظائف الخلاقية وأفرادها التميز بينهم وبين الوظائف السلطانية فقط
لا تحقيق أحكامها الشرعية فليس من غرض كتابنا وانما تكلم في ذلك بما تقتضيه
طبيعة العمران في الوجود الانساني والله الموفق

• (الوزارة) • وهي أم الخطط السلطانية والرتب الملوكية لان اسمها يدل على مطلق
الاعانة فان الوزارة مأخوذة اتماما من الموازنة وهي المعازنة أو من الوزر وهو الثقل
كأنه يحمل مع فاعله أوزاره وأثقاله وهو راجع الى المعاونة المطلقة وقد كلفنا
في أول الفصل أن أحوال السلطان وتصرفاته لا تعدو أربعة لانها إما أن تكون في
أ. ورجاية الكفاية وأسبابها من النظر في الجند والسلاح والحروب وسائر أمور
الحماية والمظالمية وصاحب هذا هو الوزير المتعارف في الدول القديمة بالشرق ولهذا
العهد با. غرب وإما أن تكون في أمور مخاطبته لمن بعده في الممكن أو في الزمان
وتنفيذة الاوامر فيمن هو محبوب عنه وصاحب هذا هو الكاتب وإما أن تكون في
أمور جباية المال واتفاقه وضبط ذلك من جميع وجوهه أن يكون بمضيعة وصاحب
هذا هو صاحب المال والجباية وهو المسمى بالوزير بهذا العهد بالشرق وإما أن يكون
في مدافعة الناس ذوى الحسابات عنه أن يزدحموا عليه فيشغلوه عن فهمه وهذا راجع
لصاحب الباب الذي يحجبه فلا تعدو أحواله هذه الأربعة بوجه وكل خطة أو رتبة
من رتب الملك والسلطان فالهيار جمع الآن الارتفاع منها ما كانت الاعانة فيه عامة
فيم تحتيد السلطان من ذلك الصنف اذ هو يقتضى مباشرة السلطان دائما ومشاركته
في كل شئ من أحوال ملكه وأما ما كان خاصا ببعض الناس أو ببعض الجهات
فيكون دون الرتبة الاخرى كقيادة ثغرا أو ولاية جباية خاصة أو النظر في أمر خاص
كحسبة الطعام أو النظر في السكة فان هذه كلها نظري أحوال خاصة فيكون صاحبها
تعالى ل النظر العام وتكون رتبته من رتبة لا وائتلك وما زال الامر في الدول قبل
الاسلام هكذا حتى جاء الاسلام وصار الامر خلافا فذهبت تلك الخطط كلها بذهب
رسم الملك الى ما هو طبيعي من المعاونة بالرأى والمفاوضة فيه فلم يمكن زواله اذ هو أمر
لا يتمن فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفارضهم في مهماته العامة والخاصة
ويخصر مع ذلك أبوابا بـ كـ بخصوصيات أخرى حتى كان العرب الذين عرفوا الدول
وأحوالها في كسرى وقيصرو والنجاشي يسمون أبابكر وزيره ولم يكن لفظ الوزير يعرف بين

المسلمان لذهاب رتبة الملك بسداجة الاسلام وكذا عمر مع أبي بكر وعلى وعثمان مع عمر
وأما حال الجباية والانتاق والحسبان فلم يكن عندهم رتبة لان القوم كانوا عرما تميز
لا يحسنون الكتاب والحساب فكانوا يستعملون في الحساب أهل الكتاب أو أفرادا
من موالى المهجم من يجيده وكان قابلا فيهم وأما أشرفهم فلم يكونوا يجيدونه لان الامية
كانت صفتهم انى امتا ذوا بها وكذا حال الخاطبات وتنفيذ الامور لم تكن عندهم رتبة
خاصة للامية التي كانت فيهم والامانة العائمة في كتمان القول وتأديته ولم يخرج
السياسة الى اختياره لان الخلافة انما هي دين ليست من السياسة الملكية في شئ
وأياضا فلم تكن الكتابة صناعة فيستجد للخليفة أحسنها لان الكل كانوا يعبرون عن
مقاصدهم بأبلغ العبارات ولم يبق الا الخط فكان الخليفة يستنوب في كتابته من عن له
من يحسنه * وأما مدانعة ذوى الحاجات عن ابوابهم فكان محظورا بالشرعية فلم
يفعلوه فلما انقلبت الخلافة الى الملك وجاءت رسوم السلطان والقباه كان أول شئ يبدئ
به في الدولة شأن البلب وسدده دون الجمهور بما كانوا يخشون على أنفسهم من اغتيال
الخواارج وغيرهم كما وقع بعمر وعلى ومعاوية وعمر بن العاص وغيرهم مع ما في فتحه من
ازدحام الناس عليهم وشغلهم بهم عن المهمات فاتخذوا من يقوم لهم بذلك وسماه الحاجب
وقد جاء أن عبد الملك لما ولي حاجبه قال له قد وليتك حجابة بابي الاعن ثلاثة المؤذن
للصلاة فانه داعي الله وصاحب البريد فأمر ما جاء به وصاحب الطعام لتلا بفسد ثم
استفعل الملك بعد ذلك فظهر المشاور والمعين في أمور القبائل والعصائب واستئلافهم
وأطلق عليه اسم الوزير وبقى أمر الحسبان في الموالى والذميين واتخذ للسجلات كاتب
مختص من حوطة على أسرار السلطان أن تشتهر بفسد سياسته مع قومه ولم يكن بمشابة
الوزير لانه انما احتج له من حيث الخط والكتاب لا من حيث اللسان الذي هو الكلام
اذ اللسان لذلك العهد على حاله لم يفسد فكانت الوزارة لذلك أرفع رتبهم يومئذ هذا
في سائر دولة بني أمية فكان النظر للوزير عظام في أحوال التدبير والمفاوضات وسائر
أمور الجبايات والمطالبات وما يتبعها من النظر في ديوان الجند وفرض العطاء لاهلة
وغير ذلك فلما جاءت دولة بني العباس واستفعل الملك وعظمت حراته وارتفعت عظم
شأن الوزير وصارت اليه النيابة في انشاء الحل والعقد وتعيين مرتبته في الدولة وعنت
لها الوجوه وخضعت لها الرقاب وجعل لها النظر في ديوان الحسبان لما تشيخ اليه
خطته من قسم الاعطيات في الجند فاحتاج الى النظر في جمعه وتفريقه وأضيف اليه
النظر فيه ثم جعل له النظر في القلم والبريد اصون أسرار السلطان ولحفظ البلاغة لما
كان اللسان قد فسد عند الجمهور وجعل الخاتم لسجلات السلطان ليحفظها من الذباع

والشباع ودفع اليه فصار اسم الوزير جامعاً لخلق السيف والقلم وسائر مهاني الوزارة
والمعارضة حتى لقد دعى جعفر بن يحيى بالسلطان أيام الرشيد إشارة الى عموم نظره
وقيامه بالدولة ولم يخرج عنه من الرتب السلطانية كلها الا الجباية التي هي القيام على
الباب فلم تكن للاستنكاه عن مثل ذلك ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على
السلطان وتماور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى وصار الوزير اذا استبد
محتاجا الى استنابة الخليفة اياه لذلك تصح الاحكام الشرعية وتجي على حالها كما تقدم
فانقسمت الوزارة حينئذ الى وزارة تنفذ وهي حال ما يكون السلطان قائما على نفسه
والى وزارة تفويض وهي حال ما يكون الوزير مستبدا عليه ثم استمر الاستبداد وصار
الامر للولاة العجم وتعطل رسم الخلافة ولم يكن لاولئك المنقلبين أن يتحلوا القاب
الخلافة واستنكفوا من مشاركة الوزراء في اللقب لانهم خول لهم قسموا بالامارة
والسلطان وكان المستبد على الدولة يسمى أمير الامراء أو بالسلطان الى ما يحل به به
الخليفة من القاب كما تراه في القابهم وتركوا اسم الوزارة الى من يتولاها للخليفة في
خاصته ولم يزل هذا الشأن عندهم الى آخر دولتهم وفسد اللسان خلال ذلك كله وصارت
صناعة يتحلها بعض الناس فامتنت وترفع الوزراء عنها لذلك ولانهم عجم وليست تلك
البلاغة هي المقصودة من اسانهم فتغيرها من سائر الطبقات واختصت به وصارت
خادمة للوزير واختص اسم الامير بصاحب الحروب والجنود وما يرجع اليها ويده مع
ذلك العلية على أهل الرتب وأمر منافذ في الكل امانياية أو استبداد او استمر الامر على
هذا ثم جاءت دولة الترك آخر بمصر فراء وأن الوزارة قد استبدت وترفع أولئك عنها
ودفعها لمن يقوم بها للخليفة المحجور ونظره مع ذلك متعقب بنظر الامير فصارت مرؤسة
ناقصة فاستنكف أهل هذه الرتبة العلية في الدولة عن اسم الوزارة وصار
صاحب الاحكام والنظر في الجنود يسمى عندهم بالنائب لهذا العهد وبقي اسم
الحاجب في مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر في الجباية * وأما دولة بني
أمية بالاندلس فأنفوا اسم الوزير في مدلوله أول الدولة ثم قسموا خطته أصنافا
وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا الحسبان المال وزيراً وللترسيل وزيراً وللنظر في
حوادث المتظلمين وزيراً وللنظر في أحوال أهل الثغور وزيراً وجعل لهم بيت مجلسون
فيه على فرش منضدة لهم وينفذون أمر السلطان هناك كل فيما جعل له وأفردوا للتردد
بينهم وبين الخليفة واحدا منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان في كل وقت فارتفع
مجلسه عن مجالسهم وخصوه باسم الحاجب ولم يزل الشأن هذا الى آخر دولتهم فارتفعت
خطه الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف يتحلون لقبها

فأكثرهم يومئذ يسمى الحاجب كما ذكره ثم جاءت دولة الشيعة بأفريقية وأندلس
 وكان للقبائين بهار سوخ في البداية فاعقلوا أمر هذه الخطط أولاً وتنتج أسمائها حتى
 أدركت ديوانهم الحضارة فصاروا إلى تقليد الدولتين قباهم في وضع أسمائها كما زاه في
 أخبار دولتهم • ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أعقلت الأمر أولاً للبداءة
 ثم صارت إلى استعمال الأسماء والألقاب وكان اسم الوزير في مدلوله ثم اتبعوا دولة
 الأمويين وقلدوها في مذهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان
 في مجامعهم ويتعقب الوفود والداخلين على السلطان عند الحدود في تحيتمهم وخطابهم
 والآداب التي تلزم في الكون بين يديه ورفعوا خطة الحجابة عنه ملشاً وأول من نزل الشأن
 ذلك إلى هذا العهد وأما في دولة الأندلس بالمشرق فبعضهون هذا الذي يقف بالناس على
 حدود الآداب في اللقاء والتحية في مجالس السلطان والتقدم بالوفود بين يديه
 الدويدار ويضيقون إليه استتباع كاتب السر وأصحاب البريد المتصرفين في حاجات
 السلطان بالقاصية وبالخاصة وحالهم على ذلك لهذا العهد والله مولى الأمور لمن يشاء
 • (الحجابة) قد قدمنا أن هذا اللقب كان مخصوصاً في الدولة الأموية والعباسية بمن
 يحجب السلطان عن العامة ويغلق باب دولتهم أو يفتح لهم على قدره في مواقفه
 وكانت هذه منزلة يومئذ عن الخطط مرؤسة لها إذا الوزير متصرف فيها بما يراه وهكذا
 كانت سائر أيام بني العباس وإلى هذا العهد فهي بمصر مرؤسة لصاحب الخطة العليا
 المسمى بالنائب • وأما في الدولة الأموية بالأندلس فكانت الحجابة لمن يحجب السلطان
 من الخاصة والعامة ويكون واسطة بينه وبين الوزراء فمن دولتهم فكانت في دولتهم
 رفعة غاية كما زاه في أخبارهم كابن حديد وغيره من حجابهم ثم لما جاء الاستبداد على
 الدولة اختص المستبد باسم الحجابة لشرفها فكان المنصور بن أبي عامر وأبناؤه كذلك
 ولما بدوا في مظاهر الملك رأوا طوارقهم من بعدهم من أولئك الطوائف فلم يتركوا لقبها
 وكانوا يعدونها شرفاً لهم وكان أعظمهم ملكاً بعد انتقال ألقاب الملك وأسماءه لابن
 من ذكر الحاجب وذي الوزارتين يعنون به السيف والقلم ويدلون بالحجابة على حجابة
 السلطان عن العامة والخاصة وبذي الوزارتين على جمعه لخطى السيف والقلم ثم لم يكن
 في دول المغرب وأفريقية ذكر لهذا الاسم للبداءة التي كانت فيهم وربما يوجد في دولة
 العبيديين بمصر عند استعظامها وحضارتها إلا أنه قليل • ولما جاءت دولة الموحدين
 لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى استعمال الألقاب وتبديل الخطط وتعيينها بالأسماء
 إلا أنرا فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير فكانوا أولاً يخصون بهذا الاسم الكاتب
 المتصرف المشارك للسلطان في خاص أمره كابن عطية وعبد السلام الكومي وكان له

مع ذلك النظر في الحساب والاشغال المالية ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لاهل نسب
الدولة من الموحدين كابن جامع وغيره ولم يكن اسم الحاجب معروفا في دولتهم يومئذ
(وأما بنو أبي حفص باقر بنية) فكانت الرياسة في دولتهم أولا والتقديم لوزير الرأي
والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين وكان له النظر في الولايات والعزل وقود
العساكر والحروب واختص الحساب والديوان برتبة أخرى ويسمى متوليا بصاحب
الاشغال يتطرق فيها النظر المطلق في الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الاموال
ويعاقب على التفريط وكان من شرطه أن يكون من الموحدين واختص عندهم لقلم
أيضا بمن يجيد الترسيل ويؤمن على الاسرار لان الكتابة لم تكن من متحل القوم ولا
الترسيل بلسانهم فلم يشترط فيه النسب واحتاج السلطان لاتساع ملكه وكثرة المرتزقين
بداره الى قهر مان خاص بداره في أحواله يجربها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء
وكسوة ونفقة في المطابخ والاصطبلات وغيرها ما وحصر الذخيرة وتنفيذ ما يحتاج اليه
في ذلك على أهل الجباية فخصوه باسم الحاجب وربما أضافوا اليه كتابة العلامة على
السجلات اذا اتفق أنه يحسن صناعة الكتابة وربما جعلوه لغيره واستمر الامر على
ذلك وحجب السلطان نفسه عن الناس فصار هذا الحاجب واسطة بين الناس وبين
أهل الرتب كلهم ثم جمع له آخر الدولة السيف والحرب ثم الرأي والمشورة فصارت
الخطبة أرفع الرتب وأوعبها للخطط ثم جاء الاستبداد والجرم مدة من بعد السلطان الثاني
عشر منهم ثم استبد بعد ذلك حفيده السلطان أبو العباس على نفسه وأذهب آثار الجبر
والاستبداد باذهاب خطة الجباية التي كانت سلبا اليه وبأشرا موره كلها بنفسه من
غير استعانة بأحد والامر على ذلك لهذا العهد

* (وأما دولة زناتة بالمغرب) * وأعظمها دولة بني مرين فلا أثر لاسم الحاجب عندهم
وأما رياسة الحرب والعساكر فهي للوزير ورتبة القلم في الحساب والرسائل راجعة الى
من يحسنها من أهلها وان اختصت ببعض البيوت المصطنعين في دولتهم وقد تجمع
عندهم وقد تفرق وأما باب السلطان وجبته عن العامة فهي رتبة عندهم بسمي
صاحبها بالمزوار ومعناه المقدم على الجنادة المتصرفين بباب السلطان في تنفيذ أوامره
وتصريف عقوباته وانزال سطوانه وحفظ المعتقلين في سجونه والعريف عليهم في ذلك
فالباب له وأخذ الناس بالوقوف عند الحدود في دار العامته راجع اليه فكانها وزارة
صغرى

* (وأما دولة بني عبد الواد) * فلا أثر عندهم لشي من هذه الالقاب ولا تمييز الخطوط
لبداوة دولتهم وقصورها وانما يخصون باسم الحاجب في بعض الاحوال منفذ

الخاص بالسلطان في داره كما كان في دولة بني أبي حفص وقد يجمعون له الحساب
والسجل كما كان فيهما جلهم على ذلك تقليد الدولة بما كانوا في تبعها وقائمين بدعوتها
منذ أول أمرهم

• (وأما أهل الأندلس لهذا العهد) • فالمنصوص عندهم بالحساب وتنفيذ
السلطان وسائر الأمور المالية يسمونه بالوكيل وأما الوزير فكما لو زيرا لأنه قد يجمع
له الترسيل والسلطان عندهم يضع خطه على السجلات كماها فليس هناك خطة العلامة
كما غيرهم من الدول

• (وأما دولة الترك بمصر) فاسم الحاجب عندهم موضوع لحاكم من أهل الشوكة
وهم الترك ينفذ الأحكام بين الناس في المدينة وهم متعددون وهذه الوظيفة عندهم
تحت وظيفة النيابة التي لها الحكم في أهل الدولة وفي العمارة على الإطلاق وللنائب
التولية والعزل في بعض الوظائف على الأحيان ويقطع القليل من الأرزاق ويثبتها
وتنفذ أوامره كما تنفذ المراسم السلطانية وكان له النيابة المطلقة عن السلطان وللحجاب
الحكم فقط في طبقات العمارة والجنود عند الترافع اليهم واجبار من أبي الانقياد للحكم
وطورهم تحت طور النيابة والوزير في دولة الترك هو صاحب جباية الأموال في الدولة
على اختلاف أصنافها من خراج أو مكس أو جزية ثم في نصريفها في الاتقانات
السلطانية أو الجرايات المقدرة ولهم مع ذلك التولية والعزل في سائر الأعمال المباشرة
لهذه الجباية والتنفيذ على اختلاف مراتبهم وتباين أصنافهم ومن عوائدهم أن
يكون هذا الوزير من صنف القبط القائمين على ديوان الحساب والجباية لا اختصاصهم
بذلك في مصر منذ عصور قديمة وقد يوليها السلطان بعض الأحيان لأهل الشوكة
من رجالات الترك أو أبناءهم على حسب الداعية لذلك والله مدبر الأمور ومصرفه
بحكمته لا اله الا هو رب الأولين والآخرين

(ديوان الاعمال والجبايات)

اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهي القيام على أعمال الجبايات
وحفظ حقوق الدولة في الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم
وصرف أعطياتهم في إباناتهم والرجوع في ذلك إلى القوانين التي يرتبها قومة تلك
الاعمال وقهارة الدولة وهي كماها مسطورة في كتاب شاهد بتفاصيل ذلك في الدخل
والخرج مبني على جزء كبير من الحساب لا يقوم به الا المهرة من أهل تلك الاعمال ويسمى
ذلك الكتاب بالديوان وكذلك مكان جلوس العمال المباشرين لها • ويقال ان

أصل هذه السمية أن كسرى نظريوما إلى كتاب ديوانه وهم يحسبون على أنفسهم
كانهم يحادون فقال ديوانه أي مجانين بلغة الفرس فسمى موضعهم بذلك وحذفت
الهاء لكثرة الاستعمال تخفيفا فقبل ديوان ثم نقل هذا الاسم إلى كتاب هذه الاعمال
المتضمن للتوانين والحسابات وقبله اسم للشياطين بالفارسية سمي الكتاب بذلك
لسرعة نفوذهم في فهم الامور ووقوفهم على الجلي منها والخفي وجمعهم لما شذو وتفرق
ثم نقل إلى مكان جلوسهم لتلك الاعمال وعلى هذا فتناول اسم الديوان كتاب الرسائل
ويمكن جلوسهم بباب السلطان على ما يأتي بعد وقد تفرده هذه الوظيفة بما نظر واحد ينظر
في سائر هذه الاعمال وقد يفرده كل صنف منها بما نظر كما يفرده في بعض الدول النظر في
العساكر واقطاعاتهم وحسبان أعطياتهم أو غير ذلك على حسب مصطلح الدولة
وما قرره أولوها * واعلم أن هذه الوظيفة انما تحدث في الدول عند تمكن الغلب
والاستيلاء والنظر في أعطاف الملك وفنون التمهيد وأقل من وضع الديوان في الدولة
الاسلامية عمر رضي الله عنه يقال لسبب مال أتى به أبوهريرة رضي الله عنه من
البحرين فاستكروه وتعبوا في قسمه فسموا إلى احصاء الاموال وضبط العطاء والحقوق
فأشار خالد بن الوليد بالديوان وقال رأيت ملوك الشام يدقون فقبل منه عمر وقيل بل
أشار عليه به الهرمزان لما رآه يعث البعوث بغير ديوان فقبل له ومن يعلم بغيبة من
يغيب منهم فان من تخلف أدخل بمكانه وانما يضبط ذلك الكتاب فأثبت لهم ديوانا وسأل
عمر عن اسم الديوان فعبر له ولما اجتمع ذلك أمر عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل
وجبير بن مطعم وكانوا من كتاب قريش فكتبوا ديوان العساكر الاسلامية على ترتيب
الانساب مبتدأ من قرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وما بعدها الاقرب فالاقرب
هكذا كان ابتداء ديوان الجيش وروى الزهري عن سعيد بن المسيب ان ذلك كان في
المحرم سنة عشرين * وأما ديوان الخراج والجبايات فبقي بعد الاسلام على ما كان
عليه من قبل ديوان العراق بالفارسية وديوان الشام بالرومية وكتاب الدواوين من
أهل العهد من القرين ولما جاء عبد الملك بن مروان واستحال الامر ملكا وانتقل
القوم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة ومن سذاجة الاتية إلى حذق الكتابة
وظهر في العرب ومواليهم مهرة في الكتاب والحسبان فأمر عبد الملك سليمان بن
سعد والى الاردن لعهد أن ينقل ديوان الشام إلى العربية فأكملته لسنة من يوم
ابتدائه ووقف عليه سرحون كاتب عبد الملك فقال لكتاب الروم اطلبوا العيش في غير
هذه الصناعات فقد قطعها الله عنكم * وأما ديوان العراق فأمر الججاج كاتبه صالح
ابن عبد الرحمن وكان يكتب بالعربية والفارسية واقن ذلك عن زادن فزوخ كاتب

الحجاج قبله ولما قتل زاذان في حرب عبد الرحمن بن الأشعث استخلف الحجاج صالحا
هذا مكانه وأمره أن ينقل الديوان من القارسية الى العربية ففعل ورغم ذلك كآب
الفرس وكان عبد الحميد بن يحيى يقول لله در صالح ما أعظم منه على الكتاب ثم جعلت
هذه الوظيفة في دولة بني العباس مضافة الى من كان له النظر فيه كما كان شأن بني برمك
وبني سهل بن نوبخت وغيرهم من وزراء الدولة * وأما ما يتعلق بهذه الوظيفة من
الاحكام الشرعية مما يختص بالجيش أو بيت المال في الدخل والخرج وتميز النواحي
بالصالح والغزوة وفي تقليد هذه الوظيفة ان يكون وشروط الناظر فيها والكتاب
وقوانين الحسابات فامر راجع الى كتب الاحكام السلطانية وهي مسطورة هناك
وليست من غرض كتابنا وانما تكلم فيها من حيث طبيعة الملك الذي نحن بصدده الكلام
فيه وهذه الوظيفة جزء عظيم من الملك بل هي ثالثة أركان له لان الملك لا بد له من الجند
والمال والمخاطبة لمن غاب عنه فاحتاج صاحب الملك الى الاعوان في أمر السيف وأمر
القلم وأمر المال فينتفرد صاحبها بذلك بجزء من رياسة الملك وكذلك كان الامر في دولة
بني أمية بالاندلس والطوائف بعدهم * وأما في دولة الموحدين فكان صاحبها ان
يكون من الموحدين يستقل بالنظر في استخراج الاموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر
الولاية والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفي مواقيتها وكان يعرف بصاحب الاشغال
وكان ربما يليها في الجهات غير الموحدين ممن يحسنها * ولما اتت بنو أي حفص
بافريقية وكان شأن الجالية من الاندلس فقدم عليهم أهل البيوتات وفيهم من كان
يستعمل ذلك في الاندلس مثل بني سعيد أصحاب القلعة جوار غرناطة المعروفين ببني
أبي الحسن فاستكفوا بهم في ذلك وجعلوا لهم النظر في الاشغال كما كان لهم بالاندلس
ودالوا فيها بينهم وبين الموحدين ثم استقل بها أهل الحسبان والكتاب وخرجت عن
الموحدين ثم لما استغلظ أمر الحاجب ونفذ أمره في كل شأن من شؤون الدولة تعطل
هذا الرسم وصار صاحبه مرؤسا للحاجب وأصبح من جملة الجباة وذهبت تلك الرياسة
التي كانت له في الدولة * وأما دولة بني مرين لهذا العهد فحسبان العطاء والخراج مجموع
لواحد وصاحب هذه الرتبة هو الذي يجمع الحسابات كلها ويرجع الى ديوانه وتقربه
معقب بنظر السلطان أو الوزير وخطه معتبر في صحة الحسبان في الخراج والعطاء هذه
أصول الرتب والخطط السلطانية وهي الرتب العالية التي هي عامة النظر ومباشرة
للسلطان * وأما هذه الرتبة في دولة الترك فتشعبة وصاحب ديوان العطاء يعرف بناظر
الجيش وصاحب المال مخصوص باسم الوزير وهو الناظر في ديوان الجباية العامة
للدولة وهو أعلى رتب الناظرين في الاموال لان النظر في الاموال عندهم يتفرع

الى رتب كثيرة لانفساح دولتهم وعظمة سلطانهم واتساع الاموال والجلبايات عن
 أن يستقل بضبطها الواحد من الرجال ولو بلغ في العكس كفاية مبالغه فتعين للنظر
 العام منها هذا المخصوص باسم الوزير وهو مع ذلك رديف لمولى من موالى السلطان
 وأهل عصبيته وأرباب السيوف في الدولة يرجع نظر الوزير الى نظره ويجهتد جهده في
 في متابعة ويسعى عندهم استاذ الدولة وهو أحد الامراء الاكابر في الدولة من الجنود
 وأرباب السيوف ويتبع هذه الخطة خطط عندهم أخرى كماها راجعة الى الاموال
 والحسبان مقصورة النظر على أمور خاصة مثل ناظر الخاص وهو المباشر لاموال
 السلطان الخاصة به من اقطاعه أو سهمانه من أموال الخراج وبلاد الجباية مما ليس
 من أموال المسلمين العامة وهو تحت يد الامير استاذ الداروان كان الوزير من الجنود
 فلا يكون لاستاذ الدار نظر عليه ونظر الخاص تحت يد الخازن لاموال السلطان من
 مما ليكه المسمى خازن الدار لاختصاص وظيفتهما بمجال السلطان الخاص • هذا
 بيان هذه الخطة بدولة الترتيب بالمشرق بعدما قدمناه من أمرها بالمغرب والله مصرف
 الامور لارب غيره

♦ (ديوان الرسائل والكتابة) ♦

هذه الوظيفة غير ضرورية في الملك لاستغناء كثير من الدول عنها رأسا كما في الدول
 العريقة في البداوة التي لم يأخذها تهذيب الحضارة ولا استحكام الصنائع وانما أكد
 الحاجة اليها في الدولة الاسلامية شأن اللسان العربي والبلاغة في العبارة عن المقاصد
 فصار الكتاب يؤدى كنه الحاجة بأبلغ من العبارة اللسانية في الاكثر وكان الكاتب
 للامير يكون من أهل نسبه ومن عظماء قبيله كما كان للخلفاء وامراء الصحابة بالشام
 والعراق اعظم امانتهم وخلوص أسرارهم للمفسد اللسان وصار صناعة اختص بمن
 يحسنه وكانت عند بني العباس ربيعة وكان الكاتب يصدر السجلات مطلقا ويكتب في
 آخرها اسمه ويختم عليها بجام الساطان وهو طابع منقوش فيه اسم السلطان أو شاربه
 بنمى في طين أحمر مذاب بالماء ويسمى طين الختم ويابع به على طرفي السجل عند
 طيه والصاقه ثم صارت السجلات من بعدهم تصدر باسم الساطان ويضع الكاتب فيها
 علامته أولا أو آخر اعلى حسب الاختيار في محلها وفي لفظها ثم قد تنزل هذه الخطة
 بارتفاع المكان عند السلطان لغير صاحبها من أهل المراتب في الدولة أو استبداد
 وزير عليه فتصير علامة هذا الكتاب ملغاة بالحكم بعلامة الرئيس عليه يستدل بها
 فيكتب صورة علامته المعهودة والحكم بعلامة ذلك الرئيس كما وقع آخر الدولة

المخصصة لما ارتفع شأن الخجاجة وصار أمرها الى التفويض ثم الاستبداد صار حكم
 العلامة التي للكاتب ملغى وصورته ثابتة اتباعا لماسلف من أمرها فصار الحاجب
 يرسم للكاتب امضاء كتابه ذلك بخط يصنعه ويخبره من صيغ الانفاذ ماشاء فيما أمر
 الكاتب له ويضع العلامة المعتادة وقد يختص السلطان بنفسه بوضع ذلك اذا كان
 مستبدا بأمره فائما على نفسه فبرسم الامر للكاتب ليضع علامته * ومن خطط
 الكتابة التوقيع وهو أن يجلس الكاتب بين يدي السلطان في مجالس حكمه وفصله
 ووقع على القصص المرفوعة اليه أحكامها والفصل فيها متلقة من السلطان بأو جز
 لفظ وأبلغه فاما أن تصدر كذلك واما أن يجذوا الكاتب على مثالها في سجل يكون بيد
 صاحب القصة ويحتاج الموقع الى عارضة من البلاغة يستقيم بها توقيعها وقد كان
 جعفر بن يحيى يوقع في القصص بين يدي الرشيد ويرمي بالقصة الى صاحبها فكانت
 توقيعاته يتنافس البلاغ في تحصيلها اللوقوف فيها على أساليب البلاغة وفنونها حتى
 قيل انها كانت تباع كل قصة منها بدينار وهكذا كان شأن الدول * واعلم أن صاحب
 هذه الخطة لا بد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل الرواة والحشمة منهم وزيادة
 العلم وعارضة البلاغة فانه معرض للنظر في أصول العلم لما يعرض في مجالس الملوك
 ومقاصد أحكامهم من أمثال ذلك مع ما تدعو اليه عشرة الملوك من القيام على
 الآداب والتخلق بالفضائل مع ما يضطر اليه في الترسيل وتطبيق مقاصد الكلام من
 البلاغة وأسرارها وقد تكون الرتبة في بعض الدول مستندة الى أرباب السيوف لما
 يقتضيه طبع الدولة من البعد عن معاناة العلوم لاجل سداجة العصبية فيختص
 السلطان أهل عصبية بخطوط دواته وسائر رتبة فيقلد المال والسيف والكتابة منهم
 فآمارتبة السيف فتستغنى عن معاناة العلم واما المال والكتابة فيضطر الى ذلك للبلاغة
 في هذه والحسبان في الاخرى فيختارون لها من هذه الطبقة ما دعت اليه الضرورة
 ويقلدونه الا أنه لا تكون يد آخر من أهل العصبية غالبه على يده ويكون نظره متصرفا
 عن نظره كما هو في دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فان الكتابة عندهم وان كانت لصاحب
 الانشاء الا أنه تحت يد أمير من أهل عصبية السلطان يعرف بالدو يدار وتعويل
 السلطان ووثوقه به واستنামته في غالب الأحوال اليه وتعويله على الاخر في أحوال
 البلاغة وتطبيق المقاصد وكم ان الاسرار وغير ذلك من توابعها * واما الشروط
 المعتبرة في صاحب هذه الرتبة التي يلاحظها السلطان في اختياره وانتقائه من اصناف
 الناس فهي كثيرة وأحسن من استوعبها عبد الحميد الكاتب في رسالته الى الكتاب
 وهي أما بعد حفظكم الله بأهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان

الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين
ومن بعد الملوك المكرمين اصنافا وان كانوا في الحقيقة سواء وصرتهم في صنوف
الصناعات وضروب المحاولات الى اسباب معاشهم وابواب ارزاقهم فجعلكم
معشر الكتاب في اشرف الجهات اهل الادب والروايات والعلم والرزانة بكم يتنظم
للخلافة محاسنها وتستقيم امورها وينصحائكم يصلح الله للخلق سلطانهم وتعمير بلدانهم
لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كافي الامنكم فوقكم من الملوك موقعا اسماءهم التي
بها يسمعون وابصارهم التي بها يبصرون والسننهم التي بها ينطقون وايديهم التي بها
يطشون فامة عنكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ولا تزع عنكم ما اضافه من
النعمة عليكم وليس احد من اهل الصناعات كلها اخرج الى اجتماع خلال الخير
المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم ابيها الكتاب اذا كنتم على ما ياتي
في هذا الكتاب من صفتكم فان الكتاب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي
ينبغيه في مهمات اموره ان يكون حليما في موضع الحلم فهما في موضع الحكم مقداما
في موضع الاقدام مجباما في موضع الاجسام مؤثرا للعقاف والعدل والانصاف
كتوما للاسرار وفيما عند الشدائد عابجا ياتي من التوازن يضع الامور مواضعها
والطوارق في اماكنها قد نظرت في كل فن من فنون العلم فاحكمه وان لم يحكمه اخذ
منه بمقدار ما يكتفي به يعرف بغريزة عقله وحسن اديه وفضل تجربته ما يرد عليه قبل
وروده وعاقبة ما يصد عنه قبل صدوره فيعدل لكل امر عدته وعتاده ويهي لكل وجه
هينته وعادته تتنافسوا يا معشر الكتاب في صنوف الآداب وتفقهوا في الدين
وابدوا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف السننكم ثم اجدوا
الخط فانه حلية كتبكم وارووا الاشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وايام العرب
والعجم واحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسمعوا اليه هممكم ولا تضيعوا
النظر في الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بانفسكم عن المطامع سنيها ودينها
وسفساف الامور ومحارقتها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن
الدناءة وآربوا بانفسكم عن السعابة والنميمة وما فيه اهل الجهالات واياكم والكبر
والسخف والعظمة فانها عداوة مجتابة من غير احنة وتحابوا في الله عز وجل في
صناعتكم وتواصوا عليهم بالذي هو اليق لاهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم
وان نبا الزمان برجل منكم فاعظفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويشوب اليه
أمره وان اقعده احد امنكم الكبر من مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه
وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من

اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت في
الشفق محمدا فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه
ويصدر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب
أسرع منه الى القراء وهو لىكم أفسد منه لها فقد علمت أن الرجل منكم اذا صحبه من
يبدل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعقد له من وفائه وشكره
واحتياله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جراه لحقه ويصدق ذلك تبعاً
له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ماله فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم
في حالة الرخاء والشدة والجحمان والمواساة والاحسان والسرء والضراء فنعمت
الشمة هذه من وهم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة واذا ولي الرجل منكم أو صبر
اليه من أمر خلق الله وعباله أمر فليراقب الله عز وجل ولا يثر طاعته وليكن على
الضعيف رفيقاً وللمظلوم منصفاً فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعباله ثم ليكن
بالعدل حاكماً ولا يشرف مكرماً وللي موفراً وللبلاد عامراً وللارعية متألماً وعن
أذا هم متخلفاً وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي مجالات خراجه واستقضاء حقوقه
رفيقاً واذا صحب أحدكم رجلاً فليختبر خلقة فاذا عرف حسنها وقبحها أعانها على
ما يوافق من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بأطف حيلة وأجل
وسيلة وقد علمت أن سائس البهية اذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها
فان كانت رده وحالم يهجمها اذا ركبها وان كانت شجوباً اتقاها من بين يديها وان خاف
منها شرودا اتقاها من ناحية رأسها وان كانت حروناً قع يرفق هوها في طرقها فان
استمرت عطفها يسيراً فيسأس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن
سأس الناس وعاملهم وجريمهم وداخلهم والكتاب لفضل أدبه وشريف
صنعتة ولطيف حيلته ومعاملته لمن يجاوله من الناس وينظره ويفهم عنه
أوبخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومدارائه وتقويم أوده من سائس
البهية التي لا تحير جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً الا بقدر ما يصيرها اليه
صاحبها الركب عليها الا فارفقوا رجلكم الله في النظر واعملوا ما أمكنكم فيه من
الروية والفكر تأمنوا باذن الله من محبة وه النبوة والاستئصال والجنوة ويصير منكم
الى الموافقة وتصبروا منه الى المواخاة والشفقة ان شاء الله ولا يجاوزن الرجل منكم في
هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه ونسبته وخدمته وغير ذلك من فنون
أمره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في
خدمتكم على التقصير وحفظة لائحة بل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا

على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرناه لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف
وسوء عاقبة الترف فانهم ما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضخان أهلها ولا سيما
الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على
مؤتلف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أو ضحها محجة
وأصدقها حجة وأجدها عاقبة واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل
لصاحبه عن اتقاده ورؤيته فليقصد الرجل منكم في مجلسه قصد الكافي من منطقته
وليوجز في ابتدائه وجوابه وليأخذ بجمع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة
للساغل عن كثاره وليضرب إلى الله في صلة توفيقه وامداده بتسديده مخافة وقوعه
في الغلط المضرب يده وعقله وآدابه فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل ان الذي برز من
جميل صنعه وقوة حركته انما هو بفضل جبلته وحسن تدبيره فقد تعرض بحسن ظنه
أو مقالته إلى أن يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك على من تأمله
غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر بالأمور وأجل لهب التدبير من مرافقه في
صناعته ومصاحبه في خدمته فان أعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رعى بالعجب
وراء ظهره ورأى أن أصحابه أعقل منه وأجل في طريقته وعلى كل واحد من الفريقين
أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تركية لنفسه ولا يكثر على
أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيرته وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته
والتدلل لعزته والتحدث بنعمته (وأنا أقول) في كتابي هذا ما سبق به المثل من تلزمه
النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغزة كلامه بعد الذي فيه من ذكر
الله عز وجل فلذلك جعلته آخره ونعمته به تولاها الله وإياكم يا معشر الطلبة والكهبة بما
يتولى به من سبق علمه بإسعاده وإرشاده فان ذلك إليه ويده والسلام عليكم ورحمة
الله وبركاته ٥١ * (الشرطة) * ويسمى صاحبها هذا العهد بإفريقية الحاكم وفي
دولة أهل الأندلس صاحب المدينة وفي دولة الترك الوالي وهي وظيفة مرؤسة لصاحب
السيوف في الدولة وحكمه نافذ في صاحبها في بعض الأحيان وكان أصل وضعها في
الدولة العباسية لمن يقم أحكام الجرائم في حال استبدانها أو لائم الحدود بعد استيفائها
فان التهم التي تعرض في الجرائم لا تنظر للشرع الا في استيفاء حدودها وللسياسة النظر
في استيفاء موجباتها بقرار يكرهه عليه الحاكم اذا احتفت به القرائن لما توجبها
المصلحة العامة في ذلك فكان الذي يقوم بهذا الاستبداء وباستيفاء الحدود بعده اذا
تزمه عنه القاضي يسمى صاحب الشرطة وربما جعلوا إليه النظر في الحدود والمعاه
باطلاق وأقردها من نظر القاضي ونزهوا هذه المرتبة وقلدوها كبار القواد وعظماء

الخاصة من مواليتهم ولم تكن عامة التنفيذ في طبقات الناس انما كان حكمهم على الذهب والفضة وأهل الريب والضرب على أيدي الرعاء والنجرة ثم عظمت نهايتها في دولة بني أمية بالاندلس وتوعدت الى شرطة كبرى وشرطة صغرى وجعل حكم الكبرى على الخاصة والذهب وما جعل له الحكم على أهل المراتب السلطانية والضرب على أيديهم في الظلمات وعلى أيدي أقاربهم ومن اليهم من أهل الجاه وجعل صاحب الصغرى مخصوصا بالعامّة ونصب لصاحب الكبرى كرسي تباب دار السلطان ورجال يتبوؤن المقاعد بين يديه فلا يبرحون عنها الا في تصرّفه وكانت ولايتها لكبار من رجال الدولة حتى كانت ترشحا للوزارة والحجابة * وأما في دولة الموحدين بالمغرب فكان لها حظ من التنبؤ وان لم يجعلوها عامة وكان لا يليها الا رجال الدولة الموحدين وكبارهم ولم يكن له التحكم على أهل المراتب السلطانية ثم فسدت اليوم منصبها وخرجت عن رجال الموحدين وصارت ولايتها لمن قام بهم من المصطنعين * وأما في دولة بني مرين لهذا العهد بالمشرق فولايتها في بيوت من مواليتهم وأهل اصطناعهم وفي دولة الترك بالمشرق في رجال الترك أو أعقاب أهل الدولة قبلهم من الكرد يتخبرونهم اها في النظر بما يظهر منهم من الصلابة والمضاء في الاحكام لقطع مواد الفساد وحسم أبواب الذعارة وتخريب مواطن الفسوق وتفريق مجامعهم مع اقامة الحدود الشرعية والسياسية كما تقتضيه رعاية المصالح العالمة في المدينة والله معقلب الليل والنهار وهو العزيز الجبار والله تعالى أعلم

* (قيادة الاساطيل) * وهي من مراتب الدولة وخطتها في ملك المغرب وافريقية ومروسة لصاحب السيف وتحت حكمه في كثير من الاحوال ويسمى صاحبها في عرفهم المند بتفضيم اللام منقولاً من لغة الافرنجية فانه اسمها في اصطلاح لغتهم وانما اقتصت هذه المرتبة بملك افريقية والمغرب لانهم ما جمعوا على ضفة البحر الرومي من جهة الجنوب وعلى عدوته الجنوبية بلاد البربر كلهم من سبتة الى الاسكندرية الى الشام وعلى عدوته الشمالية بلاد الاندلس والافرنجية والصقالبة والروم الى بلاد الشام أيضا ويسمى البحر الرومي والبحر الشامي نسبة الى أهل عدونه والساكنون بسيف هذا البحر وسواحلهم من عدوته يعانون من أحوالهم المآل انعاية عامة من أمم البحار فقد كانت الروم والافرنجية والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ولما أسف من أسف منهم الى ملك العدو الجنوبية مثل الروم الى افريقية والقوط الى المغرب أجازوا في الاساطيل وما كوها وتغلبوا على البربر بها وانتزعوا من أيديهم

أمرها وكان لهم بها المدن الحافلة مثل قرطاجنة وسيبلة وجولاء ومرناق وشرشال
وطنجة وكان صاحب قرطاجنة من قبلهم يحارب صاحب رومة ويعتد الاساطيل
لحربه مشحونة بالعساكر والعدد فكانت هذه عادة لاهل هذا البحر الساكنين خفايه
معروفة في القديم والحديث وللملوك المسلمون معه مركب عمر بن الخطاب الى عمرو بن
العاصي رضي الله عنهما أن صفي البحر فكذب اليه ان البحر خلق عظيم يركبه خلق
ضعيف دود على عود فأوعز حينئذ بنوع المسلمين من ركوبه ولم يركبه أحد من العرب
الامن اقتات على عمر في ركوبه ونال من عقابه كما فعل بهرجة بن هرثة الازدي سيد
بجيلة لما اغزاه عمان فبلغه غزوه في البحر فأنكر عليه وعنفه أنه ركب البحر لا غزو ولم
ينزل الشأن ذلك حتى اذا كان لعهد معاوية أذن للمسلمين في ركوبه والجهاد على
أعدائه والسبب في ذلك أن العرب كانوا البداءة وهم لم يكونوا أول الامر مهرة في ثقافته
وركوبه والروم والافرنجة لممارستهم أحواله ومر باهم في التقلب على أعدائه مرنوا
عليه وأحكموا الدربة بثقافته فلما استقر الملك للعرب وشيخ سلطانهم وصارت أمم العجم
خولاهم وتحت أيديهم وتقرب كل ذي صنعة اليهم بمبلغ صناعته واستخدموا من
النواية في حاجاتهم البحرية أمم وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته استعدوا
بصراه بها فشرهوا الى الجهاد فيه وأنشؤا السفن فيه والشواني وشحنوا الاساطيل
بالرجال والسلاح وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر واخضعوا
بذلك من ممالكهم وثورهم ما كان أقرب لهذا البحر وعلى حافته مثل الشام وافريقية
والمغرب والاندلس وأوعز الخليفة عبد الملك الى حسان بن النعمان عامل افريقية
باتخاذ دار الصناعة بتونس لانشاء الآلات البحرية جرسا على مراسم الجهاد ومنها كان
فتح صقلية أيام زيادة الله الاول ابن ابراهيم بن الاغلب على يد أسد بن الفرات شيخ
الفتيا وفتح قوصرة أيضا في أيامه بهد أن كان معاوية بن حديج أغزى صقلية أيام معاوية
ابن أبي سفيان فلم يفتح الله على يديه وفتحت على يد ابن الاغلب وقائده أسد بن الفرات
وكانت من بعد ذلك أساطيل افريقية والاندلس في دولة العبيديين والامويين
تتعاقب الى بلادهم في سبيل الفتنة فتجوس خلال السواحل بالافساد والتخريب
وانتهى أسطول الاندلس أيام عبد الرحمن الناصر الى مائتي مركب أو نحوها
وأسطول افريقية كذلك مثله أو قريبا منه وكان قائد الاساطيل بالاندلس ابن رماحس
ومرفوها للخط والاقلاع بجاية والمريية وكانت أساطيلها مجتمعة من سائر الممالك من كل
بلد تخدفيه السفن أسطول يرجع نظره الى قائد من النواية يدبر أمر حربه وسلاحه
ومقاتلته ورئيس يدبر أمر جريته بالريح أو بالمجاديف وأمر ارسائه في مرفئه فاذا

اجتمعت الاساطيل لغزو محتفل أو غرض ملطاني مهمم عسكرت بمرقتهما المعلوم
 وخصها السلطان برجاله وانجاد عساكره ومواليه وجعلهم لنظر أمير واسد من أعلى
 طبقات أهل مملكته يرجعون كلهم اليه ثم بسرحهم لوجههم وينتظر اياهم بالفتح
 والغنمة وكان المسلمون لعهد الدولة الاسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع
 جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للام النصرانية قبل باساطيلهم بشئ
 من جوانبه وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم فكانت لهم المقامات المعلومه من الفتح
 والغنائم وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه مثل ميورقة ومنورقة
 وبابسة وسردانية وصقلية وقوصرة ومالطة واقريطش وقبرص وسائر ممالك الروم
 والافرنج وكان أبو القاسم الشيعي وابناؤه يغزون اساطيلهم من المهدية بجزيرة
 جنوة فتقلب بالظفر والغنمة واقترح مجاهد العامري صاحب دانية من ملوك
 الطوائف جزيرة سردانية في اساطيل سنة خمس وأربعمائة وارتجعها النصارى لوقتها
 والمسلمون خلال ذلك كله قد تغلبوا على كثير من لجة هذا البحر وسارت اساطيلهم فيهم
 جارية وذاهبة والعساكر الاسلامية تجيز البحر في الاساطيل من صقلية الى البر الكبير
 المقابل لها من العدو الشمالية فتوقع بملوك الافرنج وتخنن في عمالكهم كما وقع في
 أيام بنى الحسين ملوك صقلية القاطنين فيها بدعوة العبيدين وانحازت ام النصرانية
 باساطيلهم الى الجانب الشمالي الشرقي منه من سواحل الافرنجة والصقالبة وجزائر
 الرومانية لابعادونها واساطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الاسد على فريسته وقد
 ملأت الاكدر من بسيط هذا البحر عدة وعدادوا واختلفت في طريقه سلاوحر باقلم تسبح
 للنصرانية فيه ألواح حتى اذا أدركت الدولة العبيدية والاموية الفشل والوهن وطرقها
 الاعتلال مدد النصارى أيديهم الى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة
 فلكوها ثم ألقوا على سواحل الشام في تلك الفترة وملكوا اطرابلس وعسقلان وصور
 وعكا واستولوا على جميع الثغور بسواحل الشام وغلبوا على بيت المقدس وبنوا عليه
 كنيسة لآظهار دينهم وعبادتهم وغلبوا بنى خزرون على طرابلس ثم على قابس وصفاقس
 ووضعوا عليهم الجزية ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيدين من يد أعقاب بلكين بن
 زيري وكانت لهم في المائة الخامسة الكثرة بهذا البحر وضعف شأن الاساطيل في دولة
 مصر والشام الى أن انقطع ولم يعتنوا بشئ من أمره لهذا العهد بعد ان كان لهم
 به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه
 الوظيفة هناك وبقيت بافريقية والمغرب فصارت مختصة بها وكان الجانب الغربي
 من هذا البحر لهذا العهد موفورا لاساطيل ثابت القوة لم يتصفه عدو ولا كانت لهم به

كثرة فكان قائد الاسطول به لعهد قريش بن سميون رؤسًا مجزية قادمين ومن أيديهم
أخذها عبد المؤمن بتسليمهم وطاعتهم وانتهى عن أساطيلهم إلى المائة من بلاد
الهندوتين جميعا * ولما استعملت هولة الموحدين في المائة السادسة وملكوا
الهندوتين أتمامًا واطحة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد وملك قائد
أسطولهم أحمد الصقلي أصله من صدعيار الموطنين بجزيرة جربة من سربوكش
أسره النصارى من مواطها وربي عندهم واستخلصه صاحب عقلية واستكفاه ثم
هلك وولى ابنه فأخطه ببعض التزعات وخشى على نفسه ولحق بتونس ونزل على
السيد بهام بن عبد المؤمن وأجاز إلى مراکش فتلقاء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن
بالمبرة والكرامة وأجزل الصلاة وقلده أمر أساطيله بجلى في جهاد أمة النصرانية
وكانت له آثار وأخبار ومقامات مذكورة في دولة الموحدين * وانتهت أساطيل
المسلمين على عهده في الكثرة والاستجادة إلى ما لم تبلغه من قبل ولا بعد فيما عهدناه ولما قام
صلاح الدين يوسف بن أيوب ملك مصر والشام لعهدده باسترجاع ثغور الشام من يد
النصرانية وتطهير بيت المقدس من رجس الكفر وبنياته تابعت أساطيلهم الكفرية
بالمدد لتلك الثغور من كل ناحية قريية لبيت المقدس الذي كانوا قد استولوا عليه
فأمدوهم بالعدد والاقوات ولم تقاومهم أساطيل الاسكندرية لاستمرار الغلب لهم في
ذلك الجانب الشرقي من البحر وتعذر أساطيلهم فيه وضعف المسلمين منذ زمان طويل
عن ممانعتهم هناك كما أشرنا إليه قبل فأوفد صلاح الدين على أبي يعقوب المنصور
سلطان المغرب لعهدده من الموحدين برسوله عبد الكريم بن منقمن بيت بن منقذ ملوك
شيزر وكان ملكها من أيديهم وأبقى عليهم في دولته فبعث عبد الكريم منهم هذا إلى
ملك المغرب طالبًا مدد الأساطيل لتجول في البحر بين أساطيل الكفرة وبين مرامهم
من أمداد النصرانية بثغور الشام وأصحبه كتابه إليه في ذلك من انشاء القاضل
البيساني يتول في افتتاحه فتح الله لسيدهنا أبواب المناجح والميامن حسيما نقله العماد
الاصفهانى في كتاب الفتح القدس فنقم عليهم انصورت نجافهم عن خطابه بأمر المؤمنين
وأسرهما في نفسه وحملهم على مناهج البر والكرامة وردتهم إلى مرسلهم ولم يجبه إلى
حاجته من ذلك * وفي هذا دليل على اختصاص ملك المغرب بالاساطيل وما حصل
للنصرانية في الجانب الشرقي من هذا البحر من الاستطالة وعدم عناية الدول بمصر
والشام لذلك العهد وما بعده لسأن الاساطيل البحرية والاستعداد منها للدولة ولما
هلك أبو يعقوب المنصور واعتلت دولة الموحدين واستولت أم الجلالة على الأكر
من بلاد الأندلس وأجلوا المسلمين إلى سيف البحر ومنكروا الجزائر التي بالجانب

الغربي من البحر الرومي قويت ريجهم في بسية هذا البحر واشتدت شوكتهم وكثرت فيه أساطيلهم وتراجعت قوة المبازين فيه الى المساواة معهم كما وقع لعهد السلطان أبي الحسن ملك زناتة بالمغرب فان أساطيله كانت عند مرامه الجهاد مثل عدة النصرانية وعديدهم ثم تراجعت عن ذلك قوة المبازين في الاساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد البحر بكثرة العوائد البدوية بالمغرب وانقطاع العوائد الاندلسية ورجع النصارى فيه الى دينهم المعروف من الدربة فيه والمران عليه والبصر بأحواله وغلب الامر في بلته وعلى أعواده وصار المسلمون فيه كالأجانب الا قليلا من أهل البلاد الساحلية لهم المران عليه لو وجدوا وكثرة من الانصار والاعوان أو قوة من الدولة تسخير لهم أعوانا وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكا وبقيت الرتبة لهذا العهد في الدولة الغربية محفوظة والرسم في معاناة الاساطيل بالانشاء والركوب معهود الماعساء تدعو اليه الحاجة من الاغراض السلطانية في البلاد البحرية والمسلمون يستهبون الرشح على الكفر وأهله من المشتهرين أهل المغرب عن كتب الحدثان أنه لا بد للمسلمين من الكثرة على النصرانية واقتتاح ما وراء البحر من بلاد الافرنجة وان ذلك يكون في الاساطيل والله ولي المؤمنين وهو حسبنا ونعم الوكيل

٣٦ (فصل في التفاوت من مراتب السيف والقلم في الدول)

(اعلم) أن السيف والقلم كلاهما آلة لصاحب الدولة يستعين بهما على أمره الا أن الحاجة في أول الدولة الى السيف مادام أهلها في تمهيد أمرهم أشد من الحاجة الى القلم لان القلم في تلك الحال خادم فقط منفذ للحكم السلطاني والسيف شريك في المعونة وكذلك في آخر الدولة حيث تضعف حصينتها كما ذكرناه ويقتل أهلها بما ينالهم من الهرم الذي قدمناه فتحتم الحاجة الى الاستظهار بأرباب السيوف وتقوى الحاجة اليهم في حماية الدولة والمدافعة عنها كما كان الشأن أول الامر في تمهيدها فيكون للسيف منزلة على القلم في الخالين ويكون أرباب السيف حيث بدأ وسع جاهها وأكثر نعمة وأمنى اقطاعا واما في وسط الدولة فيستغنى صاحبها ببعض الشيء عن السيف لانه قد تمهد أمره ولم يبق همه الا في تحصيل ثمرات الملك من الجباية والضبط ومباهاة الدول وتنفيذ الاحكام والقلم هو المعين له في ذلك فتعظم الحاجة الى انصر يقه وتكون السيوف مهملة في مضاجع انمادها الا اذا نابت نائبة أو دعت الى سد فرجة وما سوى ذلك فلا حاجة اليها فتكون أرباب الاقلام في هذه الحاجة أوسع جاهها وأعلى رتبة وأعظم نعمة ووزرة وأقرب من السلطان مجلسا وأكثر اليه تردها وفي خلواته نجما لانه حيث شاء الله التي بها يستظهر على تحصيل ثمرات ملكه والنظر في اعطائه وتنقيف أطرافه والمباهاة

باحواله ويكون الوزراء حيثئذ وأهل السيوف مستغنى عنهم مبعدين عن باطن
السلطان حذرين على أنفسهم من بوادره * وفي معنى ذلك ما كتب به أبو مسلم
للمنصور حين أمره بالقدوم أما بعد فإنه مما حفظناه من وصايا الفرس أخوف
ما يكون للوزراء إذا سكنت الدهماء سنة الله في عباده والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٧ فصل في شارات الملك والسلطان الخاصة به

(اعلم) أن للسلطان شارات وأحوال تقتضيها الأبهة والبذخ فيحتص بها وتميزاً تتحاليها
عن الرعية والبطانة وسائر الرؤساء في دولته فلقد كرما هو مشتهر منها بما يبلغ المعرفة وفوق
كل ذي علم عليهم * (الآلة) * فن شارات الملك اتخذ الآلة من نشر الألوية والرايات
وقرع الطبول والنفخ في الأبواق والقرون وقد ذكر أرسطو في الكتاب المنسوب إليه
في السياسة أن السر في ذلك إرهاب العدو في الحرب فإن الاصوات الهائلة لها تأثير في
النفوس بالروعة ولعمري أنه أمر وجداني في مواطن الحرب يجده كل أحد من نفسه
وهذا السبب الذي ذكره أرسطو ان كان ذكره فهو صحيح يعجز الاعتبارات * وأما
الحق في ذلك فهو أن النفس عند سماع النغم والاصوات يدر كها الفرح والطرب
بلا شك فيصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويسميت في ذلك الوجه الذي
هو فيه وهذا موجود حتى في الحيوانات العجم بانفعال الأبل بالهداء والخيل بالصفير
والصريح كما علمت ويريد ذلك تأثيراً إذا كانت الاصوات مناسبة كما في الغناء وأنت تعلم
ما يحدث لسامعه من مثل هذا المعنى ولاجل ذلك اتخذ العجم في مواطن حروبهم
الآلات الموسيقية لا طبلًا ولا بوقاً فيهدق المغنون بالسلطان في موكبه بالآلاتهم
ويغنون فيحركون نفوس الشجعان بضربهم إلى الاستماتة واقدر أي في حروب
العرب من يتغنى أمام الموكب بالشعر ويطرب فتجيش هم الأبطال بما فيها ويسارعون إلى
مجال الحرب وينبعث كل قرن إلى قرنه وكذلك زناتة من أمم المغرب يتقدم الشاعر
عندهم أمام الصفوف ويتغنى فيحرك بغنائه الجبال الرواسي وينبعث على الاستماتة
من لا يظن بها ويسمون ذلك الغناء ناصوكايت وأصله كله فرح يحدث في النفس فتنبعث
عنه الشجاعة كما تنبعث عن نشوة الخمر بما حدث عنها من الفرح والله أعلم * (وأما) *
تكثر الرايات وتلوينها واطالها فالقصد به التهويل لأمره وروما يحدث في
النفوس من التهويل زيادة في الاقدام وأحوال النفوس وتلوينها غريسة والله
الخلاق العليم * ثم ان الملوك والدول يختلفون في اتخاذ هذه الشارات فمنهم مكثر
ومنهم مقلل بحسب اتساع الدولة وعظمتها إذ الرايات فانها شعار الحروب من عهد

الخليقة ولم تزل الامم تعقد هاتي مواطن الحروب والغزوات ولعهد النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعده من الخلفاء * وأما قرع الطبول والتفخ في الابواق فكان المسلمون لا قول الملة متجانين عنه تنزها عن غلظة الملك ورفض الاحوال واحتقارا لاهتبه التي ليست من الحق في شئ حتى اذا انقلبت الخلافة ملكا وتبصروا زهرة الدنيا وتعيها ولا يسهم الموالي من الفرس والروم أهل الدول السالفة وأروهم ما كان أولئك يتحلون به من مذاهب البذخ والترف فكان مما استحسنوه اتخذوا الآلة فأخذوها وأذنوا العمالهم في اتخاذها تنويها بالملك وأهملوا فكثيرا ما كان العامل صاحب الثغر أو قائد الجيش يعقده الخليفة من العباسيين أو العبيديين لواءه ويخرج الى بعضه أو عمله من دار الخليفة أو داره في مواكب من أصحاب الرايات والآلات فلا يعزبين موكب العامل والخليفة الا بكثرة الالوية وقتلتها أو بما اختص به الخليفة من الالوان لرايته كما سواد في رايات بني العباس فان راياتهم كانت سودا حزن على شهدائهم من بني هاشم ونعيا على بني امية في قتلهم ولذلك سمو المسودة * ولما افرق أمر الهاشميين وخرج الطالبيون على العباسيين في كل جهة وعصر ذهبوا الى مخالفتهم في ذلك فاتخذوا الرايات بيضا وسموا المبيضة لذلك سائر أيام العبيديين ومن خرج من الطالبين في ذلك العهد بالمشرق كالداغى بطبرستان وداغى صعدة أو من دعا الى بدعة الرافضة من غيرهم كالقرامطة * ولما نزع المأمون عن لبس السواد وشعاره في دولته عدل الى لون الخضرة فجعل رايته خضراء وأما الاستكثار منها فلا ينتهي الى حد وقد كانت آلة العبيديين لما خرج العزيز الى فتح الشام خمسمائة من البنود وخمسمائة من الابواق وأما ملوك البربر بالمغرب من صنهاجة وغيرها فلم يحتصوا بلون واحد بل وشوها بالذهب واتخذوها من الحرير الخالص ملونة واستمروا على الاذن فيها العمالهم حتى اذا جاءت دولة الموحدين ومن بعدهم من زنانية قصروا الآلة من الطبول والبنود على السلطان وحظروها على من سواه من عماله وجعلوا الهاموكا خاصا يتبع أثر السلطان في مسيره يسمى الساقه وهم فيه بين مكثر ومقل باختلاف مذاهب الدول في ذلك فهم من يقتصر على سبع من العدد تبركا بالسبعة كما هو في دولة الموحدين وبني الاحمر بالاندلس ومنهم من يبلغ العشرة والعشرين كما هو عند زنانية وقد بلغت في أيام السلطان أبي الحسن فيما أدركناه مائة من الطبول ومائة من البنود ملونة بالحرير منسوجة بالذهب ما بين كبير وصغير ويأذنون للولاية والعمال والقواد في اتخاذ راية واحدة صغيرة من الكتان بيضاء وطويل صغير أيام الحرب لا يتجاوزون ذلك * وأما دولة الترك لهذا العهد بالمشرق فيتخذون أو لراية واحدة عظيمة وفي رأسها خصلة كبيرة

من الشعر يسمونها الشالش والخر وهي شعار السلطان عندهم ثم تتعدد الرايات
ويسمونها السناجق واحدها سنجق وهي الراية بلسانهم وأما الطبول فيبالغون في
الاستكثار منها ويسمونها الكوسات ويبيحون لكل أميراً وقائد عسكراً أن يتخذ من
ذلك ما يشاء الا الجتر فانه خاص بالسلطان * وأما الجلافة لهذا العهد من أمم الافرنجة
بالاندلس فأكثر شأنهم اتخاذ الألوية القليلة ذاهبة في الجوصعداومعها قرع الاوتار
من الطنابير ونفخ الغيطات بذهبون فيها مذهب الغناء وطريقتهم في مواطن جروبهم
هكذا يلفغنا عنهم وعن ورائهم من ملوك العجم ومن آياته خلق السموات والارض
واختلاف السنة لكم وألوانكم ان في ذلك لايات للعالمين

* (السرير) * وأما السرير والمنبر والتخت والكرسي وهو أعواد منصوبة
أو أرائك منضدة جلوس السلطان عليهم امر تفعا عن أهل مجلسه أن يساويهم في
الصعيد ولم يزل ذلك من سنن الملوك قبل الاسلام وفي دول العجم وقد كانوا يجلسون على
اسرة الذهب وكان لسليمان بن داود صلوات الله عليهما وسلامه كرسى وسرير من عاج
مغشى بالذهب الا أنه لا تأخذ به الدول الا بعد الاستفعال والترف شأن الأبهة كلها كما
قلناه وأما في أول الدولة عند البداوة فلا يتشرفون اليه * وأول من اتخذ في الاسلام
معاوية واسه أذن الناس فيه وقال لهم اني قد بنت فأذنوا له فاتخذه واتبعه الملوك
الاسلاميون فيه وصار من منازع الأبهة ولقد كان عمرو بن العاصي بمصر يجلس
في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس الى قصره ومعه سرير من الذهب
محمول على الأيدي جلوسه شأن الملوك فيجلس عليه وهو أمامه ولا يغيرون عليه وفاء له بما
اعتقد معهم من الذمة واطرا حالاً به الملك ثم كان بعد ذلك لبني العباس والعباسيين
وسائر ملوك الاسلام شرقاً وغرباً من الاسرة والمنابر والنخوت ما عفا عن الاكسرة
والقباسرة والله مقلب الليل والنهار

* (السكة) * وهي الختم على الدنانير والدرهم المتعامل بهما بين الناس بطابع حديد
ينقش فيه صوراً وكلمات مقنونة ويضرب بها على الدينار والدرهم فتخرج رسوم تلك
النقوش عليها ظاهرة مستقيمة بعد أن يعتبر عيار النقود من ذلك الجنس في خلوصه
بالسبك مرة بعد أخرى وبعد تقدير أشخاص الدراهم والدنانير بوزن معين صحيح يصلح
عليه فيكون التعامل بها عدداً وان لم تقدر أشخاصها يكون التعامل بها وزناً ونقطة
السكة كان اسماً للطابع وهي الحديدية المتخذة لذلك ثم نقل الى أثرها وهي النقوش المائلة
على الدنانير والدرهم ثم نقل الى القيام على ذلك والنظر في استيفاء حاجاته وشروطه وهي
الوظيفة نصار علمائها في عرف الدول وهي وظيفة ضرورية للملك اذ بها يتميز الخالص.

من المغشوش بين الناس في النقود عند المعاملات ويتقون في سلامتها الغش بجنم
السلطان عليها تلك النقوش المعروفة وكان ملوك العجم يتخذونها وينقشون فيها
تمائيل تكون مخصوصة بها مثل تمثال السلطان لعهدا أو تمثيل حصن أو حيوان
أو مصنوع أو غير ذلك ولم يزل هذا الشأن عند العجم الى آخر أمرهم * ولما جاء
الاسلام اغفل ذلك لسداجة الدين وبداوة العرب وكانوا يتعاملون بالذهب والفضة
وزننا و كانت دنانير الفرس و دراهمهم بين أيديهم يردونها في معاملتهم الى الوزن
ويتصارفون بها بينهم الى أن تفاحش الغش في الدنانير والدراهم لغذلة الدولة عن ذلك
وأمر عبد الملك الحجاج على ما نقل سعيد بن المسيب وأبو الزناد بضرب الدراهم وتغيير
المغشوش من الخالص وذلك سنة أربع وسبعين وقال المدائني سنة خمس وسبعين ثم
أمر بصرفها في سائر النواحي سنة ست وسبعين وكتب عليها الله أحد الله الصمد ثم ولي
ابن هبيرة العراق أيام يزيد بن عبد الملك فجود السكة ثم باع خالد القسري في تجويدها
ثم يوسف بن عمر بعده وقيل أول من ضرب الدنانير والدراهم مصعب بن الزبير بالعراق
سنة سبعين بأمر أخيه عبد الله لما ولي الحجاز وكتب عليها في أحد الوجهين بركة الله
وفي الآخر اسم الله ثم غيرها الحجاج بعد ذلك بسنة وكتب عليها اسم الحجاج وقدر وزنها
على ما كانت استقرت أيام عمر وذلك أن الدرهم كان وزنه أول الاسلام ستة دوانق
والمقال وزنه درهم وثلاثة أسباع درهم فتكون عشرة دراهم بسبعة مثاقيل وكان
السبب في ذلك أن أوزان الدرهم أيام الفرس كانت مختلفة وكان منها على وزن المقال
عشرون قيراطا ومنها اثنا عشر ومنها عشرة فلما احتج الى تقديره في الزكاة أخذ الوسط
وذلك اثنا عشر قيراطا فكان المقال درهما وثلاثة أسباع درهم وقيل كان منها
البغلي ثمانية دوانق والطبري أربعة دوانق والمغربى ثمانية دوانق واليمنى ستة
دوانق فأمر عمر أن ينظر الاغلب في التعامل فكان البغلي والطبري وهما اثنا عشر
دانقا وكان الدرهم ستة دوانق وان زدت ثلاثة أسباعه كان مثقالا واذ انقصت ثلاثة
أهشارا المثقال كان درهما فلما رأى عبد الملك اقتضا السكة لصيانة النقدتين الجارين
في معاملة المسلمين من الغش نعين مقدارها على هذا الذي استقر لعهد عمر رضي الله عنه
واتخذ طابع الحديد واتخذ فيه كلمات لا صور الان العرب كان الكلام والبلاغة أقرب
مناحيمهم وأظهرها مع أن الشرع ينهى عن الصور فلما فعل ذلك استقر بين الناس في
أيام الملة كلها وكان الدينار والدرهم على شكلين مدورين والكتابة عليهما في دوائر
متوازية يكتب فيها من أحد الوجهين أسماء الله تمللا وتحميدا و صلاة على النبي
وآله وفي الوجه الثاني التاريخ واسم الخليفة وهكذا أيام العباسيين والعباسيين

والامويين وأما صنماجة فلم يتخذ واسكة الا آخر الامر اتخذها منصور صاحب بجاية
 ذكر ذلك ابن حنبل في تاريخه ونماجات دولة الموحدين كان مما سن اهم المهدي اتخذ
 سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم في دائرة الدينار شكل مربع في وسطه ويلا
 من أحد الجانبين تهليلاً وتحميداً من الجانب الآخر كتاباً في السطور باسمه واسم
 الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون وكانت سكتهم على هذا الشكل لهذا العهد
 ولقد كان المهدي فيما ينقل نعت قبل ظهوره بصاحب الدرهم المربع نعتة بذلك
 المتكلمون بالحدثنان من قبله المخبرون في ملاحظهم عن دواته وأما أهل المشرق لهذا
 العهد فسكتهم غير مة ترة وانما يتعاملون بالدينار والدرهم وزناً بالصنماجات المقطرة
 بعدة منها ولا يطبعون عليها بالسكة نقوش الكلمات بالتهليل والصلاة واسم السلطان
 كما يفعله أهل المغرب ذلك تقدير العزيز العليم (ولنختم الكلام) في السكة بذكر حقيقة
 الدرهم والدينار الشرعيين وبيان حقيقة مقدارهما

وذلك أن الدينار والدرهم مختلفا السكة في المقدار والموازين بالآفاق والامصار
 وسائر الاعمال والشرع قد تعرض لذكرهما وعلق كثيراً من الاحكام بهما في الزكاة
 والانكحة والحدود وغيرهما فلا بد لهما عنده من حقيقة ومقدار معين في تقدير
 تجري عليهما احكامه دون غير الشرعي منهما فاعلم أن الاجماع منعقد منذ صدر
 الاسلام وعهد الصحابة والتابعين أن الدرهم الشرعي هو الذي وزن العشرة منه سبعة
 مثاقيل من الذهب والاقية منه أربعين درهما وهو في هذا سبعة اعشار الدينار
 ووزن المثقال من الذهب ثمان وسبعون حبة من الشعير فالدرهم الذي هو سبعة
 اعشاره خمسون حبة وخمسة وخمسة هذه المقادير كلها ثابتة بالاجماع فان الدرهم
 الجاهلي كان بينهم على أنواع أجودها الطبري وهو ثمانية دوانق والبغلي وهو أربعة
 دوانق فجعلوا الشرعي بينهما وهو ستة دوانق فكانوا يوجبون الزكاة في مائة درهم بغلية
 ومائة طبرية خمسة دراهم وسطار وقد اختلف الناس هل كان ذلك من وضع عبد الملك
 أو اجماع الناس بعد عليه كما ذكرناه ذلك الخطام في كتاب معالم السنن والماوردي
 في الاحكام السلطانية وانكره المحققون من المتأخرين لما يلزم عليه أن يكون الدينار
 والدرهم الشرعيان مجهولين في عهد الصحابة ومن بعدهم مع تعلق الحقوق الشرعية
 بهما في الزكاة والانكحة والحدود وغيرها كما ذكرناه والحق أنهم ما كانوا معلومين
 انقضاء في ذلك العصر لجرى بان الاحكام يومئذ بما يتعلق بهما من الحقوق وكان
 مقدارهما غير مشخص في الخارج وانما كان متعارفاً بينهم بالحكم الشرعي على المقدر
 في مقدارهما ووزنهما حتى استعمل الاسلام وعظمت الدولة ودعت الحال الى

تخصصهما في المقدار والوزن كما هو عند الشرع ليستريحوا من كلفة التقدير وفارز
 ذلك أيام عبد الملك فخصص مقدارهما وعينهما في الخارج كما هو في الذهن ونقش
 عليهما السكة باسمه وتاريخه اثر الشهادتين الايمانيتين وطرح النقود الجاهلية رأسا
 حتى خلصت ونقش عليها سكة وتلاشي وجودها فهذا هو الحق الذي لا محمد عنه
 ومن بعد ذلك وقع اختيار أهل السكة في الدول على مخالفة المقدار الشرعي في الدينار
 والدرهم واختلفت في كل الاقطار والافاق ورجع الناس الى تصور مقاديرهما
 الشرعية ذهنا كما كان في الصدر الاول وصار أهل كل أفق يستخرجون الحقوق
 الشرعية من سكتهم بعرفة النسبة التي بينها وبين مقاديرها الشرعية وأما وزن الدينار
 بائنين وسبعين حبة من الشعير الوسط فهو الذي نقله المحققون وعليه الاجماع الا ابن
 حزم خالف ذلك وزعم أن وزنه أربعة وثمانون حبة نقل ذلك عنه القاضي عبد الحق
 وردة المحققون وعنده وهو ما وغلطا وهو الصحيح والله يحق الحق بكامله وكذلك
 تعلم أن الاوقية الشرعية ليست هي المتعارفة بين الناس لان المتعارفة مختلفة
 باختلاف الاقطار والشرعية منحدرة ذهنا لا اختلافا فيها والله خلق كل شيء فقدره
 تقديرا

* (الخاتم) * وأما الخاتم فهو من الخطط السلطانية والوظائف الملوكية والختم
 على الرسائل والصكوك معروفة للملوك قبل الاسلام وبعده وقد ثبت في
 الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم أراد أن يكتب الى قيس بن قيس فقبيل له ان الهم
 لا يقبلون كتابا الا أن يكون محتوما فاقخذ خاتما من فضة ونقش فيه * محمد رسول الله *
 قال البخاري جعل الثلاث كلمات في ثلاثة أسطر وختم به وقال لا ينقش أحد مثله قال
 وتختم به أبو بكر وعمر وعثمان ثم سقط من يد عثمان في بئر اريس وكانت قلبه له الماء فلم
 يدركه فعرها بعدوا غتم عثمان وتطير منه وصنع آخر على مثله وفي كيفية نقش الخاتم
 والختم به وجوه وذلك أن الخاتم يطلق على الالة التي تجعل في الاصبع ومنه تختم
 اذا بسه ويطلق على النهاية والتمام ومنه ختمت الامر اذا بلغت آخره وختمت القرآن
 كذلك ومنه خاتم النبيين وخاتم الامر ويطلق على السداد الذي يسد به الاواني والذنان
 ويقال فيه ختام ومنه قوله تعالى ختامه مسك وقد غلط من فسر هذا بالنهاية والتمام
 قال لان آخر ما يجردونه في شراهم ربح المسك وايس المعنى عليه وانما هو من الختام
 الذي هو السداد لان الخمر يجعل لهما في الدن سد الطين أو القار يحفظها ويطيب
 عرفها وذوقها فبولغ في وصف خمر الجنة بأن سدادهما من المسك وهو أطيب عرفا
 وذوقا من القار والطين المعهودين في الدنيا فاذا صح اطلاق الخاتم على هذه كلها صح

اطلاقه على أثرها الناشئ عنها وذلك أن الخاتم اذا نقشت به كلمات أو أشكال ثم غمس
 في مداف من الطين أو مداد ووضع على صفح القرطاس بقي أكثر الكلمات في ذلك
 الصفح وكذلك اذا طبع به على جسم لين كالشمع فانه يبقى نقش ذلك المكتوب مرتسما
 فيه واذا كانت كلمات وارتمت فقد يقرأ من الجهة اليسرى اذا كان النقش على
 الاستقامة من اليمين وقد يقرأ من الجهة اليمنى اذا كان النقش من الجهة اليسرى لان
 الختم يظلم جهة الخط في الصفح عما كان في النقش من يمين أو يسار فيحتمل أن يكون
 الختم بهذا الخاتم بغمسه في المداد أو الطين ووضع على الصفح فتنتقش الكلمات فيه
 ويكون هذا من معنى النهاية والتمام بمعنى صحة ذلك المكتوب ونفوذه كأن الكتاب
 انما يتم العمل به بهذه العلامات وهو من دونها ملغى ليس بتمام وقد يكون هذا الختم
 بالخط آخر الكتاب أو أوله بكلمات منتظمة من تحميد أو تسبيح أو باسم الساطان
 أو الامير أو صاحب الكتاب من كان أو شيء من نعونه يكون ذلك الخط علامة على
 صحة الكتاب ونفوذه ويسمى ذلك في المعارف علامة ويسمى ختماتشبهها بالآثار الخاتم
 الاصحى في النقش ومن هذا خاتم القاضي الذي يبعث به للخصوم أي علامته وخطه
 الذي يتقديهما أحكامه ومنه خاتم السلطان أو الخليفة أي علامته قال الرشيد ايجي
 ابن خالدا أراد أن يستوزر جعفر او يستبدل به من الفضل أخيه فقال لا ييم ما يجي
 يا أبت اني أردت أن أحول الخاتم من يميني الى شمالي فكفى له بالخاتم عن الوزارة لما
 كانت العلامة على الرسائل والصكوك من وظائف الوزارة لعهدهم ويشهد لصحة
 هذا الاطلاق ما نقله الطبري أن معاوية أرسل الى الحسن عند مرأوده اياه في الصلح
 صحيفة بيضاء ختم على أسفها وكتب اليه أن اشترط في هذه الصحيفة التي ختمت أسفلها
 ما شئت فهو لك ومعنى الختم هنا علامة في آخر الصحيفة بخطه أو غيره ويحتمل أن يختم
 به في جسم لين فتنتقش فيه حروفه ويجعل على موضع الحزم من الكتاب اذا حزم
 وعلى المودوعات وهو من السداد كما هو وهو في الوجهين آثار الخاتم فيطاق عليه خاتم
 وأول من أطاق الختم على الكتاب أي العلامة معاوية لانه أمر لعمر بن الزبير عند
 زياد بالكوفة بمائة ألف ففتح الكتاب وصير المائة مائتين ورفع زياد حسابها فأنكرها
 معاوية وطلب بها عمر وجسه حتى قضاها عنه أخوه عبد الله واتخذ معاوية عند ذلك
 ديوان الخاتم ذكره الطبري وقال آخره وحزم الكتب ولم تكن تحزم أي جعل لها
 السداد وديوان الختم عبارة عن الكتاب القائم على انفاذ كتب السلطان والختم
 عليها ما بالعلامة أو بالحزم وقد يطلق الديوان على مكان جلوس هؤلاء الكتاب كما
 ذكرناه في ديوان الاعمال والحزم للكتب يكون اما بدس الورق كما في عرف كتاب

المغرب وأما بلصق رأس العصفية على ما تنطوي عليه من الكتاب كما في عرف أهل
المشرق وقد يجعل على مكان الدس أو الاصاق علامة يؤمن معها من فتحه والاطلاع
على ما فيه فأهل المغرب يجعلون على مكان الدس قطعة من الشمع ويحتمون عليها بخاتم
نقشت فيه علامة لذلك فيرسم النقش في الشمع وكان في المشرق في الدول القديمة يختم
على مكان اللصق بخاتم منقوش أيضا قد غمس في مداف من الطين معد لذلك صبغه
أحمر فيرسم ذلك النقش عليه وكان هذا الطين في الدولة العباسية يعرف بطين الختم
وكان يجلب من سيرا ف يظهر أنه مخصوص بها فهذا الخاتم الذي هو العلامة المكتوبة
أو النقش للسداد والحزم للكتب خاص بديوان الرسائل وكان ذلك للوزير في الدولة
العباسية ثم اختلف العرف وصار لمن اليه الترسيل وديوان الكتاب في الدولة ثم صاروا
في دول المغرب يعدون من علامات الملك وشاراته الخاتم الاصبع فيستجيدون صوغه
من الذهب ويرصونه بالنصوص من الباقوت والفيروزج والزمر ذو يلبسه السلطان
شارة في عرفهم كما كانت البردة والقضب في الدولة العباسية والمظلة في الدولة العبيدية
واقه مصرف الامور بحكمه

* (الطراز) * من أبهة الملك والسلطان ومذاهب الدول أن ترسم أسماءهم أو علامات
تختص بهم في طراز أو ابهم المعدة للباسهم من الحرير أو الديباغ أو الابريسم تعتبر كآية
خطها في نسج الثوب الحامو وسدى بنحيط الذهب أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط
الملقونة من غير الذهب على ما يحكمه الصناع في تقدير ذلك ورضعه في صناعة نسجهم
فتمير الثياب الملوكية معلية بذلك الطراز قصد التنويه بلا بسهم من السلطان فمن دونه
أو التنويه بمن يختصه السلطان بلبوسه اذا قصد تشر يفه بذلك أو ولايته لوظيفة من
وظائف دولته وكان ملوك العجم من قبل الاسلام يجعلون ذلك الطراز بصور الملوك
وأشكالهم وأشكال وصوره معينة لذلك ثم اعراض ملوك الاسلام عن ذلك بكتب
أسمائهم مع كلمات أخرى تجرى مجرى الفال أو السجلات وكان ذلك في الدولتين من أبهة
الامور وأنعم الاحوال وكانت الدور المعدة لتسج أو ابهم في قصورهم تسمى دور الطراز
لذلك وكان القائم على النظر فيها يسمى صاحب الطراز ينظر في أمور الصباغ والآلة
والحكاكة فيها و اجراء أرزاقهم وتسهيل آلائهم ومشارفة أعمالهم وكانوا يقلدون ذلك
لخواص دولتهم وثقات مواليتهم وكذلك كان الحال في دولة بني أمية بالاندلس
والطوائف من بعدهم وفي دولة العبيدين بمصر ومن كان على عهدهم من ملوك العجم
بالمشرق ثم لما ضاق نطاق الدول عن الترف والتفنن فيه اضيق نطاقها في الاستيلاء
وتعددت الدول تعطلت هذه الوظيفة والولاية عليهما من أكثر الدول بليلة * ولما

جاءت دولة الموحدين بالمغرب بعد بني أمية أول المائة السادسة ولم يأخذوا بذلك أول دولتهم لما كانوا عليه من منازع الديانة والسذاجة التي لقنوها عن امامهم محمد بن تومرت المهدي وكانوا يتورعون عن اباس الحرير والذهب فسقطت هذه الوظيفة من دولتهم واستدرك منها أعقابهم آخر الدولة طرفا لم يكن تلك النباهة وأما لهذا العهد فأدركا بالمغرب في الدولة المرينية لعنفوانهم وشموخهم بما جلبوا لقنوه من دولة ابن الأحمر معاصرههم بالاندلس واتبع هو في ذلك ملوك الطوائف فاقى منه بلحمة شاهدة بالآثر * وأما دولة الترك بمصر والشام لهذا العهد ففيه من الطرز تحريرا آخر على مقدار ملكهم وعمران بلادهم الآن ذلك لا يصنع في دورهم وقصورهم وليست من وظائف دولتهم وإنما ينسج ما تطلبه الدولة من ذلك عند صناعه من الحرير ومن الذهب الخالص ويسمونه المزركش لقطعة أجمية ويرسم اسم السلطان أو الأمير عليه ويعتد الصانع لهم فيما بعدونه للدولة من طرف الصناعة اللاتفة بها والله مقدر الليل والنهار والله خير الوارئين

(الفساطيط والسياج)

اعلم أن من شارات الملك وترفه اتخاذ الاخبية والفساطيط والفضازات من ثياب الكتان والصوف والقطن بجدل الكتان والقطن فيباهي بها في الاسفار وتنوع منها الالوان ما بين كبير وصغير على نسبة الدولة في الثروة واليسار وإنما يكون الامر في أول الدولة في بيوتهم التي جرت عاداتهم باتخاذها قبل الملك وكان العرب لعهد الخلفاء الاولين من بني أمية انما يسكنون بيوتهم التي كانت لهم خياما من الوبر والصوف ولم تزل العرب لذلك العهد يدين الا الاقل منهم فكانت أسفارهم لغزواتهم وحروبهم بظعونهم وسائر حلالهم واحيائهم من الادل والولد كما هو شأن العرب لهذا العهد وكانت عساكرهم لذلك كثيرة الحلل بعيدة ما بين المنازل متفرقة الاحياء يغيب كل واحد منها عن نظر صاحبه من الاخرى كشأن العرب ولذلك ما كان عبد الملك يحتاج الى ساقه تحشد الناس على أثره أن يقيموا اذا طعن ونقل أنه استعمل في ذلك الجحاج حين أشار به روح ابن زنباع وقصبتها في اجراق فساطيط روح وخيامه لا اول ولايته حين وجدهم مقيمين في يوم رحيل عبد الملك قصة مشهورة ومن هذه الولايات تعرف رتبة الجحاج بين العرب فانه لا يتولى اراذتهم على الطعن الا من يأمن بوادر السفهاء من احبائهم بحاله من العصية الحائلة دون ذلك ولذلك اختصه عبد الملك بهذه الرتبة ثقة بعتائه فيها بعصيته وصرامته فلما تفتت الدولة العربية في مذاهب الحضارة والبدخ

ونزلوا المدن والامصار واتقلوا من سكنى الخيام الى سكنى القصور ومن ظهر الخلف الى ظهر الحافر اتخذوا للسكنى في أسفارهم ثياب الكنان يستعملون منها بيوتاً مختلفة الاشكال مقدرة الامثال من القوراء والمستطيلة والمربعة ويحتفلون فيها بأبلغ مذاهب الاحتفال والزينة وينير الامير والقائد للعساكر على فساطيطه وفازاته من بينهم سياجاس الكنان يسمى في المغرب بلسان البر الذي هو لسان أهله أقر البالكاف التي بين الكاف والقاف ويحتص به السلطان بذلك القطر لا يكون لغيره * وأما في المشرق فيتخذ كل أمير وان كان دون السلطان ثم جنحت الدعوة بالنساء والولدان الى المقام بقصورهم ومنازلهم فخذ ذلك ظهرهم وتقاربت الساح بين منازل العسكر واجتمع الجيش والسلطان في معسكر واحد يحصره البصر في بسطة زهواً أنيقاً لاختلاف ألوانه واستمر الحال على ذلك في مذاهب الدول في بذخها وترفها وكذا كانت دولة الموحدين وزنابة التي أظلتنا كان سفرهم أول أمرهم في بيوت سكناهم قبل الملك من الخيام والقباطن حتى اذا أخذت الدولة في مذاهب الترف وسكنى القصور عادوا الى سكنى الاخبية والفساطيط وبلغوا من ذلك فوق ما أرادوه وهو من الترف بمكان الآن العساكر به نصير عرضة للبيات لاجتماعهم في مكان واحد تشملهم فيه الصيحة ولحقتهم من الاهل والولد الذين تكون الاستماتة دونهم فيحتاج في ذلك الى تحفظ آخر والله القوى العزيز

(المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة)

وهما من الامور الخلافية ومن شارات الملك الاسلامي ولم يعرف في غير دول الاسلام * فاما البيت المقصورة من المسجد لصلاة السلطان فيتخذ سياجاً على المحراب فيحوزه وما يليه فأول من اتخذها معاوية بن أبي سفيان حين طعمه الخارجي والقصة معروفة وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعمه اليماني ثم اتخذها الخلفاء من بعدهما وصارت سنة في تمييز السلطان عن الناس في الصلاة وهي انما تحدث عند حصول الترف في الدول والاستفعال شأن أحوال الأئمة كلها وما زال الشأن ذلك في الدول الاسلامية كلها وعند افتراق الدولة العباسية وتعدت الدول بالمشرق وكذا بالاندلس عند انقراض الدولة الاموية وتعدت ملوك الطوائف وأما المغرب فكان بنو الاغلب يتخذونها بالقيروان ثم الخلفاء العبيديون ثم ولاتهم على المغرب من صنهاجة بنو باديس بن قاس وبنو جاد بالقلعة ثم ملك الموحدين سائر المغرب والاندلس ومحو ذلك الرسم على طريقة البداوة التي كانت شعارهم ولما استفتحت الدولة وأخذت بجناها من

الترف وجاء أبو يعقوب المنصور ثالث ملوكهم فالتخذ هذه المقصورة وبقيت من بعده
منة لملوك المغرب والاندلس وهكذا كان الشأن في سائر الدول سنة الله في عباده *
(وأما الدعاء على المنابر) في الخطبة فكان الشأن أولاً عند الخلفاء ولاية الصلاة بأنفسهم
فكانوا يدعون لذلك بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم والرضاعن أصحابه
وأول من اتخذ المنبر عمرو بن العاصي لما بنى جامع بصصر وأول من دعا للخليفة علي المنبر
ابن عباس دعا علي رضي الله عنه - ما في خطبته وهو بالبصرة عام له عليه آفة قال اللهم
انصر علياً على الحق واتصل العمل على ذلك فيما بعد وبعد أخذ عمرو بن العاصي المنبر
بلغ عمر بن الخطاب ذلك فكتب إليه عمر بن الخطاب أما بعد فقد بلغني أنك اتخذت
منبراً ترقى به على رقاب المسلمين أو ما يكذبك أن تكون قائماً والمسلمون تحت عقبتك
فغزمت عليك إلا ما كسرته فلما حدثت الأبهة وحدثت في الخلفاء المانع من الخطبة
والصلاة استنابوا فيهما فكان الخطيب يشهد بكر الخليفة علي المنبر تنوياً باسمه ودعاء
له بما جعل الله مصلحة العالم فيه ولأن تلك الساعة مظنة للإجابة ولما ثبت عن السلف
في قولهم من كانت له دعوة صلحة فليضعها في الساطان وكان الخليفة يفر بذلك فإما
جاء الجبر والالتداد صار المتغلبون على الدول كثيراً ما يشاركون الخليفة في ذلك
ويشاد باسمهم عقب اسمه وذهب ذلك بذهب تلك الدول وصار الأمر إلى اختصاص
السلطان بالدعاء له على المنبر دون من سواه وحظر أن يشاركه فيه أحد أو يسمو إليه
وكثيراً ما يغفل الماهدون من أهل الدول هذا الريم عندما تكون الدولة في أسلوب
الغضاضة ومناسخ البداوة في التغافل والخشونة ويقنعون بالدعاء على الأبهام
والاجمال لمن ولي أمر المسلمين ويسمون مثل هذه الخطبة إذا كانت على هذا المنحى
عباسية يعنون بذلك أن الدعاء على الاجمال انما يتناول العباسي تقليداً في ذلك لما
سلف من الأمر ولا يحفلون بما وراء ذلك من تعيينه والتعريف باسمه * يحكى أن
يغمر اسن بن زيان ماهد دولة بني عبد الواد لما غلبه الأمير أبو بكر يحيى بن أبي حفص
على تلسان ثم بدله في إعادة الأمر إليه على شروط شرطها ما كان فيها ذكر اسمه على منابر
عمله فقال يغمر اسن تلك أعواد هيم يدكرون عليها من شأوا وكذلك يعقوب بن عبيد
الحق ماهد دولة بني مر بن حضره رسول المستنصر الخليفة بتونس من بني أبي حفص
وثالث ملوكهم وتختلف بعض أيامه عن شهود الجمعة فقيل له لم يحضر هذا الرسول
كراهية نالوا الخطبة من ذكر سلطانة فأذن في الدعاء له وكان ذلك سبباً لا خذهم يدعونه
وهكذا شأن الدول في بدايتها وتتمكنها في الغضاضة والبداوة فإذا انتهت عيون
سياستهم ونظروا في اعطاف ملكهم واستنواثبات الحضارة ومعاني البذخ والأبهة

اتعملوا جميع هذه السمات، وتفنوا فيها وتباروا الى غايتها وأنفوا من المشاركة فيها
وجزءوا من افتقارها وخلود ولتهم من آثارها، والمبستان والله على كل شيء رقيب

٣٨ (فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها)

اعلم أن الحروب وأنواع المقاتلة لم تزل واقعة في الخليقة منذ برأها الله وأصلها ارادة
انتقام بعض البشر من بعض ويتعصب لكل منها أهل عصيته فاذا تذا مروا لذلك
وتواقفت الطائفتان احدهما تغلب الانتقام والاخرى تدافع وكانت الحرب
وهو امر طبيعي في البشر لا تخلو عنه امة ولا جيل وسبب هذا الانتقام في الاكثرا
غرة ومنافسة واما عدوان واما غضب لله ولدينه واما غضب للملك وهي في تهيمه
فالاول أكثر ما يجري بين القبائل المتجاورة والعنات المتناظرة والثاني وهو
العدوان أكثر ما يكون من الامم الوحشية الساكنين بالقر كالعرب والتر والترك
والاكراد وأشباههم لانهم جهلوا أرزاقهم في رماحهم ومما شهم فيما بأيدي غيرهم ومن
دافعهم عن مفاعه آذونه بالحرب لا بغية لهم فيما وراء ذلك من رتبة ولا ملك وانما همهم
ونصب أعينهم غلب الناس على ما في أيديهم والثالث هو المسمى في الشريعة بالجهاد
والرابع هو حروب الدول مع الخارجين عليها والممانعين لطاعتها فهذه أربعة أصناف
من الحروب الصنفان الاولان منها حروب بني وقته والصنفان الاخيران حروب جهاد
وعادل وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين نوع
بالزحف صفوفا ونوع بالسكر والقر أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على
تعاقب أجيالهم وأما الذي بالسكر والقر فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب
وقتال الزحف أو ثق وأشد من قتال السكر والقر وذلك لان قتال الزحف ترتب فيه
الصفوف ونسوى كما نسوى القداح أو صفوف الصلاة ويمشون بصوفهم الى العدو
قد ما فلذلك تكون أثبت عند المصارع وأصدق في القتال وأرهب للعدو لانه كالحائط
المنتد والقصر المشيد لا يطمع في ازالته وفي التزليل ان الله يحب الذين يقاتلون في
سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص أي يشد بعضهم بعضا بالثبات وفي الحديث الكريم
المؤمن للمؤمن كالبنين يشد بعضه بعضا ومن هنا يظهر لك حكمة ايجاب الثبات
وتحريم التولي في الزحف فان المقصود من الصف في القتال حفظ النظام كما قلناه فمن
ولى العدو قناهره فقد أدخل بالاصاف ويا باثم الهزيمة ان وقعت وصار كأنه جرد على
المسلمين وأمكن منهم عدوهم فعظام الذنب لعموم المصدقوت عديها الى الدين بخرق
سباجه فعدم من الكبار ويظهر من هذه الادلة أن قتال الزحف أشد عند الشارع وأما

قتال الكر والفر فليس فيه من الشدة والامن من الهزيمة ما في قتال الزحف الا أنهم قد يتخذون وراءهم في القتال مصافاً ثابتاً يلجئون اليه في الكر والفر ويقوم لهم مقام قتال الزحف كما ذكره بعد ثم ان الدول القديمة الكثيرة الجنود المتسعة الممالك كانوا يقسمون الجيوش والعساكر أقساماً يسمونها كراديس ويسوّون في كل كردوس صفوفه وسبب ذلك أنه لما كثرت جنودهم الكثرة البانغة وحشدوا من قاصبة النواحي استدعى ذلك أن يجهل بعضهم بعضاً اذا اختلطوا في مجال الحرب واءتوروا مع عدوهم الطعن والضرب فيخشي من تدافعهم فيما بينهم لاجل المنكراء وجهل بعضهم ببعض فلذلك كانوا يقسمون العساكر جوعاً ويضمون المتعارفين بعضهم لبعض ويرتبونها قريبا من الترتيب الطبيعي في الجهات الاربع ورئيس العساكر كلها من سلطان أو قائد في القلب ويسمون هذا الترتيب التعبئة وهو مذكور في أخبار فارس والروم والدولتين صدر الاسلام فيجعلون بين يدي الملك عسكرياً منفرداً بصفوفه متميزاً بقائده ورايته وشعاره ويسمونه المقدمة ثم عسكرياً آخر من ناحية اليمين عن موقف الملك وعلى يمينه يسمونه الممنة ثم عسكرياً آخر من ناحية الشمال كذلك يسمونه الميسرة ثم عسكرياً آخر من وراء العسكر يسمونه الساقة ويقف الملك وأصحابه في الوسط بين هذه الاربع ويسمون موقفه القلب فاذا تم لهم هذا الترتيب المحكم اما في مدى واحد للبصر أو على مسافة بعيدة أكثرها اليوم واليومان بين كل عسكريين منها أو كيفما أعطاه حال العساكر في القلة والكثرة فينبذ يكون الزحف من بعده هذه التعبئة وانظر ذلك في أخبار انا توحات وأخبار الدولتين بالمشرق وكيف كانت العساكر لعهد عبد الملك تتخاف عن رحيله بعد المدى في التعبئة فاحتجج لمن يسوقها من خلفه وعين لذلك الحجاج بن يوسف كما أشرنا اليه وكما هو معروف في أخباره وكان في الدولة الاموية بالاندلس أيضاً كثير منه وهو مجهول فيالدينالانا انما أدركنا دولاً قليلة العساكر لا تنهي في مجال الحرب الى التناكر بل أكثر الجيوش من الطائفتين معا يجتمعهم ليدنا حله أو مدينة ويعرف كل واحد منهم قرنه ويناديه في حومة الحرب باسمه ولقبه فاستغنى عن تلك التعبئة

(فصل) ومن مذاهب أهل الكر والفر في الحروب ضرب المصاف وراء عسكرهم من الجمادات والحيوانات العجم فيتخذونها ملجأ للخيلة في كرتهم وفرتهم يطلبون به ثبات المقاتلة ليكون أدوم للعرب وأقرب الى الغاب وقد يفعلها أهل الزحف أيضاً ليزيدهم ثباتاً وشدة فقد كان الفرس وهم أهل الزحف يتخذون الخيلة في الحروب يحملون عليها أبراجاً من الخشب أمثال الصروح مشحونة بالمقاتلة والسلاح

والرايات ويصفونها وراهم في حومة الحرب كأنهم حصون فتقوى بذلك نفوسهم
ويرداد وثوقهم وانظر ما وقع من ذلك في القادسية وأن فارس في اليوم الثالث اشتدوا
بها على المسلمين حتى اشتدت رجالات من العرب فبالطوهم وبهجوها بالسبوف على
خراطيمها فنفرت ونصكت على أعقابها إلى مرابطها بالمداثر فجاء معسكر فارس
لذلك وانهم موافق اليوم الرابع • وأما الروم وملوك القوط بالاندلس وأكثر العجم
فكانوا يتخذون لذلك الاسرة ينصبون للملك سريره في حومة الحرب ويحفظ به من
خدمه وحاشيته وجنوده من هوزعيم بالاستماتة دونه وترفع الرايات في اركان السرير
ويحده به سياج آخر من الزمارة والرجالة فيعظم هكل السرير ويصير فنة للمقاتلة ومطبا
للكر والفر وجعل ذلك الفرس أيام القادسية وكان رسم جالس فيها على سريره
جلوسه حتى اختلفت صفوف فارس وخالطه العرب في سريره ذلك فتحول عنه إلى
الفرات وقتل • وأما أهل الكرك والفر من العرب وأكثر الامم البدوية الرحالة
فيصفون لذلك ابلهم والظهر الذي يصهل قطعاتهم فيكون فنة لهم ويسمون بها المحبونة
وليس أمة من الامم الا وهي تفعل ذلك في حروبها وتراه أو ثوق في الجولة وآمن من الغرة
والهزيمة وهو أمر مشاهد وقد اغفلته الدول لعهدنا بالجملة واعتاضوا عنه بالظهر
الحامل للانقال والفساطيط يجعلونها ساقية من خلفهم ولا تغني غناء القبلة والابل
فصارت العساكر بذلك عرضة للهزائم ومستشعرة للفرار في المواقف • وكان
الحرب أول الاسلام كله زحفا وكان العرب انما يعرفون الكرك والفر لكن جعلهم على
ذلك أول الاسلام أمران أحدهما أن عدوهم كانوا يقاتلون زحفا فيضطرون إلى
مقاتلتهم بمثل قتالهم الثاني أنهم كانوا مستميتين في جهادهم لما رغبوا فيه من الصبر ولما
رسخ فيهم من الايمان والزحف إلى الاستماتة أقرب • وأول من أبطل الصف في
الحروب وصار إلى التعبية كراديس مروان بن الحكم في قتال الغصاة الخارجي
والخبيري بعده قال الطبري لما ذكر قتال الخبيري فولى الخوارج عليهم شيبان بن عبد
العزير البشكري ويلقب أبا الدافاء وقاتلهم مروان بعد ذلك بالكراديس وأبطل
الصف من يومئذ انتهى فتنوسى قتال الزحف بأبطال الصف ثم تنوسى الصف وراء
المقاتلة بما داخل الدول من الترف وذلك أنها حينما كانت بدوية وسكانهم الخيام كانوا
يستكثرون من الابل وسكنى النساء والولدان معهم في لاجيا فلما حصلوا على ترف
الملك والنوا سكنى القصور والخوانسرو تركوا شأن البادية والقفر نسوا ذلك عهد
الابل والظعائن وصعب عليهم اقتناذها فحلفوا النساء في الاسفار وحملهم الملك والترف
على اقتناذ الفساطيط والابخية فاتصروا على الظهر الحامل للانقال والابنية وكان

ذلك صفتهم في الحرب ولا يغني كل الغناء لانه لا يدعوا الى الاستعانة كما يدعوا اليها الاهل
والمال فيمنع الصبر من أجل ذلك وتعرفهم الهجمات وتختم صفة وفهم

(فصل) ولما ذكرنا من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكد في قتال الكفر
والفرصا رملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم واختصوا بذلك لان
قتال أهل وطنهم كله بالكفر والفر والسلطان يتأكد في حقه ضرب المصاف ليكرن رداً
للمقاتلة أمامه فلا يتدوان يكون أهل ذلك الصف من قوم متعودين للثبات في الزحف
والأجندلوا على طريقة أهل الكفر والفر فانهزم السلطان والعساكر باجفالهـم
فاحتاج الملوكة بالمغرب أن يتخذوا جنوداً من هذه الامة المتعوده الثبات في الزحف وهم
الافرنج ويرتبون مصافهم المحقق بهم منها هذا على ما فيه من الاستعانة بأهل الكفر
وانما استخفوا ذلك للضرورة التي أرينا كها من تخوف الأجفاله على مصاف السلطان
والافرنج لا يعرفون غير الثبات في ذلك لان عادتهم في القتال الزحف فكانوا أقوم بذلك
من غيرهم مع أن الملوكة في المغرب انما يفعلون ذلك عند الحرب مع أمم العرب والبربر
وقتاهم على الطاعة وأما في الجهاد فلا يستعينون بهم حذراً من مخالفتهم على المسلمين
هذا هو الواقع بالمغرب لهذا العهد وقد أبدى سببه والله بكل شئ عليم

(فصل) وبلغنا أن أمم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهام وأن تعبئة الحرب
عندهم بالمصاف وأنهم يقسمون بثلاثة صفوف يضربون صفوا وراصف ويتربحون
عن خيولهم ويفترغون سهامهم بين أيديهم ثم يتناضلون جلوساً وكل صف رده للذي
أمامه أن يكسبهم العدو الى أن يتربأ النصر لاحدى الطائفتين على الأخرى وهي
تعبئة محكمة غربية

(فصل) وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم عند
ما يتقاربون للزحف حذراً من معرفة البيات والهجوم على العسكر بالليل لما في ظلمته
ووحشته من مضاعفة الخوف فيلوذ الجيش بالفرار رتجد النفوس في الظلمة سترامن
عاره فاذا اتوا وزا في ذلك أرجف العسكر ووقعت الهزيمة فكانوا ذلك يحتفرون
الخنادق على معسكرهم اذا نزلوا وضربوا أبنيتهم ويدبرون الحفائر نطاف عليهم من
جميع جهاتهم حرصاً أن يخالطهم العدو بالبيات فيمخا ذلوا وكانت للدول في أمثال
هذا قوة وعابه اقتدار باحتشاد الرجال وجمع الأيدي عليه في كل منزل من منازلهم بما
كانوا عليه من وفور العمران وخطامة الملك فلما خرب العمران وتبعه ضعف الدول
وقلة الجنود وعدم النقلة نسي هذا الشأن جله كأنه لم يكن والله خير التاديرين وانظر
وصية على رضى الله عنه وتحرر يصفه لاصحابه يوم صفتين تبتد كثير من علم الحرب ولم يكن

أحد أبصر بهامنه قال في كلام له فسوقوا صوفكم كأبنيان المرصوص وقدموا
الدارع وأخروا الحاسر وعضوا على الأضراس فانه أنبي للسيف عن الهام والتوا
على أطراف الرماح فانه أصون للأسنة وغضوا الأبصار فانه أربط للجاش وأسكن
للقلوب واخفوا الأصوات فانه أطرده للفشل وأولى بالوفار وأقيموا أياتكم فلا
تبلوها ولا تجعلوها الأبايدي شجعانكم استعينوا بالصدق والصبر فانه بقدر الصبر
ينزل النصر وقال الا شريو مني بحر تنس الا زد عضوا على النواجذ من الأضراس
واستقبلوا القوم بهامكم وشدوا شدة قوم موتورين ياأرون ياأهم واخوانهم حنافا
على عدوهم وقد وطنوا على الموت أنفسهم لئلا يسبوا ويوتروا بلطفهم في الدنيا عار
وقد أشار إلى كثير من ذلك أبو بكر الصيرفي شاعر متونة وأهل الاندلس في كلمة يدح بها
ناشقين بن علي بن يوسف ويصف شانه في حرب شهدها ويذكره بأمر الحرب في
وصايا وتذيرات تنبهك على معرفة كثير من سياسة الحرب يقول فيها

يا أيها الملا الذي يتقنع * من منكم الملك الهام الاروع
ومن الذي غدر العدو به دجى * فانقض كل وهو لا يتزعزع
تغضى الفوارس والطعان يصدتها * عنه ويدمرها الوفاء فترجع
والليل من وضع الترائك انه * صبح على هام الجيوش يلح
أنى فزعتم يا بنى صنهاجة * واليكم في الروع كان المزعزع
انسان عين لم يصبه منكم * حزن وقلب أسلمته الاضلع
وصددتمو عن ناشقين وانه * لهقابه لو ثاء فيكم موضع
ما أنتوا الا أسود خفية * كل لكل كريهة مستطلع
يا ناشقين أقم جيشك عذره * بالليل والغدر الذي لا يدفع

(ومنها في سياسة الحرب)

أهديك من أدب السياسة ما به * كانت ملوك الفرس قبلك تولع
لأننى أدري بهما كنها * ذكرى تحض المؤمنين وتنفع
والبس من الخلق المضاعفة التي * وصى بها صنع الصنائع تبع
والهند وانى الرقيق فانه * أفضى على حد الدلاص وأقطع
واركب من الخيل السوابق عتة * حصنا حصينا ليس فيه مدفع
خندق عليك اذا ضربت محلة * سيات تتبع ظافرا وتتبع
والوادلاته عبره وانزل عنده * بين العدو وبين جيشك بقطع
واجعل مناجرة الجيوش عشية * ووراءك الصدق الذي هو أمتع

واذا تضايقت الجيوش بمعرك * ضحك فأطراف الرياح توسع
 واصدمه أول وهلة لانكثرت * شيئا فإظهار النكول يضعضع
 واجعل من اطلاع أهل شهامة * للصدق فيهم شجعة لا تخدع
 لا تسمع الكذاب جاهل مرجفا * لا رأى للكذاب فيما يصنع
 قوله واصدمه أول وهلة لانكثرت البيت مخالف لما عليه الناس في أمر الحرب فقد
 قال عمر لابن عبيد بن مسعود النقي لما ولاد حرب فارس والعراق فقال له اسمع وأطع
 من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم راثر صكهم في الأمر ولا تجيبن تسرعاً حتى
 تبين فأنهم الحرب ولا يصلح لها إلا الرجل المكيب الذي يعرف الفرصة والكف وقوله
 في أخرى انه لن ينجى مني أن أوامر سبط الاسرعة في الحرب وفي التسرع في الحرب إلا
 من بيان ضياع والله لولا ذلك لا تمرنه لكن الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيب هذا
 كلام عمر وهو شاهد بأن التناقض في الحرب أولى من الخسوف حتى يبين حال تلك الحرب
 ولك عكس ما قاله الصيرفي إلا أن يريد أن الصدم بعد البيان فله وجه والله تعالى أعلم
 (فصل) ولا وثوق في الحرب بالظفر وان حصلت أسبابه من العدة والعديد وانما
 الظفر فيها والغلب من قبيل البخت والاتفاق وبيان ذلك أن أسباب الغلب في الأكثر
 محجمة من أمور ظاهرة وهي الجيوش ووفورها وكال الاسلحة واستعدادتها وكثرة
 الشجعة وترتيب المصاف ومنه صدق قتال وما جرى مجرى ذلك ومن أمور خفية
 وهي اتمان خدع البشر وحياتهم في الارجاب وانتشايح التي يقع بها التحذير وفي
 التقدم الى الاماكن المرتفعة ليكون الحرب من أعلى فيتوهم المنخفض لذلك وفي
 الكمون في الغياض ومطمن الارض والتواري بالكدي عن العدو حتى يتداواهم
 العسكر دفنة وقد تورطوا فيتملمون الى النجاة وأمثال ذلك وامان أن تكون تلك
 الاسباب الخفية امورا مماوية لا قدرة للبشر على اكتسابها التي في القلوب فيستولى
 لرهب عليهم من لاجاه فتختل مراكزهم فتقع الهزيمة را ثم ما تقع الهزائم عن
 هذه الاسباب الخفية لكثرة ما يعمل لكل واحد من الفريقين فيها حرصا على الغلب
 فلا بد من وقوع التأثير في ذلك لاحدهما من ضرورة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم الحرب
 خدعة ومن أمثال العرب رب حيلة أنتع من قبيلة فقد تبين أن وقوع الغلب في
 الحروب غالباً عن أسباب خفية غير ظاهرة ووقوع الاشياء عن الاسباب الخفية هو
 معنى البخت كما ذكر في موضعه فاعتبره وتنهم من وقوع الغلب عن الامور السماوية
 كما شرحناه معنى قوله صلى الله عليه وسلم لم نصرت بالرعب مسيرة شهر وما وقع من غلبه
 للمشركين في حياته بالعدد القليل وغاب المسلمين من بعده كذبات في الفتوحات

فان الله سبحانه وتعالى تكذبل لنبيه بالقاه الرعب في قلوب الكافرين حتى يستولى
على قلوبهم فينهزموا معجزه لرسوله صلى الله عليه وسلم فكان الرعب في قلوبهم سببا
للهمزائم في الفتوحات الاسلاميه كما الا انه غنى عن العيون * وقد ذكر
الطرطوشي ان من اسباب الغلب في الحروب ان تفضل عدة الفرسان المشاهير من
لشعبان في أحد الجانبين على عدتهم في الجانب الاخر مثل ان يكون أحد الجانبين
فيه عشرة أو عشرون من المشاهير وفي الجانب الاخر ثمانية أو ستة عشر
فالجانب الزائد ولو بواحد يكون له الغلب وأعاد في ذلك وأبدى وهو راجع الى الاسباب
الظاهرة التي قدمنا وليس بصحيح وانما الصحيح المعترف في الغاب حال العصبية أن يكون
في أحد الجانبين عصبية واحدة بامهه الكهوم وفي الجانب الاخر عصاب متعده
لان العصاب اذا كانت متعدده يقع بينهما من التضاد ما يقع في الوجدان المتفرقين
الفاقدين للعصبية اذ تنزل كل عصابه منهم منزلة الواحد ويكون الجانب الذي عصابته
متعده لا يقاوم الجانب الذي عصبية واحدة لاجل ذلك فقهه واعلم انه أصح في
الاعتبار مما ذهب اليه الطرطوشي ولم يحمله على ذلك الانسيان شأن العصبية في حله
وبلدة وانهم انما يرون ذلك الدفاع والحماية والمطالبة الى الوجدان والجماعة الناشئة
عنهم لا يعبرون في ذلك عصبية ولا نسبة وقد بنا ذلك أول الكتاب مع أن هذا وأمثاله على
تقدير صحته انما هو من الاسباب الظاهرة مثل اتهاق الجيش في العدة وصدق القتال
وكثرة الاسلحة وما أشبهها فكيف يجعل ذلك كذبا بالقلب ونحن قد قررنا لك الآن
أن شيئا منها لا يعارض الاسباب الخفية من الحيل والخداع ولا الامور السماوية من
الرعب والخدلان الالهى ففهمه وتفهيم أحوال الكون والله متدر الليل والنهار
(فصل) و يلحق بمعنى الغلب في الحروب وأن أسبابه خفية وغير طبيعية حال الشهرة
والصيت فقل أن تصادف موضعها في أحد من طبقات الناه من الملوك والعلماء
والصلحين والمتصلين للفضائل على العموم وكثير ممن اشتهر بالشرف وهو بخلافه وكثير
من تجاوزت عنه الشهرة وهو أحق بها وأهلها وقد تصادف موضعها وتكون طبقا
على صاحبها والسبب في ذلك أن الشهرة والصيت انما هما بالاخبار والاخبار يدخلها
الذهول عن المقاصد عند المناقل ويدخلها التعصب والتشيع ويدخلها الاوهام
ويدخلها الجهل بمطابقة الحكايات للاحوال لخنائها بالتلبيس واتصنع أو الجهل
الناسل ويدخلها التقرب لاصحاب التجارة والمراتب الدنيوية بالثناء والمدح وتحسين
الاحوال وإشاعة الذكر بذلك والنفوس مولعة بحب الثناء والناس متطاولون الى
الدنيا وأسبابها من جاه أو ثروة وإسوانى الاكبر اغين في الفضائل ولا منافسين في

أهلها وأين مطابقة الحق مع هذه كلها فتمتل الشهرة عن أسباب خفية من هذه
وتكون غير مطابقة وكل ما حصل بسبب خفي فهو الذي يعبر عنه بالبحت كما تقرروا لله
سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ (فصل في الجباية وسبب قلتها وكثرتها)

اعلم أن الجباية أول الدولة تكون قليلة الوزائع كثيرة الجملة وآخر الدولة تكون كثيرة
الوزائع قليلة الجملة والسبب في ذلك أن الدولة ان كانت على سنن الدين فليست
الامغارم الشرعية من الصدقات والخراج والجزية وهي قليلة الوزائع لان مقدار
الزكاة من المال قليل كما علمت وكذا زكاة الحبوب والماشية وكذا الجزية والخراج
وجميع المغارم الشرعية وهي حدود لا تتعدى وان كانت على سنن التغلب والعصية
فلا بد من البداوة في أولها كما تقدم والبداوة تقتضي المسامحة والمكارمة وخفض
الجناح والتجافي عن أموال الناس والغفلة عن تحصيل ذلك الا في النادر فيقل لذلك
مقدار الوظيفة الواحدة والوزيعة التي تجمع الاموال من مجموعها واذ قلت الوزائع
والوظائف على الرعايا نشط والعمل ورغبوا فيه فيكثر الاعتمار ويزيد محصول الاغتباط
بقلة المغرم واذ اكثر الاعتمار كثرت اعداد تلك الوظائف والوزائع فكثرت الجباية التي
هي جملتها فاذا استمرت الدولة واتصلت وتعاقب ملوكها واحدا بعد واحد واتصفوا
بالكيس وذهب شر البداوة والسذاجة وخالفها من الاعضاء والتجافي وجاء الملك
العضوض والحضارة الداعية الى الكيس وتخلق أهل الدولة حينئذ بخلق التمدلق
وتكثرت عوائدهم وحوادثهم بسبب ما انعموا فيه من النعيم والترف فيكثرون
الوظائف والوزائع حينئذ على الرعايا والاكزة والفلاحين وسائر أهل المغارم ويزيدون
في كل وظيفة ووزيعة مقدار اعظيما التكثر لهم الجباية ويضعون المصكوس على
المبايعات وفي الابواب كما نذكر بعد ثم تدرج الزيادات فيها بعد مقدار لتدرج
عوائد الدولة في الترف وكثرة الحاجات والانفاق بسببه حتى تثقل المغارم على الرعايا
وتنهضم وتصبح عادة مفروضة لان تلك الزيادة تدرجت قليلا قليلا ولم يشعر احد بمن
زادها على التعيين والامن هو واضعها انما ثبت على الرعايا في الاعتمار لذهاب الامل من
نفوسهم بقلة النفع اذا قابل بين نفعه ومغارمه وبين ثمرته وفائدته فتنبض كثير من
الايدي عن الاعتمار بجملة فتتقص جملة الجباية حينئذ بنقصان تلك الوزائع منها وربما
يزيدون في مقدار الوظائف اذ اراوا ذلك النقص في الجباية ويحسبون به جبر المانقص
حتى تنتهي كل وظيفة ووزيعة الى غاية ليس وراءها نفع ولا فائدة لكثرة الانفاق حينئذ

في الاعتمار وكثرة المغارم وعدم وقاء الفائدة المرجوة به فلا تزال الجملة في نقص
ومقدار الوزائع والوظائف في زيادة لما يعتقدونه من جبر الجملة بها الى أن يتقص
العمران بذهاب الآمال من الاعتمار و يعود وبال ذلك على الدولة لان فائدة الاعتمار
عائدة اليها واذا فهمت ذلك علمت أن أقوى الاسباب في الاعتمار تقليل مقدار الوظائف
على المعتمرين ما أمكن فبذلك تنبسط النفوس اليه لثقتها بادراك المنفعة فيه والله
سبحانه وتعالى مالك الامور كلها ويسد ملكوت كل شيء

٤٠ (فصل في ضرب المكوس او اخر الدولة)

اعلم أن الدولة تكون في أولها بدوية كما قلنا فتكون لذلك قليلة الحاجات لعدم
الترف وعوائده فيكون خرجها وانفاقها قليلا فيكون في الجباية حينئذ وقاء بأزيد منها
بل يفضل منها كثير عن حاجتهم ثم لا تلبث أن تأخذ بيد الحضارة في الترف وعوائدها
وتجري على نهج الدول السابقة قبلها فيكثر لذلك خراج أهل الدولة ويكثر خراج
السلطان خصوصا كثرة النفقة بنفقته في خاصته وكثرة عطائه ولاتني بذلك الجباية
فتحتاج الدولة الى الزيادة في الجباية لما تحتاج اليه الحامية من العطاء والسلطان من
النفقة فيزيد في مقدار الوظائف والوزائع أولا كما قلناه ثم يزيد الخراج والحاجات
والتدريج في عوائد الترف وفي العطاء للحامية ويدرك الدولة الهرم وتضعف عصابتها
عن جباية الاموال من الاعمال والقاصية فتقل الجباية وتكثر العوائد ويكثر بكثرتها
أرزاق الجند وعطاؤهم فيستحدث صاحب الدولة أنواعا من الجباية يضربها على
الساعات ويفرض لها قدر معلوما على الأثمان في الاسواق وعلى أعيان السلع
في أموال المدينة وهو مع هذا مضطر لذلك بما دعاه اليه ترف الناس من كثرة العطاء
مع زيادة الجيوش والحامية ورميز بذلك في أواخر الدولة زيادة النفقة فتكسر
الاسواق لفساد الآمال ويؤذن ذلك باختلال العمران و يعود على الدولة ولا يزال
ذلك يتزايد الى أن تضجمل وقد كان وقع منه بأمصا المشرق في أخريات الدولة
العباسية والعبدية كثير وفرضت المغارم حتى على الحاج في الموسم وأسقط صلاح
الدين أيوب تلك الرسوم جملة وأعاضها بآثار الخبز وكذلك وقع بالاندلس لعهد
الطوائف حتى محاربه يوسف بن تاشفين أمير المرابطين وكذلك وقع بأمصا الجريد
بافريقية لهذا العهد حين استبد بها رؤساؤها والله تعالى أعلم

٤١ (فصل في التجارة من السلطان مضرة بالرعايا مفسدة للجباية)

اعلم أن الدولة اذا ضاقت جبايتها بما قدمناه من الترف وكثرة العوائد والنفقات وقصر

الحاصل من جبايتها على الوفاء بمطالبها ونفقاتها واحتاجت الى مزيد المال والجباية
فتارة توضع المكوس على بيعات الرعايا وأسواقهم كما قدمنا ذلك في الفصل قبله وتارة
بالزيادة في ألقاب المكوس ان كان قد استحدث من قبل وتارة بمقاسمة العمال والجباة
وامتلاك عظامهم لما يرون أنهم قد حصلوا على شئ طائل من أموال الجباية لا يظهره
الحسبان وتارة باستحداث التجارة والفلاحة للسلطان على تسمية الجباية لما يرون
التجار والفلاحين يحصلون على الفوائد والغلات مع بسارة أموالهم وان الأرباح
تكون على نسبة رؤس الاموال فيأخذون في اكتساب الحيوان والنبات لاستغلاله
في شراء البضائع والتعرض به بالحوالة الاسواق ويحسبون ذلك من ادراة الجباية
وتكثر الفوائد وهو غلط عظيم وادخال الضرر على الرعايا من وجوه متعددة فأولا
مضايقه الفلاحين والتجار في شراء الحيوان والبضائع وتيسير أسباب ذلك فان الرعايا
متكافئون في اليسار متقاربون ومزاجه بعضهم بعضا تنتهي الى غابة موجودهم
أو تقرب وادراة فقهم السلطان في ذلك وماله أعظم كثيرا منهم فلا يكاد أحد منهم
يحصل على غرضه في شئ من حاجاته ويدخل على النفوس من ذلك غم ونكد ثم
ان السلطان قد يتزع الكثير من ذلك اذا تعرض له غضا أو بأيسر عن أولي الجهد من
يناقشه في شرائه فيجنس غمه على بائعه ثم اذا حصل فوائد الفلاحة ومغلها كله من
زرع أو حريرا أو عسل أو سكر أو غير ذلك من أنواع الغلات وحصلت بضائع التجارة
من سائر الأنواع فلا ينتظرون به حوالة الاسواق ولا اتفاق البياعات لما يدعوهم اليه
تكاليف الدولة فيكفون أهل تلك الاصناف من تاجر أو فلاح بشراء تلك البضائع
ولا يرضون في أثمانها الا القيم وأزيد فيستوعبون في ذلك ناض أموالهم وتبقى تلك
البضائع بأيديهم عروضا جامدة ويمكثون عطلا من الادارة التي فيها كسبهم ومعاشهم
وربما يدعوهم الضرورة الى شئ من المال فيبيعون تلك السلع على كساد من الاسواق
بأنجنس عن وربما يتكرو ذلك على التاجر والفلاح منهم بما يذهب رأس ماله فيقعده
عن سوقه ويتعد ذلك ويتكرر ويدخل به على الرعايا من العنت والمضايقه وفساد
الأرباح ما يقبض أموالهم عن السعي في ذلك جملة ويؤدي الى فساد الجباية فان معظم
الجباية انما هي من الفلاحين والتجار لا سيما بعد وضع المكوس ونحو الجباية بها فاذا
انقبض الفلاحون عن الفلاحة وقعد التجار عن التجارة ذهبت الجباية جملة أو دخلها
النقص المتفاحش واذا قايس السلطان بين ما يحصل له من الجباية وبين هذه الأرباح
القليلة وجدها بالنسبة الى الجباية أقل من القليل ثم انه ولو كان مفيدا فيذهب له
بخط عظيم من الجباية فيما يعاينه من شراء أو بيع فانه من البعيد أن يوجد فيه من

المكس ولو كان غيره في تلك الصفقات لكان تكسبها كلها حاصلا من جهة الجباية ثم فيه التعرض لاهل عمرانه واختلال الدولة بفسادهم ونقصه فان الرعايا اذا قعدوا عن تثير أموالهم بالنلاحة والتجارة نقصت وتلاشت بالنفقات وكان فيها تلاف أحوالهم فانهم ذلك وكان الفرس لا يملكون عليهم الا من أهل بيت المملكة ثم يختارونه من أهل الفضل والدين والادب والسجاء والشجاعة والكرم ثم يشترطون عليه مع ذلك العدل وأن لا يتخذ صنعة فيضرت بجيرانه ولا يتاجر فيجب غلاء الاسعار في البضائع وأن لا يستخدم العبيد فانهم لا يشيرون بخير ولا مصلحة • واعلم أن السلطان لا ينبغي ماله ولا يدرك موجوده الا الجباية وادارها انما يكون بالعدل في أهل الاموال والنظر لهم بذلك فبذلك تنبسط أموالهم وتشرح صدورهم للاخذ في تثير الاموال وتتميتها فتعظم منها جباية السلطان وأما غير ذلك من تجارة أو فسخ فانما هو مضرّة عاجلة للرعايا وفساد للجباية ونقص للعمارة وقد ينتهي الحال بهؤلاء المنسلخين للتجارة والفلاحة من الامراء والمتغلبين في البلدان انهم يتعرضون لشراء الغلات والسلع من أربابها الواردين على بلادهم ويفرضون لذلك من الثمن ما يشاؤون ويبيعونها في وقتها لمن تحت أيديهم من الرعايا بما يفرضون من الثمن وهذه أشد من الاولى وأقرب الى فساد الرعية واختلال أحوالهم وربما يحمل السلطان على ذلك من يداخله من هذه الاصناف أعني التجار والفلاحين لما هي صناعته التي نشأ عليها فيحمل السلطان على ذلك ويضرب معه بسهم لنفسه ليحصل على غرضه من جمع المال شريعا سيما مع ما يحصل له من التجارة بلا مغرم ولا مكس فانها أجدر بنمو الاموال وأسرع في تثيره ولا يفهم ما يدخل على السلطان من الضرر بنقص جبايته فينبغي للسلطان أن يحذر من هؤلاء ويعرض عن سعايتهم المضرّة بجبايته وسلطانه والله بلهمنا رشد أنفسنا ونقنعنا بالصالح الاعمال والله تعالى أعلم

٤٢ (فصل في ان ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة)

والسبب في ذلك أن الجباية في أول الدولة تتوزع على أهل القبيل والعصية بمقدار غنائمهم وعصبيتهم ولأن الحاجة اليهم في تهديد الدولة كما قلناه من قبل فرئيسهم في ذلك متجاف لهم عما يسمون اليه من الجباية معترض عن ذلك بما هو يروم من الاستبداد عليهم فله عليهم عزة وله اليهم حاجة فلا يطير في سهمانه من الجباية الا الاقل من حاجته فتجد حاشيته لذلك وأذياله من الوزراء والكتاب والموالي معلقين في الغالب وجاههم منتقلص لانه من جاء مخدومهم ونطاقه قد ضاق بمن يراجه فيه من أهل عصيته فاذا

استعملت طبيعة الملك وحصل لصاحب الدولة الاستبداد على قومه قبض أيديهم
عن الجبايات الا ما يطير لهم بين الناس في سبهم وتقل حظوظهم اذ ذلك لقله غنائمهم
في الدولة بما انكبح من أعتهم وصار الموالى والصنائع مساهمين لهم في القيام بالدولة
وتعهد الامر فينفرد صاحب الدولة حينئذ بالجباية أو معظمها ويحتوى على الاموال
ويخصها للنفقات في مهمات الاحوال فتكثر ثروته وتعتلى خزائنه ويتسع نطاق بجاهه
ويعتز على سائر قومه فيعظم حال حاشيته وذويه من وزير وكتائب وحاجب ومولى
وشرطي ويتسع جاههم ويقتنون الاموال ويتأثرون بها ثم اذا أخذت الدولة في الهرم
بتلاشي العصية وفناء القبيل الماهدين للدولة احتاج صاحب الامر حينئذ الى
الاعوان والانصار لكثرة الخوارج والمنازعين والثوار وتوهم الانتقاص فصار
خواجه لظهرائه وأعوانه وهم أرباب السيوف وأهل العصابات وأنفق خزائنه
وحاصله في مهمات الدولة وقتل مع ذلك الجباية لما قدمناه من كثرة العطاء والاتفاق
فيقل الخراج وتشتد حاجة الدولة الى المال فيتقلص ظل النعمة والترفع عن الخواص
والحجاب والكتاب يتقلص الجاه عنهم وضيق نطاقه على صاحب الدولة ثم تشتد حاجة
صاحب الدولة الى المال وتنفق أبناء البطانة والحاشية ما تأثله آباؤهم من الاموال
في غير سبيلها من اعانة صاحب الدولة ويقبلون على غير ما كان عليه آباؤهم وسلفهم من
المناصحة ويرى صاحب الدولة أنه أحق بتلك الاموال التي اكتسبت في دولة سلفه
وبجاههم فيصطلها ويتزعمها منهم لنفسه شيئاً وواحد بعد واحد على نسبة رتبهم
وتنكر الدولة لهم ويعودو بال ذلك على الدولة بفناء حاشيتها ورجالاتها وأهل الثروة
والنعمة من بطانتها ويتقوض بذلك كثير من مباني المجد بعد أن يدعه أهله ويرفعوه
• وانظر ما وقع من ذلك لوزراء الدولة العباسية في بنى قحطبة وبنى برمك وبنى سهل وبنى
طاهر وأمثالهم ثم في الدولة الاموية بالاندلس عند انحلالها أيام الطوائف في بنى شهيد
وبنى أبى عبدة وبنى حدير وبنى برد وأمثالهم وكذا في الدولة التي أدرناها العهد ناسنة
الله التي قد خلت في عبادته

(فصل) ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثير منهم يتزعجون
الى الفرار عن الرتب والتخلص من ربة السلطان بما حصل في أيديهم من مال الدولة
الى قطر آخرو يرون أنه أهنأ لهم وأسلم في انفاقه وحصول ثمرته وهو من الاغلاط
القاحشة والاوهام المفسدة لاجوالهم وديانهم واعلم أن الخلاص من ذلك بعد
الحصول فيه عسير ممنوع فان صاحب هذا الغرض اذا كان هو الملك نفسه فلا يمكنه
الرعي من ذلك طرفه عين ولا أهل العصية المزاجون له بل في ظهور ذلك منه هندم

للملكه واتلاف لنفسه بجاري العادة بذلك لان ربة الملك يعسر الخلاص منها سيما عند
 استفحال الدولة وضيق نطاقها وما يعرض فيها من البعد عن المجد والخلال والتخلق
 بالشر وأما اذا كان صاحب هذا الغرض من بطانة السلطان وحاشيته وأهل الرتب
 في دولته فقل أن يخلى بينه وبين ذلك أما أولا فلما يراه الملوكة أن ذويهم وحاشيتهم بل
 وسائر رعاياهم مما اليك لهم مطالعون على ذات صدورهم فلا يسمعون بحل ربقته من
 الخدمة ضنا بأسرارهم وأحوالهم أن يطلع عليها أحد وغيره من خدمته لسواهم ولقد
 كان بنو أمية بالاندلس يمنعون أهل دولتهم من السفر لفرضة الحج لما يتوهمونه من
 وقوعهم بأيدي بني العباس فلم يحج سائر أيامهم أحد من أهل دولتهم وما أبيع الحج
 لأهل الدول من الاندلس الا بعد فراغ شأن الاموية ورجوعها الى الطوائف وأما
 ما يافلانم - م وان سمعوا بحل ربقته هو فلا يسمعون بالتجافي عن ذلك المال لما يرون
 أنه جزء من مالهم كما يرون أنه جزء من دولتهم اذ لم يكتسب الا بها وفي ظل جاهها تقوم
 نفوسهم على انتزاع ذلك المال والتقامه كما هو جزء من الدولة ينتفعون به ثم اذا
 توهمنا أنه خلص بذلك المال الى قطر آخر وهو في النادر الاقل فتمتد اليه عين الملوكة
 بذلك القطر ويتزعونه بالارهاب والتخويف تعريضا وبالقهرة ظاهرا لما يرون أنه مال
 الجباية والدول وأنه مستحق للانفاق في المصالح واذا كانت أعينهم تمتد الى أهل الثروة
 واليسار المتكسبين من وجوه المعاش فأحرى عيهم أن تمتد الى أموال الجباية والدول
 التي تجد السيل اليه بالشرع والعادة واقد حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد
 اللحياني تاسع أو عاشر ملوك الحفصيين بافريقية الخروج عن عهدة الملك والحقاق
 بمصر فرار من طلب صاحب الثغور الغربية اما استجمع لغزوتونس فاستعمل اللحياني
 الرحلة الى ثغر طرابلس يوري بتمهيد وورسكب السفين من هنالك وخلص الى
 الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجدته بيت المال من الصامت والذخيرة وباع كل
 ما كان يخزائهم من المتاع والعقار والجوهر حتى الكسب واحتمل ذلك كله الى مصر
 ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة سبع عشرة من المائة الثامنة فأكرم نزله
 ورفع مجلسه ولم يزل يستخلص ذخيره شيئا فشيئا بالتعريض الى أن حصل عليها ولم يبق
 معاش ابن اللحياني الا في جراته التي فرض له الى أن هلك سنة ثمان وعشرين حسبا
 نذكره في أخباره فهذا وأمثاله من جملة الوسواس الذي يعتري أهل الدول لما
 يتوهمونه من ملوكهم من المعاطب وانما يخاضون ان اتفق لهم الخلاص بأنفسهم
 وما يتوهمونه من الحاجة فغلط ووهم والذي حصل لهم من الشهرة بخدمة الدول كاف
 في وجدان المعاش لهم بالجرابات السلطانية أو بالجاه في انتمال طرق الكسب من

التجارة والفلاحة والدول أنساب لكن

النفس راغبة اذا رغبته * واذا ترذ الى قليل تقنع

واقه سبحانه هو الرزاق وهو الموفق بعنه وفضله والله أعلم

٤٣ (فصل في ان نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية)

والسبب في ذلك أن الدولة والسلطان هي السوق الاعظم للعالم ومنه مادة العمران فاذا احتجب السلطان الاموال أو الجبايات أو فقدت فلم يصرفها في مصارفها قل حينئذ ما بأيدي الحاشية والحامية وانقطع أيضا ما كان يصل منهم لحاشيتهم وذويهم وقلت نفقاتهم جلة وهم معظم السواد ونفقاتهم أكثر مادة للاسواق ممن سواهم فيقع الكساد حينئذ في الاسواق وتضعف الارباح في المتاجر فيقل الخراج لذلك لان الخراج والجباية انما تكون من الاعتمار والمعاملات ونفاق الاسواق وطلب الناس للقوائد والارباح ووبال ذلك عاند على الدولة بالنقص لقله أموال السلطان حينئذ بقله الخراج فان الدولة كما قلناه هي السوق الاعظم أم الاسواق كلها وأصلها ومادتها في الدخل والخارج فان كسدت وقلت مصارفها فأجدر بما بعد هامن الاسواق أن يلحقها مثل ذلك وأشد منه وأيضا فالمال انما هو متردد بين الرعية والسلطان منهم اليه ومنه اليهم فاذا حب السلطان عنده فقدنه الرعية سنة الله في عباده

٤٤ (فصل في ان المظلم مؤذن بخراب العمران)

اعلم أن العدو ان على الناس في أموالهم ذاهب بأمالهم في تحصيلها واكتسابها ما يرويه حينئذ من أن غايتها ومصيرها انتهابها من أيديهم واذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انقباض الرعايا عن السعي في الاكتساب فاذا كان الاعتداء كثيرا عامتا في جميع أبواب المعاش كان القعود عن الكسب كذلك لذهابه بالآمال جملة بدخوله من جميع أبوابها وان كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض عن الكسب على نسبه والعمران ووفوره ونفاق أسواقه انما هو بالاعمال وسعي الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين فاذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت أسواق العمران وانقبضت الاحوال وايدع الناس في الآفاق من غير تلك الابالة في طلب الرزق فيخرج عن نطاقها تخف ساكن القطر وختل دنياه وخربت أمصاره واختل باختلاله حال الدولة والسلطان لما أنها صورة للعمران تفسد بنفسا مادتها ضرورية وانظر في ذلك ما حكاه المسعودي في أخبار الفرس عن الموبدان صاحب تزيين

عندهم أيام بهرام بن بهرام وما عرض به للملك في انكار ما كان عليه من الظلم والغفلة عن عائدته على الدولة بضرب المثال في ذلك على لسان اليوم حين سمع الملك أصواتها وسأله عن فهم كلامها فقال له ان يوماً ذكر ايروم نكاح يوم أنتى رأيتها شرطت عليه عشرين قرية من الخراب في أيام بهرام فقبل شرطها وقال لها ان دامت أيام الملك أقطعك ألف قرية وهذا أسهل مما قننه الملك من غفلة وخلا بالموبدان وسأله عن مراده فقال له أيها الملك ان الملك لا يتم عزه الا بالشريعة والقيام لله بطاعته والتصرف تحت أمره ونهيته ولا اقوام للشريعة الا بالملك ولا عز للملك الا بالرجال ولا اقوام للرجال الا بالمال ولا سبيل الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل الميزان المنصوب بين الخليفة ونسبه الرب وجعل له قياماً وهو الملك وأنت أيها الملك عمدت الى الضياع فانتزعتهم من أربابها وعمارها وهم أرباب الخراج ومن توخذ منهم الاموال وأقطعها الحاشية والخدم وأهل البطالة فتركوا العمارة والنظر في العواقب وما يصلح الضياع وسومحوا في الخراج لقربهم من الملك ووقع الخيف على من بقي من أرباب الخراج وعمار الضياع فانتجوا عن ضياعهم وخلواد يارهم وآووا الى ما تعذر من الضياع فسكنوها فقلت العمارة وخربت الضياع وقت الاموال وهلكت الجنود والرحمة وطمع في ملك فارس من جاورهم من الملوك اعلمهم بانقطاع المواد التي لا تستقيم دعائم الملك الا بها فلما سمع الملك ذلك أقبل على النظر في ملكه وانتزعت الضياع من ايدي الخاصة وردت على أربابها وجلوا على رسومهم السالفة وأخذوا في العمارة وقوى من ضعف منهم فعمرت الارض وأخصبت البلاد وكثرت الاموال عند جباة الخراج وقويت الجنود وقطعت مواد الاعداء وشحنت الثغور وأقبل الملك على مباشرة أموره بنفسه فحسنت أيامه وانتظم ملكه فتفهم من هذه الحكاية أن الظلم مخرب للعمران وان عائدة الخراب في العمران على الدولة بالفساد والاتقاص ولا تنظر في ذلك الى أن الاعتداء قد يوجد بالامصار العظيمة من الدول التي بها ولم يقع فيها خراب واعلم أن ذلك انما جاء من قبل المناسبة بين الاعتداء وأحوال أهل المصر فلما كان المصر كبيراً وعمرانه كثيراً وأحواله تسعة بما لا ينحصر كان وقوع النقص فيه بالاعتداء والظلم يسيراً لان النقص انما يقع بالتدريج فاذا خفي بكثرة الاحوال واتساع الاعمال في المصر لم يظهر أثره الا بعد حين وقد تذهب تلك الدولة المعتمدية من أصلها قبل خراب المصر ونجى الدولة الاخرى فترقع مجدها وتجب النقص الذي كان خفياً فيه فلا يكاد يشعر به الا أن ذلك في الاقل النادر والمراد من هذا أن حصول النقص في العمران عن الظلم والعدوان أمر واقع لا بد منه لما قدمناه وبالله عائد على الدول

ولا تحسب الظلم انما هو أخذ المال أو المالك من يد المالك من غير عوض ولا سبب كما هو المشهور بل الظلم أعم من ذلك وكل من أخذ ملكاً أحداً وغصبه في عمله أو طالبه بغير حق أو فرض عليه حقاً لم يفرضه الشرع فقد ظلمه فحياة الاموال بغير حقها ظلمة والمعتدون عنها ظلمة والمنتهبون لها ظلمة والممانعون لحقوق الناس ظلمة وغصب الاملاك على العموم ظلمة ووبال ذلك كله عائد على الدولة بخراب العمران الذي هو مادتها الاذها به الآمال من أهله واعلم أن هذه هي الحكمة المقصودة للشارع في تحريم الظلم وهو ما ينشأ عنه من فساد العمران وخرابه وذلك مؤذن بانقطاع النوع البشري وهي الحكمة العامة المراعاة للشرع في جميع مقاصده الضرورية الخمسة من حفظ الدين والنفس والعقل والنسل والمال فلما كان الظلم كما رأيت مؤذناً بانقطاع النوع لما أدى اليه من تخريب العمران كانت حكمة الخطر فيه موجودة فكان تحريمه مهما وأدلته من القرآن والسنة كثيراً كثيراً من أن يأخذها قانون الضبط والحصر ولو كان كل واحد قادراً عليه لوضع بازائه من العقوبات الزاجرة ما وضع بازائه من المفسدات للنوع التي يقدر كل أحد على اقترافها من الزنا والقتل والسكر إلا أن الظلم لا يقدر عليه الا من يقدر عليه لانه انما يقع من أهل القدرة والسلطان فبولغ في ذمته وتكرير الوعيد فيه عسى أن يكون الوازع فيه للقدرة عليه في نفسه وما ربك بظلام للعبيد * ولا تقولن ان العقوبة قد وضعت بازائه الخرابية في الشرع وهي من ظلم القادر لان المهارب زمن حرايته قادر فان في الجواب عن ذلك طريقين احدهما أن تقول العقوبة على ما يقترفه من الجنائيات في نفس أو مال على ما ذهب اليه كثير وذلك انما يكون بعد القدرة عليه والمطالبة بجنائيه وأما نفس الخرابية فهي خلو من العقوبة * الطريق الثاني أن تقول المهارب لا يوصف بالقدرة لانا انما نعني بقدرة الظالم اليد المبسوطة التي لاتعارضها قدرة فهي المؤذنة بالخراب وأما قدرة المهارب فانما هي اضافة يجعلها ذريعة لاخذ الاموال والمدافعة عنها بيد الكل موجودة شرعاً وسياسة فليست من القدر المؤذن بالخراب والله قادر على ما يشاء

(فصل) ومن أشد اطلالات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال وتسخير الرعايا بغير حق وذلك أن الاعمال من قبيل الممتلكات كما سنين في باب الرزق لان الرزق والكسب انما هو قيم أعمال أهل العمران فاذا ماسعهم وأعمالهم كلها ممتلكات ومكاسب لهم بل لا مكاسب لهم سواها فان الرعية المعتمدين في العمارة انما معاشهم ومكاسبهم من اعتمادهم ذلك فاذا كفوا العمل في غير شأنهم واتخذوا حريفاً في

معاشهم بطل كسبهم واغتصبوا قيمة عملهم ذلك وهو متمولهم قد دخل عليهم الضرر
ونهب لهم ثمن كبير من معاشهم بل هو معاشهم بالجملة وان تكثر ذلك عليهم افسد
آمالهم في العمارة وقعدوا عن السعي فيها جملة فأدى ذلك الى انتقاص العمران
وتخريبه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(فصل) وأكظم من ذلك في الظلم وفساد العمران والدولة التسلط على أموال الناس
بشراء ما بين أيديهم بأجنس الاثمان ثم فرض البضائع عليهم بأرفع الاثمان على وجه
الغضب والاكراه في الشراء والبيع وربما فرض عليهم تلك الاثمان على النواحي
والتأجيل فيتعطلون في تلك الخسارة التي تلحقهم بما تعمدتهم المطامع من جبر ذلك بحوالة
الاسواق في تلك البضائع التي فرضت عليهم بالفلاحة الى بيعها بأجنس الاثمان وتعود
خسارة ما بين الصفتين على رؤس أموالهم وقديم ذلك أصناف التجار المقيمين بالمدينة
والواردين من الآفاق في البضائع وسائر السوق وأهل الكاكن في المأكول
والنواكح وأهل الصنائع فيما يتخذ من الآلات والمواغين فتشمل الخسارة سائر
الأصناف والطبقات وتتوالى على الساعات وتجنف برؤس الأموال ولا يجدون عنها
وليمة الا تعود عن الاسواق لذهاب رؤس الأموال في جبرها بالارباح ويتناقل
الواردون من الآفاق لشراء البضائع وبيعها من أجل ذلك فتكسد الاسواق ويطل
معاش الرعايا لان عامتهم من البيع والشراء واذا كانت الاسواق عطلا منها بطل
معاشهم وتنقص جباية السلطان أو تفسد لان معظمها من أوسط الدولة وما بعدها انما
هو من المكوس على البياعات كما قدمناه ويؤلف ذلك الى تلاشي الدولة وفساد عمران
المدينة ويتطرق هذا الخلل على التدرج ولا يشعر به هذا ما كان بأمثال هذه الذرائع
والاسباب الى أخذ الأموال وأما أخذها مجانا والعدوان على الناس في أموالهم
وحرمانهم ودمائهم وأسرارهم وأعراضهم فهو يفضي الى الخلل والفساد دفعة
وتنقض الدولة ترويعا بما ينشأ عنه من الهرج المفضي الى الانتقاص ومن أجل هذه
الفساد خطر الشرع ذلك كله وشرع المكايسة في البيع والشراء وحظراً كل
أموال الناس بالاطلسد الابواب الفاسد المفضية الى انتقاص العمران بالهرج
وإبطال المعاش واعلم أن الداعي لذلك كلها هو حاجة الدولة والسلطان الى
الاكتثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الاحوال فتكثر نفقاتهم ويعظم الخرج
ولا يبق به الدخل على القوانين المعتادة يستمدون الثغابا ووجوها يوسعونها الجباية
يعني لهم الدخل بالخرج ثم لا يزال الترف يزيد والخرج يسببه يكثر والحاجة الى أموال
الناس تشتد ونطاق الدولة بذلك يزيد الى أن تنعجب دائرتها وذهب برعاها وبغلبها

٤٥ (فصل في ان الحجاب كيف يقع في الدولة وانه يعظم عند الهرم)

اعلم أن الدولة في أول أمرها تكون بعيدة عن منازع الملك كما قدمناه لانه لا بد لها من العصية التي بها يتم أمرها ويحصل استيلائها والبداءة هي شعار العصية والدولة ان كان قيامها بالدين فانه بعيد عن منازع الملك وان كان قيامها بعز القاب فقط فالبداءة التي بها يحصل الغلب بعيدة أيضا عن منازع الملك ومثلهما فاذا كانت الدولة في أول أمرها بدوية كان صاحبها على حال الغضاضة والبداءة والقرب من الناس وسهولة الاذن فاذا رسخ عزه وصار الى الانفراد بالمجد واحتاج الى الانفراد بنفسه عن الناس للعديت مع أوليائه في خواص شؤنه لما يكثر حينئذ زمن بحاشيته فنطلب الانفراد من العامة ما استطاع ويتخذ الاذن بيا به على من لا يأمنه من أوليائه وأهل دولته ويتخذ حاجب له عن الناس يقيه بيا به لهذه الوظيفة ثم اذا استفحل الملك وجاءت مذاهبه ومنازعه استحالت خلق صاحب الدولة الى خلق الملك وهي خلق غريبة فحجوة وصلة يحتاج مباشرها الى مداراتها ومعاملتها بما يجب لها ويربما جهل تلك الخلق منهم بعض من يباشرهم فوق فيما لا يرضيهم فسخطوه وصاروا الى حالة الانتقام منه فانفرد بعرفة هذه الآداب الخواص من أوليائهم ووجبوا غير أولئك الخاصة عن لقائهم في كل وقت حفظا على أنفسهم من معاينة ما يخطوهم وعلى الناس من التعرض لعقابهم فصار لهم حجاب آخر أخص من الحجاب الاول يقضي اليهم منه خواصهم من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الثاني يقضي الى محال من الأولياء ويحجب دونه من سواهم من العامة والحجاب الاول يكون في أول الدولة كما ذكرنا كما حدث لا يام معاوية وعبد الملك وخلفاء بني أمية وكان القائم على ذلك الحجاب يسمى عندهم الحاجب جريا على مذهب الاشتقاق الصحيح ثم لما جاءت دولة بني العباس وجدت الدولة من الترف والعزما هو معروف وكنت خلق الملك على ما يجب فيها فقد عاد ذلك الى الحجاب الثاني وصار اسم الحاجب أخص به وصار بيناب الخلفاء مداران للعباسة دارا الخاصة ودارا العامة كما هو مسطور في أخبارهم ثم حدث في الدول حجاب ثالث أخص من الأولين وهو عند محاولة الجز على صاحب الدولة وذلك أن أهل الدولة وخواص الملك اذا نصبوا الابناء من الاعقاب وحاولوا الاستبداد عليهم فأقول ما يبدأ به ذلك المستبد أن يحجب عنه بطانة ابنه وخواص أوليائه ويوهمه أن في مباشرتهم اياه نرق حجاب الهيبة وفساد قانون الادب ليقطع بذلك لقاء الغير ويعوده

ملايسة أخلاقه هو حتى لا يتبدل به سواه الى أن يستحكم الاستيلاء عليه فيكون
هذا الجباب من دواعيه وهذا الجباب لا يقع في الغالب الا و آخر الدولة كما قدمناه في
الحجرو يكون دليلا على هرم الدولة ونفاذ قوتها وهو مما يخشاه أهل الدول على أنفسهم
لان القاعين بالذرة يحاولون على ذلك بطباعهم عند هرم الدولة وذهاب الاستبداد
من أعقاب ملوكهم لما ركب في النفوس من محبة الاستبداد بالملك وخصوصا مع
الترشيح لذلك وحصول دواعيه ومبادئه

٤٦ (فصل في ان انقسام الدولة الواحدة بدولتين)

اعلم أن أول ما يقع من آثار الهرم في الدولة انقسامها وذلك أن الملك عند ما يستفصل
ويبلغ أحوال النرف والنعيم الى غايتها ويستبد صاحب الدولة بالمجد ويتقرب به بأنف
حينئذ عن المشاركة ويصير الى قطع أسبابها ما استطاع باهلال من استراب به من ذوى
قربته المرشحين لمنصبه فر بما ارتاب المساهمون له في ذلك بأنفسهم وزرعوا الى القاصية
اليهم من يلحق بهم مثل حالهم من الاغترار والاسترابة ويكون نطاق الدولة قد أخذ
في التضيق ورجع عن القاصية فيستبد ذلك النازع من القرابة فيها ولا يزال أمره
بمعظم بتراجع نطاق الدولة حتى يقاسم الدولة أويكاد وانظر ذلك في الدولة الاسلامية
العربية حين كان أمرها حريزاً محجة ووظائفها تمتد في الاتساع وعصية بنى عبد مناف
واحدة غالبية على سائر مضر فلم ينبض عرق من الخلاف سائر أيامه الا ما كان من بدعة
الخوارج المستميين في شأن بدعتهم لم يكن ذلك لزعمة لك ولا رياسة ولم يتم أمرهم
لمزاجتهم العصبية القوية ثم لما خرج الامر من بنى أمية واستقل بنو العباس بالامر
وكانت الدولة العربية قد بلغت الغاية من الغلب والترف وأذنت بالتقلص عن القاصية
زرع عبد الرحمن الداخل الى الاندلس قاصية دولة الاسلام فاستحدث بها ملكا
واقطعها عن دولتهم وصير الدولة دولتين ثم نزع ادريس الى المغرب وخرج به وقام
بأمره وأمر ابنه من بعده البرابرة من أوربة ومغيلة وزناتة واستولى على ناحية
المغربين ثم ازدادت الدولة تقلصا فاضطرب الاغالبية في الامتناع عليهم ثم خرج الشيعة
وقام بأمرهم كرامة وصنهاجة واستولوا على افر يقية والمغرب ثم مصر والشام
والحجاز وغابوا على الادارسة وقسموا الدولة دولتين تخريبن وصارت الدولة العربية
ثلاث دول دولة بنى العباس بمركز العرب وأصلهم ومادتهم الاسلام ودولة بنى أمية
المجتمدين بالاندلس ملكهم القديم وخلافتهم بالشرق ودولة العبيديين بافر يقية
ومصر والشام والحجاز ولم تزل هذه الدرة الى أن كان انقراضها متقاربا وأوجيها

وكذلك انقسمت دولة بني العباس بدول أخرى وكان بالقاضية بنو ساسان فيما وراء
 النهر وخراسان والعلوية في الديلم وطبرستان وآل ذلك إلى استيلاء الديلم على العراقين
 وعلى بغداد والخلقاء ثم جاء السلجوقية فلكوا جميع ذلك ثم انقسمت دولتهم أيضا بعد
 الاستعمال كما هو معروف في أخبارهم وكذلك اعتبره في دولة منها جة بالمغرب
 وافر يقية لما بلغت إلى غايتها أيام باديس بن المنصور وخرج عليه حماد واقتطع
 ممالك العرب لثقه ما بين جبل أوراس إلى تلسان وملوية واخطت القلعة بجبل
 كامة جبال المسيلة ونزلها واستولى على مركزهم أشهر بجبل تطري واستحدث ملكا
 آخر قسما لملك آل باديس وبنى آل باديس بالقيروان وما إليها ولم يزل ذلك إلى أن انقرض
 أمرهما جميعا وكذلك دولة الموحد بن لما تغلص ظلها ثابرا فريقيه بنو أبي خصص
 فاستقلوا بها واستحدثوا ملكا لآعقابهم بنو احياء ثم لما استعمل أمرهم واستولى على
 الغاية خرج على الممالك الغربية من أعقابهم الامير أبو بكر يا يحيى ابن السلطان أبي
 اسحق ابراهيم رابع خفافهم واستحدث ملكا بجاية وقسنطينة وما إليها ورثه بنه
 وقسموا به الدولة قسمين ثم استولى على كرسى الحضرة بتونس ثم انقسم الملك ما بين
 أعقابهم ثم عاد الاستيلاء فيهم وقد انتهى الانقسام إلى أكثر من دولتين وثلاثة
 وفي غير أعباس الملك من قومه كما وقع في ملوك الطوائف بالاندلس وملوك العجم
 بالشرق وفي ملك منها جة بافريقية فقد كان لا آخر دولتهم في كل حصن من حصون
 افريقية ثابرا مستقلا بأمره كما تقدم ذكره وكذا حال البحر يد والزاب من افريقية
 قبل هذا العهد كما ذكره وهكذا شأن كل دولة لا بد وأن يعرض فيها عوارض الهرم
 بالترف والدعة وتقلص ظل الغلب فيقتسم أعيانها أو من يغلبه من رجال دولتها
 الامر ويتعد فيها الدولة واقه وارث الارض ومن عليها

٤٧ (فصل في ان الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع)

قد قدمنا ذكر العوارض المؤثرة بالهرم وأسبابه واحدا بعد واحد وينا أنها تحدث
 للدولة بالطبع وأنها كلها أمور طبيعية لها واذا كان الهرم طبيعيا في الدولة كان
 حدوثه بمثابة حدوث الامور الطبيعية كما يحدث الهرم في المزاج الحيواني والهرم من
 الامراض المزمنة التي لا يمكن دواؤها ولا ارتفاعها لما أنه طبيعي والامور الطبيعية
 لا تبدل وقد يتبعه كثير من أهل الدول ممن له يقظة في السياسة فيرى ما نزل بدولتهم
 من عوارض الهرم ويظن أنه يمكن الارتفاع فباخذ نفسه بتلافي الدولة واصلاح
 مزاجها عن ذلك الهرم ويحسبه أنه لحنها بتصير من قبله من أهل الدولة وغفلتهم

وليس كذلك فانها امور طبيعية للدولة والعوائد هي المانعة له من تلافها والعوائد منزلة طبيعية أخرى فان من أدركه مثلاً أباه وأكثراً أهل بيته يلبسون الحرير والديباغ ويتحلون بالذهب في السلاح والمراكب ويحتجبون عن الناس في المجالس والصلوات فلا يمكنه مخالفة سلفه في ذلك الى الخشونة في اللباس والري والاختلاط بالناس اذ العوائد حينئذ تمنعه وتقع عليه مرتكبه ولو فقه له ربح بالجنون والوسواس في الخروج عن العوائد دفعة وخشي عليه عائدة ذلك وعاقبته في سلطانه وانظر شأن الانبياء في انكار العوائد ومخالفتها لولا التأييد الا الهى والنصر السماوى وربما تكون العصية قد ذهبت فتكون الابهة تعوض عن موقعها من النفوس فاذا أزيلت تلك الابهة مع ضعف العصية تجاسرت الرعايا على الدولة بذهاب أهام الابهة فتدفع الدولة بتلك الابهة ما أمكنها حتى ينقضى الامر وربما يحدث عند آخر الدولة قوة توهم أن الهرم قد ارتفع عنها ويومض ذبالها ايماضه الخلود كما يتبع في الذبال المشتعل فانه عند مقاربة انطفائه يومض ايماضه توهم أنها اشتعال وهي انطفاء فاعتد ذلك ولا تغفل سر الله تعالى وحكمته في اطراد وجوده على ما قدره فيه ولكل أجل كتاب

٤٨ (فصل في ان كيفية طروق الخلل للدولة)

اعلم أن مبنى الملك على أساسين لا بد منهما فالأول الشوكة والعصية وهو المبرع عنه بالخند والثانى المال الذى هو قوام أولئك الخند واقامة ما يحتاج اليه الملك من الاحوال والخلل اذا طرق الدولة طرقتها في هذين الاساسين فلندكر أولاً طروق الخلل في الشوكة والعصية ثم نرجع الى طروقه في المال والحماية واعلم أن تمهيد الدولة وتأسيسها كما قلناه انما يكون بالعصية وأنه لا بد من عصية كبرى جامعة للعصائب مستتعبة لها وهي عصية صاحب الدولة الخاصة من عشيرة وقبيلة فاذا اجامت الدولة طبيعة الملك من الترف وجدع أنوف أهل العصية كان أول ما يجدهم أنوف عشيرته وذوى قرابه المقاسمين له في اسم الملك فيستبدون في جدع أنوفهم بما بلغ من سوادهم ويأخذهم الترف أيضاً أكثر من سوادهم لكانهم من الملك والعز والقلب فيصيط بهم حادمان وهما الترف والقهر ثم يصير القهر آخر الى القتل ما يحصل من مرض قلوبهم عند سخر الملك لصاحب الامر في قلب غيره منهم الى الخوف على ملكه فبأخذهم بالقتل والاهانة وسلب النعمة والترف الذى تعودوا الكثير منه فيكون ويقلون وتفسد عصية صاحب الدولة منبسبب وهي المنصية الكبرى التى كانت تجتمع بها العصائب وتستتبعها فتصل عروتها وتضرب شكيتهما وتتبدل عنها بالبطالة من موالى النعمة وصنائع الاجسان

وتخذ منهم عصية الا انها ليست مثل تلك الشدة لشكسية لفقدان الرحم والقرابة
دها وقد كما قدمنا ان شأن العصية وقوتها انما هي بالقرابة والرحم لما جعل الله في
ذلك فينفردها صاحب الدولة عن العشير والانصار الطبيعية ويحسر بذلك أهل العصاب
الآخري فيتجاسرون عليه وعلى بطانته تجاسر طبيعيا فيملكهم صاحب الدولة وينبهم
بالقتل واحد بعد واحد ويقلد الآخري من أهل الدولة في ذلك الا اول مع ما يكون قد
نزل بهم من مهلكة الترف الذي قد منا فيستولى عليهم الهلاك بالترف والقتل حتى
يخرجوا عن صبغة تلك العصية وينشوا بعزتها وشورتها ويصيروا أو جز على
الحماية ويقولون لذلك قتيل الحامية التي تنزل بالاطراف والتغور فيتجاسر الرعايا على
بعض الدعوة في الاطراف ويبادر الخوارج على الدولة من الاعيان وغيرهم الى تلك
الاطراف لما يرجون حينئذ من حصول غرضهم بعبادة أهل القاصية لهم وأمنهم من
وصول الحامية اليهم ولا يزال ذلك يتدرج ونطاق الدولة يتضيق حتى تصير الخوارج
في أقرب الاماكن الى مركز الدولة وربما انقسمت الدولة عند ذلك بدو اثنين أو ثلاثة
على قدر قوتها في الاصل كما قلناه ويقوم بأمرها غير أهل عدويتها لكن ادعانا لاهل
خصيتها والمطلبهم الملهود واعتبر هذا في دولة العرب في الاسلام انتهت أولا الى الاندلس
والهند والصين وكان أمر بني أمية نافذا في جميع العرب بعصية بني عبد مناف حتى
لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة
فقتل ولم ير ذأمره ثم تلاشت عصية بني أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا وجاء
بنو العباس فغضوا من أعنة بني هاشم وقتلوا الطالبيين وشردوهم فانحلت عصية عبد
مناف وتلاشت وتجاسر العرب عليهم فابتد عليهم أهل القاصية مثل بني الاغلب
بأفريقية وأهل الاندلس وغيرهم وانقسمت الدولة ثم خرج بنو ادريس بالمغرب وقام
البربر بأمرهم ادعانا للعصية التي لهم وأمننا ان تصلهم بمقاتلة أوحامية للدولة فاذا
خرج المدعاة آخر افي تغلبون على الاطراف والقاصية وتحصل لهم هذه الدعوة وملاك
تنقسم به الدولة وربما يزيد ذلك متى زادت الدولة تقلصا الى أن ينتهي الى المركز
وتضعف البطانة بعد ذلك بما أخذ منها الترف فتملك وتضعف وتضعف الدولة المنقسمة
كلها وربما طال أمدها بعد ذلك فتستغنى عن العصية بما حصل لها من الصبغة في
نفوس أهل اياتها وهي صبغة الانقياد والتسليم منذ السنين الطويلة التي لا يعقل أحد
من الاجيال مبدأها ولا أوليتها فلا يعقلون الا التسليم لصاحب الدولة فيستغنى بذلك
عن قوة العصاب ويكفي صاحبها بما حصل لها في تمهيد أمرها الاجراء على الحامية من
جندى ومرزوق ويضد ذلك ما وقع في النفوس عامة من التسليم فلا يكاد أحد أن

يتصور عصياناً أو خروجاً أو الجمهور منكرون عليه مخالفة ولا يقدر على التصدي
 لذلك ولو جهد جهده وربما كانت الدولة في هذا الحال أسلم من الخوارج والمنارعة
 لاستحكام صبغة التسليم والانقياد لهم فلا تكاد النفوس تحدث سرها بمخالفة
 ولا يجتلب في ضميرها انحراف عن الطاعة فيكون أسلم من الهرج والانتقاض الذي
 يحدث من العصائب والعشائر ثم لا يزال أمر الدولة كذلك وهي تتلاشى في ذاتها
 شأن الحرارة الغريزية في البدن العادم للغذاء إلى أن تنتهي إلى وقتها المقدور ولكل
 أجل كتاب ولكل دولة أمد والله يقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار •
 وأما الخلل الذي يتطرق من جهة المال فاعلم أن الدولة في أولها تكون بدوية كما مر
 فيكون خلق الرفق بالرعايا والقصد في النفقات والتعفف عن الأموال فتجاني عن
 الأمعان في الجباية والتخلف والكيس في جمع الأموال وحسبان العمال ولاداعية
 حينئذ إلى الأسراف في النفقة فلا تحتاج الدولة إلى كثرة المال ثم يحصل الاستيلاء
 ويعظم ويستعمل الملك فيدعو إلى الترف ويكثر الانفاق بسببه فتعظم نفقات السلطان
 وأهل الدولة على العموم بل يتعدى ذلك إلى أهل المصر ويدعو ذلك إلى الزيادة في
 أعطيات الجند وأرزاق أهل الدولة ثم يعظم الترف فيكثر الأسراف في النفقات
 ويتشرد ذلك في الرعية لأن الناس على دين ملوكهم أو عوائدهم ويحتاج السلطان
 إلى ضرب المكوس على أثمان البياعات في الأسواق لإدراك الجباية لما يراه من ترف
 المدينة الشاهد عليهم بالرفه ولما يحتاج هو إليه من نفقات سلطانه وأرزاق جنده ثم تزيد
 عوائد الترف فلا تنفي بها المكوس وتكون الدولة قد استفحلت في الاستطالة والقهر لمن
 تحت يدها من الرعايا فتمتد أيديهم إلى جمع المال من أموال الرعايا من مكس أو تجارة
 أو نقد في بعض الأحوال بشبهة أو بغير شبهة ويكون الجند في ذلك الطور قد تجاسر على
 الدولة بما لحقها من الفشل والهزم في العصبية فتتوقع ذلك منهم وتداوى بسكينة
 العطايا وكثرة الانفاق فيهم ولا تجدد عن ذلك وليجة وتكون جباة الأموال في الدولة قد
 عظمت ثروتهم في هذا الظور بكثرة الجباية وكونها بأيديهم وبما اتسع لذلك من
 جاههم فيتوجه إليهم باحتجاب الأموال من الجباية وتنفس السعابة فيهم بعضهم من
 بعض للمنافسة والحقد فتعمهم النكبات والمصادرات واحداً واحداً إلى أن تذهب
 ثروتهم وتتلاشى أحوالهم ويفقد ما كان للدولة من الأبهة والجمال بهم وإذا اصطفت
 نعمتهم نجاء زتهم الدولة إلى أهل الثروة من الرعايا وسواهم ويكون الوهن في هذا
 الطور قد طلق الشوكه وضعفت عن الاستطالة والقهر فتصرف سياسة صاحب الدولة
 حينئذ إلى مداراة الأمور بيدل المال ويراه أرفع من السيف لقله غنائه فتعظم حاجته

الى الاموال زيادة على النفقات وأرزاق الجند ولا يغني قيسا يريد به عظم الهرم بالدولة
وتجاسر عليها أهل النواحي والدولة تحمل عراها في كل طور من هذه الى أن تفضى
الى الهلاك وتتعرض من الاستيلاء الكليل فان قصدها طالب انتزعها من أيدي
القائمين بها والابقيت وهي ثلاثي الى أن تضمحل كالذبال في السراج اذا فنى زيته
وطفى والله مالك الامور ومدبر الالاهو

٤٩ (فصل في ان حدوث الدولة وتجدها كيف يقع)

اعلم ان نشأة الدول وابتدائها اذا أخذت الدولة المستقرة في الهرم والانتقاس يكون
على نوعين اما بان يستبد ولاة الاعمال في الدولة بالقاصية عندما يتقلص ظلها عنهم
فيكون لكل واحد منهم دولة يستبد بها لقومه وما يستقر في نصابه برثه عنه
أبناءؤه أو مواليه ويستعمل لهم الملك بالتدريج ورجوعهم الى حيون على ذلك الملك
ويتقارعون عليه ويتنازعون في الاستتار به ويغلب منهم من يكون له فضل قوة على
صاحبه ويتزع ما في يده كما وقع في دولة بني العباس حين أخذت دولتهم في الهرم وتقلص
ظلالها عن القاصية واستبد بنو سامان بما وراء النهر وبنو حمدان بالموصل والشام وبنو
طولون بمصر وكما وقع بالدولة الاموية بالاندلس واقترب ملكها في الطوائف الذين كانوا
ولاتها في الاعمال وانقسمت دولوا وملوكا ورثوها من بعدهم من قرابتهم أو مواليهم
وهذا النوع لا يكون بينهم وبين الدولة المستقرة حرب لانهم مستقرون في رياستهم
ولا يطعمون في الاستيلاء على الدولة المستقرة بحرب وانما الدولة أدر كها الهرم
وتقلص ظلها عن القاصية وعجزت عن الوصول اليها والنوع الثاني بأن يخرج على
الدولة خارج عن مجاورها من الامم والشبائل اما بدعوة يحمل الناس عليها كما أشرفنا
اليه أو يكون صاحب شوكة وعصية كبير في قومه قد استعمل أمره فيسهبهم الى
الملك وقد حدثوا به أنفسهم بما حصل لهم من الاعتزاز على الدولة المستقرة وما نزل بها
من الهرم فيتعين له ولقومه الاستيلاء عليها ويمارسونها بالمطالبة الى أن يظفروا بها
ويرنون أمرها كما يتبين والله سبحانه وتعالى أعلم

٥٠ فصل في ان الدولة المستجدة انها تستولي على الدولة المستقرة بالمطاولة بالمناحزة

قد ذكرنا أن الدول الحادثة المتجددة نوعان نوع من ولاية الاطراف اذا تقلص ظل
الدولة عنهم وانحسر تيارها وهؤلاء لا يقع منهم مظالبة للدولة في الاكثر كما قدمنا لان
قصارا هم القنوع بما في أيديهم وهونهاية قوتهم والنوع الثاني نوع الدعاة
والخوارج على الدولة وهؤلاء لا بداهم من المطالبة لان قوتهم وافية بها فان ذلك انما

يكون في نصاب يكون له من العصبية والاعتزاز ما هو كما هو ذلك وواف به فيقع بينهم
وبين الدولة المستقرة حروب مجال سكر روتصل الى أن يقع لهم الاستيلاء والتظفر
بالمطلوب ولا يحصل لهم في الغالب نظير المناجزة والسبب في ذلك أن التظفر في الحروب
انما يقع كما قدمناه بأمر نفسانية وهمية وان كان العدو والسلاح وصدق القتال
كصلا به لكنه قاصر مع تلك الامور الوهمية كما مر ولذلك كان الخداع من أفع
ما يستعمل في الحرب وأكثر ما يقع التظفر به وفي الحديث الحرب خدعة والدولة
المستقرة قد صيرت العوائد المألوفة طاعة ضرورية واجبة كما تقدم في غير موضع
فتكثر بذلك العوائق لصاحب الدولة المستجدة ويكثر من هم أتباعه وأهل شوكة
وان كان الاقربون من بطاته على بصيرة في طاعته وموازرته الا أن الاخرين أكثر
وقد داخلهم الفشل بتلك العقائد في التسليم للدولة المستقرة فيحصل بعض المتحور
بينهم ولا يكاد صاحب الدولة المستجدة يقاوم صاحب الدولة المستقرة فيرجع الى الصبر
والمطاوله حتى يتضع هرم الدولة المستقرة فيحصل عقائد التسليم لها من قومه
وتبعث منهم الهمم لصدق المطالبة معه فيقع التظفر والاستيلاء وأيضا فالدولة المستقرة
كثيرة الرزق بما استحك لهم من الملك وتوسع من النعيم واللذات واختصوا به دون غيرهم
من أموال الجباية فيكثر عندهم ارتباط الخيول واستجداء الاسلحة وتعظم فيهم
الاجبة الملكية وينفض العطاء بينهم من ملوكهم اختيارا واضطرارا فيهربون بذلك
كله عدوهم وأهل الدولة المستجدة بمعزل عن ذلك لما هم فيه من البداوة وأحوال
الفقر والخصاصة فيسبق الى قلوبهم أو هام الرعب بما يلغهم من أحوال الدولة
المستقرة ويحرمون عن قتالهم من أجل ذلك فيصبراً مرهم الى المطاوله حتى تأخذ
المستقرة ما أخذها من الهرم ويستحكم الخلل فيها في العصبية والجباية فينتزحيتند
صاحب الدولة المستجدة فرصته في الاستيلاء عليها بعد حين منذ المطالبة سنة اقله في
عباده وأيضا فاهل الدولة المستجدة كلهم مباينون للدولة المستقرة بان ابيهم
وعوائدهم وفي ما ترمناحيهم ثم هم مغاخرون لهم ومنايدون بما وقع من هذه المطالبة
ويطمعهم في الاستيلاء عليه فتتمك المباعدة بين أهل الدولتين سترًا وجهرا ولا يصل
الى أهل الدولة المستجدة خبر عن أهل الدولة المستقرة يصيبون منه غرة باطنا وظاهرا
لانقطاع المداخلة بين الدولتين فيقيمون على المطالبة وهم في اجسام وينكفون عن
المناجزة حتى يأذن الله بزوال الدولة المستقرة وفناء عمرها ووفور الخلل في جميع
جبهاتها وانضج لاهل الدولة المستجدة مع الايام ما كان يحق منهم من هرمها وتلاشيها
وقد عظمت قوتهم بما اقتطعوه من أعمالها ونقصوه من أطرافها فتبعثت بهم يدا

واحدة للمناجزة ويذهب ملكان بث في عزائمهم من التوهجات وتنتهي المطاولة
الى جدها ويقع الاستيلاء آخر ايام الاجلة واعتبر ذلك في دولة بني العباس حين ظهورها
حين قام الشيعة بخراسان بعد انعقاد الدعوة واجتماعهم على المطالبة عشرين
أوتريد وجه تدمر لهم الظفر واستولوا على الدولة الاموية وكذا العلوية بطبرستان عند
ظهور دعوتهم في الديلم كيف كانت مطاوتهم حتى استولوا على تلك الناحية ثم لما
انقضى أمر العلوية وسما الديلم الى ملك فارس والعراقين فكثروا سنين كثيرة بطاولون
حتى اقتطعوا اصهبان ثم استولوا على الخليفة ببغداد وكذا العبيديون اقام داعيتهم
بالمغرب أبو عبد الله الشيعي بيني كامة من قبائل البر بر عشرين ويزيد تطاول بني
الاعلى بافريقية حتى ظفريهم واستولوا على المغرب كله وسموا الى ملك مصر فكثروا
ثلاثين سنة أو نحوها في طلبها يجهزون اليها العساكر والاساطيل في كل وقت ومجي
المدبلد افعتهم بر او بحر من بغداد والشام وملكوا الاسكندرية والقيوم والصيد
وتخطت دعوتهم من هنالك الى الجزائر وأقيمت بالخرمين ثم نازل قائدهم جوهر الكاتب
بعاصم كره مدينة مصر واستولى عليها واقطع دولة بني طفج من أصولها واخطط
القاهرة فجاء الخليفة بعد المعز لدين الله فزلها الستين سنة أو نحوها منذ استيلائهم على
الاسكندرية وكذا السلجوقية منول الترتلما استولوا على بني سامان وأجازوا من وراء
النهر مكثوا نحو من ثلاثين سنة بطاولون بني سبكتكين بخراسان حتى استولوا
على دولته ثم زحفوا الى بغداد فاستولوا عليها وعلى الخليفة بها بعد أيام من الدهر وكذا
القيومين بعدهم خرجوا من المفازة أعوام سبع عشرة وستمائة فلم يتم لهم الاستيلاء
الا بعد أربعين سنة وكذا أهل المغرب خرج به المرابطون من لمتونة على ملوك من
مغراوة فطاولوهم سنين ثم استولوا عليه ثم خرج الموحدون بدعوتهم على لمتونة فكثروا
نحو من ثلاثين سنة يحاربونهم حتى استولوا على كرسيم بمر اكش وكذا بنو مرين من
زنانة خرجوا على الموحدين فكثروا بطاولونهم نحو من ثلاثين سنة واستولوا على فاس
واقطعواها وعمالها من ملكهم ثم اقاموا في محاربتهم ثلاثين اخرى حتى استولوا على
مصر كرسيم بمر اكش حسبما نذكر ذلك كله في توارخ هذه الدول فهكذا حال الدول
المستجدة مع المستقرة في المطالبة والمطاولة سنة الله في عباده ولن تجد لسنة الله تبديلا
ولا يعارض ذلك بما وقع في الفتوحات الاسلامية وكيف كان استيلائهم على فارس
والروم ثلاث أو أربع من وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واعلم أن ذلك انما كان معجزة
من معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم سرها استماتة المسلمين في جهاد عدوهم استبعادا
بالإيمان وما أوقع الله في قلوب عدوهم من الرعب والتخيل فلكان ذلك كله خارقا

للعادة المقررة في مطاولة الدول المستجدة للمستقرة وإذا كان ذلك خارقاً فهو
 من معجزات نبينا صلوات الله عليه المتعارف ظهورها في الملة الإسلامية والمعجزات
 لا يمتاس عليها الامور العادية ولا يعترض بها والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٥١ (فصل في وفود العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والمجاعات)

اعلم أنه قد تقررتك فيما سلف أن الدولة في أول أمرها لا بد لها من الرفق في ملكتها
 والاعتدال في اياتها ما من الدين ان كانت الدعوة دينية أو من المكارمة والمحاسنة
 التي تقتضيها البداوة الطبيعية للدول وإذا كانت الملكة رفيقة محسنة انبسطت
 آمال الرعايا وانتشطوا للعمران وأسبابه فتوفرو بكثرة التناسل وإذا كان ذلك كله
 بالتدريج فانما يظهر أثره بعد جيل أو جيلين في الاقل وفي انقضاء الجياليين تشرف
 الدولة على نهاية عمرها الطبيعي فيكون حينئذ العمران في غاية الوفور والنماء ولا
 تقولن انه قد مر ذلك أن آخر الدولة يكون فيها الاجحاف بالرعايا وسوء الملكة فذلك
 صحيح ولا يعارض ما قلناه لان الاجحاف وان حدث حينئذ وقلت الجبايات فانما يظهر
 أثره في تناقص العمران بعد حين من أجل التدريج في الامور الطبيعية ثم ان
 المجاعات والموتان تكثر عند ذلك في آخر الدول والسبب فيه أما المجاعات فلقبض
 الناس أيديهم عن الفلح في الاكثر بسبب ما يقع في آخر الدولة من العدوان في
 الاموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا وكثرة الخوارج لهرم الدولة
 فيقل احتكاك الزرع غالباً وليس صلاح الزرع وثمرته بمستمرة الوجود ولا على وتيرة
 واحدة فطبيعة العالم في كثرة الامطار وقلتها مختلفة والمطر يقوى ويضعف ويقل ويكثر
 والزرع والثمار والضرع على نسبه الا أن الناس واثقون في أقواتهم بالاحتكاك
 فاذا فقد الاحتكاك عظم توقع الناس للمجاعات فغلا الزرع وعجز عنه أولوا الخصام
 فهلكوا وكان بعض السنوات والاحتكاك مفقود فشب الناس الجوع وأما
 كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجامات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدولة
 فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء وسببه في الغالب فساد الهواء بكثرة العمران
 لكثرة ما يخالطه من العفن والرطوبات الفاسدة وإذا فسد الهواء وهو غذاء الروح
 الحيواني وملا به دائماً فيسرى الفساد الى مزاجه فان كان الفساد قويا وقع المرض
 في الرئة وهذه هي الطواعين وأما مرضها مخصوصة بالرئة وان كان الفساد دون القوى
 والكثير فيكثر العفن ويتضاعف فتكثر الجبايات في الامزجة وتعرض الابدان وتهلك
 وسبب كثرة العفن والرطوبات الفاسدة في هذا كله كثرة العمران ووفوره آخر الدولة

لما كان في أوائلها من حسن الملكة ورفقها وقلة المغرم وهو ظاهر ولهذا تبين في موضعه من الحكمة أن تحلل الخلاء والقفر بين العمران ضروري ليكون تنوع الهواء يذهب بما يحصل في الهواء من الفساد والعفن بمخالطة الحيوانات ويأتي بالهواء العصج ولهذا أيضا فان الموتان يكون في المدن الموفورة العمران أكثر من غيرها بكثير كصر بالمشرق وفاس بالمغرب والله بقدر ما يشاء

٥٢ (فصل في ان العمران الشرعي لا بد له من سياسة ينظم بها امره)

اعلم أنه قد تقدم لنا في غير موضع أن الاجتماع للبشر ضروري وهو معنى العمران الذي تتكلم فيه وأنه لا بد لهم في الاجتماع من وازع حاكم يرجعون اليه وحكمه فيهم تارة يكون مستندا الى شرع منزل من عند الله يوجب انقيادهم اليه ايمانهم بالثواب والعقاب عليه الذي جاء به مبلغه وتارة الى سياسة عقلية يوجب انقيادهم اليها ما يتوقعونه من ثواب ذلك الحاكم بعدم معرفته بمصالحهم فالاولى يحصل نفعها في الدنيا والآخرة لعلم الشارع بالمصالح في العاقبة ولمراعاه نجاة العباد في الآخرة والثانية انما يحصل نفعها في الدنيا فقط وما تسمعه من السياسة المدنية فليس من هذا الباب وانما معناه عند الحكماء ما يجب أن يكون عليه كل واحد من أهل ذلك المجتمع في نفسه وخلفه حتى يستغنوا عن الحكام رأسا ويسمون المجتمع الذي يحصل فيه ما يسمى من ذلك بالمدينة الفاضلة والقوانين المرعاة في ذلك بالسياسة المدنية وليس مرادهم السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع بالمصالح العامة فان هذه غير تلك وهذه المدينة الفاضلة عندهم نادرة أو بعيدة الوقوع وانما يتكاهون عليها على جهة الفرض والتقدير ثم ان السياسة العقلية التي قدمناها تكون على وجهين أحدهما يراعى فيها المصالح على العموم ومصالح السلطان في استقامة ملكه على الخصوص وهذه كانت سياسة الفرس وهي على جهة الحكمة وقد أغنانا الله تعالى عنها في الملة ولعهد الخلافة لأن الاحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة والآفات وأحكام الملك مندرجة فيها * الوجه الثاني أن يراعى فيها مصلحة السلطان وكيف يستقيم له الملك مع القهور والاستطالة وتكون المصالح العامة في هذه ما وهذه السياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع التي لساير الملوك في العالم من مسلم وكافر الا أن ملوك المسلمين يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الاسلامية بحسب جهدهم فقوانينها اذا مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية وأشياء من مراعاة الشوكة والعصية ضرورة والاقتداء فيها بالشرع أو لاثم الحكماء في اداسم

والملوك في سيرهم ومن أحسن ما كتب في ذلك وأودع كتاب طاهر بن الحسين لابنه
 عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب إليه أبو طاهر كتابه
 المشهور عهد إليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج إليه في دولته وسلطانه من الآداب
 الدينية والخلقية والسياسة الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الاخلاق ومحاسن
 الشيم بما لا يستغنى عنه ملك ولا سوقة * ونص الكتاب (بسم الله الرحمن الرحيم)
 أما بعد فعليك بتقوى الله وحده لا شريك له وخشيته ومراقبته عز وجل ومن آياته
 حفظ رعيته في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله من العافية بالذكر لمعادك
 وما أنت صائر إليه وموقوف عليه ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك
 الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه قد أحسن
 اليك وأوجب الرأفة عليك بمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام
 بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم ومنصبهم والحقق لدمائهم والامن
 لسرهم وادخال الراحة عليهم ومواخذك بما فرض عليك وموقفك عليه وسائر ذلك
 عنه ومثيبك عليه بما قدمت وأخرت ففرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك
 عنه شاغل وانه رأس أمرك وملا لشأنك وأول ما يوقفك الله عليه وليكن أقل ما تنزم
 به نفسك وتنسب إليه فعلك المواظبة على ما فرض الله عز وجل عليك من الصلوات
 الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وتوابعها على سننها من اسباغ الوضوء لها واقتناح
 ذكر الله عز وجل فيها ورتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك
 وتصرف فيه رأيك ونيتك واحضض عليه جماعة ممن معك وتحت يديك وادأب عليها
 فانها كما قال الله عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم أتبع ذلك بالآخذ بسن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم والامثارة على خلائقه واقتفاء أثر السلف الصالح من بعده
 واذا ورد عليك أمر فاستعن عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه وبلزوم ما أنزل الله
 عز وجل في كتابه من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وان تمام ما جاءت به الآثار عن رسول
 الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بالحق لله عز وجل ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو
 كرهت لقريب من الناس أو ابعيد وآثر الفقه وأهله والدين وجملة وكتاب الله عز
 وجل والعاملين به فان أفضل ما يتزين به المرء الفقه في الدين والطلب له والحث عليه
 والمعرفة بما يتقرب به الى الله عز وجل فانه الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر
 به والناهي عن المعاصي والمربقات كلها ومع توفيق الله عز وجل يزداد المرء معرفة
 واجلاله ودرجاته العلى في المعاد مع ما في ظهوره للناس من التوقيع
 لامرته والهيبة لسلطانه والانسة بك والثقة بعدك وعليك بالاقتصاد في الامور كلها

فليس شيء أبين نفعاً ولا أخص أمناً ولا أجمع فضلاً منه والقصد داعية إلى الرشد والرشد
دليل على التوفيق والتوفيق قائد إلى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد
وكذا في دينك كلها ولا تقصر في طلب الآخرة والاجر والاعمال الصالحة والسنن
المعروفة ومعالم الرشد والاعانة والاستكثار من البر والسعي له إذا كان يطالب
به وجه الله تعالى ومرضاه وموافقة أولياء الله في دار كرامته أما تعلم أن القصد في
شأن الدنيا يورث العز ويحصر من الذنوب وأنت إن تحوط نفسك من قاتل ولا تنصلح
أمورك بأفضل منه فاته واهتد به تتم أمورك وترزق مقدرتك ويصلح عانتك وخاصتك
وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقيم لك رعيته والتمس الوسيلة إليه في الأمور كلها
تستدم به النعمة عليك ولا تهمن من أحد من الناس فيما يؤول به من عملك قبل أن تكشف
أمره فإن ايقاع التهم بالبراء والظنون السيئة بهم آثم آثم فأجعل من شأنك حسن الظن
بأصحابك واطرد عنك سوء الظن بهم وارضضه فيهم بعنك ذلك على استطاعتهم ورياضتهم
ولا تتخذن عدو الله الشيطان في أمرك معمد افانه انما يكتني بالقبائل من وهنك ويدخل
عليك من الغم بسوء الظن بهم ما ينقص لذادة عيشك واعلم أنك تجذب بحسن الظن قوة
وراحة وتككتني به ما أحبت كفايته من أمورك وتدعو به الناس إلى محبتك
والاستقامة في الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرافة برعيته أن
تستعمل المسئلة والبحث عن أمورك والمباشرة لأمور الأولياء وحياطة الرعية
والنظر في حوائجهم وحمل مؤناتهم أيسر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحي
للسنة واخلص نيتك في جميع هذا وتفرد بتقويم نفسك تفرد من يعلم أنه مسؤول عما
صنع ومجزى بما أحسن ومواخذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدنيا حرازا وعزا
ورفع من اتبعه وعززه واسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقه الاهدى وأقم
حدود الله تعالى في أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعطل ذلك ولا
تتهاون به ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان في تفریطك في ذلك ما يفسد عليك حسن
ظنك واعتزم على أمرك في ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات يسلم لك
دينك وتملك مروءتك واذا عاهدت ههنا فأوف به واذا وعدت اخيراً فأنجزه واقبل
الحسنة وادفع بها وانمض عن عيب كل ذي عيب من رعيته واشدد لسانك عن قول
الكذب والزور وانقض أهل النعمة فان أول فساد أمورك في عابها وأجهاها تقرب
الكذب والجراة على الكذب لان الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمها لان
النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها الا يسلم له صاحب ولا يستقيم له أمر واحبب أهل الصلاح
والصدق وأعن الاشراف بالحق وأعن الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى

واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف
عنهما رأيك وأظهر براءتك من ذلك لرعيتهك وأنعم بالعدل سياستهم وقم بالحق فيهم
وبالمعرفة التي تنتهي بك إلى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الحلم والوفاء
وابالذواحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وابالك أن تقول أنا مسلم أفعل ما أشاء
فإن ذلك سر يع إلى نقص الرأي وقلة اليقين لله عز وجل وأخلص لله وحده النية فيه
واليقين واعلم أن الملك لله سبحانه وتعالى يؤتيه من يشاء وينزعه من يشاء ولن تجد تغير
النعمة وحاول النعمة إلى أحد أسرع منه إلى جهلة النعمة من أصحاب السطان
والمبسوط لهم في الدولة إذا كفر وانتم الله واحسانه واستطالوا بما أعطاهم الله عز
وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخرك وكنوزك التي تدخر وتكتر البر
والتقوى واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لامورهم والحفظ لدمائهم
والإعانة للمهوفهم واعلم أن الأموال إذا كثرت وادخرت في الخزائن لا تنمو وإذا
كانت في صلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف الأذى عنهم تمت وزكمت وصلمت به
العامة وترتبت به الولاية وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنفعة فليكن كخزائنك
تفريق الأموال في عمارة الإسلام وأهله ووفقر منسه على أولياء أمير المؤمنين قبلك
حقوقهم وأوف من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فإنك إذا فعلت
قررت النعمة لك واستوجبت المزيد من الله تعالى وكنت بذلك على جباية أموال رعيتهك
وتراجك أقدر وكان الجمع لما شملهم من عدلك واحسانك أساس لطاعتك وطب نفسا
بكل ما أردت واجهد نفسك فيما حدثت لك في هذا الباب وليعظم حقدك فيه وانما يبق
من المال ما أنفق في سبيل الله وفي سبيل حقه واعرف للشاكرين حقوقهم وأثبهم عليه
وابالك أن تنسبك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فإن التهاون
بورث التهرب والتفريط بورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه وارح الثواب
فإن الله سبحانه قد أسبغ عليك فضله واعتصم بالشكر وعليه فاعتمد ذلك الله خيرا
واحسانا فإن الله عز وجل يكتب بقدر شكر الشاكرين واحسان المحسنين ولا تحقرن
ذمما ولا عمالئ حاسدا ولا ترحن فاجرا ولا تصلن كفورا ولا تداهنن عدوا ولا تصدقن
نماما ولا تأمنن عدوا ولا توالين فاسقا ولا تتبعن غاويا ولا تحمدن مرثيا ولا تحقرن
انسانا ولا تردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولا تلاحظن مضيقا ولا تحلفن وعدا ولا
تذهبن نفرا ولا تطهرن غضبا ولا تبينن رجاء ولا تمسجن مرحا ولا تزكين سفيا ولا
تفرطن في طلب الآخرة ولا ترفع للنمام عينا ولا تغمض عن ظالم رهبة منه أو محاباة
ولا تطلبن ثواب الآخرة في الدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم

وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولا تدخلن في مشورتك أهل
 الرفه والجل ولا تمن لهم قولاً فان ضررهم أكثر من نفعهم وايسر شئ أسرع فساداً
 لما استقبلت فيه أمر رعيته من الشح واعلم أنك اذا كنت حريصاً كنت كثير
 الاخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم أمرك الا قليلاً فان رعيته اتعتقد
 على محبتك بالكف عن أمه والهم وترك الجور عليهم ووال من صفالك من أولياتك
 بالاتصال اليهم وحن العطية لهم واجتنب الشح واعلم أنه أقول ما عصى به الانسان ربه
 وأن العاصي بمنزلة الحرى وهو قول الله عز وجل ومن يوف شح نفسه فأولئك هم
 المفلحون فهل طريق الجود بالحق واجهل للمسلمين كلهم في بيتك حظاً ونصيبة أو يقن
 أن الجود أفضل أعمال العباد فأهدته لنفسك خالقاً وارض به عملاً ومذهها وتفقد الخلد
 في دواوينهم ومكاتبهم وأدر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم في معاشهم يذهب الله عز
 وجل بذلك فاقتم فيقوى لك أمرهم وتزيد قلوبهم في طاعتك وأمرك خلوصاً وانسراحاً
 وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته رحمة في عدله
 وعطيته وانصافه وعنايته وشنقته وبره وتوسعته فذلك مكروه أحد البابين باستشعار
 فضله الباب الآخر ولزوم العمل به تلقى ان شاء الله تعالى به نجاحاً وصلحاً وفلاحاً
 واعلم أن القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس له به شئ من الامور لانه ميزان الله الذى
 يعدل عليه أحوال الناس في الارض وباقامة العدل في القضاء والعمل تصلح أحوال
 الرعية وتأمين السبل ويتصف المظالم وتأخذ الناس حقوقهم وتحسن المعيشة
 ويؤدى حق الطاعة ويرزق من الله العافية والسلامة ويقوم الدين ويمجى السنن
 والشرائع في مجاريها واشتد في أمر الله عز وجل وتورع عن النطق وامض لاقامة
 الحدود وأقال العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم واتق بعتك وانتبه
 في صحتك واسدد في منطقتك وانصف الخصم وقف عند الشبهة وابلغ في الحجية ولا
 يأخذك في أحد من رعيته محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم وتثبت وتأن وراقب وانظر
 وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية وسلط الحق على نفسك ولا
 تسرعن الى سفك الدماء فان الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم انتها كالمها بغير حقها
 وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزاً ورفعة ولاهله
 توسعة ومنعة واعدوه كتباً وغيظاً ولاهله السلام فر من معاديتهم ذلاً وصغاراً فوزعه
 بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم ولا تدفعن شيئاً منه عن شريف لشرفه
 ولا عن غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا لاحد من خاصتك ولا حاشيتك ولا تأخذن منه
 فوق الاحتمال له ولا تكلف أمر ابيه شطط واجل الناس كلهم على أمر الحق فان ذلك

أجمع لالفتهم والزم ارضاء العاتة واعلم أنك جعلت بولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما
سعى أهل عملك رغبة في لاملئدراعيهم وقيمهم فخدمتهم ما اعطوك من عفوهم ونقده في
قوام أمرهم وصلاحيهم وتقويم أودهم واستعمل عليهم اولى الراى والتدبير والتجربة
والخبرة بالعلم والعدل بالسياسة والعضاف ووسع عليهم في الرزق فان ذلك من الحقوق
اللازمة لك فيما نقلت واستند اليك فلا يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف
فأنت متى آثرته وقت فيه بالواجب استدعت به زيادة الذمة من ربك وحسن
الاحدونه في عملك واستجرت به المحبة من رعيته وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات
بلدك وفشت العمارت بناحتك وظهر الخصب في سكورك وكثر خراجك وتوفرت
أموالك وقويت بذلك على ارتباط جندك وارضاء الهلته بما فاضه العطاء فهم من
نصك وكنتم محمود السياسة مرضى العدل في ذلك عند عدوك وكنتم في امورك كلها
ذاهل وآله وقوة وعدة فتنافس فيها ولا تقدم عليهم اشيا فتحمدها قبة أمره ان شاء الله
تعالى واجعل في كل كورة من عملك أمينا يخبرك خبر عمالك ويكتب اليك بسيرهم
وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل في عمله معاينا لا موره كلها واذا أردت أن تأمرهم
بأمر فانظر في عواقب ما أردت من ذلك فان رأيت السلامة فيه والعافية ورجونه
فيه حسن الدفاع والصنع فأمنه والافتوق عنه وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ
فيه عدته فانه ربما نظر الرجل في أمره وقد آناه على ما يهوى فأغوا ذلك وأعجبه فان لم
ينظر في عواقبه أهلكه ونقض عليه أمره فاستعمل الخزم في كل ما أردت وباشره بعد
عون الله عز وجل بالقوة وأكثر من استخارة ربك في جميع أمورك وافرح من عمل يومك
ولا تؤخره وأكثر مباشرته بنفسك فان لغد أمور او حوادث تلهيك عن عمل يومك
الذي أخرت واعلم أن اليوم اذا مضى ذهب بعاقبه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل
يومين فيشغلك ذلك حتى ترضى منه واذا أمضت لكل يوم عمله أرحت بدتك ونفسك
وجعت أمر سلطانك وانظر احرار الناس وذوى الفضل منهم من بلوت صفاء طويتهم
وشهدت مودتهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمحافظة على أمرك فاستخلصهم وأحسن
اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة واحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم
حتى لا يجردوا الخلتهم من افرادهم وأفرد نفسك بالنظر في أمور الفقراء والمساكين ومن
لا يقدر على رفع مظلمته اليك والمهتقر الذي لا علم له بطلب حقه فسل عنه أخنى مسئلة
وكل بأمانه أهل الصلاح في رعيته ومرهم برفع حوائجهم وخلالهم استنظر فيما يصلح
الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأرام لهم واجعل لهم أرزاقا من بيت
المال اقتداء بأمر المؤمنين أعزه الله تعالى في العطف عليهم والصله لهم ليصلح الله بذلك

عيشهم ويرزقك بركة وزيادة وأجر للمراة من بيت المال وقدم حلة القرآن منهم
 والحاظين لا أكثره في الجرائد على غيرهم وانصب لمرضى المسلمين دوراً وتأويهم وقواماً
 يرفقون بهم وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم طالم يؤذ ذلك إلى سرف
 في بيت المال واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانتهم لم تبرمهم وربما تبرم
 المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل ذكره وفكره منها ما يناله به وثنة
 ومشقة وليس من يرغب في العدل ويعرف محاسن أموره في العاجل وفضل ثواب
 الآجل كالذي يستفز بما يقرب إلى الله تعالى وتلتزم به رحمة وأكثر الأذن للناس
 عليك وأرهم وجهك وسكن حرأبك واخفض لهم جناحك وأظهر لهم بشرتك ولن لهم
 في المسئلة والنطق واعطف عليهم بعبودك وفضلك وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب
 نفس والتماس للصنعة والاجر من غير تكدير ولا امتنان فإن العطية على ذلك تجارة
 مر بحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترى من أمور الدنيا ومن مضى من قبلك من أهل
 السلطان والرياسة في القرون الخالية والامم البائدة ثم اعتصم في أحوالك كلها بالله
 سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وصننته وبإقامة دينه وكتابه
 واجتنب ما فارق ذلك وخالفه ودع إلى سخط الله عز وجل واعرف ما تجمع عمالك من
 الاموال وما ينتفون منها ولا تجمع حراماً ولا تنفق اسرافاً وأكثر مجالسة العلماء
 ومشاورتهم ومخالطتهم ولا يكن هو الاتباع السنن واتمامتها وإبتارة كرام الاخلاق
 ومقاتلتها وليكن أكرم دخلائك وخامتك عليك من اذارأى عيباً لم تمنعه هيبتك من انهاء
 ذلك اليك في ستر وعلامك بما فيه من النقص فان أولئك أتصح أوابائك ومظاهريك
 لك وانظر عمالك الذين بحضورتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم في كل يوم وقتاً يدخل فيه
 بكتبه ومؤامره وما عنده من حوائج عمالك وامور الدولة ورعبتك ثم فرغ لما يورد
 عليك من ذلك جمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكررا النظر فيه والتدبير له فما كان
 موافقاً للحق والحزم فأهضه واستخرا الله عز وجل فيه وما كان مخالفاً لذلك فأصرفه إلى
 المسئلة عنه والتنبت ولا تمن على رعبتك ولا غيرهم بعروف توتيه اليهم ولا تقبل من
 أحد الا الوفاء والاستقامة والعون في أمور المسلمين ولا تضمن المعروف الاعلى ذلك
 وتفهم كتابي اليك وأمعن النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع امورك واستخره
 فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رعبتك ما كان الله عز
 وجل رضا ودينه نظاماً ونزهة عزاً وتمكيناً ولاملة والذمة عدلاً وملاحاً وأنا أسأل
 الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلائك والسلام • وحديث
 الاخباريون أن هذا الكتاب لما ظهر وشاع أمره أعجب به الناس واتصل بالأمون فلما

قرئ عليه قال ما أتى أبو الطيب يعني طاهر اشياً من أمر الدنيا والدين والتدبير
والرأى والسياسة وملاح الملك والرعية وحفظ السلطان وطاعة الخلفاء وتقويم
الخليفة الاوقداً حكمه وأوصى به ثم أمر المأمون فكسب به الى جميع العمال في
النواحي ليقتدوا به ويعملوا بما فيه هذا أحسن ما وقفت عليه في هذه السياسة
والله أعلم

٥٣ (فصل في امر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك)

(اعلم) أن المشهور بين الكافة من أهل الاسلام على مزايا عصره أنه لا بد في آخر الزمان
من ظهور رجل من أهل البيت يؤيد الدين وينظر العدل ويتبعه المسلمون ويستولون
على الممالك الاسلامية ويسمى بالمهدي ويكون خروج الدجال وما بعده من أشراف
الساعة الثابتة في الصحيح على اثره وأن عيسى ينزل من بعده فيقتل الدجال أو ينزل
معها معه على قتله ويأتي بالمهدي في صلواته ويحجبون في الباب بأحاديث خرجها
الائمة وتكلم فيها المنكرون لذلك وربما عارضوها ببعض الاخبار وللمتصوفة المتأخرين
في أمر هذا الفاطمي طريقة اخرى ونوع من الاستدلال وربما يعتمدون في ذلك على
الكشف الذي هو أصل طرائقهم • ونحن الآن نذكر هنا الاحاديث الواردة في
هذا الشأن وما لله منكرين فيها من المطاعن ومالهم في إنكارهم من المستند ثم تتبعه
بذكر كلام المتصوفة ورأيهم ليتبين لك الصحيح من ذلك ان شاء الله تعالى فنقول ان جماعة
من الائمة خرجوا أحاديث المهدي منهم الترمذي وأبو داود والبخاري وابن ماجه والحاكم
والطبراني وأبو يعلى الموصلي وأسندها الى جماعة من العمامة • مثل علي وابن عباس
وابن عمرو وطهة وابن مسعود وأبي هريرة وأنس وأبي سعيد الخدري وآم حبيبة وأم سلمة
وثوبان وقرعة بن اياس وعلي الهلالي وعبد الله بن الحرث بن جزة • أسانيد بعضها عرض لها
المنكرون كما نذكره الآن المعروف عند أهل الحديث أن الجرح مقدم على التعديل
فذا وجدنا طعننا في بعض رجال الائمة بغفلة أو بسوء حفظ أو ضعف أو سوء رأى
تطرق ذلك الى صحة الحديث وأوهن منها ولا تقوان مثل ذلك ربما تطرق الى رجال
الصحة من فان الاجماع قد اتصل في الامة على تلقيها بالقبول والعمل بما فيها وفي
الاجماع أعظم حماية وأحسن دفع وليس غير الصريحين بما بينهما في ذلك فقد نجد مجالاً
للكلام في أسانيدنا بما نقل عن أئمة الحديث في ذلك • ولقد توغل أبو بكر بن أبي
خزيمة على ما نقل السهلي عنه في جمعه للأحاديث الواردة في المهدي فنقل ومن
أغريم المسناد ما ذكره أبو بكر الاسكافي في فوائد الاخبار مسنداً الى مالك بن أنس

عن محمد بن المنكدر عن جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم من كذب بما لهدى
فقد كفر ومن كذب بالدجال فقد كذب وقال في طلوع الشمس من مغربها مثل ذلك فجاء
احسب وحبك هذا غلوا والله أعلم بعصمة طريفة الى مالك بن أنس على أن أبا بكر
الاسكاف عندهم متهم وضاع * وأما الترمذي فخرج هو وأبو داود بسنديهما الى
ابن عباس من طريق عامر بن أبي النجود أحد القراء السبعة الى زر بن حبيش عن
عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبق من الدنيا الا يوم لطول الله
ذلك اليوم حتى يبعث الله فيه رجلا مني أو من أهل بيتي يواطئ اسمه اسمي واسم أبيه
اسم أبي هذا اللفظ أبي داود وسكت عليه وقال في رسالته المشهورة ان ما سكت
عليه في كتابه فهو صالح وانظ الترمذي لا تذهب الدنيا حتى يملك العرب رجل من أهل
بيتي يواطئ اسمه اسمي وفي لفظ آخر حتى يلى رجل من أهل بيتي وكلاهما حديث حسن
صحيح ورواه أيضا من طريق موقوف على أبي هريرة وقال الحاكم رواه الثوري وشعبة
وزائدة وغيرهم من أئمة المسلمين عن عامر قال وطرق عامر عن زر عن عبد الله كلها
صححة على ما أصلته من الاحتجاج بأخبار عامر اذ هو امام ن أئمة المسلمين انتهى
الآن عاصما قال فيه أحمد بن حنبل كان رجلا صالحا فارتال القرآن خيرا ثقة والاعمش
أحفظ منه وكان شعبة يختار الاعمش عليه في تثبيت الحديث وقال العجلي كان يختلف
عليه في زر وأبي وائل بشير بذلك الى ضعف روايته عنهما وقال محمد بن سعد كان
ثقة الا أنه كثير الخطا في حديثه وقال يعقوب بن سفيان في حديثه اضطراب وقال عبد
الرحمن بن أبي حاتم قلت لابي ان أبا زرعة يقول عامر ثقة فقال ليس محله هذا وقد تكلم
فيه ابن عليه فقال كل من اسمه عامر سبي الحفظ وقال أبو حاتم محله عندي محل الصدق
صالح الحديث ولم يكن بذلك الحافظ واختلف فيه قول النسائي وقال ابن حراش
في حديثه نكرة وقال أبو جعفر العقيلي لم يكن فيه الا سوء الحفظ وقال الدارقطني
في حقه شيء وقال يحيى القطان ما وجدت رجلا اسمه عامر الا وجدته ردي الحفظ
وقال أيضا سمعت شعبة يقول حدثنا عامر بن أبي النجود وفي الناس ما فيها وقال
الذهبي ثبت في القراءة وهو في الحديث دون الثبت صدوق فهم وهو حسن الحديث
وان احتج أحاديث الشيخين أخرجه فنقول أخرجه مقرونا بغيره لأصلا والله أعلم
وخرج أبو داود في الباب عن علي رضي الله عنه من رواية قطن بن خليفة عن القاسم
ابن أبي مرة عن أبي الفضل عن علي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال لو لم يبق من الدهر
الا يوم لبعث الله رجلا من أهل بيتي يملؤها عدلا كما ملئت جورا وقطن بن خليفة وان
وثقه أحمد ويحيى بن القطان وابن معين والنسائي وغيرهم الا أن العجلي قال حسن

الله بن وفيه تشيع قليل وقال ابن معين مرة ثقة شيعي وقال أحمد بن عبد الله بن
 يوسف كان على قطن وهو مطروح لانكسب عنه وقال مرة صككت أمر به وأدعه
 مثل الكلب وقال المداقطني لا يخرج به وقال أبو بكر بن عياش ما تركت الرواية عنه
 الا لسوء مذهبه وقال الجرجاني زائع غير ثقة انتهى وخرج أبو داود أيضا بسنده الى
 علي رضي الله عنه عن مروان بن المغيرة عن عمر بن أبي قيس عن شعيب بن أبي خالد عن
 أبي اسحق النسبي قال قال علي وقطر الى ابنه الحسن ان ابني هذا سيد كما سماه رسول الله
 صلى الله عليه وسلم يخرج من صلبه رجل يسمى باسم نبيكم يشبهه في الخلق ولا يشبهه في
 الخلق يلا الارض عدلا وقال هرون حدثنا عمر بن أبي قيس عن مطرف بن طريف
 عن أبي الحسن عن هلال بن عمر سمعت عليا يقول قال النبي صلى الله عليه وسلم يخرج
 رجل من وراء النهر يقال له الحارث علي مقدمته رجل يقال له منصور يوطئ أو يمكن
 لآل محمد كما مكنت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجب على كل مؤمن نفسه أو
 قال اجابته مكنت أبو داود عليه وقال في موضع آخر في هرون هومن ولد النبعة وقال
 السليمانى فيه نظر وقال أبو داود في عمر بن أبي قيس لا بأس به في حديثه خطأ وقال
 الذهبي صدق له أو هام وأما أبو اسحق الشيبى وان خرج عنه في الصحيحين فقد ثبت أنه
 اختلط آخر عمره وروايته عن علي منقطعة وكذلك رواية أبي داود عن هرون بن المغيرة
 • وأما السند الثاني فأبو الحسن فيه وهلال بن عمر مجهولان ولم يعرف أبو الحسن
 الا من رواية مطرف بن طريف عنه انتهى وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة وكذا
 ابن ماجه والحاكم في المستدرل من طريق علي بن فضال عن سعيد بن المسيب عن ام
 سلمة قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول المهدي من ولد فاطمة ولقبا الخاكم
 سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكر المهدي فقال نم هو حق وهو من بنى فاطمة
 ولم يتكلم عليه بتعظيم ولا غيره وقد ضعفت أبو جعفر العجلي وقال لا يتابع علي بن فضال
 عليه ولا يعرف الابن وخرج أبو داود أيضا عن أم سلمة من رواية صالح بن الخليل عن
 صاحب له عن أم سلمة قال يكون اختلاف عند موت خليفة فيخرج رجل من أهل
 المدينة هاربا الى مكة فيأبىه ناس من أهل مكة فيخرجونه وهو كاره فيأبىهونه بين
 الرضكن والمقام فيبعث اليه بعض من الشام فيضف بهم بالبيداء بين مكة والمدينة
 فاذا رأى الناس ذلك أتاه ابدال أهل الشام وعصائب أهل العراق فيأبىهونه ثم
 رجل من قريش أخواله كلب فيبعث اليهم به ثا فيظهرون عياهم وذلك بعث كلب والخليفة
 لمن لم يشهد غنجة كلب فيقسم المال ويحمل في الناس سنة عليهم صلى الله عليه وسلم
 ويلقى الاسلام بجرانته في الارض فيلبس سبع سنين وقال بعضهم نزع سنين ثم رماه أبو

داود من رواية ابن الخليل عن عبد الله بن الحرث عن ام سلمة قتيبة بن مالك الميهدي في الاسناد
 الاول ورجالهم رجال الصحيحين لا مطعن فيهم ولا مغمز وقد يقال انه من رواية قتادة عن
 ابي الخليل وقاتادة مدلس وقد عنعنه والمدلس لا يقبل من حديثه الا ما صرح فيه
 بالسماع مع ان الحديث ليس فيه تصريح بذكر المهدي نعم ذكره ابو داود في ابوابه
 وخرج ابو داود ايضا وقاتادة الحاكم عن ابي سعيد الخدري من طريق عمران القطان
 عن قتادة عن ابي بصرة عن ابي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
 المهدي مني اجلي الجبهة اقنى الاتف بلاء الارض قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وجورا
 يملك سبع سنين هذا لفظ ابي داود وسكت عليه ولفظ الحاكم المهدي من اهل
 البيت اشم الاتف اقنى اجلي بلاء الارض قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعيش
 هكذا وبسط يساره واصبعين من يمينه اليسارية والابهام وعقد ثلاثة قال الحاكم هذا
 حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه اه وعمران القطان مختلف في الاحتجاج
 به انما اخرج له البخاري استشهادا الا أصلا وكان يحيى القطان لا يحدث عنه وقال
 يحيى بن معين ليس بالقوي وقال مرة ليس بشئ وقال أحمد بن حنبل أرجو أن يكون
 صالح الحديث وقال يزيد بن زريع كان حروريا وكان يرى السيف على أهل القبلة وقال
 النسائي ضعيف وقال ابو عبيد الا جرى سألت ابا داود عنه فقال من اصحاب الحسن
 وما سمعت الا خيرا وسمعتة مرة أخرى ذكره فقال ضعيف ائتمني في أيام ابراهيم بن عبد الله
 ابن حسن بقوي شديدة فيها سفك الدماء وخرج الترمذي وابن ماجه والحاكم عن
 ابي سعيد الخدري من طريق زيد العمي عن ابي صديق التاجي عن ابي سعيد الخدري
 قال خشينا أن يكون بهض شئ حدث فسالنا نبي الله صلى الله عليه وسلم فقال ان في
 امتي المهدي يخرج بعيش خمسا أو سبعا أو تسعا زيد الشالك قال قلنا وما ذالك قال سنين
 قال فيجيء اليه الرجل فيقول يا مهدي اعطني قال فيجئ له في ثوبه ما استطاع أن يجعله
 لفظ الترمذي وقال هذا حديث حسن وقد روى من غير وجه عن ابي سعيد عن النبي
 صلى الله عليه وسلم ولفظ ابن ماجه والحاكم يكون في امتي المهدي ان قصر فسبع والا
 فتسع فتتم امتي فيه نعمة لم يسمعوا بمثلها قط توتى الارض اكها ولا بدخر منه شئ
 والمال يوءمئذ كدوس فيقوم الرجل فيقول يا مهدي اعطني فيقول خذ انتهي وزيد
 العمي وان قال فيه الدارقطني وأحمد بن حنبل ويحيى بن معين انه صالح وزاد أحمد انه
 فوق يزيد الرقاشي وفضل بن عيسى الا أنه قال فيه أبو حاتم ضعيف يكتب حديثه
 ولا يحتج به وقال يحيى بن معين في رواية اخرى لاشئ وقال مرة يكتب حديثه وهو
 ضعيف وقال الجرجاني متمسك وقال أبو زرعة ليس بقوي واهي الحديث ضعيف

وقال أبو حاتم ليس بذلك وقد حدث عنه شعبة وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي
 عاقبة ما يرويه ومن يروى عنهم ضعفاء على أن شعبة قد روى عنه وأهل شعبة لم يرو عن
 أضعف منه وقد يقال إن حديث الترمذي وقع تفسير المارواه مسلم في صحيحه من
 حديث جابر قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يكون في آخر أمتي خليفة يحضي
 المال حثيلا لا يهتد عددا ومن حديث أبي سعيد قال من خلفناكم خليفة يحضي المال
 حثيا ومن طريق أخرى عنهما قال يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال ولا يعته
 انتهى وأحاديث مسلم لم يقع فيها ذكر المهدي ولا دليل يقوم على أنه المراد منها ورواه
 الحاكم أيضا من طريق عوف الأعرابي عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري
 قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تملأ الأرض جورا وظلما
 وعدوانا ثم يخرج من أهل بيتي رجل يملؤها قسطا وعدلا كما ملئت ظلما وعدوانا وقال
 فيه الحاكم هـ هذا صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الحاكم أيضا من طريق
 سليمان بن عبيد عن أبي الصديق الناجي عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله
 عليه وسلم قال يخرج في آخر أمتي المهدي يسقيه الله الغيث ويخرج الأرض نباتها
 ويعطي المال صحاحا وتكثر الماشية وتعظم الأمة يعيش سبعا وأثمانيا يعني حجبا وقال
 فيه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه مع أن سليمان بن عبيد لم يخرج له أحد من الستة
 لكن ذكره ابن حبان في الثقات ولم يرد أن أحدا تكلم فيه ثم رواه الحاكم أيضا من
 طريق أسد بن موسى عن حماد بن سلمة عن مطر الأوراق وأبي هريرة العبدى عن أبي
 الصديق الناجي عن أبي سعيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تملأ الأرض جورا
 وظلما فيخرج رجل من عترتي فيملك سبعا وأثمانيا فيملأ الأرض عدلا وقسطا كما ملئت
 جورا وظلما وقال الحاكم فيه هذا حديث صحيح على شرط مسلم وإنما جعله على شرط
 مسلم لأنه أخرجه عن حماد بن سلمة وعن شيخه مطر الأوراق وأما شيخه الآخر وهو أبو
 هريرة العبدى فلم يخرج له وهو ضعيف جدا متهم بالكذب ولا حاجة إلى بسط أقوال
 الأئمة في تضعيفه * وأما الراوى له عن حماد بن سلمة وهو أسد بن موسى ويلقب بأسد
 السنة وإن قال البخاري مشهور الحديث واستشهد به في صحيحه واحتج به أبو داود
 والنسائي إلا أنه قال مرة أخرى ثقة لولم يصنف كان خيرا له وقال فيه محمد بن حزم منكر
 الحديث ورواه الطبراني في معجمه الأوسط من رواية أبي الواصل عبد الحميد بن واصل
 عن أبي الصديق الناجي عن الحسن بن يزيد السعدي أحد بني بهدلة عن أبي سعيد
 الخدري قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يخرج رجل من أمتي يقول
 بسنتي ينزل الله عز وجل له القطر من السماء ويخرج الأرض بركتها وغللا الأرض منه

قسطا وعدلا كما ملئت جورا وظلما يعمل على هذه الامة سبع سنين وينزل بيت
المقدس وقال الطبراني فيه ورواه جماعة عن أبي الصديق ولم يدخل أحد منهم بينه
و بين أبي سعيد أحد الأبا الواصل فانه رواه عن الحسن بن يزيد عن أبي سعيد انتهى
وهذا الحسن بن يزيد ذكره ابن أبي حاتم ولم يعرفه، بأكثر مما في هذا الاسناد من
روايته عن أبي سعيد ورواية أبي الصديق عنه وقال الذهبي في الميزان انه مجهول
لكن ذكره ابن حبان في الثقات وأما الواصل الذي رواه عن أبي الصديق فلم
يخرج له أحد من الستة وذكره ابن حبان في الثقات في الطبقة الثانية وقال فيه يروى عن
أنس وروى عنه شعبة وعناب بن بشر وخرج ابن ماجه في كتاب السنن عن عبد الله بن
مسعود من طريق يزيد بن أبي زياد عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله قال بينما نحن
عند رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا قبل قبة بنى هاشم فلما راهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم ذرفت عيناه وتغير لونه قال نقلت ما نزل نرى في وجهك شيئا نكرهه فقال
يا أهل البيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا وان أهل بيتي سيلقون بعدى بلاء
وتشريدا وتطريدا حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود فيسألون الخريف فلا
يعطونه فيقاتلون ويندرون فيعطون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعونها الى رجل من
أهل بيتي فيملؤها قسطا كما ملؤها جورا فمن أدرك ذلك منكم فليأتهم ولو حبوا على
الكلب انتهى * وهذا الحديث يعرف عند المحدثين بحديث الرايات ويزيد بن أبي
زيد راويه قال فيه شعبة كان رفعا يعني يرفع الاحاديث التي لا تعرف من فوعة وقال
محمد بن الفضيل كان من كبار أئمة الشيعة وقال أحمد بن حنبل لم يكن بالحافظ وقال
مرة حديثه ليس بذلك وقال يحيى بن معين ضعيف وقال العجلي جازم الحديث وكان
بآخره يلحق وقال أبو زرعة ابن يكتب حديثه ولا يحتج به وقال أبو حاتم ليس بالقوى
وقال الجرجاني سمعتهم يضعفون حديثه وقال أبو داود لا أعلم أحدا ترك حديثه وغيره
أحب الى منه وقال ابن عدى هو من شيعة أهل الكوفة ومع ضعفه يكتب حديثه
وروى له مسلم لكن مقرونا بغيره وبالجملة قالوا كثرون على ضعفه وقد صرح الأئمة
بضعف هذا الحديث الذي رواه عن ابراهيم عن علقمة عن عبد الله وهو حديث
الرايات وقال وكيع بن الجراح فيه ليس بشئ وكذلك قال أحمد بن حنبل وقال أبو
قدامة سمعت أبا أسامة يقول في حديث يزيد عن ابراهيم في الرايات لو حلف عندى
خمين بما أقسامه ما صدقته أهذا مذهب ابراهيم أهذا مذهب علقمة أهذا مذهب
عبد الله وأورد العقيلي هذا الحديث في الضعفاء وقال الذهبي ليس بصحيح وخرج ابن
ماجه عن علي بن رضى الله عنه من رواية ياسين العجلي عن ابراهيم بن محمد بن الحنفية عن

آية عن جده قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم المهدي منا أهل البيت يصلح الله به
 في ليله ونياسين العجلى وان قال فيه ابن معين ليس به بأس فقد قال البخاري فيه نظر وهذه
 اللفظة من اصطلاحه قوية في التضعيف جدا وأورد له ابن عدي في الكامل والذهبي
 في الميزان هذا الحديث على وجه الاستنكار له وقال هو معروف به وخرج الطبراني
 في معجمه الاوسط عن علي رضي الله عنه أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم أمنا المهدي
 أم من غيرنا يا رسول الله فقال بل منا يا ختم الله كما بنا فتح وبناب تنقذون من الشرك
 وبنابرت الله بين قلوبهم بعد عداوة بينة كما بنا ألف بين قلوبهم بعد عداوة الشرك قال
 علي مؤمنون أم كفرون قال مقتون وكافرون انتهى وفيه عبد الله بن لهيعة وهو
 ضعيف معروف الحال وفيه عمر بن جابر الحضرمي وهو أضعف منه قال أحمد بن حنبل
 روى عن جابر منا كبر وبلغني أنه كان يكذب وقال النسائي ليس بثقة وقال كان ابن
 لهيعة شيخنا أحمق ضعيف العقل وكان يقول علي في السحاب وكان يجلس معناب بصير
 سحابة فيقول هذا علي قدمه في السحاب وخرج الطبراني عن علي رضي الله تعالى عنه
 أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يكون في آخر الزمان قسنة يحصل الناس فيها
 كما يحصل الذهب في المعدن فلا تسبوا أهل الشام ولكن سبوا أئمة رهم فان فيهم
 ثلثة ال يوشك أن يرسل علي أهل الشام صيب من السماء فيفرق جماعتهم حتى لو قاتلتهم
 الثعالب غلبتهم فعند ذلك يخرج خارج من أهل بيتي في ثلاث رايات المكثر يقول بهم
 خمسة عشر ألفا والقليل يقول بهم اثنا عشر ألفا واما رتهم امتا يلقون سبع رايات
 تحت كل راية منهم رجل يطلب الملك فيقتلهم الله جميعا ويرد الله الى المسلمين ألفتهم
 ونعمتهم وقاصبتهم ورأيتهم اه وفيه عبد الله بن لهيعة وهو ضعيف معروف الحال
 ورواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه في روايته ثم يظهر الهاشمي
 فيرد الله الناس الى ألفتهم الخ وليس في طريقه ابن لهيعة وهو اسناد صحيح كما ذكر
 وخرج الحاكم في المستدرک عن علي رضي الله عنه من رواية أبي الطفيل عن محمد بن
 الحنفية قال كما عند علي رضي الله عنه فسأله رجل عن المهدي فقال علي تهبات ثم عقد
 بيده سبعا فقال ذلك يخرج في آخر الزمان اذا قال الرجل الله الله قتل ويجمع الله له
 قوما قزع كقزع السحاب يواف الله بين قلوبهم فلا يستوحشون الى أحد ولا يفرحون
 بأحد دخل فيهم عدتهم على عدة أهل بدر لم يسبقهم الا ولون ولا يدركهم الا خرون
 وعلى عدد أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه النهر قال أبو الطفيل قال ابن الحنفية
 أثر يده قلت نعم قال فانه يخرج من بين هذين الاخشبين قلت لاجرم والله ولا أدعها حتى
 أموت ومات بها يعني مكة قال الحاكم هذا حديث صحيح على شرط الشيخين انتهى وانما

هو على شرط مسلم فقط فان فيه عمار الذهبى وبونس بن ابي اسحق ولم يخرج لهما البخارى وفيه عمرو بن محمد العبقرى ولم يخرج له البخارى احتجابا بل استشهد ادمع ما ينضم الى ذلك من تشييع عمار الذهبى وهو وان وثقه أحمد وابن معمر بن ابوحاتم النسائي وغيرهم فقد قال على بن المدنى عن سفيان بن اسمر بن مروان قطع عرقويه قلت فى أى شئ قال فى التشييع وخرج ابن ماجه عن أنس بن مالك رضى الله عنه فى رواية سعد بن عبد الحميد بن جعفر عن على بن زياد اليماني عن عكرمة بن عمار عن اسحق بن عبد الله عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول نحن ولد عبد المطلب سادات أهل الجنة أنا وحزرة وعلى وجهه شر والحسن والحسين والمهدى انتهى وعكرمة بن عمار وان أخرج له سلم فانما أخرج له متابعة وقد ضعفه بعض وثقه آخرون وقال ابوحاتم الرازى هو مدلس فلا يقبل الا أن يصرح بالسماع وعلى ابن زياد قال الذهبى فى الميزان لاندري من هو ثم قال الصواب فيه عبد الله بن زياد وسعد ابن عبد الحميد وان وثقه يعقوب بن أبى شيبة وقال فيه يحيى بن معين ليس به بأس فقد تكلم فيه الثورى قالوا لانه رآه يفتى فى مسائل ويخطئ فيها وقال ابن حبان كان ممن فحش عطاؤه فلا يحتج به وقال أحمد بن حنبل سعد بن عبد الحميد يدعى أنه سمع عرض كتب مالك والناس ينكرون عليه ذلك وهو عهدنا يغرد ادم يحتج فكيف سمعها وجعله الذهبى ممن لم يقدر فيه كلام من تكلم فيه وخرج الحاكم فى مستدركه من رواية مجاهد عن ابن عباس موقوفا عليه قال مجاهد قال لى ابن عباس لو لم أسمع أنك مثل أهل البيت ما حدثتكم بهذا الحديث قال فقال مجاهد فانه فى ستر لا أذكره لمن يكره قال فقال ابن عباس منا أهل البيت أربعة منا السفاح ومنا المنذر ومنا المنصور ومنا المهدي قال فقال مجاهد بين لي هؤلاء الأربعة فقال ابن عباس أما السفاح فربما قتل أنصاره وعفاه عن عدوه وأما المنذر أراه قال فانه يعطى المال الكثير ولا يتعاطم فى نفسه ويسك القليل من حقه وأما المنصور فانه يعطى النصر على عدوه الشطر مما كان يعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويرهب منه عدوه على مسيرة شهرين والمنصور يرهب منه عدوه على مسيرة شهر وأما المهدي الذى علا الأرض عدلا كما كنت جورا وتأمّن البهائم السباع وتلقى الأرض أفلاذ كبدها قال قلت وما أفلاذ كبدها قال أمثال الاسطوانة من الذهب والفضة اه وقال الحاكم هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهو من رواية اسمعيل بن ابراهيم بن مهاجر عن أبيه واسمعيل ضعيف وابراهيم أبوه وان خرج له مسلم فالأكثر على تضعيفه اه وخرج ابن ماجه عن ثوبان قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقتل عندكم ثلاثة كلهم ابن خليفة ثم لا يصير الى

واحد منهم حتى نطلع الرايات السود من قبل المشرق فيقتلوهم قتلا لم يقتله قوم ثم ذكر
شيئا لا أحفظ قال فاذا رأيتوه فبايعوه ولو حبا وعلى الثلج فإنه خليفة الله المهدي اه
ورجاله رجال الصديقين الا أن فيه أبا قلابة الجرمي وذكر الذهب وغيره أنه مدلس وفيه
سفيان الثوري وهو مشهور بالتدليس وكل واحد منهم ما عنى ولم يصرح بالسمع
فلا يقبل وفيه عبد الرزاق بن همام وكان مشهورا بالتشيع وعمى في آخر وقته فخلط
قال ابن عدى حدثت بأحاديث في الفضائل لم يوافقها عليها أحد ونسبوه الى التشيع
انتهى • وخرج ابن ماجه عن عبد الله بن الحرث بن جبر الزبيدي من طريق ابن
لهيعة عن أبي زرعة عن عمر بن جابر الحضرمي عن عبد الله بن الحرث بن جبر قال قال
رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يخرج ناس من المشرق فيوطئون للمهدي يعني سلطانه
قال الطبراني تفرد به ابن لهيعة وقد تدم لنا في حديث علي الذي خرج الطبراني
في مجله الاوسط أن ابن لهيعة ضعيف وأن شيخه عمر بن جابر أضعف منه وخرج البزار
في مسنده والطبراني في مجله الاوسط واللفظ للطبراني عن أبي هريرة عن النبي صلى
الله عليه وسلم لم قال يكون في أمتي المهدي ان قصر فسمع والافئنان والافتح تنم فيهم
أنتي نعم لم ينعموا بجلها ترسل السماء عليهم مدرارا ولا تذخر الارض شيئا من النبات
وامثال كدوس يقوم الرجل يقول يا مهدي أعطني فيقول خذ قال الطبراني والبزار
تفرد به محمد بن مروان العجلي زاد البزار ولا أعلم أنه تابعه عليه أحد وهو وان وثقه أبو
داود وابن حبان أيضا ما ذكره في الثقات وقال فيه يحيى بن معين صالح وقال مرة ليس
به بأس فقد اختلفوا فيه وقال أبو زرعة ليس عندي بذلك وقال عبد الله بن أحمد بن
حنبل رأيت محمد بن مروان العجلي حدثت بأسا حديث وأنا ما هدلم نكتبها تركتها على عمد
وصكت بعض أصحابنا عنه كانه ضعفه وخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده عن أبي
هريرة وقال حدثني خديجي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم قال لا تقوم الساعة حتى
يخرج عليهم رجل من أهل بيتي فيضربهم حتى يرجعوا الى الحق قال قلت ركبك قال
خمسا واثنين قال قلت وما خمس واثنين قال لأدري اه وهذا السنديان كان
فيه بشير بن نهيك وقال فيه أبو حاتم لا يحتج به فقد احتج به الشيخان ووثقه الناس ولم
يلفتوا الى قول أبي حاتم لا يحتج به الا أن فيه رجاء بن أبي رجاء اليشكري وهو مختلف
فيه قال أبو زرعة ثقة وقال يحيى بن معين ضعيف وقال أبو داود ضعيف وقال مرة صالح
وعلق له البخاري في صحيحه حديثا واحدا وخرج أبو بكر البزار في مسنده والطبراني
في مجله الكبير والايوسط عن قرعة بن اياس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم
لتملأن الارض جورا وظلما فاذا ملئت جورا وظلما بعث الله رجلا من أمتي اسمه اسمي

واسم أبيه اسم أبي يعلوها عدلا وقتما كملتت جورا وظلما فلا تمنع السماء من قطرها
 شيئا ولا الأرض شيئا من نباتها يلبث فيكم سبعا وثمانينا وتسعاعا يعني سنين ٥٥ وفيه
 دواو بن المحي بن مجرم عن أبيه وهما ضعيفان جدا وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن
 ابن عمر قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في نحر من المهاجرين والانصار وعلى
 ابن أبي طالب عن يساره والعباس عن يمينه اذ تلاحي العباس ورجل من الانصار
 فأغظ الانصاري للعباس فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم بيد العباس ويده على وقال
 سيخرج من صلب هذا حتى يملأ الأرض جورا وظلما وسيخرج من صلب هذا حتى يملأ
 الأرض قسطا وعدلا فاذا رأيت ذلك فعليكُم بالفتى النعمي فإنه يقبل من قبل المشرق
 وهو صاحب راية المهدي ٥٥ وفيه عبد الله بن عمر العمي وعبد الله بن ابي عمير وهما
 ضعيفان ٥٥ وخرج الطبراني في معجمه الاوسط عن طلحة بن عبد الله عن النبي صلى
 الله عليه وسلم قال ستكون قسنة لا يسكن منها جانب الاثا جرب جانب حتى ينادي
 مناد من السماء ان أميركم فلان ٥٥ وفيه المنني بن الصباح وهو ضعيف جدا وايس
 في الحديث تصريح بذكر المهدي وانما ذكروه في أبوابه وترجمته استثناسا (فهذه) جملة
 الاحاديث التي خترتها الائمة في شأن المهدي وخروجها آخر الزمان وهي كما رأيت لم
 يخلص منها من النقد الا القليل والاقول منه ورجمتم المنكرين لانه عاروا محمد
 ابن خالد الجندي عن ابان بن صالح بن أبي عبيد عن حسن البصري عن أنس بن مالك
 عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لا مهدي الا عيسى ابن مريم وقال يحيى بن معين في
 محمد بن خالد الجندي انه ثقة وقال البيهقي تفرده به محمد بن خالد وقال الحاكم فيه انه رجل
 مجهول واختلف عليه في اسناده مرة يروي كما تقدم وينسب ذلك ل محمد بن ادريس
 الشافعي ومرة يروي عن محمد بن خالد عن ابان عن الحسن بن النبي صلى الله عليه وسلم
 مر سلا قال البيهقي فرجع الى رواية محمد بن خالد وهو مجهول عن ابان بن أبي عبيد وهو
 متروك عن الحسن بن النبي صلى الله عليه وسلم وهو منقطع وبالجملة فالحديث ضعيف
 مضطرب وقد قيل في أن لا مهدي الا عيسى أي لا يتكلم في المهدي الا عيسى بما ولون
 بهم ذواتهم ويل رد الاحتجاج به أو الجمع بينه وبين الاحاديث وهو مدفوع بحديث
 جريح ومثله من الخوارق * وأما المتصوفة فلم يكن المتقدمون منهم يحدون
 في شيء من هذا وانما كان كلامهم في المجاهدة بالاعمال وما يجعل عنها من نتائج المواجه
 والاحوال وكان كلام الامامية والرافضة من الشيعة في تفضيل علي رضي الله تعالى
 عنه والقول بامامته وادعاء الوصية له بذلك من النبي صلى الله عليه وسلم والتبري
 من الشيخين كما ذكرنا في مذاهم ثم حدث فيهم بعد ذلك القول الامام المعصوم وكثرت

التآلف في مذاهبهم وجاء الاسماعيلية منهم يدعون ألوهية الامام بنوع من الحلول
 وآخرون يدعون رجعة من مات من الاثمة بنوع التناسخ وآخرون منتظرون مجي من
 يقطع عونه منهم وآخرون منتظرون عود الامر في أهل البيت مستدلين على ذلك بما
 قدمناه من الاحاديث في المهدي وغيرها ثم حدث أيضا عند المتأخرين من الصوفية
 الكلام في الكشف وفيما وراء الحس وظهر من كثير منهم القول على الاطلاق بالحلول
 والوحدة فشاركوا فيها الامامية والرافضة لقواهم بالوهية الاثمة وحلول الاله فيهم
 وظهر منهم أيضا القول بالقطب والابدال وكأنه يحاكي مذهب الرافضة في الامام
 والنقباء وأشربوا أقوال الشيعة وتوغلوا في الديانة بمذاهبهم حتى اقد جعلوا مستند
 طريقهم في لبس الحرقة أن عليا رضى الله عنه ألبسها الحسن البصري وأخذ عليه
 العهد بالتزام الطريقة واتصل ذلك عنهم بالجنيد من شيوخهم ولا يعلم هذا عن علي من
 وجه صحيح ولم تكن هذه الطريقة خاصة بعلي كرم الله وجهه بل الصحابة كلهم أسوة في
 طرق الهندي وفي تخصيص هذا بعلي دونهم راحة من التشيع قوية يفهم منها ومن غيرها
 مما تقدم دخولهم في التشيع وانخراطهم في سلكه وظهر منهم أيضا القول بالقطب
 وامتلات كتب الاسماعيلية من الرافضة وكتب المتأخرين من المتصوفة بمثل ذلك في
 القاطمي المنتظر وكان بعضهم يلميه على بعض ويلقنه بعضهم من بعض وكأنه مبني على
 أصول واهية من الفريقين وربما يستدل بعضهم بكلام المنجمين في القرانات وهو من
 نوع الكلام في الملاحم ويأتي الكلام عليها في الباب الذي يلي هذا وأكثر من تكلم من
 هؤلاء المتصوفة المتأخرين في شأن القاطمي ابن العربي الحاتمي في كتاب عنقاء مغرب
 وابن قسي في كتاب خلع النعاليين وعبد الحق بن سبعين وابن أبي واطيل تليذه في شرحه
 كتاب خلع النعاليين وأكثر كلماتهم في شأنه الغارز وأمثال ووربما يصرحون في الاقل
 أو يصرح مفسر وكلامهم وحاصل مذهبهم فيه على ما ذكر ابن أبي واطيل أن النبوة
 بها ظهر الحق والهدى بعد الضلال والعمى وانها تعقبها الخلافة ثم يعقب الخلافة
 الملك ثم يعود تجبروا وتكبروا باطلا قالوا ولما كان في المعهود من سنة الله رجوع
 الامور الى ما كانت وجب أن يجيأ أمر النبوة والحق بالولاية ثم يخلفها ثم يعقبها
 الدجل مكان الملك والتسلط ثم يعود الكفر بحاله يشيرون بهذا الما وقع من شأن
 النبوة والخلافة بعدها والملك بعد الخلافة هذه ثلاث مراتب وكذلك الولاية التي هي
 لهذا القاطمي والدجل بعدها كناية عن خروج الدجال على أثره والكفر من بعد
 ذلك فهي ثلاث مراتب على نسبة الثلاث مراتب الاولى ثم يعود الكفر كما كان قبل
 النبوة قالوا ولما كان أمر الخلافة لقريش حكما شرعيا بالاجماع الذي لا يوهنه انكار

من لم يزال عمله وجب أن تكون الامامة فيمن هو أخص من قريش بالنبي صلى الله عليه وسلم أما ظاهره كبنى عبد المطلب وأما باطنه من كان من حقيقة الآل والآل من إذا حضر لم يقب من هو آله وابن العربي الحاتمي سماه في كتابه عنقاء مغرب من تأليفه خاتم الأولياء وكفى عنه بلبنة الفضة إشارة إلى حديث البخاري في باب خاتم النبيين قال صلى الله عليه وسلم مثل فيمن قبلي من الأنبياء كمثل رجل ابتنى بيتاً وأكمله حتى إذا لم يبق منه إلا موضع لبنة فأناتلك اللبنة فيفسرون خاتم النبيين باللبنة حتى أكلت البنيان ومعناه النبي الذي حصلت له النبوة الكاملة ويعملون الولاية في تفاوت مراتبها بالنبوة ويجعلون صاحب الكمال فيها خاتم الأولياء أي طائر الرتبة التي هي خاتمة الولاية كما كان خاتم الأنبياء خاتمة المرتبة التي هي خاتمة النبوة فكيف الشارح عن تلك المرتبة الخاتمة بلبنة البيت في الحديث المذكور وهما على نسبة واحدة فيها فهي لبنة واحدة في التمثيل في النبوة لبنة ذهب وفي الولاية لبنة فضة للتفاوت بين الرتبين كما بين الذهب والفضة فيجعلون لبنة الذهب كناية عن النبي صلى الله عليه وسلم ولبنة الفضة كناية عن هذا الولي المنتظر وذلك خاتم الأنبياء وهذا خاتم الأولياء وقال ابن العربي فيما نقل ابن أبي واطيل عنه وهذا الامام المنتظر هو من أهل البيت من ولد فاطمة وظهوره يكون من بعد مضي خ ف ج من الهجرة ورسم حروفه ثلاثة يريد عددها بحساب الجمل وهو الحاء المعجمة بواحدة من فوق ستمائة والفاء أخت القاف بثمانين والجميم المعجمة بواحدة من أسفل ثلاثة وذلك ستمائة وثلاث وثمانون سنة وهي في آخر القرن السابع ولما انصرم هذا العصر ولم يظهر رجل ذلك بعض المقلدين لهم على أن المراد بذلك المدة مولده وعبر بظهوره عن مولده وأن خروجه يكون بعد العشر والسبع مائة فانه الامام الناجم من ناحية المغرب قال واذ كان مولده كما زعم ابن العربي سنة ثلاث وثمانين وسبعمائة فيكون عمره عند خروجه ستاً وعشرين سنة قال وزعموا أن خروج الدجال يكون سنة ثلاث وأربعين وسبعمائة من اليوم المحمدي وابتداء اليوم المحمدي عندهم من يوم وفاة النبي صلى الله عليه وسلم إلى تمام ألف سنة قال ابن أبي واطيل في شرحه كتاب خلع النعلين الولي المنتظر القائم باسم الله المشار إليه بمحمد المهدي وخاتم الأولياء وليس هو بنبي وإنما هو ولي الله روجه وحبيبه قال صلى الله عليه وسلم العالم في قومه كالنبي في أمته وقال علماء أمتي كآنياء بني إسرائيل ولم تزل البشرية تتابع به من أول اليوم المحمدي إلى قبيل الخمسمائة نصف اليوم وتأكدت وتضاضفت بتباشير المناسخ بتقريب وقته وازدلاف زمانه منذ انقضت إلى هلم جزاً قال وذكر الكندي أن هذا الولي هو الذي يصلي بالناس صلاة الظهر ويجتدد الإسلام ويظهر العدل ويقنع جزيرة

الاندلس ويصل الى درومية فيفتحصها ويسير الى المشرق فيقتصه ويفتح القسطنطينية
ويصير له ملك الارض فيتقوى المسلمون ويعلموا الاسلام ويظهر دين الخليفة فان من
صلاة الظهر الى صلاة العصر وقت صلاة قال عليه الصلاة والسلام ما بين هذين وقت
وقال الكندي أيضا الحروف العربية غير المهجمة يعني المفتوح بها سور القرآن جملة
عددها سبعمائة وثلاثة وأربعون وسبعة دجالية ثم ينزل عيسى في وقت صلاة العصر
فيصلح الدنيا وتمشي الشاة مع الذئب ثم يبي ملك المهجم بعد اسلامهم مع عيسى مائة
وستين عاما عدد حروف المهجم وهي ق ي ن دولة العدل منها أربعون عاما قال ابن
أبي واطيل وما ورد من قوله لا مهدي الا عيسى فعنا له لا مهدي تساوي هدايته ولايته
وقيل لا يتكلم في المهدي الا عيسى وهذا مدفوع بحديث جريج وغيره وقد جاء في الصحيح
انه قال لا يزال هذا الامر قائما حتى تقوم الساعة أو يكون عليهم اثنا عشر خليفة
يعني قرشيا وقد أعطى الوجود أن منهم من كان في أول الاسلام ومنهم من سيكون
في آخره وقال الخلافة بعدى ثلاثون أو واحد وثلاثون أو ستة وثلاثون وانقضاؤها
في خلافة الحسن وأول أمر معاوية فيكون أول أمر معاوية خلافة أخذ بأوائل
الاسماء فهو سادس الخلفاء وأما سابع الخلفاء فعمر بن عبد العزيز والباقيون خمسة من
أهل البيت من ذرية علي يؤيده قوله انك لذو قرينها يريد الامة أي انك خليفة في أولها
وذريتك في آخرها ويرى بما استدل به هذا الحديث القائلون بالجمعة فالأول هو
المشار اليه عندهم بطلوع الشمس من مغربها وقد قال صلى الله عليه وسلم اذا هلك
كسرى فلا كسرى بعده واذا هلك قيصر فلا قيصر بعده والذي نفسي بيده لتنفقن
كنوزهم ما في سبيل الله وقد أنفق عمر بن الخطاب كنوز كسرى في سبيل الله والذي
يهلك قيصر وينفق كنوزه في سبيل الله هو هذا المنتظر حين يفتح القسطنطينية
فتم الامير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش كذا قال صلى الله عليه وسلم ومدة
حكمه بضع والبضع من ثلاث الى تسع وقيل الى عشر وجاء ذكره في بعض
الروايات سبعين وأما الاربعون فانهم امتدته ومدة الخلفاء الاربعة الباقيين من أهل
القائمين بأمره من بعده على جميعهم السلام قال وذكر أصحاب النجوم والقرانات أن
مدة بقاء أمره وأهل بيته من بعده مائة وتسعة وخمسون عاما فيكون الامر على هذا
جاري على الخلافة وانعدل أربعين أو سبعين ثم تختلف الاحوال فتكون ملكا انتهى
كلام ابن أبي واطيل وقال في موضع آخر نزول عيسى يكون في وقت صلاة العصر
من اليوم المحمدي حين تضي ثلاثة أرباعه قال وذكر الكندي يعقوب بن اسحق
في كتاب الجفر الذي ذكر فيه القرانات أنه اذا وصل القران الى الثور على رأس حوض

بمهرقين الضاد المنجبة والحاء المهمله يريد ثمانية وتسعين وستمائة من الهجرة ينزل المسبح
فيحكم في الارض ماشاء الله تعالى قال وقد ورد في الحديث أن عيسى ينزل عند المنارة
البيضاء شرق دمشق ينزل بين مهرودتين يعني حلتين من عفرتين صفاوين بمصرتين
واضعها كفيه على أجنحة الملكين لهلمة كأنما خرج من ديماس إذا طأطأ رأسه قطر
وإذا رفعه تحدر منه جمان كاللؤلؤ كثير خيلان الوجه وفي حديث آخر مر بوع الخلق
والى البياض والحرة وفي آخره يتزوج في الغرب والغرب دلوا بالبادية يريد أنه يتزوج
منها وتلد زوجته وذكر وفاته بعد أربعين عاما وجاء أن عيسى يموت بالمدينة ويدفن الى
جانب عمر بن الخطاب وجاء أن أبابكر وعمر يحشران بين نبيين قال ابن أبي واطيل
والشعبة تقول انه هو المسيح مسيح المسابح من آل محمدات وعليه حمل بعض المتصوفة
حديث لامهدى الاعيسى أى لا يكون مهدى الا المهدى الذى نسبته الى الشريعة
المحمدية نسبة عيسى الى الشريعة الموصوية فى الاتباع وعدم النسخ الى كلام من
أمثال هذا يعنون فيه الوقت والرجل والمكان بأدلة واضحة ومحكمات مختلفة
فينقضى الزمان ولا أثر لشي من ذلك فيرجعون الى تجل يد رأى آخره تحمل كآزاه من
مفهومات لغوية وأشياء تخيلية وأحكام نجومية فى هذا انقضت أعمال الاول منهم
والآخر وأما المتصوفة الذين عاصروا هم فأكثرهم يشيرون الى ظهور رجل مجدّد
لاحكام الله وهم اسم الحق ويصنّون ظهوره لما قرب من عصرنا فبعضهم يقول من
ولد فاطمة وبعضهم يطلق القول فيه بمعناه من جماعة أكبرهم أبو يعقوب البادى
كبير الاوليا بالمغرب كان فى أول هذه المائة الثامنة وأخبرنى عنه حافده صاحبنا
أبو يحيى زكريا عن أبيه أبى محمد عبد الله عن أبيه الولى أبى يعقوب المذكور هذا آخر
ما اطلعنا عليه أو بلغنا من كلام هؤلاء المتصوفة وما أورده أهل الحديث من أخبار
المهدى قد استوفينا جميعه ببلغ طاقتنا والحق الذى ينبغي أن يتقرر لديك أنه لا تتم
دعوة من الدين والملك الا بوجود شوكة عصية تطهره وتدافع عنه من يدفعه حتى يتم
أمر الله فيه وقد قررنا ذلك من قبل بالبراهين القطعية التى أرى نالك هذا والعصية
الفاطميين بل وقرىش أجمع قد تلاشت من جميع الآفاق ووجد أمم آخر وقد
استقلت عصيتهم على عصية قرىش الاماني بالجزازى مكة وينبع بالمدينة من الطالبين
من بنى حسن وبنى حسين وبنى جعفر منتشرون فى تلك البلاد وغالبون عليها وهم
عصائب بدوية متفرقون فى مواطنهم وامتارهم وآرائهم يلقون الآفا من الكثرة فان صح
ظهور هذا المهدى فلا وجه لظهور دعونه الا بان يكون منهم ويؤلف الله بين قلوبهم فى
اتباعه حتى تنم له شوكة وعصية واقية باظهار كلمته وحل الناس عليها وأما على غير هذا

الوجه مثل أن يدعوا فاطمي منهم الى مثل هذا الامر في أفق من الافاق من غير عصية
ولاشوكه الا مجرد نسبة في أهل البيت فلا يتم ذلك ولا يمكن لما أسلفنا من البراهين
العصية وأما ما تدعيه العامة والانصار من الدهماء ممن لا يرجع في ذلك الى عقل
يهديه ولا علم يفيد به فيجيبون ذلك على غير نسبة وفي غير مكان تتلذذوا بما اشتهر من ظهور
فاطمي ولا يعلمون حقيقة الامر كما بيناه وأكثر ما يجيبون في ذلك التماسية من الممالك
وأطراف العمران مثل الزاب بأفريقية والسوس من المغرب وتجد الكثير من ضعفاء
البصائر يقصدون رباطا بما كان ذلك الرباط بالمغرب من المثلثين من كدالة
واعتقادهم أنه منهم أو قائمون بدعونه زعمالاً مستند لهم الاغرابية تلك الامم وبعدهم على
يقين المعرفة بأحوالها من كثرة أوقلة أو ضعف أوقوة ولبعد القاصية عن منال الدولة
وخروجها عن نطاقها فتقوى عندهم الاوهام في ظهوره هناك بخروجها عن رتبة الدولة
ومنال الاحكام والقهر ولا محصول لديهم في ذلك الا هذا وقد يقصد ذلك الموضع كثير
من ضعفاء العقول للتلبس بدعوة عجمية تمامها وسواسا وحقا وقتل كثير منهم أخبرني
شيخنا محمد بن ابراهيم الابلي قال خرج برباط مائة لاول المائة الثامنة وعصر السلطان
يوسف بن يعقوب رجل من متعالي التصوف يعرف بالتويزري نسبة الى تويزر مصفرا
وادعى أنه الفاطمي المنتظر واتبعه الكثير من أهل السوس من ضالة وكزولة وعظم
أمره وخافه رؤساء المصامدة على أمرهم فهدس عليه السكوي من قتلها تاروا فحصل
أمره وكذلك ظهر في غمارة في آخر المائة السابعة وعشر التسعين منها رجل يعرف
بالعباس وادعى أنه الفاطمي واتبعه الدهماء من غمارة ودخل مدينة فاس عنوة وحرق
أسواقها وارتحل الى بلد المزمة فقتل به اغيلة ولم يتم أمره وكثير من هذا النمط وأخبرني
شيخنا المذكور بفريقية في مثل هذا وهو أنه ذهب في حجة في رباط العباد وهو مدفن
الشيخ أبي مدين في جبل تلسان المطل عليها رجلا من أهل البيت من سكان كربلاء كان
متبرعا معظما كثير التلذذ والخدم قال وكان الرجال من موطنه يتلقونه بالنفقات
في أكثر البلدان قال وتأكدت العصبة ينساق في ذلك الطريق فأنكسني أمرهم
وأنهم انما جاؤا من موطنهم بكر بلا لطلب هذا الامر واتصال دعوة الفاطمي بالمغرب
فلما بنى دولة بني مرين ويوسف بن يعقوب يومئذ منازل تلسان قال لاصحابه ارجعوا
فقد أزدى بنا الغلط وليس هذا الوقت وقتنا وبدل هذا القول من هذا الرجل عنى أنه
مستبصر في أن الامر لا يتم الا بالعصية المكانية لاهل الوقت فلما علم أنه غريب في ذلك
الوطن ولاشوكه له وأن عصية بني مرين لذلك العهد لا يقاومها أحد من أهل المغرب
استمكن ورجع الى الحلق وأقصر عن مطامعهم وبقى عليه أن يستيقن أن عصية

الفواطم وقريش أجمع قد ذهبت لاسيما في المغرب الا أن التعصب لشأنه لم يترك لهذا القول والله يعلم وأنتم لا تعلمون وقد كانت بالمغرب لهذه العصور القرية نزعة من الدعاء الى الحق والقيام بالسنة لا يتحملون فيما دعوة فاطمي ولا غيره وانما ينزع منهم في بعض الاحيان الواحد فالواحد الى اقامة السنة وتغيير المنكر ويعتني بذلك ويكثر تابعه وأكثر ما يعنون باصلاح السابلة لما أن أكثر فساد الاعراب فيها لما قدمناه من طسعة معاشهم فيما أخذون في تغيير المنكر بما استطاعوا الا أن الصيغة الدينية فيهم لم تستحكم لما أن توبة العرب ورجوعهم الى الدين انما يقصدون بها الاقصار عن الغارة والنهب لا يعتلون في توبتهم واقبالهم الى مناحي الديانة غير ذلك لانها المعصية التي كانوا عليها قبل القرية ومنها توبتهم فجد ذلك المنتمل للدعوة والقائم بزعمه بالسنة غير متعمقين في فروع الاقتماء والاتباع انما دينهم الاعراض عن النهب والبغي وافساد السابلة ثم الاقبال على طلب الدنيا والمعاش بأقصى جهدهم وشتان بين هذا الاجرم من اصلاح الخلق ومن طلب الدنيا فاتفقا هما ممنوع لانستحكم اه صبغة في الدين ولا يكمل له نزوع عن الباطل على الجملة ولا يكثرون ويختلف حال صاحب الدعوة معهم في استحكام دينه وولايته في نفسه دون تابعه فاذا هلك انحل أمرهم وتلاشت عصبيتهم وقد وقع ذلك بافريقية لرجل من كعب من سليم يسمى قاسم بن مرة بن أحمد في المائة السابعة ثم من بعده لرجل آخر من بادية رباح من بطن منهم يعرفون بمسلم وكان يسمى سعادة وكان أشد ديناً من الاول وأقوم طريقة في نفسه ومع ذلك فلم يستتب أمر تابعه كما ذكرناه حسبما يأتي ذكر ذلك في موضعه عند ذكر قبائل سليم ورياح وبعد ذلك ظهر ناس بهذه الدعوة يشبهون بمثل ذلك ويلبسون فيها ويتحلون اسم السنة وليسوا عليها الا الاقل فلا يتم لهم ولا لمن بعدهم شيء من أمرهم انتهى

٥٤ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن مسمى الجفر

اعلم أن من خواص النفوس البشرية التشوق الى عواقب أمورهم وعلم ما يحدث لهم من حياة وموت وخير وشر سيما الحوادث العامة كعرفة ما بقي من الدنيا ومعرفة مدد الدول وتفواتها والتطلع الى هذا طبيعة البشر مجبولون عليها ولذلك نجد الكثير من الناس يتشوقون الى الوقوف على ذلك في المنام والاحبار من الكهان ان قصدهم بمثل ذلك من المولود والسوقة معرفة واقصد نجد في المدن صنفا من الناس يتحلون المعاش من ذلك لعلمهم بحرص الناس عليه فينتصبون لهم في الطرقات والدكاكين يتعرضون لمن يسألهم عنه فتغدو عليهم وتروح نسوان المدينة وصبيانها وكثير من ضعفاء العقول

يستكشفون عواقب أمرهم في الكسب والجاه والمعاش والمعاشرة والعداوة وأمثال ذلك ما بين خط في الرمل ويسمونه المنجم وطرق بالحصى والحبوب ويسمونه الحاسب ينظر في المرايا والمياه ويسمونه ضارب المنديل وهو من المنكرات الفاشية في الامصار لما تقر في الشريعة من ذم ذلك وأن البشر مجربون عن الغيب الا من أطلعه الله عليه من عنده في نوم أو ولاية وأكثر ما يعتنى بذلك ويتطلع اليه الامراء والملوك في آما ددولتهم ولذلك انصرفت العناية من أهل العلم اليه وكل أمة من الامم يوجد لهم كلام من كاهن أو منجم أو ولي في مثل ذلك من ملك يرتقبونه أو دولة يحدثون أنفسهم بها وما يحدث لهم من الحرب والملاحم ومدة بقاء الدولة وعدد الملوك فيها والتعرض لاسمائهم ويسمى مثل ذلك الحدثان وكما في العرب الكهان والعرافون يرجعون اليهم في ذلك وقد أخبروا بما سيكون في العرب من الملك والدولة كما وقع اشق وسطيح في تاويل رؤيا ربيعة بن مر من ملوك اليمن أخبرهم بملك الحبشة بلادهم ثم رجوعها اليهم ثم ظهور الملك والدولة للعرب من بعد ذلك وكذا تاويل سطيح لرؤيا الموبدان حين بعث اليه كسرى بهامع عبد المسيح وأخبرهم بظهور دولة العرب وكذا كان في جميل البربر كهان من أشهرهم موسى ابن صالح من بني يفرن ويقال من غمرة وله كلمات حدثانية على طريقة الشعر برطانهم وفيها حدثان كثير ومعظمه فيما يكون لزيارة من الملك والدولة بالمغرب وهي متداولة بين أهل الجليل وهم يزعمون تارة أنه ولي وتارة أنه كاهن وقد يزعم بعض من اعلمهم أنه كان نبيا الا ان تاريخه عندهم قبل الهجرة بكثير والله أعلم وقد يستند الجليل الى خبر الانبياء ان كان لعهدهم كما وقع لبني اسرائيل فان انبياءهم المتعاقبين فيهم كانوا يخبرونهم مثله عندما يعنونهم في السؤال عنه * وأما في الدولة الاسلامية فوقع منه كثير فيما يرجع الى بقاء الدنيا ومدتها على العموم وفيما يرجع الى الدولة وأعمارها على الخصوص وكان المعتمد في ذلك في صدر الاسلام آثارا من دولة عن الصعابة وخصوصا مسلمة بن اسرائيل مثل كعب الاحبار وروهب بن منبه وأمثالهما وربما اقتبوا بعض ذلك من ظواهر ما تورة وتأويلات محذمة ووقع بضعف وأمثالها من أهل البيت كثير من ذلك مستندهم فيه والله أعلم الكشف عما كانوا عليه من الولاية واذا كان منزه لا ينكر من غيرهم من الاولياء في ذويهم وأعقابهم فقد قال صلى الله عليه وسلم ان نبيكم محدثين فهم أولى الناس بهذه الرتب الشريفة والكرامات الموعوبة وأما بعد صدر الملة وحين علق الناس على العلوم والاصطلاحات وترجت كتب الحكماء الى اللسان العربي فأكثر معتمد في ذلك كلام المنجمين في الملك والدول وسائر الامور العامة من القرانات وفي المراتب والمسائل وسائر الامور الخاصة من الطوالع لها

وهي شكل الفلك عند حد وثم افلند كرا الا ان ما وقع لاهل الاثر في ذلك ثم يرجع لكلام
التجيين • أما اهل الاثر فلهم في مدة الملل وبقاء الدنيا على ما وقع في كتاب السهيلي
فانه نقل عن الطبري ما يقتضي أن مدة بقاء الدنيا منذ الملة خمسمائة سنة ونقض ذلك
بظهور كذبه ومستند الطبري في ذلك أنه نقل عن ابن عباس أن الدنيا جمعة من جمع
الآخرة ولم يذكرك ذلك دليلا ومرة والله أعلم تقدير الدنيا بأيام خلق السموات والارض
وهي سبعة ثم اليوم بألف سنة لقوله وان يوما عند ربك كالنفسنة مما تعدون قال
وقد ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أجلكم في أجل من كان
قبلكم من صلاة العصر الى غروب الشمس وقال بعثت أنا والساعة كهاتين وأشار
بالسبابة والوسطى وقد رما بين صلاة العصر وغروب الشمس حين صبورة ظل كل شيء
مثليه يكون على التقريب نصف سبع وكذلك وصل الوسطى على السبابة فتكون هذه
المدة نصف سبع الجمعة كلها هو خمسمائة سنة ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم لن يهجز
الله أن يؤخر هذه الامم نصف يوم فدل ذلك على أن مدة الدنيا قبل الملة خمسة آلاف
وخمسمائة سنة وعن وعب بن زبابة أنها خمسة آلاف وستمائة سنة أعني الماضي وعن
كعب أن مدة الدنيا كلها ستة آلاف سنة قال السهيلي وليس في الحديثين ما يشهد لشي
مما ذكره مع وقوع الوجود بخلافه فأما قوله لن يهجز الله أن يؤخر هذه الامم نصف يوم
فلا يقتضي نفي الزيادة على النصف وأما قوله بعثت أنا والساعة كهاتين فإشارة
الى القرب وأنه ليس بينه وبين الساعة شيء غيره ولا شرع غيره شرعه ثم يرجع السهيلي
الى تعيين مدة الملة من مدرك آخر لو ساعد التحديق وهو أنه جمع الحروف المقطعة في
أوائل السور بعد حذف المكرر قال وهي أربعة عشر حرفا يجمعها قولك (الم بسطع
نصر حق كره) فأخذ عددها بحسب الجمل فكان سبعمائة وثلاثة (١) أضافه الى
المتقنى من الالف الآخرة قبل بعثته فهذه هي مدة الملة قال ولا يعد ذلك أن يكون
من مقتضيات هذه الحروف وفوائدها قلت وكونه لا يعد لا يقتضى ظهوره ولا التعويل
عليه والذي حمل السهيلي على ذلك إنما هو ما وقع في كتاب السير لابن اسحق في حديث
ابن الخطيب من أخبار اليهود وهما أبو ياسر وأخوه جدي حين سمعنا من الاحرف
المنطوقة الم وتأولاهما على بيان الملة بهذا الحساب فبلغت احدى وسبعين فاستقلا
المدة وجاء جدي الى انى صلى الله عليه وسلم يسأله هل مع هذا غيره فقال المص ثم
استراد الر ثم استراد المر فكانت احدى وسبعين ومائتين فاستقلا المدة وقال
قد ليس عليا أمرنا يا محمد حتى لا ندري أقلبلا أعطيت أم كثير ثم ذهبوا عنه وقال لهم
أبو ياسر ما يدرككم لعله أعطى عددها كلها تسعمائة وأربع مئتين قال ابن اسحق فنزل

قوله تعالى منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهاً اه ولا يقوم من القصة
دليل على تقدير الملة بهذا العدد لان دلالة هذه الحروف على تلك الاعداد ليست
طبيعية ولا عقلية وانما هي بالتواضع والاصطلاح الذي يسمونه حساب الجمل نعم
انه قديم مشهور ووقدم الاصطلاح لا بصيرجة وايس ابواسر واخوه حي ممن يؤخذ
رايه في ذلك دليل اولاً من علماء اليهود لانهم كانوا ابداعية بالجواز غفلاً عن الصناعات والعلوم
حتى عن علم شريعةهم وفقه كتابهم وملتهم وانما يتلقفون مثل هذا الحساب كما تلقفه
العوام في كل ملة فلا ينهض للسبيل دليل على ما ادعاه من ذلك ووقع في الملة في حدثنان
دولتها على الخصر من مسند من الاثر اجمالى في حديث خرجه ابوداود عن حذيفة بن
اليمان من طريق شيخه محمد بن يحيى الذهبي عن سعيد بن ابي مريم عن عبد الله بن فروخ
عن أسامة بن زيد اللبي عن ابي قبيصة بن ذؤيب عن ابيه قال قال حذيفة بن اليمان
والله ما أدري أنسى أصحابي أم نساوه والله ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم من
فائدة فتمت الى أن تنقضى الدنيا يبلغ من معه الثمانية فصار هذا الاقدم سماه لنا باسمه واسم
أبيه وقبيلته وسكت عليه ابوداود وقد تقدم أنه قال في رسالته ما سكت عليه في كتابه
فهو صالح وهذا الحديث اذا كان صحيحاً فهو مجهول ويستغنى في بيان اجماله وتعيينه به انه
الى آثار أخرى يجوز أساندها وقد وقع اسناد هذا الحديث في غير كتاب السنن على غير
هذا الوجه فوقع في الصحيحين من حديث حذيفة أيضاً قال قام رسول الله صلى الله
عليه وسلم فبنا خطيباً فأتى شيئاً يكون في مقامه ذلك الى قيام الساعة الا حدث عنه
حفظه من حفظه ونسبه من نسبه قد علمه أصحابه هؤلاء اه ولفظ البخاري ما ترك شيئاً الى
قيام الساعة الا ذكره وفي كتاب الترمذي من حديث ابي سعيد الخدري قال صلى بنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ما صلاة العصر بنهار ثم قام خطيباً فلم يدع شيئاً يكون الى
قيام الساعة الا أخبرنا به حفظه من حفظه ونسبه من نسبه اه وهذه الاحاديث كلها
محمولة على ما ثبت في الصحيحين من احاديث الفتن والاشراط لاغير لانه المعهود من
الشارع صلوات الله وسلامه عليه في أمثال هذه العمومات وهذه الزيادة التي تفرد بها
ابوداود في هـ هذا الطريق شاذة منكرة مع أن الائمة اختلفوا في رجاله فقال ابن ابي
مريم في ابن فروخ احاديثه منا كبر وقال البخاري يعرف منه ونكر وقال ابن عدي
احاديثه غير محفوظة وأسامة بن زيد وان خرجه في الصحيحين ووثقه ابن معين فانما
خرج له البخاري اتمته ادا وضعه يحيى بن سعيد واحمد بن حنبل وقال ابن حاتم يكتب
حديثه ولا يخرج به و ابو قبيصة بن ذؤيب مجهول فتضعف هذه الزيادة التي وقعت لابي
داود في هذا الحديث من هذه الجهات مع شذوذها كما مر • وقد يستندون في حدثنان

الدول على الخصوص الى كتاب الجفر ويزعمون أن فيه علم ذلك كله من طريق الآثار
والنجوم لا يزيدون على ذلك ولا يعرفون أصل ذلك ولا مستنده واعلم أن كتاب الجفر
كان أصله أن هرون بن سعيد العجلي وهو رأس الزيدية كان له كتاب يرويه عن جعفر
الصادق وفيه علم ما سبق لأهل البيت على العموم ولبعض الأشخاص منهم على
الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظاره من رجالهم على طريق الكرامة والكشف الذي
يقع أئمتهم من الأولياء وكان مكتوباً عند جعفر في جلد ثور صغير فرواه عنه هرون العجلي
وكتبه وسماه الجفر باسم الجلد الذي كتب منه لأن الجفر في اللغة هو الصغير وصار هذا
الاسم علماء على هذا الكتاب عندهم وكان فيه تفسير القرآن وما في باطنه من غرائب
المعاني مروية عن جعفر الصادق وهذا الكتاب لم تتصل روايته ولا عرف عنه وإنما
يظهر منه شواهد من الكلمات لا يصحها دليل ولو صح السند الى جعفر الصادق لكان فيه
نعم المستند من نفسه أو من رجال قومه فهم أهل الكرامات وقد صح عنه أنه كان يحذر
بعض قرائته بوقائع تكون لهم فتصح كما يقول وقد حذر يحيى ابن عمه زيد من مصرعه
وعصاه فخرج وقتل بالجزيرة كما هو معروف وإذا كانت الكرامة تقع لغيرهم فما ظنك
بهم علماء وديناوات من التبوذة وعناية من الله بالأصل الكريم تشهدا لفروعه الطيبة
وقد ينقل بين أهل البيت كثير من هذا الكلام غير منسوب الى أحد وفي أخبار
دولة العبيدين كثير منه وانظر ما حكاه ابن الرقيق في لقاء أبي عبد الله الشيعي لعبيد
الله المهدي مع ابنه محمد الحبيب وما حدثنا به وكيف بعثناه الى ابن حوشب داعيتهم
باليمين فأمره بالخروج الى المغرب وبيت الدعوة فيه على علمه أنه أن دعوته تتم هناك
وان عبيد الله لما بنى المهدي بعد استفعال دوائهم بأقرية قبة قال بنيت البيعة بهم
الفواطم ساعة من نهار وأراهم موقف صاحب الجمار أبي يزيد بالمهدي وكان يسأل عن
منتهى موقفه حتى جاء الخبر بلوغه الى المكان الذي عينه جده عبيد الله فأيقن بالظفر
وبرز من البلد فهزمه واتبعه الى ناحية الزاب فظفر به وقتله ومثل هذه الاخبار عندهم
كثيرة وأما المنجمون فيستندون في حدثان الدول الى الاحكام النجومية أما في الامور
العامة مثل الملك والدول فمن القرانات وخصوصا بين العلويين وذلك أن العلويين
زحل والمستري يقترنان في كل عشرين سنة مرة ثم يعود القران الى برج آخر في تلك
المثلثة من التمثيل الايمن ثم بعده الى آخر كذلك الى أن يتكرر في المثلثة الواحدة ثنتي
عشرة مرة تتوى بوجه الثلاثة في ستين سنة ثم يعود فيستوى بهم في ستين سنة ثم
يعود ثالثة ثم رابعة فيستوى في المثلثة ثنتي عشرة مرة وأربع عودات في مائتين
وأربعين سنة ويكون انتقاله في كل برج على التثايب الايمن وينقل من المثلثة الى

المائة التي تليها أعني البرج الذي يلي البرج الأخير من القران الذي قبله في المثلثة
وهذا القران الذي هو قران العلويين ينقسم الى كبير وصغير ووسط فالصغير هو
اجتماع العلويين في درجة واحدة من الثلث الى أن يعود اليها بعد ثمانمائة وستين سنة
مرة واحدة والوسط هو اقتران العلويين في كل مثلثة اثني عشرة مرة وبعدهما اثني
وأربعين سنة ينتقل الى مثلثة أخرى والصغير هو اقتران العلويين في درجة برج وبعد
عشرين سنة يقترنان في برج آخر على تثلثه الايمن في مثل درجة أو دقائقه مثال ذلك
وقع القران أول دقيقة من الحمل وبعد عشرين يكون في أول دقيقة من القوس وبعد
عشرين يكون في أول دقيقة من الاسد وهذه كلها تارة وهذا كله قران صغير ثم يعود
الى أول الحمل بعد ستين سنة ويسمى دور القران وعود القران وبعدهما اثني وأربعين
ينتقل من النارية الى الترابية لانها بعد ها وهذا قران وسط ثم ينتقل الى الهوائية
ثم المائية ثم يرجع الى أول الحمل في تسعمائة وستين سنة وهو الكبير والقران الكبير
يداء على عظام الامور مثل تغير الملك والدولة وانتقال الملك من قوم الى قوم والوسط
على ظهور المتغلبين والطالبين لملك والصغير على ظهور الخوارج والدعاة وخراب
المدن أو عمرانها وبتبع أثناء هذه القرائات قران الخمسين في برج السرطان في كل
ثلاثين سنة مرة ويسمى الرابع و برج السرطان هو طالع العالم وفيه وبال زحل وهبوط
المرجح فاعظم دلالة هذا القران في الفتن والحروب وسفك الدماء وظهور الخوارج
وسرقة العساكر وعصيان الجند والوباء والقحط ويدوم ذلك أو ينتهي على قدر
العبادة والنحو في وقت قرانها على قدر تيسر الدليل فيه قال جراس بن أحمد
الحاسب في الكتاب الذي ألفه لنظام الملك ورجوع المرجح الى العقرب له اثر عظيم
في الملة الاسلامية لانه كان دليلها فالمولد النبوي كان عند قران العلويين ببرج
العقرب فلما رجع هنالك حدث التشويش على الخلقاء وكثر المرض في أهل العلم والدين
ونقصت أحوالهم وربما انهدم بعض بيوت العبادة وقديما قال انه كان عند قتل علي
رضي الله عنه ومر وان من بني أمية والمتوكل من بني العباس فاذا روعيت هذه
الاحكام مع احكام القرائات كانت في غاية الاحكام • وذكر شاذان البلخي أن الملة
تنتهي الى ثمانمائة وعشرين وقد ظهر كذب هذا القول وقال أبو معشر يظهر بعد
المائة والخمسين منها اختلاف كثير ولم يصح ذلك وقال جراس رأيت في كتب القدماء
أن المنجمين أخبروا كسرى عن ملك العرب وظهور النبوة فيهم وأن دابلمهم الزهرة
وكانت في شرفها في بيتي الملك فيهم أربعين سنة وقال أبو معشر في كتاب القرائات
القائمة اذا انتهت الى السابعة والعشرين من الحوت فيها شرف الزهرة ووقع القران

مع ذلك يبرح ان المغرب وهو دليل على المغرب ظهرت حينئذ دولة العرب وكان منهم نبي
ويكون قوة على مدته على ما بنى من درجات شرف الزهرة وهي احدى عشرة درجة
يقرب من برج الحوت ومدته ذلك ستمائة وعشرين وكان ظهروا بنى مسلم عند انتقال
الزهرة ووقوع القسمة قول الحمل وصاحب الجد المشتري وقال يعقوب بن اسحق
الكندي ان مدة الملة تنتهي الى ستمائة وثلاث وتسعين سنة قال لان الزهرة كانت عند
قران الملة في ثمان وعشرين درجة وثلاثين دقيقة من الحوت فالباقي احدى عشرة
درجة وثمان عشرة دقيقة ودقائقها ستون فيكون ستمائة وثلاثا وتسعين سنة قال وهذه
مدة الملة باتفاق الحكماء وبعض هذه الحروف الواقعة في اول السور بحذف المكرر
واعتياره بحساب الحمل قلت وهذا هو الذي ذكره السهيلي والغالب ان الاول هو
مستند السهيلي فيما نقلناه عنه قال جراسم سأل هرمز افريد الحكيم عن مدة اردشير
وولده وملوك الساسانية فقال دليل ملكه المشتري وكان في شرفه فيعطى أطول السنين
وأجودها أربع مائة وسبعاء وعشرين سنة ثم تزيد الزهرة وتكون في شرفها وهي دليل
العرب فيكون لان طالع القران الميزان وصاحبه الزهرة وكانت عند القران في شرفها
فدل أنهم يملكون ألف سنة وستين سنة وسأل كسرى أنوشروان وزيره بزرجمهر الحكيم
عن خروج الملك من فارس الى العرب فأخبره أن القائم منهم يولد لخمس وأربعين من
دولته ويملك المشرق والمغرب والمشتري يفوس الى الزهرة وينقل القران من الموائمة
الى المغرب وهو ما هو دليل العرب فهذه الأدلة تقضى للمدة بمدة دور الزهرة وهي
ألف وستون سنة وسأل كسرى ابرويزا ابيوس الحكيم عن ذلك فقال مثل قول بزرجمهر
وقال نوبيل الرومي المنجم في أيام بنى أمية ان ملة الاسلام تبقى مدة القران الكبير
تسعمائة وستين سنة فاذا عاد القران الى برج العقرب كما كان في ابتداء الملة وتغير وضع
الكواكب عن حيثها في قران الملة حينئذ اما ان يفتر العمل به أو يتجدد من الأحكام
ما يجب خلاف الظن قال جراسم واتفقوا على أن خراب العالم يكون باستيلاء الماء
والنار حتى تهلك سائر الكونيات وذلك عندما يقطع قلب الاسد أربعاء وعشرين درجة
التي هي حد المزيخ وذلك بهد معنى تسعمائة وستين سنة وذكر جراسم أن ملك زابلستان
بعث الى المأمون بحكيمه ذوبان أن تحفه به في هدية وأنه تصرف للمأمون في الاختبارات
بحروب أخيه وبه قد التواء الطاهر وأن المأمون أعظم حكمته فسأله عن مدة ملكهم
فأخبره بانقطاع الملة من عقبه وانصاليه في ولد أخيه وأن العجم يغلبون على الخلافة
من النبيل في دولة سنة خمسين ويكون ما يريد الله ثم يسوء حاله ثم تظهر التركة من
شمال المشرق فيملكونه الى الشام والفرات وسيجرون وسيملكون بلاد الروم ويكون

ما يريد دانه فقال له المأمون سن أين الله هذا فقال من كتب الحكيم ومن أحكام صصه بن
داهر الهندي الذي وضع الشطرغ قلت والترن الذين أشار إلى ظهورهم بعد الديلم هم
السلجوقية وقد انقضت دواتهم أول القرن السابع قال جراس وانتقال القران الى
المثلثة المائية من برج الحوت يكون سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ليرد جرد وبعدها
الى برج العقرب حيث كان قران الملة سنة ثلاث وخمسين قال والذي في الحوت هو
أول الانتقال والذي في العقرب يستخرج منه دلائل الملة قال ونحويل السنة
الاولى من القران الاقل في المثلثات المائية في ثاني رجب سنة ثمان وستين وثمانمائة
ولم يستوف الكلام على ذلك * وأمامتند المنجمين في دولة على الخصوص فمن اقران
الايوسط وهينة ذلك عند وقوعه لان له دلالة عندهم على حدوث الدواة وجهاتهم امن
العمران والقائين بهامن الامم وعدد ملوكهم وأسمائهم وأعمارهم ونحلهم وأديانهم
وعوائدهم وحروبهم كما ذكر أبو مشرف في كتابه في القرانات وقد توجد هذه الدلالة من
القران الاصغر اذا كان الاوسط دالاعليه فن هذا يوجد الكلام في الدول * وقد كان
بعقوب بن اسحق الكندي منجم الرشيد والمأمون وضع في القرانات الكائنة في الملة
كتابا سماه السبعة بالجفر باسم كتابهم المنسوب الى جعفر الصادق وذ كرفيه فيما يقال
حدثان دولة بني العباس وأنها من اياته وأشار الى انقراضها والحادثة على بغداد اذ تم اتقع
في اتصاف المائة السابعة وأن بانقراضها يكون انقراض الملة ولم تقف على شيء من خبر
هذا الكتاب ولا رأينا من وقف عليه واهله غرق في كتبهم التي طرحها هلا كومات التتر
في دجلة عند استيلائهم على بغداد وقتل المستعصم آخر الخلفاء وقد وقع بالمغرب جزء
منسوب الى هذا الكتاب يسدونه الجفر الصغير والظاهر أنه وضع لبني عبد المؤمن لذكر
الاولين من ملوك الموحدين فيه على التفصيل ومطابقة من تقدم عن ذلك من حدثانه
وكذب ما بعده وكان في دولة بني العباس من بعد الكندي منجمون وكذب في الحدثان
وانظر ما نقله الطبري في أخبار المهدي عن أبي بديل من أصحاب صنائع الدولة قال بعث
الى الربيع والحسن في غزاتهم مع الرشيد أيام أبيه فحتم اجوف الليل فاذا عندهما
كتاب من كتب الدولة يعني الحدثان واذا امتدة المهدي فيه عشرين فقلت هذا الكتاب
لا يخفى على المهدي وقد مضى من دواته ما مضى فاذا وقف عليه كنتم قد نعيم اليه نفسه
فالاف الجيلة فاستدعيت عنبة الوراق مولى آل بنيان وقت له انسخ هذه الورقة
واكتب مكان عشرين ربهين ففعل فوالله لولا أنى رأيت العشرة في تلك الورقة
والاربهين في هذه ما كنت أشد انهماهي ثم كذب الناس من بعد ذلك في حدثان الدول
منظوما ومنشورا ورجز ماشاء الله أن يكسبه وبأيدي الناس متفرقة كثيرة منها ونسج

الملاحم وبه منها في حدثنان الملة على العموم وبه منها في دولة على الخصوص وكلها
منسوبة الى مشاهير من اهل الخليفة وليس منها اصل يعتمد على روايته عن راضعه
المنسوب اليه فن هذه الملاحم بالمغرب قصيدة ابن مرانة من بحر الطويل على روى
الراء وهي متداولة بين الناس وتحتب العائمة انهما من الحدثنان الامام فيطلقون الكثير
منها على الحاضر والمستقبل والذي سمعناه من شيوخنا انما مختصة بدولة نتونة لان
الرجل كان قبيل دواتهم وذلك في الاستيلاء على سبته من يد والى بنى حمود
وملكهم اعدوة الاعداس ومن الملاحم يد اهل المغرب ايضا قصيدة تسمى التبعية
اولها

طربت وماذا لمني طرب * وقد يطرِب العطار المغتضب

وما ذات منى للهو اراء * ولكن لتذكر بعض السبب

فريمان خمسمائة بيت أو ألف فيما يقال ذكر فيها كثيرا من دولة الموحدين وأشار
فيها الى الفاطمي وغيره والظاهر انما مصنوعة ومن الملاحم بالمغرب ايضا ملحبة
من الشعر الزجل منسوبة لبعض اليهود ذكر فيها الأحكام القرانات لهصره العلويين
والنصين وغيرهما وذكر مائة قبيلة بناس وكان كذلك فيما زعموه و قوله

في صبغ ذا الازرق لشرفه خبارا * فافهموا يا قوم دنى الاشارا

نجم زحل اخبر بذي العلاما * وبدل الشكلا وهي سلاما

شائبة زرقا بدل العماما * وشاش ازرق بدل الغرارا

يقول في آخره

قد تم ذا التجدير لانسان يهودى * يصلب بيلادة فاس في يوم عيد

حتى يجيه الناس من البوادي * وقتله يا قوم على الافراد

وأياته نحو الخمسمائة وهي في القرانات التي دلت على دولة الموحدين ومن ملاحم
المغرب أيضا قصيدة من عروض لمتقارب على روى الباه في حدثنان دولة بنى أبي
حفص بنونس من الموحدين منسوبة لابن البار وقال لي قاضي قسنطينة الخطيب
الكبير أبو علي بن باديس وكان بصيرا بما يتوله وله في التنجيم فتنازل في ان هذا ابن
البار ليس هو الحافظ الاندلسي الكاتب مقتول المستنصر وانما هو رجل خياط من
أهل تونس توأطأت شهرته مع شهرة الحافظ وكان والى رحمه الله تعالى نشد هذه
الايات من هذه المهمة وبني بعثنا في حفظي مطلعها

عديري من زمن قاب * يغري بارتها الاشباب

ومنها

ويبعث من جيشه قائدا • ويبقى هنالك على مرقب
فتأني إلى الشيخ أخباره • فيقبل كالجمل الجرب
ويظهر من عدله سيرة • وتلك سياسة مستجلب
ومنها في ذكر أحوال تونس على العموم

فأما رأيت الرسوم انمعت • ولم يرع حق لذي منصب
فخذني الترحل عن تونس • وودع معاملها وذهب
فسوف تكون بها قننة • تضيف البرى إلى المذنب
ووقفت بالمغرب على ملحمة أخرى في دولة بني حذاف هولاء بتونس فيها بعد
السلطان أبي يحيى الشهير بما شرموا كههم ذكر محمد أخيه من بعده يقول فيها
وبعد أبي عبد الله شقيقته • ويعرف بالوناب في نسخة الأصل
الآن هذا الرجل لم يملكها بعد أخيه وكان يعني بذلك نفسه إلى أن هلك ومن الملاحم في
المغرب أيضا الملعبة المنسوبة إلى الهوثي على لغة العامة في عروض البلد التي أوها
دعنى بدمعى الهتان • فترت الأمطار ولم تنفتر
واستقتت كلها الويدان • وأنى على وتنفس در
البلاد كلها تروى • فأولى ماميل ماتدرى
ما بين الصيف والشموى • والنعام والربيع فبحرى
قال حين سمعت الدعوى • دعنى نبكى ومن عذر
انادى من ذى الأزمان • ذا القرن اشنت وعزى

وهي طويلة ومختومة بين عامة المغرب الأقصى والغالب عليها الواضع لأنه لم يصح منها
قول الأعلى تأويل مخرفه العامة أو الحارث فيه من يتعلمها من الخاصة ووقفت
بالمشرق على ملحمة منسوبة لابن العربي الحمانى في كلام طويل شبه الفارز لا يعلم تأويله
إلا الله ليخلفه أوفاق عديدة ورموز مغرزة وأشكال حيوانات نامية ورؤس مقطعة
وتماثيل من حيوانات غريبة وفي آخرها قصيدة على روى اللام والغالب أنها كلها غير
صحيحة لأنها لم تنشأ عن أصل على من نجامة ولا غيرها وسمعت أيضا أن هناك ملاحم
أخرى منسوبة لابن سينا وابن عقب وليس في شيء منها دليل على الصحة لأن ذلك إنما
يؤخذ من القرانات ووقفت بالمشرق أيضا على ملحمة من حذافان دولة الترك منسوبة
إلى رجل من الصوفية يسمى الباجر بنى وكاهها بالفارز بالحروف أوها

ان شئت تكشف سر الجفر يا سائل • من علم جنة روصى والد الحسن
فأفهم وكن واعيا حرقا وجهته • والوصف فافهم كنعل الحاذق الفطن

أما الذي قبل عصرى استأذركه • استأذنى أذكر الآتى من الزمن
 بشهر يبرس يبقى بجاء بعد خستها • وحاء ميم بطيش نام فى الصكن
 شين له أترمن تحت سرتنه • له القضاء قضى أى ذلك المنى
 فصر والشام مع أرض العرافه • وأذر بيجان فى ملك الى اليمن
 ومنها

وآل بوران ما مال طاهرهم • القانك الباتك المعنى بالسمن
 نخلع بين ضعيف السن سين أتى • لانوفاق ونون ذى قسرن
 قرم شجاع له عقل ومشورة • يبقى بجاء واين بعد ذومن
 ومنها

من بعد باء من الاعوام قتلته • بلى المشورة ميم الملك ذواللسن
 ومنها

هذا هو الاعرج الكلبى فاعن به • فى عصره قن ناهيك من فتن
 يأتي من الشرق فى جيش يقدمهم • عار عن القاف قاف جد بالقتن
 يقتل دال ومثل الشام أجمعها • أبدت بشجوع على الاهابن والوطن
 اذا أتى زلزلت يا ويح • مصر من الزلزال ما زال حاء غـيره قطن
 طاء وظاء وعين كاهم حبسوا • هلكا ويتقن أموالا بلائمن
 يسير القاف قافا عند جمعهم • هون به ان ذاك الحصن فى سكن
 وينصبون أخاه وهو صالحهم • لاسم الالف سين لذارك بنى
 تمت ولايتهم بالحاء لأحد • من السنين يدانى الملك فى الزمن
 يقال انه أشار الى الملك الظاهر وقدوم أبيه عليه بمصر

يأتى اليه أبوه بعد هجرته • وطول غيبته والشطف والزرن

وأبياتها كثيرة والغالب أنهم موضوعة ومثل صنعها كان فى القديم كثيرا ومعروف
 الاتحال (حكى) المورخون لاخبار بغداد أنه كان بها أيام منتدرو رواق ذكى يعرف
 بالداينالى بيل الاوراق ويكتب فيها بخط عتيقير من قيسه بحروف من أسماء أهل الدولة
 ويشير بها الى ما يعرف ميلهم اليه من أحوال الرفعة والجاه كأنها ملاحم ويحصل
 على ما يريد منهم من الدنيا وأنه وضع فى بعض دفاترهم مكررة ثلاث مرات وجاء به
 الى مفلح مولى المنتدرفقال له هذا كتابة عنك وهو مفلح مولى المنتدروذكر عنه ما يرضاه
 ويناله من الدولة ونصب لذلك علامات يؤمها عليه فبذل له ما أغناه به ثم وضعه للوزير
 ابن القاسم بن وهب على مفلح هذا وكان معزولا لاجناءه بأوراق منها وذكرا اسم الوزير

مثل هذه الحروف و بعلامات ذكرها وأنه يلي الوزارة لثاني عشر من الخلفاء وتستقيم
الامور على يديه و يقهر الاعداء و تعمّر الدنيا في أيامه وأوقف مفلحاً هذا على الاوراق
وذكر فيها كواثر أخرى وملاحم من هذا النوع مما وقع ومما لم يقع ونسب جميعه
الى دانيال فأعجب به منقطع ووقف عليه المقتدر واهتدى من تلك الامور والعلامات
الى ابن وهب وكان ذلك سبباً لوزارته مثل هذه الحيلة العربية في الكذب والجهل بمثل
هذه الانغاز والظواهر ان هذه المهمة التي ينسبونها الى الباجر بنى من هذا النوع *
واقدمت الى كمال الدين ابن شيخ الحنفية من العجم بالديار المصرية عن هذه المهمة وعن
هذا الرجل الذي تنسب اليه من الصوفية وهو الباجر بنى وكان عارفاً بطرائقهم فقال
كان من القاندرية المبتدعة في حلق اللحية وكان يتحدث عما يكون بطريق الكشف
ويوحى الى رجال معينين عنده ويبلغز عليهم بحروف بعينها في شأنهم من يراه منهم وربما
ينظرون في آيات قديمة كان يعاهادها فتسوق عنه وواع الناس بها وجعلوها
لمهمة مرموزة وزاد فيها الخراصون من ذلك الجنس في كل عصر وشغل العامة بنك
رموزها وهو أمر ممنوع اذا الرمز انما يهدى الى كنهه فانون يعرف قبله ويوضع له وأما
مثل هذه الحروف فدلائلها على المراد منها مخموصة به هذا النظم لا يتجاوزها فرائد من
كلام هذا الرجل الناضل شفاء لما كان في النفس من أمر هذه المهمة وما كالتهدى
لولا ان هدانا الله والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(الفصل الرابع من الكتاب الاول)

في البلدان

والامصار وسائر العمران وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولو احوق
(فصل) في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانما توجد ثانية عن الملك *
ويانه أن البناء واختطاط المنازل انما هو من منازع الحضارة التي يدعوا اليها الترف
والدعة كما قد سناه وذلك متأخر عن البداوة ومنازعها وأيضاً فالمدن والامصار ذات
عياكل وأجرام عظيمة وبناء كبير وهي موضوعة للعموم لا للخصوص فمحتاج الى
اجتماع الابدى وكثرة التعاون وايست من الامور الضرورية للناس التي تعم بها
البلوى حتى يكون نزوعهم اليها اضطراراً بل لا بد من اكرامهم على ذلك وسوقهم اليه
مضطهدين بعض الملك أو مرغيبين في الثواب والاجر الذي لا يني بكثرة الاملاك والدولة
فلا بد في عصر الامصار واختطاط المدن من الدولة والملك ثم اذا بنيت المدينة وكل
تشيدها بحسب نظر من شيدها وبما اقتضته الاحوال السماوية والارضية فيها فعم
الدولة حينئذ عمر لها فان كان عمر الدولة قصيراً وقف الحال فيها عند انتهاء الدولة

وتراجع عمرانها وخربت وان كان أمد الدولة طويلاً ومدتها منفسحة فلا تزال المصانع فيها نشاد والمنازل الرحبية تكثر وتتعد ونطاق الأسواق يتباعد وينفسح إلى أن تتسع الخطة وتتعد المسافة وينفسح ذراع المساحة كما وقع ببغداد وأمثالها * ذكر الخطيب في تاريخه أن الحمامات بلغت عددها ببغداد لعهد المأمون خمسة وستين ألف حمام وكانت مشتهرة على مدن وأمصار متلاصقة ومتقاربة تتجاوز الأربعة عشر ولم تكن مدينة وحدها يجتمع بها سور واحد لا فراط العمران وكذا حال القيروان وقرطبة والمهدية في الملة الإسلامية وحال مصر القاهرة بعدها فيما بلغنا لهذا العهد وأما بعد انقراض الدولة المشيدة للمدينة فإما أن يكون لضواحي تلك المدينة وما قاربها من الجبال والبساط بادية يمتد بها العمران دائماً فيكون ذلك حافظاً لوجودها ويستمر عمرها بعد الدولة كما تراها بفاس وبجاية من المغرب وبعراق العجم من المشرق الموجود لها العمران من الجبال لأن أهل البداوة إذا انتهت أحوالهم إلى غاياتها من الرفه والكسب تدعو إلى الدعة والسكون الذي في طبيعة البشر فينزلون المدن والأمصار ويتأهلون وأما إذا لم يكن لتلك المدينة المؤسسة مادة تفيدها العمران بتراخي الساكن من بدوها فيكون انقراض الدولة خرقاً لسياساتها فيزول حنظها ويتناقص عمرانها شيئاً إلى أن يذعر ساكنها وتخرب كما وقع بمصر وبغداد والكوفة بالمشرق والقيروان والمهدية وقاعة بني حماد بالمغرب وأمثالها فتفهمه وربما ينزل المدينة بعد انقراض مخطيها الأولين ملك آخر ودولة ثانية يتخذها قراراً وكرسيها يستغنى بها عن اختطاط مدينة ينزلها فتحفظ تلك الدولة سياساتها وتزايدها بمصانعها بتزايد أحوال الدولة الثانية وترفها وتستجد بعمرانها عمراناً آخر كما وقع بفاس والقاهرة لهذا العهد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٢ (فصل في ان الملك يدعو الى نزول الامصار)

وذلك أن القبائل والعصائب إذا حصل لهم الملك اضطروا للائتملاء على الامصار الامرين أحدهما ما يدعوا إليه الملك من الدعة والراحة وخط الأثقال واستكمال ما كان ناقصاً من امور العمران في البدو والثاني دنع ما يتوقع على الملك من أمر المنازعين والمشاعبين لأن المصر الذي يكون في نواحيهم ربما يكون ملجأ لمن يروم منازعتهم والخروج عليهم وانتزاع ذلك الملك الذي سمو اليه من أيديهم فيعتصم بذلك المصر ويغال بهم غالبية المصر على نهاية من الصعوبة والمشقة والمصر يقوم مقام المساكن المتعددة لما فيه من الامتناع ونسكابة الحرب من وراء البلادان من غير حاجة

الى كثير عدد ولا عظيم شوكة لان الشوكة والعصابة انما احتيج اليها في الحرب للثبات
لما يقع من بعد كثرة القوم بعضهم على بعض عند الجولة وثبات هؤلاء بالحدران
فلا يضطرون الى كبير عصابة ولا عدد فيكون حال هذا الحصن ومن يعتصم به من
المضارعين مما يفت في محض الامة التي تروم الاستيلاء ويخضع شوكة استيلائها فاذا
كانت بين اجنابهم اصارا تنظموها في استيلائهم للامن من مثل هذا الانحرام وان
لم يكن هناك مصر استحدثوه ضرورة انكم بل عمر انهم اولا وخطا فقالهم وليكون
شعبا في خلق من بروم العزة والامتناع عليهم من طوائفهم وعصائيرهم فتعين ان الملك
يدعو الى زول الامصار والاستيلاء عليها والله سبحانه وتعالى اعلم وبه التوفيق لارب
سواء

٣ (فصل في ان المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يشيدها الملك الكثير)

قد قدمنا ذلك في آثار الدولة من المباني وغيرها وانها تكون على نسبتها وذلك ان تشيد
المدن انما يحصل باجتماع الفعلة وكثرتهم وتعاونهم فاذا كانت الدولة عظيمة متسعة
الممالك حشر الفعلة من اقطارها وجمعت ايديهم على عملها وربما استعين في ذلك في اكثر
الامر بالهندام الذي يضاعف القوى والقدر في حمل اثقال البناء لعجز القوة البشرية
وضعتها عن ذلك كالمحال وغيره وربما يتوهم كثير من الناس اذا نظر الى آثار
الاقدمين ومصاندهم العظيمة مثل اهرام مصر وحنانيا المعلقة وشرشال
بالمغرب انما كانت بقدرهم متفرقين او مجتمعين فيتحيل لهم اجساما تناسب ذلك اعظم
من هذه بكثير في طولها وقدرها تناسب بينها وبين القدر التي صدرت تلك المباني عنها
ويغفل عن شأن الهندام والمحال وما اقتضته في ذلك الصناعة الهندسية وكثير من
المتغلبين في البلاد يعاين في شأن البناء واستعمال الحيل في نقل الاجرام عند أهل
الدولة المعتمنين بذلك من العجم ما يشهد له بما قلنا، عيانا واكثر آثار الاقدمين انما
العهد تسميها العامة عادية نسبة الى قوم عادل، وهو هم ان مباني عاد ومصانعهم انما
عظمت اعظم اجسامهم وتضاعف قدرهم وليس كذلك فقد نجد آثارا كثيرة من آثار
الذين تعرف مقادير اجسامهم من الامم وهي في مثل ذلك العظم أو اعظم كايوان
كسرى ومباني العبيدين من الشيعة باقر بقرية والصنهاجين وأثرهم باد الى اليوم في
صومعة قلعة بني حماد وكذلك بناء الاغالبية في جامع القيروان وبناء الموحديين في رباط
الفتح ورباط السلطان ابي سعد بن محمد بن عبد الله في المنصورة بازاء تلمسان وكذلك
الحنانيا التي جلب اليها أهل قرطاجنة الماء في القناة انرا كبة عليها ما ناله أيضا لهذا

العهد وغير ذلك من المباني والهيما كل التي نقلت البناء أخبار أهلها قريبا وبعدا
وتيقنا أنهم لم يكونوا بافراط في مقادير أجسامهم وانما هذ رأى واضح به القصاص عن
قوم عاد وعود والعمالقة ونجد بيوت ثمود في الحجر منحوتة الى هذا العهد وقد ثبت في
الحديث الصحيح أنها بيوتهم يمر بها الركب الجحازي أكثر السنين ويشاهدونها لا تزيد
في جوتها ومساحتها وسماكتها على المتعاهد وانهم ليبانعون فيما يعتقدون من ذلك حتى
انهم ليزعمون أن عوج بن عناق من جبل العملاقة كان يتناول السمك من البحر طريا
فيشويه في الشمس يزعمون بذلك أن الشمس حارة فيما قرب منها ولا يعلمون أن الحر فيما
لدينا هو الضوء لانه كاس الشعاع بمقابلة سطح الارض والهواء وأما الشمس في نفسها
فغير حارة ولا باردة وانما هي كوكب مضيء لامرأج له وقد تقدم شيء من هذا في
الفصل الثاني حيث ذكرنا أن آثار الدولة على نسبة قوتها في أصلها والله يخلق ما يشاء
ويحكم ما يريد

٤ (فصل في ان الهيما كل العظيمة جدا لا تستقل ببنائها الدولة الواحدة)

والسبب في ذلك ما ذكرناه من حاجة البناء الى التعاون ومضاعفة القدر البشري به قد
تكون المباني في عظيمها أكثر من القدر مفردة أو مضاعفة بالهندام كما قلناه فيحتاج
الى معارضة قدر أخرى مثلها في أزمنة متعاقبة الى أن تتم فيبتدئ الاقل منهم بالبناء
ويعقبه الثاني والثالث وكل واحد منهم قد استكمل شأنه في حشر الفعلة وجمع الايدي
حتى يتم التصدم من ذلك ويكمل ويكون ما مثلا للعيان يظنه من يراه من الآخري
أنه بناء دولة واحدة وانظر في ذلك ما نقله المؤرخون في بناء ستمأرب وأن الذي بناه
سبا بن يشجب وساق اليه سبعين واديا وعاقه الموت عن اتمامه فأتمه ملوك حمير من بعده
ومثل هذا ما نقل في بناء قرطاجنة وقناتها الراكبة على الحنايا العادية وأكثر المباني
العظيمة في الغالب هذا شأنها ويشهد لذلك أن المباني العظيمة لعهدنا نجد الملك الواحد
يشرع في اختطاطها وتأسيسها فاذا لم يتبع أثره من بعده من الملوك في اتمامها بقيت
بجملها ولم يكمل القصد فيها ويشهد لذلك أيضا ان نجد آثارا كثيرة من المباني العظيمة
نعمز الدول عن هدمها وتخريبها مع أن الهدم أيسر من البناء بكثير لان الهدم رجوع
الى الاصل الذي هو الهدم والبناء على خلاف الاصل فاذا وجدنا بناء تضعف قوتنا
البشرية عن هدمه مع سهولة الهدم علمنا أن القدرة التي أسسته مفرطة القوة وأنها
ليست أتر دولة واحدة وهذا مثل ما وقع للعرب في ايوان كسرى لما اعتزم الرشيد على
هدمه وبعث الى يحيى بن خالد وهو في محبسه يستشيره في ذلك فقال يا أمير المؤمنين
لا تفعل واتركه ما تلا يستدل به على عظيم ملك آتاك الذين سلبوا الملك لاهل ذلك الهيكل

فاتهمه في انصيحة وقال اخذته الذمعة للمعجم والله لا صرع عنه وشرع في هدمه وجمع
الايدي عليه واتخذ له القوس وجماء بالنار وصب عليه الخل حتى اذا أدركه الهجز بعد
ذلك كله وخاف الفضيحة بعث الى يحيى يستشيره بنيا في التجاني عن الهدم فقال يا أمير
المؤمنين لا تفعل واستمر على ذلك لثلاثة ايام عجز أمير المؤمنين وملك العرب عن هدم
مصنع من مصانع المعجم فعرفها الرشيد وأقصر عن هدمه وهكذا اتفق للمأمون
في هدم الاهرام التي بعصر وجمع القعلة لهدمها فلم يحل بطائل وشرعوا في نقيبها فانتهاوا
الى جوبين الحائط الظاهر وما بعده من الحيطان وهناك كان منتهى هدمهم وهو الى
اليوم فيما يقال منقذ ظاهر وزير عم الزاعمون أنه وجد ركازا بين تلك الحيطان والله أعلم
وكذلك حنايا المعلقة الى هذا العهد تحتاج أهل مدينة تونس الى انتخاب الحجارة لبناتهم
وتستعيد الصناعات حجارة تلك الحنايا فيجاولون على هدمها الايام العديدة ولا يسقط
الصغير من جدرانها الا بعد عصب الريق وتجتمع له المحافل المشهورة شهدت منها في
أيام صباي كثيرا والله خلقكم وما تعملون

• (فصل فيما يجب مراعاته في اوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة)

(اعلم) أن المدن قرار يتخذ الامم عند حصول الغاية المطلوبة من الترف ودواعيه فتوتر
الدعة والسكون وتتوجه الى اتخاذ المنازل للقرار ولما كان ذلك للقرار والمأوى
وجب أن يراعى فيه دفع المضار بالحماية من طوارقها وأوجب المنافع وتسهيل المرافق
لها فأما الحماية من المضار فيراعى لها ان يدار على منازلها جميعا سباح الاسوار وان
يكون وضع ذلك في ممتنع من الامكنة اما على هضبة متوعدة من الجبل واما باستدارة بجر
أو نهر بها حتى لا يوصل اليها الا بعد العبور على جسر أو قنطرة فيصعب منالها على
العدو ويتضاعف امتناعها وحصنها وعمارها في ذلك للحماية من الآفات السماوية
طيب الهواء للسلامة من الامراض فان الهواء اذا كان راكدا خبيثا ومجاورا
للمياه الفاسدة أو منافع متعفنة أو مروج خبيثة أسرع اليها العفن من مجاورتها
فأسرع المرض للحيوان السكان فيه لا محالة وهذا ما شاهد والمدن التي لم يراع فيها طيب
الهواء كثيرة الامراض في الغالب وقد اشتهر بذلك في قطر المغرب بلد قابس من بلاد
الجزيد بافر يقية فلا يكاد ساكنها وطارقتها يخلص من حمى العفن بوجه ولقد يقال
ان ذلك حادث فيها ولم تكن كذلك من قبل ونقل البكري في سبب حدوثه أنه وقع فيها
حفر ظهريه انا من فحاس محتوم بالرماس فلما قضى ختامه صعد منه دخان الى
الجنو وانقطع وكان ذلك مبدأ أمراض الحيات فيه وأراد بذلك أن الاناء كان مشتملا

على بعض أعمال الطائعات لوبانه وأنه ذهب سره بذهابه فرجع اليها العفن والوباء
وهذه الحكاية من مذاهب الامامة وباحتمال الركيكة والبكري لم يكن من نباهة العلم
واستنارة البصيرة بحيث يدفع مثل هذا أوتيين خرفه فنقله كما سمع والذي يكشف لك
الحق في ذلك أن هذه الاهوية العفنة أكثر ما يهيتها العفن الاجسام وأمراض
الحيات ركودها فاذا تخلفتها الرية وتفتت وذهبت بها عينا رشمالا خف شأن العفن
والمرض البادي منها للحيوانات والبلد اذا كان كثير الساكن وكثرت حركات أهله
فيتموج الهواء ضرورة وتحدث الريح المنخللة للهواء الراكد ويكون ذلك معينا له على
الحركة والتموج واذا خف الساكن لم يجد الهواء معينا على حركته وتوجهه وبني
ساكنارا كدا وعظم عننه وكثر ضرره وبلد قابس هذه كانت عندما كانت افر بقة
مسجدة العمران كثيرة الساكن توج بأهلها موجافا كان ذلك معينا على تموج
الهواء واضطرابه وتخفيف الاذى منه فلم يكن فيها كثير عفن ولا مرض وعندما خف
ساكنها ركدها هواؤها المتعفن بنسب ادماها فكثر العفن والمرض فهذا وجهه لا غير
وقد رأينا عكس ذلك في بلاد وضعت ولم يراع فيها طيب الهواء وكانت أولا قليلة
الساكن فكانت أمراضها كثيرة فلما كثرت ساكنها اتقل حالها عن ذلك وهذا مثل
دار الملك بفاس لهذا العهد المسمى بالبلد الجديد وكثير من ذلك في العالم فتفهمه تجد
ما قلته لك وأما جلب المنافع والمرافق للبلاد فيراعى فيه امور منها الماء بأن يكون البلد
على نهر أو بياضها عيون عذبة نيرة فان وجود الماء قريبا من البلد يسهل على الساكن
حاجة المياه وهي ضرورة فيكون لهم في وجوده مرفقة عظيمة عامة ومما يراعى من
المرافق في المدن طيب المراعى لسائمتهم اذ صاحب كل قرار لا بد له من دواجن الحيوان
للتاج والضرع والركوب ولا بد لها من المرعى فاذا كان قريبا طيبا كان ذلك ارفق
بها لهم لما يعانون من المشقة في بهده ومما يراعى أيضا المزارع فان الزروع هي الاقوات
فاذا كانت مزارع البلد بالقرب منها كان ذلك أسهل في اتخاذها وأقرب في تحصيله
ومن ذلك الشجر للخطب والبناء فان الخطب مما تم البلوى في اتخاذها لو قود النيران
للاصطلاه والطبخ والخشب أيضا ضروري لتفهمه وكثير مما يستعمل فيه الخشب
من ضرورياتهم وقد يراعى أيضا قريتهم من الصبر لتسهيل الحاجات القاصية من البلاد
النائية الآن ذلك ليس بمنابة الا ولله هذه كلها متفاوتة بتفاوت الحاجات وما تدعو
الضرورة الساكن وقد يكون الواضع غافلا عن حسن الاختيار الطبيعي أو انما
يراعى ما هو أهم على نفسه وقومه ولا يذكّر حاجة غيرهم كما فعله العرب لا قبل الاسلام في
المدن التي اختطوها بالعراق وافريقية فانهم لم يراعوا فيها الا الاهم عندهم من مراعى

الابل وما يصلح لها من الشجر والماء الملح ولم يراعوا الماء ولا المزارع ولا الحطب ولا
 مراعى الساعة من ذوات الطلف ولا غير ذلك كالقبروان والكوفة والبصرة وأمثالها
 ولهذا كانت أقرب الى الخراب للمالم زراع فيها الامور الطبيعية
 (فصل) ومما يراعى في البلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل أو تكون
 بين امة من الامم موفورة العدد تكون صريحا للمدينة متى طرقها طارق من العدو
 والسبب في ذلك أن المدينة اذا كانت حاضرة البحر ولم يكن بساحتها عمران لا قبائل
 أهل العصابات ولا موضعها متوعر من الجبل كانت في غرة للبيات وسهل طرقها في
 الاساطيل البحرية على عدوها وتحميها الميا من وجود الصريح نخ لها وان الحضر
 المتعودين للدعة قد صاروا عيالاً وخرجوا عن حكم المقاتلة وهذه كلاسكندرية من
 المشرق وطرابلس من المغرب وبونة وسلاو متى كانت القبائل والعصاب موطنين
 بقرها بحيث يلفهم الصريح والنعير وكانت متوعرة المسالك على من يرومها
 باختطاطها في هضاب الجبال وعلى أسنحتها كان لها بذلك منعة من العدو ويشوا من
 طرقها لما يكادونه من وعرها وما يتوقعونه من اجابة صريحها كما في سبنة وجبابة وبلد
 القل على صفرها فانهم ذلك واعتبره في اختصاص الاسكندرية باسم الثغر من لدن
 الدولة العباسية مع أن الدعوة من ورائها بركة وافريقية وانما اعتبر في ذلك الخفاة
 المتوقعة فيها من البحر لسهولة وضعها ولذلك والله أعلم كان طرق العدو للاسكندرية
 وطرابلس في الملامرات متعددة والله تعالى أعلم

(فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم)

(اعلم) أن الله سبحانه وتعالى فضل من الارض بقاعا اختصها بتشريفه وجعلها مواطن
 لعبادته يضاعف فيها الثواب وينمو بها الاجور وأخبرنا بذلك على السن رسله وأنبيائه
 لطفابعباده وتسهيل الطرق السعادة لهم • وكانت المساجد الثلاثة هي أفضل بقاع
 الارض حسبا ثبت في الصحيحين وهي مكة والمدينة وبيت المقدس أما البيت الحرام
 الذي بمكة فهو بيت ابراهيم صلوات الله وسلامه عليه أمره الله ببنائه وأن يؤذن في
 الناس بالحج اليه فبناه هو وابنه اسمعيل كما نصه القرآن وقام بما أمره الله فيه ويمكن
 اسمعيل به مع هاجرو من نزل معهم من جرهم الى أن قبضهما الله ودفنا بالبحرين
 • وبيت المقدس بناه داود وسليمان عليهما السلام أمرهما الله ببنائه مسجد ونصب
 هناك ودفن كثير من الانبياء من ولد اسحق عليه السلام حوالبه • والمدينة
 مهاجر نبينا محمد صلوات الله وسلامه عليه أمره الله تعالى بالهجرة اليها واقامة دين

الاسلام بها فبنى مسجده الحرام بها وكان ملحه الشريف في تربتها فهذه المساجد
 الثلاثة قرّة عين المسلمين ومهوى أفئدتهم وعظمة دينهم وفي الآثار من فضلها
 ومضاعفة الثواب في مجاورتها والصلاة فيها كثيره معروف فلنشر الى شئ من الخبر عن
 أولية هذه المساجد الثلاثة وكيف تدرجت أحوالها الى أن كل ظهورها في العالم *
 (فأما مكة) * فأوليتها فيما يقال ان آدم صلوات الله عليه بناها قبالة البيت المعمور ثم
 هدمها الطوفان بعد ذلك وليس فيه خبر صحيح يعول عليه وإنما اقتبسوه من محل الآية
 في قوله واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل ثم بعث الله ابراهيم وكان من
 شأنه وشأن زوجته سارة وغيرتها من هاجر ما هو معروف وأوحى الله اليه أن يترك ابنه
 اسمعيل وأمه هاجر بالفلاة فوضعهما في مكان البيت وسار عنهما وكيف جعل الله
 لهما من اللطف في نبع ماء زمزم ومرور الرقعة من جرهم بهما حتى احتملوهما
 وسكنوا اليهما ونزلوا معهما حوالى زمزم كما عرف في موضعه فالتخذا اسمعيل ووضع
 الكعبة يتأوى اليه وأدار عليه سياجاً من الردم وجعله زراً بالغنم وجاء ابراهيم
 صلوات الله عليه من الزيارته من الشام أمر في آخرها ببناء الكعبة مكان ذلك الزرب
 فبناه واستعان فيه بابنه اسمعيل ودعا الناس الى حجه وبني اسمعيل ساكنه ولما
 قبضت أمه هاجر وقام بنوه من بعده بأمر البيت مع أخوالهم من جرهم ثم العماليق
 من بعدهم واسمهم الحال على ذلك والناس يهرعون اليها من كل أفق من جميع أهل
 الخليقة لامن بني اسمعيل ولامن غيرهم من دنائنا ونأى فقد نقل أن التباينة كانت
 تحج البيت وتعظمه وأن تعكساها الملاء والوصائل وأمر بتطهيرها وجعل لها
 مفضاها ونقل أيضاً أن الفرس كانت تحججه وتقرب اليه وأن غزالي الذهب اللذين
 وجدتهما عبد المطلب حين احتقر زمزم كانا من قرايينهم ولم يزل لجرهم الولاية عليه
 من بعد واد اسمعيل من قبيل خولتهم حتى اذا خرجت خراعة وأقاموا بها بعدهم
 ماشاء الله ثم كثروا واسمعيل وانتشروا وتشعبوا الى كنانة ثم كنانة الى قريش وغيرهم
 وسامت ولاية خراعة فغلبتهم قريش على أمره وأخرجوهم من البيت وملكوا عليهم
 يومئذ قصي بن كلاب فبنى البيت وسقفه بخشب الدوم وجر يد النخل وقال الاعشى

خلفت بشوبى راهب الدور والى * بناها قصي والمضامن بن جرهم

ثم أصاب البيت سيل ويقال حريق وتهدم وأعادوا ببناءه وجمعوا النفقة لذلك من
 أموالهم وانكسرت سفينة بهما حل جدة فاشترى خشبها للسقف وكانت جدرانها فوق
 القامة فجعلوها ثمانية عشر ذراعاً وكان الباب لاصقاً بالارض فجعلوه فوق القامة لتلا
 تدخله السيول وقصرت بهم النفقة عن اتمامه فقصر واعن قواعده وتركوا منه ستة

أذرع وشبرا أداروها بجدار قصير بطاف من ورائه وهو الحجر وبقي البيت على هذا البناء
إلى أن تحصن ابن الزبير بمكة حين دعاه لنفسه وزحفت إليه جيوش يزيد بن معاوية مع
الحسين بن غير السكوني ورمى البيت سنة أربع وستين فأصابه حريق يقال من النقط
الذي رموا به على ابن الزبير فأعاد بناءه أحسن ما كان بعد أن اختلفت عليه الصحابة في
بناؤه واحتج عليهم بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضي الله عنها لولا قومك
حديثو عهد بك كفر لرددت البيت على قواعد إبراهيم ولجعلت لها بين شرقيا وغربيا
فهدمه وكشف عن أساس إبراهيم عليه السلام وجع الوجوه والأكابر حتى عاينوه
وأشار عليه ابن عباس بالتحري في حفظ القبلة على الناس فأدار على الأساس الخشب
ونصب من فوقها الاستار حفظا للقبلة وبعث إلى صنعاء في الفضة والكس فخماها
وسأل عن مقطع الحجارة الأول فجمع منها ما احتاج إليه ثم شرع في البناء على أساس
إبراهيم عليه السلام ورفع جدرانها سبعة وعشرين ذراعا وجعل لها بين لاصتين
بالارض كما روى في حديثه وجعل فرشها وازرها بالرخام وصاغ لها المقابح وصفائح
الأبواب من الذهب * ثم جاء الحجاج لحصاره أيام عبد الملك ورمى على المسجد
بالمجنقات إلى أن تصدعت حيطانها ثم لما نظروا بن الزبير شاو وعبد الملك فيما بناه
وزاده في البيت فأمره به سلمه ورد البيت على قواعد قريش كما هي اليوم ويقال انه
ندم على ذلك حين علم صحة رواية ابن الزبير لحديث عائشة وقال وددت اني كنت حملت
أبا خبيب في أمر البيت وبنائه ما تحمل فهدم الحجاج منها ستة أذرع وشبرا مكان الحجر
وبناها على أساس قريش وسد الباب الغربي وما تحت عنبة بابها اليوم من الباب
الشرقي وترك ساورها لم يغير منه شيئا فكل البناء الذي فيه اليوم بناء ابن الزبير وبنائه
الحجاج في الحائط صله ظاهرة للعيان لجهة ظاهرة بين البناءين والبناء متميز عن البناء
بقدر اصبع شبه الصدع وقد لحم * ويعرض ههنا اشكال قوى لما فاته ما يقوله
الفقهاء في أمر الطواف ويحذر الطائف أن يميل على الشاذروان الدائر على أساس
الجدر من أسفلها فيقع طوافه داخل البيت بناء على ان الجدران إنما قامت على بعض
الأساس وترك بعضه وهو مكان الشاذروان وكذا قالوا في تقبيل الحجر الأسود لا بد
من رجوع الطائف من التقبيل حتى يستوي قائما لا يقع بعض طوافه داخل البيت
وإذا كان الجدران كلها من بناء ابن الزبير وهو غائب على أساس إبراهيم فكيف
يقع هذا الذي قالوه ولا مخلص من هذا إلا بأحد أمرين إما أن يكون الحجاج
عدم جميعه وأعاده وقد نقل ذلك جماعة الآن العيان في شواهد البناء بالتمام ما بين
ابناء بن وغير أحد الثقلين من أعلاء عن الآخر في الصنعة بر ذلك وإما أن يكون

ابن الزبير لم يرد البيت على أساس ابراهيم من جميع جهاته وانما فعل ذلك في الحجر فقط
ليدخله فهي الآن مع كونها من بناء ابن الزبير ليست على قواعد ابراهيم وهذا بعيد
ولا محيص من هذين والله تعالى أعلم ثم ان مساحة البيت وهو المسجد كان فضاء
للطائفين ولم يكن عليه جدران أيام النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر من بعده ثم كثر
الناس فاشترى عمر رضي الله عنه دورا هدمها وزادها في المسجد وأدار عليها جدارا
دون القمامة وفعل مثل ذلك عثمان ثم ابن الزبير ثم الوايد بن عبد الملك وبناه بعد
الرخام ثم زاد فيه المنصور وابنه المهدي من بعده ووقفت الزيادة واستقرت على ذلك
لعهدنا * وتشريف الله لهذا البيت وعنايته به أكثر من أن يحاط به وكفى من ذلك
أن جعله مهبط اللوحى والملائكة ومكانا لا يبادء وفرض شعائر الحج ومناسكها وأوجب
لحرمة من سائر نواحيه من حقوق التعظيم والحق ما لم يوجب له غيره فذبح كل من خالف
دين الاسلام من دخول ذلك الحرم وأوجب على داخله أن يتجرد من المحيط الا ازارا
بستره وحى العائذ به والرائع في مراحه من مواقع الآفات فلا يرام فيه خائف
ولا يصاد له وحش ولا يختط له حجر وحد الحرم الذي يختص بهذه الحرمة من طريق
المدينة ثلاثة أميال الى التسعيم ومن طريق العراق سبعة أميال الى الثانية من جبل
المنقطع ومن طريق الطائف سبعة أميال الى بطن غمرة ومن طريق جدة سبعة أميال
الى منقطع العنابر * هذا شأن مكة وخبرها وتسمى أم القرى وتسمى الكعبة لعلوها
من اسم الكعب ويقال لها أيضا بكة قال الاصمعي لان الناس يذك بعضهم بعضا
اليها أى يدفع وقال مجاهد بابه بكة أبدلوهما بما كما قالوا لاذب ولازم اقرب المخرجين
وقال النخعي بالباه البيت وباليم البلد وقال الزهري بالباه ثم مسجد كله وباليم للهرم
وقد كانت الامم منذ عهد الجاهلية تعظمه والملوك تبت اليه بالاموال والبخائر
كسرى وقيصر وقصة الاسيف وغزالي الذهب النذير وجاهلها عند المطلب حين احتفر
زمزم معروفة وقد وجد رسول الله صلى الله عليه وسلم لم حين افتتح مكة في الجب الذي
كان فيها سبعين ألف أوقية من الذهب مما كان الملوك يهدون للبيت فيها ألف ألف
دينار مكررة مرتين بماتى قنطار وزنا وقال له على بن أبى طالب رضى الله عنه يا رسول
الله لو استغنت بهذا المال على حربك فلم يفعله ثم ذكر لابي بكر فلم يحركه هكذا قال
الازرقى وفي البخارى بسنده الى أبى وائل قال جلست الى شيبه بن عثمان وقال جلس
الى عمر بن الخطاب فقال هممت أن لأدع فيها صفراء ولا يضاء الا قمتها بين المسلمين
قلت ما أنت بما عمل قال ولم قلت فلم يفعله صاحبك فقال هما اللذان يقتدى بهما وخرجه
أبو داود وابن ماجه وأقام ذلك المال الى أن كانت قسنة الافطس وهو الحسن بن

الحسين بن علي بن علي زين العابدين سنة تسع وتسعين ومائة حين غلب على مكة عمده
الى الكعبة فأخذ ما في خزائنها وقال ما تصنع الكعبة بهذا المال موضوعا فيها لا يتفجع
به فحين أحق به نستعين به على حربنا وأخرجناه ونصرف فيه وبطلت الذخيرة من الكعبة
من يومئذ * (وأما بيت المقدس) وهو المسجد الأقصى فكان أول أمره أيام
الصابئة موضع الزهرة وكانوا يقربون اليه الزيت فيما يقربونه يصبونه على العنزة التي
هناك ثم دثر ذلك الهيكل واتخذها بنو اسرائيل حين ملكوها قبله لصلاتهم * وذلك
أن موسى صلوات الله عليه لما خرج بنو اسرائيل من مصر لئلا يكفهم بيت المقدس كما
وعد الله أباهم اسرائيل وأباه اسحق من قبله وأقاموا بأرض السيب أمره الله باتخاذ
قبة من خشب السنت عيز بالوحى مقدارها ووصفها وهياكلها ونمايلها وأن يكون
فيها التابوت ومائدة بصافها ومناارة بقماد بلها وأن يصنع مذبحا للقربان وصف ذلك
كله في التوراة أكمل وصفه صنع القبة ووضع فيها تابوت العهد وهو التابوت الذي
فيه الألواح المصنوعة عوضا عن الألواح المنزلة بالكلمات العشر لما تكسرت ووضع
المذبح عندها وعهد الله الى موسى بأن يكون هرون صاحب القربان ونصبوا
ملك القبة بين خيامهم في السيب يصلون اليها ويقربون في المذبح أمامها ويحرضون
للوحى عندها ولما ملكوا الشام وبقيت تلك القبة قبلتهم ووضعوها على العنزة
بيت المقدس وأراد داود عليه السلام بناء معجده على العنزة مكانها فلم يتم له ذلك
وعهد به الى ابنه سليمان فبناه لأربع سنين من ملكه ونجم مائة سنة من وفاة موسى
عليه السلام واتخذ عمده من الصخر وجعل به صرح الزجاج وغشى أبوابه وحيطانه
بالذهب وصاغها كلها ونمايله وأوعيته ومنارته ومفتاحه من الذهب وجعل في ظهره
قبرا ليضع فيه تابوت العهد وهو التابوت الذي فيه الألواح وجاء به من صهيون بلداً به
داود تامله الأسباز والكهوية حتى وضعه في القبر ووضع القبة والأوعية والمذبح
كل واحد حيث أعد له من المسجد وأقام كذلك ما شاء الله ثم خربه بختنصر بعد
ثمانمائة سنة من بنائه وأحرق التوراة والعصا وصاغ الهياكل ونثر الأجر ثم لما
أعادهم ملوك الفرس بناء عزير بنى اسرائيل لعهد باعانة بهم من ملك الفرس الذي
كانت الولادة لبني اسرائيل عليه من سبي بختنصر وحدهم في بنائه حدودا دون بناء
سليمان بن داود عليهما السلام فلم يتجاوزوها ثم تداولتهم ملوك يونان والفرس والروم
واشتغل الملك امين اسرائيل في هذه المدة ثم لبى خسران من هتكهم ثم امرهم
هيردوس ولبنيه من بعده وبني هيردوس بيت المقدس على بناء سليمان عليه السلام
وتأخر فيه حتى أكمله في ست سنين فلما جاء طاطش من ملوك الروم وغلبهم وملك أمرهم

خرب بيت المقدس ومهد ما وأمر أن يزرع مكانه ثم أخذ الروم يدين المسيح عليه
السلام ودانوا بتعظيمه ثم اختلف حال ملوك الروم في الاخذ بدين النصارى تارة وتركه
أخرى الى أن جاء قسطنطين وتنصرت أمته هيلانه وارتملت الى المقدس في طلب
الخشب التي صلب عليها المسيح بزعمهم فأخبرها القساسة بأنه رمى بخشيبته على الارض
وألقي عليها القمامات والقاذورات فاستخرجت الخشبية و بنت مكان تلك القمامات
كنيسة القمامة كأنها على قبره بزعمهم وخربت ما وجدت من عمارة البيت وأمرت
بطرح الزبل والقمامات على الصخرة حتى غطاها وخرق مكانها جزاء بزعمها المفعول به بقبر
المسيح ثم بنوا بازاء القمامة بيت لحم وهو البيت الذي ولد فيه عيسى عليه السلام ونبي
الامر كذلك الى أن جاء الاسلام وحضر عمر لفتح بيت المقدس وسأل عن العصرة فأرى
مكانها وقد علاها الزبل والتراب فكشف عنها وبنى عليها مسجدا على طريق البداوة
وعظم من شأنه ما أذن الله من تعظيمه وما سبق من أم الكتاب في فضله سبحانه ثم
احتفل الوايد بن عبد الملك في تشييد مسجده على سنن مساجد الاسلام بما شاء الله من
الاحتفال كما فعل في المسجد الحرام وفي مسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة
وفي مسجد دمشق وكانت العرب تسميه بلاط الوليد وألزم ملك الروم أن يعث الفعلة
والمال لبناء هذه المساجد وأن ينقروها بالفسيفساء فأطاع لذلك وتم بناؤها على
ما اقترحه ثم لما ضعف أمر الخلافة أعوام الخمسمائة من الهجرة في آخرها وكانت
في ملكة العبيدين خلفاء القاهرة من الشيعة واختلف أمرهم زحف الفرنجية الى بيت
المقدس فلكوه وملكوا معه عامة ثغور الشام وبنوا على العصرة المقدسة منه كنيسة
كانوا يعظمونها ويقفرون بنائها حتى اذا استقل صلاح الدين بن أيوب الكردي
بملك مصر والشام ومحاربا العبيدين وبدعهم زحف الى الشام وجاهد من كان به من
الفرنجية حتى غلبهم على بيت المقدس وعلى ما كانوا ملكوه من ثغور الشام وذلك نحو
ثمانين وخمسمائة من الهجرة وهدم تلك الكنيسة وأظهر العصرة وبنى المسجد على
النحو الذي هو عليه اليوم لهذا العهد ولا يعرض لك الاشكال المعروف في الحديث
الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن أول بيت وضع فقال مكة قبل ثم أي قال
بيت المقدس قبل فكم بينهما قال أربعون سنة فان المدة بين بناء مكة وبين بناء بيت
المقدس بقدر ما بين ابراهيم وسليمان لأن سليمان بآيه وهو يقف على الالف بكثير
واعلم أن المراد بالوضع في الحديث ليس البناء وإنما المراد أول بيت عين للعبادة ولا يعد
أن يكون بيت المقدس عين لعبادة قبل بناء سليمان مثل هذه المدة وقد نقل أن الصابئة
بنوا على العصرة هيكل الزهرة فلعل ذلك أنها كانت مكانا للعبادة كما كانت الجاهلية

نضع الاصنام والتماثيل حوالى الكعبة وفي جوفها وانصابه الذين بنوا هيكل الزهرة
كانوا على عهد ابراهيم عليه السلام فلا تعد مدة الاربعين سنة بين وضع مكة للعبادة
ووضع بيت المقدس وان لم يكن هنالك بناء كما هو المعروف وأن أول من بنى بيت المقدس
سليمان عليه السلام فتفهمه فقيه حل هذا الاشكال • (وأما المدينة) • وهى
المسماة يثرب فهى من بناء يثرب بن مهلائل من العمالقة وملكها بنو اسرائيل من
أيديهم فيما ملكوه من أرض الجحاز ثم جاؤهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى
حصونها • ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة اليها لما سبق من عناية الله بها
فهاجر اليها ومعه أبو بكر وتبعه أصحابه ونزل بها وبني مسجده وبيوته في الموضع الذى
كان الله قد أعد له لذلك وشرفه فى سابق أزله وآواه أبناء قيلة ونصروه فلذلك سموا
الانصار وعت كلمة الاسلام من المدينة حتى علت على الكلمات وغلب على قومه وفتح
مكة وملكها ووطن الانصار أنه يتحول عنهم الى بلده فأهمهم ذلك فخطبهم رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأخبرهم أنه غير متحول حتى اذا قبض صلى الله عليه وسلم كان ملطه
الشريف بها وجاء فى فضلها من الأحاديث العجيبة ما لا يخفى به ووقع الخلاف بين
العلماء فى تفضيلها على مكة وبه قال مالك رحمه الله لما ثبت عنده فى ذلك من النص
الصريح عن رافع بن خديج أن النبي صلى الله عليه وسلم قال المدينة خير من مكة نقل
ذلك عبد الوهاب فى المعونة الى أحاديث أخرى تبدل بظاهرها على ذلك وخالف أبو
حنيفة والشافعى • وأصبحت على كل حال نانية المسجد الحرام وجنح اليها الامم
بأفدتهم من كل أوب فانظر كيف تدرجت القضية فى هذه المساجد المعظمة لما سبق
من عناية الله لها وتفهم سر الله فى الكون وتدرى بوجه على ترتيب محكم فى أولاد
والدينا • وأما غير هذه المساجد الثلاثة فلا نعلم فى الارض الا ما يقال من شأن مسجد
آدم عليه السلام بسرنديب من جزائر الهند لكنه لم يثبت فيه شئ يعول عليه وقد كانت
للامم فى القديم مساجد يعظمونها على جهة النيابة بزعمهم منها بيوت النار للفرس
وهياكل يونان وبيوت العرب بالجحاز التى أمر النبي صلى الله عليه وسلم بهدمها
فى غزواته وقد ذكر المسعودى منها بيوت النسا من ذكرها فى شئ اذ هى غير مشروعة ولا
هى على طريق دينى ولا يلتفت اليها ولا الى الخبر منها ويكنى فى ذلك ما وقع فى التواريخ
فمن أراد معرفة الاخبار فعليه بها والله يهدى من يشاء سبحانه

٧ (فصل فى ان المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة)

والمسبب فى ذلك أن هذه الاقطار كانت للبربر منذ آلاف من السنين قبل الاسلام وكان

هزانتها كله بدوياً ولم تستوف فيهم الحضارة حتى تستكمل أحوالها والدول التي ملكتهم
 من الأفرنجية والعرب لم يعل أمد ملكهم فيهم حتى ترسخ الحضارة منها فلم تزل عوائد
 البداوة وشؤونها فكانوا اليها أقرب فلم تكثر مبانيهم وأيضاً فالصنائع بعيدة عن البربر
 لأنهم أعرق في البدو والصنائع من نواحي الحضارة وانما تتم المباني بها فلابد من الخندق
 في تعاطيها فلم يكن للبربر اتصال لها لم يكن لهم تشوف إلى المباني فضلاً عن المدن وأيضاً
 فهم أهل عصيات وأنساب لا يخلو عن ذلك جمع منهم والأنساب والعصية أخرج إلى
 البدو وانما يدعو إلى المدن الدعوة والسكون ويصير ساكنة عيالاً على حاميتهما فوجد
 أهل البدو ذلك يستنكفون عن سكنى المدينة أو الإقامة بها ولا يدعو إلى ذلك إلا
 الترف والغنى وقليل ما هو في الناس فلذلك كان عمران أفريقيا والمغرب كله أو أكثره
 بدوياً أهل خيام وظوا عن وقياطن وكنز في الجبال وكان عمران بلاد العجم كله أو أكثره
 قرياً وأمصاراً ورساتيق من بلاد الأندلس والشام ومصر وعراق العجم وأمثالها لأن
 العجم في الغالب ليسوا بأهل أنساب يحافظون عليها ويتناغون في صراحتها والتحامها
 إلا في الأقل وأكثر ما يكون سكنى البدو لأهل الأنساب لأن لغة النسب أقرب وأشد
 فتكون عصيته كذلك وتزرع بصاحبها إلى سكنى البدو والتجافي عن المصر الذي
 يذهب بالبسالة ويصيره عبداً على غيره فافهمه وقس عليه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه
 التوفيق

٨ فصل في ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها
 والى من كان قبلها من الدول

والسبب في ذلك ما ذكرنا مثله في البربر بعينه إذ العرب أيضاً أعرق في البدو وأبعد عن
 الصنائع وأيضاً فكانوا بجانب من الممالك التي استولوا عليها قبل الإسلام ولما تملكوها
 لم ينصح الأمد حتى تستوف رسوم الحضارة مع انهم استغنوا بما وجدوا من مباني
 غيرهم وأيضاً فكان الدين أول الأمر مانعاً من المغالاة في البناء والاسراف فيه
 في غير القصد كما عهد لهم عمر بن أسد نوه في بناء الكوفة بالجارية وقد وقع الحريق
 في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أليات ولا
 تطاولوا في البناء والزمو السنة فزكم الدولة وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس
 أن لا يرفعوا بناً فوق القدر فالولولوما القدر قال ما لا يقر بكم من السرف ولا يخرجكم
 عن القصد فلما بعد العهد بالدين والتخرج في أمثال هذه المقاصد وغلبت طبيعة الملك
 والترف واستخدم العرب أمة الترف وأخذوا عنهم الصنائع والمباني ودعيتهم إليها

حوال الدعة والترف حينئذ شديد والمباني والمصانع وكان عهد ذلك قريبا بتقراض
الدولة ولم ينفسح الامد لكثرة البناء واختطاط المدن والامصار الا قليلا وليس كذلك
غيرهم من الامم فالفرس طالت مدتهم آلافا من السنين وكذلك القبط والنبط والروم
وكذلك العرب الاولى من عاد وثمود والعماليق واليبابعة طالت آمادهم ورسمت
الصنائع فيهم فكانت مبانيهم وهياكلهم أكثر عددا وأبقى على الايام أثرا واستبصر
في هذا تجده كما قلت لك والله وارث الارض ومن عليها

٩ (فصل في ان المباني التي كانت تختطها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل)

والسبب في ذلك شأن البداوة والبعده عن الصنائع كما قدمناه فلا تكون المباني وثيقة
في تشييدها وله والله أعلم وجه آخر وهو أمر به وذلك قلته مراعاتهم لحسن الاختيار
في اختطاط المدن كما قلناه في الممسكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي فإنه
بالتفاوت في هذه تتفاوت جودة المصنوعات من حيث العمران الطبيعي والعرب
بعزل عن هذا وانما يراعون مراعي ابلهم خاصة لا يبألون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو
كثرو لا يبألون عن زكاه المزارع والمنابت والاهوية لانتقالهم في الارض ونقلهم
الحبوب من البلد البعيد وأما الرياح فاقفر مختلف للمهاب كها والظعن كغبل لهم
بطيبها لان الرياح انما تختبث مع القرار والسكنى وكثرة النضلات وانظر لما اختطوا
الكوفة والبصرة والنقير وان كيف لم يراعوا في اختطاطها الامراعي ابلهم وما يقرب
من القفر وسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي لئلا تمدن ولم تكن اهما مادة
تدعهم انهم من بعدهم كما قدمنا أنه يحتاج اليه في حفظ العمران فقد كانت مواطنها غير
طبيعية لئلا قرار ولم تكن في وسط الامم في عمرها الناس فلا وزن وهدية من انحلال أمرهم
وذهاب عصبيتهم التي كانت سببا جالها أتي عليها الخراب والانحلال كأن لم تكن والله
يحكم لامعقب لحكمه

١٠ (فصل في مبادئ الخراب في الامصار)

اعلم ان الامصار اذا اختطت أو لا تكون قليلة المساكن وقليلة آلات البناء من الحجر
والخبر وغيرهما مما يعال على الحيطان عند التائق كالزليج والرخام والريج والزجاج
والفسيفساء والصدف فيكون بناؤها يومئذ وبأولاتها فاسدة فاذا عظم عمران
المدينة وكثرت فيها كثرت الآلات بكثرة الاعمال حينئذ وكثرة الصنائع الى أن تبلغ
غايتها من ذلك كما سبق شأنها فاذا تراجع عمرانها وخفت ما كنها قلت الصنائع لاجل
ذلك فنقصت الاجادة في البناء والاحكام والمعالة عمله بالنسب ثم نقل الاعمال اعم

السكان فيقل جلب الآلات من الحجر والرغام وغيره ماقتفقد ويصير بناؤهم
وتشييدهم من الآلات التي في مبانهم فينقلونها من مصنع الى مصنع لاجل خلاء
أكثر المصانع والقصور والمنازل بقله العمران ونصوره مما كان أولا ثم لاتزال تنقل
من قصر الى قصر ومن دار الى دار الى أن يفقد الكثير منها جله فيعودون الى البداوة
في البناء واتخاذ الطوب عوضا عن الحجارة والقصور عن التمييق بالكلية فيعود بناء
المدينة مثل بناء القرى والمداشر ويظهر عليها سيما البداوة ثم تمر في التناقص الى غايتها
من الخراب ان قدر لها به سنة الله في خلقه

١١ فصل في ان تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهلها ونفاق
الاسواق انما هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلة

والسبب في ذلك أنه قد عرف وثبت أن الواحد من البشر غير مستقل بتحصيل حاجاته
في معاشه وأنهم متعاونون جميعا في عمرانهم على ذلك والحاجة التي تحصل بتعاون
طائفة منهم تشتد ضرورة الاكثروا من عددهم أضعافا بالقوت من الخنطة مثلا لا يستقل
الواحد بتحصيل حصته منه واذا انتدب لتحصيله الستة أو العشرة من حداد ونجار
للآلات وقائم على البقر واثارة الارض وحصاد السنبل وسائر مؤن الفسخ وتوزعوا
على تلك الاعمال أو اجتمعوا وحصل بعملهم ذلك مقدار من القوت فانه حينئذ قوت
لاضعافهم مرات فالاعمال بعد الاجتماع زائدة على حاجات العاملين وضروراتهم
فأهل مدينة أو مصر اذا وزعت أعمالهم كلها على مقدار ضرورتهم وحاجاتهم اكنى
فيها بالاقبل من تلك الاعمال وبقيت الاعمال كلها زائدة على الضرورات فتصرف
في حالات الترف وعوائده وما يحتاج اليه غيرهم من أهل الامصار ويستجلبونه منهم
بأعواضه وقيمه فيكون لهم بذلك حظ من الغنى وقد بينك في الفصل الخامس في باب
الكسب والرزق أن المكاسب انما هي قيم الاعمال فاذا كثرت الاعمال كثرت قيمها بينهم
فكثرت مكاسبهم ضرورة ودعتهم أحوال الرفه والغنى الى الترف وحاجاته من التأتق
في المساكن والملابس واستعبادة الآتية والماعون واتخاذ الخدم والمراكب وهذه
كلها أعمال تستدعي بقيمتها ويختار المهرة في صناعتها والقيام عليها فتستفق أسواق
الاعمال والصنائع ويكثر دخل المصروخرجه ويحصل اليسار لمتعلقي ذلك من قبل
أعمالهم ومتى زاد العمران زادت الاعمال ثانيا ثم زاد الترف تابع الكسب وزادت
عوائده وحاجاته واستتبقت الصنائع لتحصيلها فزادت قيمها وتضاعف الكسب
في المدينة لذلك ثانيا ونفقت سوق الاعمال بها أكثر من الأول وكذا في الزيادة الثانية

والثالثة لان الاعمال الزائدة كلها تختص بالترف والغنى بخلاف الاعمال الاصلية
التي تختص بالمعاش فالمصر اذا فضل بعمران واحد فضله بزيادة كسب ورفه وبه واند
من الترف لا توجد في الاخر فا كان عمرانه من الامصاراً كثيراً وفر كان حال أهله
في الترف أبلغ من حال المصر الذي دونه على وتيرة واحدة في الاصناف القاذي مع
القاضي والتاجر مع التاجر والصانع مع الصانع والسوق مع السوق والامير
مع الامير والشرطي مع الشرطي * واعتبر ذلك في المغرب مثلاً بحال فاس مع
غيرها من امصاره الاخرى مثل بجاية وتلمسان وسبتة تجديينها. بابونا كثيراً على الجملة ثم
على الخصوصيات فحال القاضي بفاس أوسع من حال القاضي بتلمسان وهكذا كل
صنف مع صنف أهله وكذلك أيضاً حال تلمسان مع وهران أو الجزائر وحال وهران
والجزائر مع مادونهم ما الى أن تنتهي الى المداشر الذين اعتمالهم في ضروريات معاشهم
فقط ويقصرون عنها وما ذلك الالتفات الاعمال فيها فكأنها كلها أسواق للاعمال
والخرج في كل سوق على نسبه فالقاضي بفاس دخله كفاء خرجته وكذا القاضي بتلمسان
وحيث الدخل والخرج أكثر تكون الاحوال أعظم وهم بفاس أكثر لئذا في سوق
الاعمال بما يدعوا اليه الترف فالاحوال أضخم ثم كذا حال وهران وقسنطينة والجزائر
وبسكرة حتى تنتهي كما قلنا الى الامصار التي لا توفى أعمالها بضروراتها ولا تعد
في الامصار اذهى من قبيل القرى والمداشر فلذلك تجدد أهل هذه الامصار الصغيرة
ضعفاء الاحوال متقاربين في الفقر والخصاصة لما أن أعمالهم لا تفي بضروراتهم ولا
يفضل ما يتأثرونه كسباً فلا تنوم كاسبهم وهم لذلك مساكين محجوجين الا في الاقل
النادر واعتبر ذلك حتى في احوال الفقراء والسؤال فان السائل بفاس أحسن حالاً
من السائل بتلمسان أو وهران ولقد شاهدت بفاس السؤال بألون أيام الاضاحي
أثمان ضحاياهم ورأيتهم بألون كثيراً من احوال الترف واقترح المالك كل مثل سؤال
اللحم والسمن وعلاج الطبخ والابس والماعون كالغريبال والآنية ولو سأل سائل
مثل هذا بتلمسان أو وهران لاستنكر وعنف وزجروا يلغنا لهذا العهد عن احوال
القاهرة ومصر من الترف والغنى في عواندهم ما يقضى منه العجب حتى ان كثيراً من
الفقراء بالمغرب ينزعون من النقلة الى مصر لذلك ولما يبلغهم من أن شأن الرفه بمصر
أعظم من غيرها ويعتقد العامة من الناس أن ذلك لزيادة ايتار في أهل تلك الآفاق
على غيرهم أو أموال مختزنة لديهم وأنهم أكثر صدقة وايتاراً من جميع أهل
الامصار وليس كذلك وانما هو لما تعرفه من أن عمران مصر والقاهرة أكثر من عمران
هذه الامصار التي لديك فعظمت لذلك احوالهم * وأما حال الدخل والخرج

فتكافئ في جميع الامصار ومتى عظم الدخل عظم الخرج وبالعكس ومتى عظم الدخل
والخرج اتسعت احوال الساكن ووسع المصر كل شئ يلفك من مثل هذا فلا تنكره
واعتبره بكرة العمران وما يكون عنه من كثرة المكاسب التي يسهل بسببها البذل
والايتار على مبتغيه ومثله بشأن الحيوانات العجم مع بيوت المدينة الواحدة وكيف
يختلف احوالها في هجرانها أو غشيانها فان بيوت أهل النعم والثروة والموائد الخصبه
منها تكدر بساحتها وأقنيتها بنثر الجيوب وسواقط القنات فيزدحم عليها غواشي النمل
والخشاش ويخلق فوقها عصاب الطيور حتى تزوح بطانها وتمتلئ شجعا وريا وبيوت
أهل الخصاصه والفقراء الكاسده أرزاقهم لا يسرى بساحتها ديب ولا يخلق بجوتها
طائر ولا تاوى الى زوايا بيوتهم فارة ولا هرة كما قال الشاعر

تسقط الطير حيث تلتقط الحب وتغشى منازل الكرماء

فتأمل سر الله تعالى في ذلك واعتبر غاشية الاناس بغاشية العجم من الحيوانات زقنات
الموائد بفضلات الرزق والترف وسهولتها على من يسذلها لاستغنائهم عنها في الاكثر
لوجود امثالها لديهم واعلم أن اتساع الاحوال وكثرة النعم في العمران تابع لكثرة
والله سبحانه وتعالى أعلم وهو غني عن العالمين

١٢ (فصل في اسعار المدن)

اعلم أن الاسواق كلها تشتمل على حاجات الناس فيها الضروري وهي الاقوات من
الحنطة وما في معناها كالباقلا والبصل والثوم وأشباهه ومنها الحاجي والكالي
مثل الادم والفواكه والملابس والماعون والمراكب وسائر المصانع والمباني فاذا
استجر المصر وكثرت ما كنه رخصت اسعار الضرورى من التوت وما في معناه وغلت
اسعار الكالي من الادم والفواكه وما يتبعها واذا قل ساكن المصر وضعف عمرانها
كان الامر بالعكس * والسبب في ذلك أن الجيوب من ذرورات التوت فتتوفر
الدواعي على اتخاذها اذ كل احد لا يهمل قوت نفسه ولا قوت منزله لشهره أو سنته فيعم
اتخاذها أهل المصر أجمع أو الاكثر منهم في ذلك المصر أو فيما قرب منه لا بد من ذلك
وكل متخذ لقوته فتفضل عنه وعن أهل بيته فضله كبيرة تستدخله كثيرين من أهل
ذلك المصر فتفضل الاقوات عن أهل المصر من غير شك فترخص اسعارها في الغالب
الا ما يصيبها في بعض السنين من الآفات السماوية ولولا احتكار الناس لها لما
يتوقع من تلك الآفات لبذلت دون ثمن ولا عوض لكثرتها بكرة العمران * وأما
سائر المرافق من الادم والفواكه وما اليها فانها لاتعم بها البلوى ولا يستغرق اتخاذها

أعمال أهل مصر أجمعين ولا الكثير منهم ثم إن المصر إذا كان مستجراً موفور
العمران كثير حاجات الترف توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار
منها كل بحسب حاله في قصر الموجود منها على الحاجات قصوراً بانغاويكثير المستامون
لها وهي قليلة في نفسها فتزدحم أهل الاغراض ويبدل أهل الرفه والترف أثمانها
بأسراف في الغلاء لحاجتهم اليها أكثر من غيرهم فيقع فيها الغلاء كتره * وأما
الصنائع والأعمال أيضاً في الامصار الموفورة العمران فبسبب الغلاء فيها أمور ثلاثة
الأول كثرة الحاجة لمكان الترف في مصر بكثرة عمرانها والثاني اعتزاز أهل الأعمال
بخدمتهم وامتهان أنفسهم بسهولة المعاش في المدينة بكثرة أقواتها والثالث كثرة
المترفين وكثرة حاجاتهم الى امتهان غيرهم والى استعمال الصنائع في مهنتهم فيبدلون في
ذلك لأهل الأعمال أكثر من قيمة أعمالهم من حاجة ومنافسة في الاستئثار بها فيعتبر
العمال والصنائع وأهل الحرف وتغلوا أعمالهم وتكثر نفقات أهل المصر في ذلك *
وأما الامصار الصغيرة والقليلة الساكن فاقواتهم قليلة لقله العمل فيها وما يتوقعونه
لصغر مصرهم من عدم القوت فيتمسكون بما يحصل منه في أيديهم ويحتكرونه فيعز
وجوده لديهم وينالون منه على دستامه وأما مرافقهم فلا تدعو اليها أيضاً حاجة بقلة
الساكن وضعف الاحوال فلا تنفق لديهم سوقه فيختص بالرخص في سعره وقد يدخل
أيضاً في قيمة الاقوات قيمة ما يعرض عليها من المكوس والمغارم للسلطان في الاسواق
وأبواب الحضر والحياة في منافع وصولها عن البيوعات لما يسهم وبذلك كانت الاسعار
في الامصار أعلى من الاسعار في البادية إذ المكوس والمغارم والقراض قليلة
لديهم أو معدومة وكثرة في الامصار لا سيما في آخر الدولة وقد تدخل أيضاً في قيمة
الاقوات قيمة علاجها في الفلج ويحافظ على ذلك في أسعارها كما وقع بالاندلس لهذا
العهد وذلك أنهم لما ألبأهم النصارى الى سيف البحر وبلاده المتوعدة الخبيثة الزراعة
النسكة النبات وما كوا عليهم الارض الزاكية والبلد الغيب فاحتاجوا الى
علاج المزارع والقدن لاصلاح نباتها وفلحها وكان ذلك العلاج بأعمال ذات قيم ومواد
من الزبل وغيره لها مؤنة وصارت في فلحهم نفقات لها خطر فاعتبروها في سعرهم واختص
قطر الاندلس بالغلاء منذ اضطرهم النصارى الى هذا المعمور بالاسلام مع سواحلها
لاجل ذلك وبحسب الناس اذا سمعوا بغلاء الاسعار في قطرهم أنها لقله الاقوات
والحبوب في أرضهم وليس كذلك فهم أكثر أهل المعمور فلما فيما علمناه وأقودهم
عليه وقل أن يخلو منهم سلطان أو سوقة عن فدان أو مزرعة أو فحل الاقليل من أهل
الصنائع والمهن أو الطراء على الوطن من الغزاة انجاهدين ولهذا يحتصهم السلطان

في عطائهم بالعولة وهي أقواتهم وعلوفاتهم من الزرع وانما السبب في غلاء سعر
 الحبوب عندهم ما ذكرناه * ولما كانت بلاد البربر بالعكس من ذلك في زكاه
 منابتهم وطيب أرضهم ارتفعت عنهم المئون جله في الفلح مع كثرة وعمومه فصار
 ذلك سببا لخص الاقوات ببلدهم والله مقدر الليل والنهار وهو الواحد القهار لا رب
 سواه

١٣ (فصل في قصور اهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران)

والسبب في ذلك أن المصر الكثير العمران يكثر ترفه كما قدمناه وتكثر حاجات ساكنه
 من أجل الترف وتعداد تلك الحاجات لم يلدعوا اليها فتنقلب ضرورات وتصير فيه الاعمال
 كلها مع ذلك عزيزة والمرافق عالية بازدياد حاجات الاغراض عليها من أجل الترف وبالمغارم
 السلطانية التي توضع على الاسواق والبياعات وتعتبر في قيم المبيعات ويعظم فيها الغلاء
 في المرافق والاقوات والاعمال فتكثر لذلك نفقات ساكنه كثرة بالغلة على نسبة عمرانه
 ويعظم خرجه فيحتاج حينئذ الى المال الكثير للنفقة على نفسه وعياله في ضرورات
 عيشتهم وسائر مؤنهم والبدوى لم يكن دخله كثيرا اذا كان ساكنا كما يمكن تاسد الاسواق
 في الاعمال التي هي سبب الكسب فلم يتأهل كسبا ولا مالا فيتعذر عليه من أجل ذلك
 سكنى المصر الكبير لغلاء مرافقه وعزة حاجاته وهو في بدو يسد خلته باقل الاعمال
 لانه قليل عوائد الترف في معاشه وسائر مؤنونه فلا يضطر الى المال وكل من يتشوف الى
 المصر وسكانه من أهل البادية فسريع ما يظهر عجزه ويفتضح في استبطانه الامن يقدم
 منهم تأهل المال ويحصل له منه فوق الحاجة ويجري الى الغاية الطبيعية لاهل العمران
 من الدعة والترف حينئذ ينتقل الى المصر وينتظم حاله مع احوال أهله في عوائدهم
 وترفهم وهكذا شأن بداية عمران الامصار والله بكل شيء محيط

١٤ (فصل في ان الاقطار في اختلاف احوالها بالرفه والفقر مثل الامصار)

(اعلم) أن ما توفر عمرانها من الاقطار وتعددت الامم في جهاتها وكثرت ساكنها اتسعت
 احوال أهلها وكثرت أموالهم وأمصارهم وعظمت دولهم وممالكهم * والسبب في ذلك
 كله ما ذكرناه من كثرة الاعمال وما ساقى ذكره من أن سبب الثروة بما ينهل عنها بعد
 الوفاء بالضروريات في حاجات الساكن من الفضلة البالغة على مقدار العمران
 وكثرته فيعود على الناس كسباية ثلونه - بما ذكرنا في فصل المعاش وبيان الرزق
 والكسب فيستزيد الرفه لذلك وتتسع الاحوال ويحجب الترف والغنى وتكثر الجباية
 للدولة بتفاق الاسواق فيكثر مالها ويشمخ سلطانها وتتفنن في اتخاذ المعامل والحصون

واختطاط المدن وتشديد الامصار * واعتبر ذلك بأقطار المشرق مثل مصر والشام
وعراق العجم والهند والصين وناحية الشمال كلها وأقطارها وراة البحر الرومي لما
كثر عمرانها كيف كثر المال فيهم وعظمت دولتهم وتعددت مدنها وحواسرهم
وعظمت متاجرهم وأحوالهم فالذي نشاهده لهذا العهد من أحوال تجار الامم
النصرانية الواردين على المسلمين بالمغرب في رفاههم واتساع أحوالهم أكثر من أن
يحيط به الوصف وكذا تجار أهل المشرق وما يبلغنا عن أحوالهم وأبلغ منها أحوال
أهل المشرق الاقصى من عراق العجم والهند والصين فإنه يبلغنا عنهم في باب الغنى
والرفه غرائب تسير الزكبان بحديثها وربما تلقى بالانكار في غالب الامر ويحسب من
يسمعها من العامة أن ذلك لزيادة في أموالهم أولان المعادن الذهبية والفضية أكثر
بأرضهم أولان ذهب الاقدمين من الامم استأثروا به دون غيرهم وليس كذلك فعند
الذهب الذي نعرفه في هذه الاقطار انما هو من بلاد السودان وهي الى المغرب أقرب
وجميع ما في أرضهم من البضاعة فانما يجلبونه الى غير بلادهم للتجارة فلو كان المال
عند امم فورالديهم لما جلبوا بضائعهم الى سواهم يبتغون بها الاموال ولا استغنوا
عن أموال الناس بالجملة * ولقد ذهب المنجمون لما رأوا مثل ذلك واستغربوا ما في
المشرق من كثرة الاحوال واتساعها ووفور أموالها فقالتوا بان عطايا الكواكب
والسهام في مواليد أهل المشرق أكثر منها حصصا في مواليد أهل المغرب وذلك
صحيح من جهة المطابقة بين الاحكام النجومية والاحوال الارضية كما قلناه وهم انما
أعطوا في ذلك السبب النجمي وبقى عليهم أن يعطوا السبب الارضي وهو ما ذكرناه
من كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق وأقطاره وكثرة العمران تفيد كثرة
الكسب بكثرة الاعمال التي هي سببه فلذلك اختص المشرق بالرفه من بين الآفاق
لأن ذلك لجزء الاثر النجمي فقد فهمت مما أشيرنا لك أولا أنه لا يستقل بذلك وأن
المطابقة بين حكمه وعمران الارض وطبيعتها أمر لا بد منه * واعتبر حال هذا
الرفه من العمران في قطر افريقية وبرقة لما خف سكنها وتناقص عمرانها كيف تلاشت
أحوال أهلها وانتهوا الى الفقر والخصاصة وضعفت جباياتها فقلت أموال دولها
بعد أن كانت دول الشيعة وصنهاجة به اعلى ما بلغك من الرفه وكثرة الجبايات واتساع
الاحوال في نفقاتهم وأعطياتهم حتى لقد كانت الاموال ترفع من القبروان الى
صاحب مصر لحاجاته ومهماتة وكانت أموال الدولة بحيث حمل جوهر الكاتب في
سفره الى فتح مصر ألف حمل من المال يستعدها لارزاق الجنود واعطياتهم ونفقات
الغزاة وقطر المغرب وان كان في القديم دون افريقية فلم يكن بالتفصيل في ذلك وكانت

أحواله في دول الموحدين متسعة وجباياته موفورة وهو لهذا العهد قد أقصر عن ذلك
لقصور العمران فيه وتناقصه فقد ذهب من عمران البربر فيه أكثره ونقص عن معهوده
نقصا ظاهرا محسوسا وكاد أن يلحق في أحواله بمثل أحوال أفريقية بعد أن كان عمرانها
متصلا من البحر الرومي إلى بلاد السودان في طول ما بين السوس الأقصى وبرقة وهي
اليوم كهما أراضا أكثرها قفار وخلاء وصحارى الاماء ومنها بسيف البحر أو ما يقاربه
من التلول والله وارث الارض ومن عليها وهو خير الوارثين

١٥ (فصل في تأثيل العقار والضيايع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها)

(اعلم) أن تأثيل العقار والضيايع الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة
ولا في عصر واحد اذ ليس يكون لاحد منهم من الثروة ما يملك به الاملاك التي تخرج قيمها
عن الحد ولو بلغت أحوالهم في الرفه ما عسى أن تبلغ وانما يكون ملكهم وتامهم لها
تدريجيا ما بالوراثة من آبائه وذوى رحمه حتى تتأذى أملاك الكثيرين منهم الى الواحد
وأكثر ذلك أو أن يكون بحوالة الاسواق فان العقار في آخر الدولة وأول الاخرى
عند فناء الحامية وخرق السياج وتداعى المصر الى الخراب تقل الغبطة به لقله المنفعة
فيها يتلانى الاحوال فتخص قيمها وتملك بالاعمان اليسيرة وتخطى بالميراث الى ملك
آخر وقد استجد المصر شبابه باستفعال الدولة الثانية وانتظمت له أحوال راقية حسنة
تحمل معها الغبطة في العقار والضيايع لكثرة منافعها حينئذ فتعظم قيمها ويكون
لها خطر لم يكن في الاول وهذا معنى الحوالة فيها او يصبح مال كها من أغنى أهل المصر
وليس ذلك بسعيه واكتسابه اذ قدرته تعجز عن مثل ذلك * وأما فوائد العقار
والضيايع فهي غير كافية لما يكها في حاجات معاشه اذ هي لا تفي بعوائد الترف وأسبابه
وانما هي في الغالب لسد الخلة ونمرورة المعاش والذي سمعناه من مشيخة البلدان
أن القصد باقتناء الملك من العقار والضيايع انما هو الخشية على من يترك خلفه من
الذرية الضعفاء ليكون مربيهم به ورزقهم فيه ونشؤهم بفائدته ماداموا عاجزين عن
الاكتساب فاذا اقتدروا على تحصيل المكاسب سعوا فيها بأنفسهم وربما يكون من
الولد من يعجز عن التكسب لضعف في بدنه أو آفة في عقله المعاشي فيكون ذلك العقار
قواما لحاله هذا فصد المترفين في اقتنائه وأما التمول منه واجراء أحوال المترفين فلا
وقد يحصل ذلك منه لا قليل أو النادر بحوالة الاسواق وحصول الكثرة البالغة منه
والعالي في جنسه وقيمه في المصر الا أن ذلك اذا حصل ربما امتدت اليه أعين الامراء
والولاة واعتصبوه في الغالب أو أرادوه على بيعه منهم ونالت أصحابه منه مضار

وذلك أن الحضري اذا عظم تموله وكثر للعقار والضياع تأمله وأصبح أغنى أهل المصر
ورمقته العيون بذلك وانفسحت أحواله في الترف والعوائد زاد حرم عليها الامراء
والمولك وغصوبه وبما في طباع البشر من العدوان تمتد أعينهم الى تلك ما بيده
وينافسونه فيه ويحيلون على ذلك بكل ممكن حتى يحصلونه في رتبة حكم سلطانى وسبب
من المواخذة ظاهر يتزع به ماله وأكثرا الاحكام السلطانية جائرة في الغالب اذا العدل
المحض انما هو في الخلافة الشرعية وهي قليلة اللبث قال صلى الله عليه وسلم
الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم تعود ملكا عضوا فلا بد حينئذ لصاحب المال والثروة
الشهيرة في العمران من حامية تدود عنه وجاه ينسحب عليه من ذى قرابة للملك أو
خالصة له أو عصبية يتحماها السلطان فيستظل بظلمها ويرقع في أمنها من طوارق
التعدى وان لم يكن له ذلك أصبح نهبا بوجوه التحيلات وأسباب الحكام والله يحكم
لامعقب لحكمه

فصل في ان الحضارة في الامصار من قبل الدولة وانها ترمخ باتصال الدولة ورسومها

والسبب في ذلك أن الحضارة هي أحوال عادية زائدة على الضرورى من أحوال
العمران زيادة تتفاوت بتفاوت الرفه وتفاوت الأمم في القلة والكثرة تفاوتها غير
منحصر وتقع فيها عند كثرة التقنى في أنواعها وأصنافها فتكون بمنزلة الصنائع ويحتاج
كل صنف منها الى القومة عليه والمهارة فيه وبقدر ما يتزايد من أصنافها تتزايد أهل
صناعاتها ويتلون ذلك الجليل بها ومتى اتصلت الايام وتعاقت تلك الصناعات حذق
أولئك الصنائع في صناعاتهم ومهروا في معرفتها والاعصار بطولها وانفساح أمدها
وتكريرا مشالها تزيدها استحكاما ورسوخا وأكثر ما يقع ذلك في الامصار لاستبحار
العمران وكثرة الرفه في أهلها وذلك كله انما يجي من قبل الدولة لان الدولة تجمع
أموال الرعية وتنفقها في بطانتها ورجالها وتتسع أحوالهم بالجاه أكثر من انساعها
بالمال فيكون دخل تلك الاموال من الرعايا وخرجها في أهل الدولة ثم فيمن تعلق بهم من
أهل المصر وهم الاكثرة عظم لذلك ثروتهم ويكثر غناهم وتزيد عوائد الترف ومذاهبه
وتستحسبهم لديهم الصنائع في سائر فنونه وهذه هي الحضارة ولهذا تجد الامصار
التي في القاصية ولو كانت موفورة العمران تغلب عليها أحوال البداوة وتبعد عن
الحضارة في جملة مذاهبها بخلاف المدن المتوسطة في الاقطار التي هي مركز الدولة

ومقرها وما ذاك إلا لجاورة السلطان لهم وفيض أمواله فيهم - ثم كالماء ينحصر ما قرب منه فما قرب من الأرض إلى أن ينتهي إلى الجحوف على البعد وقد قدّمنا أن السلطان والدولة سوق للعالم فالبضائع كلها موجودة في السوق وما قرب منه وإذا بعدت عن السوق افتقدت البضائع جملة ثم إنه إذا اتصلت تلك الدولة وتعاقب ملوكها في ذلك المصير واحد بعد واحد استحكمت الحضارة فيهم وزادت رسوخا واعتبر ذلك في اليهود لما طال ملكهم بالشام نحو من ألف وأربعمائة سنة رسيخت حضارتهم وخذقوا في أحوال المعاش وعوائدهم والتقن في صناعاتهم من المطاعم والملابس وسائر أحوال المنزل حتى أنها اتخذت عندهم في الغالب إلى اليوم ورسيخت الحضارة أيضا وعوائدها في الشام منهم - ومن دولة الروم بعدهم ستمائة سنة فكانوا في غاية الحضارة * وكذلك أيضا القبط دام ملكهم في الخليفة ثلاثة آلاف من السنين فرسيخت عوائدهم الحضارة في بلادهم مصر وأعتبهم بها ملك اليونان والروم ثم ملك الإسلام الناسخ للكل فلم تزل عوائد الحضارة بهما متصلة وكذلك أيضا رسيخت عوائد الحضارة باليمن لاتصال دولة العرب بهما منذ عهد العماليق والنبابعة الآف من السنين وأعتبهم لأنه مصر وكذلك الحضارة بالعراق لاتصال دولة الزبط والفرس بهما - لن الكلدانيين والسكانيين والكسروية والعرب بعدهم الآف من السنين فلم يكن على وجه الأرض لهذا العهد أحضر من أهل الشام والعراق ومصر وكذلك أيضا رسيخت عوائد الحضارة واستحكمت بالاندلس لاتصال الدولة العظيمة فيها للتقوط ثم ما أعتبها من ملك بني أمية الآف من السنين وكلتا الدولتين عظيمة فاتصلت فيها عوائد الحضارة واستحكمت * وأما إفريقية والمغرب فلم يكن بها قبل الإسلام ملك ضخم انما قطع الأفرنجية إلى إفريقية البحر وملكوا الساحل وكانت طاعة البربر أهل الضاحية لهم - ثم طاعة غير مستحكمة فكانوا على قلعة وأقار وأهل المغرب لم تجاورهم دولة وانما كانوا يعثون بطاعتهم إلى القوط من وراء البحر ولما جاء الله بالإسلام وملك العرب إفريقية والمغرب لم يلبث فيهم ملك العرب الاقلام أول الإسلام وكانوا ذلك العهد في طور البداوة ومن استقر منهم بإفريقية والمغرب لم يجديهم - ما من الحضارة ما يتلذذ فيه من سلفه اذ كانوا برابرة منغمسين في البداوة ثم انتفض برابرة المغرب الاقصى لا قرب العهد على يد ميمونة المظفرى أيام هشام بن عبد الملك ولم يراجعوا من العرب بعد واستقلوا بأمر أنفسهم وان يابعدوا لا دريس فلا تعد دولته فيهم عريضة لان البرابرة الذين تولوها ولم يكن من العرب فيها كثير عدد وبقيت إفريقية للاغلبة ومن اليهم من العرب وكان لهم من الحضارة بعض الشيء بما حصل لهم - من طرف الملك ونعيمه وكثرة عمران لقبروان

وورث ذلك عنهم كلمة ثم صنهاجة من بعدهم وذلك كله قليل لم يبلغ أربع مائة سنة
 وانصرت دولتهم واستحالت صبغة الحضارة بما كانت غير مستحكمة وتغلب بدو
 العرب الهلاليين عليها وخربوها وبقى أثر خفي من حضارة العمران فيها والى هذا العهد
 يؤنس فبين سلفه بالقلعة أو القبر أو المهدية سلف فجدله من الحضارة في شؤون
 منزله وعوائده أحواله آثارا منسوبة بغيرها يميزها الحضري البصر بها وكذا في أكثر
 أمصار إفريقيا وليس ذلك في المغرب وأمصاره لرسوخ الدولة بإفريقية أكثر أمدا منذ
 عهد الانغالبة والشيعة وصنهاجة وأما المغرب فاتقل اليه منذ دولة الموحدين من
 الاندلس حظ كبير من الحضارة واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء
 على بلاد الاندلس وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها وكانت من اتساع النطاق
 ما علمت فكان فيها حظ صالح من الحضارة واستحكمت بها رعاياها من أهل الاندلس
 ثم انتقل أهل شرق الاندلس عند جالية النصارى الى إفريقيا فأبقوا فيها وبأمصارها
 من الحضارة آثارا ومعظمها يتوزع امتزجت بحضارة مصر وما ينقله المسافرون من
 عوائدها فكان بذلك للمغرب وإفريقية حظ صالح من الحضارة عنى عليه الخلاء ورجع
 على أعقابهم وعاد البربر بالمغرب الى أديانهم من البدائية واخترتة وعلى كل حال فالآثار
 الحضارة بإفريقية أكثر منها بالمغرب وأمصار ملاتداول فيها من الدول السالفة أكثر
 من المغرب ولقرب عوائدهم من عوائد أهل مصر بكثرة المترددين بينهم - فتتظن
 لهذا السرفانه خفي عن الناس واعلم أنها هور متناسبة وهي حال الدولة في الفترة
 والضعف وكثرة الامة أو الجليل وعظام المدينة أو المصر وكثرة النخلة واليسار
 وذلك أن الدولة والملك صورة الخليفة والعمران وكلها مادتها من الرعايا والامصار
 وسائر الاحوال وأموال الجباية عائدة عليهم ويسارهم في الغالب من أحوالهم
 ومتاجرهم واذا أفاض السلطان عطاءه وأمواله في أهلها التبت فيهم ورجعت اليه
 ثم اليهم منه فهى ذاهبة عنهم في الجباية والخراج عائدة عليهم في العطاء فعلى نسبة حال
 الدولة يكون يسار الرعايا وعلى نسبة يسار الرعايا وكبرتهم يكون حال الدولة وأهمه
 كله العمران وكثرته فاعتبره وتأمله في الدول تجده والله يحكم لامعنى الحكمة

١٨ (فصل في ان الحضارة حماية العمران ونهاية عمره وانها مؤذنة بفساده

قديما لك فيما سلف أن الملك والدولة غاية للعصية وأن الحضارة غاية للسداوة وأن
 العمران كله من بدائة وحضارة وملك وسوقه له عمر محسوس كما أن للشخص الواحد
 من أشخاص الممكّنات عمرا محسوسا وتبين في المعتول والمنقول أن الاربعين

للإنسان غاية في تزايد قواه وغورها وأنه اذا بلغ سن الأربعين وقفت الطبيعة عن أثر
النشور والنمو برهة ثم تأخذ بعد ذلك في الانحطاط فقله لم أن الحضارة في العمران أيضا
كذلك لانه غاية لا مزيد وراءها وذلك أن الترف والنعمة اذا حصلوا لاهل العمران
دعاهم بطبعه الى مذاه الحضارة والتخلق بعوائدها والحضارة كما علمت هي التفتن في
الترف واستجداء أحواله والكلف بالصنائع التي توثق من أصنافه وسائر فنونه من
الصنائع المهيئة للمطابخ والملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال
المنزل وللتأنيق في كل واحد من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج اليها عند البداوة وعدم
التأنيق فيها واذا بلغ التأنيق في هذه الاحوال المترتبة الغاية تبعه طاعة الشهوات فقتلون
النفوس من تلك العوائد بألوان كثيرة لا يستقيم حالها معها في دينها ولادنياها ماديينها
فلا تستعصم صبغة العوائد التي يعسر زرعها وأما دنياها فلكثرة الحاجات والموتيلات
التي تطالب بها العوائد ويعجز الكسب عن الوفاء بها * ويانه أن المصر بالتفتن في
الحضارة تعظم نفقات أهل الحضارة تتفاوت تفاوت العمران فتي كلن العمران أكثر
كانت الحضارة أكمل وقد كافتها أن المصر الكثير العمران يختص بالفلاء في أمواقه
وأسعار حاجته ثم تزيد الكوس غلاء لان الحضارة انما تكون عند انتهاء الدولة في
استعمالها وهو زمن وضع المكوس في الدول لكثرة خرجها حينئذ كما تقدم والمكوس
تعود على البياعات بالفلاء لان السوقه والتجار كلهم يحتسون على سلهم وبضائعهم
جميع ما يتفقونه حتى في موثنة أنفسهم فيكون المكسر لذلك داخل في قيم المبيعات
وأعمالها تعظم نفقات أهل الحضارة وتخرج عن القصد الى الاسراف ولا يجدون
وليجة عن ذلك للملكهم من أثر العوائد وطاعتها وتذهب مكاسهم كلها في النفقات
ويتناهبون في الاملاق والخصاصة ويغلب عليهم الفقرو يقل المستامون للمبايع
فتكسد الاسواق ويفسد حال المدينة وداعية ذلك كله افراط الحضارة والترف
وهذه مفسدات في المدينة على العموم في الاسواق والعمران وأما فساد أهلها في
ذاتهم وواحد واحد على الخصوص فمن الكد والتعب في حاجات العوائد والتلون
بالوان اشرفي تحصيلها وما يعود على النفس من الضرر بعد تحصيلها بحصول لون
آخر من ألوانها فلذلك يكثر منهم الفسق والشر والسفسفة والتحميل على تحصيل
المعاش من وجهه ومن غير وجهه وتنصرف النفس الى الفسك في ذلك والغوص
عليه واستجماع الخيلة له فنجدهم أجرياء على الكذب والمقاومة والغش والخلافة
والسرقة والخبور في الايمان والربا في البياعات ثم نجدهم أبصر بطرق الفسق
ومذاهبه والمجاهرة به وبدواعيه واطراح الحشمة في الخوض فيه حتى بين الاقارب

وذوى المحارم الذين تقتضى البداوة الحياء منهم فى الاقذاع بذلك وتجدهم أيضا أبصر
 بالمكر والخديعة يدفعون بذلك ما عساه ينالهم من القهر وما يتوقعونه من العقاب
 على تلك القبائح حتى يصير ذلك عادة وخلقالا كرههم الامن عصمه الله ويمرح بمر
 المدينة بالسفلة من أهل الاخلاق الذميمة ويجاريهم فيها كثير من ناشئة الدولة
 وولدانهم عن أهمل عن التأديب وغلب عليه خلق الجوار وان كانوا أهل أنساب
 وبيوتات وذلك أن الناس بشر متماثلون وانما تفاضلوا وتميزوا بالخلق واكتساب
 الفضائل واجتناب الرذائل فمن استحسنت فيه صبغة الرذائل باى وجه كلفه وفسد
 خلق الخريف لم ينفعه زكاه نسبه ولا طيب منبته واهذا تجد كثيرا من أعقاب البيوت
 وذوى الاحساب والاصالة وأهل الدول منطرحين فى الغمار من تطين للحرف المدينة فى
 معاشهم بما فسد من أخلاقهم وما تلونوا به من صبغة الشر والسفسة وانما كذلك
 فى المدينة أو الامة تأذن الله بخرابها وانقراضها وهو معنى قوله تعالى واذا أردنا أن
 نهلك قرية أمرنا مترفيها فانسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا * ووجهه حينئذ
 أن مكاسبهم حينئذ لا تنفى بحاجاتهم لكثرة الفوائد ومطالبة النفس بها فلا تستقيم
 أحوالهم واذا فسدت أحوال الاشخاص واحدا واحدا اختل نظام المدينة وخربت
 وهذا معنى ما يقوله بعض أهل الخواص ان المدينة اذا كثر فيها غرس النارج
 تأذنت بالخراب حتى ان كثيرا من العامة يتحاشى غرس النارج بالدور وليس المراد ذلك
 ولأنه خاصية فى النارج وانما معناه أن البساتين واجراء المياه هو من توابع الحضارة
 ثم ان النارج والليم والسرور وأمثال ذلك مما لا طم فيه ولا منفعة هو من غايه الحضارة
 اذ لا يقصد به فى البساتين الأشكال فقط ولا تغرس الا بعد التفتن فى مذاهب الترف
 وهذا هو الطور الذى يخشى معه هلاك المصر وخرابه كما قلناه ولقد قلنا فى ذلك فى
 الدفلى وهو من هذا الباب اذ الدفلى لا يقصد به الا تلون البساتين بدهانها ما بين أحر
 وأبيض وهو من مذاهب الترف * ومن مفاصد الحضارة الانهال فى الشهوات
 والاسترسال فيها الكثرة الترف فيقع التفتن فى شهوات لبطن من الماء كل والملذ
 ويتبع ذلك التفتن فى شهوات الفرج بأنواع المناكح من الزنا واللواط فيفضى ذلك
 الى فساد النوع اما بواسطة اختلاط الانساب كما فى الزنا فيجهل كل واحد اياه اذ
 هو غير رشده لان انما مختلطة فى الارحام فتفقد الشفقة الطبيعية على البنين والقيام
 عليهم فيكون ويؤدى ذلك الى انقطاع النوع أو يكون فساد النوع كاللواط اذ هو
 يؤدى الى أن لا يوجد النوع والزنا يؤدى الى عدم ما يوجد منه ولذلك كان مذهب
 مالك رحمه الله فى اللواط أظهر من مذهب غيره ودل على أنه أبصر عما صد اشربة

واعتبارها للمصالح فانهم ذلك واعتبر به ان غاية العمران هي الحضارة والترفة وأنه اذا بلغ غايته انقلب الى افساد واخذ في الهرم كالأعمار الطبيعية للصوانات بل نقول ان الاخلاق الحاصلة من الحضارة والترفة هي عين الفساد لان الانسان انما هو انسان باقتداره على جلب منفعه ودفع مضاره واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري لا يقدر على مباشرة حاجاته اما عجز الماحصل له من الدعوة أو ترفع الماحصل له من الربى في النعيم والترفة وكلا الأمرين ذميم وهكذا لا يقدر على دفع المضار واستقامة خلقه للسعي في ذلك والحضري بما قد فقد من خلق الانسان بالترفة والنعيم في قهر التأديب فهو بذلك عيال على الحامية التي تدافع عنه ثم هو فاسد أيضاً بالبما فسدت منه العوائد وطاعتها وما تلونته النفس من مكائنها كما قررناه الا في الاقل النادر واذا فسد الانسان في قدرته على أخلاقه ودينه فقد فسدت انسانيته وصار مسخاً على الحقيقة وبهذا الاعتبار كان الذين يتربون على الحضارة وخلقها موجودين في كل دولة فقدت من أن الحضارة هي سن الوقوف لعمر العالم في العمران والدولة والله سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن لا يشغله شأن عن شأن

(فصل في ان الامصار التي تكون كراسي للملك تخرب بخراب الدولة وانتقاضها)

قد استقرنا في العمران أن الدولة اذا اختلفت وانتقضت فان المصرا الذي يكون كرسيا لسلطانها ينتقض عمرانه وربما ينتهي في انتقاضه الى الخراب ولا يكاد ذلك يتخلف والسبب فيه أمور * (الاول) * أن الدولة لا بد في أوقاها من البداوة المقتضية للجاني عن أموال الناس والبعد عن التحذلق ويدعو ذلك الى تخفيف الجباية والمغارم التي منها مادة الدولة فتقل النفقات ويقصر الترف فاذا صار المصرا الذي كان كرسيا للملك في ملكة هذه الدولة المتجددة ونقصت أحوال الترف فيها انتص الترف فبين تحت أيديها من أهل المصرا لان الرعايات تبع للدولة فيرجعون الى خلق الدولة اما طوعا لما في طباع البشر من تقليد منبوءهم أو كرها لما يدعوا اليه خلق الدولة من الانتقاض عن الترف في جميع الاحوال وقلة الفوائد التي هي مادة العوائد فتقصر لذلك حضارة المصرا ويذهب منه كثير من عوائد الترف وهو معنى ما نقول في خراب المصرا * (الامر الثاني) * أن الدولة انما يحصل لها الملك والاستيلاء بالغلب وانما يكون بعد العداوة والحروب والعداوة تقتضي منافاة بين أهل الدولتين وتكثر احداهما على الاخرى في الفوائد والاحوال وغلب أحد المتنافيين يذهب بالمتنافي الاخر فتكون أحوال الدولة السابقة منكورة عند أهل الدولة الجديدة ومستتبعة وقبيحة وخصوصاً أحوال

الترف قفقد في عرفهم بنكير الدولة لها حتى تنشأ لهم بالتدريج عوائد أخرى من الترف
فتكون عنها حضارة مستأنفة وفيما بين ذلك تصور الحضارة الأولى ونقصها وهو معنى
اختلال العمران في مصر • (الأمر الثالث) • أن كل أمة لا بد أنهم من وطن هو
منشؤهم ووه أولية ملكهم واداملكوا ملكا آخر صار تعالالا أول وأمصارة تابعة
لامصار الأول واتسع نطاق الملك عليهم ولا بد من توسط الكرسي تخوم الممالك التي
للدولة لانه شبه المركز للنطاق فيبعد مكانه عن مكان الكرسي الأول وتهوى أقدسة
الناس اليه من أجل الدولة والسلطان فينتقل اليه العمران ويختف من مصر
الكرسي الأول والحضارة انما هي توفر العمران كما قدمنا فتتقصر حضارته وتعذنه
وهو معنى اختلاله وهذا كما وقع للبطونية في عدولهم بكرسيهم عن بغداد الى اصبهان
والعرب قباهم في العدول عن المدائن الى الكوفة والبصرة ولبنى العباس في العدول
عن دمشق الى بغداد ولبنى مرين بالمغرب في العدول من مرا كس الى فاس وبالجملة
فانحلت الدولة الكرسي في مصر بجعل بعمران الكرسي الأول • (الأمر الرابع) •
أن الدولة الثانية لا بد فيها من تبع أهل الدولة السابقة وأشباعها بتحويلهم الى قطر
آخر يؤمن فيه غائلتهم على الدولة وأكثرا أهل مصر الكرسي أشباع الدولة اما من
الحماية الذين نزولوا به أول الدولة أو أعيان مصر لان لهم في الغالب منح لطة للدولة
على طبقاتهم وتنوع أصنافهم بل أكثرهم ناشئ في الدولة فهم شيعتها وان لم يكونوا
بالشوكه والعصية فهم بالليل والمحبة والعبيدة وضيعة الدولة المتجددة محو آثار الدولة
السابقة فينقلهم من مصر الكرسي الى وطنها المتمكن في ملكتها بعضهم على نوع
التغريب والحبس وبعضهم على نوع الكرامة والتلطف بحيث لا يؤدي الى التفرقة حتى
لا يبقى في مصر الكرسي الا الاباءة والهمل من أهل الفلح والعبارة وسواد العامة وينزل
مكانهم حاميتها وأشباعها من يشتد به المصري واذا ذهب من مصر أعياينهم على طبقاتهم
نقص ساكنه وهو معنى اختلال عمرانهم ثم لا بد من أن يستجد عمران آخر في ظل الدولة
الجديدة وتحصل فيه حضارة أخرى على قدر الدولة وانما ذلك بمثابة من له بيت على
أوصاف مخصوصة فاظهر من قدرته على تغيير تلك الاوصاف واعادة بنائها على ما يختاره
وبقترحه فيضرب ذلك البيت ثم يعيد بناءه ثانيا او قد وقع من ذلك كثير في الامصار التي هي
كرامى للملك وشاهدناه وعلناه والله يقدر الليل والنهار والسبب الطبيعي الأول في
ذلك على الجملة أن الدولة والملك للعمران بمثابة الصور تلك المادة وهو الشكل الحافظ بنوعه
لوجودها وقد تقررت في - اوم الحكمة أنه لا يمكن انسكال أحدهما عن الآخر فالدولة
دون العمران لا تصور والعمران دون الدولة والملك متعذر انما في طباع البشر من

العدوان الداعي الى الوازع فتعين السياسة لذلك اما الشرعية او الملكية وهو معنى الدولة واذا كالا لا يتفكان فاختلفا لحد ما مؤثر في اختلال الاخر كما ان عدمه مؤثر في عدمه وانخلال العظيم انما يكون من خلل الدولة الكلية مثل دولة الروم او الفرس او العرب على العموم او بنى أمية او بنى العباس كذلك وأما الدولة الشخصية مثل دولة أنوشروان أو هرقل أو عبد الملك بن مروان أو الرشيد فانها صاهما متعاقبة على العمران حافظه لوجوده وبقائه وقرية الشبه بعضهم من بعض فلا تؤثر كثيرا اختلال لان الدولة بالحقيقة الفاهله في مادة العمران انما هي العصبية والشوكة وهي مستمرة على أشخاص الدولة فاذا ذهبت تلك العصبية ودفعتها عصبية أخرى مؤثرة في العمران ذهبت أهل الشوكة باجمهم وعظم الخلل كما قررنا في اوله والله سبحانه وتعالى أعلم

٢٠ (فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصنائع دون بعض)

وذلك أنه من البين أن أعمال أهل مصر يستدعي بعضها بعضا ما في طبيعة العمران من التعاون وما يستدعي من الاعمال يختص ببعض أهل المصريفية ومون عليه ويستبصرون في صناعته ويختصون بوظيفته ويجعلون معاشهم فيه ورزقهم منه لعموم البلوى به في مصر والحاجة اليه وما لا يستدعي في مصر يكون غفلا اذا فائدة لتمتله في الاحتراف به وما يستدعي من ذلك لضرورة المعاش فيوجد في كل مصر كالحياط والحداد والنجار وأمثالها وما يستدعي لعوائد الترف وأحواله فانما يوجد في المدن المستجيرة في العمارة الآخذة في عوائد الترف والحضارة مثل الزجاج والصابغ والدهان والطباخ والصفار والفرش واللباح وأمثال هذه وهي متفاوتة وبقدر ما تزيد عوائد الحضارة وتستدعي أحوال الترف تحدث صنائع لذلك النوع فتوجد بذلك المصدرون غيره ومن هذا الباب الحمامات لانها انما توجد في الامصار المستجيرة المستجيرة العمران لميل دعوا اليه الترف والغنى من التعم ولذا لا تكون في المدن المتوسطة وان نزع بعض الملوك والرؤساء اليها فيختطها ويجري أحوالها الا أنها اذا لم تكن لها داعية من كافة الناس فسرعا ما هم جرب وتفرغتها القومة لقله فائدتهم ومعاشهم منها والله يقبض ويبسط

٢١ (فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض)

من البين أن الالتحام واذا نال موجود في طباع البشر ان لم يكونوا أهل نسب واحد الا انه كما قدمناه أضعف مما يجب كون بالنسب وأنه تحصل به العصبية بعضها مما تحصل بالنسب وأهل الامصار كثير منهم ملتحمون بالههر يجذب بعضهم بعضا الى أن يكونوا

للحماة قرابة قرابة وتجد بينهم من العداوة والصداقة كما يكون بين القبائل والعشائر
 مثل فقير قون شبيعا وعصائب فاذا نزل الهرم بالدولة وتقلص ظل الدولة عن القاصية
 احتلج أهل أمصارها إلى الصيام على أمرهم والنظر في حماية بلادهم ورجعوا إلى
 الثورى وغير العلية عن الغلة والنفوس بطباعها متطاولا إلى الغلب والرياسة
 فتطمع المشيخة لخلاء الجوامع من السلطان والدولة القاهرة إلى الاستبداد وينزع كل
 صاحبه ويوصلون بالاباع من الموالى والشيعة والاحلاف ويذلون ما في أيديهم
 للاوغاد والاشاب فيعصوب كل لصاحبه ويتعين القلب لبعضهم فيعطف على آكفاه
 ليقتص من أعنتهم ويتبعهم بالقتل أو التهرب حتى يخضع منهم الشوكات النافذة
 ويقلم الاظفار الخادشة ويستبد بعصره أجمع ويرى أنه قد استحدث ملكا يورثه عقبه
 فيحدث في ذلك الملك الاصغر ما يحدث في الملك الاعظم من عوارض الجدم والهرم ورجعا
 يسوء بعض هؤلاء إلى منازع الملوك الاغنام أصحاب القبائل والعشائر والعصبيات
 والزحوف والحروب والاقطار والممالك فيبتغون بهامن الجلوس على الدرر
 واتخاذ الآلة واعداد المواصك للسير في أقطار البلد والضم والحسية والخطاب
 بالتمويل ما يضر من من يشاهد أحوالهم لما اتصلوا من شارات الملك التي ليسوا لها
 بأهل انما دفعهم إلى ذلك تقلص الدولة والتعام ببعض القرابات حتى صارت عصية وقد
 يتزع بعضهم عن ذلك ويهجرى على مذهب السذاجة فرار من التعريف بنفسه
 للضريبة والعبث وقد وقع هذا بافر يقية لهذا العهد في آخر الدولة الخفصية لاهل بلاد
 الجريد من طرابلس وقابس وتوزر ونقطة وقفصة وبكرة والزاب وما إلى ذلك هو
 إلى مثلها عند تقلص ظل الدولة عنهم منذ عقود من السنين فاستغلبوا على أمصارهم
 واستبدوا بأمرها على الدولة في الاحكام والجباية وأعطوا طاعة معروفة وصفقة عمرة
 وأقطعوا جانبها من الملاينة والملاطفة والانتقادات وهم يعزل عنه وأورثوا ذلك
 أعقابهم لهذا العهد وحدث في خلفهم من الغلظة والتجبر ما يحدث لأعقاب الملوك
 وخلفهم ونظموا أنفسهم في عداد السلاطين على قرب عهدهم بالسوق حتى محاذ ذلك
 مولانا أمير المؤمنين أبو العباس وانتزع ما كان بأيديهم من ذلك كما ذكره في أخبار
 الدولة وقد كان مثل ذلك وقع في آخر الدولة الصنهاجية واستقل بأمصاير الجريد
 أهلها واستبدوا على الدولة حتى انتزع ذلك منهم شيخ الموحدين وملكهم عبد المؤمن بن
 على ونقلهم كاهم من امارتهم بها إلى المغرب ومحام تلك البلاد آثارهم كما ذكر في
 أخباره وكذا وقع ببيتة لاخر دولة بني عبد المؤمن وهذا التغلب يكون غالبيا في أهل
 السروات والبيوتات المرثية للمشيخة والرياسة في مصر وقد يحدث التغلب لبعض

النقطة من الفوغاه والدهما واذا حصلت العصية والالتصام بالاوتعاد لاسباب يجزها
 له المقدار فينقلب على المنجحة والعلية اذا كانوا قادين للعصاة واقه سبحانه وتعالى
 غالب على امره

٢٢ (فصل في كتاب اهل الامصار)

(اعلم) أن لغات أهل الامصار انما تكون بلسان الامة أو الجبل العاليين عليها أو المختطين
 لها ولذلك كانت لغات الامصار الاسلامية كلها بالشرق والمغرب لهذا العهد عربية
 وان كان اللسان العربي المضرى قد فسدت ملكته وتغير اعراجه والسبب في ذلك
 ما وقع للدولة الاسلامية من الغلب على الامم والدين والملة صورة للوجود والملك
 وكلها مواده والصورة مقدمة على المادة والدين انما يستفاد من الشريعة وهي
 بلسان العرب لما أن النبي صلى الله عليه وسلم عربي فوجب هجر ما سوى اللسان
 العربي من الالسن في جميع ممالكها واعتبر ذلك في نهى عمر رضي الله عنه عن
 بطانة الاعاجم وقال انه لا ينبغي أن يتركوا في بيوتهم اللسان الذي لا يفهم
 وكان لسان القاطنين بالدولة الاسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لان الناس
 تبع للسلطان وعلى دينه فصارت استعمال اللسان العربي من شعار الاسلام وطاعة
 العرب وهجر الامم اغتاهم والسننهم في جميع الامصار والممالك وصار اللسان العربي
 لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع اوصالهم ومدنهم وصارت الالسننة الهجيرة دخيلة
 فيها وغربية ثم فسد اللسان العربي بمخالطتها في بعض أحكامه وتغير آخره وان كان
 بقي في الدلالات على أصله وسمى لسانا حضرى في جميع امصار الامم واما أيضا أكثر
 أهل الامصار في الملة لهذا العهد من أعقاب العرب المالكين لها المالكين في ترقيها
 بما كثروا العجم الذين كانوا يورثوا أرضهم وديارهم واللغات متوارثة فبقيت
 لغة الاعقاب على حال لغة الآباء فان فسدت أحكامها بمخالطة الاعجم شيئا فشيئا
 وسميت لغتهم حضرية منسوبة الى أهل الحواضر والامصار بخلاف لغة البدو من
 العرب فانها كانت أعرق في العروبية ولم تملك العجم من الديلم والسجوقية بعدهم
 بالشرق وزفانة والبربر بالغرب وصار لهم الملك والاستيلاء على جميع الممالك الاسلامية
 فسد اللسان العربي لذلك وكاد يذهب لولا ما حفظه من عنابة المسلمين بالكتاب والسنة
 اللذين بهما حفظ الدين وصار ذلك مرجحا لبقاء اللغة العربية المضرية من الشعر
 والكلام الاقلبلا بالامصار فلما ملك التترو والمغل بالشرق ولم يكونوا على دين الاسلام
 ذهب ذلك المرح وفسدت اللغة العربية على الاطلاق ولم يبق لها رسم في الممالك

الإسلامية بالعراق وخراسان وبلاد فارس وأرض الهند والسند وما وراء النهر وبلاد
 الشمال وبلاد الروم وذهبت أساليب اللغة العربية عن الشعر والكلام الأقل لا يقع
 تعليمه صناعات بالقوانين المتداولة من كلام العرب وحفظ كلامهم من بسم الله تعالى
 لذلك وربما ضيقت اللغة العربية المضربة بمصر والشام والأندلس والمغرب لبقاء الدين
 طلبها فأنحفظت ببعض الشيء وأما في ممالك العراق وما وراءه فلم يبق له أثر ولا عين
 حتى إن كتب العلوم صارت تكسب باللسان الجهمي وكذا تدريسه في المجالس
 والله أعلم بالصواب

(الفصل الخامس من الكتاب الأول)

في المعاش ووجوهه من المكسب والصنائع وما يعرض في ذلك كله من الأحوال

(فصل) في حقيقة الرزق والكسب وشرحهما وأن الكسب ذو قيمة الأعمال البشرية
 • اعلم أن الإنسان مفتقر بالطبع إلى ما يتقونه وسعونه في حالته وأطواره من لدن نشوءه
 إلى أشده إلى كبره والله الغني وأنتم الفقراء والله سبحانه خلق جميع ما في العالم
 للإنسان وامتن به عليه في غير ما آتاه من كآبه فقال وسخر لكم ما في السموات وما في
 الأرض جميعاً منه وسخر لكم البحر وسخر لكم الفلك وسخر لكم الأنعام وكثير من
 شواهد ويد الإنسان مبسوط على العالم وما فيه بما جعل الله له من الاستخلاف
 وأيدى البشر متشعبة فهي مشتركة في ذلك وما حصل عليه بهذا المنع عن الآخر
 الإيعوض فالإنسان متى أقدر على نفسه وتجاوز طور الضعف سعى في اقتناء المكاسب
 ليتفق ما آتاه الله منها في تحصيل حاجاته وضروراته بدفع الأعباء عن نفسه قال الله تعالى
 فاتقوا الله عند الله الرزق رزقاً يحصل لذلك بغرسه كالطائر المصلح للزراعة وأما الله إلا أنها
 إنما تكون معينة ولا بد من سعيه معها كما يأتي فنكون له تلك المكاسب معاشاً إن كانت
 بمقدار الضرورة والحاجة وربما شاء متمولاً إن زادت على ذلك ثم إن ذلك الحاصل أو
 المقنى إن عادت منفعته على العبد وحصلت له ثمرته من انفاقه في مصالحه وحاجاته سعى
 ذلك رزقاً قال صلى الله عليه وسلم إن مالاً من ملك ما أكلت فأفنت أو لبست فألبت أو
 تصدقت فأضيت وإن لم يتفجع به في شيء من مصالحه ولا حاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى
 المالك رزقاً والمقلد منه • فيندبى العبد وقدرته يسمى كسباً وهذا مثل التراث فإنه
 يسمى بالنسبة إلى المالك كسباً ولا يسمى رزقاً إذ لم يحصل به منتفع وبالنسبة إلى الوارثين
 متى انتفعوا به يسمى رزقاً وهذا حقيقة معنى الرزق عند أهل السنة وقد اشترط المعتزلة
 في تسميته رزقاً أن يكون بحيث يصح تملكه وما لا يملك عندهم لا يسمى رزقاً وأخرجوا

الفصويات والحرام كله عن أن يسمى شيء رزقا والله تعالى يرزق الغاصب والقائم
 والمؤمن وللكافر ويختص برحمته وهدايته من يشاء ونهم في ذلك حجج ليس هذا موضع
 بسطها ثم اعلم أن الكسب انما يكون بالسعي في الاقتناء والقصد الى التوصل فلا بد في
 الرزق من سعي وعمل ولو في تناوله واستغائه من وجوهه قال تعالى فاستغوا عند الله
 الرزق والسعي اليه انما يكون باقدار الله تعالى والهامة فالكل من عند الله فلا بد
 من الاعمال الانسانية في كل مكسوب ومتمول لانه ان كان عملا بنفسه مثل الصنائع
 فظاهر وان كان مقتنى من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الانساني
 كإتراء والالم يحصل ولم يقع به انتفاع ثم ان الله تعالى خلق الحجرين المعدنين من
 الذهب والفضة قيمة لكل متمول وهما الذخيرة والقنية لاهل العالم في الغالب وان
 اقتنى سواهما في بعض الاحيان فانما هو لقصد تحصيلهما بما يقع في غيرهما من حوائج
 الاسواق التي هما بمنزلة ما يعزل فهما أصل المكاسب والقنية والذخيرة • واذا تقر هذا
 كله فاعلم ان ما يفيد الانسان ويقتنيه من المتمولات ان كان من الصنائع والمعاد
 المقتنى منه قيمة عمله وهو القصد بالقنية اذ ليس هنالك الا العمل وليس بقصد بنفسه
 للقنية وقد يكون مع الصنائع في بعضها غيرهما مثل التجارة والحياكة معهما الخشب
 والغزل الا ان العمل فيهما أكثر فقيمتيه أكثر وان كان من غير الصنائع فلا بد في قيمة
 ذلك المضاد والقنية من دخول قيمة العمل الذي حصلت به اذ لو لا العمل لم تحصل
 قنيته او قد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة
 عظمت أو صغرت وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الاتوات بين الناس فان
 اعتبار الاعمال وانتمقات فيها ملاحظ في أسعار الخبواب كما قدمناه لكنه خفي في
 الاقطار التي علاج النخل فيها وموته يبره فلا يشعر به الا القليل من أهل الفلح فقد
 تبين ان المفادات والمكسبات كلها أو أكثرها انما هي قيم الاعمال الانسانية وتبين
 معنى الرزق وانه المنفع به فقد بان معنى الكسب والرزق وشرح معهما • واعلم
 أنه اذا فقدت الاعمال او قلت بانتقاص العمر ان تأذن الله برفع الكسب الا ترى الى
 الامصار القليلة الساكن كيف ينسل الرزق والكسب فيها أو يفقد لقله الاعمال
 الانسانية وكذلك الامصار التي يكون عمرانها أكثر يكون أهلها أوسع أحوالا وأشد
 رفاهية كما قدمناه قبل ومن هذا الباب تقول العامة في البلاد اذا تناقص عمرانها
 انها قد ذهب رزقها حتى ان الانهار والعيون يتقطع جريها في الفقر لما أن نور العيون
 انما يكون بالانبات والامتراء الذي هو بالعمل الانساني كالحمال في ضروع الانعام
 فإلم يكن انبات ولا امتراء نصبت وغارت بالجملة كما يجب الضرع اذا ترلنا متر النظره

في البلاد التي تعهد فيها العيون لايام عمر انهما ثم يأتي عليها الخراب كيف تغور مياهها
بجملته كما نهم تنكن والله يقدر الليل والنهار

٢ (فصل في وجوه المعاش واصنافه ومذاهبه)

(اعلم) أن المعاش هو عبارة عن ابتغاء الرزق والسعي في تحصيله وهو مفعول من العيش
كانه لما كان العيش الذي هو الحياة لا يحصل الا بهذه جعلت موضعا له على طريق
المبالغة ثم ان تحصيل الرزق وكسبه اما ان يكون بأخذه من يد الغير واتزاعه
بالاقتدار عليه على قانون متعارف ويسمى مغرما وجهباية واما ان يكون من الحيوان
الوحشي باقتناصه وأخذه برمييه من البر أو البحر ويسمى اصطيادا واما ان يكون من
الحيوان الداجن باستخراج فضوله المنصرفه بين النمل في منافعهم كاللبن من الانعام
والحرير من دوده والعسل من نحله أو يكون من النبات في الزرع والشجر بالقيام عليه
واعداؤه لاستخراج ثمرته ويسمى هذا كله فلما واما ان يكون الكسب من الاعمال
الانسانية اما في مواد معينة وتسمى الصنائع من كابة وتجارة وخطاطة وحباسة
وفروسية واما ذلك أو في مواد غير معينة وهي جميع الامتيازات والتصرفات واما
ان يكون الكسب من البضائع واعداها للاعراض اما بالتقلب في البلاد
واحتكارها وارتقاب حواله الاسواق فيها ويسمى هذا تجارة فهذه وجوه المعاش
واصنافه وهي معنى ما ذكره المحققون من أهل الأدب والحكمة كالحريري وغيره فانهم
قالوا المعاش امارة وتجارة وفلاحة وصناعة فاما الامارة فليست بمذهب طبيعي
للمعاش فلا حاجة بنا الى ذكرها وقد تقدمت من أحوال الجبايات الساطانية
وأهلها في الفصل الثاني واما الفلاحة والصناعة والتجارة فهي وجوه طبيعية
للمعاش أما الفلاحة فهي متقدمة عليها كلها بالذات اذ هي بسيطة وطبيعية فطرية
لا تحتاج الى نظر ولا علم ولهذا تنسب في الخليفة الى آدم أبي البشر وأنه معلها واقام
عليها اشارة الى أنها أقدم وجوه المعاش وأنسبها الى الطبيعة واما الصنائع فهي
ثانيتها ومتأخرة عنها لانها مركبة وعلمية تصرف فيها الافكار والانتظار ولهذا لا توجد
غالبا الا في أهل الحضرة الذي هو متأخر عن البدو وثان عنه ومن هذا المعنى نسبت الى
ادريس الاب الثاني للخليفة فإنه مستنبطها لمن بعده من البشر بالوحي من الله تعالى
وأما التجارة وان كانت طبيعية في الكسب فالأكثر من طرقها ومذاهبها انما هي
تجيلات في الحصول على ما بين القيمتين في الشراء والبيع لتحصل فائدة الكسب
من تلك الفضلة ولذلك أباح الشرع فيه المكاسب لما أنه من باب المقامرة الا أنه ليس

أخذ المال الغير مجابا فلهذا اختص بالمشروعية

٣ (فصل في ان الخدمة ليست من المعاش الطبيعي)

اعلم أن السلطان لا يتبدل من اتخاذ الخدمة في سائر أبواب الامارة والملك الذي هو سبيله من الجندي والشرطي والكتاب ويستمكن في كل باب عن بعلم غناه فيه ويتكفل بأرزاقهم من بيت ماله وهذا كله مندرج في الامارة ومعاشها اذ كلهم ينسحب عليهم حكم الامارة والملك الاعظم هو ينبوع جداولهم وأما ما دون ذلك من الخدمة فسيبها ان أكثر المترفين يترفع عن مباشرة حاجاته أو يكون عاجزا عنها لما ربي عليه من خلق التسم والترف فيتخذ من يتولى ذلك له ويقطعه عليه أجر من ماله وهذه الحالة غير محودة بحسب الرجولية الطبيعية للانسان اذ الثقة بكل أحد عجز ولا نها تزيد في الوظائف والخرج وتدل على العجز والخسث اللذين ينبغى في مذاهب الرجولية التنزه عنهما الا أن العوائد تقلب طباع الانسان الى ما لوفهافهوا بن عوائده لا بن نسبه ومع ذلك فالخديم الذي يستمكن به ويوثق بغنائه كالمفقود اذ الخديم القائم بذلك لا بعد وأربع حالات اما مضطلع بأمره وموثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس فيهما وهو أن يكون غير مضطلع بأمره ولا موثوق فيما يحصل بيده واما بالعكس في احدهما فقطه مثل أن يكون مضطلعا غير موثوق أو موثوقا غير مضطلع فاما الاول وهو المضطلع الموثوق فلا يمكن أحد استعماله بوجه اذ هو باضطلاع وثقته غنى عن أهل الرتب اللدنية ومحققر لئال الاجر من الخدمة لا قدره على أكثر من ذلك فلا يستعمله الا الامراء أهل الجاه العريض له موم الحاجة الى الجاه وأما الصنف الثاني وهو من ليس بمضطلع ولا موثوق فلا ينبغى لعاقل استعماله لانه يحجب بخدمه في الامر من معا فيضيع عليه لعدم الاصطناع تارة ويذهب ماله بالخيانة أخرى فهو على كل حال كل على واولاه فهذان الصنفان لا يطعم أحد في استعمالهما ولم يبق الا استعمال الصنفين الاخرين موثوق غير مضطلع ومضطلع غير موثوق وللناس في الترجيح بينهما مذهبان ولكل من الترجحين وجهه الا أن المضطلع ولو كان غير موثوق أرجح لانه يؤمن من تضييعه ويحاول على النصر من خيائه جهدا الاستطاعة وأما المضيع ولو كان مأمونا فضرره بالتضييع أكثر من نفعه فاعلم ذلك واتخذة فانونا في الاستكفاء بالخدمة والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٤ (فصل في ان ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي)

اعلم أن كثيرا من ضعفاء العقول في الامصار يحرصون على استخراج الاموال من تحت

الارض ويتغون الكسب من ذلك ويعتقدون أن أموال الامم السالفة محتزة كلها
تحت الارض محتوم عليها كلها بطلاسم سحرية لا يفيض ختامها ذلك الا من عثر على
علمه واستحضر ما يحمله من الجور والدعاء والقربان فأهل الامصار بافريقية يرون أن
الافرنجة الذين كانوا قبل الاسلام يهادفون أموالهم كذلك وأودعوها في الصحف
بالكتاب الى أن يجدوا السبيل الى استخراجها وأهل الامصار بالمشرق يرون مثل ذلك
في أمم القبط والروم وانقرس ويتناقلون في ذلك أحاديث تشبه حديث خرافة من انتهاء
بعض الطالبيين لذلك الى حفر موضع المال عن لم يعرف طلسمه ولا خبره فيجدونه خاليا
أو معثورا بالديدان أو يشاهد الاموال والجواهر موضوعة والحرس دونها منتضين
سيوفهم أو تميدبه الارض حتى يظنه خسفاً أو مثل ذلك من الهدر ونجد كثيرا من
طلبة البربر بالمغرب العاجزين عن المعاش الطبيعي وأسبابه يتقربون الى أهل الدنيا
بالاوراق المتحزمة الخواشي اما بخطوط عجمية أو بترجم برعهم منها من خطوط أهل
الدفائن باعطاء الامارات عليهم في أما كتبها يتغون بذلك الرزق منهم بما يعثونهم على
الحفر والطلب ويعثون عليهم بأنهم انما حبلهم على الاستعانة بهم طاب الجاه في مثل
هذا من منال الحكام والعقوبات وربما تكون عند بعضهم نادرة أو غريبة من الاعمال
السحرية بمؤمها على تصديق ما بقي من دعواه وهو بعزل عن السحر وطرقه فتولع كثير
من ضعفاء العقول بجمع الايدي على الاحتفار والتترف بظلمات الدليل مخافة الرقباء
وعيون أهل الدول فاذا لم يعثروا على شيء رذوا ذلك الى الجهل بالطلسم الذي ختم به على
ذلك المال يخادعون به أنفسهم عن اخفاق مطامعهم والذي يحمل على ذلك في الغالب
زيادة على ضعف العقل انما هو العجز عن طلب المعاش بالوجوه الطبيعية للكسب من
التجارة والفلح والصناعة فيطالبونه بالوجوه المنحرفة وعلى غير المجرى الطبيعي من هذا
وأمثاله عجزا عن السعي في المكاسب وركونا الى تناول الرزق من غير تعب ولا نصب
في تحصيله ولا يعلمون أنهم يوقعون أنفسهم بهم بائتغا ذلك من غير وجهه
في نصب ومتاعب وجهه شديدا أشد من الاقل ويعرضون أنفسهم مع ذلك لمنال
العقوبات وربما يحمل على ذلك في الاكثر زيادة الترف وعوائده وخروجها عن حد
النهاية حتى يقصر عنها وجوه الكسب ومذاهبه ولا تفي عطائها فاذا عجز عن الكسب
بالمجرى الطبيعي لم يجد وليجة في نفسه الا التمني لوجود المال العظيم دفعة من غير كلفة
ليني له ذلك بالعوائد التي حصل في أمرها فيحرص على ابتغاء ذلك ويسعى فيه جهده
ولهذا إذا كثرت تراهم يحرصون على ذلك هم المترفون من أهل الدولة ومن سكان
الامصار الكثيرة الترف المتسعة الاحوال مثل مصر وما في مناهها فجد الكثير منهم

مفرمبزابا تفاع ذلك وتحصيله ومساءلة الركبان عن شواذه كما يحرصون على الكيمياء
 هكذا بلغني عن أهل مصر في مفاوضة من يلقونه من طلبة المغاربة لعلمهم يعثرون منه
 على دفين أو كنز ويزيدون على ذلك البحث عن تغوير المياه لما يرون أن غالب هذه
 الاموال الدفينة كلها في مجارى النيل وأنه أعظم ما يترد فينا أو مختزنا في تلك الآفاق
 ويموت عليهم أصحاب تلك الدفاتر المنفعله في الاعتذار عن الوصول إليها بجربة النيل
 نتراب ذلك من الكذب حتى يحصل على معاشه فيحرص سامع ذلك منهم على نضوب
 الماء بالاعمال السحرية لتحصيل مبتغاه من هذه كلفا بشأن السحر متوارثا في ذلك
 القطر عن أوليه فعلمهم السحرية وآثارها باقية بأرضهم في البرارى وغيرها وقصة
 محرة فرعون شاعرة باختصاصهم بذلك وقد تناقل أهل المغرب قصيدة ينسبونها الى
 حكاه المشرق تعطى فيها كيفية العمل بالتغوير بصناعة سحرية حجازا فيها وهى هذه

يا طالب السرى في التغوير * اجمع كلام الصدق من خبير
 دع عندك ما قد صنفتوا في كتبهم * من قول بهتان ولفظ غرور
 واسمع لصدق مقالتي ونصحتي * ان كنت ممن لا يرى بالزور
 فاذا أردت تغوير البئر التي * حارت لها الاوهام في التدبير
 صور كصورتك التي أوقفها * والرأس رأس الشبل في التغوير
 ويداه ما سكنان للجبل الذي * في الدلو ينشيل من قرار البير
 وبصدره هاء كما عاينتها * عدد الاطلاق احذر من التكرير
 ويطأ على الطائات غير ملامس * مشى الايب الكيس المحرير
 ويكون حول الكل خط دائر * تريعه أولى من التكرير
 واذبح عليه الطير والطنخه به * واقصده عقب الذبح بالتخير
 بالسندروس وباللبان ومبعة * والقسط والبسه بثوب حرير
 من أحمر أو أصفر لا أزرق * لا أخضر فيه ولا تكدير
 وبشد خيطان صوف أبيض * أو أحمر من خالص التميمير
 والطالع الاسد الذي قد ينور * ويككون به الشهر غير منير
 والبدر متصل به عطاره * في يوم سبت ساعة التدبير

يعنى أن تكون الطائات بين قدميه كأنه يمشى عليها وعندى أن هذه القصيدة من
 تمويهات المخرفين فلهم في ذلك أحوال غريبة واصطلاحات عجيبه وتنتهى المخرفة
 والكذب بهم الى أن يسكنوا المنازل المشهورة والدور المعروفة لمثل هذه ويحتفرون
 الحفر ويضعون المطابن فيها والشواهد التي يكتبونها في صحائف كتبهم ثم تصدون

ضمه فاء العقول بأمثال هذه الصحائف ويعثون على اكتراء ذلك المنزل وسكناه
 ويوهمون أن به دفيناً من المال لا يعبر عن كثرته ويطالبون بالمال لا اشتراء العقاقير
 والبصورات لحل الطلاس وبعدونه بظهور الشواهد التي قد أعدت لها هناك بأنفسهم
 ومن فعلهم فينبعث لما يراه من ذلك وهو قد خدع وليس عليه من حيث لا يشعرو بينهم
 في ذلك اصطلاح في كلامهم يلبسون به عليهم ليخفي عندهم ما ورثهم فيما يتلونه من حفر
 ومخور وذبح حيوان وأمثال ذلك وأما الكلام في ذلك على الحقيقة فلا أصل له في علم
 ولا خبره واعلم أن الكنوز وان كانت توجد لكنها في حكم النادر على وجه الاتفاق
 لا على وجه القصد إليها وليس ذلك بأمر تم به البلوى حتى يتخبر الناس أموالهم تحت
 الأرض ويحتمون عليها بالطلاسم لا في القديم ولا في الحديث والركاز الذي ورد
 في الحديث وفرضه الفقهاء وهو دفين الجاهلية إنما يوجد بالعمور والاتفاق لا بالقصد
 والطلب وأيضاً فمن اخترن ماله وختم عليه بالأعمال السحرية فقد باع في إخفائه فكيف
 ينصب عليه الأدلة والامارات لمن يتغيبه ويكتب ذلك في الصحائف حتى يطلع على
 ذخيره أهل الأعصار والآفاق هذا يناقض قصد الإخفاء وأيضاً فأنفعال العقلاء
 لا بد وأن تكون الغرض مقصود في الانتفاع ومن اخترن المال فإنه يختره لولده أو
 قريبه أو من يؤثره وأما ان يقصد إخفاءه بالكيفية عن كل أحد وإنما هو لبلاء والهلاك
 أولن لا يعرفه بالكيفية ممن سيأتي من الأمم فهذا ليس من مقاصد العقلاء بوجهه وأما
 قوله -م أين أموال الأمم من قبلنا وما علم فيها من الكثرة والوفور فاعلم أن الأموال من
 الذهب والفضة والجواهر والامتنعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنجاس
 والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالأعمال الانسانية ويزيد
 فيها أوتنة ما يوجد منها بأيدي الناس فهو متناقل متوارث وربما تنقل من قطر
 إلى قطر ومن دولة إلى أخرى بحسب أغراضه والعمران الذي يستدعى له فان نقص
 المال في المغرب واغريقية فلم ينقص بلاد الصقالية والانبرج وان نقص في مصر
 والشام فلم ينقص في الهند والصين وإنما هي الآلات والمكاسب والعمران يوفرها
 أو ينقصها مع أن المعادن يدركها البلاء كما يدرك سائر الموجودات ويسرع إلى اللوازم
 والجواهر أعظم مما يسرع إلى غيره وكذا الذهب والفضة والنجاس والحديد والرصاص
 والقصدير ينالها من البلاء والقضاء ما يذهب بأعيانها الاقرب وقت وأما ما وقع في مصر
 من أمر المطالب والكنوز فسببه أن مصر في ملكة القبط منذ آلاف أو يزيد من السنين
 وكان موتاهم يدفنون بموجودهم من الذهب والفضة والجواهر والآلات على مذهب
 من تقدمهم: أهل الدول فلما انقضت دولة القبط وملك الفرس بلادهم نقر وأعلى ذلك

في قبورهم وكثرت فواعنه فأخذوا من قبورهم ما لا يوصف كالأهرام من قبور الملوك
 وغيرها وكذا فعل اليونانيون من بعدهم وصارت قبورهم مظنة لذلك لهذا العهد
 ويعتد على الدفن فيها في كثير من الاوقات أماما يدقنونه من أموالهم أو ما يكرمونه به
 موتاهم في الدفن من أوعية ونوايت من الذهب والفضة معدة لذلك فصارت قبور
 القبط منذ آلاف من السنين مظنة لوجود ذلك فيها فلذلك عني أهل مصر بالبحث عن
 المطالب لوجود ذلك فيها واستخراجها حتى انهم حين ضربت المكوس على الأصناف
 آخر الدولة ضربت على أهل المطالب وصدرت ضريبة على من يشتغل بذلك من الحق
 والمهوسين فوجد بذلك المتعاطون من أهل الاطماع الذريعة الى الكشف عنه والذرع
 باستخراجه وما حصلوا الاعلى الخيبة في جميع مساعيهم نعوذ بالله من الخسران فيحتاج
 من وقع له شيء من هذا الوسواس وابتلى به أن يتعوذ بالله من العجز والكسل في طلب
 معاشه كما تعوذ رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك وينصرف عن طرق الشيطان
 ووسواسه ولا يشغل نفسه بالمهمات والمكاذب من الحكايات والله يرزق من يشاء بغير
 حساب

٥ (فصل في ان الجاه مفيد للمال)

وذلك اننا نجد صاحب المال والحظوة في جميع أصناف المعاش أكثر يسارا وثروة من
 فاقد الجاه والسبب في ذلك أن صاحب الجاه مخدوم بالأعمال يتقرب به اليه في سبيل
 الترف والحاجة الى جاهه فالناس معينون له بأعمالهم في جميع حاجاته من ضروري
 أو حاجي أو كالي فحصل قيم تلك الاعمال كلها من كسبه وجميع ما شأنه أن تبذل فيه
 الاعراض من العمل يستعمل فيها الناس من غير عوض فتتوفر قيم تلك الاعمال عليه
 فهو يزين قيم للاعمال يكتسبها وقيم أخرى تدعوه الضرورة الى اخراجها فتتوفر عليه
 والاعمال لصاحب الجاه كثيرة فتفيد الغنى لا قرب وقت ويزداد مع الايام يسارا
 وثروة وله هذا المعنى كانت الامارة أحد أسباب المعاش كما تقدمناه وفاقد الجاه
 بالكلية ولو كان صاحب مال فلا يكون يساره الا بمقدار ماله وعلى نسبة سعيه وهو لا
 هم أكثر التجار وله هذا تجدد أهل الجاه منهم يكونون أسير بكثير ومما يشهد لذلك اننا
 نجد كثيرا من الفقهاء وأهل الدين والعبادة اذا اشتهر حسن الظن بهم واعتقد
 الجمهور معاملته الله في ارفادهم فأخلص الناس في اعانتهم على أحوال دنياهم
 والاعمال في مصالحهم أسرع اليهم الثروة وأصبحوا مياسير من غير مال مقتني
 الا ما يحصل لهم من قيم الاعمال التي وقعت المعونة بها من الناس لهم رأينا من ذلك

اعداد في الامصار والمدن وفي البدو يسعى لهم الناس في الفلح والتجروكل قاعد بمنزله
لا يبرح من مكانه فينمو ماله ويعظم كسبه ويتأهل الغنى من غير سعي ويعجب من لا يفتن
بهذا السر في حال ثروته وأسباب غناه ويساره والله سبحانه وتعالى يرزق من يشاء
بغير حساب

٦ فصل في ان السعادة والكسب انما يحصل غالباً لاهل الخسوع
والتعلق وان هذا الخلق من اسباب السعادة

قد سلف لنا فيما سبق ان الكسب الذي يستفيد به البشر انما هو قيم أعمالهم ولو قدر احد
عطل عن العمل جله لكان فاقد الكسب بالكتابة وعلى قدر عمله وشرفه بين الاعمال
وحاجة الناس اليه يكون قدر قيمته وعلى نسبة ذلك نحو كسبه أو نقصانه وقد بينا آنفاً
ان الجاه يفيد المال لما يحصل لصاحبه من تقرب الناس اليه بأعمالهم وأموالهم في دفع
المضار وجلب المنافع وكان ما يتقربون به من عمل أو مال عوضاً عما يحصلون عليه بسبب
الجاه من الاغراض في صالح أو طالح ونصير تلك الاعمال في كسبه وقيمتها أموال وثروته
فيستفيد الغنى واليسار لا قرب وقت ثم ان الجاهم توزع في الناس ومترتب فيهم طبقة
بعد طبقة ينتهي في العلو الى الملوك الذين ليس فوقهم يد عالية وفي السفلى الى من لا يملك
شراً ولا نفعاً بين أبناء جنسه وبين ذلك طبقات متعددة حكمة الله في خلقه بما ينظم
معاشهم وتيسر مصالحهم ويتم بتأوهم لان النوع الانساني لا يتم وجوده الا بالتعاون
وأنة وان ندر فقد ذلك في صورة مفروضة لا يصح بقاؤه ثم ان هذا التعاون لا يحصل
الا بالاكرام عليه لجهلهم في الاكتر بمصالح النوع ولما جعل لهم من الاختيار ان
أفعالهم انما تصدر بالفكر والروية لا بالطبع وقد يمنع من المعاونة فيتعين جله عليهم افلا
يتم من حامل بكره أبناء النوع على مصالحهم لتتم الحكمة الالهية في بقاء هذا النوع
وهذا معنى قوله تعالى ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليخذل بعضهم بعضاً يخربوا
ورحمة ربك خير مما يجمعون فقد تبين ان الجاه هو القدرة الحاملة لتبشر على التصرف
فمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالاذن والمع والتسلط بالفهر والغلبة لجهلهم على
دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسبابة وعلى أغراضه
فيما سوى ذلك ولما كان الاقل مقصود في العناية الربانية بالذات والثاني داخل فيها
بالعرض كسائر الشرور الداخلة في القضاء الالهي لانه قد لا يتم وجود الخير الكثير
الا بوجود شر يسير من أجل الموادق لا يقوت الخير بذلك بل يقع على ما ينطوي عليه
من الشر اليسير وهذا معنى وقوع الظلم في الخليفة فتفهم ثم ان كل طئمة من طبايق

أهل العمران من مدينة أو إقليم لها قدرة على من دونها من الطباق وكل واحد من
 الطبقة السفلى يستمدبذى الجاه من أهل الطبقة التي فوقه ويزداد كسبه من رفاة من
 تحت يده على قدر ما يستفيد منه والجاه على ذلك داخل على الناس في جميع أبواب
 المعاش ويتسع ويضيق بحسب الطبقة والطور الذي فيه صاحبه فان كان الجاه
 تسعا كان الكسب الناشئ عنه كذلك وان كان ضيقا قل لا فثله وفاقدا الجاه وان كان
 له مال فلا يكون يساره الا بقدار عمله أو ماله ونسبة سعته ذاهبا وآيا في تنميته كما
 كثير التجار وأهل الفلاحة في الغالب وأهل الصنائع كذلك اذا فقدوا الجاه واقتصروا
 على فوائد صنائعهم فانهم يصيرون الى الفقر والخصاصة في الاكثر ولا تسرع اليهم
 ثروة وانما يرمقون العيش ترميقا ويدافعون ضرورة الفقر مدافعة واذا تقرر ذلك
 وأن الجاه متفرع وأن السعادة والخير معترنان بحصوله علمت أن بذله وافادته من
 أعظم النعم وأجلها وأن باذله من أجل المنعمين وانما يذنه من تحت يديه فيكون بذله
 يسد عالية وعزة فيحتاج طالبه ومبتغيه الى خضوع وعلق كما يسأل أهل العز والمولوك
 والافيتعذر حصوله فلذلك قلنا ان الخضوع والتلق من أسباب حصول هذا الجاه
 المحصل للسعادة والكسب وان أكثر أهل الثروة والسعادة هم هذا التلق ولهذا نجد
 الكثير من يتخلق بالترفع والشتم لا يحصل لهم عرض الجاه فيقتصرون في الكسب على
 أعمالهم ويصيرون الى الفقر والخصاصة . واعلم أن هذا الكبر والترفع من الاخلاق
 المذمومة انما يحصل من توهم الكمال وأن الناس يحتاجون الى بضاعته من علم
 أو صناعة كالعالم المتبحر في علمه أو الكاتب المجيد في كتابته أو الشاعر البليغ في شعره
 وكل محسن في صناعته يتوهم أن الناس يحتاجون لما يده فيحدث له ترفع عليهم بذلك
 وكذا يتوهم أهل الانساب من كان في آباءه ملك أو عالم مشهورا وكامل في طور ويعبرون
 بما رأوه أو سمعوه من حال آباءهم في المدينة ويتوهمون أنهم احتحقوا مثل ذلك بقربابهم
 اليهم ووراثتهم عنهم فهم مستمسكون في الحاضر بالامر المعلوم وكذلك أهل الحيلة
 والبصر والتجارب بالامور قد يتوهم بعضهم كالأف في نفسه بذلك واحتياجا اليه وتجدد
 هؤلاء الاصل نافع كما هم ترفعين لا يحضرون لصاحب الجاه ولا يخلقون ان هو أعلى
 منهم ويستصغرون من سواهم لا اعتقادهم الفضل على الناس فيستكف أحدهم عن
 الخضوع ولو كان للملك وبهته مذلة وهو انما وسفها ويحاسب الناس في معاهلهم
 اياه بتدبير ما يتوهم في نفسه ويحقد على من قصر له في شيء مما يتوهمه من ذلك
 وربما يدخل على نفسه الهموم والاحزان من تقصيرهم فيه ويستمر في عناء عظيم من
 اجباب الحق لنفسه أو اباية الناس له من ذلك ويحصل له المقت من الناس لما في طماع

البشر من التأله وقل أن يسلم أحد منهم لاحد في الكمال والترفع عليه إلا أن يكون
 ذلك بنوع من القهر والغلبة والاستطالة وهذا كله في ضمن الجاه فإذا فقد صاحب
 هذا الخلق الجاه وهو مفقوده كما تبين لك مقتته الناس بهذا الترفع ولم يحصل له حظ
 من احسانهم وفضل الجاه لذلك من أهل الطبقة التي هي أعلى منه لاجل المقت
 وما يحصل له بذلك من القعود عن تعاهدهم وغشيان منازلهم ففسد معاشه وبقى في
 خصاصة وفقر أو فوق ذلك بقليل وأما الثروة فلا تحصل له أصلاً ومن هذا اشتريين
 الناس أن الكامل في المعرفة محروم من الحظ وأنه قد حوسب بما رزق من المعرفة
 واقتطع له ذلك من الحظ وهو - ذامعناه ومن خلق لشي يسره والله المقدر لارب سواه
 ولقد يقع في الدول اضراب في المراتب من أهل هذا الخلق ويرتفع فيها كثير من السفلة
 وينزل كثير من العلية بسبب ذلك وذلك أن الدول اذا بلغت نهايتها من التغلب
 والاستيلاء انفرد منها منبت الملك بملكهم وسلطانهم ويؤس من سواهم من ذلك وانما
 صاروا في مراتب دون مرتبة الملك وتحت يد السلطان وكانهم خول له فاذا استمرت
 الدولة وشمع الملك تساوى حينئذ في المنزلة عند السلطان كل من انتهى الى خدمته
 وتقرّب اليه بنصيحة واصطنعه السلطان لغنائه في كثير من مه - مانه فوجد كثير من
 السوقة يسعى في التقرب من السلطان بجده وصحة ويتزاف اليه بوجوه خدمته
 ويستعين على ذلك بعظيم من الخضوع والتلق له ولخاشيته وأهل نسبه حتى يرسخ قدمه
 معهم وينظمه السلطان في جلته فيحصل له بذلك حظ عظيم من السعادة وينتظم في عدد
 أهل الدولة وناشئة الدولة حينئذ من أبناء قومها الذين ذلوا واضغانهم ومهدوا أكافهم
 مغترون بما كان لا ياتهم في ذلك من الآثار لم تسمع به نفوسهم على السلطان ويعتدون
 بآثاره ويجرون في مضمار الدولة بسببه فيمقتهم السلطان لذلك ويأخذهم ويعمل الى
 هؤلاء المصطنعين الذين لا يعتدون بقديم ولا يذهبون الى دالة ولا ترفع انما دأبهم
 الخضوع له والتلق والاعمال في غرضه متى ذهب اليه فيتسع جاههم وتعلو منازلهم
 وتنصرف اليهم الوجوه والخواطر بما يحصل لهم من قبل السلطان والمكانة عنده ويبقى
 ناشئة الدولة فيما هم فيه من الترفع والاعتداد بالقديم لا يزيدهم ذلك الا بعد امن
 السلطان ومقتاوا واثار هؤلاء المصطنعين عليهم الى أن تنقرض الدولة وهذا امر
 طبيعي في الدولة ومنه جاء شأن المصطنعين في الغالب والله سبحانه وتعالى أعلم وبه
 التوفيق لارب سواه

٧ فصل في ان القائمين بامور الدين من القضاء والفتيا والتدريس والامامة

والخطابة والاذان ونحو ذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب

والسبب لذلك أن الكسب كما قدمناه قيمة الاعمال وأنها متفاوتة بحسب الحاجة إليها فإذا كانت الاعمال ضرورية في العمران عامة البلوى به كانت قيمتها أعظم وكانت الحاجة إليها أشد وأهل هذه البضائع الدينية لا تضطر إليهم عامة الخلق وإنما يحتاج إلى ما عندهم الخواص ممن أقبل على دينه وإن احتجج إلى الفتيا والقضاء في الخصومات فليس على وجه الاضطرار والعموم فيقع الاستغناء عن هؤلاء في الأثر وانما يتم بإقامة مراسم صاحب الدولة بماله من النظر في المصالح فيقسم لهم حظ من الرزق على نسبة الحاجة إليهم على النحو الذي قررناه لا يساويهم بأهل الشوك ولا بأهل الصنائع من حيث الدين والمراسم الشرعية لكنه يقسم بحسب عموم الحاجة وضرورة أهل العمران فلا يصح في قسمهم إلا القليل وهم أيضا لشرف بضائعهم أعز على الخلق وعند نفوسهم فلا يخضعون لأهل الجاه حتى يناوأمه حفا يستدرون به الرزق بل ولا تفرغ أوقاتهم لذلك لما هم فيه من الشغل بهذه البضائع الشريفة المشتملة على أعمال الفكر والبدن بل ولا يسعهم ابتداء أنفسهم لأهل الدنيا لشرف بضائعهم فهم معزل عن ذلك فلذلك لا تعظم ثروتهم في الغالب ولقد باحثت به عن الفضلاء فنكر ذلك على وقوعه بيدي أوراق مخترقة من حسابات الدواوين يدار المأمون تشتمل على كثير من الدخل والخرج وكان فيما طالعت فيه أرزاق القضاة والائمة والمؤذنين فوقتته عليه وعلم منه صحة ما قلته ورجع اليه وقضينا العجب من أسرار الله في خلقه وحكمته في عوالمه والله الخالق القادر لا رب سواه

٨ (فصل في ان الفلاحة من معاش المستضعفين واهل العافية من البدو)

وذلك لانه أصيل في الطبيعة وبسيط في منجاءه ولذلك لا تجده يتحمله أحد من أهل الحضرة في الغالب ولا من المترفين ويختص به متحله بالمذلة قال صلى الله عليه وسلم وقد رأى السكة ببعض دور الانصار ما دخلت هذه دار قوم الا دخله الذل وحمله البخاري على الاستكثار منه وترجم عليه باب ما يحذر من عواقب الاشتغال بالآلة الزرع أو تجاوز الحد الذي أمر به والسبب فيه والله أعلم ما يتبعها من المغرم المفضي إلى التحكم والبد العالية فيكون الغارم ذليلاً بائساً بما تناوله أيدي القهر والاستطالة قال صلى الله عليه وسلم لا تقوم الساعة حتى تعود الزكاة مغرماً إشارة إلى الملك العضوض القاهر للناس الذي معه التسلط والجور ونسباً إلى حقوق الله تعالى في المقولات واعتبار الحقوق كماها مغرم للملوك والدول والله قادر على ما يشاء والله سبحانه

اعلم أن التجارة محاولة الكسب بتجربة المال بشراء السلع بالرخس وبيعها بالغلاء
 أيما كانت السلعة من رقيق أو زرع أو حيوان أو قماش وذلك القدر النامي يسمى
 ربحا فالمحاولة لذلك الربح إما أن يخبزن السلعة ويهين بها حوالة الاسواق من
 الرخص الى الغلاء فيعظم ربحه وإما بأن ينقله الى بلد آخر تنفق فيه تلك السلعة أكثر
 من بلده الذي اشتراها فيه فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب
 الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي فقد
 حصلت التجارة إشارة له بذلك الى المعنى الذي قررناه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه
 التوفيق لأرب سواه

١٠ (فصل في اي اصناف الناس يحترف بالتجارة وايهم ينبغي له اجتناب حرفها

قد قدمنا أن معنى التجارة تنمية المال بشراء البضائع ومحاولة بيعها بأغلى من ثمن
 الشراء إما بانظار حوالة الاسواق أو نقلها الى بلد هي فيه أنفق وأغلى أو بيعها بالغلاء
 على الآجال وهذا الربح بالنسبة الى أصل المال يسيرا لأن المال اذا كان كثيرا
 عظم الربح لأن القليل في الكثير كثير ثم لا بد في محاولة هذه التنمية من حصول هذا المال
 بأيدي البساء في شراء البضائع وبيعها ومعاملتهم في تقاضي أثمانها وأهل النصفة قليل
 فلا بد من الغش والتطفيف المخفض بالبضائع ومن المطل في الاثمان المخفض بالربح
 كتعطيل المحاولة في تلك المدة وبيعها غماؤه ومن الجود والانكار المسحت لرأس المال ان
 لم يتقيد بالكتاب والشهادة وغشاء الحكام في ذلك قليل لأن الحكم انما هو على الظاهر
 فيعاني التاجر من ذلك أحوال الصعبة ولا يكاد يحصل على ذلك التاجر من الربح الا بعظم
 العناء والمشقة أو لا يحصل أو يتلاشى رأس ماله فان كان جريشا على الخصومة بصيرا
 بالحسبان شديد المماحكة مقدما على الحكام كان ذلك أقرب له الى النصفة بجرائته
 منهم ومما حكته والافلا بد له من جاه يدرع به يوقع له الهيبة عند الباعة ويحمل الحكام
 على انصافه من معاملته فيحصل له بذلك النصفة في ماله طوعا في الاول وكرها في الثاني
 وأما من كان فاقدا للتجربة والاقدام من نفسه فاقد الجاه من الحكام فينبغي له أن
 يجتنب الاحتراف بالتجارة لانه يمرض ماله للضياع والذهاب ويصير ماله للبيعة ولا
 يكاد يتصف منهم لأن الغالب في الناس وخصوصا الرعاع والبيعة شرهون الى مافي
 أيدي الناس سواهم متوثبون عليه ولولا اوزاع الاحكام لاصبحت أموال الناس نهباً

ولو ادفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض ولكن الله ذو فضل على العالمين

١١ (فصل في ان خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك)

وذلك ان التجار في غالب احوالهم انما يعانون البيع والشراء ولا يتدبرون المكايسة ضرورة فان اقتصر عليها اقتصرت به على خلقها وهي اعنى خلق المكايسة بعيدة عن المرواة التي تخلق بها الملوك والاشراف واما ان استرذل خلقه بما يتبع ذلك في اهل الطبقة السفلى منهم من المماحكة والغش والخلاية وتعاهد الايمان الكاذبة على الايمان ردا وقبولا فاجدر بذلك الخلق ان يكون في غاية المدلة لما هو معروف ولذلك تجدد اهل الرياسة يتحامون الاحتراف بهذه الحرفة لاجل ما يكسب من هذا الخلق وقد يوجد منهم من يسلم من هذا الخلق ويتحاماها لشرف نفسه وكرم جلاله الا انه في النادرين الوجود والله يهدي من يشاء بفضله وكرمه وهو رب الاولين والاخرين

١٢ (فصل في نقل التاجر للسلع)

التاجر البصير بالتجارة لا ينقل من السلع الاماتم الحاجة اليه من الغنى والفقير والسلطان والسوقة اذ في ذلك نفاق سلته واما اذا اختص نقله بما يحتاج اليه البعض فقط فقد يتعذر نفاق سلته حينئذ باعوا والشراء من ذلك البعض لعارض من العوارض ففسد سوقه وتفسد ارباحه وكذلك اذا نقل السلعة المحتاج اليها فانما ينقل الوسط من صنفها فان العالي من كل صنف من السلع انما يختص به اهل الثروة وحاشية الدولة وهم الاقل وانما يكون الناس اسوة في الحاجة الى الوسط من كل صنف فليحتر ذلك جهده ففيه نفاق سلته او كرهها وكذلك نقل السلع من البلد البعيد المسافة او في شدة الخطر في الطرقات يكون اكثر فائدة للتجار واعظم ارباحا واكفلا بحواله الاسواق لان السلعة الممتولة حينئذ تكون قليلة معوزة لبعدها مكانها او شدة الفرر في طريقها فيقل حاملوها ويعز وجودها واذا قلت وعزت غلت اثمانها واما اذا كان البلد قريب المسافة والطريق سابل بالامن فانه حينئذ يكثر ناقلوها فتكثر وترخص اثمانها ولهذا تجدد التجار الذين يولعون بالدخول الى بلاد السودان ارفه الناس واكثرهم اموالا لبعدهم عن مشقته واعراض المغازة الصعبة المخطرة بالخوف والعطش لا يوجد في الماء الا في اماكن معلومة يهتدى اليها ادلاء الركبان فلا يرتكب خطر هذا الطريق وبعده الا الاقل من الناس فتجد سلع بلاد السودان قليلة لا ينافيها في الغلاء وكذلك سلعنا لديهم فتعظم بضائع التجار من

تناقلها ويسرع اليهم الغنى والثروة من أجل ذلك وكذلك المسافرون من بلادنا الى
المشرق لبعده الشقة أيضا وأما المترددون في أفق واحد ما بين أمصاره وبلدانه
فغائدتهم قليلة وأرباحهم تافهة لكثرة السلع وكثرة ناقلها والله هو الرزاق ذو القوة
المتين

١٣ (فصل في الاحتكار)

وما اشتهر عند ذوى البصر والتجربة في الامصار أن احتكار الزرع لتحين أوقات
الغلاء مشؤم وأنه يهود على فائده بالتلف والخسران وسببه والله أعلم أن الناس
لحاجتهم الى الاقوات مضطرون الى ما يذلون فيها من المال اضطراراً فتيق النفوس
متعلقة به وفي تعلق النفوس بما لها سرّ كبير في وبالها على من يأخذها مجاناً ولعله الذي
اعتبره الشارع في أخذ أموال الناس بالباطل وهذا وان لم يكن مجاناً فالنفوس
متعلقة به لاعطائه ضرورة من غير سعة في العذر فهو كالمكره وما عدا الاقوات
والمأكولات من المبيعات لا اضطرار للناس اليها وانما يهتم عليها التفتن في
الشهوات فلا يذلون أموالهم فيها الا باختيار وحرص ولا يبق لهم تعلق بما عطوه
فلهذا يكون من عرف بالاحتكار تجتمع القوى النفسانية على متابعته لما يأخذ
من أموالهم فيفسد ربحه والله تعالى أعلم * وسمعت فيما يناسب هذا حكاية
ظريفة عن بعض مشيخة المغرب أخبرني شيخنا أبو عبد الله الأبلّ قال حضرت عند
القاضي بن فاس لعهد السلطان أبي سعيد وهو الفقيه أبو الحسن المليبي وقد عرض عليه
أن يختار بعض الاقواب المخزنية لجرأته قال فأطرق مليانم قال لهم من مكر
الخرق استخلك الحاضرون من أصحابه وعجبوا وسألوه عن حكمة ذلك فقال اذا كانت
الجبايات كلها حراماً فاختار منها ما لا يتابعه نفس معطيه والخرق أن يذلل فيه أحد ماله
الا وهو طرب مسرور بوجوده غير أسف عليه ولا متعلقة به نفسه وهذه ملاحظة غريبة
والله سبحانه وتعالى يعلم ما تكن الصدور

١٤ (فصل في ان رخص الاسعار مضر بالمحترفين بالرخص)

وذلك أن الكسب والمعاش كما قدمناه انما هو بالصنائع أرب التجارة والتجارة هي شراء
البضائع والسلع وادخالها يتحين بها حوالة الاسواق بالزيادة في أثمانها ويسمى ربحها
ويحصل منه الكسب والمعاش للمعترفين بالتجارة دائماً فاذا استديم الرخص في سلعة
أو عرض من مأكول أو ملبوس أو ممنول على الجملة ولم يحصل لتاجر حوالة الاسواق
فسد الربح والمانع بطول تلك المدة وكسدت سوق ذلك الصنف فقعد التجار عن السعي

فيها وفسدت رؤوس أموالهم واعتبر ذلك أولاً بالزرع فإنه إذا استديم رخصه يفسد به حال المحترفين بسائر أطوارهم من القلع والزراعة لقلة الربح فيه وندارته أو فقده فيفقدون النماء في أموالهم أو يجدونه على قلة ويعودون بالاتفاق على رؤوس أموالهم وتفسد أحوالهم ويصيرون إلى الفقر والخصاصة ويتبع ذلك فساد حال المحترفين أيضاً بالطحن والخبز وسائر ما يتعلق بالزراعة من الحث إلى صيرورته ما كولا وكذا يفسد حال الجنود إذا كانت أرزاقهم من السلطان على أهل القلع زرعاً فإنها تقل جبايتهم من ذلك ويعجزون عن إقامة الجندية التي هم بسببها ومطالبون بها ومنقطعون لها فتفسد أحوالهم وكذا إذا استديم الرخص في السكر والعسل ففسد جميع ما يتعلق به وقعد المحترفون عن التجارة فيه وكذا الملابس إذا استديم فيها الرخص فإذا الرخص المفرط يجحف بمعاش المحترفين بذلك الصنف الرخيص وكذا الغلاء المفرط أيضاً وانما معاش الناس وكسبهم في التوسط من ذلك وسرعة حوالة الأسواق وعلم ذلك يرجع إلى العوائد المقررة بين أهل العمران وانما يحمدهم الرخص في الزرع من بين المبيعات لعموم الحاجة إليه واضطرار الناس إلى الأقوات من بين الغنى والفقير والعالة من الخلق هم الأكثر في العمران فيم الرقوب بذلك ويرجع جانب القوت على جانب التجارة في هذا الصنف الخاص والله الرزاق ذو القوة المتين والله سبحانه وتعالى رب العرش العظيم

١٥ (فصل في ان خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعبارة عن المرواة)

قد قدمنا في الفصل قبله أن التاجر مدفوع إلى معاناة البيع والشراء وجلب القوائد والارباح ولا بد في ذلك من المكايسة والمماحكة والتحدلق وممارسة الخصومات واللباح وهي هوارض هذه الحرفة وهذه الارصاف نقص من الذكاء والمرواة وتجرح فيها لان الافعال لا بد من عود آثارها على النفس فأفعال الخير تعود بآثار الخير والذكاء وأفعال الشر والسفسفة تعود بضد ذلك فتتمكن وترسخ ان سبقت وتكررت وتنقص خلال الخير ان تأخرت عنها بما ينطبع من آثارها المذمومة في النفس شأن الملكات الناشئة عن الافعال وتتفاوت هذه الآثار بتفاوت أصناف التجار في أطوارهم فمن كان منهم سافل الطور مخالفاً لاشرار الباعة أهل الغش والخلافة والتجور في الاثمان اقراراً وانكاراً كانت رداة تلك الخلق عنه أشد وغلبت عليه السفسفة وبعد عن المرواة واكتسبها بالجملة والافلا بد له من تأثير المكايسة والمماحكة في مرواه وفقدان ذلك منهم في الجملة ووجود الصنف الثاني منهم الذي

قد مناه في الفصل قبله أنهم يدعون بالجاء ويعرض لهم من مباشرة ذلك فهم نادر وأقل من النادر وذلك أن يكون المال قد يوجد عنده دفعة بنوع قريب أو ورثة عن أحد من أهل بيته فحصلت له ثروة تعينه على الاتصال بأهل الدولة وتكسبه ظهوراً وشهرة بين أهل عصره فيرتفع عن مباشرة ذلك بنفسه ويدفعه إلى من يقوم له به من وكلائه وحشمه ويسهل له الحكام النصفة في حقوقهم بما يؤنسونه من بره واتخافه فيبعدونه عن تلك الخلق بالبعد عن معاناة الأفعال المقتضية لها كما مر فتكون مرؤاتهم أرسخ وأبعد عن تلك المحاجاة إلا ما يسرى من آثار تلك الأفعال من وراء الحجاب فانهم يضطرون إلى مشاركة أحوال أولئك الوصلاء ووفاتهم أو خلافهم فيما يتون أو يذرون من ذلك إلا أنه قليل ولا يكاد يظهر أثره والله خالقكم وما تعملون

١٦ (فصل في ان الصنائع لا بد لها من المعلم)

(اعلم) أن الصناعة هي ملكة في أمر على تفكرى وبكونه عملياً هو جسماني محسوس والاحوال الجسمانية المحسوسة فنقلها بالمباشرة أو بحسب لها أو أكمل لأن المباشرة في الاحوال الجسمانية المحسوسة أتم فائدة والملكية صفة راسخة تحصل من استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد أخرى حتى ترسخ صورته وعلى نسبة الأصل تكون الملكية ونقل المعاينة أوعب وأتم من نقل الخبر والعلم فالملكية الحاصلة عنه أكمل وأرسخ من الملكية الحاصلة عن الخبر وعلى قدر جودة التعليم وملكة المتعلم يكون مذاق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته ثم ان الصنائع منها البسيط ومنها المركب والبسيط هو الذي يختص بالضروريات والمركب هو الذي يكون للكليات والمتممة منها في التعليم هو البسيط لبساطته أو لاولادته مختص بالضروري الذي تتوفر الدواعي على نقله فيكون سابقاً في التعليم ويكون تعليمه لذلك ناقصاً ولا يزال الفكر يخرج أصنافها ومركباتها من القوة إلى الفعل بالاستنباط شيئاً على التدرج حتى تكمل ولا يحصل ذلك دفعة وانما يحصل في أزمان وأجيال اذ خروج الاشياء من القوة إلى الفعل لا يكون دفعة لاسيما في الامور الصناعية فلا بد له اذن من زمان ولهذا تجد الصنائع في الامصار الصغيرة ناقصة ولا يوجد منها الا البسيط فاذا تزايدت حضارتها ودعت أمور الترف فيها إلى استعمال الصنائع خرجت من القوة إلى الفعل وتنقسم الصنائع أيضاً إلى ما يختص بأمر المعاش ضرورياً وكان أو غير ضروري وإلى ما يختص بالفكر التي هي خاصة الانسان من العلوم والصنائع والسياسة ومن الاقل الحياكة والجزارة والتجارة والحداة وأمثالها ومن الشان الوراثة وهي

معاونة الكتب بالانتساخ والتجليد والغناء والشعر وتعليم العلم وأمثال ذلك ومن
الثالث الجندية وأمثالها والله أعلم

١٧ (فصل في ان الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري و كثرته)

والسبب في ذلك أن الناس ما لم يسبغوا في العلم والاعمال وتمدن المدينة انما هم مهم في الضروري من المعاش وهو تحصيل الاقوات من الخنطة وغيرها فاذا تمدنت المدينة وتزايدت فيها الاعمال ووفت بالضروري وزادت عليه صرف الزائد حينئذ الى الكالات من المعاش ثم ان الصنائع والعلوم انما هي للانسان من حيث فكره الذي يتميز به عن الحيوانات والقوت له من حيث الحيوانية والغذائية فهو مقدم لضروريته على العلوم والصنائع وهي متأخرة عن الضروري وعلى مقدار عمران البلد تكون جودة الصنائع للتائق فيها حينئذ واسمادة ما يطلب منها بحيث تتوفر دواعي الترف والتروة وأما العمران البدوي أو القليل فلا يحتاج من الصنائع الا البسيط خاصة المستعمل في الضروريات من نجار أو حداد أو خياط أو حائك أو جزار واذا وجدت هذه بعد فلا توجد فيه كاهله ولا مستجدة وانما يوجد منها بقدر الضرورة اذ هي كاهل وسائل الى غيرها وليست مقصودة لذاتها واذا خرج العمران وطلبت فيه الكالات كان من جلتها التائق في الصنائع واستجداتها ككملت بجميع منماتها وتزايدت منمات أخرى معها مما تدعو اليه عوائد الترف وأحواله من جزار ودباغ وخرزاز وصنائع وأمثال ذلك وقد تنتهي هذه الاصناف اذا استبحر العمران الى ان يوجد منها كثير من الكالات والتائق فيها في الغاية وتكون من وجوه المعاش في المصر لمتعلها بل تكون فائدتهم من أعظم فوائد الاعمال لما يدعوا اليه الترف في المدينة مثل الدهان والصفار والجمامى والطباخ والسفاح والهرايس ومعلم الغناء والرقص وقرع الطبول على التوقيع ومثل الوراقين الذين يعانون صناعة انتساخ الكتب وتجليدها وتصحيحها فان هذه الصناعة انما يدعوا اليها الترف في المدينة من الاشتغال بالامور الفكرية وأمثال ذلك وقد تخرج عن الحد اذا سكن العمران خارجا عن الحد كما بلغنا عن أهل مصر أن فيهم من يعلم الطيور العجم والجر الانسية وتخيل أشياء من الهجائب بايهاهم قلب الاعيان وتعليم الحداء والرقص والمشي على الخيوط في الهواء ورفع الاثقال من الحيوان والحجارة وغير ذلك من الصنائع التي لا توجد عندنا بالمغرب لان عمران أمصاره لم يبلغ عمران مصر والقاهرة اذ دام الله عمرانها بالمسلمين

١٨ (فصل في ان رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول امدها)

والسبب في ذلك ظاهر وهو أن هذه كلها عوائد للعمران وألوان والعوائد انما ترسخ
بكثرة التكرار وطول الامد فتستحكم صبغة ذلك وترسخ في الاجيال واذا
استحكمت الصبغة عسر نزاعها ولهذا نجد في الامصار التي كانت استعمرت في الحضارة
لما تراجع عمراتها وتنقص بقيت فيها آثار من هذه الصناعات ليست في غيرها من
الامصار المستحدثة العمران ولو باغت مبالغها في الوفور والكثرة وما ذاك الا لان
أحوال تلك القديمة العمران مستحكمة راسخة بطول الاحقاب وتداول الاحوال
وتكررها وهذه لم تبلغ الغاية بعد وهذا كالحال في الاندلس لهذا العهد فانا نجد فيها
رسوم الصناعات قائمة وأحوالها مستحكمة راسخة في جميع ما تدعو اليه عوائد
امصارها كالمباني والطبخ وأصناف الغناء واللهو من الآلات والاوراق والرقص
وتنضيد الفرش في القصور وحسن الترتيب والاوزاع في البناء وصوغ الآنية من
المعادن والخزف وجمع الموازين وانما الولائم والاعراس وسائر الصناعات التي يدعو
اليها الترف وعوائده فيجدهم أقوم عليها وأبصر بها ونجد صناعاتها مستحكمة لديهم
فهم على حصة موفورة من ذلك وحظ متعززين بجميع الامصار وان كان عمراتها قد
تناقص والكثير منه لا يساوي عمران غيرها من بلاد العدو وما ذاك الا لما قدمنا من
رسوخ الحضارة فيهم بروح الدولة الاموية وما قبلها من دولة القوط وما بعدهما من
دولة الطوائف الى هلم جرت اقباحت الحضارة فيهما بلغ عالم تبلغه في قطر الاما ينقل عن
العراق والشام ومصر ايضا الطول آما الدول فيها فاستحكمت فيها الصناعات وكملت
جميع أصنافها على الاستجداء والتتميق وبقيت صبغتها ثابتة في ذلك العمران لا تفارقه
الى أن ينتقض بالكلية حال الصبغ اذا رسخ في الثوب وكذلك ايضا حال تونس فيما
حصل فيها بالحضارة من الدول الصنهاجية والموحدين من بعدهم وما استكمل لها
في ذلك من الصناعات في سائر الاحوال وان كان ذلك دون الاندلس الا أنه متضاعف
برسوم منها تنقل اليها من مصر اقرب المسافة بينهما وتردد المسافرين من قطرها الى
قطر مصر في كل سنة وربما سكن أهلها هنالك عصورا فيقلون من عوائد ترفهم ومحكم
صناعاتهم ما يقع لديهم موقع الاستحسان فصارت أحوالها في ذلك متشابهة من أحوال
مصر لما ذكرناه ومن أحوال الاندلس لما ان أكثر ساكنها من شرق الاندلس حين
الجلاء لعهد المائة السابعة ورسخ فيها من ذلك أحوال وان كان عمراتها ليس بمنسب
لذلك لهذا العهد الا أن الصبغة استحكمت فقليل ما تحول الازوال محلها وكذا نجد
بالقيروان ومراكش وقلعة بن حماد اثر ابا قيس من ذلك وان كانت هذه كلها اليوم خرابا
أو في حكم الخراب ولا يتفطن لها الا البصير من الناس فيجد من هذه الصناعات آثارا

تدله على ما كان بها كـ أثر الخط المعقوف في الكتاب والله الخلاق العليم

١٩ (فصل في ان الصنائع انما استجدت وتكثر اذا كثر طالبها)

والسبب في ذلك ظاهر وهو ان الانسان لا يسمع بعمله ان يقع مجبانا لانه كسبه ومنه
معاشه اذ لا فائدة له في جميع عمره في شيء مما سواه فلا يصرفه الا فيما له قيمة في مصره ليعود
عليه بالذم وان كانت الصناعة مطلوبة وتوجه اليها اتفاق كانت - منذ الصناعة
بمناجاة السلعة التي تنفق سوقها وتجلب للبيع فتجتهد الناس في المدينة لتعلم تلك الصناعة
ليكون منها معاشهم واذالم تكن الصناعة مطلوبة لم تنفق سوقها ولا يوجه قصد الى تعلمها
فاختصت بالترك وفسدت للاهمال ولهذا يقال عن علي رضي الله عنه قيمة كل امرئ
ما يحسن بمعنى ان صناعته هي قيمته أي قيمة عمله الذي هو معاشه وأيضا فمناسر آخر
وهو ان الصنائع واجادتها انما تطلبها الدولة فهي التي تنفق سوقها وتوجه الطلبات اليها
ومالم تطلبه الدولة وانما يطلبها غيرها من أهل المصر فليس على نسبتها ان الدولة هي
السوق الاعظم وفيها اتفاق كل شيء والقليل والكثير فيها على نسبة واحدة فانفق منها
كان أكثر باضرورة والسوق ان طلبوا الصناعة فليس طلبهم بعام ولا سوقهم بناقصة
والله سبحانه وتعالى قادر على ما يشاء

٢٠ (فصل في ان الامصار اذا قاربت الخراب انتقصت منها الصنائع)

وذلك لما بينا ان الصنائع انما استجدت اذا احتج اليها وكثر طالبها واذا ضعفت احوال
المصر وأخذ في الهرم بانقراض عمرانها وقله ساكنه تناقص فيه الترف ورجعوا الى
الاقتصار على الضروري من احوالهم فتقل الصنائع التي كانت من توابع الترف لان
صاحبها حينئذ لا يصح له بها معاشه فيفر الى غيرها ويعت ولا يكون خلف منه فيذهب
رسم تلك الصنائع جملة كما يذهب النقاشون والصواغ والكتاب والنساخ وأمثالهم من
الصنائع لحاجات الترف ولا تزال الصنائع في التناقص ما زال المصر في التناقص الى
ان تضمحل والله الخلاق العليم سبحانه وتعالى

٢١ (فصل في ان العرب ابعد الفساد عن الصنائع)

والسبب في ذلك أنهم أعرق في البدو وأبعد عن العمران الحضري وما يدعوا اليه من
الصنائع وغيرها والعجم من أهل المشرق وأم النصرانية عدوة البحر الرومي أقوم الناس
عليها لانهم أعرق في العمران الحضري وأبعد عن البدو وعمرانه حتى ان الابل التي
أعانت العرب على التوحش في القفر والاعراق في البدو مفقودة لديهم بالجملة ومنقودة
مراعيها والرمال المهينة لتساجها ولهذا نجد أوطان العرب وما ملكوه في الاسلام قليل

الصنائع بالجملة حتى تجلب اليه من قطر آخر وانظر بلاد العجم من الصين والهند
وأرض الترك وأم النصرانية كيف استنكرت فيهم الصنائع واستجلبها الامم من
عندهم وعجم المغرب من البربر مثل العرب في ذلك رسوخهم في البداوة منذ أحقاب
من السنين ويشهدك بذلك قلة الامصار بقطرهم كما قدمناه فالصنائع بالمغرب لذلك
قليلة وغير مستحكمة الا ما كان من صناعة الصوف من نسجه والجلد في خرزه وديقه
فانهم لما استحضروا بلغوا فيها المبالغ اعموم البلوى بها وكون هذين أغلب السلع
في قطرهم لما هم عليه من حال البداوة وأما المشرق فقد ربحت الصنائع فيه منذ ملك
الامم الاقدمين من الفرس والنبط والقبط وبنى اسرائيل ويونان والروم أحقابا
متطاولة فرسخت فيهم أحوال الحضارة ومن جلتها الصنائع كما قدمناه فلم يجمع ربحها وأما
اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وان ملكه العرب الا أنهم تداروا ملكه آلافا من
السنين في أمم كثيرين منهم واختطوا أمصاره ومدنه وبلغوا الغاية من الحضارة والترف
مثل عاد وثمود والعلم الملقه وحير من بعدهم والتابعة والاذواء فطال أمد الملك
والحضارة واستحكمت صبغتها وتوفرت الصنائع ورسخت فلم يبلبى الدرلة كما قدمناه
فبقيت مستحكمة حتى الآن واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشي والعصب وما
يستجد من حول النياب والحري فيها والله وارث الارض ومن عليها وهو خير
الوارثين

٢٢ فصل في من جمات له ملكة في صناعة فقل ان يجيد بعدها ملكة في اخرى

ومثال ذلك الخياط اذا اجاد ملكة الخياطة وأحكمها ورسخت في نفسه فلا يجيد من
بعدها ملكة النجارة والبناء الا أن تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها
والسبب في ذلك أن الملكات صفات للنفس وألوان فلا تزدهم دفعة ومن كان على
الفطرة كان أسهل لقبول الملكات وأحسن استعدادا للحصول لها فاذا تلونت النفس
بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد باللون الحاصل من هذه
الملكة فكان قد واهى الملكة الاخرى أضعف وهذا بين يشهد له الوجود فقل أن يجيد
صاحب صناعة يحكمها ثم يحكم من بعدها اخرى ويكون فيهما معا على رتبة واحدة
من الاجادة حتى ان أهل العلم الذين ملكتهم فكرية فهم بهذه المثابة ومن حصل منهم
على ملكة علم من العلوم وأجادها في الغاية فقل أن يجيده ملكة علم آخر على نسبه بل
يكون مقصرا فيه ان طلبه الا في الاقل النادر من الاحوال ومبنى سببه على ما ذكرناه
من الاستعداد وتلويته بلون الملكة الحاصلة في النفس والله سبحانه وتعالى أعلم وبه
التوفيق لارب سواه

اعلم ان الصنائع في النوع الانساني كثيرة لكثرة الاعمال المتداولة في العمران فهو بحيث تشد عن الحصر ولا يأخذها العدا الا ان منها ما هو ضروري في العمران او شريف بالموضوع فنخصها بالذكور ونترك ما سواها فاما الضروري فالفلاحة والبناء والخطاطة والنجارة والحياكة واما الشريفة بالموضوع فكالنوليد والكتابة والوراقة والغناء والطب فاما التوليد فانها ضرورية في العمران وعامة البلوى اذ بها يحصل حياة المولود ويتم فالباوموضوعها مع ذلك المولودون وامتها هم -م واما الطب فهو حفظ الصحة للانسان ودفع المرض عنه ويتفرع عن علم الطبيعة وموضوعه مع ذلك بدن الانسان واما الكتابة وما يتبعها من الوراثة فهي حافظة على الانسان حاجته ومقيدة لها عن النسيان ومبلغه ضمائر النفس الى البعيد الغائب ومخلدة نتائج الافكار والعلوم في الصحف ورافعة رتب الوجود للمعاني واما الغناء فهو نسب الاصوات ومظهر جمالها للاسماع وكل هذه الصنائع الثلاثة تداع الى مخالطة الملوك الاعاظم في خلواتهم ومجالس انسهم فلها بذلك شرف ليس لغيرها وما سوى ذلك من الصنائع فتابعة وممتهنة في الغالب وقد يختلف ذلك باختلاف الاغراض والدواعي والله اعلم بالصواب

هذه الصناعة ثمرتها اتخاذ الاقوات والحبوب بالقيام على اثاره الارض اياه واورداءها وعلاج نباتها وتعهده بالسقي والتنمية الى بلوغ غايته ثم حصاد سنبله واستخراج حبه من غلافه واحكام الاعمال لذلك وتخصيل اسبابه ودواعيه وهي اقدم الصنائع لما انما محصلة للقوت المكمل لحياة الانسان غالبا اذ يمكن وجوده من دون جميع الاشياء الامن دون القوت ولهذا اختصت هذه الصناعة بالبدواذ قدمنا انه اقدم من الحضرة وسابق عليه فكانت هذه الصناعة لذلك بدوية لا يقوم عليها الحضرة ولا يعرفونم الا ان احوالهم كلها نانية على البداوة فصنائعهم نانية عن صنائعها وتابعة لها والله سبحانه وتعالى مقم العباد فيما اراد

هذه الصناعة اول صنائع العمران الحضري واقدمها وهي معرفة العمل في اتخاذ البيوت والمنازل للسكن والماوى للابدان في المدن وذلك ان الانسان لما جبل عليه من الفكر في عواقب احواله لا بد ان يفكر فيما يدفع عنه الاذى من الحر والبرد كاتخاذ

البيوت المكتشفة بالسقف والخيطان من سائر جهاتها والبشر مختلف في هذه الجبلية
 الفكرية ففهم المعتدلون فيها يتخذون ذلك باعتماد أهالي الثاني والثالث والرابع
 والخامس والسادس وأما أهل البدو فيبعدون عن اتخاذ ذلك لقصور أفكارهم من
 ادراك الصنائع البشرية فيبادرون للغيران والكهوف المعدة من غير علاج ثم
 المعتدلون المتخذون للمأوى قديمتا كاثرون في البسيط الواحد بحيث يتناكرون
 ولا يتعارفون فيخشون طروق بعضهم بعضا فيحتاجون الى حفظ مجتمعهم بإدارة ماء
 أو أسوار تحوطهم ويصير جميعا مدينة واحدة ومصر أو احد أو يحوطهم الحكماء من
 داخل يدفع بعضهم عن بعض وقد يحتاجون الى الاتصاف ويتخذون المعامل
 والحصون لهم ولن تحت أيديهم مثل الملوك ومن في معناهم من الامراء وكبار القبائل
 في المدن كل مدينة على ما يتعارفون ويصطلحون عليه ويناسب مزاج هوائهم
 واختلاف أحوالهم في الغنى والفقر وكذا حال أهل المدينة الواحدة ففهم من يتخذ
 القصور والمصانع العظيمة الساحة المشتملة على عدة الدور والبيوت والغرف الكبيرة
 لكثرة ولده وحشمه وعياله وتابعه ويؤسس جدرانها بالحجارة ويلحم بينها بالكس ويعالى
 عليها بالاصبغة والحصص ويغالغ في ذلك بالتنجيد والتنبيق اظهار البسطة بالعناية في شأن
 المأوى ويهيئ مع ذلك الاسراب والمطامير للاختزان لاقواته والاصطبلات لربط مقرباته
 اذا كان من أهل الجنود وكثرة التابع والحاشية كالامراء ومن في معناهم ومنهم من
 يبني الدورية والبيوت لنفسه وسككته وولده لا يتفي ما وراء ذلك لقصور حاله عنه
 واقتصاره على الكن الطبيعي للبشر وبين ذلك مراتب غير منحصرة وقد يحتاج لهذه
 الصناعة أيضا عند تأسيس الملوك وأهل الدول المدن العظيمة والهيما كل المرتفعة
 ويغالغون في اتقان الاوضاع وعلو الاجرام مع الاحكام لتبلغ الصناعة مبالغها وهذه
 الصناعة هي التي تحصل الدواعي لذلك وأكثر ما تكون هذه الصناعة في الاقاليم المعتدلة
 من الرابع وما حواله اذا اقاليم المنحرفة لا بناء فيها وانما يتخذون البيوت حطائر من
 القصب والطين وانما يوجد في الاقاليم المعتدلة له وأهل هذه الصناعة القائمون عليها
 متفاوتون ففهم البصر الماهر ومنهم القاصر ثم هي تتنوع أنواعا كثيرة فمنها البناء بالحجارة
 المنجدة يقام بها الجدران ملصقا بعضها الى بعض بالطين والكس الذي يعقد معها ويلحم
 كأنها جسم واحد ومنها البناء بالتراب خاصة يتخذها الوحان من الخشب مقدران طولاً
 وعرضاً باختلاف الامادات في التقدير وأوسطه أربعة أذرع في ذراعين فينصبان على
 أساس وقد يوجد ما بينهما بما يراه صاحب البناء في عرض الأساس ويوصل بينهما بأذرع
 من الخشب يربط عليهما بالحبال والجدران ويسد الجبهتان الباقيتان من ذلك الخلاء بينهما

بلوحين آخرين صغيرين ثم يوضع فيه التراب مخلطاً بالكلس ويركز بالمرآكز المعدة حتى
 يتم ركزه ويحتلط أجزاءه ثم يزداد التراب ثانياً والثالثاً إلى أن يمتلئ ذلك الخلاء بين اللوحين
 وقد تداخلت أجزاء الكلس والتراب وصارت جسماً واحداً ثم يعاد نصب اللوحين على
 الصورة ويركز كذلك إلى أن يتم وينتظم الألواح كلها سطرًا من فوق سطرًا إلى أن ينتظم
 الحائط كله ملتصقاً كأنه قطعة واحدة ويسمى الطابية وصانعه الطواب ومن صنائع
 البناء أيضاً أن تجلل الحيطان بالكلس بعد أن يحل بالماء ويخمر أسبوعاً أو أسبوعين
 على قدر ما يعتدل مزاجه عن افراط النارية المفسدة للحماء فإذا تم له ما رزاه من
 ذلك علاه من فوق الحائط وذلك إلى أن يلتحم ومن صنائع البناء عمل السقف بأن يمد
 الخشب المحكمة التجارة أو الساذجة على حائط البيت ومن فوقها الألواح كذلك
 موصولة بالدايات ويصب عليها التراب والكلس وييسط بالمرآكز حتى تتداخل
 أجزاءها وتلتحم ويعالى عليها الكلس كما يعالى على الحائط ومن صناعة البناء ما يرجع
 إلى التخيخ والتزيين كما يصنع من فوق الحيطان الأشكال الجسمية من الجص يخمر بالماء
 ثم يرجع جسداً وفيه بقية البلل فيشكل على التماسح تحريماً يشاف الحديد إلى أن
 يبقى له رونق ورواء ورجاع على الحيطان أيضاً يقطع الرخام والآجر والخزف أو
 بالصدف أو السج يفصل أجزاء متجانسة أو مختلفة وتوضع في الكلس على نسب
 وأوضاع مقدرة عندهم يبدو به الحائط للعيان كأنه قطع الرخام المنتمية إلى غير ذلك
 من بناء الجباب والصهاريج لسفع الماء بعد أن تعدي البيوت قصاع الرخام القوراء
 المحكمة الخراط بالفوهات في وسطها ينبع الماء الجاري إلى الصهريج يجلب إليه من
 خارج في القنوات المقضية إلى البيوت وأمثال ذلك من أنواع البناء وتختلف الصنائع
 في جميع ذلك باختلاف الخلق والبصر ويعظم عمران المدينة ويتسع فيكثرون ويرجع
 يرجع الحكام إلى نظره هو لا يفهم أبصر به من أحوال البناء وذلك أن الناس
 في المدن لكثرة الازدحام والعمران يتشاحون حتى في الفضاء والهواء الأعلى والأسفل
 ومن الانتفاع بظاهر البناء مما يتوقع معه حصول الضرر في الحيطان فيمنع جاره من
 ذلك إلا ما كان له فيه حق ويختلفون أيضاً في استحقاق الطرق والمنافذ للمياه الجارية
 والفضلات المسربة في القنوات ويرجمون بعضهم حتى بعض في حائطه أو علوه أو
 قناته لتضيق الجوار أو يدعي بعضهم على جاره اختلال حائطه خشية سقوطه ويحتاج
 إلى الحكم عليه به سدمه ودفع ضرره عن جاره عند من يراه أو يحتاج إلى قسمة داراً أو
 عرصه بين شرين يكتن بجيب لا يقع معها فساد في الدار ولا اهمال لمنفعتها وأمثال ذلك
 ويخفى جميع ذلك الأعلى أهل البصر العارفين بالبناء وأحواله المستدلين عليها بالمعاقد

والقمط ومرارة الخشب وميل الحيطان واعتمد الها وقسم المساحك على نسبة
أوضاعها ومنافعها وتسريب المياه في القنوات مجلوبة ومر فوعة بحيث لا تضربها
مرت عليه من البيوت والحيطان وغير ذلك فلهم بهذا كله البصر والخبرة التي ليست
لغيرهم وهم مع ذلك يختلفون بالجودة والقصور في الاجيال باعتبار الدول وقوتها
فان اقدمنا أن الصنائع وكما لها انما هو بكل الحضارة وكثرتها بكثرة الطالب لها فلذلك
عند ما تكون الدولة بدوية في أول أمرها تنفق في أمر البناء الى غير قطرها كما وقع
للوليد بن عبد الملك حين أجمع على بناء مسجد المدينة والقدس ومسجده بالشام فبعث
الى ملك الروم بالقسطنطينية في الفعلة المهرة في البناء فبعث اليه منهم من حصل له
غرضه من تلك المساجد وقد يعرف صاحب هذه الصناعة أشياء من الهندسة مثل
تسوية الحيطان بالوزن واجراء المياه بأخذ الارتفاع وأمثال ذلك فيحتاج الى البصر
بشيء من مسائله وكذلك في جر الاثقال بالهندام فان الاجرام العظيمة اذا شيدت بالطبارة
الكبيرة يعجز قدر الفعلة عن رفعها الى مكانها من الحائط فيتميل لذلك بضاعة قوة
الحبل بادخاله في المعالق من أثقاب مقطرة على نسب هندسية تصير الثقيل عند معاناة
الرفع خفيفا فيتم المراد من ذلك بغير كلفة وهذا انما يتم بأصول هندسية معروفة متداولة
بين البشر وبمثلها كان بناء الهيكل المائله لهذا العهد التي يحسب الناس أنها من
بناء الجاهلية وان أباد انهم كانت على نسبتها في العظم الجسماني وليس كذلك وانما تم
لهم ذلك بالحيل الهندسية كما ذكرناه فقههم ذلك والله يخلق ما يشاء سبحانه

(فصل في صناعة التجارة)

٢٦

هذه الصناعة من ضروريات العمران ومادتها الخشب وذلك أن الله سبحانه وتعالى
جعل للآدمي في كل مكون من المكونات منافع تكمل بها ضروراته وأحاجاته وكان
منها الشجر فان له فيه من المنافع ما لا ينحصر مما هو معروف لكل أحد ومن منافعها
اتخاذها خشبا اذا يبست وأول منافعها أن يكون وقود للنيران في معاشهم وعصيا
للاتكاه والذود وغيرهما من ضرورياتهم ودعائم ما يخشى ميله من أثقالهم ثم بعد ذلك
منافع أخرى لاهل البدو والحضر فأما أهل البدو فيأخذون منها العمد والوتاد لحياتهم
والحدوح لظعمائهم والرماح والقسي والسهام لسلاحهم وأما أهل الحضرة فالسقف
لبيوتهم والاعلاق لآبوابهم والكراسي لجلوسهم وكل واحدة من هذه فانحسبت مادة
لها ولا تصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل
واحد من صورها هي التجارة على اختلاف رتبها فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب

أولاً ما بنى من أصف منه أو ألواح ثم تركب تلك الفصائل بحسب الصور المطاوعة وهو في كل ذلك يحاول بصنعة أعداد تلك الفصائل بالانتظام إلى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص والقائم على هذه الصناعة هو النجار وهو ضروري في العمران ثم إذا عظمت الحضارة وجاء القرف وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنعة من سقف أو باب أو كرسي أو ماعون حدث التأنق في صناعة ذلك واستجداته بغرائب من الصناعة كالبنة ليست من الضروري في شيء مثل التخليط في الأبواب والكراسي ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخراط يحكم برهها وتشكيلها ثم تولف على نسب مقدرة وتلم باللسان فتبدل رأى العين ملتحة وقد أخذ منها اختلاف الأشكال على تناسب يصنع هذا في كل شيء يتخذ من الخشب فيجئ آتق ما يكون وكذلك في جميع ما يحتاج إليه من الآلات المتخذة من الخشب من أي نوع كان وكذلك قد يحتاج إلى هذه الصناعة في إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدمروهي أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت واعتبار سجه في الماء بقوادمه وكلها ليكون ذلك الشكل أعون لها في مصادمة الماء وجعل لها عوض الحركة الحيزانية التي للسمك تحريك الرياح وربما أعينت بحركة المقاديف كما في الأساطيل وهذه الصناعة من أصلها محتاجة إلى أصل كبير من الهندسة في جميع أصنافها الآن أخرج الصور من القوة إلى الفعل على وجه الأحكام محتاج إلى معرفة التناسب في المقادير أعموماً وخصوصاً وتناسب المقادير لا بد فيه من الرجوع إلى المهندس ولهذا كان أئمة الهندسة اليونانيون كلهم أئمة في هذه الصناعة فكان أوقليس صاحب كتاب الأصول في الهندسة نجاراً وبها كان يعرف وكذلك أبولونيوس صاحب كتاب المخروطات وميلاوش وغيرهم وفيما يقال إن معلم هذه الصناعة في الخليقة هو نوح عليه السلام وبها أنشأ سفينة النجاة التي كانت بهام مجزته عند الطوفان وهذا الخبر وإن كان ممكناً عني كونه تيجازاً الآن كونه أول من علمها أو تعلمها لا يقوم دليل من النقل عليه لبعده الآماد وانما عناه والله أعلم الإشارة إلى قدم التجارة لأنه لم يصح حكاية عنها قبل خبر نوح عليه السلام فجعل كأنه أول من تعلمها فتفهم أسرار المنافع في الخليقة والله سبحانه وتعالى أعلم به التوفيق

(فصل في صناعة الحياكة والخياطة)

٢٧

هاتان الصنعتان ضروريتان في العمران لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سداً في الطول والحام في العرض لذلك

التسج بالالتصام الشديد فيتم منها قطع مقدرة فيها الاكسية من الصوف للاشمال
ومنها الثياب من القطن والكتان للباس والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على
اختلاف الاشكال والعوائد تفصل أولا بالمقراض قطعاً مناسبة للاعضاء البدنية ثم
تلم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تديتاً أو تفصلاً على حسب نوع الصناعة
وهذه الثانية مختصة بالعمران الحضري لما أن أهل البدو يستغنون عنها وانما يشتملون
الاثواب اشتمالا وانما تفصيل الثياب وتقديرها والحامها بالخياطة للباس من مذاهب
الحضارة وفنونها وتفهم هذا في سر تحريم الخيطة في الحج لما أن مشروعية الحج شتملة
على نبد العلائق الدنيوية كلها والرجوع الى الله تعالى كما خلقنا أول مرة حتى لا يعلق
العبد قلبه بشئ من عوائد ترفه لا طيباً ولا نساء ولا مخيطة ولا خفا ولا تعرض لصيد ولا
لشئ من عوائده التي تلونت به نفسه وخلقته مع أنه يفقدها بالموت ضرورة وانما يجيء
كأنه وارد الى المحشر ضار عابقاً بقلبه محاصراً به وكان جزاؤه ان تم له اخلاصه في ذلك أن
يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمته سبحانه ما أرفقتك بعبادك وأرجك بهم في طلب
هدايتهم اليك * وهاتان الصنعتان قديمتان في الخليقة لما أن الدف ضروري
للشرف في العمران المعتدل وأما المنحرف الى الحرف فلا يحتاج أهله الى دف ولهذا يبلغنا
عن أهل الاقليم الاقل من السودان أنهم هراة في الغالب ولقد هذه الصنائع نسبها
العامة الى ادريس عليه السلام وهو أقدم الانبياء ور بما ينسبونها الى هرمس وقد
يقال ان هرمس هو ادريس والله سبحانه وتعالى هو الخلاق العليم

(فصل في صناعة التوليد)

٢٨

وهي صناعة يعرف بها العمل في استخراج المولود الا آدمي من بطن أمه من الرفق
في اخراجه من رحمها وتهيئة أسباب ذلك ثم ما يصله بعد الخروج على ما ذكره وهي
مختصة بالنساء في غالب الامر لما أنهن الظاهرات بعضهن على عورات بعض ونسبي
القائمة على ذلك منهن القابلة استعبر فيها معنى الاعطاء والقبول كأن النفساء تعطىها
الجنين وكانها تقبله وذلك أن الجنين اذا استكمل خلقه في الرحم وأطواره وبلغ الى
غايته والمدة التي قدر الله لمكته وهي تسعة أشهر في الغالب فيطلب الخروج بما جعل
الله في المولود من النزوع لذلك ويضيق عليه المنفذ فيعسر وز بما منق بعض جوانب
الفرج بالضغط وربما انقطع بعض ما كان في الاغشية من الالتصاق والالتصام بالرحم
وهذه كلها آلام يشتملها الوجع وهو معنى الطلق فتكون القابلة معينة في ذلك بعض
الشئ يغمز الظهر والوركين وما يجاذى الرحم من الاسافل تساوق بذلك فعل الدافعة

في اخراج الجنين وتسهيل ما يصعب منه بما يمكنها وعلى ما تهتدى الى معرفة عسره ثم
اذا خرج الجنين بقيت بينه وبين الرحم الوصلة حيث كان يتغذى منها متصله من
سرنه بمعاء وتلك الوصلة عضو فضلي لتغذية المولود خاصة فتقطعها بالقابله من حيث
لا تتعدى مكان الفضله ولا تضر بمعاءه ولا برحم أمه ثم تدمل مكان الجراحه منه بالكي
أو بماتراه من وجوه الاندمال ثم ان الجنين عند خروجه في ذلك المنفذ الضيق وهو
رطب العظام سهل الانعطاف والانشاء فربما تتغير أشكال أعضائه وأوضاعها القرب
التكوين ورطوبة المواد فتناولها القابله بالغمز والاصلاح حتى يرجع كل عضو الى شكله
الطبيعي ووضعها المقدر له ويرتد خلقه سويًا ثم بعد ذلك تراجع النفساء وتحاذيها
الغمز والملاينة لخروج أغشية الجنين لانهار بماتأخر من خروجه قلبه لا ويحشى عند
ذلك أن تراجع الماسكة حالها الطبيعية قبل استكمال خروج الاغشية وهي فضلات
قتعفن ويسرى عنها الى الرحم فيقع الهلاك فتصاذر القابله هذا وتحاول في اعانة
الدفع الى أن تخرج تلك الاغشية ان كانت قد تأخرت ثم ترجع الى المولود فتخرج
أعضائه بالادهان والذروورات القابضة لتشدّه وتجفف رطوبات الرحم وتحنكه لرفع
إهائه وتسعته لاستفراغ بطون دماغه وتفرغره باللحوق لدفع السدد من معاه
وتجويها عن الالتصاق ثم تدأوى النفساء بعد ذلك من الوهن الذي أصابها بالطلق
وما لحق رحمها من ألم الانفصال اذا المولود ان لم يكن عضوًا طبيعيًا فخالة التكوين في
الرحم صيرته بالاتحام كالعضو المتصل فلذلك كان في انفصاله ألم يقرب من ألم القطع
وتدأوى مع ذلك ما يلحق الفرج من ألم من جراحة التمزيق عند الضغط في الخروج
وهذه كلها أدواء نجد هؤلاء القوابل أبصر بدوائها وكذلك ما يعرض للمولود مدة
الرضاع من أدواء في بدنه الى حين انفصال نجد من أبصر بهام من الطيب الماهر
وما ذاك الا لان بدن الانسان في تلك الحلة انما هو بدن انساني بالقوة فقط فاذا جاوز
الفصال ما ريدنا انسانيًا بالفعل فكانت حاجته حينئذ الى الطيب أشد فهداه الصناعة
كما تراها ضرورية في العمران للنوع الانساني لا يتم كون أشخاصه في الغالب دونها
وقد يعرض لبعض أشخاص النوع الاستغناء عن هذه الصناعة اما بخلق الله ذلك لهم
معجزة وخرق العادة كما في حق الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم أو بالهام وهداية بلهم
لها المولود ويفطر عليها فيتم وجودهم من دون هذه الصناعة فأما شان المعجزة من ذلك
فقد وقع كثيرا ومنه ما روى أن النبي صلى الله عليه وسلم ولده سرورا محتونا واضعا
يديه على الارض شاخصا يبصره الى السماء وكذلك شان عيسى في المهد وغير ذلك وأما
شان الالهام فلا ينكر واذا كانت الحيوانات العجم تختص بغرائب من الالهامات

كالنحل وغيرها فما ظنك بالإنسان المفضل عليها وخصوصا بمن اختص بكرامة الله ثم
 الإلهام العام للمولودين في الأقبال على الندى أوضع شاهد على وجود الإلهام العام
 لهم فتأن العناية الإلهية أعظم من أن يحاط به ومن هنا يفهم بطلان رأى الفارابي
 وحكايا الأندلس فيما احتجوا به لعدم انقراض الأنواع واستحالة انقطاع المكونات
 وخصوصا في النوع الإنساني وقالوا وانقطعت أشخاصه لاستحالة وجودها بعد
 ذلك لتوقفه على هذه الصناعة التي لا يتم كون الإنسان إلا بها إذ لو قدرنا مولودا دون
 هذه الصناعة وكفالتها إلى حين الفصال لم يتم بقاؤه أصلا ووجود الصنائع دون الفكر
 يمنع لانهم امرته وتابعة له وتكافى ابن سينا في الرد على هذا الرأي لمخالفته إياه وذهابه
 إلى إمكان انقطاع الأنواع وخراب عالم التكوين ثم عوده ثانية للاقتضات فلصحة
 وأوضاع غريبة تندرج في الأحقاب بزعمه فتقتضى تخمير طينة مناسبة لمزاجه بجمرة
 مناسبة فيتم كونه إنسانا ثم يقبض له حيوان يخلق فيه الهام لتربيته والحنو عليه إلى
 أن يتم وجوده وفصاله وأظن في بيان ذلك في الرسالة التي سماها رسالة حتى بن يقظان
 وهذا الاستدلال غير صحيح وإن كانوا فقه على انقطاع الأنواع لكن من غير ما استدلت
 به فإن دليله مبني على استناد الأفعال إلى العلة الموجبة ودليل القول بالفاعل المختار
 يرد عليه ولا واسطة على القول بالفاعل المختارين الأفعال والقدرة القديمة ولا حاجة
 إلى هذا التكلف * ثم لو سلمنا جدلا لفاية ما ينبغي عليه اطراد وجود هذا الشخص
 بخلق الإلهام لترتيبه في الحيوان الأعمى وما الضرورة الداعية لذلك وإذا كان الإلهام
 يخلق في الحيوان الأعمى فما المانع من خلقه للمولود نفسه كما قررناه أولا وخلق
 الإلهام في شخص لمصالح نفسه أقرب من خلقه فيه لمصالح غيره فكلا المذهبين شاهدان
 على أنفسهما بالبطلان في مناحيهم ما قررت لك والله تعالى أعلم

٢٩ (فصل في صناعة الطب وانها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية

هذه الصناعة ضرورية في المدن والامصار لما عرف من فائدها فان ثمرتها حفظ الصحة
 للاصحاء ودفع المرض عن المرضى بالادوية حتى يحصل لهم البرء من أمراضهم واعلم
 أن أصل الأمراض كلها انما هو من الاغذية كما قال صلى الله عليه وسلم في الحديث
 الجامع للطب وهو قوله المعدة بيت الداء والحمية رأس الداء وأصل كل داء البردة فأما
 قوله المعدة بيت الداء فهو ظاهر وأما قوله الحمية رأس الداء فالحمية الجوع وهو
 الاحتماء من الطعام والماضي أن الجوع هو الدواء العظيم الذي هو أصل الادوية وأما
 قوله أصل كل داء البردة فعنى البردة ادخال الطعام على الطعام في المعدة قبل أن يتم

هضم الاول وشرح هذا ان الله سبحانه خلق الانسان وحفظ حياته بالغذاء يستعمله
بالاكل وينفذ فيه القوى الهاضمة والغاذية الى ان يصير دماغا ملاما لثمالاتا لاجزاء البدن من
اللحم والعظم ثم تأخذ النامية فينقلب لحمها وعظامها ومعنى الهضم طبخ الغذاء بالحرارة
لغريزية طور بعد طور حتى يصير جزءا بالفعل من البدن وتفسيره ان الغذاء اذا حصل
في الفم ولا كده الاشداق أثرت فيه حرارة الفم طبخا يسيرا وقلبت من اجبه بعض الشيء
كما تراهم في اللقمة اذا تناولتها طعاما ثم أجدها ضغافتى من اجها غير مزاج الطعام
ثم يحصل في المعدة فتطبخه حرارة المعدة الى ان يصير كيموسا وهو صورة ذلك المطبوخ
وترسله الى الكبد وترسل ما رسب منه في المعائن فلا يتقد الى المخرجين ثم تطبخ حرارة
الكبد ذلك الكيموس الى ان يصير دماغا عبيطا وتطفو عليه رغوة من الطبخ هي الصفراء
وترسب منه اجزاء عابسة هي السوداء ويقصر الحار الغريزي بعض الشيء عن طبخ
الغليظ منه فهو البلم ثم ترسلها الكبد كلها في العروق والجداول ويأخذها طبخ الحار
الغريزي هناك فيكون عن الدم الخالص بخار حار رطب يمد الروح الحيوانى وتأخذ
النامية مأخذها في الدم فيكون لحمها ثم غليظه عظاما ثم يرسل البدن ما يفضل عن حاجته
من ذلك فضلات مختلفة من العرق واللعاب والمخاط والدمع هذه صورة الغذاء
وخروجه من القوة الى الفعل للحما ثم ان اصل الامراض ومعظمها هي الحيات وسيبها
ان الحار الغريزي قد يضعف عن تمام النضج في طبخه في كل طور من هذه فيبقى ذلك
الغذاء دون نضج ويبه غالباً كثرة الغذاء في المعدة حتى يكون أغلب على الحار الغريزي
او ادخال الطعام الى المعدة قبل ان تستوفي طبخ الاول فيستقل به الحار الغريزي
ويترك الاول بحاله اذ يتوزع عليهما فيقصر عن تمام الطبخ والنضج وترسله المعدة كذلك
الى الكبد فلا تقوى حرارة الكبد ايضا على انضاجه وربما بقي في الكبد من الغذاء
الاول فضله غير ناضجة وترسل الكبد جميع ذلك الى العروق غير ناضج كما هو فاذا أخذ
البدن حاجته الملائمة أرسله مع الفضلات الاخرى من العرق والدمع واللعاب ان
اقتدر على ذلك وربما يعجز عن الكثير منه فيبقى في العروق والكبد والمعدة وتزيد
مع الايام وكل ذى رطوبة من الممتزجات اذا لم يأخذها الطبخ والنضج يعرض فيتعفن ذلك
الغذاء غير الناضج وهو المسمى بالمخاط وكل متعفن ففيه حرارة غريزية وتلك هي المسماة
في بدن الانسان بالحما واختبر ذلك بالطعام اذا ترك حتى يتعفن وفي الزبل اذا تعفن أيضا
كيف تنبعث فيه الحرارة وتأخذ مأخذها فهذه الحيات في الابدان وهي رأس
الامراض وأصلها كما وقع في الحديث وهذه الحيات علاجها بقطع الغذاء عن المريض
أسابيع معلومة ثم يناوله الاغذية الملائمة حتى يتم برؤه وذلك في حال الصحة علاج

في التحفظ من هذا المرض وأصله كما وقع في الحديث وقد يكون ذلك العفن في عضو
 مخصوص فيتولد عنه مرض في ذلك العضو ويحدث جراحات في البدن أما في الاعضاء
 الرئيسة أو في غيرها وقد يمرض العضو ويحدث عنه مرض القوى الموجودة له هذه
 كلها جماع الامراض وأصلها في الغالب من الاغذية وهذا كله مرفوع الى الطبيب
 ووقوع هذه الامراض في أهل الحضرة والامصار أكثر لخصب عيشهم وكثرة ما كلهم
 وقلة اقتصارهم على نوع واحد من الاغذية وعدم توقيتهم لتناولها وكثيرا ما يخلطون
 بالاغذية من التوابل والبقول والفواكه رطبا ويأيسون في سبيل العلاج بالطبخ ولا
 يقتصرون في ذلك على نوع أو أنواع فربما عددنا في اليوم الواحد من ألوان الطبخ
 أربعين نوعا من النبات والحيوان فيصير للغذاء مزاج غريب وربما يكون غريبا عن
 ملاءمة البدن وأجزائه ثم إن الأهوية في الامصار تفسد بمخالطة الاجرة العفنة من
 كثرة الفضلات والأهوية منشطة للارواح ومقوية بنشاطها الاثر الحار الغريزي
 في الهضم ثم الرياضة مفقودة لاهل الامصار اذ هم في الغالب وادعون ساكنون
 لا تأخذ منهم الرياضة شيئا ولا تؤثر فيهم أثر افكان وقوع الامراض كثيرا في المدن
 والامصار وعلى قدر وقوعه كانت حاجتهم الى هذه الصناعة وأما أهل البدو فأكلهم
 قليل في الغالب والجوع أغلب عليهم لقلة الحبوب حتى صار لهم ذلك عادة وربما يظن
 أنها جبلية لاستمرارها ثم الادم قليلة لديهم أو مفقودة بالجملة وعلاج الطبخ بالتوابل
 والفواكه انما يدعو اليه ترف الحضارة الذين هم معزل عنه فيتناولون اغذيتهم بسبب
 بعيدة عما يحتاجها ويقرب مزاجها من ملاءمة البدن وأما أهويتهم فقليلة العفن
 لقلة الرطوبات والعفونات ان كانوا أهلين أو لاختلاف الأهوية ان كانوا اطواع
 ثم ان الرياضة موجودة فيهم لكثرة الحركة في ركض الخيل أو الصيد أو طلب الحاجات
 لمهنة أنفسهم في حاجاتهم فيحسن بذلك كله الهضم ويجودو ويفقد ادخال الطعام على
 الطعام فتصكون أمراضهم أصح وأبعد من الامراض فتقل حاجتهم الى الطب
 ولهذا لا يوجد الطبيب في البادية بوجه وما ذاك الا للاستغناء عنه اذ لو احتج اليه
 لوجد لانه يكون له بدلات في البدو ومعاش يدعو الى سكناه سنة الله التي قد دخلت في عباده
 ولن تجد لسنة الله تبديلا

٣٠ (فصل في ان الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية)

وهو رسوم وأشكال حرفية تدل على الكلمات المسموعة الدالة على ما في النفس فهو
 ثاني رتبة من الدلالة اللغوية وهو صناعة شريفة اذ الكتابة من خواص الانسان التي

يميز بها عن الحيوان وأيضا فهي تطلع على ما في الضمائر وتتأدى بها الاغراض الى البلد
 البعيدة فتقضى الحاجات وقد دفعت مؤنة المباشرة لها ويطلع بها على العلوم والمعارف
 وصحف الاولين وما كتبوه من علومهم وأخبارهم فهي شريفة بهذه الوجوه والمنافع
 وخروجها في الانسان من القوة الى الفعل انما يكون بالتعليم وعلى قدر الاجتماع
 والعمران والتناخي في الكالات والطلب لذلك تكون جودة الخط في المدينة اذهو من
 جملة الصنائع وقد قدمنا أن هذا شأنها وأنها تابعة للعمران ولهذا نجد أكثر
 البدو أميين لا يكتبون ولا يقرؤون ومن قرأ منهم أو كتب فيكون خطه قاصرا وقراءته
 غير نافذة ونجد تعليم الخط في الامصار والخارج عمرانها عن الحد ابلغ وأحسن وأسهل
 طريقا لاستحكام الصناعة فيها كما يحكي لنا عن مصر لهذا العهد وأن بها معلمين منتصبين
 لتعليم الخط يلقون على المتعلم قوائين وأحكاما في وضع كل حرف ويزيدون الى ذلك
 المباشرة بتعليم وضعه فتعتمد عليه رتبة العلم والحرف في التعليم وتأتي ملكته على أتم
 الوجوه وانما أتى هذا من كمال الصنائع ووفورها بكثرة العمران وانفساح الاعمال وقد
 كان الخط العربي بالغامبا لغيره من الاحكام والاتقان والجودة في دولة التبابعة لما بلغت
 من الحضارة والترف وهو المسمى بالخط الحبرى وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من
 دولة آل المنذر نسبا التبابعة في العصبية والمجدين لملك العرب بأرض العراق ولم
 يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين وكانت
 الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك ومن الحيرة لقنه أهل الطائف
 وقريش فيما ذكر يقال ان الذي تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية ويقال حرب
 ابن أمية وأخذها من أسلم بن سدره وهو قول ممكن وأقرب عن ذهب الى أنهم تعلموها
 من اباد أهل العراق لقول شاعرهم

قوم لهم ساحة العراق اذا * ساروا جميعا والخط والقلم

وهو قول بعيد لان ابادا وانزلوا ساحة العراق فلم يزلوا على شأنهم من البداوة والخط
 من الصنائع الحضارية وانما معنى قول الشاعر أنهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم
 من العرب لقربهم من ساحة الامصار ووضواحيها فالقول بأن أهل الحجاز انما اتقنوها
 من الحيرة ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحبره والاليق من الاقوال وكان حبر كتابة
 تسمى المسند حروفها منفصلة وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ومن حبر تعلمت مضر
 الكتابة العربية الا أنهم لم يتدبروا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون
 محكمة المذهب ولا ماثلة الى الاتقان والتتميق لبون ما بين البدو والصناعة واستغنا
 البدو عنها في الاكثر وكانت كتابة العرب بدوية مثل أوقرييا من كتابتهم لهذا العهد

أقول ان كتابهم هذا العهد أحسن صناعة لان هؤلاء أقرب الى الحضارة ومخالطة
الامصار والدول وأما مضر فكانوا أعرق في البدو وأبعد عن الحضرة من أهل اليمن
وأهل العراق وأهل الشام ومصر فكان الخط العربي لا قول الاسلام غير بالغ الى الغاية
من الاحكام والاتقان والاجادة ولا الى التوسط لمكان العرب من البداوة والتوحش
وبعدهم عن الصنائع وانظر ما وقع لاجل ذلك في رسمهم المصحف حيث رسمه الصحابة
بخطوطهم وكانت غير مستحكمة في الاجادة فخالف الكثير من رسومهم ما اقتضته
رسوم صناعة الخط عند أهلها ثم اقتنى التابعون من السلف رسمهم فيها تبركاً بما رسمه
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وخير الخلق من بعده الملتقون لوجه من كتاب الله
وكلامه كما يقتنى لهذا العهد خط ولى أو عالم تبركاً ويتبع رسمه خطأ أو صواباً أو بنسبة
ذلك من الصحابة فيما كتبه فاتبع ذلك واثبت رسماً ونسبته العلماء بالرسم على مواضعه
ولا تلتفت في ذلك الى ما يزعمه بعض المغفلين من أنهم كانوا محكمين لصناعة الخط وأن
ما يتخيل من مخالفة خطوطهم لاصول الرسم ليس كما يتخيل بل لكها وجه ويقولون
في مثل زيادة الالف في لا أذبحنه انه تنبيه على أن الذبح لم يقع وفي زيادة الياء في بأيدانه
تنبيه على كمال القدرة الربانية وأمثال ذلك مما لا أصل له الا التحكم المحض وما حملهم
على ذلك الا اعتقادهم أن في ذلك تنزيهاً للصحابة عن توهم النقص في قلة اجادة الخط
وحسبوا أن الخط كمال فنزهوهم عن نقصه ونسبوا اليهم الكمال باجادته وطلبوا تعليل
ما خالف الاجادة من رسمه وذلك ليس بصحيح * واعلم أن الخط ليس بكمال في حقهم
اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية كما رأيت في ما مر والكمال في الصنائع اضافي
وليس بكمال مطاق اذ لا يعود تنقصه على الذات في الدين ولا في الخلال وانما يعود على
أسباب المعاش وبحسب العمران والتعاون عليه لاجل دلالة على ما في النفوس وقد
كان صلى الله عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالاً في حقه وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه
عن الصنائع العملية التي هي أسباب المعاش والعمران كلها وليست الامة كمالاً في
حقنا نحن اذ هو منقطع الى ربه ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى
العلوم الاصطلاحية فان الكمال في حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا ثم انا جاء الملك
للعرب وقصوا الامصار وملكوا الممالك وزنوا البصرة والكوفة واحتاجت الدولة
الى الكتابة اسـتعملوا الخط وطلبوا صناعته وتعلمه وتداولوه فترقت الاجادة فيه
واستحكمت وبلغ في الكوفة والبصرة رتبة من الاتقان الا أنها كانت دون الغاية والخط
الكوفي معروف الرسم لهذا العهد ثم انتشر العرب في الاقطار والممالك واقتحموا
افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد وترقت الخطوط فيها الى الغاية لما

استجرت في العمران وكانت دار الاسلام ومركز الدولة العربية وكان الخط البغدادي
معروف الرسم وتبعه الافريقى المعروف رسمه القديم لهذا العهد ويقرب من أوضاع
الخط المشرقى وتميز ملك الاندلس بالامويين فتميزوا بأحوالهم من الحضارة والصنائع
والخطوط فتميز صنف خطهم الاندلسى كما هو معروف الرسم لهذا العهد وطما بجر
العمران والحضارة في الدول الاسلامية في كل قطر وعظم الملك ونفقت أسواق العلوم
وانتسخت الكتب واجيد كتبها وتجلدها واملت بها القصور والخزائن الملوكة بما
لا كفا له وتنافس أهل الاقطار في ذلك وتنافسوا فيه ثم لما انحل نظام الدولة الاسلامية
وتناقصت تناقص ذلك أجمع ودرست معالم بغداد بدروس الخلافه فانتقل شأنها من
الخط والكتابة بل والعلم الى مصر والقاهرة فلم تزل أسواقها نافقة لهذا العهد وله بها
معلمون يرسمون لتعليم الحروف بقوانين في وضعها وأشكالها متعارفة بينهم فلا يلبث
المتعلم أو يحكم أشكال تلك الحروف على تلك الأوضاع وقد اقتناها حسنا وصدق فيها
درية وكأبا وأخذها قوانين علمية فحسب أحسن ما يكون وأما أهل الاندلس فافترقوا
في الاقطار عند تلالى ملك العرب بها ومن خلفهم من البربر وتغلبت عليهم أمم
النصرانية فانتشروا في عدوة المغرب وانزى بقية من لدن الدولة اللاتونية الى هذا
العهد وشاركوا أهل العمران بما لديهم من الصنائع وتعلقوا بأذيال الدولة فغلب
خطهم على الخط الافريقى وعنى عليه ونسى خط القبروان والمهدية بنسيان عوائدهما
وصنائعهما وصارت خطوط أهل افريقية كلها على الرسم الاندلسى بتونس وما إليها
لتوفر أهل الاندلس بها عند الجالية من شرق الاندلس وبقي منه رسم بلاد الجريد الذين
لم يخاطبوا كتاب الاندلس ولا غزوا بجوارهم انما كان يغدون على دار الملك بتونس
فصار خط أهل افريقية من أحسن خطوط أهل الاندلس حتى اذا تقلص ظل الدولة
الموحدية بعض الشيء وتراجع أمر الحضارة والترقى بتراجع العمران نقص حينئذ حال
الخط وفسدت رسومه وجهل فيه وجه التعليم بفساد الحضارة وتناقص العمران
وبقيت فيه آثار الخط الاندلسى تشهد بما كان لهم من ذلك لما قدمناه من أن الصنائع
اذا رسمت بالحضارة فيعسر محورها وحصل في دولة بنى مرين من بعد ذلك بالمغرب
الاقصى لون من الخط الاندلسى اقرب جوارهم وسقوط من خرج منهم الى فاس
قريبا واستعمالهم ماثر الدولة ونسى عهد الخط فيما بعد عن سدة الملك وداره كانه
لم يعرف فصارت الخطوط بافريقية والمغرب بين مائله الى الرداءة بعيدة عن الجودة
وصارت الكتب اذا انتسخت فلا فائدة تحصل لتصنيعها منها الا العناء والمشقة لكثرة
ما يقع فيها من الفساد والتصحيف وتغيير الاشكال الخطية عن الجودة حتى لا تكاد

تقرأ الأبعد عشر ووقع فيه ما وقع في سائر الصنائع بنقص الحضارة وفساد الدول
والله أعلم

٣١ (فصل في صناعة الوراقة)

كانت العناية قديماً بالدواوين العلمية والسجلات في نسخها وتجليدها وتصحيحها
بالرواية والضبط وكان سبب ذلك ما وقع من ضخامة الدولة وتوابع الحضارة وقد ذهب
ذلك لهذا العهد بذهاب الدولة وتناقص العمران بعد ان كان منه في الملة الإسلامية
بحر زان بالعراق والاندلس اذ هوكله من توابع العمران واتساع نطاق الدولة
وتفاق اسواق ذلك لديهم ما فكثر التأليف العلمية والدواوين وحرص الناس
على تناقلهما في الآفاق والاعصار فانتسخت وجادت وجاءت صناعة الوراقين
المعانيين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الامور الكريمة والدواوين واختصت
بالامصار العظيمة العمران وكانت السجلات أوقالات انتساخ العلوم وكتب
الرسائل السلطانية والاقطاعات والصكوك في الرقوق المهمة بالصناعة من الجلد
لكثرة الرفه وقلة التأليف صدر الملة كما ذكره وقلة الرسائل السلطانية والصكوك مع
ذلك فاقصر واعلى الكتاب في الرق تشرية بالمكتوبات ويلاهم الى الصحة والاتقان
ثم طما ببحر التأليف والتدوين وكثر ترسيل المساطان وصكوكه وضاق الرق عن ذلك
فأشار الفضل بن يحيى بصناعة الكاغد وصنعه وكتب فيه رسائل السلطان وصكوكه
واتخذها الناس من بعده صحفاً للمكتوباتهم السلطانية والعلمية وبلغت الاجادة في
صناعته ماشاءت ثم وقفت عناية أهل العلوم وهم أهل الدول على ضبط الدواوين
العلمية وتصحيحها بالرواية المسندة الى مواضعها وواضعها لانه الشأن الاهم من التصحيح
والضبط فبذلك تسند الاقوال الى قائلها والفتيا الى الحماكم بهم بالجهتد في طريق
استنباطها وما لم يكن تصحيح المتن باسنادها الى مدونهم فلا يصح اسناد قولهم ولا قبا
وهكذا كان شأن أهل العلم وحلته في العصور والاجيال والآفاق حتى اقد قصرت
فائدة الصناعة الحديثية في الرواية على هذه فقط اذ عرتم الكبري من معرفة صحيح
الاحاديث وحسنها ومسندها ومرسلها ومقطوعها وموقوفها من موضوعها قد
ذهبت وتخفضت زبده في ذلك الامة المتلقاة بالقبول عند الامة وصار القصد الى
ذلك لغوامن العمل ولم يتبق عمرة الرواية والاشتمغال بها الا في تصحيح تلك الامة
الحديثية وسواها من كتب الفقه للفتيا وغير ذلك من الدواوين والتأليف العلمية
وانصال سندها بموافيقها ليصح النقل عنهم والاسناد اليهم وكانت هذه الرسوم بالمشرق

والاندلس معبدة الطرق واضحة المسالك ولهذا نجد الدواوين المنتسفة لذلك العهد في أقطارهم على غاية من الاتقان والاحكام والعصمة ومنها هذا العهد بأيدي الناس في العالم أصول عتيقة تشهد ببلوغ الغاية لهم في ذلك وأهل الآفاق يتناقلونهم إلى الآن ويشدون عليها الذمات ولقد ذهبت هذه الرسوم لهذا العهد جولة بالمغرب وأهل الانقطاع صناعة الخط والضبط والرواية منه بانتقاص عمرانه وبدعوة أهله وصارت الاتمهات والدواوين تفسح بالخطوط البدوية تنسخها طلبة البربر صنف مستهجة برداءة الخط وكثرة الفساد والتجريف فتستغلق على متصفحها ولا يحصل منها فائدة الا في الاقل النادر وأيضاً فقد دخل الخلل من ذلك في الفياقات غالب الاقوال المزيوة غير مروية عن أئمة المذهب وانما تلتقى من تلك الدواوين على ما هي عليه وتبع ذلك أيضاً ما يتصدى اليه بعض أئمتهم من التأليف لقله بصرهم بصناعته وعدم الصنائع الوافية بمقاصده ولم يبق من هذا الرسم بالاندلس الا اثاره خفية بالانحاء وهي على الاضمار لا لفق كاد العلم ينقطع بالكيفية من الغرب والله غالب على أمره ويغنا لهذا العهد أن صناعة الرواية قائمة بالمشرق وتصحيح الدواوين ان يرومه بذلك سهل على مبتغيه لنفاق أسواق العلوم والصنائع كما ذكره بعد الآن الخط الذي بقي من الاجادة في الاتساع هنالك انما هو للعجم وفي خطوطهم وأما النسخ بمصر فقد كثر في المغرب وأشد والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٢ (فصل في صناعة الغناء)

هذه الصناعة هي تلحين الاشعار الموزونة بتقطيع الاصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع على كل صوت منها توقيعاً عند قطعه فيكون نغمة ثم تواف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها الاجل ذلك التناسب وما يحدث عنه من الكيفية في تلك الاصوات وذلك أنه تين في علم الموسيقى أن الاصوات تتناسب فيكون صوت نصف صوت ربع آخر ونحوه من أجزاء من عشرة من آخر واختلف هذه النسب عند تأديتها الى السمع فيخرجها من البساطة الى التركيب وليس كل تركيب منها لذوذا عند السماع بل ترا كيب خاصة هي التي حصرها أهل علم الموسيقى وتكلموا عليها كما هو مذكور في موضعه وقد يساوق ذلك التلحين في النغمات الغنائية بتقطيع أصوات أخرى من الجمادات اما بالقرع أو بالنفخ في الآلات تخص ذلك فترى لها الذة عند السماع فنهال هذا العهد أصناف منها ما يسمى بالشبابية وهي قصبة جوفاء بأجناس في جوانبها معدودة يتفخ فيها قصوت ويخرج الصوت من جوفها على سداة من تلك

الابحاش ويقطع الصوت بوضع الاصابع من اليدين جميعا على تلك الابحاش وضعا
متعارفا حتى تحدث النسب بين الاصوات فيه وتتصل كذلك متناسبة فيلذ السمع
بادراكها المتناسب الذي ذكرناه ومن جنس هذه الآلة المزمار الذي يسمى الزلامي
وهو شكل القصبه منحوتة بالجانبين من الخشب جوفاء من غير تدوير لاجل اختلافها
من قطعتين منفردتين كذلك ابحاش معدودة يتقع فيها بقصبه صغيرة توصل فيلذ
النفع بواسطة اليها وتصور بنغمة حادة يجري فيها من تقطيع الاصوات من تلك
الابحاش بالاصابع مثل ما يجري في الشبابة ومن أحسن آلات الزمر لهذا العهد
البوق وهو بوق من نحاس أجوف في مقدار الذراع يتسع الى أن يكون انخراج مخرجه
في مقدار دون الكف في شكل برى القلم ويتقع فيه بقصبه صغيرة توذى الريح من القم
اليه فيخرج الصوت فحينئذ ينادى يا وفيه ابحاش ايضا معدودة وتقطع نغمة منها كذلك
بالاصابع على التناسب فيكون ما ذودا ومنها آلات الاوتار وهي جوفاء كلها اما على
شكل قطعة من الكرة مثل الربيط والرباب أو على شكل مربع كلقانون بوضع الاوتار
على بساطها مشدودة في رأسها الى دساتر جانبها لتبقى شدة الاوتار ورخوها عند
الحاجة اليه بادارتها ثم تفرع الاوتار ما بعد آخر أو بوتر مشدود بين طرفي قوس يمر
عليه بعد أن يطلى بالشمع والكندر ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد في امراره ونقله
من وتر الى وتر واليد اليسرى مع ذلك في جميع آلات الاوتار توقع بأصابعها على أطراف
الوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر فتحدث الاصوات متناسبة مملذودة وقد يكون القرع
في الطسوت بالقضبان أو في الاعواد بعضها بعض على توقيع متناسب يحدث عنه
التذاذ بالسموع وتبين لك السبب في اللذة الناشئة عن الغناء وذلك أن اللذة كما تقرر
في موضعه هي ادراك الملائم والمحموس انما تدرك منه كيفية فاذا كانت متناسبة
للمدرك وملائمة كانت مملذودة واذا كانت متناسبة له منافرة كانت مؤلمة فالملائم من
الطهوم ما تناسبت كيفيته حاسة الذوق في مزاجها وكذا الملائم من الملوسات وفي الروائح
ما تناسب مزاج الروح القلبي البخاري لانه المدرك واليه توذيه الحاسة ولهذا
كانت الرياح والازهار والطريات أحسن رائحة وأشد ملاءمة للروح الغلبة الحرارة
فيها التي هي مزاج الروح القلبي وأما المرئيات والسموعات فالملائم فيها تناسب
الاضاع في أشكالها وكيفياتهم فهو أنسب عند النفس وأشد ملاءمة لها فاذا كان المرئي
متناسبا في أشكاله وتخطيطه التي له بحسب مادته بحيث لا يخرج عما تقتضيه مادته
الخاصة من كمال المناسبة والوضع وذلك هو معنى الجمال والحسن في كل مدرك كان
ذلك حينئذ متناسبا للنفس المدرك فتلذذ بالمدرك الملائم ولهذا تجد العاشق من المستهترين

في المحبة يعبرون عن غاية محبتهم وعشقتهم بامتزاج أرواحهم بروح الم محبوب وفي هذا
 سر تفهمه ان كنت من أهله وهو اتحاد المبدأ وان كل ما سواك اذا نظرت وتأملته
 رأيت يذك ويبنه اتحادا في البداية يشهد لك به اتحاد كما في الكون وههنا من وجه
 آخر ان الوجود يشترك بين الموجودات كما نقوله الحكاه فتود ان تخرج بما شاهدت
 فيه الكمال لتعده بل تروم النفس حينئذ الخروج عن الوهم الى الحقيقة التي هي
 اتحاد المبدأ والكون ولما كان أنسب الاشياء الى الانسان وأقربها الى أن يدرك
 الكمال في تناسب موضوعها وشكله الانساني فكان ادراكه للجمال والحسن
 في مخاطبته وأصواته من المدارك التي هي أقرب الى فطرته فلهج كل انسان بالحسن
 من المرقى أو المجمع بهتضي الفطرة والحسن في المسموع أن تكون الاصوات
 متناسبة لامتنافرة وذلك أن الاصوات لها كفيات من الهمس والجهر والرخاة
 والشدة والقلقلة والضغط وغير ذلك والتناسب فيها هو الذي يوجب لها الحسن فأولا
 أن لا يخرج من الصوت الى مده دفعة بل يتدرج ثم يرجع كذلك وهكذا الى المتبل بل
 لا بد من توسط المغاير بين الصوتين وتأمل هذا من افتتاح أهل اللسان التراكيب من
 الحروف المتنافرة أو المتقاربة المخارج فانه من بابها وثانيا تناسبها في الاجزاء كما مر أول
 الباب فيخرج من الصوت الى نصفه أو ثلثه أو جزءه من كذا من على حسب ما يكون
 التنقل مناسب على ما حصره أهل الصناعة فاذا كانت الاصوات على تناسب في
 الكيفيات كما ذكره أهل تلك الصناعة كانت ملائمة ملاذذة ومن هذا التناسب ما يكون
 بسيطا ويكون الكثير من الناس مطبوعا عليه لا يحتاجون فيه الى تعليم ولا صناعة
 كما نجد المذبوعين على الموازين الشعرية وتوقيع الرقص وأمثال ذلك وتسمى العامة
 هذه القابلية بالمضمار وكثير من القراء بهذه المشابهة يقرؤون القرآن فيجيدون في تلاحين
 أصواتهم كأنها المزامير فيطربون بحسن مساقهم وتناسب نغماتهم ومن هذا
 التناسب ما يحدث بالتركيب وليس كل الناس يستوى في معرفته ولا كل الطباع توافق
 صاحبها في العمل به اذا علم وهذا هو التلحين الذي يتكفل به علم الموسيقى كما نشرحه بعد
 عند ذكر العلوم وقد أنكر مالك رحمه الله تعالى القراءة بالتلحين وأجازها الشافعي رضي
 الله تعالى عنه وليس المراد تلحين الموسيقى الصناعي فانه لا ينبغي أن يختلف في حظه
 اذ صناعة الغناء مبينة للقرآن بكل وجه لان القراءة والاداء يحتاج الى مقدار من
 الصوت لتعريف أداء الحروف لامن حيث اتباع الحركات في موضعها ومن دار المتد عند
 من يطلقه أو يقصره وأمثال ذلك والتلحين أيضا يتبين له مقدار من الصوت لا يتم الا به
 من أجل التناسب الذي قلناه في حقيقة التلحين واعتبارا أحده ما قد يحل بالآخر

اذا تعارضا وتقدم الرواية متعين من تغيير الرواية المنقولة في القرآن فلا يمكن اجتماع
 التلحين والاداء المعتبر في القرآن بوجه وانما مرادهم التلحين البسيط الذي يهتدى
 اليه صاحب المضاير بطبعه كما قد سناه فيردد أصواته ترديدا على نسب يدركها العالم
 بالغناء وغيره ولا ينبغي ذلك بوجه كما قاله مالك هذا هو محل الخلاف والظاهر تنزيه
 القرآن عن هذا كما ذهب اليه الامام رحمه الله تعالى لان القرآن محل خشوع يذكر
 الموت وما بعده وليس مقام التذاد بادراك الحسن من الاصوات وهكذا كانت قراءة
 الصحابة رضي الله عنهم كافي اخبارهم وأما قوله صلى الله عليه وسلم لقد أتوني من ما زامن
 من ابيرا آل داود فليس المراد به التردد والتلحين انما معناه حسن الصوت وأداء القراءة
 والابانة في مخارج الحروف والنطق بها واذ قد ذكرنا معنى الغناء فاعلم أنه يحدث في
 العمران ان التوفر يتجاوز حد الضرورى الى الحاجى ثم الى الكفاى وتقتضى افتتاح
 هذه الصناعة لانه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية والمهمة من
 المعاش والمنزل وغيره فلا يطلبها الا الفارغون عن سائر احوالهم تغنى في مذهب
 المذوذات وكان في سلطان العجم قبل الملة منها بجزيرة اخرى في امصارهم ومدنهم
 وكان ملوكهم يتخذون ذلك ويولعون به حتى لقد كان ملوك الفرس اهتمام بأهل هذه
 الصناعة ولهم مكان في دوائهم وكانوا يحضرون مشاهدتهم ومجامعهم ويغنون فيها
 وهذاشان العجم لهذا العهد في كل أفق من آفاقهم ومملكة من ممالكهم وأما العرب
 فكان لهم أولافن الشعر يؤلفون فيه الكلام اجزاء متساوية على تناسب بينها في عدة
 حروفها المجرى والساكنة وينصون الكلام في تلك الاجزاء تفصيلا يكون كل جزء
 منها متعقلا بالافادة لا يعطف على الآخر ويسمونه البيت فتلائم الطبع بالجزئية
 اولافن بتناسب الاجزاء في المقاطع والمبادئ ثم بتأدية المعنى المقصود وتطبيق الكلام
 عليها فلهجوا به فامتاز من بين كلامهم بمحظ من الشرف ليس لغيره لاجل اختصاصه
 بهذا التناسب وجه لوهديوانا اخبارهم وحكمهم وشرفهم ومكان قرانهم في اصابة
 المعانى اجازة الاساليب المتزوا عن ذلك وهذا تناسب الذى من أجل الاجزاء
 والمحرز والساكن من الحروف نظرة من بحر من تناسب الاصوات كما هو معروف في
 كتب الموسيقى الا أنهم لم يشعروا بما سواها لانهم حينئذ لم يتعملوا علم الالم ولا عرفوا صناعة
 وكانت الداوة أغلب فحلهم ثم تغنى الحداء منهم في حداثه ابلهم والفتيان في فضاء
 خلواتهم فرجعوا الاصوات وترعوا وكانوا يسمون الترنم اذا كان بالشعر غناء واذا
 كان بالتلحين او نوع القراءة تغنى بالابغين المعجمة والباء الموحدة وعلاها ابوا حتى
 الزجاج بأنها تذكر بالاعراب وهو الباقي أى بأحوال الآخرة وربما ناسبوا في غنائهم بين

النعمات مناسبة بسيطة كما ذكره ابن رشيقي آخر كتاب العمدة وغيره وكانوا يسمونه
 السناد وكان أكثر ما يكون منهم في الخفيف الذي يرقص عليه ويمشي بالدف والمزمار
 فيطرب ويستخف الحلوم وكانوا يسمون هذا الهزج وهذا البسيط كله من التلاحين هو
 من أوائلها ولا يبعد أن تتفنن له الطبائع من غير تعليم شأن البساط كلها من الصناعات
 ولم يزل هذا شأن العرب في بداوتهم وجاهليتهم فلما جاء الإسلام واستولوا على ممالك
 الدنيا وحازوا سلطان الهجوم وغلبوهم عليه وكانوا من البسداوة والغضاضة على الحال
 التي عرفت لهم مع غضارة الدين وثمته في تركاً أحوال الفراغ وماليس ينافع في دين
 ولا معاش فهجروا ذلك شيئاً ما لم يكن الملهذوذ عندهم الا ترجيع القراءة والترنم بالشعر
 الذي هو دينهم ومذهبهم فلما جاءهم الترف وغاب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم
 الامم صاروا الى غضارة العيش ورقة الحاشية واستحلوا الفراغ واقتربوا من المنون من
 النرس والروم فوقعوا الى الحجاز وصاروا موالى للعرب وغنوا جميعاً بالعبدان
 والطنابيروا. عازف والمزامير وسمع العرب تلحينهم للاصوات فلحنوا عليها أشعارهم
 وظهر بالمدينة نشيط الفارسي وطويس وسائب حاتمولى عبيد الله بن جعفر فسمعوا
 شعر العرب ولحنوه وأجادوا فيه وطار لهم ذكر ثم أخذ عنهم معبده وطبقته وابن سريج
 وأنظاره وما زالت صناعة الغناء تدرج الى أن كملت أيام بني العباس عند ابراهيم بن
 المهدي و ابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابنه حماد وكان من ذلك في دولتهم ببغداد
 ما تبعه الحديث بعده به وبجبالسه اهذ العهد وأمعنوا في اللهو واللعب واتخذت
 آلات الرقص في الملبس والقضبان والاشعار التي يترنم بها عليه وجعل صنفاً وجيده
 واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكزج وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب
 معانة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرونها ويفرون
 ويتناقفون وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والاعراس وأيام الاعياد وبجبالس
 الفراغ واللهو وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها الى غيرها وكان للموصلين
 غلام اسمه زرياب أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه الى المغرب غيرة منه فلقى بالحكم
 ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الاندلس فبالغ في تكريمته وركب للقائه وأسنى له
 الجوائز والاقطاعات والبحرايات وأحل له من دولته وندمائه بمكان فأورث بالاندلس من
 صناعة الغناء ما تناقلوه الى أزمان الطوائف وطما منها باثيلية بجزيرة خروناقل منها
 بعد ذهاب غضارتها الى بلاد العدة بآفريقية والمغرب وانقسم على أمصارها وبها
 الآن منها صباية على تراجع عمرهم ما وتنافس دولها وهذه الصناعة آخر ما يحصل في
 العمران من الصناعات لانها كالبسة في غير وظيفة من الوظائف الا وظيفة الفراغ

والفرح وهي ايضا اول ما ينقطع من العمر ان عند اختلاله وتراجعه والله اعلم

٣٣ (فصل في ان الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب)

قد ذكرنا في الكتاب ان النفس الناطقة للانسان انما توجد فيه بالقوة وان خروجها من القوة الى الفعل انما هو بتجدد العلوم والادراكات عن المحسوسات اولاً ثم ما يناسب بعدها بالقوة النظرية الى ان يصير ادراكا بالفعل وعقلا محضاً فتكون ذاتا روحانية ويستكمل حينئذ وجودها فوجب لذلك ان يكون كل نوع من العلم والنظر يفيد عقلاً فريداً او الصنائع ابدأ يحصل عنها وعن ملكتها قانون علمي يستفاد من تلك الملكة فلهذا كانت الحنكة في التجربة تفيد عقلاً والملكات الصناعات تفيد عقلاً والحضارة الكاملة تنبذ عقلاً لانها مجتمعة من صنائع في شأن تدبير المنزل ومعايشة ابناء الجنس وتحصيل الآداب في مخالطتهم ثم القيام بأمور الدين واعتبار آدابها وشرايطها وهذه كلها قوانين تنظم علومها فيحصل منها زيادة عقل والكتابة من بين الصنائع أكثر افادة لذلك لانها تنقل على العلوم والانتظار بخلاف الصنائع وببأنه ان في الكتابة انتقالاً من الحروف الخطية الى الكلمات اللفظية في الخيال ومن الكلمات اللفظية في الخيال الى المعاني التي في النفس ذلك دائماً فيحصل لها ملكة الانتقال من الأدلة الى المدلولات وهو معنى المنظر العقلي الذي يكسب العلوم المجهولة فكسب بذلك ملكة من التعقل تكون زيادة عقل ويحصل به قوة فطنة وكيس في الأمور ولما تعودوه من ذلك الانتقال ولذلك قال كسرى في كتابه لما رآهم يتلك الفطنة والكيس فقال ديوانه أي شياطين وجنون قالوا وذلك أصل اشتقاق الديوان لاهل الكتابة ويلحق بذلك الحساب فان في صناعات الحساب نوع تصرف في العدد بالضم والتفريق يحتاج فيه الى استدلال كثير فيبقى متعود الاستدلال والمنظر وهو معنى العقل والله اعلم

(الفصل السادس من الكتاب الاول)

في العلوم واصنافها والتعليم طرقه وساير وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق

١ (فصل في ان العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري)

وذلك ان الانسان قد شاركه جميع الحيوانات في حيوانيته من الحس والحركة والغذاء والكن وغير ذلك وانما تميز عنها بالفكر الذي يهدي به لتحصيل معاشه والتعاون عليه بابناء جنسه والاجتماع المهني لذلك التعاون وقبول ما جاءت به الانبياء

عن الله تعالى والعمل به واتباع صلاح أخراه فهو مفكر في ذلك كله دائماً لا يفتر عن
 الفكر فيه طريقة عين بل اختلاج الفكر أسرع من لمح البصر وعن هذا الفكر تنشأ
 العلوم وما قدمناه من صنائع ثم لاجل هذا الفكر وما جبل عليه الانسان بل الحيوان
 من تحصيل ما تستدعيه الطباع فيكون الفكر راغباً في تحصيل ما ليس عنده من
 الادراكات فيرجع الى من سبقه بعلم أو زاد عليه بمعرفة أو ادرالك أو أخذه عن تقديمه
 من الانبياء الذين يبلغونه لمن تلاه فيلقن ذلك عنهم ويحرص على أخذه وعلمه ثم ان فكره
 ونظيره يتوجه الى واحد واحد من الحقائق وينظر ما يعرض له لذاته واحد بعد آخر
 ويتمرن على ذلك حتى يصير الحقائق العوارض بتلك الحقيقة، أكلة له فيكون حينئذ
 علمه بما يعرض لتلك الحقيقة علماً مخصوصاً وتشرف نفوس أهل الجيل الثاني الى
 تحصيل ذلك فيفزعون الى أهل معرفة، ويجي التعليم من هذا فقد تبين بذلك أن العلم
 والتعليم طبيعي في البشر

٢ (فصل في ان التعليم للعلم من جملة الصنائع)

وذلك أن الحدق في العلم والتفنن فيه والاستيلاء عليه انما هو بمحصل ملكة في الاحاطة
 بمبادئه وقواعده والوقوف على مسائله واستنباط فروعها من أصوله ومالم تحصل هذه
 الملكة لم يكن الحدق في ذلك الفن المتناول حاصلًا وهذه الملكة هي في غير الفهم والوعي
 لانا نجد فهم المسئلة الواحدة من الفن الواحد ووعيا مشتركا بين من شد في ذلك الفن
 وبين من هو مبتدئ فيه وبين العاصم الذي لم يحصل علما وبين العالم التحرير والملكة
 انما هي للعالم أو الشادي في الفنون دون من سواها فدل على أن هذه الملكة غير الفهم
 والوعي والملكات كلها جسمانية سواء كانت في البدن أو في الدماغ من الفكر وغيره
 كالحساب والجسمانيات كلها محسوسة فتفتقر الى التعليم ولهذا كان السند في التعليم
 في كل علم أو صناعة الى مشاهير المعلمين فيها متبرعا عند كل أهل أفق وجيل ويدل أيضا
 على أن تعليم العلم صناعة اختلاف الاصطلاحات فيه فلكل امام من الائمة المشاهير
 اصطلاح في التعليم يختص به شأن الصنائع كلها فدل على أن ذلك الاصطلاح ليس من
 العلم والالكان واحدا عند جميعهم ألا ترى الى علم الكلام كيف تخالف في تعليمه
 اصطلاح المتقدمين والمتأخرين وكذا أصول الفقه وكذا العربية وكذا كل علم يتوجه
 الى مطالعته تجد الاصطلاحات في تعليمه متخلفة فدل على أن الصنائع في التعليم
 والعلم واحد في نفسه واذا تقرر ذلك فاعلم أن سند تعليم العلم لهذا العهد قد كاد
 أن ينقطع عن أهل المغرب باختلال عمرانه وتناقص الدول فيه وما يحدث عن ذلك

من نقص الصنائع وفقدانها كما هو وذلك أن القيروان وقرطبة كانتا حاضرتي المغرب
والاندلس واستبحر عمرانهم ما وكان فيهما للعلوم والصنائع أسواق نافقة وبحور زاخرة
ورسخ فيهما التعليم لامتداد عصورهما وما كان فيهما من الحضارة فلما خربتا انقطع
التعليم من المغرب الا قليلا كان في دولة الموحدين بمرأ كثر مستفادا منها ولم ترسخ
الحضارة بمرأ كثر ابدا واوله الدولة الموحدية في اولها وقرب عهد انقراضها بمبدئها فلم
تصل أحوال الحضارة فيها الا في الاقل وبعد انقراض الدولة بمرأ كثر ارتحل
الى المشرق من افر بيقية القاضي أبو القاسم بن زيتون لعهد واسط المائة السابعة
فأدرك تلميذا الامام ابن الخطيب فأخذ عنهم ولقن تعليمهم وحذق في العقليات
والنقلات ورجع الى تونس بعلم كثير وتعليم حسن وجاء على أنزه من المشرق أبو عبد
الله بن شعيب الدكالي كان ارتحل اليه من المغرب فأخذ عن مشيخة مصر ورجع الى
تونس واستقر بها وكان تعليمه مفيدا فأخذ عنها أهل تونس واتصل بسند تعليمهم ما في
تلاميذها ما جيل بعد جيل حتى انتهى الى القاضي محمد بن عبد السلام شارح ابن
الحاجب وتلميذه وانتقل من تونس الى تلمسان في ابن الامام وتلميذه فانه قرأ مع ابن عبد
السلام على مشيخة واحدة وفي مجالس بأعيانها وتلميذ ابن عبد السلام بتونس وابن
الامام بتلمسان لهذا العهد الا أنهم من القلة بحيث يخشى انقطاع سندهم ثم ارتحل
من زواوة في آخر المائة السابعة أبو علي ناصر الدين المشدالي وأدرك تلميذ أبي عمرو بن
الحاجب وأخذ عنهم ولقن تعليمهم وقرأ مع شهاب الدين القرافي في مجالس واحدة
وحذق في العقليات والنقلات ورجع الى المغرب بعلم كثير وتعليم مفيد ونزل بجاية
واتصل بسند تعليمه في طلبتها ورجع الى تلمسان عمران المشدالي من تلميذها وأوطنها
وبث طريقته فيها وتلميذه لهذا العهد بجاية وتلمسان قليل أو أقل من القليل وبقيت
فاس وسائر أقطار المغرب خلو من حسن التعليم من لدن انقراض تعليم قرطبة
والقيروان ولم يصل سند التعليم فيهم ففسر عليهم حصول الملكة والحذق في العلوم
وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بانحاوره والمناظرة في المسائل العلية فهو الذي
يقرب شأنها ويحصل مرادها فتجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثيرين أعمارهم في
ملازمة المجالس العلية سكوتالا ينطقون ولا يفاضون وعنايتهم بالحفظ أكثر من
الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف في العلم والتعليم ثم بعد تحصيل من
يرى منهم أنه قد حصل تجرد ملكته فادسرة في علمه ان فاض أو ناظر أو علم وما أتاهم
القصور الا من قبل التعليم وانقطاع سنده والاحفظهم أبغ من حفظ سواهم لشدة
عنايتهم به وظنهم أنه المقصود من الملكة العلية وليس كذلك ومما يشهد بذلك في اللغة

ان المدة المأمينة لسكنى طلبة العلم بالمدارس عندهم ست عشرة سنة وهي بتونس
خمس سنين وهذه المدة بالمدارس على المعارف هي أقل ما يتأتى فيها الطالب العلم
حصول مبتغاه من الملكة العلمية أو اليأس من تحصيلها فإطال أمدها في المغرب
لهذه المدة لاجل عسرهما من قلة الجودة في التعليم خاصة لا محاسن ذلك
وأما أهل الأندلس فذهب رسم التعليم من بينهم وذهبت عنايتهم بالعلوم لتناقص عمران
المسلمين بها منذ ثنين من السنين ولم يبق من رسم العلم فيهم الا فن العربية والادب
اقتصروا عليه وانحفظ سند تعليمه بينهم فانحفظ بحفظه وأما الفقه بينهم فرسم خلو وأثر
بعد عين وأما العقائد فلا أثر ولا عين وما ذاك الا لانقطاع سند التعليم فيها بتناقص
العمران وتغاب العدو على عاتقها الا قليلا بسيف البحر شغلهم بمعايشهم أكثر من
شغلهم بآبائها والله غالب على أمره * وأما المشرق فلم ينقطع سند التعليم فيه بل
أسواقه نافقة وبجوره زائخة لاتصال العمران الموفور واتصال السند فيه وان كانت
الامصار العظيمة التي كانت معادن العلم قد خربت مثل بغداد والبصرة والكوفة الا
أن الله تعالى قد أدال منها بأمصارات أعظم من تلك وانتقل العلم منها الى عراق العجم
بخراسان وما وراء النهر من المشرق ثم الى القاهرة وما إليها من المغرب فلم تزل وفورة
وعمرانها متصلة وسند التعليم بها قائما فاهل المشرق على الجملة أروع في صناعة تعليم
العلم بل وفي سائر الصنائع حتى انه ليظن كثير من رحالة أهل المغرب الى المشرق في
طلب العلم ان عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وانهم أشد نباهة
وأعظم كياسة بنظرهم الاولى وان نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتهم من نفوس أهل
المغرب ويعتقدون التناوت بيننا وبينهم في حقيقة الانسانية ويتشيعون لذلك ويولعون
به لما يرون من كبرهم في العلوم والصنائع وائس كذلك وائس بين قطر المشرق والمغرب
تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة اللهم الا الاقاليم المنحرفة
مثل الاقل والسابع فان الامزجة فيها منحرفة والنفس على نسبتها كما مر وانما الذي
فضل به أهل المشرق أهل المغرب هو ما يحصل في النفس من آثار الحضارة من العقل
المزيد كما تقدم في الصنائع وزيد الا ان تحقيقا وذلك ان الحضرة لهم آداب في أحوالهم
في المعاش والمساكن والبناء وأمور الدين والدنيا وكذا سائر أعمالهم وعاداتهم
ومعاملاتهم وجميع تصرفاتهم فلمهم في ذلك كله آداب يوقف عندها في جميع
مآثروا ولونه ويتلبسون به من أخذ وترك حتى كأنها حدود لا تتعدى وهي مع ذلك صنائع
يتلقاها الاخر عن الاول منهم ولا شك أن كل صناعة مرتبة يرجع منها الى النفس أثر
يكسبها عقلا جديدا تستعده لقبول صناعة أخرى وتبها بها العقل لسرعة الادراك

للعارف * ولقد بلغنا في تعليم الصنائع عن أهل مصر غايات لا تدرك مثل أنهم يعلمون الحرا الانسية والحيوانات العجم من الماشي والطائر مفردات من الكلام والافعال يستغرب بندورها ويجزأهل المغرب عن فهمها وحسن الملكات في التعليم والصنائع وسائر الاحوال العادية يزيد الانسان ذكاء في عقله واخاذاة في فكره بكثرة الملكات الحاصلة للنفس اذ قد منا أن النفس انما تنشأ بالادراكات وما يرجع اليها من الملكات فيزدادون بذلك كسالمما يرجع الى النفس من الآثار العلية فيظنه العاقل يتفاوتنا في الحقيقة الانسانية وليس كذلك ألا ترى الى أهل الحضرمع أهل البدو كيف تجدد الحضري مصليا بالذكاء ممتلئا من الكيس حتى ان البدوي ليلظنه أنه قد فاته في حقيقة انسانيته وعقله وليس كذلك وما ذاك الا لاجادته في ملكات الصنائع والآداب في العوائد والاحوال الحضرية ما لا يعرفه البدوي فلما امتلأ الحضري من الصنائع وملكاتها وحسن تعليمها ظن كل من قصر عن تلك الملكات انها الكمال في عقله وأن نفوس أهل البدو قاصرة بنظرتها وجبيلتها عن فطرته وليس كذلك فانا نجد من أهل البدو من هو في أعلى رتبة من الفهم والكمال في عقله وفطرته انما الذي ظهر على أهل الحضرم من ذلك هو روثق الصنائع والتعليم فان لها آثارا ترجع الى النفس كما قدمناه ~~وهذا~~ أهل المشرق لما كانوا في التعليم والصنائع أرفع رتبة وأعلى قدما وكان أهل المغرب أقرب الى البداوة لما قدمناه في الفصل قبل هذا ظن المغفلون في بادى الرأي انه لكمال في حقيقة الانسانية اختصوا به عن أهل المغرب وليس ذلك بصحيح فتفهمه والله يزيد في الخلق ما يشاء وهو اله السموات والارض

٣ (فصل في ان العلوم انما تكثر حيث يكثر العمران وتعظم الحضارة)

والسبب في ذلك أن تعليم العلم كما قدمناه من جملة الصنائع وقد كما قدمنا أن الصنائع انما تكثر في الامصار وعلى نسبة عمرانها في الكثرة والقله والحضارة والترف تكون نسبة الصنائع في الجودة والكمثرة لانه أمر زائد على المعاش حتى فضلت أعمال أهل العمران عن معاشهم انصرفت الى ما وراء المعاش من التصرف في خاصية الانسان وهي العلوم والصنائع ومن تشوق بفطرته الى العلم بمن نشأ في القرى والامصار غير المتقدمة فلا يجد فيها التعليم الذي هو صناعى لفقدان الصنائع في أهل البدو كما قدمناه ولا بد له من الرحلة في طلبه الى الامصار المستجرة شأن الصنائع كلها واعتبر ما قررناه بحال بغداد وقرطبة والقبروان والبصرة والكوفة لما كثر عمرانها صدرا الاسلام واستوت فيها الحضارة وكيف زخرت فيها بحار العلم وتفندوا في

اصطلاحات التعليم وأصناف العلوم واستنباط المسائل والقنون حتى أربوا على المتقدمين وفاتوا المتأخرين ولما تناقص عمرانها وابتدع سكانها انطوى ذلك البساط بما عليه جلة وفقد العلم بها والتعليم وانتقل الى غيرها من امصار الاسلام ونحن لهذا العهد نرى أن العلم والتعليم انما هو بالقاهرة من بلاد مصر لما أن عمرانها مستجبر وحضارتها مستحكمة منذ آلاف من السنين فاستحكمت فيها الصنائع وتفذنت وبن جلتها تعليم العلم وأكد ذلك فيها وحفظه ما وقع لهذه العصور به من مذمات من السنين في دولة الترك من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرا وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم على من يخلفونه من ذريتهم لما له عليهم من الرق او الولاء ولما يخشى من معاطب الملك ونسبائه فاستكثر وامن ببناء المدارس والزوايا والربط ووقفوا عليها الاوقاف المفزة يجعلون فيها شركا لولدهم بنظر عليهم أو نصيب منها مع ما فيهم غالباً من الجنوح الى الخير والتماس الاجور في المقاصد والافعال فكثرت الاوقاف لذلك وعظمت الغلات والفوائد وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جراتهم منها وارتحل اليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب ونفقت بها أسواق العلوم وزخرت بحارها والله يخلق ما يشاء

٤ (فصل في اصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد)

(اعلم) أن العلوم التي يخوض فيها البشر وبتداولونها في الامصار تخصصها وتعليمها هي على صنفين صنف طبيعي للانسان يهتدى اليه بفكره وصنف نقلي يأخذه عن وضعه والاول هي العلوم الحكمية الفلسفية وهي التي يمكن أن يقف عليها الانسان بطبيعة فكره ويهتدى بمداركة البشرية الى موضوعاتها ومسائلها وانحاء براهينها ووجوه تعليمها حتى يقفه نظره ويحسها على الصواب من الخطا فيها من حيث هو انسان ذوقه والثاني هي العلوم النقلية الوضعية وهي كلها مستندة الى الخبر عن الواضع الشرعي ولا مجال فيها للعقل الا في الحاق الفروع من مسائلها بالاصول لان الجزئيات الحادثة المتعاقبة لا تندرج تحت النقل الكلي بمجرد وضعه فمحتاج الى الالتحاق بوجه قياسي الآن هذا القياس يتفرع عن الخبر بثبوت الحكم في الاصل وهو نقلي فرجع هذا القياس الى النقل لتفرعه عنه وأصل هذه العلوم النقلية كلها هي الشرعيات من الكتاب والسنة التي هي مشروعة لنا من الله ورسوله وما يتعلق بذلك من العلوم التي تهيوها للافادة ثم يستتبع ذلك علوم اللسان العربي الذي هو لسان الملة وبه نزل القرآن وأصناف هذه العلوم النقلية كثيرة لان المكاف يجب عليه أن يعرف

أحكام الله تعالى المفروضة عليه وعلى أبناء جنسه وهي مأخوذة من الكتاب والسنة
بالنص أو بالإجماع أو بالاحتمال فلا بد من النظر في الكتاب ببيان ألفاظه أو لا وهذا هو
علم التفسير ثم بإسناد نقله وروايته إلى النبي صلى الله عليه وسلم الذي جاء به من عند
الله واختلاف روايات القراء في قراءته وهذا هو علم القراءات ثم بإسناد السنة إلى
صاحبها والكلام في الرواة الناقلين لها ومعرفة أحوالهم وعدالتهم يقع الوثوق
بأخبارهم بعلم ما يجب العمل به متضاه من ذلك وهذه هي علوم الحديث ثم لا بد في
استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط
وهذا هو أصول الفقه وبعد هذا تحصل الثمرة بمعرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين
وهذا هو الفقه ثم إن التكليف منها بدني ومنها قلبي وهو المختص بالإيمان وما يجب
أن يعتقدهم لا يعتقده وهذه هي العقائد الإيمانية في الذات والصفات وأمور الحشر
والنعيم والعذاب والقدر والحجاج عن هذه بالأدلة العقلية هو علم الكلام ثم النظر في
القرآن والحديث لا بد أن تتقدمه العلوم اللسانية لأنه متوقف عليها وهي أصناف فيها
علم اللغة وعلم النحو وعلم البيان وعلم الأدب حسبما تتكلم عليها كلها وهذه العلوم
النقلية كلها مختصة بالله الإسلامية وأهلها وإن كانت كل كلمة على الجملة لا بد فيها من
مثل ذلك فهي مشاركة لها في الجنس البعيد من حيث أنها علوم الشريعة المنزلة من
عند الله تعالى على صاحب الشريعة المبلغ لها وأما على الخصوص فبما ينسب لجميع
المال لأنها ناسخة لها وكل ما قبلها من علوم المال فهو جوررة والنظر فيها محظور فقد
نهى الشرع عن النظر في الكتب المنزلة غير القرآن قال صلى الله عليه وسلم لا تصدقوا
أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالذي أنزل البنا وأنزل اليكس والهنا والهكم
واحد ورأى النبي صلى الله عليه وسلم في يد عمر رضي الله عنه ورقة من التوراة
فغضب حتى تبين الغضب في وجهه ثم قال ألم آتكم بها بيضاء نقية والله لو كان موسى
حيما وسعه الاتباعي ثم إن هذه العلوم الشرعية النقلية قد نفقت أسواقها في هذه
الملة بما لا مزيد عليه وانتهت فيها مدارك الناظرين إلى الغاية التي لا فوئها وهذبت
الأصطلاحات وورثت الفنون فجاءت من وراء الغاية في الحسن والتميق وكان لكل
فن رجال يرجع إليهم فيه وأوضاع يستفاد منها التعليم واختص المشرق من ذلك
والمغرب بما هو مشهور منها حسبما ذكره الآن عند تعدد هذه الفنون وقد كسدت
لهذا العهد أسواق العلم بالمغرب لتناقص العمران فيه وانقطاع سند العلم والتعليم كما
قدمناه في الفصل قبله وما أدري ما فعل الله بالمشرق والظن به نفاق العلم فيه واتصال
التعليم في العلوم وفي سائر الصنائع الضرورية والكالية لكثرة عمرانها والحضارة

ووجود الاعانة لعالم العلم بالجرمانية من الاوقاف التي اتسعت بها اوزاقهم والله سبحانه
وتعالى هو لفعال لما يريد ويده التوفيق والاعانة

٥ (علوم القرآن من التفسير والقراآت)

القرآن هو كلام الله المنزل على نبيه المكتوب بين دفتي المصحف وهو متواتر بين الامة
الا أن الصحابة روه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض
الفاظه وكيفيات الحروف في أدائها وتوكل ذلك واشتهر الى أن استقرت منها سبع
طرق معينة تواتر نقلها أيضا بأدائها واختصت بالانتساب الى من اشتهر بروايتها من
الجم الغفير فصارت هذه القراآت السبع أصولا للقراءة وربما زيد بعد ذلك قراآت
أخر خلقت بالسبع الا انها عند أئمة القراءة لا تقوى قوتها في النقل وهذه القراآت
السبع معروفة في كتبها وقد خالف بعض الناس في تواتر طرقها الا انها عندهم
ككيفية للاداء وهو غير منضبط وليس ذلك عندهم بقادح في تواتر القرآن
وأما الأكره وقالوا بتواترها وقال آخرون بتواتر غير الاداء منها كما تدو التسهيل لعدم
لوقوف على كيفية بالسمع وهو الصحيح ولم يزل القراء يتداولون هذه القراآت
وروايتها الى أن كتبت العلوم ودققت فكتبت فيما كتب من العلوم وصارت صناعة
مخصوصة ولما انفردوا وتناقله الناس بالشرق والاندلس في جيل بعد جيل الى أن
ملك بشرق الاندلس مجاهد من موالى العامريين وكان معتنيا بهذا الفن من بين فنون
القرآن لما أخذ به مولا المنصور بن أبي عامر واجتهد في تعليمه وعرضه على من كان
من أئمة القراء بمحضته فكان سهمه في ذلك وافرا واخص مجاهد بعد ذلك بامارة
داية والجزائر الشرقية فنفتت بها سوق القراء لما كان هو من أئمتها وبما كان له من
العناية بسائر العلوم عموما وبالقراآت خصوصا فظهر له ده أبو عمرو والداني وبلغ
الغاية فيها ووقفت عليه معرفتها انتهت الى روايتها أساسا يدها وتعددت تاليفه فيها
وعول الناس عليها وعدلوا عن غيرها واعتمدوا من بينها كتاب التيسير له ثم ظهر بعد
ذلك فيما يليه من العصور والاجيال أبو القاسم ابن فير من أهل شاطبة فعمد الى
تهذيب مادونه أبو عمرو وتخصه فنظم ذلك كله في قصيدة لغز فيها أسماء القراء بحروف
أ ب ج د ت ز نيا ح ك ه ل ت س ر ع ل م ن ا ق ص د ه ن ا خ ت ص ا ر و ل ي ك و ن ا س ه ل ل الحفظ
لاجل نظمها فاستوعب فيها الفن استيعابا حسنا وهي التام بحفظها وتلقينها
للولدان المتعلمين وجرى العمل على ذلك في امصار المغرب والاندلس وربما أضيف
الى فن القراآت فن الرسم أيضا وهي أوضاع حروف القرآن في المصحف ورسمه
الخطية لان فيه حروفا كثيرة وقع رسمها على غير المعروف من قياس الخط كالأبواب

في بآيد وزيادة الالف في لا اذبحنه ولا اوضعوا والواو في جزا والتظلمين وحذف
الالفات في مواضع دون أخرى وما رسم فيه من التاآت ومدودا والاصل فيه مربوط
على شكل الهاء وغير ذلك وقد مر تعليل هذا الرسم المصحفي عند الكلام في الخط فلما
جاءت هذه المخالفة لاوضاع الخط وقانونه احتج الى حصرها فكتب الناس فيها
أبضا عند كتبهم في العلوم وانتهت بالمغرب الى أبي عمر الداني المذكور فكتب فيها
كتبا من أشهرها كتاب المقنع وأخذ به الناس وعولوا عليه وتظمه أبو القاسم
الشاطبي في قصيدته المشهورة على روى الراي وولع الناس بحفظها ثم كثرت الخلاف
في الرسم في كلمات وحروف أخرى ذكرها أبو داود سليمان بن نجاح من موالى مجاهد
في كتبه وهو من تلاميذ أبي عمرو الداني والمشتهر بحمل علومه ورواية كتبه ثم نقل بعده
خلاف آخر فنظم الخراز من المتأخرين بالمغرب أرجوزة أخرى زاد فيها على المقنع
خلافا كثيرا وعزاه لناقله واشتهرت بالمغرب واقتصر الناس على حفظها وهجرها بها
كتب أبي داود وأبي عمرو والشاطبي في الرسم (وأما التفسير) فاعلم أن القرآن
نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في
مفرداته وتراكيبه وكان ينزل جلا جلا وآيات آيات لبيان التوحيد والفروض الدينية
بحسب الوقائع ومنها ما هو في العقائد الإيمانية ومنها ما هو في أحكام الجوارح ومنها
ما يتقدم ومنها ما يتأخر ويكون نا محاله وكان النبي صلى الله عليه وسلم بين الحمل
وعبر الناس من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى
الحال منها فنقول عنه كما علم من قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح أنهي النبي صلى
الله عليه وسلم وأمثال ذلك ونقل ذلك عن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم أجمعين
وتداول ذلك التابعون من بعدهم ونقل ذلك عنهم ولم يزل ذلك متناقلا بين المصدر
الأول والسلف حتى صارت المعارف علوما ودونت الكتب فكتب الكثير من ذلك
ونقلت الآثار الواردة فيه عن الصحابة والتابعين وانتهى ذلك الى الطبري والواقدي
والثعالبي وأمثال ذلك من المفسرين فكتبوا فيه ما شاء الله أن يكتبوه من الآثار
صارت علوم اللسان صناعية من الكلام في موضوعات اللغة وأحكام الاعراب
والبلاغة في التراكيب فوضعت الدواوين في ذلك بعد أن كانت ملكات للعرب
لا يرجع فيها الى نقل ولا كتاب فتوسى ذلك وصارت تناق من كتب أهل اللسان
فاحتج الى ذلك في تفسير القرآن لانه بلسان العرب وعلى مهاج بلاغتهم وصار لتفسير
على صنغين تفسير نقلي مسند الى الآثار المنقولة عن السلف وهي معرفة الناسخ
والمسوخ وأسباب النزول ومقاصد الآي وكل ذلك لا يعرف الا بالنقل عن الصحابة

والتابعين وقد جمع المتقدمون في ذلك وأوعوا الآن كتبهم ومنقولاتهم تشمل على
 الغث والرخين والمقبول والمردود والسبب في ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم
 وإنما غلبت عليهم البداوة والامية واذا تشوقوا الى معرفة شئ مما تشوق اليه النفوس
 البشرية في أسباب المكنونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود فانما يسألون عنه أهل
 الكتاب قبلهم ويستفيدون منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من
 النصارى وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ولا يعرفون من ذلك الا
 ما عرفه العامة من أهل الكتاب ومعظمهم من حير الذين أخذوا بدين اليهودية فلما
 أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لا تعلق له بالاحكام الشرعية التي يجتاطون لها مثل
 أخبار بدء الخليقة وما يرجع الى الحدثان والملاحم وأمثال ذلك وهو لا منزل كعب
 الاحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وأمثالهم فامتلات التفاسير من المنقولات
 عندهم في أمثال هذه الاغراض أخبار موقوفة عليهم وليست مما يرجع الى
 الاحكام فيتحرى في الصحة التي يجب بها العمل ويتساهل المفسرون في مثل ذلك
 وملوا كتب التفسير بهذه المنقولات وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين
 يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ما ينقلونه من ذلك الا أنهم بعد صيتهم
 وعظمت أقدارهم لما كانوا عليه من المقامات في الدين والماله فتلقت بالقبول من
 يومئذ فلما رجع الناس الى التحقيق والتمحيض وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين
 بالمغرب فخلص تلك التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب الى الصحة منها ووضع ذلك في كتاب
 متداول بين أهل المغرب الاندلس حسن المنحى وتبعه القرطبي في تلك الطريقة على
 منهاج واحد في كتاب آخر مشهور بالشرق والصنف الآخر من التفاسير وهو
 ما يرجع الى اللسان من معرفة اللغة والاعراب والبلاغة في تأدية المعنى بحسب
 المقاصد والاساليب وهذا الصنف من التفسير قل أن يفرده عن الاقل اذا الاقل هو
 المقصود بالذات وإنما جاء هذا بعد أن صار اللسان وعلومه صناعة نعم قد يكون في بعض
 التفاسير غالباً ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا القرن من التفاسير كتاب الكشاف
 للزمخشري من أهل خوارزم العراق الا أن مؤلفه من أهل الاعتزال في العقائد فبأنى
 بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له في آي القرآن من طرق البلاغة فصار
 بذلك للمعتق من أهل السنة انحراف عنه وتحذير للجهل بهور من مكامنه مع اقرارهم
 برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة واذا كان الناظر فيه واقفاً مع ذلك على
 المذاهب السنية محسناً للعباج عنها فلا يجرم أنه آمن من غوائله فلتغتم مطالعته
 لغرابة فنونه في اللسان ولقد وصل اليها في هذه العصور تأليف بعض العراقيين

وهو شرف الدين النابسي من أهل نوري زمن عراق العجم شرح فيه كتاب الزمخشري هذا وتتبع ألفاظه وتعرض لمذاهبه في الاعتزال بأدلة تزيدها ويبين أن البلاغة إنما تقع في الآية على ما يراه أهل السنة لا على ما يراه المعتزلة فأحسن في ذلك ما شامع امتاعه في سائر فنون البلاغة وفوق كل ذي علم عليم

٦ (علوم الحديث)

وأما علوم الحديث فهي كثيرة ومتنوعة لأن منها ما يتطرق في ناسخه ومنه ووجهه وذلك بما ثبت في شرعيته من جواز النسخ ووقوعه لظننا من الله بعباده وتخصه بما عندهم باعتبار مصالحهم التي تكفل لهم بها قال تعالى ما نسخ من آية أو ناسخات بخبر منها أو مثلها فإذا تعارض الخبران بالنسخ والاشبات وتعد الجمع بينهما ببعض التأويل وعلم تقدم أحدهما تعين أن المتأخر ناسخ ومعرفة النسخ والمدوخ من أهم علوم الحديث وأصحها قال الزهري أعيان النسخ وأجزهـم أن يعرفوا ناسخ حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم من منسوخه وكان للشافعي رضي الله عنه فيه قدم راحة ومن علوم الأحاديث النظر في الأسانيد ومعرفة ما يجب العمل به من الأحاديث بوقوعه على السند الكامل الشروط لأن العمل انما يجب بما يغلب على الظن صدقه من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجهد في الطريق التي تحصل ذلك الظن وهو بمعرفة رواية الحديث بالعدالة والضبط وانما ثبت ذلك بالنقل عن اعلام الدين بتعدياتهم وبراهينهم من الجرح والفضل ويكون لنا ذلك دليل على القبول أو الترد وكذا مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم في ذلك وتغيرهم فيه واحدا واحدا وكذلك الأسانيد تتفاوت بانصالها وانقطاعها بأن يكون الراوي لم يلق الراوي الذي نقل عنه وبسلامتها من العلل الموهنة لها وتنتهي بالتفاوت الى طرفين فحكم بقبول الاعلى ورد الاسفل ويختلف في المتوسط بحسب المنقول عن أئمة الشأن ولهم في ذلك ألفاظ اصطلاحوا على وضعها هذه المراتب المرتبة مثل الصحيح والحسن والضعيف والمرسل والمنقطع والمعضل والشاذ والغريب وغير ذلك من ألقاب المتداولة بينهم وبوبوا على كل واحد منها ونقلوا ما فيه من الخلاف لأئمة اللسان أو اللفظ ثم النظر في كيفية أخذ الرواية بعضهم عن بعض بقراءة أو كتابة أو مناولة أو اجازة وتساوت رتبها ومال العلماء في ذلك من الخلاف بالقبول والرد ثم اتفقوا ذلك بكلام في ألفاظ تقع في متون الحديث من غريب أو مشكل أو ضعيف أو مفترق منها أو مختلف وما يناسب ذلك هذا ما ينظر فيه أهل الحديث وغالبه وكانت أحوال نقلة الحديث في عصور

السلف من الصحابة والتابعين معروفة عند أهل بلدتهم بلدهم بالحجاز وهم بمبصرة
والصكونة من العراق ومنهم بالشام ومصر والجميع معروفون مشهورون
في أعمارهم وكانت طريقة أهل الحجاز في أعمارهم في الاسانيد أعلى من سواهم
وأمتن في الصحة لاستبدادهم في شروط النقل من العدالة والضبط وتجاوهم عن قبول
المجهول الحال في ذلك وسند الطريقة الحجازية بعد السلف الامام مالك عالم المدينة
رضي الله تعالى عنه ثم أصحابه مثل الامام محمد بن ادريس الشافعي والامام أحمد بن
حنبل وأمثالهم وكان علم الشريعة في مبداهذا الامر نقلا صرفا ثم لها السلف
وتحزوا الصحيح حتى أكلوها وكتب مالك رحمه الله كتاب الموطأ وأودعه أصول
الاحكام من الصحيح المتفق عليه ورتبه على أبواب الفقه ثم عنى الحفاظ بمعرفة طرق
الاحاديث وأسانيدها المختلفة ورجما يقع اسناد الحديث من طرق متعددة عن رواية
مختلفين وقد يقع الحديث أيضا في أبواب متعددة باختلاف المعاني التي اشغل عليها
وجاء محمد بن اسمعيل البخاري امام الحديثين في عصره فخرج احاديث السنة على
أبوابها في هذه الصحيح بجميع الطرق التي للعزازين والعراقيين والشاميين واعتمد
منها ما أجمعوا عليه دون ما اختلفوا فيه وكررا الاحاديث بسوقها في كل باب بمعنى
ذلك الباب الذي تضمنه الحديث فتكررت لذلك احاديثه حتى يقال انه اشغل على
تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة وفرق الطرق والاسانيد عليها
مختلفة في كل باب ثم جاء الامام مسلم بن الحجاج القشيري رحمه الله تعالى فألف مسنده
الصحيح حذاه حذو البخاري في نقل الجمع عليه وحذف المتكررة منها وجمع الطرق
والاسانيد وتوابعه على أبواب الفقه وتراجعه ومع ذلك فلم يستوعب الصحيح كله وقد
استدرك الناس عليهما في ذلك ثم كتب أبو داود السجستاني وأبو عيسى الترمذي
وأبو عبد الرحمن النسائي في السنن بأوسع من الصحيح وقصدوا ما توفرت فيه شروط العمل
امان الرتبة العالية في الاسانيد وهو الصحيح كما هو معروف وامان الذي دونه
من الحسن وغيره ليكون ذلك اماما للسنة والعمل وهذه هي المسانيد المشهورة في الملة
وهي أمهات كتب الحديث في السنة فانها وان تعددت ترجع الى هذه في الاغلب
ومعرفة هذه الشروط والاصطلاحات كلها هي علم الحديث ورجما يفرد عنها الناسخ
والتسوخ فيجعل قنابرا له وكذا الغريب والناس فيه نافع مشهورة ثم المؤلف
والمختلف وقد ألف الناس في علوم الحديث وأكثرها ومن فحول علمانه وأعتهم أبو عبد
الله الحاكم ونا آلفه فيه مشهورة وهو الذي هذبها وأظهر محاسنها وأشهر كتاب
لام تأخرين فيه كتاب أبي عمرو بن الصلاح كان لعهد أوائل المائة السابعة وتلاه محيي

الدين النووي بمنزلة ذلك والفن شريف في مفراداته معرفة ما يحفظ به السنن المنقولة
عن صاحب الشريعة وقد انقطع لهذا العهد تخرج شيء من الاحاديث واستدراكها
على المتقدمين اذ العادة تشهد بان هؤلاء الائمة على نهجهم وتلاحق عصورهم
وكفايتهم واجتهادهم لم يكونوا يغفلوا شيئا من السنة أو يتركوه حتى يعثر عليه المتأخر
هذا بعيد عنهم وانما تصرف العناية لهذا العهد الى تصحيح الائمة المكتوبة
وضبطها بالرواية عن مصنفها والنظر في آساندها الى موافقها وعرض ذلك على ما تقر
في علم الحديث من الشروط والاحكام لتتصل الائمة محكمة الى منتهاها ولم يندوا
في ذلك على العناية بأكثر من هذه الائمة الخسة الا في التلبيح • فاما البخاري
وهو اعلا هارثة فاستمع الناس شرحه واستفادوا منه من أجل ما يحتاج
اليه من معرفة الطرق المتعددة ورجالها من أهل الجاز والشام والعراق ومعرفة
أحوالهم واختلاف الناس فيهم ولذلك يحتاج الى امانة النظر في التفتق في زواجه
لانه يترجم الترجمة ويورد فيها الحديث بسنداً وطريق ثم يترجم أخرى ويورد فيها ذلك
الحديث بعينه المتضمن من المعنى الذي ترجمه اليه وكذلك في ترجمة وترجمة الى
أن يتكرر الحديث في أبواب كثيرة بحسب معانيه واختلافها ومن شرحه ولم
يستوف هذا فيه فلم يوف حق الشرح كابن بطال وابن المهلب وابن التين ونحوهم ولقد
سمعت كثيراً من شيوخنا رحمهم الله يقولون شرح كتاب البخاري دين على الامة يعنون
أن أحداً من علماء الامة لم يوف ما يجب له من الشرح بهذا الاعتبار • وأما صحيح
مسلم فكثرت العناية علماء المغرب به وأكبروا عليه وأجمعوا على تفضيله على كتاب
البخاري من غير الصحيح • الم يكن على شرطه وأكثر ما وقع له في التراجم وأملى الامام
المأزني من فقهاء المالكية عليه شرحا وسماه المعلم بقوائمه لم اشغل على عيون من
علم الحديث وفتون من الفقه ثم أكمله القاضي عياض من بعده وعمه وسماه اكمال
المعلم وتلاههما محيي الدين النووي بشرح استوفى ما في الكتابين وزاد عليهما فقه
شرحا وافيا • وأما كتب السنن الاخرى وفيها معظم ما أخذ القضاة فأكثر شرحها
في كتب الفقه الا ما يختص بعلم الحديث فكاتب الناس عليها واستوفوا من ذلك
ما يحتاج اليه من علم الحديث وموضوعاتها والاسانيد التي اشتملت على الاحاديث
المعمول بها من السنة • واعلم أن الاحاديث قد تميزت مراتبها لهذا العهد بين صحيح
وحسن وضعيف ومعلول وغيرها تنزلها ائمة الحديث وجهانته وعرفوها ولم يبق
طريق في تصحيح ما يصح من قبل ولقد كان الائمة في الحديث يعرفون الاحاديث بطرقها
واسانيدها بحيث لو روى حديث بغير سنده وطريقه يفتنون الى أنه قد قلب عن وضعه

واقد وقع مثل ذلك للامام محمد بن اسماعيل البخاري حين ورد على بغداد وقصد
 المحدثون امتحانه فسألوه عن أحاديث قلبوا أسانيدها فقال لا أعرف هذه ولكن - تدثني
 فلان ثم أتى بجميع تلك الأحاديث إلى الوضع الصحيح ورد كل متن إلى سنده وأقره
 بالامامة • واعلم أيضا أن الأئمة المجتهدين تفاوتوا في الكثرة من هذه الصناعة
 والاقبال فأبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يقال بلغت روايته إلى سبعة عشر حديثا
 أو نحوها ومالك رحمه الله انما صح عنده ما في كتاب الموطأ وغايتها ثلثمائة حديث أو
 نحوها وأحمد بن حنبل رحمه الله تعالى في مسنده نحوون ألف حديث وكل ما آذاه
 إليه اجتهاده في ذلك وقد نقول بعض المبغضين المتعسفين إلى أن منهم من كان قليل
 البضاعة في الحديث فلهذا فاقته روايته ولا سبيل إلى هذا المتقدي كبار الأئمة لأن
 الشريعة انما تؤخذ من الكتاب والسنة ومن كان قليل البضاعة من الحديث فيتعين
 عليه طلبه وروايته والجد والتشمير في ذلك ليأخذ الذين عن أصول صحيحة ويتلقى
 الأحكام عن صاحبها المبلغ لها وانما قل منهم من قلل الرواية لاجل المطاعن التي تعترضه
 فيها والعلل التي تعرض في طرقها سيما والجرح مقدم عند الأكثر فؤديه الاجتهاد إلى
 ترك الأخذ بما تعرض مثل ذلك فيه من الأحاديث وطرق الاسانيد ويكثر ذلك فقل
 روايته لضعف في الطرق هذا مع أن أهل الحجاز أكثر رواية للحديث من أهل العراق
 لأن المدينة دار الهجرة وماوى الصحابة ومن انتقل منهم إلى العراق كان شغلهم بالجهاد
 أكثر والامام أبو حنيفة انما قلت روايته لما شدد في شروط الرواية والتحمل وضعف
 رواية الحديث البقيني اذا عارضها الفعل النفسى وقلت من أجلها روايته فقل - دينه
 لأنه ترك رواية الحديث متعمدا فخافاه من ذلك ويدل على أنه من كبار المجتهدين في علم
 الحديث اعتماد مدعيه بينهم والتعويل عليه واعتباره ردا وقبولا وأما غيره من المحدثين
 وهم الجمهور فتوسعوا في الشروط وكثر حديثهم والكل عن اجتهاد وقد توسع أصحابه
 من بعده في الشروط وكثرت روايتهم وروى الطحاوى فأكثر وكتب مسنده وهو
 جليل القدر الا أنه لا يعدل الصحيحين لأن الشروط التي اعتمدها البخاري ومسلم
 في كتابهما مجمع عليها بين الأمة كما قالوه وشروط الطحاوى غير متفق عليها كالرواية عن
 المستور الحال وغيره فلهذا تقدم الصحاحين بل وكتب السنن المعروفة عليه لتأخر شرطه
 عن شروطهم ومن أجل هذا قيل في الصحيحين بالاجماع على قبولهما من جهة الاجماع
 على صحة ما فيهما من الشروط المتفق عليها فلا تأخذك ريبة في ذلك فالقوم أحق
 الناس بالظن الجميل بهم والتماس المخرج العجيبة لهم والله سبحانه وتعالى أعلم بما
 في حقائق الامور

الفقه معرفة أحكام الله تعالى في أفعال المكلفين بالوجوب والحظر والندب والكراهة والاباحة وهي متلقاة من الكتاب والسنة وما نصبه الشارع لمعرفة فتا من الأدلة فإذا استخرجت الأحكام من تلك الأدلة قبل إلهافه وكان السلف يستخرجونها من تلك الأدلة على اختلاف فيها بينهم ولا بد من وقوعه ضرورة أن الأدلة غالبها من النصوص وهي بلغة العرب وفي اقتضات ألفاظها الكثير من معانيها اختلاف بينهم معروف وأيضاً فالسنة مختلفة الأطراف في الثبوت وتعارض في الأكثر أحكامها فاحتاج إلى الترجيح وهو مختلف أيضاً فالأدلة من غير النصوص مختلف فيها وأيضاً فالوقائع المتجددة لا توفى بها النصوص وما كان منها غير ظاهر في المنصوص فيجوز على منصوص لمشابهة بينهم وهذه كلها اشارات للاختلاف ضرورة الوقوع ومن هنا وقع الخلاف بين السلف والائمة من بعدهم ثم إن الصحابة كما لم يكونوا أهل فتيا ولا كان الدين يؤخذ عن جميعهم وإنما كان ذلك مختصاً بالخاملين للقرآن العارفين بتأنيده ومنسوخه ومثابه ومحكمه وسائر دلالاته بما تلقوه من النبي صلى الله عليه وسلم أو ممن سمع منهم من علمتهم وكانوا يسمون ذلك القراء أي الذين يقرؤون الكتاب لأن العرب كانوا امة اتمية فاختر من كان منهم قارئ الكتاب بهذا الاسم اغرابته يومئذ وبقي الامر كذلك صدر الملة ثم عظمت أمصار الاسلام وذهبت الامية من العرب بممارسة الكتاب وتمكن الاستنباط وكل الفقه وأصبح صناعة وعلماً فبدلوا باسم الفقهاء والعلماء من القراء وانقسم الفقه فيهم الى طريقتين طريقة أهل الرأي والقياس وهم أهل العراق وطريقة أهل الحديث وهم أهل الحجاز وكان الحديث قبل ذلك في أهل العراق لما قدمناه فاستكروا من القياس ومهر وافيه فلذلك قيل أهل الرأي ومقدم جماعتهم الذي استقر المذهب فيه وفي أصحابه أبو حنيفة وامام أهل الحجاز مالك بن أنس والسافعي من بعده ثم أنكر القياس طائفة من العلماء وأبطلوا العمل به وهم الظاهرية ووجه إبطالها المدارك كلها منحصرة في النصوص والاجماع وردوا القياس الجلي والاهل المنصوصة الى النص لأن النص على الاله نص على الحكم في جميع محالها وكان امام هذا المذهب داود بن علي وابنه وأصحابهما وكان هذه المذاهب الثلاثة هي مذاهب الجمهور المشتهرة بين الامة وشذأهل البيت بمذاهب ابتدعوها وفقه انفراديه وبنوه على مذهبهم في تناول بعض الصحابة بالقدح وعلى قولهم بعصمة الائمة ورفع الخلاف عن أقوالهم وهي كتابها أصول واهية وشذبت ذلك الخواارج ولم يحتل الجمهور بمذاهبهم بل

وسموا بجانب الانكار والقدح فلا تعرف شيئا من مذاهبهم ولا تروى كتبهم ولا أثر
اشي منها الا في مواطنهم فكتب الشيعة في بلادهم وحيث كانت دولتهم قائمة في المغرب
والشرق وايمن والحوارح كذلك واكمل منهم كتب وتا آيف وآراء في الفقه غربية
ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمتهم وانكار الجهور وعلى منتهى ولم يبق الا
في الكتب المهلدة ووربما يكف كثير من الطالبين عن تكاف باقتعال مذاهبهم على
نك الكتب يروم اخذ فقههم منها ومذهبهم فلا يحلو بطائل ويصير الى مخالفة الجمهور
وانكارهم عايبه ورجعهم هذه النحلة من أهل البدع بنقله العلم من الكتب بن غير
مفتاح المعلمين وقد فعل ذلك ابن حزم بالاندلس على علو رتبته في حفظ الحديث وصار
الى مذهب أهل الظاهر ومهر فيه باجتهاد زعمه في أقوالهم وخالف امامهم داود
وغيره من الكثر من أئمة المسلمين فنقم الناس ذلك عايبه وأوسه وامذهبه استهجانا
وانكارا وتلقوا كتبهم بالانحغال والترك حتى انهم اليه من ريبها بالاسواق ورجعوا
تفرق في بعض الاحيان ولم يبق الا مذهب أهل الرأي من العراق وأهل الحديث من
الجزيرة • فأما أهل العراق فامامهم الذي انتقلت عنده مذاهبهم أبو حنيفة
النعمان بن ثابت ومقامه في الفقه لا يلحق شهادته بذلك أهل جلدته وخصوصا مالك
والشافعي • وأما أهل الجزيرة فكان امامهم مالك بن أنس الاصمعي امام دار الهجرة
رحمه الله تعالى واختص بزيادة مدرك آخر للاحكام غير امداركة المعتمدة عند غيره وهو
عمل أهل المدينة لانه رأى أنهم فيما يتقنون عليه من فعل أو ترك متابعون لمن قبلهم
ضرورة لديهم واقتدائهم وهكذا الى الجليل المباشرين افعال النبي صلى الله عليه
وسلم الاخذين ذلك عنه وما رذلك عنده من أصول الادلة الشرعية بطريق كثير
أن ذلك من مسائل الاجماع فانكره لان دليل الاجماع لا يخص أهل المدينة من سواهم
بل هو شامل للامة • واعلم أن الاجماع انما هو الاتفاق على الامر الديني عن
اجتهاد ومالك رحمه الله تعالى لم يعتبر عمل أهل المدينة من هذا المعنى وانما اعتبره من
حيث اتباع الجليل بالمشاهدة للجميل الى أن ينتهي الى الشارع صلوات الله وسلامه
عليه وضرورة اقتدائهم به من ذلك يعلم الملة ذكرت في باب الاجماع الابواب به من حيث
ما فيها من الاتفاق الجامع بينها وبين الاجماع الا أن اتفاق أهل الاجماع عن نظر
واجتهاد في الادلة واتفاق هؤلاء في فعل أو ترك مستندين الى مشاهدة من قبلهم ولو
ذكرت المسئلة في باب فعل النبي صلى الله عليه وسلم وتقريره أو مع الادلة المختلف
فيها مثل مذهب الصهابي ومرغ من قبلنا والاستصحاب لكان البق ثم كان من بعد
مالك بن أنس محمد بن ادريس المطلي الشافعي رحمهما الله تعالى رحل الى العراق من

بعد ما نلت ولقي أصحاب الامام أبي حنيفة وأخذ عنهم ومزج طريقتهم أهل الحجاز بطريقة
 أهل العراق واختص بمذهب وخالف ما لكارجه الله تعالى في كثير من مذهبه وجاء
 من بعدهما أحمد بن حنبل رحمه الله وكان من عليه المحدثين وقرأ أصحابه على أصحاب
 الامام أبي حنيفة مع وفور بضاعتهم من الحديث فاختصوا بمذهب آخر ووقف التقليد
 في الامصار عنده هؤلاء الاربعة ودرس المقلدون لمن سواهم وسد الناس باب الخلاف
 وطرقه لما كثرت شبه الاصطلاحات في العلوم ولما عانق عن الوصول الى رتبة
 الاجتهاد ولما خشي من اسناد ذلك الى غير أهله ومن لا يوثق برأيه ولا بد منه فصرحوا
 بالعجز والالء وازبردوا الناس الى تقليد هؤلاء كل من اختص به من المقلدين وحظروا
 أن يتداول تقليد لهم لما فيه من التلاعب ولم يبق الا نقل مذاهبتهم وعمل كل مقلد
 بمذهب من قلده منهم بعد تصحيح الاصول واتصال سندها بالرواية لا يحصل اليوم
 لثبته غيره. هذا ومدعى الاجتهاد لهذا العهد مردود على عقبه مهجور وتقليده وقد
 صار أهل الاسلام اليوم على تقليد هؤلاء الائمة الاربعة فاما أحمد بن حنبل فقلده قليل
 بعد مذهب عن الاجتهاد واصالته في معاضدة الرواية ولا اخبار به ضاهي بعض
 وأكثرهم بالشام والعراق من بغداد ونواحيها وهم أكثر الناس حفظاً للسنة ورواية
 الحديث واما أبو حنيفة فقلده اليوم أهل العراق ومسلمة الهند والصين وما وراء النهر
 وبلاد المجرم كما كان مذهبهم أخص بالعراق ودار السلام وكان تلبذه صحابة
 الخلفاء من بني العباس فكثرت تآليفهم ومناظراتهم مع الشافعية وحسنت
 مباحثهم في الخلافات وجاءوا منها بعلم متظرف ونظار غربية وهي بين أيدي الناس
 وبالمغرب منها شيء قليل نقله اليه القاضي ابن العربي وأبو الوائد الباجي في رحلتهم
 واما الشافعية فقلده بمصر أكثر مما هوها وقد كان انتشر مذهبهم بالعراق وخراسان
 وما وراء النهر وقاصوا الحنفية في الفتوى والتدريس في جميع الامصار وعظمت
 مجالس المناظرات بينهم وشجنت كتب الخلافات بأنواع استدلالهم ثم درس ذلك كله
 بدروس المشرق وأقطاره وكان الامام محمد بن ادريس الشافعي لما نزل على بني عبد
 الحكم بمصر أخذ من جماعته من بني عبد الحكم وأشهب وابن القاسم وابن المواز
 وغيرهم ثم الحرث بن مسكين وبنوه ثم انقرض فقه أهل السنة من مصر بظهور دولة
 الرافضة وتداول بها فقه أهل البيت وتلاشي من سواهم الى أن ذهبت دولة
 العبديين من الرافضة على يد صلاح الدين يوسف بن أيوب ورجع اليهم فقه الشافعية
 وأصحابه من أهل العراق والشام فما دالى أحد من ما كان ونفق سوقه واشتهر منهم
 محي الدين النووي من الحلبة التي ربيت في ظل الدولة الايوبية بالشام وعز الدين بن

عبد السلام أيضا ثم ابن الرفعة بمصروني الدين بن دقيق العيد ثم تقي الدين السبكي
بعدهما الى أن انتهى ذلك الى شيخ الاسلام بمصر لهذا العهد وهو سراج الدين البلقيني
فهو اليوم أكبر النافعية بمصر كبير العلماء بل أكبر العلماء من أهل العصر •
وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والاندلس وان كان يوجد في
غيرهم إلا أنهم لم يقلدوا غيره الا في القليل لما ان رحلتهم كانت غالباً الى الجاز وهو
منتهى سفرهم والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج الى العراق ولم يكن العراق في
طريقهم فاقصروا على الاخذ عن علماء المدينة وشيخهم يومئذ و امامهم مالك وشيوخه
من قبله وتلميذه من بعده فرجع اليه أهل المغرب والاندلس وقادوه دون غيره ممن لم
تصل اليهم طريقته وأيضاً فالبدوة كانت غالبية على أهل المغرب والاندلس ولم يكونوا
يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا الى أهل الجاز أميل للمناسبة البدوة ولهذا
لم يرزل المذهب المالكي غصاعدهم ولم يأخذوا نقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره
من المذاهب ولما صار مذهب كل امام عالماً مخصوصاً عند أهل مذهبه ولم يكن اهم سبيل
الى الاجتهاد والقياس فاحتاجوا الى تنظير المسائل في الالتحاق وتفريغها عند
الانتباه بعد الاستناد الى الاصول المقررة من مذهب امامهم وصار ذلك كما يحتاج
الى ملكة راسخة يقتدر بها على ذلك النوع من التنظير والتفرقة واتساع مذهب
امامهم فيهما ما استطاعوا وهذه الملكة هي علم الفقه لهذا العهد وأهل المغرب
جميعاً قلدون لمالك رحمه الله وقد كان تلميذه افتقروا بمصر والعراق فكان بالعراق منهم
القاضي اسمعيل وطبقته مثل ابن خوير مننداد وابن اللبان والقاضي أبو بكر الابهري
والقاضي أبو الحسين بن القصار والقاضي عبد الوهاب ومن بعدهم وكان بمصر ابن
القاسم وأشهب وابن عبد الحكم والحريث بن مسكين وطبقتهم ورحل من الاندلس
عبد الملك بن حبيب فأخذ عن ابن القاسم وطبقته وبت مذهب مالك في الاندلس
ودون فيه كتاب الواضحة ثم دون العتيبي من تلامذته كتاب العتيبية ورحل من افرريقية
أسد بن القرات فكتب عن أصحاب أبي حنيفة أو لا ثم انتقل الى مذهب مالك وكتب
على ابن القاسم في سائر أبواب الفقه وجاء الى القيروان بكتابه وسمى الاسدية نسبة الى
أسد بن القرات فقرأ بها سمعون على أسد ثم ارتحل الى المشرق ولقي ابن القاسم
وأخذ عنه وعارضه بمسائل الاسدية فرجع عن كثير منها وكتب سمعون مسائلها
ودونها وأثبت ما رجع عنه وكتب لاسد أن يأخذ بكتاب سمعون فأنف من ذلك فترك
الناس كتابه واتبعوا مدقنة سمعون على ما كان فيهما من اختلاط المسائل في الابواب
فكانت تسمى المدقنة والمختلطة وعكف أهل القيروان على هذه المدقنة وأهل

الاندلس على الواضحة والعينية ثم اختصر ابن أبي زيد المدقونة والمختلطة في كتابه المسمى
 باختصار ونحوه أيضا أبو سعيد البرادعي من فقههاء القبروان في كتابه المسمى بالتهذيب
 واعتمده المنجعة من أهل إفريقية وأخذوا به وتركوا ما سواه وكذلك اعتمد أهل
 الأندلس كتاب العينية وهجروا الواضحة وما سواها ولم تزل علماء المذهب يتعاهدون هذه
 الامهات بالشرح والابحاح والجمع فكتب أهل إفريقية على المدقونة ما شاء الله أن
 يكتبوا مثل ابن يونس واللخمي وابن محرز اتونسي وابن بشير وأمثالهم وكتب أهل
 الأندلس على العينية ما شاء الله أن يكتبوا مثل ابن رشد وأمثاله وجمع ابن أبي زيد
 جميع ما في الامهات من المسائل والخلاف والاقوال في كتاب النوادر فاشتمل على
 جميع أقوال المذهب وفرع الامهات كلها في هذا الكتاب ونقل ابن يونس معظمه
 في كتابه على المدقونة وزخرت بحار المذهب المالكي في الافنين الى انقراض دولة
 قرطبة ولقبروان ثم تمسك بهم أهل المغرب بعد ذلك الى أن جاء كتاب أبي عمرو بن
 الحاجب خاص فيه طرق أهل المذهب في كل باب وتعديد أقوالهم في كل مسألة فجاء
 كالبرنامج للمذهب وكانت الطريقة المالكية بقيت في مصر من لدن الحرث بن مسكين
 وابن المبشر وابن اللهيت وابن رشيق وابن شاس وكانت بالاسكندرية في بني عوف وبني
 سند وابن عمارة الله ولم أدر عن أخذها أبو عمرو بن الحاجب لكنه جاء بعد انقراض
 دولة العبيديين وذهب فقه أهل البيت وظهور فقهها السنة من الشافعية والمالكية
 ولما جاء كتابه الى المغرب آخر المائة السابعة عكف عليه الكثير من طلبه المغرب
 وخصوصا أهل بجاية لما كان كبير مشيختهم أبو علي ناصر الدين الزواوي هو الذي جلبه
 الى المغرب فانه كان قرأ على أصحابه بمصر وشرح مختصره ذلك فجاءه وانتشر بقطر بجاية
 في تلمذه ومنهم من انتقل الى سائر الامصار المغربية وطلبة الفقه بالمغرب لهذا العهد
 يتداولون قراءته ويتدارسونه لما يؤثر عن الشيخ ناصر الدين من الترغيب فيه وقد
 شرحه جماعة من شيوخهم كابن عبد السلام وابن رشد وابن هرون وكلهم من مشيخة
 أهل تونس وسابق حليتهم في الاجادة في ذلك ابن عبد السلام وهم مع ذلك يتعاهدون
 كتاب التهذيب في دروسهم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(علم الفرائض)

٨

وهو معرفة فروض الوراثة وتصحيح سهام الفريضة مما تصح باعتبار فروضها الاصول
 أو ما ساحتها وذلك اذا هلك أحد الورثة وانكسرت سهامه على فروض ورثته
 فانه حينئذ يحتاج الى حساب يصح الفريضة الاولى حتى يصل أهل الفروض جميعا

في الفريضة الى فروضهم غير تجزئة وقد تكون هذه المناهج أكثر من واحد
 واثنين وتعد لذلك بعدد أكثر وقد يحتاج الى الحساب وكذلك اذا كانت
 فريضة ذات وجهين مثل أن يقرب بعض الورثة وارث وينكره الآخر فتصح على
 الوجهين حينئذ وينظر مبلغ السهام ثم تقسم التركة على نسب سهام الورثة من أصل
 الفريضة وكل ذلك يحتاج الى الحساب وكان غالباً فيه وجعلوه قنناً فرداً وللناس
 فيه تآليف كثيرة أشهرها عند المالكية من متأخري الأندلس كتاب ابن ثابت
 ومختصر القاضي أبي القاسم الحوفي ثم الجعدي ومن متأخري أفر بقة ابن النمر
 الطرابلسي وأمثالهم وأما الشافعية والحنفية والحنابلة فلهم فيه تآليف كثيرة
 وأعمال عظيمة صعبة شاهدة بهم باتساع الباع في الفقه والحساب وخصوصاً بالمعالي
 رضى الله تعالى عنه وأمثاله من أهل المذاهب وهو فن شريف لجمعه بين المعقول
 والمنقول والوصول به الى الحقوق في الوراثة بوجوه صحيحة يقينية عند ما تجهل
 الحظوظ وتشكل على القاسمين وللعلماء من أهل الأمصار بها عناية ومن المصنفين
 من يحتاج فيها الى الغلو في الحساب وفرض المسائل التي تحتاج الى استخراج المجهولات
 من فنون الحساب كالجبر والمقابلة والتصريف في الجدور وأمثال ذلك فيملوا بها
 تآليفهم وهو وان لم يكن متداولاً بين الناس ولا يفيد فيما يتداولونه من وراثتهم
 لغرابته وقلة وقوعه فهو يفيد المراتب وتخصيل الملكة في المتداول على أكمل الوجوه
 وقد يحتاج الاكثرون من أهل هذا الفن على فضله بالحديث المنقول عن أبي هريرة
 رضى الله عنه ان الفرائض ثلث العلم وانها أول ما ينسى وفي رواية نصف العلم خروجه
 أبو نعيم الحافظ واحتج به أهل الفرائض بناء على ان المراد بالفرائض فروض الوراثة
 والذي يظهر أن هذا المحمل بعيد وان المراد بالفرائض انما هي الفرائض التكليفية في
 العبادات والعمادات والمواريث وغيرها وبهذا المعنى يصح فيها النصفية والثلثية
 وأمّا فروض الوراثة فهي أقل من ذلك كله بالنسبة الى علم الشريعة كلها وبين هذا
 المراد أن حل لفظ الفرائض على هذا اللفظ المخصوص أو تخصيصه بفروض الوراثة
 انما هو اصطلاح ناشئ للفتها عند حدوث الننون والاصطلاحات ولم يكن صدر
 الاسلام يطلق على هذا اللفظ عمومته مشتقاً من الفرض الذي هو لغة التقدير أو القطع
 وما كان المراد به في اطلاقه الاجمعي الفروض كما قلناه وهي حقيقة الشرعية
 فلا ينبغي أن يحمل اللفظ على ما كان يحمل في عصرهم فهو أليق بما أرادهم منه والله سبحانه
 وتعالى أعلم وبه التوفيق

(اعلم) أن أصول الفقه من أعظم العلوم الشرعية وأجلها قدرا وأكبرها فائدة وهو النظر في الأدلة الشرعية من حيث تؤخذ منها الأحكام والتكاليف وأصول الأدلة الشرعية هي الكتاب الذي هو القرآن ثم السنة الميمنة له فعلى عهد النبي صلى الله عليه وسلم كانت الأحكام تتلقى منه بما يوحى إليه من القرآن ويبينه بقوله وفعله بخطاب شفاهي لا يحتاج إلى نقل ولا إلى نظر وقياس ومن بعده صلوات الله وسلامه عليه تعذر الخطاب الشفاهي وانحفظ القرآن بالتواتر وأما السنة فأجمع الصحابة رضوان الله تعالى عليهم على وجوب العمل بما يصل إليها قولاً أو فعلاً بالنقل الصحيح الذي يغلب على الظن صدقه وتعين دلالة الشرع في الكتاب والسنة بهذا الاعتبار ثم ينزل الاجماع منزلتهما لاجماع الصحابة على التكبير على مخالفهم ولا يكون ذلك إلا عن مقتد لان مثلهم لا يتفقون من غير دليل ثابت مع شهادة الأدلة بعصمة الجماعة فصار الاجماع دليلاً ثابتاً في الشرعيات ثم نظرنا في طرق استدلال الصحابة والسلف بالكتاب والسنة فاذا هم يقيسون الاشياء بالاشياء منها وما يناظرون الامثال بالامثال باجماع منهم وتسليم بعضهم لبعض في ذلك فنكثيراً من الوقعات بعده صلوات الله وسلامه عليه لم تندرج في النصوص الثابتة فقاسوها بما ثبت وألحقوها بما نص عليه بشرط في ذلك الا للاحاق تصح تلك المساواة بين الشبهين أو المثليين حتى يغلب على الظن ان حكم الله تعالى فيهما واحد وصار ذلك دليلاً شرعياً باجماعهم عليه وهو القياس وهو رابع الأدلة واتفق جمهور العلماء على أن هذه هي أصول الأدلة وان خالف بعضهم في الاجماع والقياس الا أنه شذوذ وألحق بعضهم بهذه الاربعة أدلة أخرى لا حاجة بنا الى ذكرها الضعف مداركها وشذوذ القول فيها فكان أول مباحث هذا الفن النظر في كون هذه أدلة فاما الكتاب فدليله المعجزة القاطعة في منتهى التواتر في نقله لم يبق فيه مجال للاحتمال وأما السنة وما نقل اليها منها فالاجماع على وجوب العمل بما يصح منها كما قلناه معتضداً بما كان عليه العمل في حياته صلوات الله وسلامه عليه من انفاذ الكتب والرسائل الى النواحي بالأحكام والشرايع أمرها وانها باجماع فلا تفاقهم رضوان الله تعالى عليهم على انكار مخالفتهم مع العصمة الناشئة للامة وأما القياس فباجماع الصحابة رضي الله عنهم عليه كما قدمنا هذه أصول الأدلة ثم ان المنقول من السنة يحتاج الى تصحيح الخبير بالنظر في طرق النقل وعدالة الناقلين لتتميز الحالة المحصلة للظن بصدقه الذي هو مناط وجوب العمل وهذه أيضاً من قواعد الفن ويطبق ذلك عند التعارض بين الخبرين وطلب المتقدم منهما معرفة الناسخ والمنسوخ وهي من فصوله أيضاً وأبوابه ثم بعد ذلك يتعين النظر في دلالة الالفاظ وذلك أن استفادة المعاني

على الاطلاق من تراكييب الكلام على الاطلاق يتوقف على معرفة الدلالات
الوضعية مفردة ومركبة والقوانين اللسانية في ذلك هي علوم النحو والتصريف
والبيان وحين كان الكلام ملكة لاهل لم تكن هذه علوما ولا قوانين ولم يكن الفقه
حينئذ يحتاج اليها لانها جبلية وملكة فلما فسدت الملكة في اسان العرب قيدها
الجهاذة المتجردون لذلك بنقل صحيح ومقاييس مستتبطة صحيحة وصارت علوما يحتاج
اليها الفقيه في معرفة أحكام الله تعالى ثم ان هناك استفادات أخرى خاصة من تراكييب
الكلام وهي استفادة الاحكام الشرعية بين المعاني من أدلتها الخاصة من تراكييب
الكلام وهو الفقه ولا يكفي فيه معرفة الدلالات الوضعية على الاطلاق بل لا بد من
معرفة أمور أخرى تتوقف عليها تلك الدلالات الخاصة وبها استفاد الاحكام
بحسب ما أصل أهل الشرع وجهابذة العلم من ذلك وجعلوه قوانين لهذه الاستفادة
مثل أن اللغة لا تثبت قياسا والمشارك لا يراد به معناه معار الواولات تقتضي الترتيب
والعام اذا خرجت أفراد الخاص منه هل يبقى حجة فيما عداها والامر للوجوب
أو الندب وللفور أو التراخي والنهي يقتضي الفساد أو العصة والمطلق هل يحمل على
المقيد والنص على العلة ككاف في التعدادام لا وأمثال هذه فكانت كلها من
قواعد هذا الفن ولكونها من مباحث الدلالة كانت لغوية ثم ان النظر في القياس
من أعظم قواعد هذا الفن لان فيه تحقيق الاصل والفرع فيما يقاس وبماثل
من الاحكام وينفع الوصف الذي يغلب على الظن ان الحكم علق به في الاصل من
تين أوصاف ذلك المحل أو وجود ذلك الوصف والفرع من غير معارض يمنع
من ترتيب الحكم عليه في مسائل أخرى من توابع ذلك كلها قواعد لهذا الفن
(واعلم) أن هذا الفن من القنون المستحدثة في الملة وكان السلف في غيبة عنه
بما ان استفادة المعاني من الالفاظ لا يحتاج فيها الى مزيد مما عندهم من الملكة
اللسانية وأما القوانين التي يحتاج اليها في استفادة الاحكام خصوصاً فهم أخذ
معظمها وأما الالفاظ فلم يكفونوا يحتاجون الى النظر فيها بالقرب العصر
وممارسة النقلة وخبرتهم بهم فلما انقرض السلف وذهب الصدر الاول وانقلبت
العلوم كلها صناعة كما قررناه من قبل احتاج الفقهاء والمجتهدون الى تحصيل هذه
القوانين والقواعد لاستفادة الاحكام من الأدلة فكتبوها فنا فإثمار أسه سموه
أصول الفقه وكان أول من كتب فيه الشافعي رضي الله تعالى عنه أملى فيه رسالته
المشهورة تكلم فيها في الاواخر والنواهي والبيان والتجرب والنسخ وحكم العلة

المنصوصة من القياس ثم كتب فقهاء الحنفية فيه وحققوا تلك القواعد وأوسعوا
 القول فيها وكتب المتكلمون أيضا كذلك الآن كتابه الفقهاء فيها أسس بالفتن وألحق
 بالفروع لكثرة الامثلة منها والشواهد وبنها المسائل فيها على النكت الفقهية
 والمتكلمون يجردون صور تلك المسائل عن الفقه ويميلون الى الاستدلال العقلي
 ما أمكن لانه غالب فنونهم زبدة فتضى طريقتهم فكان ائقها الحنفية فيها اليد الطولى
 من الفروع على النكت الفقهية والتقاط هذه القوانين من مسائل الفقه ما أمكن
 وجاء أبو زيد الدبوسى من أئمتهم فكتب فى القياس بأوسع من جميعهم ونعم الابحاث
 والشروط التى يحتاج اليها فيه وكلمات صناعية أصول الفقه بكامله وتم ذبت مسائله
 وعهدت قواعد وعنى الناس بطريقة المتكلمين فيه وكان من أحسن ما كتب فيه
 المتكلمون كتاب البرهان لامام الحرمين والاستصنى للغزالي وهما من الاشعرية وكتاب
 العهد لعبد الجبار وشرحه المعتمد لابي الحسين البصرى وهما من المعتزلة وكانت
 الاربعة قواعد هذا الفن وأركانها ثم لخص هذه الكتب الاربعة فى كتاب من المتكلمين
 المتأخرين وهما الامام فخر الدين بن الخطيب فى كتاب المحصول وسيف الدين الآمدى
 فى كتاب الاحكام واختلفت طرائقهما فى الفن بين التحقيق والحجاج فان الخطيب
 أميل الى الاستكثار من الادلة والاحتجاج والآمدى مرلح بتحقيق المذاهب وتفريع
 المسائل وأما كتاب المحصول فاختصره لمبدا الامام سراج الدين الارموى فى كتاب
 التمهيد وتاج الدين الارموى فى كتاب الحاصل وأتتطف شهاب الدين القرافى منهما
 مقدمات وقواعد فى كتاب صغير سماه التنقيحات وكذلك فعل البيضاوى فى كتاب
 المنهاج وعنى المبتدئون بهذين الكتابين وشرحهما كثير من الناس * وأما
 كتاب الاحكام للآمدى وهو أكثر تحقيقا فى المسائل فلخصه أبو عمرو بن الحاجب فى
 كتابه المعروف بالمختصر الكبير ثم اختصره فى كتاب آخر تداوله طباطبة العلم وعنى أهل
 المشرق والمغرب به وعطالته وشرحه وحصلت زبدة طريقة المتكلمين فى هذا الفن
 فى هذه المختصرات * وأما طريقة الحنفية فكتبوا فيها كثيرا وكان من أحسن
 كتابة فيها للمتقدمين تأليف أبى زيد الدبوسى وأحسن كتابة المتأخرين فيها تأليف
 الاسلام البزدوى من أئمتهم وهو مستوعب وجاء ابن الساعاتى من فقهاء الحنفية بجمع
 بين كتاب الاحكام وكتاب البزدوى فى الطريقتين وسعى كتابه بالبدائع فجاء من أحسن
 الاوضاع وأبدعها وأئمة العلماء لهذا العهد يتداولون قراءه ويبحثوا واع كثير من علماء
 العجم بشرحه والحال على ذلك لهذا العهد هذه حقيقة هذا الفن وتعيين موضوعاته
 وتعيد التأليف المشهورة لهذا العهد فيه والله يتقينا بالعلم ويجعلنا من أهله بمنه

وكرمه انه على كل شيء قدير * (وأما الخلافات) * فاعلم أن هذا الفقه المستنبط
 من الأدلة الشرعية كثر فيه الخلاف بين المجتهدين باختلاف مداركهم وأنظارهم
 خلافا لا بد من وقوعه لما قدمناه واتسع ذلك في الملة اتساعاً عظيماً وكان للمقلدين أن
 يقلدوا من شاؤوا منهم ثم لما انتهى ذلك إلى الأئمة الأربعة من علماء الأمصار وكانوا
 يمكن من حسن الظن بهم اقتصر الناس على تقليدهم ومنعوا من تقليد سواهم
 لذهاب الاجتهاد لصعوبته وتشعب العلوم التي هي مواده باتصال الزمان واقتراد من
 يقوم على سوي هذه المذاهب الأربعة فأقيمت هذه المذاهب الأربعة أصول الملة
 وأجرى الخلاف بين المتسكنين بها والآخذين بأحكامها مجرى الخلاف في النصوص
 الشرعية والأصول الفقهية وبرت بينهم المناظرات في تصحيح كل منهم مذهب امامه
 تجري على أصول صحيحة وطرائق قوية يحتاج بها كل على مذهبه الذي قلده وتمسك
 به واجريت في مسائل الشريعة كلها وفي كل باب من أبواب الفقه فتارة يكون
 الخلاف بين الشافعي ومالك وأبو حنيفة يوافق أحدهما وتارة بين مالك وأبي حنيفة
 والشافعي يوافق أحدهما وتارة بين الشافعي وأبي حنيفة ومالك يوافق أحدهما وكان
 في هذه المناظرات بيان ما أخذ هؤلاء الأئمة ومثارات اختلافهم ومواقع اجتهادهم
 كان هذا الصنف من العلم يسمى بالخلافات ولا بد لصاحبه من معرفة القواعد التي
 يتوصل بها إلى استنباط الأحكام كما يحتاج إليها المجتهد الآن المجتهد يحتاج إليها
 للاستنباط وصاحب الخلافات يحتاج إليها لحفظ تلك المسائل المستنبطة من أن
 يهدمها المخالف بإدلتها وهو امرى علم جليل الفائدة في معرفة ما أخذ الأئمة وأدلتهم
 ومران المطالعين له على الاستدلال فيما رومون الاستدلال عليه وتآليف الحنفية
 والشافعية فيه أكثر من تآليف المالكية لأن القياس عند الحنفية أصل للكثير
 من فروع مذهبهم كما عرفت فهم لذلك أهل النظر والبحث وأما المالكية
 فالأثر أكثر معتددهم وليسوا بأهل نظر وأيضاً أكثرهم أهل المغرب وهم بادية
 غفل من الصنائع الأفي الأقل وللغزالي رحمه الله تعالى فيه كتاب المأخذ والابن
 زيد الدبوسي كتاب التعليقة وابن القصار من شيوخ المالكية عيون الأدلة وقد
 جمع ابن الساعاتي في مختصره في أصول الفقه جميع ما ينبنى عليهما من الفقه الخلافية
 مدرجات في صكل مسألة ما ينبنى عليهما من الخلافات * (وأما الجدل) * وهو
 معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية وغيرهم فإنه لما كان باب
 المناظرة في الرد والقبول متسعاً لكل واحد من المناظرين في الاستدلال والنجواب
 يرسل عنانه في الاحتجاج ومنه ما يكون صواباً ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى
 أن يضعوا آداباً وحكاماً يقف المناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف

يكون حال المستدل والمجيب بحيث يسوغ له أن يكون مستدلا وكيف يكون
 مخصوصا منقطعاً ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت ولخصه
 الكلام والاستدلال ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في
 الاستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأى وهدمه كان ذلك الرأى من الفقه أو غيره
 وهي طريقتان طريقة البردوى وهي خاصة بالأدلة الشرعية من النص والاجماع
 والاستدلال وطريقة العميدى وهي عامة في كل دليل يستدل به من أى علم كان
 وأكثره استدلال وهو من المناسخ الحسنة والمغالطات فيه في نفس الأمر كثيرة
 وإذا اعتبرنا النظر المنطقي كان في الغالب أشبهه بالقياس المغالطي والسوفسطائي
 الآن صور الأدلة والأقيسة فيه محفوظة مراعاة تحترى فيها طرق الاستدلال كما
 ينبغي وهذا العميدى هو أقول من كتب فيها ونسبت الطريقة إليه وضع الكتاب المسمى
 بالارشاد مختصر أتبعه من بعده من المتأخرين كالسنيني وغيره جاؤا على أثره
 وسلكوا مسلكه وكثرت في الطريقة التأليف وهي لهذا الهدى هجورة لنقص العلم
 والتعليم في الأمصار الإسلامية وهي مع ذلك كالية وليست ضرورية والله سبحانه
 وتعالى أعلم وبه التوفيق

(علم الكلام)

١٠

هو علم يتصنع الججاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المخرفين
 في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة وسر هذه العقائد الإيمانية هو
 التوحيد فلنقدم هنا الطيفة في برهان عقلي يكشف لنا عن التوحيد على أقرب الطرق
 ولما أخذ ثم نرجع إلى تحقيق علمه وفيما يتطور ويشير إلى حدوده في الملة وما دعاني
 وضعه فنقول إن الحوادث في عالم الكائنات سواء كانت من الذوات أو من الأفعال
 البشرية أو الحيوانية فلا بد لها من أسباب متقدمة عليها تقع في مستقر العادة وعنها
 يتم كونه وكل واحد من هذه الأسباب حادث أيضا فلا بد له من أسباب أخرى لا تزال
 تلك الأسباب مرتبة حتى تنتهي إلى مسبب الأسباب وموجودها وخالقها سبحانه
 لا اله الا هو وتلك الأسباب في ارتفاعها تنفس وتتضاعف طولاً وعرضاً ويحار العقل في
 ادراكها وتعيدها فإذا ايجصرها الا العلم المحيط سيما الأفعال البشرية والحيوانية
 فان من جملة أسبابها في الشاهد التصور والارادات اذ لا يتم كون الفعل الا بآرادته
 والقصد اليه والتصود والارادات أمور نفسانية ناشئة في الغالب عن تصورات سابقة
 يتلو بعضها بعضها وتلك التصورات هي أسباب قصد الفعل وقد تكون أسباب تلك

التصورات تصورات أخرى وكل ما يقع في النفس من التصورات مجهول سببه اذ لا
 يطلع أحد على مبادئ الامور النفسانية ولا على ترتيبها انما هي أشياء يلقيها الله في
 الفكر يتبع بعضها بعضا والانسان عاجز عن معرفة مبادئها وغاياتها وانما يحيط
 علما في الغالب بالاسباب التي هي طبيعة ظاهرة ويقع في مداركها على نظام وترتيب
 لان الطبيعة محصورة للنفس وتحت طورها واما التصورات فنطاقها اوسع من النفس
 لانها العقل الذي هو فوق طور النفس فلا تدرك الكبر منها فضلا عن الاحاطة وتأمل
 من ذلك حكمة الشارع في نهيه عن النظر الى الاسباب والوقوف معها فانه وادبهم
 فيه الفكر ولا يحلومنه بطائل ولا يظفر بحقيقة قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون
 وربما انقطع في وقوفه عن الارتقاء الى ما فوقه فزات قدمه وأصبح من الضالين
 الهالكين فعوذ بالله من الحرمان والخسران المبين ولا تحسبن أن هذا الوقوف
 أو الرجوع عنه في قدرتك واختيارك بل هو لون يحصل للنفس وصيغة تستحكم من
 الخوض في الاسباب على نسبة لا تعلمها اذ لو علمناها التحرز زانها فلتتحرز من ذلك بقطع
 النظر عنها جملة وأيضاً فوجه تأثير هذه الاسباب في الكثير من مسياتها مجهول لانها
 انما يوقف عليها بالعادة لا قران الشاهد بالاستناد الى الظاهر وحقيقة التأثير وكيفية
 مجهولة وما أوتيت من العلم الا قليلا فلذلك أمرنا بقطع النظر عنها والغائها جملة والتوجه
 الى مسبب الاسباب كلها وفعالها وموجداتها لترسخ صفة التوحيد في النفس على ما علمنا
 الشارع الذي هو أعرف بمصالح ديننا وطرق سعادتنا لاطلاعاً على ما وراء الحس قال
 صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة فان وقف عند تلك
 الاسباب فقد انقطع وحقت عليه كلمة الكفر وان سجع في بحر النظر والبحث عنها وعن
 أسبابها وتأثيراتها واجد ابعدها فانا الضامن له أن لا يعود الا بالخسبة فلذلك نهانا
 الشارع عن النظر في الاسباب وأمرنا بالتوحيد المطلق قل هو الله أحد الله الصمد
 لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ولا تشقن بما يزعم لك الفكر من أنه مقتدر على
 الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله وسفه رأيه في ذلك
 واعلم أن الوجود عند كل مدرك في بادي رأيه منحصر في مداركه لا بعدوها والامر في
 نفسه بخلاف ذلك والحق من ورائه ألا ترى الأصم كيف ينحصر الوجود عنده في
 المحسوسات الاربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده صنف السموات وكذلك
 الاعمي أيضاً يسقط عنده صنف المرئيات ولولا ما يردهم الى ذلك تقليد الآباء والمشجعة
 من أهل عصرهم والكافة لما أقروا به لكنهم يتبعون الكافة في اثبات هذه الاصناف
 لا بمقتضى فطرتهم وطبيعة ادراكهم ولو سئل الحيوان الاجم ونطق لوجدناه منكراً

للمعقولات وسباقة لديه بالكلية فاذا علمت هذا فافعل هناك ضرباً من الادراك غير
 مدركاً لتالان ادراكاً لنا مخلوقة محدثة وخلق الله أكبر من خلق الناس والحصر مجهول
 والوجود أوسع نطاقاً من ذلك والله من ورائهم محيط فاتم - م ادراكك ومدركك في
 الحصر واتبع ما أمرك الشارع به من اعتقادك وعملك فهو أحرص على سعادتك واعلم
 بما يفعله لأنه من طور فوق ادراكك ومن نطاق أوسع من نطاق عقلك وليس ذلك
 بقادح في العقل ومداركه بل العقل ميزان صحيح فأحكامه يقينية لا كذب فيها غير أنك
 لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الالهية
 وكل ما وراء طوره فان ذلك طمع في محال ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي
 يوزن به الذهب فطمع أن يزن به الجبال وهذا لا يدركه على أن الميزان في أحكامه غير
 صادق لكن العقل قد يتفهمه ولا يتعدى طوره حتى يكون له أن يحيط بالله وبصفاته
 فانه ذرة من ذرات الوجود الحاصل منه وتفطن في هذا الغلط من يقدم العقل على
 السمع في أمثال هذه القضايا وقصور فهمه واضمحلال رأيه فقد تبين لك الحق من
 ذلك واذا تبين ذلك فلعل الأسباب اذا تجاوزت في الارتقاء نطاق ادراكنا ووجودنا
 خرجت عن أن تكون مدركة فيفضل العقل في بيدها الاوهام ويحمار وينقطع فاذا
 التوحيد هو العجز عن ادراك الاسباب وكميقات تأثيرها وتفويض ذلك الى خالقها
 المحيط بها اذ لا فاعل غيره وكلها ترتقي اليه وترجع الي قدرته وعلمنا به انما هو من حيث
 صدق وروا عنه وهذا هو معنى ما نقل عن بعض الصديقين العجز عن ادراك الادراك ثم
 ان المعتبر في هذا التوحيد ليس هو الايمان فقط الذي هو تصديق حكيم فان ذلك
 من حديث النفس وانما الكمال فيه حصول صفة منه تتكيف بها النفس كما ان
 المطلوب من الاعمال والعبادات أيضاً حصول ملكة الطاعة والانقياد وتفريغ
 القلب عن شواغل ماسوى المعبود حتى ينقلب المرید السالك ربانيا والفرق بين الحال
 والعلم في العقائد فرق ما بين القول والانصاف وشرحه ان كثير من الناس يعلم أن
 رحمة اليتيم والمسكين قربة الى الله تعالى مندوب اليها ويقول بذلك ويعترف به ويذكر
 ما أخذه من الشريعة وهو لورأى يتيماً أو مسكيناً من أبناء المستضعفين افترضه
 واستنكف أن يباشره فضلاً عن التمسح عليه للرحمة وما بعد ذلك من مقامات العطف
 والحنو والصدقة فهذا انما حصل له من رحمة اليتيم. تمام العلم ولم يحصل له مقام الحال
 والانصاف ومن الناس من يحصل له مع مقام العلم والاعتراف بأن رحمة المسكين
 قربة الى الله تعالى مقام آخر أعلى من الاول وهو الانصاف بالرحمة وحصول ملكتها
 فتى رأى يتيماً أو مسكيناً بادراكه ومسح عليه والتمس الثواب في الشفقة عليه لا يكاد

بصبر عن ذلك ولو دفع عنه ثم تصدق عليه بما حضره من ذات يده وكذلك علمك
بالتوحيد مع انصافه به والعلم الحاصل عن الانصاف ضرورة هو أوثق مبنى من العلم
الحاصل قبل الانصاف وليس الانصاف بحاصل عن مجرد العلم حتى يقع العمل
ويتكرر من أرا غير منحصرة فترسخ الملكة ويحصل الانصاف والتحقيق ويحجى العلم
الثاني النافع في الآخرة فإن العلم الأول المجرد عن الانصاف قليل الجدوى
والنفع وهذا علم أكثر النظائر والمطلوب انما هو العلم الحالى الناشئ عن العادة *
واعلم أن الكمال عند الشارع في كل ما كلفه انما هو في هذا فاطلب اعتقاده
فالكمال فيه في العلم الثاني الحاصل عن الانصاف وما طلب علمه من العبادات فالكمال
فيها في حصول الانصاف والتحقيق بها ثم ان الاقبال على العبادات والمواظبة عليها
هو المحصل لهذه الثمرة الشريفة قال صلى الله عليه وسلم في رأس العبادات جعلت قرّة
عيني في الصلاة فإن الصلاة صارت له صفة وحالا يجذفها منتهى لذته وقرّة عينه وأين
هذا من صلاة الناس ومن لهم بها فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون اللهم
وفقتنا واهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين
فقد بين لك من جميع ما قررناه أن المطلوب في التكاليف كلها حصول ملكة راسخة في
النفس يحصل عنها علم اضطرارى للنفس هو التوحيد وهو العقيدة الايمانية وهو الذى
تحصل به السعادة وأن ذلك سواه في التكاليف القلبية والبدنية ويتفهم منه أن
الايمان الذى هو أصل التكاليف وينبوعها هو بهذه المثابة ذو مراتب وأولها
التصديق القلبي الموافق للسان وأغلاها حصول كيفية من ذلك الاعتقاد القلبي
وما ينبع من العمل مسئولية على التلب فبمسئبة تتبع الجوارح وتندرج في طاعتها جميع
التصرفات حتى تنخرط الافعال كلها في طاعة ذلك التصديق الايمانى وهذا أرفع مراتب
الايمان وهو الايمان الكامل الذى لا يقارن المؤمن معه صغيرة ولا كبيرة اذ حصول
الملكه ورسوخها مانع من الانحراف عن مناهجه طرفة عين قال صلى الله عليه وسلم
لا يرزنى الزانى حين يرزنى وهو مؤمن وفي حديث هرقل لما سأل أباسفيان بن حرب عن
النبي صلى الله عليه وسلم وأحواله فقال فى أصحابه هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه
قال لا قال وكذلك الايمان حين تخالط بشاشته القلوب ومعناه أن ملكة الايمان اذا
استقرت عسر على النفس مخالفتها شأن الملكات اذا استقرت فانها تحصل بمشابهة الجبل
والقطرة وهذه هي المرتبة العالية من الايمان وهي في المرتبة الثانية من العصمة لان
العصمة واجبة للانبياء وجوباً سابقاً وهذه حاصلة للمؤمنين حصولاً تالفاً لاعمالهم
وتصدقهم وبهذه الملكة ورسوخها يقع التفاوت في الايمان كالذى يتلى عليك من

أما ويل السلف وفي تراجم البخاري رضي الله عنه في باب الايمان كثير منه مثل أن
الايمن قول وعمل ويزيد وينقص وان الصلاة والصيام من الايمان وان تطوع
رمضان من الايمان والحياء من الايمان والمراد بهذا كله الايمان الكامل الذي أشرنا
اليه والى ملكته وهو فعلي وأما التصديق الذي هو أول مراتبه فلا تفاوت فيه فمن اعتبر
أوائل الاسماء وجعله على التصديق منع من التفاوت كما قال أئمة المتكلمين ومن اعتبر
أواخر الاسماء وجعله على هذه الملكة التي هي الايمان الكامل ظهور له التفاوت وليس
ذلك بقادح في اتحاد حقيقته الاولى التي هي التصديق اذ التصديق موحد وفي جميع
رتبه لانه أقل ما يطلق عليه اسم الايمان وهو المخلص من عبدة الكفر والنسب ل بين
الكافر والمسلم فلا يجوز أقل منه وهو في نفسه حقيقة واحدة لا تتفاوت وانما التفاوت
في الحال الحاصلة عن الاعمال كما قلناه فافهم * واعلم أن الشارع وصف لنا هذا
الايمن الذي في المرتبة الاولى الذي هو تصديق وعين أمور مخصوصة كافتنا التصديق
بها بقلوبنا واعتقادها في أنفسنا مع الاقرار بالسنتنا وهي العقائد التي تقررت في الدين
قال صلى الله عليه وسلم لم حين سئل عن الايمان فقال أن تؤمن بالله ولأئمنه وكتبه
ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره وهذه هي العقائد اليمانية المقررة في علم
الكلام * ونشر اليها مجمل لتبين لك حقيقة هذا الفن وكيفية حدوده فنقول
اعلم ان الشارع لما أمرنا بالايمن به ذ الخالق الذي ردا الافعال كلها اليه وأفرده به
كما قدمناه وعرفنا أن في هذا الايمان نجاة عند الموت اذا حضرنا لم يعرفنا بكنهه حقيقة
هذا الخالق المعبود اذ ذلك متعذر على ادراكنا من فوق طورنا فكيفنا أولنا اعتقاد
تزييه في ذاته عن مشابهة المخلوقين والالما صح أنه خالق لهم لعدم الفارق على هذا
التقدير ثم تزييه عن صفات النقص والاشابه المخلوقين ثم توحيد به بالاتحاد والالم يتم
الخلق للتمانع ثم اعتقاد أنه عالم قادر بمذلك تتم الافعال شاهه دقضية الكمال الاتحاد
والخلق ومريد والالم يخص شي من المخلوقات ومقدر لكل كائن والافعال ارادة حادثة
وأنه يعيدنا بعد الموت تكمينا لعنايته بالايجاد ولو كان لا عرفنا كان عبثا فهو للبقاء
السرمدى به الموت ثم اعتقاد بعثة الرسل للنجاة من شقاء هذا المعاد لا اختلاف
أحواله بالشقاء والسعادة وعدم معرفتنا بذلك وتتمام لطفه بنا في الايتام بذلك وبيان
الطريقين وأن الجنة للنعم وجهنم للعذاب هذه أمتهات العقائد اليمانية معللة بأدلتها
العقائدية وأدلتها من الكتاب والسنة كثيرة وعن تلك الادلة أخذها السلف وأرشد اليها
العلماء وحقها الأئمة الا أنه عرض بعد ذلك خلاف في تفاصيل هذه العقائد أكثر مشارها
من الآتى المتشابهة فدعا ذلك الى الخصاص والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة الى

النقل فحدث بذلك علم الكلام ولينين لك تفصيل هذا الجهل وذلك أن القرآن ورد
فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الطاهر الدلالة من غير تأويل في آي كثيرة وهي
سلوب كلها وصريح في بابها فوجب الايمان بها ووقع في كلام الشارع صلوات الله عليه
وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها ثم وردت في القرآن آي أخرى قلبه
توهم التشبيه مرة في الذات وأخرى في الصفات فأما السلف فغلبوا أدلة التنزيه لكثرتها
ووضوح دلالتها وعلو استحالة التشبيه وقضوا بأن الآيات من كلام الله فآمنوا بها
ولم يعترضوا معناها بحث ولا تأويل وهذا معنى قول الكثير منهم اقروها كما جاءت
أي آمنوا بأنهم آمن عند الله ولا تعترضوا اتأويلها ولا تفسيرها لجرأ أن تكون
ابتلاء فيجب الوقف والاذعان له وشذذ لهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات
وتوغلوا في التشبيه ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد البدو والقدم والوجه عملا بطواهر
وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ومخالفة آي التنزيه المطلق التي هي أكثر
موارد وأوضح دلالة لأن مع قولية الجسم تقتضي النقص والافتقار وتغليب آيات
السلوب في التنزيه المطلق التي هي أكثر موارد وأوضح دلالة أولى من التعلق بطواهر
هذه التي لنا عنها غنية وجمع بين الدايين بتأويلهم ثم يفرون من شناعة ذلك بقولهم
جسيم لا كالأجسام وليس ذلك بدافع عنهم لأنه قول متناقض وجمع بين نبي وإثبات أن كان
بالمعقولة واحدة من الجسم وإن خالفوا بينهما ونزهوا المعقولة المتعارفة فقد وافقونا
في التنزيه ولم يبق إلا جعلهم لفظ الجسم اسما من أسمائه ويتوقفه. مثله إلى الأذن وفريق
منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات ككائنات الجهة والاستواء والنزول والصوت
واخرف وأمثال ذلك وآل قولهم إلى التجسيم فنزعوا مثل الأولين إلى قولهم صوت
لا كالأصوات جهة لا كالجهات نزول لا كالنزول يعنون من الأجسام واندفع ذلك بما
اندفع به الأول ولم يبق في هذه الظواهر الاعتقادات السلف ومذاهبهم والإيمان بها كما
هو لتلا بكز النبي على معانيها بنفيها مع أنها صحيحة ثابتة من القرآن ولهذا تنظر ما تراه
في عقيدة الرماله لابن أبي زيد وكأب المختصر له وفي كتاب الحافظ بن عبد البر وغيرهم
فانهم يحوجون على هذا المعنى ولا تغمض عينك عن القرائن الدالة على ذلك في غضون
كلامهم ثم لما كثرت العلوم والصنائع وولع الناس بالتدوين والبحث في سائر الأنحاء
وآلف المتكلمون في التنزيه حدثت بدعة المعتزلة في تعميم هذا التنزيه في آي السلوب
فقضوا بنى صفات المعاني من العلم والقدرة والارادة والحياة زائدة على أحكامها ما يلزم
على ذلك من تعدد القديم بزعمهم وهو مردود بأن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها
وقضوا بنى السمع والبصر ككونهم ما من عوارض الأجسام وهو مردود لعدم

اشتراط البنية في مدلول هـ هذا اللفظ وانما مرادنا المسموع أو البصر وقضوا بنفي
 الكلام لشبه ما في السمع والبصر ولم يقولوا بصفة الكلام التي تقوم بالنفس فقضوا بأن
 القرآن مخلوق بدعة صرح السلف بخلافها و نظم سر هذه البدعة واقتضاها بعض الخلفاء
 عن أئمتهم فحمل الناس عليها وخالفهم أئمة السلف فاستعملت الخلافهم ايسار كثير منهم
 ودماءهم كان ذلك سببا لانتهاض أهل السنة بالأدلة العقلية على هذه العقائد دفعاني
 صدور هذه البدع وقام بذلك الشيخ أبو الحسن الأشعري امام المتكلمين قوسا بين
 الطرق ونفي التشبيه وأثبت الصفات المنوية وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف
 وشهدت له الأدلة المخصصة اعلموه فأثبت الصفات الاربع المعنوية السمع والبصر
 والكلام القائم بالنفس بطريق النقل والعقر ورد على المبتدعة ذلك كله وتكلم
 معهم فيما مهدوا هذه البدع من القول بالصلاح والاصح والتحصين والتبجيل وكل
 العقائد في ابعثة وأحوال الجنة والنار والثواب والعقاب وألحق بذلك الكلام في
 الامامة لما ظهر حينئذ من بدعة الامامية من قولهم انها من عقائد الايمان وان يجب
 على النبي تعيينها والخروج من العهد في ذلك لم يهمل له وكذلك على الامة وقصارى
 أمر الامامة أنها قضية مصلحية اجماعية ولا تلحق بالعقائد فذلك الحق وهما بعد ائله
 الفن وسما مجرعه علم الكلام اما لما فيه من المنفعة على البدع وهي كلام صرف
 وليست براجعة الى عمل واما لان سبب وضعه والخوض فيه هو تنازعهم في اثبات
 الكلام النفسي وكثرت اتباع الشيخ أبي الحسن الأشعري واقتنى طريقته من بعده تلميذه
 كان مجاهدا وغيره وأخذ عنهم القاضي أبو بكر الباقلاني فتصدت للائمة في طريقتهم
 وهذبها ووضع المقدمات العقلية التي تتوقف عليها الأدلة والاطار وذلك مثل اثبات
 الجوهر النرد والخلاء وأن العرض لا يقوم بالعرض وأنه لا يبقى زمانين وأمثال ذلك
 مما تتوقف عليه أدلتهم وجعل هذه القواعد تبه للعقائد الايمانية في وجوب اعتقادها
 لتوقف تلك الأدلة عليها وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول وجملت هذه الطريقة
 وجاءت من أحسن الفنون النظرية والعلوم الدينية الا أن صور الأدلة تعبر بها
 الاقضية ولم تكن حينئذ ظاهرة في الملة ولو ظهر منها بعض الشيء فلم يأخذ به الملة كالمون
 للابستة للعلوم الفلسفية المأبنة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم
 لذلك ثم جاء به القاضي أبو بكر الباقلاني امام الحرمين أبو المعالي فأمل في الطريقة
 كتاب الشامل وأوسع القول فيه ثم خصه في كتاب الارشاد واتخذها الناس اماما للعقائد
 ثم انتشرت من بعد ذلك علوم المنطق في الملة وقرأه الناس وفرقوا بينه وبين العلوم
 الفلسفية بأنه قانون ومعياري للأدلة فتطسيره الأدلة منها كما يسير من سواها ثم نظروا

في تلك القواعد والمقدمات في فن الكلام للاقدمين فخالقوا الكثير منها بالبراهين التي
 أدلت الى ذلك وربما أن كثيرا منها مقبوس من كلام الفلاسفة في الطبيعيات والالهيات
 فلا يسيروها للمعار المنطق ردهم الى ذلك فيها ولم يعتقدوا بطلان المدلول من بطلان دليله كما
 صار له القاضي فصارت هذه الطريقة من مصطلحهم مبنية للطريقة الاولى وتسمى
 طريقة المتأخرين وربما أدخلوا فيها الرد على الفلاسفة فيما خالفوا فيه من العقائد
 الايمانية وجعلوه من خصوم العقائد لتناسب الكثر من مذاهب المبتدعة
 ومذاهبهم وأول من كتب في طريقة الكلام على هذا المنحى الغزالي رحمه الله وتبعه
 الامام ابن الخطيب وجماعة ففوا أثرهم واعتمدوا تقليد هم ثم تغل المتأخرون من بعدهم
 في مخالطة كتب الفلاسفة والتبس عليهم شأن الموضوع في العليين فحسبوه فيها واحدا
 من اجتهاد المسائل فيها • واعلم أن المتكلمين لما كانوا يستدلون في أكثر أحوالهم
 بالكائنات وأحوالها على وجود الباري وصفاته وهو نوع استدلالهم غالبا والجسم
 الطبيعي يتصرفه الفيلسوف في الطبيعيات وهو به من هذه الكائنات الا أن نظره
 فيها مخالف انظر المتكلم وهو يتصرف في الجسم من حيث يتحرك ويسكن والمتكلم يتصرفه
 من حيث يدل على الفاعل وكذا انظر الفيلسوف في الالهيات انما هو نظر في الوجود
 المطلق وما يقتضيه لذاته ونظر المتكلم في الوجود من حيث انه يدل على الوجود والجملة
 فموضوع علم الكلام عند اهل انما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من
 حيث يمكن أن يستدل عليها بالادلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن
 تلك العقائد واذا تأملت حال الفن في حدونه وكيف تدرج كلام الناس فيه صدر ابعده
 صدور وكلام يفرض العقائد صحيحة ويتنهض الحجج والادلة علمت حينئذ ما قررناه لك
 في موضوع الفن وأنه لا يعدوه واقعد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين
 والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلاسفة بحيث لا يميز أحدهما من الآخر
 ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوي في الطوائع ومن جاء بعده من علماء
 العجم في جميع تآليفهم الا أن هذه الطريقة قد يعنى بها بعض طلبة العلم للإطلاع على
 المذاهب والانغراق في معرفة الحجاج لو فورد ذلك فيها أو اما محاذاة طريقة السلف بعقائد
 علم الكلام فانما هو الطريقة القديمة للمتكلمين وأصلها كتاب الارشاد وما حذا
 حذوه ومن أراد ادخال الرد على الفلاسفة في عقائدهم فعليه بكتب الغزالي والامام ابن
 الخطيب فانها وان وقع فيها مخالفة للاصطلاح القديم فليس فيها من الاختلاف في
 المسائل والانتباس في الموضوع ما في طريقة هؤلاء المتأخرين من بعدهم وعلى الجملة
 فينبغي أن يعلم أن هذا العلم الذي هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب

العلم اذا الملمدة والمبتدعة قد انقضوا والائمة من أهل السنة كفوننا أنهم فيما كتبوا
ودقوا والادلة العقلية انما بالاحتاجوا اليها حين دافعوا ونصروا وأما الآن فلم يبق منها
الا كلام تنزه الباري عن كثير ايهاماته واطلاقه ولقد سئل الجنيد رحمه الله عن
قوم مترجمهم من المتكلمين يفيضون فيه يقال ما هؤلاء فقيل قوم ينزهون الله بالادلة عن
صفات الحدوث وسمات النقص فقال تقي العيب حيث يستحيل العيب عيب لكن
فأثرت في آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة اذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالطلب
النظريه على عقائدها والله ولي المؤمنين

١١ (علم التصوف)

هذا العلم من العلوم الشرعية الحادثة في الملة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تنزل
عند سلف الامة وبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية
وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا
وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة
للعبادة وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف فلما نشأ الاقبال على الدنيا في القرن الثاني
وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقبولون على العبادة باسم الصوفية
والتصوفية وقال القشيري رحمه الله ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية
ولا قياس وانطاعرائه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة
القياس اللغوي قال وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه * قات والاظهران
قبل بالاشتقاق انه من الصوف وهم في الغالب محتصون بلبسه ما كانوا عليه من
مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف فلما اختص هؤلاء بذهب الزهد
والانفراد عن الخلق والاقبال على العبادة اختصوا بما أخذ مدركة لهم وذلك أن
الانسان بما هو انسان انما يتميز عن سائر الحيوان بالادراك وادراكه نوعان ادراك
للعالم والمعارف من اليقين والظن والشك والوهم وادراك الالحوال القائمة من
الفرح والحزن والقبض والبسط والرضا والغضب والصب والشكر وأمثال ذلك
فالروح العاقل والمتصرف في البدن تنشأ من ادراكات و ارادات وأحوال وهي التي
يميز بها الانسان وبعضها ينشأ من بعض كما ينشأ العلم من الادلة والفرح والحزن عن
ادراك المولم أو المتلذذ به والنشاط عن الحمام والكسل عن الاعياء وكذلك المريد في
مجاهدته وعبادته لا بد وأن ينشأه عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحالة
أما أن تكون نوع عبادة فتربح وتصيره فاما المريد وأما أن لا تكون عبادة وانما تكون

صفة حاصلة للنفس من حزن أو سرور أو نشاط أو كسل أو غير ذلك من المقامات ولا
يزال المرید يترقى من مقام الى مقام الى أن ينتهي الى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية
المطلوبة للعبادة قال صلى الله عليه وسلم من مات يشهد أن لا اله الا الله دخل الجنة
فالمرید لا بد له من الترقى في هذه الاطوار وأصلها كلها الطاعة والاخلاص ويتقدمها
الايان ويصاحبها وتنشأ عنها الاحوال والصفات نتائج وثمرات ثم تنشأ عنها أخرى
وأخرى الى مقام التوحيد والعرفان واذا وقع تقصير في النتيجة أو خلل فنعلم أنه انما أتى
من قبل التقصير في الذي قبله وكذلك في الخواطر النفسانية والواردات القلبية فلهذا
يحتاج المرید الى محاسبة نفسه في سائر أعماله وينظر في حقائقها لان حصول النتائج
عن الاعمال ضروري وقصورها من الخلل فيها وكذلك المرید يجب ذلك بذوقه
ويحاسب نفسه على أسبابه ولا يشاركهم في ذلك لا القليل من الناس لان الغفلة عن
هذا كانت شاملة وغاية أهل العبادات اذا لم ينتهوا الى هذا النوع أنهم يأتون بالطاعات
مخلصين من نظر الفقه في الاجزاء والامثال وهو لا يهتمون عن نتائجها بالاذواق
والمواجد ليطلعوا على أنها خالصة من التقصير ولا فظهرت أن أصل طريقهم كلها
محاسبة النفس على الافعال والتروك والكلام في هذه الاذواق والمواجد التي
تحصل عن المجاهدات ثم تستقر للمريد مقاماً ما يترقى منها الى غيرها ثم لهم مع ذلك آداب
مخصوصة بهم واصطلاحات في ألفاظ تدور بينهم اذا لوضع اللغوية انما هي للمعاني
المتعارفة فاذا عرض من المعاني ما هو غير متعارف اصطلاحنا عن التعبير عنه بلفظ
يتيسر فهمه منه فلهذا اختص هؤلاء بهذا النوع من العلم الذي ليس لواحد غيرهم
من أهل الشريعة الكلام فيه وصار علم الشريعة على صنفين صنف مخصوص بالفقهاء
وأهل الفتيا وهي الاحكام العامة في العبادات والعبادات والمعاملات وصنف
مخصوص بالقوم في القيام بهذه المجاهدة ومحاسبة النفس عليهم والكلام في الاذواق
والمواجد العارضة في طريقها وكيفية الترقى منها من ذوق الى ذوق وشرح
الاصطلاحات التي تدور بينهم في ذلك فلما كتبت العلوم ودونت وألف الفقهاء في الفقه
وأصوله والكلام والتفسير وغير ذلك كتب رجال من أهل هذه الطريقة في طريقهم
فهم من كتب في الورع ومحاسبة النفس على الاقتداء في الاخذ والترك كما فعله
القشيري في كتاب الرسالة والسهروردي في كتاب عوارف المعارف وأمثالهم وجمع
الغزالي رحمه الله بين الامرين في كتاب الاحياء فدون فيه أحكام الورع والاقتداء
ثم بين آداب القوم وسنتهم وشرح اصطلاحاتهم في عباراتهم وصار علم التصوف في الملة
علماً مدوناً بعد ان كانت الطريقة عبادة فقط وكانت أحكامها انما تلقى من صدور

الرجال كما وقع في سائر العلوم التي قوت بالكتاب من التفسير والحديث والفقه والاصول وغير ذلك • ثم ان هذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس والاطلاع الى عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس ادراك الشيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف أن الروح اذا رجع عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت أحوال الحس وقويت أحوال الروح وغلب سلطانه وتجدد نشوه وأعان على ذلك الذكر فانه كالغذاء لتنمية الروح ولا يزال في غو وتزويد الى أن يصير شهو وابدان كان علماً ويكشف حجاب الحس ويتم وجود النفس الذي لها من ذاتها وهو عين الادراك فيعرض حينئذ لمواهب الربانية والعلوم اللدنية والفتح الالهي وتقرب ذاته في تحقق حقيقة امن الافق الاعلى أفق الملائكة وهذا الكشف كثيراً ما يعرض لاهل المجاهدة فيدركون من حقائق الوجود ما لا يدرك سواهم وكذلك يدركون كثيراً من الواقعات قبل وقوعها ويتسرفون بهم مهم وقوى نفوسهم في الموجودات السفلية وتصير طوع ارادتهم فالعظماء منهم لا يعتبرون هذا الكشف ولا يتعسفون ولا يخبرون عن حقيقة شيء لم يؤمروا بالكلام فيه بل يمدون ما يقع لهم من ذلك سخنة ويتعذرون منه اذا هاجهم وقد كان الصحابة رضي الله عنهم على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من هذه الكرامات أوفر المخلوط لكنهم لم يقع لهم بها عناية وفي فضائل أنى بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم كثير منها وتبعهم في ذلك أهل الطريقة ممن اشتملت رسالة القشيري على ذكرهم ومن تبع طريقهم من بعدهم • ثم ان نوماً من المتأخرين انصرفت عنايتهم الى كشف الحجاب والمدارك التي وراءه واختلفت طرق الرياضة عنهم في ذلك باختلاف تعليمهم في امانة القوى الحسية وتغذية الروح العاقل بالذكري حتى يحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها بتمام نشوتها وتغذيتها فاذا حصل ذلك زعموا أن الوجود قد انحصر في مداركها حينئذ وأنهم ككشفوا ادوات الوجود وتصوروا حقائقها كلها من العرش الى الطس هكذا قال الغزالي رحمه الله في كتاب الاحياء بعد أن ذكر ضرورة الرياضة • ثم ان هذا الكشف لا يكون صحيحاً كاملاً عندهم الا اذا كان فاشتماع الاستقامة لان الكشف قد يحصل لصاحب الجوع والخلوة وان لم يكن هنالك استقامة كالسحرة والنصارى وغيرهم من المرتاضين وايسر مرادنا الا الكشف الناشئ عن الاستقامة ومناله أن المرأة المصيبة اذا كانت محدبة أو مقعرة وحوذى بمواجهة المرقى فانه يتشكل فيه معوجاً على غير صورته وان كانت مسطحة تشكل فيه المرقى صحيحاً فالاستقامة للنفس كالانبساط للمرأة فيما ينطبع فيها من الاحوال والاعنى المتأخرون بهذا النوع من الكشف تكلموا في

حقائق الموجز من العلوية والسفلية وحقائق الملك والروح والعرش والكرسي
 وأمثال ذلك وقصرت مداركهم لم يشاركونهم في طريقهم عن فهم أذواقهم
 ومواجهتهم في ذلك وأهل الفتيان منكر عليهم ومسلم لهم وليس البرهان والدليل
 ينفع في هذه الطريق رداً وقبولاً أذهى من قبيل الوجدانيات وربما قصد بعض
 المصنفين بيان مذهبهم في كشف الوجود وترتيب حقائقه فأتى بالانغمض فالانغمض
 بالنسبة إلى أهل النظر والاصطلاحات والعلوم كما فعل الفرغاني شارح قصيدة ابن
 الفارض في الديباجة التي كتبها في صدر ذلك الشرح فإنه ذكر في صدر الوجود من
 الفاعل وترتيبه أن الوجود كله صادر عن صفة الوحدة التي هي مظهر الأحدية
 وهو ما عاصد ران من الذات الكريمة التي هي عين الوحدة لا غير ويسمون هذا
 الصدور بالتجلي وأول مراتب التجليات عندهم تجلي الذات على نفسه وهو يتضمن
 الكمال بإفاضة الإيجاد والظهور لقوله في الحديث الذي ينساقونه كنت كذا مخفياً
 فأحيت أن أعرف فخلقت الخلق ليعرفوني وهذا الكمال في الإيجاد المتزل في الوجود
 وتفصيل الحقائق وهو عندهم عالم المعاني والحضرة الكالية والحقيقة المحمدية وفيها
 حقائق الصفات والروح والقلم وحقائق الأنبياء والرسل أجمعين والكمال من أهل الملة
 المحمدية وهذا كله تفصيل الحقيقة المحمدية ويصدر عن هذه الحقائق حقائق أخرى
 في الحضرة الهبائية وهي مرتبة المثال ثم عنها العرش ثم الكرسي ثم الافلاك ثم عالم
 العناصر ثم عالم التركيب هذا في عالم الرتق فإذا تجلت فهي في عالم الفتق ويسمى هذا
 المذهب مذهب أهل التجلي والمظاهر والحضرات وهو كلام لا يقتدر أهل النظر على
 تحصيل مقتضاه لغموضه وانغلاقه وبعدهما بين كلام صاحب المشاهدة والوجدان
 وصاحب الدليل وربما أنكر بظاهر الشرع هذا الترتيب وكذلك ذهب آخرون
 منهم إلى القول بالوحدة المطلقة وهو رأي أعرب من الأول في تعقله وتفاريحه يزعمون
 فيه أن الوجود له قوى في تفاصيلها كانت حقائق الموجودات وصورها وموادها
 والعناصر إنما كانت بما فيها من القوى وكذلك مادتها لها في نفسها قوة بها كان
 وجودها ثم إن المركبات فيها تلك القوى متضمنة في القوة التي كان بها التركيب كالقوة
 المعدنية فيها قوى العناصر بهيولها وزيادة القوة المعدنية ثم القوة الحيوانية تتضمن
 القوة المعدنية وزيادة قوتها في نفسها وكذا القوة الانسانية مع الحيوانية ثم ذلك يتضمن
 القوة الانسانية وزيادة وكذا الذوات الروحانية والقوة الجامعة لكل من غير تفصيل
 هي القوة الإلهية التي انبثت في جميع الموجودات كلية وجزئية وجعلتها وأحاطت بها
 من كل وجه لا من جهة الظهور ولا من جهة الخفاء ولا من جهة الصورة ولا من جهة

المادة فالكل واحد وهو نفس الذات الالهية وهي في الحقيقة واحدة بسيطة والاعتبار
 هو الفصل لها كالانسانية مع الحيوانية الا ترى انها مندرجة فيها وكأنه يكونها مقارة
 يمثلونها بالجنس مع النوع في كل موجود كما ذكرناه وتارة بالكل مع الجزء على طريقة
 المثال وهم في هذا كاه يفرون من التركيب والكترة بوجه من الوجوه وانما أوجبها
 عندهم الوهم والخيال والذي يظهر من كلام ابن دهبان في تقريره هذا المذهب أن
 حقيقة ما يقولونه في الوحدة شبيه بما تقوله الحكماء في الالوان من أن وجودها مشروط
 بالضوء فاذا عدم الضوء لم تكن الالوان موجودة بوجه وكذا عندهم الموجودات
 المحسوسة كلها مشروطة بوجود المدرك الحسي بل والموجودات المعقولة والمتوهمة
 أيضا مشروطة بوجود المدرك العقلي فاذا الوجود المفصل كله مشروط بوجود المدرك
 البشري فلو فرضنا عدم المدرك البشري جملة لم يكن هناك تفصيل الوجود بل هو بسيط
 واحد فالحر والبرد والصلابة واللين بل والارض والماء والنار والسما والكواكب
 انما وجدت لوجود الحواس المدركة لها لما جعل في المدرك من التفصيل الذي ليس
 في الموجود وانما هو في المدارك فقط فاذا فقدت المدارك المفصلة فلا تفصيل انما
 هو ادراك واحد وهو انما لا غيره ويعتبرون ذلك بحال النائم فانه اذا نام وفقد الحس
 انما هو فقد كل محسوس وهو في تلك الحالة الا ما يفصله له الخيال فالواكف البقطن
 انما يعتبر تلك المدركات كلها على التفصيل بنوع مدركه البشري ولو قدر فقد مدركه
 فقد التفصيل وهذا هو معنى قولهم الموهوم لا الوهم الذي هو من جملة المدارك البشرية
 هذا ملخص رأيهم على ما يفهم من كلام ابن دهبان وهو في غاية السقوط لانا قطع
 بوجود البلد الذي نحن مسافرون عنه واليه يقينا مع غيبته عن أعيننا وبوجود السماء
 المظلمة والكواكب وسائر الاشياء الغائبة عنا والانسان قاطع بذلك ولا يكابر أحد
 نفسه في اليقين مع ان المحققين من المتصوفة المتأخرين يقولون ان المرید عند الكشف
 ربما يعرض له توهم هذه الوحدة ويسمى ذلك عندهم مقام الجمع ثم يترقى عنه الى التمييز
 بين الموجودات ويعبرون عن ذلك بمقام الفرق وهو مقام العارف المحقق ولا بد للمرید
 عندهم من عقبة الجمع وهي عقبة صعبة لانه يخشى على المرید من وقوفه عندها فتنصر
 صفته فقد تبينت مراتب أهل هذه الطريقة ثم ان هؤلاء المتأخرين من المتصوفة
 المتكاملين في الكشف وفيما وراء الحس توغلوا في ذلك فذهب الكثير منهم الى الحلول
 والوحدة كما أشربنا اليه وملوا الصحف منه مثل الهروي في كتاب المقامات له وغيره وتبعهم
 ابن العربي وابن سبعين وتلميذهما ابن العنيفة وابن الفارض والنجم الاسرائيلي في
 قصائد هم وكان سلفهم مخالطين للاسماعيلية المتأخرين من الرافضة الدائنين أيضا

بالحلول والهيئة الأئمة مذهبهم يعرف لا قولهم فأشرب كل واحد من الفريقين مذهب
 الآخر واختلط كلامهم وتشابهت عقائدهم وظهر في كلام المتصوفة القول بالقطب
 ومعناه رأس العارفين يزعمون أنه لا يمكن أن يساويه أحد في مقامه في المعرفة حتى
 يقبضه الله ثم يورث مقامه لا آخر من أهل العرفان وقد أشار إلى ذلك ابن سينا في كتاب
 الاشارات في فصول التصوف منها فقال جلّ جناب الحق أن يكون شرعة لكل وارد
 أو يطلع عليه الا الواحد بعد الواحد وهذا كلام لا تقوم عليه حجة عقلية ولا دليل
 شرعي وانما هو من أنواع الخطابة وهو بعينه ما تقوله الرافضة ودانوا به ثم قالوا بترتيب
 وجود الابدال بعد هذا القطب كما قاله الشيعة في النقباء حتى انهم لما أسندوا لباس
 خرقه التصوف ليجعلوه أصلا لطريقتهم وتخليهم رفقوه الى علي رضي الله عنه وهو من
 هذا المعنى أيضا والافعل رضي الله عنه لم يختص من بين الصحابة بتخاية ولا طريقة في
 لباس ولا حال بل كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما أزهد الناس بعد رسول الله صلى الله
 عليه وسلم وأكثرهم عبادة ولم يختص أحد منهم في الدين بشئ يؤثر عنه في الخصوص بل
 كان الصحابة كلهم أسوة في الدين والزهد والمجاهدة يشهد لذلك من كلام هؤلاء
 المتصوفة في أمر القاطبي وما شخنوا كتبهم في ذلك مما ليس لسلف المتصوفة فيه
 كلام بنى أو اثبات وانما هو مأخوذ من كلام الشيعة والرافضة ومذاهبهم في كتبهم
 والله يهدي الى الحق ثم ان كثيرا من الفقهاء وأهل الفتيا اتدبوا الرد على هؤلاء
 المتأخرين في هذه المقالات وأمثالها وشملوا بالنكير ساير ما وقع لهم في الطريقة والحق
 أن كلامهم معهم فيه تفصيل فان كلامهم في أربعة مواضع أحدها الكلام على
 المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الاعمال لتحصل
 تلك الأذواق التي تصير قواما ويتربى منه الى غيره كما قلناه وثانيها الكلام في الكشف
 والحقيقة المدركة من عالم الغيب مثل الصفات الربانية والعرش والكرسي والملائكة
 والوحي والنبوة والروح وحقائق كل موجود غائب أو شاهد وتركيب الكوان
 في صدورها عن موجدها وتكونها كما مر وثالثها التصرفات في العوالم والاكوان
 بأنواع الكرامات ورابعها ألفاظ موهمة الظاهر صدرت من الكثير من أئمة القوم
 يعبرون عنها في اصطلاحهم بالسطحات تستشكل ظواهرها فذكر ومحسن ومتأول فأما
 الكلام في المجاهدات والمقامات وما يحصل من الأذواق والمواجيد في نتائجها ومحاسبة
 النفس على التقصير في أسبابها فأمر لا مدفع فيه لاحد وأذواقهم فيه صحيحة والتحقق
 بها هو عين السعادة وأما الكلام في كرامات القوم واخبارهم بالمغيبات وتصرفهم
 في الكائنات فأمر صحيح - بر منكر وان مال بعض العلماء الى انكارها فليس ذلك من

الحق وما احتج به الاستاذ أبو اسحق الاسفرايني من أئمة الأشعرية على انكارها
لأنها سبها بالمعجزة فقد فرق المحققون من أهل السنة بينهما بالتهدى وهو دعوى وقوع
المعجزة على وفق ما جاء به قالوا ثم إن وقوعها على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لأن
دلالة المعجزة على الصدق عقلية فإن صدقة نفسها التصديق فلو وقعت مع الكاذب
لتبدلت صفة نفسها وهو محال هذا مع أن الوجود شاهد بوقوع الكاذب كثير من هذه
الكرامات وانكارها نوع مكابرة وقد وقع للصحابية وأكابر السلف كثير من ذلك وهو
معلوم مشهور وأما الكلام في الكشف واعطاء حقائق العلويات وترتيب صدور
الكائنات فأكثر كلامهم فيه نوع من التشابه لما أنه وجداني عندهم وفاقدا للوجدان
عندهم بعزل عن أذواقهم فيه واللغات لا تعطى دلالة على مرادهم منه لأنها لم توضع إلا
للمتعارف وأكثره من المحسوسات فينبغي أن لا تعترض لكلامهم في ذلك وتتركه فيما
تركاه من التشابه ومن رزقه الله فهم شيء من هذه الكلمات على الوجه الموافق لتظاهر
الشريعة فأكرم بها عادة وأما الالتناط الموهمة التي يعبرون عنها بالسطحات ويؤاخذهم
بها أهل الشرع فاعلم أن الانصاف في شأن القوم أنهم أهل غيبة عن الحس والواردات
تلكهم حتى ينطقوا عنها بما لا يقصدونه وصاحب الغيبة غير مخاطب والمجبور معذور
فمن عظم منهم فضله واقتداؤه حمل على القصد الجميل من هذا وإن العبارة عن المواجه
صعبة لفقدان الوضع لها كما وقع لابي يزيد وأمثاله ومن لم يعلم فضله ولا اشتهر فؤاخذ بما
صدر عنه من ذلك إذ لم يبين لنا ما يحملنا على تأويل كلامه وأما من تكلم بمنزلها وهو
حاضر في حسه ولم يعلمه الحال فؤاخذ أيضا ولهذا أفقى الفقهاء رأيا كبر المتصوفة
بقتل الخلاج لأنه تكلم في حضوره وهو مالك لخاله والله أعلم وسلف المتصوفة من أهل
الرسالة أعلام الملة الذين أشرفنا إليهم من قبل لم يكن لهم حرص على كشف الحجاب ولا هذا
النوع من الإدراك إنما همم الاتباع والاقتراء ما استطاعوا ومن عرض له شيء من
ذلك أعرض عنه ولم يحفل به بل يفترقون منه ويرون أنه من العوائق والمخن وأنه إدراك
من ادراكات النفس مخلوق حادث وأن الموجودات لا تنحصر في مدارك الإنسان
وعلم الله أوسع وخلقته أكبر وشريعته بالهداية أم لك فلا ينطقون بشيء مما يدركون بل
حظروا الخوض في ذلك ومنعوا من يكشف له الحجاب من أصحابهم من الخوض فيه
والوقوف عنده بل يلتزمون طريقتهم كما كانوا في عالم الحس قبل الكشف من الاتباع
والاقتراء ويأمرون أصحابهم بالتزامها وهكذا ينبغي أن يكون حال المريدين والله الموفق
للصواب

هذا العلم من العلوم الشرعية وهو حادث في الملة عندما صارت العلوم صناع وكتب
الناس فيها وأما الرؤيا والتعبير لها فقد كان موجودا في السلف كما هو في الخلف وربما
كان في الملوك والامم من قبل الا أنه لم يصل اليه الا لاكتفاء فيه بكلام المهبرين من أهل
الاسلام والافاروقيا بوجوده في صنف البشر على الاطلاق ولا بد من تعبيرها فلقد كان
يوسف الصديق صلوات الله عليه به رؤيا كما وقع في القرآن وكذلك ثبت في الصحيح
عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أبي بكر رضي الله عنه والرؤيا مدرك من مدارك
الغيب وقال صلى الله عليه وسلم الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة
وقال لم يبق من المبشرات الا الرؤيا الصالحة يراها الرجل الصالح أو ترى له وأول ما بدئ
به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح
وكان النبي صلى الله عليه وسلم اذا انقضى من صلاة الغداة يقول لأصحابه هل رأى أحد
منكم الليلة رؤيا يسألهم عن ذلك ليستبشر بما وقع من ذلك مما فيه ظهور الدين
واعزازه وأما السبب في كون الرؤيا مدركا للغيب فهو ان الروح القلبية وهو البخار
اللطيف المنبعث من تجويف القلب اللحمي يتشرف في الشريبات ومع الدم في سائر
البدن وبه تكمل أفعال التوى الحيوانية واحساسها فاذا أدركه الملل بكثرة
التصرف في الاحساس بالحواس الخمس وتصريف القوى الظاهرة وغشي سطح البدن
ما يغشاه من برد الليل انخس الروح من سائر أقطار البدن الى مركزه القلبي فيسبحم
بذلك المعادة فعسله فتهطلت الحواس الظاهرة كلها وذلك هو معنى النوم كما تقدم
في أول الكتاب ثم ان هذا الروح القلبي هو مطية للروح العاقل من الانسان والروح
العاقل مدرك لجميع ما في عالم الامر بذاته اذ حقيقته وذاته عين الادراك وانما يمنع
من تعقله للمدارك الغيبية ما هو فيه من حجاب الاشتغال بالبدن وقواه وحواسه فلو
قد خلا من هذا الحجاب وتجرد عنه لرجع الى حقيقته وهو عين الادراك فيعقل كل
مدرك فاذا تجرد عن بعضها خفت شواغلها فلا بد له من ادراك لمحة من عالمه بقدر ما تجرد
له وهو في هذه الحالة قد خفت شواغل الحس الظاهر كلها وهي الشاغل الاعظم فاستعدت
لتبول ما هنالك من المدارك اللاتفة من عالمه واذا أدرك ما يدرك من عوالمه رجس
الى بدنه اذ هو مادام في بدنه جسماني لا يمكنه التصرف الا بالمدارك الجسمانية والمدارك
الجسمانية للعالم اعماهي الدماغية والمتصرف منها هو الخيال فانه يتزعج من الصور
المحسوسة صوراً خيالية ثم يدفعها الى الحافظة تحفظها الى وقت الحاجة اليها عند
النظر والاستدلال وكذلك تجرد النفس منها صوراً أخرى نفسانية عقلية فيترقى التجريد
من المحسوس الى المعقول والخيال واسطة بينهما ولذلك اذا أدركت النفس من عالمها

ما تدركه ألقته الى الخيال فيصوره بالصورة المناسبة له ويدفعه الى الحس المشترك فبإزاء
 المنام مكانه محسوس فيتنزل المدرك من الروح العقلي الى الحسي والخيال أيضا
 واسطة هذه حقيقة الرؤيا ومن هذا التقرير يظهر لك الفرق بين الرؤيا الصالحة وأضغاث
 الاحلام الكاذبة فانها كلها صور في الخيال حالة النوم لكن ان كانت تلك الصور
 متنزلة من الروح العقلي المدرك فهو رؤيا وان كانت مأخوذة من الصور التي
 في الحافظة التي كان الخيال أودعها اياها منذ البقطة فهي أضغاث أحلام • وأما
 معنى التعبير فاعلم أن الروح العقلي اذا أدرك مدركه وألقاه الى الخيال فصوره فانما
 يصوره في الصور المناسبة لذلك المعنى بعض الشيء كما يدرك معنى السلطان الاكظم
 فيصوره الخيال بصورة البحر أو يدرك العداوة فيصورها الخيال في صورة الحية فاذا
 استيقظ وهو لم يعلم من أمره الا أنه رأى البحر أو الحية فينظر المعبر بقوة التشبيه بعد أن
 يتبين أن البحر صورة محسوسة وأن المدرك وراءها هو ويهتدى بقرائن أخرى تعينه
 المدرك فيقول مثلا هو السلطان لان البحر خلق عظيم يناسب أن يشبه به السلطان
 وكذلك الحية يناسب أن تشبه بالعدو ولهظم ضررها وكذا الاواني تشبه بالنساء لانهن
 أوعية وأمثال ذلك ومن المرفى ما يكون صريحا لا يفتقر الى تعبير جلائلها ووضوحها
 أو اقرب الشبه فيها بين المدرك وشبهه واهذا وقع في الصحيح الرؤيا ثلاث رؤيا من الله
 ورؤيا من الملك ورؤيا من الشيطان فالرؤيا التي من الله هي الصريحة التي لا تفتقر الى
 تأويل والتي من الملك هي الرؤيا الصادقة تفتقر الى التعبير والرؤيا التي من الشيطان
 هي الاضغاث • واعلم أيضا أن الخيال اذا ألقى اليه الروح مدركه فانما يصوره
 في القوالب المعتادة للحس ما لم يكن الحس أدركه قط فلا يصور فيه فلا يمكن من ولد
 أعمى أن يصوره السلطان بالبحر ولا العدو بالحية ولا النساء بالاواني لانه لم يدرك شيئا
 من هذه وانما يصوره الخيال أمثال هذه في شبهها ومناسبها من جنس مداركه التي هي
 المسوعات والمشعومات وليتخفظ المعبر من مثل هذا فربما اختلط به التعبير وفسد قانونه
 ثم ان علم التعبير علم بقوانين كلية يبنى عليها المعبر عبارة ما يقص عليه وتأويله كما يقولون
 البحر يدل على السلطان وفي موضع آخر يقولون البحر يدل على الغيظ وفي موضع آخر
 يقولون البحر يدل على الهم والامر القادح ومثل ما يقولون الحية تدل على العدو
 وفي موضع آخر يقولون هي كاتم سر وفي موضع آخر يقولون تدل على الحياة وأمثال
 ذلك فيحفظ المعبر هذه القوانين الكلية ويعبر في كل موضع بما تقتضيه القرائن التي
 تعين من هذه القوانين ما هو اليق بالرؤيا وتلك القرائن منها في البقطة ومنها في النوم
 ومنها ما ينقدح في نفس المعبر بالخاصية التي خلت فيه وكل مبدء لما خلق له ولم يرزل

هذا العلم متناقلا بين السلف وكان محمد بن سيرين فيه من أشهر العلماء وكتب عنه في ذلك القوانين وتناقلها الناس لهذا العهد وألف الكرماني فيه من بعده ثم ألف المتكلمون المتأخرون وأكثرها والمتداول بين أهل المغرب لهذا العهد كتب ابن أبي طالب القيرواني من علماء القيروان مثل المتع وغيره وكتاب الاشارة للسالمي وهو علم مضى بنور النبوة للمناسبة بينهما كما وقع في الصحيح والله علام الغيوب

١٣ (العلوم العقلية واحصافها)

وأما العلوم العقلية التي هي طبيعية للانسان من حيث انه ذوفكر فهي غير مختصة بجملة بل يوجد النظر فيها لاهل الملل كلهم ويستوون في مداركها ومباحثها وهي موجودة في النوع الانساني منذ كان عمران الخليفة وتسمى هذه العلوم علوم الفلسفة والحكمة وهي مشتملة على أربعة علوم الاوّل علم المنطق وهو علم بهضم الذهن عن الخطا في اقتناص المطالب المجهولة من الامور الحاصلة المعلومة وفائدته تمييز الخطا من الصواب فيما يلتمسه الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على محقق الحق في الكائنات بمنتهى فكره ثم النظر بعد ذلك عندهم اتمام المحسوسات من الاجسام العنصرية والمكونة عنهما من المعدن والنبات والحيوان والاجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التي تنبعث عنها الحركات وغير ذلك ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعي وهو الثاني منها واما ان يكون النظر في الامور التي وراء الطبيعة من الروحانيات ويسمونه العلم الالهي وهو الثالث منها والعلم الرابع وهو الناظر في المقادير ويشتمل على أربعة علوم وتسمى التعاليم اوقالها علم الهندسة وهو النظر في المقادير على الاطلاق اما المنفصلة من حيث كونها معدودة او المتصلة وهي اما ذو بعد واحد وهو الخط او ذو بعدين وهو السطح او ذو ابعاد ثلاثة وهو الجسم التعليمي ينظر في هذه المقادير وما يعرض لها اتمام من حيث ذاتها او من حيث نسبة بعضها الى بعض وثانيها علم الارتماطيقي وهو معرفة ما يعرض لكم المنفصل الذي هو العدد ويؤخذ له من الخواص والامور اللاحقة وثالثها علم الموسيقى وهو معرفة نسب الاصوات والنغم بعضها من بعض وتقديرها بالعدد وعرفته تلاحين الفناء ورابعها علم الهيئة وهو تعيين الاشكال للافلالذ وحصر اوضاعها وتعدادها لكل كوكب من السيارة والقيام على معرفة ذلك من قبل الحركات السماوية المشاهدة المرجودة لكل واحد منها ومن رجوعها واستقامتها واقبالها وادبارها فهذه اصول العلوم الفلسفية وهي سبعة المنطق وهو المتقدم منها وبعده التاليم فالارتماطيقي اولا ثم الهندسة ثم الهيئة ثم

الموسيقى ثم الطبيعيات ثم الالهيات ولكل واحد منها فروع تتفرع عنه فمن فروع
الطبيعيات الطب ومن فروع علم العدد علم الحساب والفرائض والمعاملات ومن
فروع الهيئة الازياج وهي قوانين لحسابات حركات الكواكب وتعد بلها للوقوف
على واضعها متى قصد ذلك ومن فروع النظر في النجوم علم الاحكام النجومية
ونحن نتكلم عليها واحدا بعد واحد الى آخرها واعلم ان اكثر من عني بها في الاجيال
الذين عرفنا اخبارهم الاثنان العظيمتان في الدولة قبل الاسلام وهما فارس والروم
فكانت أسواق العلوم نافذة لديهم على ما بلغنا لما كان العمران موفورا فيهم والدولة
والسلطان قبل الاسلام وعصره لهم فكانت له هذه العلوم بمجور زاخرة في آفاقهم
وأمصارهم وكان لا كادانيين ومن قبلهم من السريانيين ومن عاصرهم من القبط
عناية بالبحر والنجم وما يتبعها من العلوم وأخذ ذلك عنهم الامم من فارس ويونان
فاختص بهم القبط وطمي بحرهما فيهم كما وقع في المتلوم من خبر هاروت وماروت وشأن
السحرة وما نقله أهل العلم من شأن البرابي بضميد مصر ثم تابت الملل يحظر ذلك
وتحريره فدرست علومه وبطلت كأن لم تكن الا بقايا يتناقلها متعلمو هذه الصنائع
والله أعلم بصحة ما مع أن سبوف الشرع قائمة على ظهورها مانعة من اختبارها وأما
الفرس فكان شأن هذه العلوم العقلية عندهم عظيما ونطاقها متبها ما كانت عليه
دولتهم من الضخامة واتصال الملك ولقد يقال ان هذه العلوم انما وصلت الى يونان
منهم بين قتل الاسكندر دارا وغلب على مملكة الكينية فاستوى على كتبهم وعلومهم
مالا يأخذ الحضر وما فتحت أرض فارس ووجدوا فيها كتب كثيرة كتب سعد بن أبي
وقاص الى عمر بن الخطاب ايسر تأذنه في شأنها وتنقلها للمسلمين فكتب اليه عمر أن
اطرحوها في الماء فان يكن ما فيها هدى فقد هدانا الله باهدى منه وان يكن ضلالا فقد
كفانا الله فطرحوها في الماء أو في النار وذهبت علوم الفرس فيها عن أن تصل اليها
واما الروم فكانت الدولة منهم ايونان أولا وكان لهذه العلوم بينهم مجال رحب
وجلهام شاهر من رجالهم مثل أساطين الحكمة وغيرهم واخصر فيهم المشاؤون منهم
أصحاب الرواق بطريفة حسنة في التعليم كانوا يقرؤون في رواق يظلمهم من الشمس
والبرد على ما زعموا واتصل فيها سند تعليمهم على ما يزعمون من لدن لقمان الحكيم
في تلميذه بقراط الذي ثم الى تلميذه افلاطون ثم الى تلميذه ارسطو ثم الى تلميذه الاسكندر
الافروديسي وتلاميذ سبطيون وغيرهم وكان ارسطو معلما للاسكندر ولما كان الذي
غلب الفرس على ما كانهم وانتزع الملك من أيديهم وكان أرحمهم في هذه العلوم قدما
وأبعدهم فيها صيتا وكان يسمى العلم الاوّل فطار له في العالم ذكره ولما انقرض

أمر اليونان وصار الأمر لقياسرة وأخذوا بدين النصرانية هجروا تلك العلوم
كما تقتضيه الملل والشرايع فيها وبقيت في صحفها وردوا وينها مخلدة باقية في
خزائنهم ثم ملكوا الشام وكتب هذه العلوم باقية فيهم ثم جاء الله بالاسلام وكان لاهله
الظهور الذي لا يكفاه له وابتزوا الروم ملكهم فيما ابتزوه للامم وابتداء أمرهم
بالسذاجة والغفلة عن الصنائع حتى اذا تجميع السلطان والدولة وأخذوا من
الحضارة بالحفظ الذي لم يكن لغيرهم من الامم وتفننوا في الصنائع والعلوم تشوقوا الى
الاطلاع على هذه العلوم الحكيمية بما معوا من الاساقفة والاقسة المعاهدين بعض
ذكر منها وبما تسهوا اليه افكار الانسان فيها بعثت أبو جعفر المنصور الى ملك الروم
أن يعث اليه بكتب التعاليم مترجمة فبعث اليه بكتاب أوقايدس وبعض كتب
الطبيعية فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على النظر بما بقي
منها وجاء المأمون بعد ذلك وكانت له في العلم رغبة بما كان يتفعله فانبعث لهذه العلوم
حرصا وأورد الرسل على ملوك الروم في استخراج علوم اليونانيين واتساخها بالخط
العربي وبعث المترجمين لذلك فأوعى منه واستوعب وعكف عليها النظارة من أهل
الاسلام وخذقوا في فوائدها وانتهت الى الغاية انظارهم فيها وخالقوا كثيرا من آراء
المعلم الاول واختصوه بالرد والقبول لوقوف الشهرة عنده ودونوا في ذلك الدواوين
وأرسلوا على من تقدمهم في هذه العلوم وكان من أكابرهم في الملة أبو نصر الفارابي وأبو
علي بن سينا بالمشرق والقاضي أبو الوائيد بن رشد والوزير أبو بكر بن الصائغ بالاندلس
الى آخرين بلغوا الغاية في هذه العلوم واختص هؤلاء بالشهرة والذكر واقتصر كثير
على احتمال التعاليم وما يضاف اليها من علوم النجامة والسحر والطلسمات ووقفت
الشهرة في هذا المنحل على ملة بن أحمد الجربطي من أهل الاندلس وتلبذه ودخل
على الملة من هذه العلوم وأهلها داخله واستهوت الكثير من الناس بما جنحوا اليها
وقلدوا آراءها والذنب في ذلك لمن ارتكبه ولو شاء الله ما فعلوه * ثم ان المغرب
والاندلس لما ركبت ربيع العمران بهما وتناقصت العلوم بتناقصه اضحى ذلك منهما
الاقليل من رسومه تجدها في تغاريق من الناس ونحت رقبة من علماء السنة ويبلغنا
عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة وخصوصا في عراق العجم
وما بعده فيما وراء النهر وأنهم على شج من العلوم العقلية لتوفر عمرانهم واستحكام
الحضارة فيهم ولقد وقفت بعصر على تأليف متعددة لرجل من عظماء هراة من بلاد
خراسان يشهر بسعد الدين التفتازاني منها في علم الكلام وأصول الفقه والبيان
تشهد بأن له ما كرهه في هذه العلوم وفي أثنائها ما يدل له على أن له اطلاعا على العلوم

الحكمة وقدما عالمة في - ابر السنون العنلية واقه يثو يد بنصره من يشاء كذلك بلغنا
 لهذا العهد أن هذه العلوم الفلسفية بيلاذ الافرنجية من أرض رومة وما ليه من
 العدو الشمالية نافقة الاسواق وان رسوما هائله متجددة ومجالس تعليمها متعددة
 ودوا وبنها جامعة متوفرة وطلبها متكررة ز الله أعلم بما هنالك وهو يخلق ما يشاء ويختار

(العلوم العددية)

وأولها الارثاطي وهو معرفة خواص الاعداد من حيث التأليف اما على التوالي
 أو بالتضعيف مثل أن الاعداد اذا قوت متفاضلة بعدد واحد فان جمع الطرفين منها
 مساو لجمع كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد ومثل ضعف الواسطة ان كانت
 عدة تلك الاعداد فردا مثل الافراد على نوايهما والازواج لي نوايهما مثل أن الاعداد
 اذا قوت على نسبة واحدة يكون أولها نصف ثانيها وثانيها نصف ثالثها الخ أو يكون
 أولها ثلث ثانيها وثانيها ثلث ثالثها الخ فان ضرب الطرفين أحدهما في الآخر كضرب
 كل عددين بعدهما من الطرفين بعد واحد أحدهما في الآخر ومثل مربع الواسطة
 ان كانت العدة فردا وذلك مثل أعداد زوج الزوج المتوالية من اثنين فأربعة ثمانية
 عشرة ومثل ما يحدث من الخواص العددية في وضع المثلثات العددية والمربعات
 والخمسات والمستدسات اذا وضعت متتالية في سطورها بأن يجمع من الواحد الى
 العدد الاخير فتكون مائة وتتوالى المثلثات هكذا في سطر تحت الاضلاع ثم تزيد على
 كل مثلث ثلث الضلع الذي قبله فتكون مربعة وتزيد على كل مربع مثلث الضلع الذي
 قبله فتكون مخمسة وهلم تجر لتتوالى الاشكال على نواحي الاضلاع ويحدث جدول
 ذو طول وعرض في عرض الاعداد على نوايهما المثلثات على نوايهما المربعات ثم
 الخمسات الخ وفي ظوله كل عدد واشكاله بالغاما ما بلغ وتحدث في جهها رقعة بعضها
 على بعض طول او عرضا خواص غريبة استقرت منها وتقررت في دوا وبنهم مسائلها
 وكذلك ما يحدث للزوج والفرد وزوج الزوج والفرد وزوج الزوج والفرد فان
 لكل منها خواص مختصة به تضمنها هذا الفن وليست في غيره وهذا الفن قول أجزاء
 التعاليم وأثبتها ويدخل في براهين الحساب والعمياء المتقدمين والمتأخرين فيه تأليف
 وأكثرهم بدرجونه في التعاليم ولا يفردونه بالتأليف مثل ذلك ابن سينا في كتاب
 الشفاء والنجاة وغيره من المتقدمين وأما المتأخرون فهو عندهم مهجور اذ هو غير
 مستداول ومنفعته في البراهين لا في الحساب فهو له ذلك بعد أن استخلصوا زبدته
 في البراهين الحسابية كما فعله ابن البناء في كتاب رفع الجباب والله سبحانه وتعالى أعلم

* (ومن فروع علم العدد صناعة الحساب) * وهي صناعة علمية في حساب الاعداد
 بالضم والتفريق فالضم يكون في الاعداد بالافراد وهو الجمع والتضـم عطف تضاعف
 عدداً باحد عدد آخر وهذا هو الضرب والتفريق أيضاً يكون في الاعداد اما بالافراد
 مثل ازالة عدد من عدد ومعرفة الباقي وهو الطرح أو تفصيل عدد بأجزاء متساوية
 تكون عدتها محصلة وهو القسمة وسواء كان هذا الضم والتفريق في الصحيح من العدد
 أو الكسر وهـ عن الكسر نسبة عدد الى عدد وتلك النسبة تسمى كسراً وكذلك يكون
 بالضم والتفريق في الجذور وهـ هناها العدد الذي يضرب في مثله فيكون منه العدد
 المربع فان تلك الجذور أيضاً يدخلها الضم والتفريق وهذه الصناعة حادثة احتيج
 اليها للحساب في المعاملات وألف الناس فيها كثيراً وتداولوها في الامصار بالتعليم
 للولدان ومن أحسن التعلم عندهم الابتداء بهم الا انها معارف متقدمة وبراهين منتظمة
 فنشأ عنها في الغالب عقل منبى * درب على الصواب وقد يقال من أخذ نفسه بتعليم
 الحساب أول أمره انه يغاب عليه الصواب في الحساب من صحة المبدأي ومن اتقنة
 النفس فيصير ذلك خلقاً ويتعود الصدق ويلتزم مذهباً ومن أحسن التأليف
 المبسوطه فيها هذا العهد بالمغرب كتاب الحصار الصغير ولا بن البناء المراكشي فيه
 تلخيص ضابط اقوانين أعماله مفيد ثم شرحه بكتاب سماه رفع الحجاب وهو مستغلق
 على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني وهو كتاب جليل التدرؤدركا المشيخة
 نعظمه وهو كتاب جدير بذلك وانما جاء الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم
 العالم لان مسائلها أعمالها واضحة كلها واذا قصد شرحها فاعلم ان اعطاء العلل
 في تلك الاعمال وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل فتأمل
 والله يهدي من يشاء وهو القوي المتين * (ومن فروع الجبر والمقابلة) *
 وهي صناعة يخرج بها العدد المجهول من قبل المعلوم المفروض اذا كان بينهما
 نسبة تقتضي ذلك فاصطلم وافيا على أن جعلوا للمجهولات مراتب من طريق
 التضعيف بالضرب أولها العدد لان به يتعين المطلوب المجهول باستخراج منه نسبة
 المجهول اليه وثانيها الشيء لان كل مجهول فهو من جهة ابهامه شيء وهو أيضاً جذر
 لما يلزم من تضعيفه في المرتبة الثانية وثالثها المال وهو أمر بهم وما بعد ذلك فعلى
 نسبة الاس في المضروبين ثم يقع العمل المفروض في المسئلة فتخرج الى معادلة بين
 مختلفين وأكثر من هذه الاجناس فيقابلون بعضها ببعض ويجبرون ما فيها من الكسر
 حتى يصير صحيحاً ويحطون المراتب الى أقل الاسوس ان أمكن حتى يصير الى الثلاثة
 التي عليها مدار الجبر عندهم وهي العدد والشيء والمال فان كانت المعادلة بين واحد

وواحد تعين فالمال والجذر يزول اياه : معادلة العدد وتبين والمال وان عادل الجذور
 يتعين بعدتها وان كانت المعادلة بين واحد واثنين اخرج العمل الهندسي من طريق
 تفصيل الضرب في الاثنين وهي مبهمه فيعينها ذلك الضرب المقصود ولا يمكن المعادلة
 بين اثنين واثنين واكثر ما انتهت المعادلة بينهم الى ست مسائل لان المعادلة بين عدد
 وجذر مال مفردة او مركبة تحي ستة **•** وأول من كتب في هذا الفن أبو عبد الله
 الخوارزمي وبعده أبو كامل نجاشي بن أسلم وجاء الناس على أثره فيه وكتبه في مسأله
 الست من **أحسن** الكتب الموضوعه فيه ونشره كثير من أهل الاندلس فأجادوا
 ومن **أحسن** شروحاته كتاب القرشي وقد بلغنا أن بعض أئمة التعاليم من أهل المشرق
 أنهى المعاملات الى أكثر من هذه الستة أجناس وبلغها الى فوق العشرين واستخرج
 لها كلها أعمالا وآثاره براهين هندسية والله يزيد في الخلق ما يشاء سبحانه وتعالى
• (ومن فروعها أيضا المعاملات) **•** وهو تصرف الحساب في معاملات المدن
 في البياعات والمساحات والزكوات وسائر ما يعرض فيه العدد من المعاملات بصرف
 في ذلك صناعات الحساب في المجهول والمعلوم وال~~العكس~~ والصحيح والجذور وغيرها
 والغرض من تكثير المسائل المقروضة فيها حصول المراتب والدرجات بتكرار العمل حتى
 تريح الملكة في صناعة الحساب ولاهل الصناعة الحسابية من أهل الاندلس تأليف
 فيها متعددة من أشهرها معاملات الزهراوي وابن السمع وأبي مسلم بن خالدون من
 تلاميذ سامة الجريطي وأمثالهم **•** (ومن فروعها أيضا الفرائض) **•** وهي صناعة
 حسابية في تصحيح السهام لذوي الفروض في الوراثة اذا تعددت وهلك بعض
 الوارثين وانكسرت سهامه على ورثته أو زادت الفروض عند اجتماعها وتزاحها
 على المال كله أو كان في الفريضة اقرارا وانكارا من بعض الورثة فيحتاج في ذلك كله
 الى عمل يعين به سهام الفريضة من كم تصح ومهام الورثة من كل بطن **•** صحاح
 تكون حظوظ الوارثين من المال على نسبة سهامهم من جملة سهام الفريضة فيدخلها
 من صناعة الحساب جزء كبير من صحبه وكسره وجذره ومعلومه ومجهوله وترتب على
 ترتيب أبواب الفرائض الفقهية وما ائتمرها فتشقل حينئذ هذه الصناعة على جزء من
 الفقه وهو أحكام الوراثة من الفروض والعول والاقرار والانكار والوصايا والتدبير
 وغير ذلك من مسائلها وعلى جزء من الحساب وهو تصحيح السهام باعتبار الحكم
 الفقهية وهي من أجل العلوم وقد يورد أهلها أحاديث نبوية تشهد بفضلها مثل
 الفرائض ثلث العلم وانما قول ما يرفع من العلوم وغير ذلك وعندى أن ظواهر تلك
 الأحاديث كلها انما هي في الفرائض العينية كما أنه قد تم لأفرائض الوراثة فانما أقل

من أن تكون في كنهها تلك العلم وأما الفرائض العينية فكثيرة وقد آلف الناس في هذا الفن قدما وحديثا وأوعبوا ومن أحسن التأليف فيه على مذهب مالك رحمه الله كتاب ابن ثابت ومختصر القاضي أبي القاسم الخواري وكتاب ابن المنور والجلدي والسردي وغيرهم لكن الفضل للخواري فكاتبه مقدم على جميعها وقد شرحه من شيوخنا أبو عبد الله سليمان الشطري كبير مشيخة قاس فأوضح وأوعب ولا طام الحرميين فيما نال كيف على مذهب الشافعي تشهد باتساع باعه في العلوم ورسوخ قلمه وكذا للعزمية والحنابلة ومقامات الناس في العلوم مختلفة والله يهدي من يشاء ويكرمه لا ريب سواه

(العلوم الهندسية)

هذا العلم هو النظر في المقادير أما المتصلة كالتلط والسطح والجسم وأما المنفصلة كالاعداد وفيها بهر من لها من العوارض الذاتية مثل أن كل مثلث فزواياها مثل قائمتين ومثل أن كل خطين متوازيين لا يلتقيان في وجه ولو خرجا إلى غير نهاية ومثل أن كل خطين متقاطعين فالزاويتان المقابلتان منهما متساويتان ومثل أن الأربعة مقادير المناسبة ضرب الأول منها في الثالث كضرب الثاني في الرابع وأما ذلك والكتاب المترجم لليونانيين في هذه الصناعة كتاب أوقليدس ويسمى كتاب الاصول وكتاب الاركان وهو أبسط ما وضع فيها للمتعلمين وأول ما ترجم من كتاب اليونانيين في الملة أيام أبي جعفر المنصور ونسخه مختلفا باختلاف المترجمين فيها الخمين ابن اسحاق وثابت بن قزرة وليوسف بن الطنجح ويشتمل على خمس عشر مقالة أربعة في السطوح وواحدة في الاقدار المناسبة وأخرى في نسب السطوح بعضها إلى بعض وثلاث في العدد والعاشرة في المنطقات والقوى على المنطقات ومعناه الجذور وخمس في الجسمات وقد اختصره الناس اختصارا كثيرة كما فصله ابن سينا في تعاليم الشفاء أفرد له جزأ منها اختصاصه به وكذلك ابن الصلت في كتاب الاقصر وغيرهم وشرحه آخرون شروحا كثيرة وهو مبدأ العلوم الهندسية باطلاق واعلم أن الهندسة تفيد صاحبها اضاءة في عقله واستقامة في فكره لأن براهينها كلها مبنية على الانتظام جليلة الترتيب لا يكاد الغلط يدخل أفيدتها ترتيبها وانتظامها فيبعد الفكر عما يستعان الخطا وينشأ له صاحبها عقل على ذلك الموضع وقد زعموا أنه كان مكتوبا على باب افلاطون من لم يكن مهندسا فلا يدخل منزلا او كان شيوخنا رحمه الله يقولون ممارسة علم الهندسة لفكر بمناسبة الصابون لاثوب الذي يغسل منه الاقدار وينقيه من الاوضار والادران وانما لا لما أشرنا اليه من ترتيبه وانتظامه (ومن فروع

هذا الفن الهندسة المخصوصة بالاشكال الكرية والمخروطات) • أما الاشكال
 الكرية ففيها كتابان من كتب اليونانيين اثنان ودومنيوس وميلاوش في سطوحها
 وقماوع. او كتاب ثارديو. ومقدم في التعليم على كتاب ميلاوش لتوقف كثير من
 براهينه عليه ولا بد منهم ما لمن يريد الخوض في علم الهيئة لان براهينه رقيقة عليهما
 فالكلام في الهيئة كله كلام في الكرات السماوية وما يعرض فيها من القطوع والدوائر
 بأسباب الحركات كما ذكره فقد يتوقف على معرفة أحكام الاشكال الكرية. سطوحها
 وقطوعها وأما المخروطات فهو من فروع الهندسة أيضا وهو علم ينظر فيما يقع
 في الاجسام المخروطية من الاشكال والقطوع ويبرهن على ما يعرض لذلك من
 العوارض يبرهن هندسية متوقفة على التعليم الاول وفائدتها تظهر في الصنائع
 العملية التي موادها الاجسام مثل النجارة والبناء وكيف تصنع النمايل الخيرية
 والهياكل النادرة وكيف يتصل على جزر الاثقال ونقل الهياكل بالهندام والميضال
 وأمثال ذلك وتدأ فرد بعض المواضع في هذا الفن كتابا في الحيل العملية يتصبر من
 الصناعات الخيرية والحيل المستخرجة كل عجيبة وربما استغلق على مفهوم له وبنية
 براهينه الهندسية وهو موجود بأيدى الناس بسببونه انى شاكر والله تعالى أعلم
 • (ومن فروع الهندسة المساحية) • وهو فن يحتاج اليه في مسح الارض وبنية
 استخراج مقدار الارض المعلومة بنسبة شبر أو ذراع أو غيرها أو نسبة أرض من
 أرض اذا تقويت بمثل ذلك ويحتاج الى ذلك في توظيف الخراج على المزارع والقدن
 وبناتين الفراسة وفي قسمة الموائط والاراضي بين الشركاء أو الورثة وأمثال ذلك
 وللناس فيها موضوعات حسنة وكثيرة والله لموفق للصواب بانه وكرمه • (المنظر
 من فروع الهندسة) • وهو علم يتبين به أسباب الغلط في الادراك البصرية بمعرفة
 كيفية وقوعها اعلى أن ادراك البصر يكون بمخروط شعاعى رأسه يقع عليه الباصر
 وتعادته المرتقى ثم يقع الغلط كثيرا في رؤية القريب كبروا والبعد صغيرا وكذا رؤية
 الاشباح الصغيرة تحت الماء ورؤية الاجسام الشفافة كبيرة ورؤية النقطة النازلة
 من المطر خطا مستقيما والسحابة دائرة وأمثال ذلك فيتبين في هذا العلم أسباب ذلك
 وكيفياته بالبراهين الهندسية ويتبين به أيضا اختلاف المنظر في القمر باختلاف
 العروض الذي يتبين عليه معرفة رؤية الالهة وحصول الكسوفات وكثير من امثال
 هذا وقد ألف في هذا الفن كثير من اليونانيين وأشهرهم أنف نيس من الاسلاميين
 ابن الهيثم وغيره فيه أيضا ناليف وهو من هذه الرياضة وتفاير بعضها

وهو علم ينظر في حركات الكواكب الثابتة والمنهزكة والمهززة ويستدل بكيفيات
تلك الحركات على أشكال وأوضاع الافلاك لزمت عنها هذه الحركات الخمسة بطرق
هندسية كما يبرهن على أن مركز الارض مابين لمركز ذلك الشمس بوجود حركة الاقبال
والادبار وكما يستدل بالرجوع والاستقامة للكواكب على وجود افلاك صغيرة حاملة
لها منهزكة داخل فلكها الاعظم وكما يبرهن على وجود الفلك الثامن بحركة الكواكب
الثابتة وكما يبرهن على تعدد الافلاك للكواكب الواحد بعدد اعداد الميول له وأمثال
ذلك وادراك الموجود من الحركات وكيفياتها وأقسامها انما هو بالرصد فانما علمنا
حركة الاقبال والادبار وكذا تركيب الافلاك في طبقاتها وكذا الرجوع والاستقامة
وأمثال ذلك وكان اليونانيون يعنون بالرصد كثيرا ويتخذون له الآلات التي توضع
ليرصد بها حركة الكواكب المعينة كانت تسمى عندهم ذات المطلق وصناعة عملها
والبراهين اليه في مطابقة حركاتها بحركة النبتك منقول بأيدي الناس وأما في الآلام
فلم تقع به عناية الا في القليل وكان في أيام المأمون شي منه وصنع الآلة المروفة للرصد
المسماة ذات المطلق وشرع في ذلك فلم يتم ولما مات ذهب رسمه وأغفل واعتمد من بعده
على الارصاد القديمة وليست بعنيفة لاختلاف الحركات باتصال الاحقاب وان مطابقتة
حركة الآلة في الرصد بحركة الافلاك والكواكب انما هو بالتقريب ولا يعطى التحقيق
فاذا طال الزمان ظهرت تفاوت ذلك بالتقريب وهذه الهيئة صناعة شريفة وايست
على ما ينهم في المشهور وانما تعطى صورة السموات وترتيب الافلاك والكواكب
بالحقيقة بل انما تعطى أن هذه الصور والهيئات للافلاك لزمت عن هذه الحركات
وأنت تعلم أنه لا يبعد أن يكون الشيء الواحد لازما لمختلفين وانما ان الحركات لازمة
فهو استدلال باللازم على وجود الملزوم ولا يعطى الحقيقة وجهه على أنه علم جليل وهو
أحد أركان التعاليم ومن أحسن التأليف فيه كتاب المجسطي منسوب لبطليموس
وايس من ملوك اليونان الذين أسسوا علم بطليموس على ما حقه شرآح الكتاب
وقد اختصره الأئمة من حكماء الاسلام كما فعله ابن سينوا ودرجه في تعاليم الشفا ونحسه
ابن رشد أيضا من حكماء الاندلس وابن السمع وابن الصلت في كتاب الاقتصار ولابن
الفرغاني هيئة ملخصة فترجمه لو حذف براهينها الهندسية واثق علم الانسان ما لم يعلم
سجانه لاله الا هو وبالعالمين (ومن فروعه علم الازياج) وهي صناعة
حسابية على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب من طريق حركته وما أذى اليه
برهان الهيئة في وضعه من سرعة وبطء واستقامة ورجوع وغير ذلك يعرف به مواضع
الكواكب في افلاكها الاى وقت فرض من قبل حسابان حركاتها على تلك

القوانين المستخرجة من كتب الهيئة ولهذه الصناعات قوائين كالمقدمات والاصول
 لها في معرفة الشهور والايام والتواريخ الماضية واصول معتزلة من معرفة الالوج
 والحضيض والميول واصناف الحركات واستخراج بعضها من بعض يضعونها
 في جداول مرتبة تسهلا على المتعلمين وتسمى الازياج ويسمى استخراج مواضع
 الكواكب للوقت المفروض لهذه الصناعة تعد بلاوتقويمها للناس فيه تاليف كثيرة
 للمتقدمين والمتأخرين مثل البتاني وابن الكادوة دعول المتأخرون لهذا العهد بالمغرب
 على زيجه نسوب لابن اسحاق من منجمي تونس في اول المائة السابعة ويرى ان
 ابن اسحاق هو قول فيه على الرصد وان يهوديا كان بصقلية ماهر في الهيئة والتعاليم
 وكان قد عني بالرصد وكان يبعث اليه بما يقع في ذلك من احوال الكواكب وحركاتها
 فكان اهل المغرب لذلك عنوا به لوثيقة مبنية على ما يريهمون ونلخصه ابن البتاني آخر سماه
 المنهاج فولع به الناس للسبل من الاعمال فيه وانما يحتاج الى مواضع الكواكب
 من الفلك اتبني عليها الاحكام النجومية وهو معرفة الآثار التي تحدث عنها
 بأوضاعها في عالم الانسان من الملك والدول والمواليد البشرية كما بينه به - دون وضع
 فيه أدلتهم ان شاء الله تعالى والله الموفق لما يحب ويرضاه لامعبود سواه

(علم المنطق) ٤

وهو قوانين يعرف بها الصحيح من الفاسد في الحدود المعرفة للماهيات والخصم المقيدة
 للتصديقات وذلك أن الاصل في الادراك انما هو المحسوسات بالحواس الخمس وجميع
 الحيوانات مشتركة في هذا الادراك من الناطق وغيره وانما يتميز الانسان عنها بادراك
 الكليات وهي مجردة من المحسوسات وذلك بأن يحصل في الخيال من الاشخاص المتفقة
 صورة منطبقة على جميع تلك الاشخاص المحسوسة وهي الكل ثم ينظر الذهن بين
 تلك الاشخاص المتفقة وأشخاص أخرى توافقها في بعض فيحصل له صورة تنطبق
 أيضا عليها باعتبار ما اتفق فيه ولا يزال يرتقي في التجريد الى الكل الذي لا يجد كليا
 آخر معه يوافق فيكون لاجل ذلك بسيطا وهذا مثل ما يجرد من أشخاص الانسان
 صورة النوع المنطبقة عليها ثم ينظر بينه وبين الحيوان ويجرد صورة الجنس المنطبقة
 عليها ثم ينظر ما بين النبات الى أن يفتي الى الجنس العالي وهو الجوهر فلا يجد كليا
 يوافق في شيء فيقف العقل هناك عن التجريد ثم ان الانسان لما خلق الله الفكر الذي
 به يدرك العلوم والصنائع وكان العلم اما تصور المناهيات ويعني به ادراك الساذج من غير
 حكم معه واما تصديقا أي حكما بوجوب أمر لا صرفه أرسى الفكر في تحصيل المطوبات

اما بان تجمع تلك الكلمات بعض الى بعض على جهة التأليف فتحصل صورة في
 الذهن كلية منطبقة على أفراد في الخارج فتكون تلك الصورة الذهنية مفيدة لمعرفة
 ماهية تلك الأشخاص واما بان يحكم بأمر على أمر فيثبت له ويكون ذلك تصديقا
 وغايته في الحقيقة راجعة الى التصور لان فائدة ذلك اذا حصل انما هي معرفة حقائق
 الاشياء التي هي مقتضى العلم وهذا السعي من الفكر قد يكون بطريق صحيح وقد
 يكون بطريق فاسد فاقضى ذلك تمييزا لطريق الذي يسمى به الفكر في تحصيل
 المطالب العلمية ليميز فيها الصحيح من الفاسد فكان ذلك قانون المنطق وتكامل فيه
 المتقدمون أول ما تكلموا به جلا جلا ومفترقا ولم تهذب طرقه ولم تجمع مسائله حتى
 ظهر في يونان ارسطو فهذب مباحثه ورتب مسائله وفصوله وجعله أول العلوم
 الحكمية وقاتحتها ولذلك يسمى بالعلم الاوّل وكتابه المخصوص بالمنطق يسمى النص وهو
 يشغل على ثمانية كتب أربعة منها في صورة القياس وأربعة في مادته وذلك أن المطالب
 التصديقية على أنحاء • فهما ما يكون المطلوب فيه اليقين بطبعه ومنها ما يكون
 المطلوب فيه الظن وهو على مراتب فيتنظر في القياس من حيث المطلوب الذي يقيد
 وما ينبغي أن تكون مقدّماته بذات الاعتبار ومن أي جنس يكون من العلم أو من
 الظن وقد ينظر في القياس لابعبار مطلوب مخصوص بل من جهة اتجاها خاصة
 ويقال للنظر الاوّل انه من حيث المادة ونعني به المادة المنتجة لاهل طلب المخصوص
 من يقين أو ظن ويقال للنظر الثاني انه من حيث الصورة واتجاه القياس على الاطلاق
 فكانت لذلك كتب المنطق ثمانية • الاوّل في الاجناس العالية التي ينتهي اليها
 تجريد المنسوسات وهي التي ليس فوقها جنس ويسمى كتاب المقولات • والثاني
 في القضايا التصديقية وأصنافها ويسمى كتاب العبارة • والثالث في القياس
 وصورة اتجاها على الاطلاق ويسمى كتاب القياس وهذا آخر النظر من حيث الصورة
 • ثم الرابع كتاب البرهان وهو النظر في القياس المنتج لليقين وكيف يجب أن تكون
 مقدماته يقينية ويختص بشروط أخرى لا فائدة لليقين مذكورة فيه مثل كونها ذاتية
 وأولية وغير ذلك وفي هذا الكتاب الكلام في المعرفات والحدود اذا المطالب فيها
 انما هو اليقين لوجوب المطابقة بين الحد والمحدود لا تحتمل غيرها فلذلك اختصت
 عند المتقدمين بهذا الكتاب • والخامس كتاب الجدل وهو القياس المضد قطع
 المشاغب والخامس الحسم وما يجب أن يستعمل فيهم من المشهورات ويختص أيضا من
 جهة افادته لهذا الغرض بشروط أخرى من حيث افادته لهذا الغرض وهي مذكورة
 هناك وفي هذا الكتاب يذكر المواضع التي يستنبط منها صاحب القياس قياسه

وفيه عكوس القضايا • والسادس كتاب السفسطة وهو القياس الذي يفيد
 خلاف الحق ويغاط به المناظر صاحبه وهو فاسد وهذا إنما كتب ليعرف به القياس
 المغالطي فيحذر منه • والسابع كتاب الخطابة وهو القياس المفيد ترغيب الجمهور
 وحلهم على المراد منهم وما يجب أن يستعمل في ذلك من المقالات • والثامن كتاب
 الشعر وهو القياس الذي يفيد التمثيل والتشبيه خاصة فلا يقال على الشيء أو النقرة عنه
 وما يجب أن يستعمل فيه من القضايا التضييكية هذه هي كتب المنطق الثمانية عند
 المتقدمين ثم إن حكاه اليونانيين بعد أن تهذبت الصناعة ورنت رأوا أنه لا بد من
 الكلام في الكلمات الخمس المفيدة للتصور فاستدركوا في مقالة تخصص بها مقدمة
 بين يدي الفن فصارت تسع وترجمت كلها في اللغة الإسلامية وصككتها وتداولها
 فلاسفة الإسلام بالشرح والتلخيص كما فعله الفارابي وابن مينا ثم ابن رشد من فلاسفة
 الأندلس وابن سينا كتاب الشفاء استوعب فيه علوم الفلسفة السبعة كلها ثم جاء
 المتأخرون فغيروا اصطلاح المنطق وألحقوا بالنظر في الكلمات الخمس ثمرة وهي الكلام
 في الحدود والرسوم نقلوها من كتاب البرهان وحدقوا كتاب المقولات لأن نظر المنطق
 فيه بالعرض لا بالذات وألحقوا في كتاب العبارة الكلام في العكس لأنه من نواحي
 الكلام في القضايا ببعض الوجوه ثم تكلموا في القياس من حيث اتساجه للمطالب
 على العموم لا بحسب مادة وحدقوا النظر فيه بحسب المادة وهي الكتب الخمسة
 البرهان والجدل والخطابة والنهر والسفسطة وربما يلم بعضهم بالسفسطة المأما
 وأغفلوها كأن لم تكن وهي المهم المعتمد في الفن ثم تكلموا فيما وضموه من ذلك
 كلاما مستجرا ونظروا فيه من حيث أنه فن برأسه لا من حيث أنه آلة للعلوم فقال
 الكلام فيه واتسع وأقول من فعل ذلك الإمام فخر الدين بن الخطيب ومن بعده أفضل
 الدين الخونجى وعلى كعبه معتمد المشاركة لهذا العهد وفي هذه الصناعة كتاب
 كشف الاسرار وهو طويل واختصر فيها مختصر المبرز وهو حسن في التعليم ثم
 مختصر الجمل في قدر أربعة أوراق أخذ بجامع الفن وأصوله فتداوله المتعلمون لهذا
 العهد فينتفعون به وهجرت كتب المتقدمين وطرقهم كأن لم تكن وهي معلقة من ثمرة
 المناطق وفائدته كما قلناه والله الهادي للصواب

وهو علم يبحث عن الجسم من جهة ما يلحقه من الحركة والسكون فينظر في الاجسام
 السماوية والشمسية وما يترتب عنهما من حيوان وانسان ونبات ومعادن وما يتكون

في الارض من العيون والزلازل وفي الجوف من السحاب والبخار والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك وفي مبدأ الحركة للجسام وهو النفس على تنوعها في الانسان والحيوان والنبات وكتب ارسطو فيهم وجوده بين ايدى الناس ترجمت مع ما ترجم من علوم الفلاسفة أيام المأمون وألف الناس على حذوها وأوعب من ألف في ذلك ابن سينا في كتاب الشفاء جمع فيه العلوم السبعة للفلاسفة كما قدمنا ثم خصه في كتاب النباه وفي كتاب الاشارات وكأنه يحالف ارسطو في الكثير من مسائلها ويقول برأيه فيها وأما ابن رشد فلخص كتب ارسطو وشرحها متبعاً له غير مخالف وألف الناس في ذلك كثيراً لكن هذه هي المشهورة لهذا العهد والمعتبرة في الصناعة ولاهل المشرق عناية بكتاب الاشارات لابن عينا وللإمام ابن الخطيب عليه شرح حسن وكذا الآمدى وشرحه أيضاً نصير الدين الطوسي المعروف بمخواجه من أهل المشرق وبمجمع الامام في كثير من مسائله فأوفى على اقطاره وبحوثه وفوق كل ذي علم عليم والله يهدي من يشاء الى صراط مستقيم

(علم الطب)

١٩

ومن فروع الطبيعيات صناعة الطب وهي صناعة تنظر في بدن الانسان من حيث يمرض ويصح فيحاول ما احبها حفظ الصحة وبرء المرض بالادوية والاعذية بعد أن يتبين المرض الذي يخص كل عضو من أعضاء البدن وأسباب تلك الامراض التي تنشأ عنها ومالك مرض من الادوية مستدلين على ذلك بأمرجة الادوية وقراها وعلى المرض بالعلامات المؤذنة بنخجه وقبوله الدواء أو لا في السجية والفضلات والنبس مما ذين لذلك قوة الطبيعة فانها المدبرة في حالتها والصحة والمرض وانما الطبيب بما ذبها ويعينها بعض الشيء بحسب ما تقتضيه طبيعة المادة والفصل والسن ويسمى العلم الجامع لهذا كله علم الطب ويرجم بالافرد وبعض الاعضاء بالكلام ووجه لوه علمنا خاصا كالعين وعلاها وأكحالها وكذلك ألقوا بالفن من منافع الاعضاء ومعناها المنفعة التي لاجلها خلق كل عضو من أعضاء البدن الحيواني وان لم يكن ذلك من موضوع علم الطب الا أنهم جعلوه من لواحقه ونوابغه وامام هذه الصناعة التي ترجمت كتبه فيها من الاقدمين جالينوس يقال انه كان معاصر العيسى عليه السلام ويقال انه مات بعقلية في سبيل تغلب ومطاعة اعتراب وتاكيفه فيها هي الاتمتهات التي اقتدى بها جميع الاطباء بعده وكان في الاسلام في هذه الصناعة أئمة جاؤا من وراء العناية مثل الرازي والهجوسي وابن سينا ومن أهل الاندلس أيضا كثير وأشهرهم ابن زهر وهو لهذا العهد في المدن

الاسلامية كانت انقصت لوقوف العمران وتناقصه وهي من الصنائع التي
لا تستدعيها الا الحضارة والترقي كما بينه بعد

(فصل) وللبادية من اهل العمران طب ينون في غالب الامر على تجربة قاصرة
على بعض الاخصاص متوارثا عن مشايخ الحلي وبجائزه وربما يصح منه البعض الا
انه ليس على قانون طبيعي ولا على موافقة المزاج وكان عند العرب من هذا الطب
كثير وكان فيهم اطباء معروفون كالحرث بن كلدة وغيره والطب المنقول في
الشرعيات من هذا القبيل وليس من الرخي في شي وانما هو امر كلن عاديا للعرب ووقع
في ذكر احوال النبي صلى الله عليه وسلم من نوع ذكر احواله التي هي عادة وجبلة
لا من جهة ان ذلك مشروع على ذلك النحو من العمل فانه صلى الله عليه وسلم انما بعث
ليعلمنا الشرائع ولم يبعث لتعريف الطب ولا غيره من العباديات وقد وقع له في شأن
تلقح النخل ما وقع فقال انتم اعلم بامور دنياكم فلا ينبغي ان يحمل شي من الطب
الذي وقع في الاحاديث العجيبة المنقولة على انه مشروع فليس هناك ما يدل عليه
اللهم الا اذا استعمل على جهة التبرك وصدق العقد الايماني فكون له اثر عظيم في
النتفع وليس ذلك في الطب المزاجي وانما هو من آثار الكلمة الايمانية كما وقع في مداواة
المبطلون بالعسل والله الهادي الى الصواب لا رب سواه

٢٠ (الفلاحة)

هذه الصناعة من فروع الطبيعيات وهي النظر في النبات من حيث تنبته ونشوئه بالسقي
والاملاح وتعهده بمثل ذلك وكان للمتقدمين بها عناية كثيرة وكان النظر فيها عندهم
عاما في النبات من جهة غرسه وتنبيهه ومن جهة خواصه وروحانيته ومشاكلاتها
لروحانيات الكواكب وانها كل المستعمل ذلك كله في باب السحر فحفظت عنايتهم
به لاجل ذلك وترجم من كتب اليونانيين كتاب الفلاحة التبطينية منسوبة لعلمه
النبط مشتملة من ذلك على علم كبير ولما نظر اهل الملل فيما اشتمل عليه هذا الكتاب
وكان باب السحر مسدودا والنظر فيه محظورا فافتدروا منه على الكلام في النبات من
جهة غرسه وعلاجه وما يعرض له في ذلك وحذفوا الكلام في الفن الاخر منه جملة
واختصر ابن العوام كتاب الفلاحة التبطينية على هذا المنهاج وبقى الفن الاخر منه
مغفلا نقل منه مسئلة في كبة السحرية اتمها من مسائله كما ذكره عند الكلام على
السحر ان شاء الله تعالى وكتب المتأخرين في الفلاحة كثيرة ولا يعدون فيها الكلام
في الفراس والعلاج وحفظ النبات من حوائجهم وعوائقه وما يعرض في ذلك كله

وهو علم ينظر في الوجود المطاق فأولا في الامور انعمادة للجسمانيات والروحانيات من
 الماهيات والوحدة والكثرة والوجوب والامكان وغير ذلك ثم ينظر في مبادئ
 الموجودات وانهار روحانيات ثم في كيفية صدور الموجودات عنها ومراتبها ثم في احوال
 النفس بعد مفارقة الاجسام وعودها الى المبدأ وهو عندهم علم شريف يرعون أنه
 يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه وان ذلك عين السعادة في زعمهم وسيأتي الرد
 عليهم وهو تال للطبيعيات في ترتيبهم ولذلك يسهونه علم ما وراء الطبيعة وكتب المعلم
 الاقل فيه موجوده بين أيدي الناس ونلخصه ان سينا في كتاب الشفاء والنجاء وكذلك
 لخصه ابن رشد من حكايا الاندلس وما وضع المتأخرون في علوم القوم ودونوا فيها ورث
 عليهم الغزالي ما رث منها ثم خلط المتأخرون من المتكلمين مسائل علم الكلام بمسائل
 الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الالهيات ومسائله
 بمسائلها فصارت كأنهم افن واحد ثم غيروا ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات
 والالهيات وخطاوه ما افنا واحدا فقدموا الكلام في الامور العامة ثم اتبعوه
 بالجسمانيات وتوابعها ثم باروحانيات وتوابعها الى آخر العلم كما فعله الامام بن الخطيب
 في المباحث المشرقية وجميع من بعده من علماء الكلام وصار علم الكلام مختلطا
 بمسائل الحكمة وكتبه محشوة بها كان الغرض من موضوعها ومسائلها واحدا
 والتبس ذلك على الناس وهو غير صواب لان مسائل علم الكلام انما هي عقائد متافاة
 من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها الى العقل ولانه ويل عليه بمعنى
 اسمها تثبت الابه فان العقل معزول عن الشرع وانظاره وما يتحدث فيه المتكلمون
 من اقامة الحجج فليس بجناح الحق فيها فالتعديل بالدليل بعد ان لم يكن معلوما هو شار
 الفلسفة بل انما هو الناس حجة عقلية تعضد عقائد الايمان ومذاهب السلف فيها وتدفع
 شبه أهل البدع عنها الذين زعموا ان مداركهم فيها عقلية وذلك بعد ان تفرض صحة
 بالدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها وكثيرا بين المقامين وذلك ان مدارك
 صاحب الشريعة اوسع لاتساع نطاقها عن مداركنا لانظار العقلية فهي فوقها
 ومحيطه بها الاستمدادها من الانوار الالهية فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيفا
 والمدارك المحاط بها فاذا هدا لنا النار الى مدركها فنبين في ان يتقدم علم مدارك
 نتوبه دونها ولا تنظر في نصيحة مدارك العقل ولو عارضه بل نعمد امرنا به اعتقادا

وعلمنا ونسكت عما نفهم من ذلك ونفوضه الى الشارع ونعزل العقل عنه
 والمتكلمون انما دعاهم الى ذلك كلام أهل الاتحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع
 النظرية فاحتاجوا الى الرد عليهم من جنس معارضاتهم واسم تدعى ذلك الحجج النظرية
 ومحاذاة العقائد السلفية بها وأما النظر في مسائل الطبيعيات والاهيات بالصحيح
 والبطلان فليس من موضوع علم الكلام ولا من جنس انظار المتكلمين فاعلم ذلك لتميز
 به بين الفئتين فانهم ما مختلطان عند المتأخرين في الوضع والتأليف والحق مغايرة كل
 منهما لصاحبه بالموضوع والمسائل وانما جاء الالتباس من اتحاد المطالب عند
 الاستدلال وصار احتجاج أهل الكلام كأنه انشاء لطالب الاعتدال بالدليل وليس
 كذلك بل انما هو رد على الملحدين والمطلوب مفروض الصدق معلوم وكذلك جاء
 المتأخرون من غلاة المتصوفة المتكلمين بالمواجد أيضا لخطاوا مسائل الفئتين بفهم
 وجعلوا الكلام واحدا فيها كلها مثل كلامهم في النبوات والاتحاد والخلول والوحدة
 وغير ذلك والمدارك في هذه الفنون الثلاثة متغايرة مختلفة وابتدعها من جنس الفنون
 والعلوم مدارك المتصوفة لانهم يدعون فيها الوجدان وينرون عن الدليل والوجدان
 بعيد عن المدارك العلمية واجماتها وتوابعها كما بيناه ونبينه والله يهدي من يشاء الى
 صراط مستقيم والله أعلم بالصواب

٢٢ (علوم السحر والطلسمات)

هو علم بكيفية استعدادات تقدر النفوس البشرية بهيئة على التأثيرات في عالم
 العناصر ما بغير معين أو معين من الامور السماوية والاقبل هو السحر والثاني هو
 الطلسمات والثالث كانت هذه العلوم هجورة عند الشرائع فيها من الضرر ولما
 يشترط فيها من الوجهة الى غير الله من كوكب أو غيره كانت كتبها كالمفقود بين الناس
 الا ما وجد في كتب الامم الاقدمين فيما قبل نبوة موسى عليه السلام مثل التبط
 والكلدانيين فان جميع من تقدمه من الانبياء لم يشرعوا الشرائع ولا جاؤا بالاحكام
 انما كانت كتبهم مواعظ وتوحيد الله وتذكري الجنة والنار وكانت هذه العلوم في
 أهل بابل من السريانيين والكلدانيين وفي أهل مصر من التبط وغيرهم وكان لهم فيها
 التأليف والآثار ولم يترجم لناس من كتبهم فيها الا القليل مثل الفلاحة النبطية
 من أوضاع أهل بابل فأخذ الناس منها هذا العلم وتفننوا فيه ووضعت بعد ذلك
 الاوضاع مثل مصاحف الكواكب السبعة وكتاب طه طم الهندي في صور البرج
 والكواكب وغيرهم ثم ظهر بالمشرق جابر بن حيان كبير السحرة في هذه الملة فتصنف

كتب القوم واستخرج الصناعة وغاص على زبدتها واستخرجها ووضع فيها غير ما من
التأثيرات كثر الكلام فيها وفي صناعة السيمياء لانها من نوابغها الان احالة الاجسام
النوعية من صورة الى اخرى انما يكون بالقوة النفسانية لا بالصناعة العملية فهو من
قبيل السحر كما نذكره في موضعه * ثم جاءه سلمة بن أحمد الجبري اعلى امام اهل
الاندلس في التعاليم والسعريات فخلص جميع تلك الكتب وهدبها وجمع طرقها في
كتاب الذي سماه غاية الحكيم ولم يكتب احد في هذا العلم بعده * وان تقدم هنا مقدمة
تبين بها حقيقة السحر وذلك ان النفوس البشرية وان كانت واحدة بالنوع فهي
مختلفة بالخواص وهي اصناف كل صنف مختص بخاصية واحدة بالنوع لا توجد في
الصنف الاخر وصارت تلك الخواص فطرة وجبلة لصنفها فنفس الانبياء عليهم
الصلاة والسلام لها خاصية تستعذبهم بالمعرفة الربانية ومخاطبة الملائكة عليهم
السلام عن الله سبحانه وتعالى كما ترى وما يتبع ذلك من التأثير في الاكوان واستجلاب
روحانية الكواكب للتصرف فيها والتأثير بقوة نفسانية او شيطانية فاما تأثير
الانبياء فدالهي وخاصية ربانية ونفوس الكهنة لها خاصية الاطلاع على المغيبات
بقوى شيطانية وهكذا كل صنف مختص بخاصية لا توجد في الاخر والنفوس الساحرة
على مراتب ثلاثة ياتي شرحها فاولها المؤثرة بالهمة فتمن غير آله ولا معين وهذا هو
الذي تسميه الفلاسفة السحر والثاني معين من مزاج الافلاك والعناصر وخواص
الاعداد ويسمونه الطلسمات وهو اضعف رتبة من الاول والثالث تأثير في القوى
المخيلة يعتمد صاحب هذا التأثير في القوى المخيلة في تصرفها بوجع من التصرف
ويلقى فيها انواعا من الخيالات والمحاكات وصورا مما يتصده من ذلك ثم ينزلها الى الحس
من الراتبين بقوة تنسب المؤثرة فيه فينظر الراون كأنها في الخارج وليس هنالك شيء من
ذلك كما يحكى عن بعضهم انه يرى البساتين والانهار والقصور وليس هنالك شيء من ذلك
ويسمى هذا عند الفلاسفة الشعوذة والشعوذة هذا تفصيل مراتبه ثم هذه الخاصية
تكون في الساحر بالقوة شأن القوى البشرية كلها وانما تخرج الى الفعل بالرياضة
وربما السحر كلها انما تكون بالتوجه الى الافلاك والكواكب والعوالم العلوية
والشيطانية بانواع التعظيم والعبادة والخضوع والتذلل فهي لذلك وجهة الى غير الله
وسجود له والوجهة الى غير الله كفر فلماذا كان السحر ككفر او الكفر من مواده واسبابه كما
رايت ونهدا الخلف الفقهاء في قتل الساحر هل هو ليكفره السابق عن فعله او
لتصرفه بالافساد وما ينشأ عنه من الفساد في الاكوان والكل حاصل منه ولما كانت
المرتبتان الاوليان من السحرها حقيقة في الخارج والمرتبة الاخيرة الثالثة

لاحقيقة انها اختلف العلماء في السحر هل هو حقيقة أو انما هو تخييل فالقائلون بأن له
 حقيقة نظروا الى المرتبتين الاولين والقائلون بأن لاحقيقة له نظروا الى المرتبة الثالثة
 الاخيرة فليس بينهم اختلاف في نفس الامر بل انما جاء من قبل اشتباه هذه
 المراتب والله أعلم * واعلم أن وجود السحر لامرية فيه بين العقلاء من أجل
 التأثير الذي ذكرناه وقد نطق به القرآن قال الله تعالى ولكن الشياطين كفروا يعلمون
 الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى
 يقولوا انما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهم ما ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم
 بضارين به من أحد الا باذن الله وسحر رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى كان يخيل
 اليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله وجعل سحره في مشط ومشاقة وجف طلعة ودفن في
 برذروان فأنزل الله عز وجل عليه في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت
 عائشة رضي الله عنها فكان لا يقرأ على عقدة من تلك العقد التي سحر فيها الا انحلت وأما
 وجود السحر في أهل بابل وهم الكلدانيون من النبط والسريانيين فكثير ونطق به
 القرآن وجاءت به الاخبار وكان للسحر في بابل ومصر أزمان بعثة موسى عليه السلام
 أسواق نافقة ولهذا كانت معجزة موسى من جنس ما يدعون ويتناغون فيه وبقى
 من آثار ذلك في البرابي بصع يد مصر شواهد دالة على ذلك ورأينا بالبيان من
 بصور صورة الشخص المسحور بخواص أشياء متقابلة لما نواه وحاوله موجودة
 بالمسحور وأمثال تلك الماهاني من أسماء وصفات في التأليف والتفريق ثم يتكلم على
 تلك الصورة التي أقامها مقام الشخص المسحور عيناً أو دعوى ثم ينقث من ريقه
 بعد اجتماعه في فيه تكرير مخارج تلك الحروف من الكلام السوء ويعقد على ذلك
 المعنى في سبب أعداءه لذلك تفتاؤا لباله قد والالزام وأخذ العهد على من أشرك به من
 الجن في نفثه في فوهه ذلك استشهارة العزيزة بالعزم ولتلك البنية والأسماء السيئة روح
 خبيثة تخرج منه مع النفض متعلقة بريقه الخارج من فيه بالنفث فتزل عنها أرواح
 خبيثة ويقع عن ذلك بالمسحور ما يحاوله الساحر وشاهدنا أيضاً من المتعلمين
 للسحر وعمله من يشير الى كساء أو جلد ويتكلم عليه في سره فاذا هو متطوع متخرق
 ويشير الى بطون الغنم كذلك في مراعيها بالبعج فاذا معارها ساقطة من بطونها الى
 الارض ومعنا أن بأرض الهند لهذا العهد من يشير الى انسان فيتمت قلبه ويقع ميتا
 وينقب عن قلبه فلا يوجد في حشاها ويشير الى الرمانة وتفتح فلا يوجد من جوبها
 شيء وكذلك معنا أن بأرض السودان وأرض الترك من يسحر السحاب فيمطر الارض

المخصوصة وكذلك رأينا من عمل الطلسمات عجائب في الاعداد المتصاية وهي رك
 رفا أحد العددين مائتان وعشرون والآخر مائتان وأربعة وثمانون ومعنى
 المتصاية أن أجزاء كل واحد التي فيه من نصف وثلاث وربع وسدس وخمس وأمثالها
 اذا جمع كان مساويا للهـ عدد الاخر صاحبته فتسمى لاحل ذلك المتصاية ونقل أصحاب
 الطلسمات أن تلك الاعداد أثر في الالفة بين المتصايين واجتماعهما اذا وضع لهما
 مثالان أحدهما بطالع الزهرة وهي في بيتها وشرفها ناظرة الى القمر نظرمودة وقبول
 ويجعل طالع الثاني سابع الاول ويضع على أحد التمثالين أحد العددين والاخر على
 الاخر ويقصد بالاكثر الذي يراد ان تلافه أعني المحبوب ما أدري الاكثر كنية أو
 الاكثر أجزاء فيكون لذلك من التأليف العظيم بين المتصايين ما لا يكاد يتفك أحدهما
 عن الاخر قاله صاحب الغاية وغيره من أئمة هذا الشأن وشهدت له التجربة وكذا
 طابع الاسد ويسمى أيضا طابع الحصى وهو أن يرسم في قالب فصد اصبع صورة أسد
 ثلاثا ذنبه ماضا على حصة قد قسمها بنصفين وبين يديه صورة حية مناسبة من رجليه الى
 قبالة وجهه فاغرة فاها الى فيه وعلى ظهره صورة عقرب تدب ويتحين برسمه حلول
 الشمس بالوجه الاول أو الثالث من الاسد بشرط صلاح النيرين وسلامتهما من
 النحوس فاذا وجد ذلك وعثر عليه طبع في ذلك الوقت في مقدار المثقال فسادونه من
 الذهب ونمس بعد في الزعفران محلولا بماء الورد ورفع في خرقة حرير صفراء فانهم
 يزعمون أن له مسكه من العز على السلاطين في مباشرتهم وخدمتهم وتسخيرهم له ما لا يعبر
 عنه وكذلك للسلاطين فيه من القوة والعز على من تحت أيديهم ذكر ذلك أيضا أهل
 هذا الشأن في الغاية وغيرها وشهدت له التجربة وكذلك وفق المستدس المختص
 بالشمس ذكر والله يوضع عند حلول الشمس في شرفها وسلامتها من النحوس وسلامة
 القمر بطالع ملوكي يمتد بر فيه نظر صاحب العاشر لصاحب الطالع نظرمودة وقبول
 ويصلح فيه ما يكون في مواليد الملوك من الادلة الشريفة ويرفع في خرقة حرير صفراء
 بعد أن ينمس في الطيب فرعوا أن له أثر في صحابة الملوك وخدمتهم ودمعاشرتهم وأمثال
 ذلك كثير وكتاب الغاية لمسلمة بن أحمد الجربطي هو مدونة هذه الصناعة وفيه استيفاءها
 وكال مسائنها وذكر لنا أن الامام الفخر بن الخطيب وضع كتابا في ذلك وعماه بالشمس
 المكتوم وأنه بالمشرق يتداوله أدله ونحن لم نقف عليه والامام لم يكن من أئمة هذا الشأن
 فيما نظن ولعل الامر بخلاف ذلك وبالمغرب صنف من هؤلاء المتبحرين لهذه الاعمال
 السحرية يعرفون بالعاجين وهم الذين ذكرت أولا أنهم يشيرون الى الكساة أو الجند
 فيخترق ويشيرون الى بطون الغنم بالبعج فتبعج ويسمى أحدهم لهذا العهد باسم

البعاج لان أكثر ما يتحمل من السحر بعج الانعام يربى بذلك أهلها يعطوه من فضلها
 وهم مستترون بذلك في الغاية خوفا على أنفسهم من الحكام لقيت منهم جماعة وشاهدت
 من أفعالهم هذه بذلك وأخبرني أن لهم وجهة ورياضة خاصة بدعوات ككفرية
 واشراك الروحانيات الجن والكواكب سطرت فيها صحيفة عندهم تسمى الخزيرية
 يتدارسونها وان بهذه الرياضة والوجهة يصلون الى حصول هذه الأفعال لهم وان
 التأثير الذي لهم انما هو فيما سوى الانسان المحترم المتاع والحيوان والرقبى ويعبرون
 عن ذلك بقولهم انما فعل فيما تشى فيه الدراهم أى ما يملك ويبيع ويشترى من سائر
 المملكات هذا ما زعموه وسألت بعضهم فاخبرني به وأما أفعالهم فظاهرة وجودة وقفنا
 على الكثير منها وعما ينتها من غيرية في ذلك هذا شأن السحر والطلسمات وآثارهما في
 العالم أما الفلاسفة ففرقوا بين السحر والطلسمات بعد أن أثبتوا أنهما جميعا أثر للنفس
 الانسانية واستدلوا على وجود الأثر للنفس الانسانية بأن لهما آثارا في بدنهما على غير
 المجرى الطبيعي وأسبابه الجسمانية بل آثارا عارضة من ككفيات الأرواح تارة
 كالصفونة الحادثة عن الفرح والسرور ومن جهة التصورات النفسانية أخرى
 كالذى يقع من قبل التوهم فان الماشى على حرف حائط أو على جبل منتصب اذا قوى
 عنده توهم السقوط سقط بلا شك وهذا تجد كثيرا من الناس يعودون أنفسهم ذلك
 حتى يذهب عنهم هذا الوهم فتجدهم يمشون على حرف الحائط والجبل المنتصب
 ولا يخافون السقوط فثبت أن ذلك من آثار النفس الانسانية وتصورها للسقوط من
 أجل الوهم واذا كان ذلك اثر للنفس في بدنهما من غير الأسباب الجسمانية الطبيعية
 فحازر أن يكون لها مثل هذا الاثر في غير بدنهما اذ نسبتها الى الأبدان في ذلك النوع من
 التأثير واحدة لانها غير حالة في البدن ولا منطبعة فيه فثبت أنهما مؤثرة في سائر الاجسام
 وأما التفرقة عندهم بين السحر والطلسمات فهو ان السحر لا يحتاج الساحر فيه الى
 معين وصاحب الطلسمات يستعين بروحانيات الكواكب وأسرار الاعداد وخواص
 الموجودات وأوضاع الفلك المؤثرة في عالم العناصر كما يتوله المنجمون ويقولون السحر
 اتحاد روح بروح والطلسم اتحاد روح بجسم ومعناه عندهم ربط الطبائع العلوية
 السماوية بالطبائع السفلية والطبائع العلوية هي روحانيات الكواكب ولذلك
 يستعين صاحبها في غالب الامر بالنجامة والساحر عندهم غير مكسب لسحره بل هو
 فقطور عندهم على تلك الجبله المختصة بذلك النوع من التأثير والفرق عندهم بين
 المعجزة والسحر ان المعجزة قوة الهية تبعث في النفس ذلك التأثير فهو ويدبر روح الله
 على فعائه ذلك الساحر انما يفعل ذلك من عند نفسه وبقوته النفسانية وبامداد

الشياطين في بعض الاحوال فيبينهما الفرق في المعقولية والحقيقة والذات في نفس
 الامر وانما استدلل نحن على التفرقة بالعلامات الظاهرة وهي وجود المعجزة لصاحب
 الخيرو في مقامه الخيرو وللنفوس المتمحضة للخير والتعدي بهم على دعوى النبوة والسحر
 انما يوجد لصاحب الشر وفي افعال الشر في الغالب من التفرقة بين الزوجين وضرر
 الاعداء وامثال ذلك وللنفوس المتمحضة للشر هذا هو الفرق بينهما عند الحكماء الالهيين
 وقد يوجد لبعض المتسوفة واصحاب الكرامات تأثيرا في احوال العالم وليس
 معدودا من جنس السحر وانما هو بالامداد الالهى لان طريقهم ونحلتهم من آثار
 النبوة وتوابعها اولهم في المدد الالهى حفظ على قدر حالهم وایمانهم وتمسكهم بكلمة الله
 واذا اقتدر احد منهم على افعال الشر فلا يأتيتها لانه متقيد فيما ياتيه ويذره للامر
 الالهى فما يقع اهم فيه الاذن لا يأتونه بوجه ومن اتاه منهم فقد عدل عن طريق الحق
 وربما سلب حاله وانما كانت المعجزة بامداد روح الله والقوى الالهية فلذلك لا يمارسها
 شئ من السحر وانظر شأن سحرة فرعون مع موسى في معجزة العصا كيف تاقفت
 ما كانوا يافكون وذهب سحرهم واضمحلت كما لم يكن وكذلك لما انزل على النبي
 صلى الله عليه وسلم في المعوذتين ومن شر النفاثات في العقد قالت عائشة رضی الله عنها
 فكان لا يقرؤها على عقد من العقد التي سحر فيها الا انحلت فالسحر لا يثبت مع اسم الله
 وذكره وقد نقل المورخون أن زركش كاويان وهي راية كسرى كان فيها الوفق المثيق
 العددي منسوجا بالذهب في اوضاع فلكية رسمت لذلك الوفق ووجدت الاية يوم
 قتل رسم بالقادسية واقعة على الارض بعد انهزام أهل فارس وشناتهم وهو فيما تزعم
 أهل الطلسمات والافاق مخصوص بالغلب في الحروب وأن الاية التي يكون فيها أو
 معها لا تنهزم أصلا الا أن هذه عارضها المدد الالهى من ايمان اصحاب رسول الله صلى
 الله عليه وسلم وتمسكهم بكلمة الله فانحل معها كل عقد سحري ولم يثبت وبطل ما كانوا
 يعملون وانما الشر بعة فلم تفرق بين السحر والطلسمات وجعلته كله بابا واحدا محظورا
 لان الافعال انما اباح انما الشارح منها ما يهمني في ديننا الذي فيه صلاح آخرتنا أو
 في معاشنا الذي فيه صلاح ديننا وما لا يهمني في شئ منهما فان كان فيه ضرر أو نوع ضرر
 كالسحر الحاصل ضرره بالوقوع و يلحق به الطلسمات لان اثرهما واحد كالنجاسة التي
 فيها نوع ضرر بامتقاد التأثير ففسد العقيدة الايمانية برد الامور الى غير الله فيكون
 حينئذ ذلك الفعل محظورا على نسبته في الضرر وان لم يكن مهما علينا ولا فيه ضرر فلا
 أقل من أن تركه قربة الى الله فان من حسن اسلام المرء تركه ما لا يعنيه فجعلت الشريعة
 باب السحر والطلسمات والشعوذة بابا واحدا لما فيها من الضرر وخصته بالخطر

والتصريح وأما الفرق عندهم بين المعجزة والسحر فالذي ذكره المتكلمون انه راجع الى التصدي وهو دعوى وقوعها على وفق ما ادعاه فالواو الساحر مصروف عن مثل هذا التصدي فلا يقع منه ووقوع المعجزة على وفق دعوى الكاذب غير مقدور لان دلالة المعجزة على الصدق عقلية لان صفة نفسها التصديق فالوقوع مع الكاذب لاستحالة الصادق كاذبا وهو محال فاذا الاتقع المعجزة مع الكاذب باطلاق وأما الحكماء فالفرق بينهما عندهم كما ذكرناه فرق ما بين الخير والشر في نهاية الطرفين فالساحر لا يصدر منه الخير ولا يستعمل في أسباب الخير وصاحب المعجزة لا يصدر منه الشر ولا يستعمل في أسباب الشر وكأنهما على طرفي النقيض في أصل فطرتهما والله يهدي من يشاء وهو القوي العزيز لا رب سواه

(فصل) ومن قبيل هذه التأثيرات النفسانية الاصابة بالعين وهو تأثير من نفس المعيان عندما يستحسن بعينه مدركا من الذوات أو الاحوال ويفرط في استحصانه ويشأ عن ذلك الاستحصان حينئذ أنه يروم معه سلب ذلك الشيء عن اتصف به فيؤثر فسادا وهو جبهة فطرية أعني هذه الاصابة بالعين والفرق بينها وبين التأثيرات وان كان منها ما لا يكسب أن صدورها راجع الى اختيار فاعلمها والفطري منها قوة صدورها لانفس صدورها وهذا قالوا القاتل بالسحر أو بالكرامة يتتل والقاتل بالعين لا يقتل وما ذلك الا لانه ليس مما يريده ويقصده أو يتركه وانما هو مجبور في صدور عنه والله أعلم بما في الغيوب ومطلع على ما في السرائر

(علم اسرار الحروف)

٢٣

وهو المسمى اهذه العهد بالسميات نقل وضعه من الطلسمات اليه في اصطلاح أهل التصرف من المتصوفة فاستعمل استعمال العام في الخاص وحدث هذا العلم في الملة بعد صدرنها وعند ظهور الغلاة من المتصوفة وجنوحهم الى كشف حجاب الحس وظهور الخوارق على أيديهم والتصرفات في عالم العناصر وتدوين الكتب والاصطلاحات ومن اعلمهم في تنزل الوجود عن الواحد وترتيبه وزعموا أن الكمال الاسمائي مظاهره ارواح الافلاك والكواكب وأن طبائع الحروف واسرارها سارية في الاسماء فهي سارية في الاكوان على هذا النظام والاكوان من لدن الابداع الاقل تنقل في اطواره وتعرب عن أسرارها لحدث لذلك علم أسرار الحروف وهو من تفاريع علم السميات لا يوقف على موضوعه ولا يتخاط بالعدد مسائله تعددت فيه تآليف البوني وابن العربي وغيرهما من اتباع آثارهما وحاصله عندهم وعمرة تصريف النفوس الربانية في عالم

الطبيعة بالاسماء الحسنى والكلمات الالهية الناشئة عن الحروف المحيطة بالاسرار
النارية في الاكوان ثم اختلفوا في سر التصرف الذي في الحروف بما هو وقتهم من
جعل له مزاج الذي فيه وقسم الحروف بقسمة الطبائع الى اربعة اصناف كما للعناصر
واختصت كل طبيعة بصنف من الحروف يقع التصرف في طبيعتها فعلا وانفعالا
بذلك الصنف فتنوعت الحروف بقانون صناعتى يسمونه التفسير الى نارية وهوائية
ومائية وترايبية على حسب تنوع العناصر فالالف للنار والباء للهواء والجيم للماء
والدال للتراب ثم ترجع كذلك على التوالي من الحروف والعناصر الى ان تنفذ فتعين
لعنصر النار حروف سبعة الالف والهاء والطاء والميم والفاء والسين والذال وتعين
لعنصر الهواء سبعة ايضا الباء والواو والياء والنون والصاد والتاء والظاء وتعين لعنصر
الماء ايضا سبعة الجيم والزاي والكاف والصاد والقاف والثاء والغين وتعين لعنصر
التراب ايضا سبعة الدال والحاء واللام والعين والراء والحاء والشين والحروف النارية
لدفع الامراض الباردة ولضاعفة قوة الحرارة حيث تطلب مضاعفتها محسناً وحكماً
كما في تضعيف قوى المريح في الحروب والقتل والفتك والمائية ايضا لدفع الامراض
الحارة من حميات وغيرها واتضعف القوى الباردة حيث تطلب مضاعفتها محسناً وحكماً
كما كتضعيف قوى القمر وامثال ذلك ومنهم من جعل سر التصرف الذي في الحروف
لنسبة العددية فان حروف ابجد الة على اعدادها المتعارفة وضعا وطبعاً فيبينها من
اجل تناسب الاعداد تناسب في نفسها ايضا كما بين الباء والكاف والراء لدلالاتها كلها
على الاثنى عشر كل في مرتبة فالباء على اثنى عشر في مرتبة الاحاد والكاف على اثنى
عشر في مرتبة العشرات والراء على اثنى عشر في مرتبة المئين وكالذى بينها وبين الدال والميم
والثاء لدلالاتها على الاربعة وبين الاربعة والاثنى عشر الضعف وخرج للاسماء اوافق
كالا لاعداد يختص كل صنف من الحروف بصنف من الاوافق الذى يناسبه من حيث
عدد الشكل او عدد الحروف وامتزج التصرف من السر الحرفى والسر العددى لاجل
التناسب الذى بينهما فاما سر التناسب الذى بين هذه الحروف وامتزج الطبائع او بين
الحروف والاعداد فامر عسر على الفهم اذ ليس من قبيل المعلوم والقياسات وانما
مستندهم فيه الذوق والكشف قال البونى ولا تظن ان سر الحروف مما يتوصل اليه
بالقياس العقلى وانما هو بطريق المشاهدة والتوفيق الالهى واما التصرف فى عالم
الطبيعة بهذه الحروف والاسماء المركبة فيها وتأثر الاكوان من ذلك فامر لا يشكر
لثبوتها عن كثير منهم توأرا وقد يظن ان تصرف هؤلاء ونصرف اصحاب الطليمان
واحد وليس كذلك فان حقيقة الطليمان وتأثيره على ما حققه اهل انه قوى روحانية من

وهو القهر تفعل فيما له ركب فعل غلبة وقهر بأسرار فلكية ونسب عددية وبخورات
جالات لروحانية ذاك الطلسم مشدودة فيه بالهمة فأندتها ربط الطبايع العلوية
بالطبايع السفلية وهو عندهم كالجيرة المرصبة من هوائية وأرضية ومائية وناارية
حاصلة في جملتها تحيل وتصرف ما حصلت فيه إلى ذاتها وتقلبها إلى صورتها وكذلك
الأكبر للأجسام المعدنية كالجيرة تقلب المعدن الذي تسرى فيه إلى تقسيمها بالأحالة
ولذلك يقولون موضوع الكيمياء جسد في جسد لأن الأكسير أجزاءه كلها جسدانية
ويقولون موضوع الطلسم روح في جسد لأنه ربط الطبايع العلوية بالطبايع السفلية
والطبايع السفلية جسد والطبايع العلوية روحانية وتحقيق الفرق بين تصرف أهل
الطلسمات وأهل الاسماء بعد أن تعلم أن التصرف في عالم الطبيعة كله انما هو للنفس
الانسانية والهمم البشرية ان النفس الانسانية محيطة بالطبيعة وحكمة عليها بالذات
الآن تصرف أهل الطلسمات انما هو في استئزال روحانية الافلاك وربطها بالصور أو
بالنسب العددية حتى يحصل من ذلك نوع مزاج يفعل الاحالة والقلب بطبيعته فعل
النجمة فيما حصلت فيه وتصرف أصحاب الاسماء انما هو بما حصل لهم بالمجاهدة والكشف
من النور الالهي والامداد الرباني فيسخر الطبيعة لذلك طائفة غير مستعصية ولا يحتاج
إلى مدد من القوى الفلكية ولا غيرها لان مدده أعلى منها ويحتاج أهل الطلسمات إلى
قليل من الرياضة تغيد النفس قوة على استئزال روحانية الافلاك وأهون بها وجهة
ورياضة بخلاف أهل الاسماء فان رياضتهم هي الرياضة الكبرى وليست لقصد
التصرف في الاكوان اذ هو بحجاب وانما التصرف حاصل لهم بالعرض كرامة من
كرامات الله لهم فان خلاص صاحب الاسماء عن معرفة أسرار الله وحقائق الملكوت
الذي هو نتيجة المشاهدة والكشف واقتصر على مناسبات الاسماء وطبايع الحروف
والكلمات وتصرفهم بها من هذه الحثية وهو لاهم أهل السيمياء في المشهور كان اذا
لا فرق بينه وبين صاحب الطلسمات بل صاحب الطلسمات أوثق منه لأنه يرجع إلى
أصول طبيعية علمية وقوانين مرتبة وأما صاحب اسرار الاسماء اذا فاته الكشف الذي
يطلع به على حقائق الكلمات وآثار المناسبات بقوات الخلوص في الوجهة وليس له
في العلوم الاصطلاحية قانون برهاني يقول عليه يكون حاله أضعف رتبة وقد يمزج
بما حب الاسماء قوى الكلمات والاسماء بقوى الكواكب فيعين لذكر الاسماء
الحسنى أو ما يرمي من أوقافها بل ولسائر الاسماء أوقافا تكون من حظوظ الكواكب
الذي يناسب ذلك الاسم كما فعله البوني في كتابه الذي سماه الاعطاط وهذه المناسبة عندهم
هي من لدن الحضرة العنمائية وهي برزخية الكمال الاسمانى وانما تنزل تفصيلها

في الحقائق على ما هي عليه من المناسبة واثبات هذه المناسبة عندهم انما هو بحكم
المشاهدة فاذا خلا صاحب الاسماء عن تلك المشاهدة وتبقى تلك المناسبة تقلدا
كان عمله بمثابة عمل صاحب الطاسم بل هو اوثق منه كما قلناه وكذلك قد يعزج أيضا
صاحب الطلسمات عمله وقوى كواكب به قوى الدعوات المؤلف من الكلمات
المخصوصة لمناسبة بين الكلمات والكواكب الا ان مناسبة الكلمات عندهم ليست كما
هي عند أصحاب الاسماء من الاطلاع في حال المشاهدة وانما يرجع الى ما اقتضته أصول
طريقتهم السهرية من اقتسام الكواكب لجميع ما في عالم المكونات من جواهر
واعراض وذوات ومعاني والحروف والاسماء من جملة ما فيه فلا وكل واحد من
الكواكب قسم منها يخصه وبينون على ذلك مباني غريبة منكرة من تقسيم سور
القرآن وآيه على هذا النحو كما فعله مسلمة المجرى في الغاية والظاهر من حال البوني
في انماطه أنه اعتبر طريقتهم فان تلك الانماط اذا تصفحت وتصفحت الدعوات التي
تضمنتها وتصفحت على ساعات الكواكب السبعة ثم وقفت على الغاية وتصفحت
قيامات الكواكب التي فيها وهي الدعوات التي تختص بكل كوكب يسمونها قيامات
الكواكب أي الدعوة التي يقام له بها شهد له ذلك اما بأنه من مادتها أو بأن التناسب
الذي كان في أصل الابداع وبرزخ العلم قضي بذلك كله وما أوتيت من العلم الا قليلا
وليس كل ما حرمة الشارع من العلوم بمنكر الثبوت فقد ثبت أن السحر حق مع حفظه
ليكن حسبا من العلم ما علمناه (ومن فروع علم السيمياء عندهم استخراج الاجوية من
الاسئلة) * بارتباطات بين الكلمات حرفية يوهمون أنها أصل في معرفة ما يحاولون
علمه من الكائنات الاستقبالية وانما هي شبه المعايير والمسائل السائلة واهم في ذلك
كلام كثير من أدعية وأعجبه زارحة العالم السبق وقد تقدم ذكرها ونبين هنا ما ذكره
في كيفية العمل بتلك الزارحة بدانيتها وجدواها المكتوب حولها ثم نكشف عن
الحق فيها وأنهم ليست من الغيب وانما هي مطابقة بين مسئلة وجوابها في الافادة فقط
وقد أشرنا الى ذلك من قبل وليس عندنا رواية يعول عليها في صحة هذه القصيدة الا
أنا نحرر بنا أصح النسخ منها في ظاهر الامر والله الموفق بمنه وهي هذه

يقول سـ يتيق ويحـ مدر به * وصل على هاد الى الناس أرسلا
محمد المبعوث خاتم الأنبياء * ويرضى عن العصب ومن لهم تلا
الاهذه زارحة العالم الذي * تراه بجميعكم وبالعقل قد حلا
فن أحكم الوضع فيحكم جسمه * ويدرك أحكاما تدبرها العلا
ومن أحكم الربط يدرك قوة * ويدرك للتقوى وللكل حصلا

ومن أحكم التصريف بحكم سره • ويعقل نفسه وسمع له الولا
 وفي عالم الامر تراه محققا • وهذامقام من بالاذكار كلا
 فهذى سرائر عليكم بكنهها • أتمها دوائر اولحاء عدلا
 فطاه لها عرش وفيه نقوشنا • بنظم ونثر قد تراه مجدولا
 ونسب دوائر كنسبة فلكنها • وارسم كواكب الادراجها الهلا
 وأخرج لاوتار وارسم حروفها • وكور بعثله على حد من خـلا
 أتم شكلكل زيرهم وسويونه • وحقق بهم سامهم ونورهم جلا
 وحصل علوما للطباع مهندسا • وعلم الموسيقى والارباع مثلا
 وسولوسيتي وعلم حروفهم • وعلم بالآلات فحقق وحصلا
 وسودوائر ونسب حروفها • وعالمها أطلق والاقليم جدولا
 أم — برلنا فهو نهاية دولة • زانية آبت وحكم لها خلا
 وقطر لاندلس فابن لهودهم • وجاء بنونصر وظهرهم تلا
 ملوك وفرسان واهل الحكمة • فان شئت نصهم وقطرهم جلا
 وهدى توحيد بتونس حكمهم • ملوك وبالشرق بالافاق نزلا
 واقسم على القطر وكن متفقدنا • فان شئت للروم فبالخرشكلا
 ففنز و برشنون الراء حرفهم • وافر نسـم دال وبالطاه كـلا
 ملوك كـناوة ودلول قافهم • واعراب قومنا بترقي اعلا
 فهذى دجباتى وسند فهرمس • وفرس ططارى وما بهدهم طلا
 فقيصرهم حاه ويزد جردهم • اكاف وقبطيم ـ م ـ بلامه طولا
 وعباس كلهم شريف معظم • ولا كن تركى بذالفعل عطلا
 فان شئت تدقيق الملوك وكلهم • نغم يونانهم نسب ووجه دولا
 على حكم قانون الحروف وعلمها • وعلم طبائعها و كـله مثلا
 من علم العلوم يعلم علمنا • ويعلم أسرار الوجودوا كـلا
 فيرمح علمه ويعرف ربه • وعلم لاجيم بحمامهم فصـلا
 وحيث أتى اسم والعروض يشقه • فحكم الحكيم فيه قطعا يقتلا
 وتأتيتك أحرف فسولضربها • وأحرف سيويه تأتيتك فيصلا
 فيكن بتسكير وقابل وعوضن • بتزيمك الغالى للاجزاء خللا
 وفي العقد والمجزور يعرف غالبا • وزد لمع وصفيه فى العقل فعلا
 واختر لطلع ويويه رتبة • واعكس بجذره وبالذور عدلا

ويدركها المرء فيبلغ قصده * وتعطى حروفها وفي نظامها الفجلا
 اذا كان سعدوا الكواكب أسعدت * فحسبك في الملك ونيل اسمه العلا
 وايقاع دالهم بحر موزونة * فنسب دنادينا تجد فيه منها
 وأوتار زبرهم فللعا بهم * ومثناهم المثلث بجيمه قد جلا
 وأدخل بأفلاله وعدل بجداول * وارسم أباجادوباقية جلا
 وجوز شذوذ الصورتجري ومثله * أتى في عروض الشعر عن جلة سلا
 فأصل لدينا وأصل لفقهننا * وعلم لهونا فاحفظ وحصولا
 فادخل لسطاط على الوفق جذره * وسبح باسمه وكبروه هلا
 فتخرج آياتا وفي ككل مطلب * بنظم طبيعي وسر من العلا
 وتغني بمصرها كذا حكم عدهم * فعلم الفواتج ترى فيه نهلا
 فتخرج آياتا وعشرون ضعفت * من الالف طبعا في اصاح جدولا
 تريك صنائعا من الضرب اكلت * فصح لك المنى وصح لك العلا
 وسبع بزبرهم وأثنى بنقرة * أفهادوا الزير وحده سلا
 أفها بأوفاق وأصل اعدها * من اسرار أحرفهم فعبده سلسلا
 ك ك و ك ح و ا ه عم ل ر ل اس ك ك ط ا ل م ن ح ع ف و ل
 منافرة

الكلام على استخراج نسبة الاوزان وكيفية تمامه ومقادير المقابل منها وقوة الدرجة المتميزة
 بالنسبة الى موضع المطلق من امتزاج طبائع وعلم طب اصناعه الكيميا

أيا طالب اللطب مع علم جابر * وعالم مقدار المقادير بالولا
 اذا شئت علم الطب لا بد نسبة * لاحكام ميزان تصادف منها
 فيشقى عليك والاكسير محكم * وأمزاج وضعكم بتصحيح انجلا

(الطب الروحاني)

وثبت ايلوش ٦٥ ٥٠ ودهنه بجلا * لبهرام برجيس وسبعة كالا
 لتصلب ل أوجاع البواردهموا * كذلك والتركيب حيث تنقلا
 كد صنع مهم ٣٠٠ وهج ٦ صغ لهاي ولمح ا آ ا وهج وي سكره لال ح
 مهمت ٣٣٣ ع ع م م ح - ٢ ٢ ٤ ٢ ل ك ك ع ا ع ر

(مطاريح الشعاعات في مواليد الملوك وبنبيهم)

وعلم مطايرج الشعاعات. شكل * اوضع قسيها بمنطقة جـ — لا
ولكن في ج مقام امامنا * ويبدو اذا عرض الكواكب عدلا
بدال مراكز بين طول وعرضها * فن أدرك المعنى علائم فوضلا
مواقع تربيع وسه مسقط * اسديهم تليث بيت الذي تلا
يزاد لتربيع وهذا قياسه * يقينا وحذره وبالعين أعمال
ومن نسبة الربيع ركب شعاعك * بصاد وضعه فيه وتربيعه انجلا
اختصر صح عـ ٨ مع وى هذا العمل هنا للملوك والقانون مطرد عمله ولم ير
أعجب منه

مقامات الملوك المقام الاوله المقام الثاني ع ٢٢٢٢ صح عر المقام الثالث
ع ٤ والمقام الرابع للمقام الخامس لاي المقام السادس ع بير المقام السابع عر

خط الاتصال والانفصال ع ١٥ ع ٢٦ ع ٢٧

خط الاتصال ١٥ ١٦ ١٧ ع ٢٨ ع ٢٩ ع ٣٠

خط الاتصال ع ٣١ ع ٣٢ ع ٣٣ ع ٣٤ ع ٣٥ ع ٣٦

الوتر للجميع وتابع الجرائم ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

الاتصال والانفصال ع ١٥ ع ٢٦ ع ٢٧

الواجب التام في الاتصالات ع ٤٥ ع ٤٦ ع ٤٧ ع ٤٨ ع ٤٩ ع ٥٠ ع ٥١ ع ٥٢ ع ٥٣ ع ٥٤ ع ٥٥ ع ٥٦ ع ٥٧ ع ٥٨ ع ٥٩ ع ٦٠ ع ٦١ ع ٦٢ ع ٦٣ ع ٦٤ ع ٦٥ ع ٦٦ ع ٦٧ ع ٦٨ ع ٦٩ ع ٧٠ ع ٧١ ع ٧٢ ع ٧٣ ع ٧٤ ع ٧٥ ع ٧٦ ع ٧٧ ع ٧٨ ع ٧٩ ع ٨٠ ع ٨١ ع ٨٢ ع ٨٣ ع ٨٤ ع ٨٥ ع ٨٦ ع ٨٧ ع ٨٨ ع ٨٩ ع ٩٠ ع ٩١ ع ٩٢ ع ٩٣ ع ٩٤ ع ٩٥ ع ٩٦ ع ٩٧ ع ٩٨ ع ٩٩ ع ١٠٠

اقامة الانوار ع ١٥ ع ١٦ ع ١٧ ع ١٨ ع ١٩ ع ٢٠ ع ٢١ ع ٢٢ ع ٢٣ ع ٢٤ ع ٢٥ ع ٢٦ ع ٢٧ ع ٢٨ ع ٢٩ ع ٣٠ ع ٣١ ع ٣٢ ع ٣٣ ع ٣٤ ع ٣٥ ع ٣٦ ع ٣٧ ع ٣٨ ع ٣٩ ع ٤٠ ع ٤١ ع ٤٢ ع ٤٣ ع ٤٤ ع ٤٥ ع ٤٦ ع ٤٧ ع ٤٨ ع ٤٩ ع ٥٠ ع ٥١ ع ٥٢ ع ٥٣ ع ٥٤ ع ٥٥ ع ٥٦ ع ٥٧ ع ٥٨ ع ٥٩ ع ٦٠ ع ٦١ ع ٦٢ ع ٦٣ ع ٦٤ ع ٦٥ ع ٦٦ ع ٦٧ ع ٦٨ ع ٦٩ ع ٧٠ ع ٧١ ع ٧٢ ع ٧٣ ع ٧٤ ع ٧٥ ع ٧٦ ع ٧٧ ع ٧٨ ع ٧٩ ع ٨٠ ع ٨١ ع ٨٢ ع ٨٣ ع ٨٤ ع ٨٥ ع ٨٦ ع ٨٧ ع ٨٨ ع ٨٩ ع ٩٠ ع ٩١ ع ٩٢ ع ٩٣ ع ٩٤ ع ٩٥ ع ٩٦ ع ٩٧ ع ٩٨ ع ٩٩ ع ١٠٠

الجزر المجيب في العمل ع ١٥ ع ١٦ ع ١٧ ع ١٨ ع ١٩ ع ٢٠ ع ٢١ ع ٢٢ ع ٢٣ ع ٢٤ ع ٢٥ ع ٢٦ ع ٢٧ ع ٢٨ ع ٢٩ ع ٣٠ ع ٣١ ع ٣٢ ع ٣٣ ع ٣٤ ع ٣٥ ع ٣٦ ع ٣٧ ع ٣٨ ع ٣٩ ع ٤٠ ع ٤١ ع ٤٢ ع ٤٣ ع ٤٤ ع ٤٥ ع ٤٦ ع ٤٧ ع ٤٨ ع ٤٩ ع ٥٠ ع ٥١ ع ٥٢ ع ٥٣ ع ٥٤ ع ٥٥ ع ٥٦ ع ٥٧ ع ٥٨ ع ٥٩ ع ٦٠ ع ٦١ ع ٦٢ ع ٦٣ ع ٦٤ ع ٦٥ ع ٦٦ ع ٦٧ ع ٦٨ ع ٦٩ ع ٧٠ ع ٧١ ع ٧٢ ع ٧٣ ع ٧٤ ع ٧٥ ع ٧٦ ع ٧٧ ع ٧٨ ع ٧٩ ع ٨٠ ع ٨١ ع ٨٢ ع ٨٣ ع ٨٤ ع ٨٥ ع ٨٦ ع ٨٧ ع ٨٨ ع ٨٩ ع ٩٠ ع ٩١ ع ٩٢ ع ٩٣ ع ٩٤ ع ٩٥ ع ٩٦ ع ٩٧ ع ٩٨ ع ٩٩ ع ١٠٠

ماقمة السؤال عن الملوك ع ١٥ ع ١٦ ع ١٧ ع ١٨ ع ١٩ ع ٢٠ ع ٢١ ع ٢٢ ع ٢٣ ع ٢٤ ع ٢٥ ع ٢٦ ع ٢٧ ع ٢٨ ع ٢٩ ع ٣٠ ع ٣١ ع ٣٢ ع ٣٣ ع ٣٤ ع ٣٥ ع ٣٦ ع ٣٧ ع ٣٨ ع ٣٩ ع ٤٠ ع ٤١ ع ٤٢ ع ٤٣ ع ٤٤ ع ٤٥ ع ٤٦ ع ٤٧ ع ٤٨ ع ٤٩ ع ٥٠ ع ٥١ ع ٥٢ ع ٥٣ ع ٥٤ ع ٥٥ ع ٥٦ ع ٥٧ ع ٥٨ ع ٥٩ ع ٦٠ ع ٦١ ع ٦٢ ع ٦٣ ع ٦٤ ع ٦٥ ع ٦٦ ع ٦٧ ع ٦٨ ع ٦٩ ع ٧٠ ع ٧١ ع ٧٢ ع ٧٣ ع ٧٤ ع ٧٥ ع ٧٦ ع ٧٧ ع ٧٨ ع ٧٩ ع ٨٠ ع ٨١ ع ٨٢ ع ٨٣ ع ٨٤ ع ٨٥ ع ٨٦ ع ٨٧ ع ٨٨ ع ٨٩ ع ٩٠ ع ٩١ ع ٩٢ ع ٩٣ ع ٩٤ ع ٩٥ ع ٩٦ ع ٩٧ ع ٩٨ ع ٩٩ ع ١٠٠

مقام الاول انور ع ١٥ ع ١٦ ع ١٧ ع ١٨ ع ١٩ ع ٢٠ ع ٢١ ع ٢٢ ع ٢٣ ع ٢٤ ع ٢٥ ع ٢٦ ع ٢٧ ع ٢٨ ع ٢٩ ع ٣٠ ع ٣١ ع ٣٢ ع ٣٣ ع ٣٤ ع ٣٥ ع ٣٦ ع ٣٧ ع ٣٨ ع ٣٩ ع ٤٠ ع ٤١ ع ٤٢ ع ٤٣ ع ٤٤ ع ٤٥ ع ٤٦ ع ٤٧ ع ٤٨ ع ٤٩ ع ٥٠ ع ٥١ ع ٥٢ ع ٥٣ ع ٥٤ ع ٥٥ ع ٥٦ ع ٥٧ ع ٥٨ ع ٥٩ ع ٦٠ ع ٦١ ع ٦٢ ع ٦٣ ع ٦٤ ع ٦٥ ع ٦٦ ع ٦٧ ع ٦٨ ع ٦٩ ع ٧٠ ع ٧١ ع ٧٢ ع ٧٣ ع ٧٤ ع ٧٥ ع ٧٦ ع ٧٧ ع ٧٨ ع ٧٩ ع ٨٠ ع ٨١ ع ٨٢ ع ٨٣ ع ٨٤ ع ٨٥ ع ٨٦ ع ٨٧ ع ٨٨ ع ٨٩ ع ٩٠ ع ٩١ ع ٩٢ ع ٩٣ ع ٩٤ ع ٩٥ ع ٩٦ ع ٩٧ ع ٩٨ ع ٩٩ ع ١٠٠

الاتصال الطبيعي

- ابرجيس في المحبة الوقت صرفوا • بقزديراً ونحاس انماطاً كـلا
- وقيل بفضة صهيحاً رأيتيه • فجعلك طالعا خطوطه ماعلا
- نوح به زيادة النور للقسم • وجعلك للقبول نعمة أصلا
- ويومه والصور عودا لهندهم • ووقت لماعة ودعونه ألا
- ودعونه بغاية فهي أعلمت • وعن طسيان دعوة واهاجلا
- وقيل بدعوة حروف لوضعها • بحترهواه أو مطالب أهلا
- فتقتز أحرفا بدال ولامها • وذلك وفق للمربع حصلا
- اذالم يكن يهوى هو الدلالها • فبال ليدووا وزينب معطلا
- فحين ابانه وبانهم اذا • هو الك وباقهم قليلة جملا
- ونقش مناكل بشرط لوضعهم • ومازدت انـ به لفعلك عدلا
- ومفتاح مريم ففعلهم ما سوا • فبورى وبسطاى بسورتهم اتلا
- وجهك بالقصد وكن متفقدا • ادلة وحشى لقبضة مـيلا
- فاعكس بيوتها بألف وينف • فباطنها سر وفي سرها انجلا

(فصل في المقامات للنهاية)

- لك الغيب صورة من العالم العلا • وتوجد هادارا وملبسها الخلا
- ويوسف في الحسن وهذا شبيهه • بنثر وترتيل حقيقة انزلا
- وفي يده طول وفي الغيب ناطق • فيعكى الى عود يجابوب بلبلا
- وقد جن بهلول بعشيق جالها • وعند تجليها بالـ طام أخذلا
- ومات اجليه واشرب حبها • جنيد وبصرى والجسم أهمللا
- فتطلب في التهليل غايتيه ومن • بأسمائه الحسنى لانسبة خلا
- ومن صاحب الحسنى له الفوز بالمنى • ويسمى بالزنى لدى جيرة العلا
- وتقبر بالغيث اذا جدت خدمة • تريك عما سباجن كان موثلا
- فهذا هو الفوز وحسن تاله • ومنها زبانات لتفسيرها اتلا

(الوصية والتختم والايان والاسلام والتحرير والابهلية)

- فهذا قصيدنا وتعون عـده • ومازاد خطبة وخما وجدولا
- عجت لايات وتعون عـدها • تولد أبيانا وما حصرها انجلا
- فمن فهم السر فيهم نفسهم • ويفهم تفسيرات شابه أشكلا

حرام وبشرعى لاظهار سرنا • لناس وان خصوا وكن الناخلا
 فان شئت اطلبه فلفظ عيّنهم • وقههم برحلة ودين تطولا
 املك أن تصبر وسامع سرهم • من القطع والافتراق رأس بالاعلا
 فصل لعباس لسره ككاتم • فنال سادات وناجيه = لا
 وقام رسول الله في الناس خاطبا • فن برأس عرشا فذلك أكلا
 وقد ركب الارواح أجساد مظهر • فآلت لقتلهم بدق تطولا
 الى العالم العلوى بغنى فناونا • ويلبس آتواب الوجود على الولا
 فقدمت نظما وصل الهنا • على خاتم الرسل صلاة ببالاعلا
 وصلى اله العرش ذوا لهد والاعلا • على سيد سادا الانام وكلا
 محمد الهادى الشفيع امامنا • وأصحابه أهل المكارم والاعلا

مرتبة باسمه عن الخلد شرح اسع 2 م ~ ا س ع و ط ع ^{الذي}

وتعديل الكواكب عند كل تاريخ مطلوب بسر 5 ل و و 8 لو طرح الاوتار الكلية

١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

ح ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ١٠ ١١ ١٢ ١٣ ١٤ ١٥ ١٦ ١٧ ١٨ ١٩ ٢٠ ٢١ ٢٢ ٢٣ ٢٤ ٢٥ ٢٦ ٢٧ ٢٨ ٢٩ ٣٠ ٣١ ٣٢ ٣٣ ٣٤ ٣٥ ٣٦ ٣٧ ٣٨ ٣٩ ٤٠ ٤١ ٤٢ ٤٣ ٤٤ ٤٥ ٤٦ ٤٧ ٤٨ ٤٩ ٥٠ ٥١ ٥٢ ٥٣ ٥٤ ٥٥ ٥٦ ٥٧ ٥٨ ٥٩ ٦٠ ٦١ ٦٢ ٦٣ ٦٤ ٦٥ ٦٦ ٦٧ ٦٨ ٦٩ ٧٠ ٧١ ٧٢ ٧٣ ٧٤ ٧٥ ٧٦ ٧٧ ٧٨ ٧٩ ٨٠ ٨١ ٨٢ ٨٣ ٨٤ ٨٥ ٨٦ ٨٧ ٨٨ ٨٩ ٩٠ ٩١ ٩٢ ٩٣ ٩٤ ٩٥ ٩٦ ٩٧ ٩٨ ٩٩ ١٠٠

كيفية العمل في استخراج اجوبة المسائل من زايرة العالم بحول الله
 منقولا عن لقنناه من القائمين عليها

السؤال له ثلثمائة وستون جوابا عدة الدرج وتختلف الاجوبة عن سؤال واحد في
 طالع مخصوص باختلاف الاسئلة المضافة الى حروف الاوتار وتناسب العمل من
 استخراج الاحرف من بيت القصيد • (تنبيه) • تركيب حروف الاوتار
 والجدول على ثلاثة اصول حروف عربية تنقل على هياتها وحروف برسم الغبار وهذه
 تبدل فها ما ينقل على هياته متى لم تزد الادوار من اربعة فان زادت عن اربعة نقلت
 الى المرتبة الثانية من مرتبة العشرات وكذلك المرتبة الثين على حسب العمل كما

سنيته ومنها حروف برسم الزمام كذلك غير أن برسم الزمام يعطى نسبة ثانية فهو
بنزلة واحد ألف وبنزلة عشرة ولها نسبة من خمسة بالعربي فاستحق البيت من
الجدول أن يوضع فيه ثلاثة حروف في هذا الرسم وحرفان في الرسم فانه تصروا من
الجدول بيوتنا خالية فتي كك كانت أصول الادوار زائدة على أربعة حسبت في العدد
في طول الجدول وان لا تزيد على أربعة لم يحسب الا العامر منها * (والمعمل في
السؤال ينتقل الى سبعة أصول) * عدة حروف الاوتار وحفظ ادوارها بعد طرحها
اثني عشر اثني عشر وهي ثمانية ادوار في الكامل وستة في الناقص ابدا ومعرفة درج
الطالع وسلطان البرج والدور الاكبر الاصل وهو واحد ابدا وما يخرج من اضافة
الطالع للدور الاصل وما يخرج من ضرب الطالع والدور في سلطان البرج و اضافة
سلطان البرج للطالع والعمل جميعه ينتج عن ثلاثة ادوار مضمومة في أربعة تكون
اثني عشر دورا ونسبة هذه الثلاثة الادوار التي هي كل دور من أربعة نشأة ثلاثة كل
نشأة لها ابدا ثم انها تضرب ادوارا رباعية أيضا ثلاثة ثم انها من ضرب ستة في اثنين
فكان لها نشأة يظهر ذلك في العمل ويتبع هذه الادوار الاثني عشر نتائج وهي في
الادوار اما أن تكون نتيجة أو أكثر الى ستة فأول ذلك نفرض سوالا عن الزايرة
هل هي علم قديم أو محدث بطالع أو درج من القوس اثناء حروف الاوتار ثم حروف
السؤال فوضعنا حروف وتر رأس القوس ونطيره عن رأس الجوزاء وثالثه وتر رأس
الدلو الى حد المركز واخضا اليه حروف السؤال ونظرنا عدتها واول ما تكون ثمانية
وثمانين وأكثر ما تكون ستة وتسعين وهي جملة الدور الصحيح فكانت في سوالنا ثلاثة
وتسعين ويختصر السؤال ان زاد عن ستة وتسعين بأن يندرج جميع ادواره الاثني
عشرية ويحفظ ما خرج منها وما بقي فكانت في سوالنا سبعة ادوار الباقي تسعة اثنتا
في الحروف ما لم يبلغ الطالع اثني عشرة درجة فان بلغها لم تثبت لها عدة ولا دور ثم اثبت
اعدادها أيضا ان زاد الطالع عن أربعة وعشرين في الوجه الثالث ثم تثبت الطالع
وهو واحد وسلطان الطالع وهو أربعة والدور الاكبر وهو واحد واجمع ما بين الطالع
والدور وهو اثنان في هذا السؤال واضرب ما خرج منها في سلطان البرج يبلغ ثمانية
واضاف السلطان للطالع فيكون خمسة فهذه سبعة أصول فما خرج من ضرب الطالع
والدور الاكبر في سلطان القوس مما لم يبلغ اثنى عشر فبسته تدخل في ضلع ثمانية من
أقبل الجدول ما عدا وان زاد على اثنى عشر طرح ادوارا وتدخل بالباقي في ضلع ثمانية
وتعلم على منتهي العدد بالخمسة المستخرجة من السلطان والطالع يكون الطالع في ضلع
السطح الجسوط الاعلى من الجدول وتعتمدتوا بالباقي سات ادوارا وتحفظها الى أن

يقف العدد على حرف من أربعة وهي ألف وأبواء وأجيم وأزاي فوق العدد في عملنا
 على حرف الالف وخلف ثلاثة أدوار فبضربنا ثلاثة في ثلاثة كانت تسعة وهو عدد
 الدور الأول فأثبتته واجمع ما بين الضلعين القائم والمبسوط يكن في بيت ثمانية في
 مقابلة البيوت العامرة بالعدد من الجدول وان وقف في مقابلة الخالي من بيوت
 الجدول على أحد هافلا يعتبر وتستمر على أدوارك وادخل بعد ما في الدور الأول
 وذلك تسعة في صدر الجدول مما يلي البيت الذي اجتمع فيه وهي ثمانية مارة الى جهة
 اليسار فوق على حرف لام ألف ولا يخرج منها أبدا حرف مركب وانما هو اذن حرف
 تاء أربع مائة برسم الزمام فعلم عليها بعد نقلها من بيت القصيد واجمع عدد الدور
 للسلطان يبلغ ثلاثة عشر ادخل بها في حروف الاوتار وأثبت ما وقع عليه العدد وعلم
 عليه من بيت القصيد ومن هذا القانون تدريكم تدور الحروف في النظم الطبيعي
 وذلك أن تجمع حروف الدور الأول وهو تسعة لسلطان البرج وهو أربعة تباع ثلاثة
 عشر أضفها بمثلها تكون ستة وعشرين أسقط منها درج الطالع وهو واحد في هذا
 السؤال الباقي خمسة وعشرون فعلى ذلك يصكون نظم الحروف الاربعة ثم ثلاثة
 وعشرون مرتين ثم اثنان وعشرون مرتين على حسب هذا الطرح الى أن ينتهي
 للواحد من آخر البيت المنظوم ولا تقف على أربعة وعشرين بل طرح ذلك الواحد
 أولا ثم ضع الدور الثاني وأضف حروف الدور الأول الى ثمانية الخارجة من ضرب
 الطالع والدور في السلطان تصكون سبعة عشر الباقي خمسة فاصعد في ضلع ثمانية
 بخمسة من حيث انتهت في الدور الأول وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بسبعة
 عشر ثم بخمسة ولا تعد الخالي والدور عشرين فوجدنا حرف تاء خمسمائة وانما
 هونون لان دورنا في مرتبة العشرات فصكانت الخمسمائة بخمسين لان دورها
 سبعة عشر فلولم تكن سبعة عشر لكانت خمسين فأثبت نونا ثم ادخل خمسة أيضا
 من أوله وانظر ما حاذى ذلك من السطح تجد واحدا دافقه قر العدد واحد يقع على
 خمسة أضف لها واحد السطح تصكون ستة أثبت واو وعلم عليها من بيت القصيد
 أربعة وأضفها للثمانية الخارجة من ضرب الطالع مع الدور في السلطان تباع اثني
 عشر أضف لها الباقي من الدور الثاني وهو خمسة تبلغ سبعة عشر وهو ما للدور الثاني
 فدخنا بسبعة عشر في حروف الاوتار فوق العدد على واحد أثبت الالف وعلم عليه
 من بيت القصيد وأسقط من حروف الاوتار ثلاثة حروف عمدة الخارج من الدور
 الثاني وضع الدور الثالث وأضف خمسة الى ثمانية تصكون ثلاثة عشر الباقي واحد
 انقل الدور في ضلع ثمانية بواحد وادخل في بيت القصيد بثلاثة عشر وخذ ما وقع عليه

العدد وهو فوق وعلم عليه وادخل بثلاثة عشر في حروف الاوتار وأثبت ما خرج وهو سين
وعلم عليه من بيت القصيد ثم ادخل مما يلي السين الخارجة بالباقي من دور ثلاثة عشر
وهو واحد فخذ ما يلي حرف سين من الاوتار فكان ب أثبتا وعلم عليها من بيت القصيد
وهذا يقال له الدور المعطوف وميزانه صحيح وهو أن تضعف ثلاثة عشر بمثلها وتضيف
اليها الواحد الباقي من الدور تبلغ سبعة وعشرين وهو حرف باء المستخرج من الاوتار
من بيت القصيد وادخل في صدر الجدول بثلاثة عشر وانظر ما قابله من السطح
واضعفه بمثله وزد عليه الواحد الباقي من ثلاثة عشر فكان حرف جيم وكالت للجملة
سبعة فذلك حرف زاي فأثبتناه وعلمنا عليه من بيت القصيد وميزانه أن تضعف السبعة
بمثلها وزد عليها الواحد الباقي من ثلاثة عشر يكن خمسة عشر وهو الحاء من عشر من
بيت القصيد وهذا آخر ادوار الثلاثيات وضع الدور الرابع وله من العدد تسعة باضافة
الباقي من الدور السابق فاضرب الطالع مع الدور في اللطمان وهذا الدور آخر العمل
في البيت الاول من الرباعيات فاضرب على حرفين من الاوتار واصعد بتسعة في ضلع
ثمانية وادخل بتسعة من دور الحرف الذي أخذته آخر من بيت القصيد فالتاسع
حرف راه فأثبتته وعلم عليه وادخل في صدر الجدول بتسعة وانظر ما قابلهما من السطح
يكون ج قهقر العدد واحد ا يكون ألف وهو الثاني من حرف الراء من بيت
القصيد فأثبتته وعلم عليه وعد مما يلي الثاني تسعة يكون ألف أيضا أثبتته وعلم عليه
واضرب على حرف من الاوتار واضعف تسعة بمثلها تبلغ ثمانية عشر ادخل بها في
حروف الاوتار تقف على حرف راه أثبتا وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية وأربعين
وادخل بثمانية عشر في حروف الاوتار تقف على م أثبتا وعلم عليها اثنين وأضف
اثنين الى تسعة تكون أحد عشر ادخل في صدر الجدول بأحد عشر تقابلها من السطح
ألف أثبتا وعلم عليها ستة وضع الدور الخامس وعدته سبعة عشر الباقي خمسة اصعد
بخمسة في ضلع ثمانية واضرب على حرفين من الاوتار واضعف خمسة بمثلها واضفها الى
سبعة عشر عدد دورها الجملة تسعة وعشرون ادخل بها في حروف الاوتار تقف على
ب أثبتا وعلم عليها اثنين وثلاثين وا طرح من سبعة عشر اثنين التي هي في أس اثنين
وثلاثين الباقي خمسة عشر ادخل بها في حروف الاوتار تقف على م أثبتا وعلم عليها
ستة وعشرين وادخل في صدر الجدول بست وعشرين تقف على اثنين بالغبار وذلك
حرف ب أثبتته وعلم عليه أربعة وخمسين واضرب على حرفين من اوتار وضع الدور
السادس وعدته ثلاثة عشر الباقي منه واحد قتين اذ ذلك أن دور النظم خمسة
وعشرين فان الادوار خمسة وعشرون وسبعة عشر وخمسة وثلاثة عشر وواحد

فاضرب خمسة في خمسة تكن خمسة وعشرين وهو الدور في نظم البيت فانقل الدور في
 ضلع ثمانية واحد ولكن لم يدخل في بيت القصيد بثلاثة عشر كما قد مناه لان دور ثان
 من نشأة تركيبية ثمانية بل أضفنا الاربعة التي من أربعة وخمسين الخارجة على حروف
 ب من بيت القصيد الى الواحد تكون خمسة تضيف خمسة الى ثلاثة عشر التي للدور تبلغ
 ثمانية عشر ادخل بها في صدر الجدول وخذ ما قابلهما من السطح وهو ألف اثنته وعلم
 عليه من بيت القصيد اثني عشر واضرب على حرفين من الاوتار ومن هذا الجدول تنظر
 أحرف السؤال فما خرج منها زده مع بيت القصيد من آخره وعلم عليه من حروف
 السؤال ليكون داخل في العدد في بيت القصيد وكذلك تفعل بكل حرف حرف بعد
 ذلك مناسباً لحروف السؤال فما خرج منها زده الى بيت القصيد من آخره وعلم عليه ثم
 أضف الى ثمانية عشر ما علمته على حرف الالف من الآحاد فكان اثنين تبلغ الجملة
 عشرين ادخل بها في حروف الاوتار تقف على حرف راء اثنته وعلم عليه من بيت القصيد
 ستة وتسعين وهو نهاية الدور في الحرف الوترى فاضرب على حرفين من الاوتار وضع
 الدور السابع وهو ابتداء المخترع ثان ينشأ من الاختراعين ولهذا الدور من العدد تسعة
 تضيف لها واحد تكون عشرة للنشأة الثانية وهذا الواحد تزيد به بعد الى اثني عشر دورا
 اذا كان من هذه النسبة أو تنقصه من الاصل تبلغ الجملة خمسة عشر فاصعد في ضلع
 ثمانية وتسعين وادخل في صدر الجدول بعشرة تقف على خمسين وانما هي خمسون
 نون ضاعفة بمثلها وتلك ق اثنتا وعلم عليها من بيت القصيد اثنين وخمسين وأسقط
 من اثنين وخمسين اثنين وأسقط تسعة التي للدور الباقي واحد وأربعون فادخل بها في
 حروف الاوتار تقف على واحد اثنته وكذلك ادخل بها في بيت القصيد تجدد واحد
 فهذا ميزان هذه النشأة الثانية فعلم عليه من بيت القصيد علامتين علامة على الالف
 الاخيرة الميزاني وأخرى على الالف الاولى فقط والثانية أربعة وعشرون واضرب على
 حرفين من الاوتار وضع الدور الثامن وعدته سبعة عشر الباقى خمسة ادخل في ضلع
 ثمانية وخمسين وادخل في بيت القصيد بخمسة تقف على عشرين بسبعين اثنتا وعلم عليها
 وادخل في الجدول بخمسة وخذ ما قابلهما من السطح وذلك واحد اثنته وعلم عليه من
 البيت ثمانية وأربعين وأسقط واحد من ثمانية وأربعين اللام الثاني وأضف اليها
 خمسة الدور الجملة اثنان وخمسون ادخل بها في صدر الجدول تقف على حرف ب
 عبارية وهي مرتبة مبنية لتزايد العدد فتكون مائتين وهي حرف راء اثنتا وعلم عليها
 من القصيد أربعة وعشرين فانقل الامر من ستة وتسعين الى الاشداه وهو أربعة
 وعشرون فأضف الى أربعة وعشرين خمسة الدور وأسقط واحد تكون الجملة ثمانية

وعشرين ادخل بالنصف منها في بيت القصيد تقف على ثمانية اثبت ٢ . وعلم عليها
 وضع الدور التاسع وعدده ثلاثة عشر الباقي واحد اصعد في ضلع ثمانية بواحد وايسر
 نسبة العمل هنا كدسبتها في الدور السادس لتضاعف العدد ولانه من النشأة الثانية
 ولانه اول الثلث الثالث من مربعات البروج و آخر الستة الرابعة من المثلثات فاضرب
 ثلاثة عشر التي للدور في أربعة التي هي مثلثات البروج السابقة الجملة اثنان وخمسون
 ادخل بهم في صدر الجدول تقف على حرف اثنان بخبارية وانما هي مئينية لتجاوزها في
 العدد عن مرتبة الاحاد والعشرات فاثبت ما اثنان راء وعلم عليها من بيت القصيد ثمانية
 واربعين واضف الى ثلاثة عشر الدور واحد الامس وادخل بأربعة عشر في بيت القصيد
 تبلغ ثمانية فاعلم عليها ثمانية وعشرين واطرح من أربعة عشر سبعة يبقى سبعة اضرب
 على حرفين من الاوتار وادخل بسبعة تقف على حرف لام اثبت وعلم عليه من البيت
 وضع الدور العاشر وعدده تسعة وهذا ابتداء المثلثة الرابعة واصعد في ضلع ثمانية
 بتسعة تكون خلافا صعد بتسعة ثمانية تصير في السابع من الابتداء اضرب تسعة في
 أربعة لصعودنا بتسعين وانما كانت تضرب في اثنان وادخل في الجدول بستة وثلاثين
 تقف على أربعة زمامية وهي عشرية فأخذناها أحادية لقله الادوار فاثبت حرف دال
 وان أضفت الى ستة وثلاثين واحد الامس كان حدها من بيت القصيد فعلم عليها ولو
 دخلت بالتسعة لا غير من غير ضرب في صدر الجدول لوقف على ثمانية فاطرح من ثمانية
 أربعة الباقي أربعة وهو المقصود ولو دخلت في صدر الجدول بثمانية عشر التي هي تسعة
 في اثنان لوقف على واحد زمامي وهو عشري فاطرح منه اثنان تكرر التسعة الباقي
 ثمانية نصفها المطلوب ولو دخلت في صدر الجدول بسبعة وعشرين بضربها في ثلاثة
 لوقفت على عشرة زمامية والعمل واحد ثم ادخل بتسعة في بيت القصيد واثبت
 ما خرج وهو ألف ثم اضرب تسعة في ثلاثة التي هي مركب تسعة الماضية وأسقط
 واحدا وادخل في صدر الجدول بستة وعشرين واثبت ما خرج وهو مائتان بحرف
 راء وعلم عليه من بيت القصيد ستة وأربعين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور
 الحادي عشر وله سبعة عشر الباقي خمسة اصعد في ضلع ثمانية بخمسة وتحسب ما تكرر
 عليه المشي في الدور الاول وادخل في صدر الجدول بخمسة تقف على خال نخذ ما قابله
 من السطح وهو واحد فادخل بواحد في بيت القصيد تكن سين اثبت وعلم عليه أربعة
 ولو يكون الوقف في الجدول على بيت عامر لا يبتنا الواحد ثلاثة واضعف سبعة عشر
 بمثلها وأسقط واحدا واضعها بمثلها وزدها أربعة تبلغ سبعة وثلاثين ادخل بهم في
 الاوتار تقف على ستة اثبتا وعلم عليها واضعف خمسة بمثلها وادخل في البيت تقف على

لام أثبتنا وعلم عليها عشرين واضرب على حرفين من الاوتار وضع الدور الثاني عشر وله
ثلاثة عشر الباقي واحدا صعد في ضلع ثمانية بواحد وهو هذا الدور آخر الادوار و آخر
الاختراعين و آخر المربعات الثلاثة و آخر المثلثات الرباعية والواحد في صدر الجدول
يقع على ثمانين زمامية وانما هي آحاد ثمانية وليس معثما من الادوار الا واحد فلوزاد
عن أربعة من مربعات اثني عشر أو ثلاثة من مثلثات اثني عشر لكات ح وانما هي
د فائتها وعلم عليها من بيت القصيد أربعة وسبعين ثم انظر ما ناسبها من السطح تكن
خمس أضعفها بمثلها للاس تبلغ عشرة أثبت ي وعلم عليها وانظر في أي المراتب وقعت
وجدنا في الرابعة دخلنا بسبعة في حروف الاوتار وهذا المدخل يسمى التوليد
الحرفي فكات ف اثبتنا و أضف الى سبعة واحد الدور الجملة ثمانية ادخل بها في
الاوتار تبلغ م اثبتنا وعلم عليها ثمانية واضرب ثمانية في ثلاثة الزائدة على عشرة الدور
فانها آخر مربعات الادوار بالمثلثات تبلغ أربعين ادخل بها في بيت القصيد
وعلم على ما يخرج منها وهو مائة ان وعلامتها ستة وتسعون وهو نهاية الدور الثاني في
الادوار الحرفية واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الاولى ولها تسعة
وهذا العدد يناسب ابدأ الباقي من حروف الاوتار بعد طرحها ادوارا وذلك تسعة
فاضرب تسعة في ثلاثة التي هي زائدة على تسعين من حروف الاوتار و أضف لها واحدا
الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ ثمانية وعشرين فادخل بها في حروف الاوتار تبلغ
ألف اثبتنا وعلم عليه ستة وتسعين وان ضربت سبعة التي هي ادوار الحروف التسعينية
في أربعة وهي الثلاثة الزائدة على تسعين والواحد الباقي من الدور الثاني عشر
كن كذلك واصعد في ضلع ثمانية بتسعة وادخل في الجدول بتسعة تبلغ اثنين
زمامية واضرب تسعة فيما ناسب من السطح وذلك ثلاثة و أضف لذلك سبعة حدد
الاوتار الحرفية واطرح واحدا الباقي من دورا اثني عشر تبلغ ثلاثة وثلاثين ادخل بها
في البيت تبلغ خمسة فائتها و أضف تسعة بمثلها وادخل في صدر الجدول بثمانية عشر
وخذ ما في السطح وهو واحد ادخل به في حروف الاوتار تبلغ م اثبتنا وعلم عليه
واضرب على حرفين من الاوتار وضع النتيجة الثانية ولها سبعة عشر الباقي خمسة
فاصعد في ضلع ثمانية بخمسة واضرب خمسة في ثلاثة الزائدة على تسعين تبلغ خمسة عشر
أضف لها واحدا الباقي من الدور الثاني عشر تكن تسعة وادخل بستة عشر في بيت
القصيد تبلغ ت اثبتنا وعلم عليه أربعة وستين و أضف الى خمسة الثلاثة الزائدة على
تسعين وزد واحدا الباقي من الدور الثاني عشر يكن تسعة ادخل بها في صدر الجدول
تبلغ ثلاثين زمامية وانظر ما في السطح تجد واحدا أثبتنا وعلم عليه من بيت القصيد

وهو التاسع أيضا من البيت وادخل بتسعة في صدر الجداول تقف على ثلاثة وهي
 عشرات فأثبت لام وعلم عليه ووضع النتيجة الثالثة وعددها ثلاثة عشر الباقي واحد
 فأنقل في ضلع ثمانية بواحد وأضف الى ثلاثة عشر الثلاثة الزائدة على التسعين وواحد
 الباقي من الدور الثاني عشر تبلغ سبعة عشر وواحد النتيجة تكن ثمانية عشر ادخل بها
 في حروف الاوتار تكن لاما اثبتنا فهذا آخر العمل • والمثال في هذا السؤال السابق
 أردنا أن نعلم أن هذه الزايرة علم محدث أو قد نديم بطالع أول درجة من القوس
 اثبتنا حروف الاوتار ثم حروف السؤال ثم الاصول وهي عدة الحروف في ثلاثة وتسعون
 أدوارها سبعة الباقي منها تسعة الطالع واحد سلطان القوس أربعة الدور الاكبر
 واحد درج الطالع مع الدور اثنان ضرب الطالع مع الدور في السلطان ثمانية اضافة
 السلطان للطالع خمسة بيت القصيد

سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن • غرائب شك ضبطه الجده مثلا

حروف الاوتار ص ط ه ر ث ل ه م ص ص و ن ب ه س ا
 ن ل م ن ص ع ف ص و ر س ك ل م ن ص ع ف
 ض ق ر س ت ث خ ذ ظ غ ش ط ي ع ح ص ر و ح ر
 و ح ل ص ك ل م ن ص ا ب ج د ه و ز ح ط ي
 • (حروف السؤال) • ال ز ا ي ر جة ع ل م م ح د ث ام ق د ي م
 الدور الاول ٩ الدور الثاني ١٧ الباقي ٥ الدور الثالث ١٣ الباقي ١ الدور الرابع ٩
 الدور الخامس ١٧ الباقي ٥ الدور السادس ١٣ الباقي ١ الدور السابع ٩
 الدور الثامن ١٧ الباقي ٥ الدور التاسع ١٣ الباقي ١ الدور العاشر ١٣
 الدور الحادي عشر ١٧ الباقي ٥ الدور الثاني عشر ١٣ الباقي ١ النتيجة الاولى ٩
 النتيجة الثانية ١٧ الباقي ٥ النتيجة الثالثة ١٣ الباقي ١

٤٤٤ و ٤٤٦ في السك

٢٣	ف	١	س
٢٤	ر	٢	و
٢٥	ا	٣	ا
٢٦	ي	٤	س
٢٧	ب	٥	س
٢٨	ت	٦	س
٢٩	ث	٧	س
٣٠	ج	٨	س
٣١	د	٩	س
٣٢	ذ	١٠	س
٣٣	ر	١١	س
٣٤	ز	١٢	س
٣٥	ح	١٣	س
٣٦	ط	١٤	س
٣٧	ظ	١٥	س
٣٨	ع	١٦	س
٣٩	ف	١٧	س
٤٠	ق	١٨	س
٤١	ك	١٩	س
					خ	٢٠	س
					د	٢١	س
					ذ	٢٢	س

فوزاوس ررااس ابا ر ق ا ع ا ر ص ح ر
 ح ل د ا ر س ا ل د ي و س ر ا د م ن ا ل ل
 دورها على خمسة وعشرين ثم على ثلاثة وعشرين مرتين ثم على واحد وعشرين مرتين
 الى أن تنتهي الى الواحد من آخر البيت وتنتقل الحروف جميعا والله أعلم ن ف ر و
 ح روح ال و د س ا د ر ر س ر ه ا ل د ر ي س و ا ن
 س د ر و ا ب ل ا م ر ب و ا ا ل ع ل ل

٥- هذا آخر الكلام في استخراج الاجوبة من زيارجة العالم منظومة وللقوم طرائق
 أخرى من غير الزيارجة بس- فخرجون بم أجوبة المسائل غيره منظومة وعندهم أن
 السر في استخراج الجواب منظوما من الزيارجة انما هو مزجهم بيت مالك بن وهيب
 وهو سؤال عظيم الخلق البيت لذلك يخرج الجواب على رويته وأما الطرق الأخرى
 فيخرج الجواب غير منظوم فن طرائقهم في استخراج الاجوبة ما نقله عن بعض
 المحققين منهم

(فصل في الاطلاع على الاسرار الخفية من جهة الارتباطات الحرفية)

اعلم أرشدنا الله وإياك أن هذه الحروف أصل الاسئلة في كل قضية وانما تنتج
 الاجوبة على تجزئته بالكلمة وهي ثلاثة وأربعون حرفا كما ترى والله علام الغيوب
 ا و ل ا ع ظ س ا ل م خ ي د ل ز ق ت ا ر ذ ص ف ن
 غ ش ا ل ك ي ب ب م ض ب ح ط ل ج ه د ن ل ث ا
 وقد نظمها بعض الفضلاء في بيت جعل فيه كل حرف مشتد من حرفين وسماه القطب
 فقال سؤال عظيم الخلق حزت فصن اذن ه غرائب شك ضبطه الحد مثلا
 فاذا اودت استباح المسئلة فاحذف ما تكررت من حروفها واثبت ما فضل منه
 ثم احذف من الاصل وهو القطب لكل حرف فمثل من المسئلة حرفا يمثله واثبت
 ما فضل منه ثم امزج الفضلين في سطر واحد تبداً بالاول من فضله والثاني من فضل
 المسئلة وهكذا الى أن يتم الفضلان أو يتفداً أحدهما قبل الآخر فتضع البقية على
 ترتيبها فاذا كان عدد الحروف الخارجة بعد المزج موافقا لعدد حروف الاصل قبل
 الحذف فالعمل صحيح فحينئذ تضيف اليها خمس نونات لتعدل بها الموازين الموسيقية
 وتكمل الحروف ثمانية وأربعين حرفا فتعمر بها جدولاً ما يكون آخر ما في السطر
 الاول أو ما في السطر الثاني وتقل البقية على حالها وهكذا الى أن تتم عمارة
 الجدول ويعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم
 تخرج وتر كل حرف بقية مربعة على أعظم جزء يوجد له وتضع الوتره قابلاً للحرفه
 ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف الجدولية وتعرف قوتها الطبيعية وموازينها
 الروحانية وغرائزها النفسانية وأسوسها الاصلية من الجدول الموضوع لذلك وهذه
 صورته

و	الاسوس	الفرايز	الموازين	القوى	ا
	ص ح	ك	د ه و	هـ	ب
	ر ح	لا ٥	لا ٣	ع	ج
	ر ٦	لا ٦	ع	ع	د
٩	ع	ع	لا ٢	ع	هـ
١٠	هـ	ر ح			و
١١	ع	ك			ز

الموازين
الاسوس
القوى
النتيجه

١٢
١٣
١٤
١٥
١٦
١٧
١٨
١٩
٢٠
٢١
٢٢
٢٣
٢٤
٢٥
٢٦
٢٧
٢٨
٢٩
٣٠
٣١
٣٢
٣٣
٣٤
٣٥
٣٦
٣٧
٣٨
٣٩
٤٠
٤١
٤٢
٤٣
٤٤
٤٥
٤٦
٤٧
٤٨
٤٩
٥٠
٥١
٥٢
٥٣
٥٤
٥٥
٥٦
٥٧
٥٨
٥٩
٦٠
٦١
٦٢
٦٣
٦٤
٦٥
٦٦
٦٧
٦٨
٦٩
٧٠
٧١
٧٢
٧٣
٧٤
٧٥
٧٦
٧٧
٧٨
٧٩
٨٠
٨١
٨٢
٨٣
٨٤
٨٥
٨٦
٨٧
٨٨
٨٩
٩٠
٩١
٩٢
٩٣
٩٤
٩٥
٩٦
٩٧
٩٨
٩٩
١٠٠

ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أوتاد الفلك الاربعة واحذر ما يلي الاوتاد
وكذلك السواقط لان نسبتها مضطربة وهذا الخارج هو أول رتب السريان ثم تأخذ
مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى أس عالم الخلق بعد عرضه للمعد
الكونية فحمل عليه بعض المهزذات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق
النفس الاوسط ونطرح أول رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط
وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم نضرب عالم التوسط في أفق
النفس الاوسط يخرج الأفق الاعلى فحمل عليه أول رتب السريان ثم نطرح من
الرابع أول عناصر الامداد الاصلية يبقى ثالث رتبة السريان فنضرب مجموع أجزاء
العناصر الاربعة أبدأ في رابع مرتبة السريان يخرج أول عالم التفصيل والثاني في
الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل والثالث في الثالث يخرج ثالث عالم التفصيل والرابع
في الرابع يخرج رابع عالم التفصيل فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم الكل تبقى
العوالم المهزذة فتقسم على الأفق الاعلى يخرج الجزء الاول ويقسم المنكسر على
الأفق الاوسط يخرج الجزء الثاني وما انكسر فهو الثالث ويتعين الرابع هذا في
الرابع وان شئت أكثر من الرابع فتستكثر من عوالم التفصيل ومن رتب السريان
ومن الاوقات بعد الحروف والله يرشدنا واياك وكذلك اذا قسم عالم التجريد على أول
رتب السريان خرج الجزء الاول من عالم التركيب وكذلك الى نهاية الرتبة الاخيرة من
عالم الكون فافهم وتدبر والله المرشد المعين ومن طر يقهم أيضا في استخراج الجواب
قال بعض المحققين منهم اعلم أيدينا الله واياك بروح منه أن علم الحروف جايل يتوصل
العالم به لما لا يتوصل بغيره من العلوم المتداولة بين العالم وللعمل به شرائط تلازم وقد
يستخرج العالم أسرار الخليقة وسرار الطبيعة فيطالع بذلك على نتيجتي الفلسفة أعني
السميا وأختها ويرفع له حجاب الجهولات ويطالع بذلك على مكنون خبايا القلوب وقد
شهدت جماعة بأرض المغرب من اتصل بذلك فأظهر الغرائب وخرق العوائد ونصرف
في الوجود لتأييد الله واعلم أن ملاك كل فضيلة الاجتهاد وحسن الملاكمة مع الصبر
مفتاح كل خير كما أن الخرق والعجالة رأس الحرمان فأقول اذا أردت أن تعلم قوة كل
حرف من حروف الفايطوس أعني أجمع الى آخر العدد وهذا أول مدخل من علم
الحروف فانظر ما لذلك الحرف من الاعداد فتلك الدرجة التي هي مناسبة للحرف هي
قوته في الجسمانيات ثم اضرب العدد في مثله فتخرج لك قوته في الروحانيات وهي وتره
وهذا في الحروف المنقوطة لا يتم بل يتم لغير المنقوطة لان المنقوطة منها مراتب المعان
بأني عليها البيان فيما بعد واعلم أن لكل شكل من أشكال الحروف شكلا في العالم

العلوي أعني الكرمي ومنها المتحرلون الساكن والعلوي والسكنى كما هو
 من قوم في أماكنه من الحد اول الموضوع في الزيارج واعلم أن قوى الحروف
 ثلاثة أقسام الاقل وهو أقلها قوة تظهر بعد كتابتها فتكون كتابته لعالم روحاني
 مخصوص بذلك الحرف المرسوم فتخرج ذلك الحرف بقوة نفسانية وجمع همة كانت
 قوى الحروف مؤثرة في عالم الاجسام الثاني قوتها في الهيئة الفكرية وذلك ما يصدر
 من تصرف الروحانيات لها فهي قوة في الروحانيات العلويات وقوة شكلية في عالم
 الجسمانيات الثالث وهو ما يجمع الباطن أعني القوة النفسانية على تكوينه
 فتكون قبل النطق به صورة في النفس بعد النطق به صورة في الحروف وقوة في
 النطق وأما طبائعهما فهي الطبيعيات المنسوبة للمواد في الحروف وهي الحرارة
 واليبوسة والحرارة والرطوبة والبرودة واليبوسة والبرودة والرطوبة فهذا سر العدد
 اليماني والحرارة جامعة للهواء والنار وهما ا ه ط م ف ش ذ ج ز ك س
 ق ث ظ والبرودة جامعة للهواء والماء ب و ي ن س ت ض د ح
 ل ع ر خ غ واليبوسة جامعة للنار والارض ا ه ط م ف ش ذ
 ب و ي ن س ت ض فهذه نسبة حروف الطبائع وتداخل أجزاء بعضها
 في بعض وتداخل أجزاء العالم فيها علويات وسفليات بأسباب الامهات الاقل أعني
 الطبائع الاربع المنفردة فتجرت استخراج مجهول من مسئلة ما تحقق طالع السائل
 أو طالع مسئلة واستنطق حروف أو تادها الاربع الاقل والرابع والسابع والعاشر
 مستوية مرتبة راستخرج أعداد القوى والاولاد كما سنبين واحمل والنسب واستنتج
 الجواب يخرج لك المطلوب اما بصريح النطق أو بالمعنى وكذلك في كل مسئلة تقع لك
 بيانها اذا أردت أن تستخرج قوى حروف الطالع مع اسم السائل والجامعة فاجمع
 أعدادها بالجمال الكبير فكان الطالع الحمل رابعة السرطان سابعة الميزان عاشره
 الجدي وهو أقوى هذه الاولاد فاسقط من كل برج حرفي التعريف وانظر ما يخص كل
 برج من الأعداد المنطقة الموضوع في دائرتهم واحذف أجزاء الكسر في النسب
 الاستنطاقية كما أوأثبت تحت كل حرف ما يخصه من ذلك ثم أعداد حروف العناصر
 الاربعة وما يخصها كالأول وارسم ذلك كله أحرفا ورتب الاولاد والقوى والقرائن
 سطرًا متمزجا وكسر واضرب ما يضرب لاستخراج الموازين واجمع واستنتج الجواب يخرج
 لك الضمير وجوابه مثاله افرض ان الطالع الحمل كما تقدم ترسم ح م ل فلحاء
 من العدد ثمانية لها النصف والرابع والثمن د ب ا الميم لها من العدد اربعون
 لها النصف والرابع والثمن والعشر ونصف العشر اذا أردت التدقيق م ل ي ه

Marfat.com

د اللام لها من العدد ثلاثون لها النصف والثلاثون والخمسة والستون
والعشر **ك** **ي** **و** **هـ** **ج** وهكذا تفعل بسائر حروف المسئلة والاسم من كل
لفظ يقع لك وأما استخراج الاوتاد فهو أن تقسم مربع كل حرف على أعظم جزء يوجد
له مثاله حرف **د** له من الاعداد أربعة مربعة ستة عشر اقسمها على أعظم جزء
يوجد لها وهو اثنان يخرج وتر الدال ثمانية ثم تضع **ك** كل وتره مقابل الحرفه ثم تستخرج
النسب العنصرية كما تقدم في شرح الاستنطاق ولها قاعدة تطرد في استخراجها من
طبع الحروف وطبع البيت الذي يحل فيه من الجدول كما ذكر الشيخ لمن عرف
الاصطلاح والله أعلم

(فصل في الاستدلال على ما في الضمائر الخفية بالقوانين الحرفية)

وذلك لو سأل سائل عن دليل لم يعرف مرضه ما علمته وما الموافق لبرئته منه من السائل
أن يسمى ما شاء من الاشياء على اسم العلة المجهولة لتجعل ذلك الاسم قاعدة لك ثم
استنطق الاسم مع اسم الطالع والعناصر والسائل واليوم والساعة ان أردت التدقيق
في المسئلة والاقتصر على الاسم الذي سماه السائل وفعلت به كما بين فاقول مثلا سمي
ز. نل فرسا فأثبت الحروف الثلاثة مع أعدادها المنطقية بيانه ان لفاه من العدد
نماتين ولها **م** **ك** **ي** **ح** **ب** ثم الراء لها من العدد ما اثنان **ق** **ن** **ك** **ي**
ثم السين لها من العدد ستون ولها **م** **ل** **ك** فالواو عدد تام له **د** **ج** **ب**
والسين مثله ولها **م** **ل** **ك** فاذا بسطت حروف الاسماء وجدت عنصريين
منسأوين فاحكم للاكثرهما حروفا بالغلبة على الآخر ثم اجمل عدد حروف
عناصر اسم المطلوب وحروفه دون بسط وكذلك اسم الطالب واحكم للاكثر
والاقوى بالغلبة

وصفة قوى استخراج العناصر

فتكون الغلبة هنا للتراب وطبعه البرودة والبيوسة طبع السوداء فتصكم على المريض
بالسوداء فاذا ألفت من حروف الاستنطاق كلاما على نسبة تقريرية خرج موضع
الوجع في الحلق ويوافقه من الادوية حنينة ومن الاشرية شراب الليمون هذا ما خرج
من قرى أعداد حروف اسم فرس وهو مثال تقريري مختصر وأما استخراج قوى العناصر

من الاسماء العملية فهو أن تسمى مثلاً محمد افتدسم أحرفه مقطعة ثم تضع أسماء العناصر
الاربعة على ترتيب الفلك يخرج لك ما في كل عنصر من الحروف والعدد ومثاله

ناري	ترابي	هوائي	مائي
ا ا ا	ب ب ب	ج ج ج ج ج ج ج	د د د د د
و و و	ز ز ز ز ز ز ز	ح ح ح ح ح ح ح	
ط ط ط	ي ي ي	ك ك ك ك ك ك ك	ل ل ل ل ل ل ل
م م م	ن ن ن	ص ص ص ص ص ص ص	ع ع ع ع ع ع ع
ف ف ف	ض ض ض ض ض ض ض	ق ق ق ق ق ق ق	ر ر ر ر ر ر ر
س س س	ت ت ت	ث ث ث ث ث ث ث	خ خ خ خ خ خ خ
ذ ذ ذ	ظ ظ ظ	غ غ غ غ غ غ غ	ش ش ش ش ش ش ش

فبعد أقوى هذه العناصر من هذا الاسم المذكور عنصر الماء لأن عدد حروفه عشرون
حرفاً جعلت له الغلبة على بقية عناصر الاسم المذكور وهكذا يفعل بجميع الاسماء
حينئذ تضاف الى أوتارها أول لوتر المنسوب للطالع في الزاوية أول لوتر البيت المنسوب
لمالك بن وهيب الذي جعله قاعدة لمزج الاسئلة وهو هذا

سؤال عظيم الخلق حرت فصن اذن * غرائب شك ضبطه الجدمثلا

وهو وتر مشهور لا استخراج المجهولات وعليه كان يعتمد ابن الرقام وأصحابه وهو عمل تام
قام بنفسه في المثالات الوضعية وصفة العمل بهذا الوتر المذكور أن ترسمه مرقعاً
متمزجاً بالفاظ السؤال على قانون صنعة التكبير وعدة حروف هذا الوتر أعني البيت
ثلاثة وأربعون حرفاً لكل حرف منته من حرفين ثم تحذف ما تكرر عند المزج
من الحروف ومن الاصل لكل حرف فضل من المسئلة حرفاً مما له وتنبت الفضل
سطراً متمزجاً بعضه ببعض الحروف الاقل من فضلة القطب والثاني من فضلة السؤال
حتى يتم الفضلتان جميعاً فتكون ثلاثة وأربعين فتضيف اليها خمس نونات ليكون ثمانية
وأربعين لتعدل بها الموازين الموسيقية ثم تضع الفضلة على ترتيبها فان كان عدد الحروف
الخارجة بعد المزج يوافق العدد الاصل قبل الحذف فالعمل صحيح ثم عمر بما مزجت
جدولاً ما يكون آخره في السطر الاول أول ما في السطر الثاني وعلى هذا النسق
حتى يعود السطر الاول بعينه وتتوالى الحروف في القطر على نسبة الحركة ثم تخرج وتر
كل حرف كما تقدم وتضعه مقابل الحرفه ثم تستخرج النسب العنصرية للحروف
الجدولية لتعرف قوتها الطبيعية وموازينها الروحانية وغرائبها النفسانية وأسوسها

الاصليّة من الجدول الموضوع لذلك وصفة استخراج التسبب العنصريّة هو أن تنظر الحرف الاوّل من الجدول ما طبيعته وطبيعة البيت الذي حل فيه فان اتفقت فحسن والافا-تخرج بين الحرفين نسبة ويتسع هذا القانون في جميع الحروف الجدولية وتحقق ذلك سهل على من عرف قوانينه كما هو مقرر في دوائرها الموسيقية ثم تأخذ وتر كل حرف بعد ضربه في أسوس أو ناد الفلك الاربعة كما تقدم واحذر ما يلي الاوتاد وكذلك السواقات لان نسبتها مضطربة وهذا الذي يخرج لك هو أوّل مراتب السريان ثم تأخذ مجموع العناصر وتخط منها أسوس المولدات يبقى اس عالم الخلق بعد عرضة للمدد الكونية فتعمل عليه بعض المجزئات عن المواد وهي عناصر الامداد يخرج أفق النفس الاوسط وتطرح أوّل رتب السريان من مجموع العناصر يبقى عالم التوسط وهذا مخصوص بعوالم الاكوان البسيطة لا المركبة ثم تضرب عالم التوسط في أفق النفس الاوسط يخرج الافق الاعلى فتعمل عليه أوّل رتب السريان ثم تطرح من الرابع أوّل عناصر الامداد الاصلية يبقى ثالث رتبة السريان ثم تضرب مجموع أجزاء العناصر الاربعة أبدأ في رابع رتب السريان يخرج أوّل عالم التنصّل والنائي في الثاني يخرج ثاني عالم التفصيل وكذلك الثالث والرابع فتجمع عوالم التفصيل وتخط من عالم الكل تبقى العوالم المجزدة فتقسم على الافق الاعلى يخرج الجزء الاوّل ومن هنا يطرد العمل في التامة وله مقامات في كتب ابن وحشية والبونى وغيره ما وهذا التدبير يجري على القانون الطبيعي الحكيم في هذا الفن وغيره من فنون الحكمة الالهية وعليه مدار وضع الزيارج الحرفية والصنعة الالهية والتبرجات الفلسفية والله الملمهم وبه المستعان وعليه التكلان وحسبنا الله ونعم الوكيل

(علم الكيمياء)

٢٤

وهو علم ينظر في المادة التي يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ويشرح العمل الذي يوصل الى ذلك فيتصفّحون المكونات كلها بعد معرفة أجزائها وقواها العلمهم به ثرون على المادة المستعدة لذلك حتى من الفضلات الحيوانية كالعظام والريش والبيض والعدرات فضلاء عن المعادن ثم يشرح الاعمال التي تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل مثل حل الاجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير وجمد الذائب منها بالتكليس وامها الصاب بالفهر والصلاية وأمثال ذلك وفي زعمهم أنه يخرج بهذه الصناعات ككلاها جسم طبيعي يسهونه الاكسبروانه يلقى منه على الجسم المعدني المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة بالاستعداد القريب من الفعل مثل الرصاص

والتصدير والتصان بعد أن يعنى بالكاف فيعود ذهابا بريرا ويكثرون من ذلك الاكبر
 اذا الغزوا اصطلاحاتهم بالروح وعن الجسم الذي يلقى عليه بالجسد فترح هذه
 الاصطلاحات وصورة هذا العمل الصناعي الذي يقاب هذه الاجساد المستعدة الى
 صورة الذهب والفضة هو علم الكيمياء وما زال الناس يؤلفون فيها قديما وحديثا
 وربما يعزى الكلام فيها الى من ليس من أهلها او امام المدونين فيها جابر بن حبان حتى
 انهم يخصصونها به فيسمونها علم جابر وله فيها سبعون رسالة كلها شبيهة بالغازية وانه
 لا يفتح مقلها الا من احاط علمه بجميع ما فيها والطغرافى من حكماء المشرق المتأخرين
 له فيها دواوين ومناظرات مع أهلها وغيرهم من الحكماء وكتب فيها مسئلة الجربطلى من
 حكماء الاندلس كتابه الذي سماه رتبة الحكيم وجعله قريشا لكتاب الاخر في السهر
 والطلسمات الذي سماه غاية الحكيم وزعم ان هاتين الصناعتين هما تتجملن للحكمة
 وثمرتان للعلوم ومن لم يقف عليهما فهو فاقد ثمره العلم والحكمة أجمع وكلامه في ذلك
 الكتاب وكلامهم أجمع في تاليفهم هي الغازية تعذر فهمها على من لم يعلن
 اصطلاحاتهم في ذلك * ونحن نذكر سبب عدولهم الى هذه الرموز والالغاز ولابن
 المغيرة من أئمة هذا الشأن كلمات شهريفة على حروف المعجم من أبدع عما يجىء في الشعر
 ملفوزة كلها الغزالية حاجى والمعاباة فلا تكاد تفهم وقد ينسبون للغزالي وجه الله بمض
 التاليف فيها وليمر بجمع لان الرجل لم تكن مداركه العالية لتقف عن خطا ما يذهبون
 اليه حتى يتعلمه وربما نسبوا بعض المذاهب والاقوال فيها لخالد بن يزيد بن معاوية وريب
 مروان بن الحكم ومن المعلوم البين ان خالد بن يزيد بن معاوية والبداهة اليه أقرب
 فهو بعيد عن العلوم والصنائع بالجملة فكيف له بصناعة غريبة المنى بنيت على معرفة
 طبائع المركبات وأمر جتهار كتاب الناضرين في ذلك من الطبيعيات والطب لم تظهر
 بعد ولم تترجم اللهم الا أن يكون خالد بن يزيد آخر من أهل المدارك الصناعية تشبه
 باسمه فممكن * وأنا أنقل لك هنا رسالة أبي بكر بن بشر بن لابي السبع في هذه
 الصناعة وكلامها من تليد مسئلة فيستدل من كلامه فيها على ما ذهب اليه في شأنها اذا
 أعطيته حقه من التأمل قال ابن بشر بن بعد صدر من الرسالة خارج عن الغرض
 والمقدمات التي لهذه الصناعة الكريمة قد ذكرها الاولون واقتص جميعها أهل
 الفلسفة من معرفة تكوين المعادن وتخلق الاجبار والجواهر وطباع البقاع والاماكن
 فنحننا شتمارها من ذكرها وان كان أبين لك من هذه الصناعة ما يحتاج اليه فبدأ
 بعرفته فقد قالوا ينبغي لطلاب هذا العلم أن يعلموا أولا ثلاث خصال أوهاهل تكون
 والثانية من أى تكون والثالثة من أى كيف تكون فاذا عرف هذه الثلاثة

وأحكامها فقد نطق بمطلوبه وبلغ نهايته من هذا العلم فأما البحث عن وجودها
والامتدلال عن تكونها فقد كفيينا كما بعثنا به اليك من الاكبر وأما من أي شيء
تكون فأنما يريدون بذلك البحث عن الحجر الذي يمكنه العمل وان كان العمل موجودا
من كل شيء بالقوة لانها من الطبائع الاربع منها تركبت ابتداء واليه ترجع انتهاء ولكن
من الاشياء ما يكون فيه بالقوة ولا يكون بالفعل وذلك ان منها ما يمكن تفصيلها ومنها
ما لا يمكن تفصيلها فإتقن يمكن تفصيلها تعالج وتدبر وهي التي تخرج من القوة الى الفعل
والتي لا يمكن تفصيلها لا تعالج ولا تدبر لانها بالقوة فقط وانما يمكن تفصيلها
لاستغراق بعض طبائعه في بعض وفضل قوة الكبير منها على الصغير فينبغي لك وفقد
الله أن تعرف أوفق الاجرار المنفصلة التي يمكن فيها العمل وجنسه وقوته وعمله وما يدبر
من الخل والعقد والتنقية والتكليس والتنشيف والتقليب فان من لم يعرف هذه
الاصول التي هي عماد هذه الصنعة لم ينجح ولم ينظر بخير أبدا وينبغي لك ان تعلم هل
يمكن أن يستعان عليه بغيره أو يكتفى به وحده وهل هو واحد في الابتداء أو شاركه غيره
فصار في التدبير واحد افسى حجرا وينبغي لك أن تعلم كيفية عمله وكيفية أوزانه وأزمانه
وكيف تركيب الروح فيه وادخال النفس عليه وهل تقدر النار على تفصيلها منه بعد
تركيبها فان لم تقدر فلاي علة وما السبب الموجب لذلك فان هذا هو المطلوب فافهم *
واعلم ان الفلاسفة كاهل مدحت النفس وزعمت ان المدبرة للجسد والحاملة له
والدافعة عنه والفاعلة فيه وذلك ان الجسد اذا خرجت النفس منه مات وبرد فلم يقدر
على الحركة والامتناع من غيره لانه لا حياة فيه ولا نور وانما ذكرت الجسد والنفس لان
هذه الصفات شبيهة بجسد الانسان الذي تركيبه على الغذاء والعشاء وقوامه وتماجه
بالنفس الحية النورية التي بها يفعل العظام والاشياء المتقابلة التي لا يقدر عليها غيرها
بالقوة الحية التي فيها وانما يفعل الانسان لاختلاف تركيب طبائعه ولو اتفقت
طبائعه لسلمت من الاعراض والتضاد ولم تقدر النفس على الخروج من بدنه ولكن
خالدا باقيا فسبحان مدبر الاشياء تعالى * واعلم ان الطبائع التي يحدث عنها هذا العمل
كيفية دافعة في الابتداء مفضية محتاجة الى الانتهاء وليس لها اذا صارت في هذا الحد
أن تستحيل الى ماء منه تركبت كما قلنا آتفا في الانسان لان طبائع هذا الجوهر قد لزمت
بعضها بعضا وصارت شيئا واحدا شبيها بالنفس في قوتها وفعالها وبالجسد في تركيبه
ومجسسته بعد ان كانت طبائع مفردة بأعيانها فبما عجب من أفاعيل الطبائع أن القوة
للضعيف الذي يقوى على تفصيل الاشياء وتركيبها وتتمامها فلذلك قلت قوى وضعيف
وانما وقع التغيير والفناء في التركيب الاقل للاختلاف وعدم ذلك في الثاني للاتفاق

• وقد قال بعض الاولين التفصيل والتقطيع في هذا العمل حياة وبقاء والتركيب
 موت وفناء وهذا الكلام دقيق المعنى لان الحكيم اراد بقوله حياة وبقاء خروجه من
 العدم الى الوجود لانه مادام على تركيبه الاول فهو فان لا محالة فاذا ركب التركيب
 الثاني عدم الفناء والتركيب الثاني لا يكون الا بعد التفصيل والتقطيع فاذا التفصيل
 والتقطيع في هذا العمل خاصة فاذا بقي الجسد المحلول انبسط فيه لعدم الصورة لانه
 قد صار في الجسد بمنزلة النفس التي لا صورة لها وذلك انه لا وزن له فيه وسترى ذلك ان
 شاء الله تعالى وقد ينبغي لك ان تعلم ان اختلاط اللطيف باللطيف أهون من اختلاط
 الغليظ بالغليظ وانما ارى بذلك التشاكل في الارواح والاجساد لان الاشياء تتصل
 بشكالها وذكرت لك ذلك لتعلم ان العمل اوفق وايسر من الطبائع اللطائف الروحانية
 منها من الغليظة الجسمانية وقد تصور في العقل ان الاجزاء اقوى واصبر على النار من
 الارواح كما ترى الذهب والحديد والفضة اصبر على النار من الكبريت والزئبق
 وغيرهما من الارواح فاقول ان الاجساد قد كانت ارواحا في بدنها فلما اصابها حر
 الكيان قابها اجساد الرجة غليظة فلم تقدر النار على اكلها لا فرط غلظها وتلذجها
 فاذا افرطت النار عليها اصيرت ارواحا كما كانت اول خلقها وان تلك الارواح
 اللطيفة اذا اصابتها النار اُبقت ولم تقدر على البقاء عليها فينبغي لك ان تعلم ما صير
 الاجساد في هذه الحالة وصير الارواح في هذا الحال فهو اجل ما تعرفه • اقول
 انما اُبقت تلك الارواح لاشتغالها ولطافتها وانما اشتعلت لكثرة رطوبتها ولان
 النار اذا اُحست بالرطوبة تهافت بها لانها هوائية تشاكل النار ولا تزال تغتذي بها
 الى ان تنفنى وكذلك الاجساد اذا اُحست بوصول النار اليها القلة تلذجها وغلظها وانما
 صارت تلك الاجساد لا تشتعل لانها مركبة من ارض وما صابر على النار فلطفه
 متحد بكنيفه لطول الطبخ اللين المازج للاشياء وذلك ان كل متلاش انما يتلاشى بالنار
 لفارقة لطيفه من كنيفه ودخول بعضه في بعض على غير التحليل والموافقة فصارت ذلك
 الانضمام والتداخل مجاورة لا ممازجة فسهل بذلك افتراقهما كالماء والدهن وما
 اشبههما وانما وصفت ذلك لتستدل به على تركيب الطبائع وتعلقها فاذا علمت ذلك
 علمت انما فقد اُخذت حظك منها وينبغي لك ان تعلم ان الاخلاط التي هي طبائع هذه
 الصناعة موافقة بعضها لبعض ففصله من جوهر واحد يجمعهما نظام واحد بتدبير
 واحد لا يدخل عليه غريب في الجز منه ولا في الكل كما قال الفيلسوف انك اذا
 احكمت تدبير الطبائع وتأليفها ولم تدخل عليها غريبا فقد احكمت ما اردت احكامه
 وقوامه اذا الطبيعة واحدة لا غريب فيها فن ادخل عليها غريبا فقد زاع عن ما وقع

في الخطا * واعلم ان هذه الطبيعة اذا حل لها جسد من قرائنها على ما ينبغي في الحل
 حتى يشاكلها في الرقة واللطافة انبسطت فيه وجرت معه حيثما جرى لان الاجساد
 مادامت فليظة جافية لا تنبسط ولا تتزوج وحل الاجساد لا يكون بغير الارواح فانهم
 هداك الله هذا القول واعلم هداك الله ان هذا الحل في جسد الحيوان هو الحق الذي
 لا يضمحل ولا ينتقض وهو الذي يقرب الطبائع ويمسكها ويظهر لها ألوانا وأزهارا
 عجيبية وليس كل جسد يحصل خلاف هذا هو الحل التام لانه مخالف للحياة وانما حله بما
 يوافق ويدفع عنه حرق النار حتى يزول عن الغلط وتنقلب الطبائع عن حالاتها الى مالها
 ان تنقلب من اللطافة والغلظ فاذا بلغت الاجساد نهايتها من التحليل والتلطيف ظهرت
 لها هنالك قوة تمسك وتفوس وتقلب وتنفذ وكل عمل لا يرى له مصداق في أوله فلا خير
 فيه * واعلم ان البارد من الطبائع هو يبس الاشياء ويعقد رطوبتها والحار منها يظهر
 رطوبتها ويعقد ديبسها وانما أفردت الحرو والبرد لانها ما فاعلان والرطوبة واليبس
 منفعلان وعلى انفعال كل واحد منهما ما صاحبته تحدثت الاجسام وتتكون وان كان
 الحرا أكثر فعلا في ذلك من البردان البرد ليس له نقل الاشياء ولا تحركها والحرا هو علة
 الحركة ومتى ضعفت عنه الكون وهو الحرارة لم يتم منها شيء أبدا كما انه اذا أفرطت
 الحرارة على شيء ولم يكن ثم برد أحرقتة وأهلكته فمن أجل هذه العلة احتجج الى البارد في
 هذه الاعمال بقوى به كل ضد على ضده ويدفع عنه حر النار ولم يحذر الفلاسفة أكثر
 شيء الا من النيران المحرقة وأمرت بتطهير الطبائع والانسافس واخراج دنسها ورطوبتها
 ونبي آفاتهم! وأوساخها عنها على ذلك استقام رأيهم وتدبيرهم فانما علمهم انما هو مع
 النار أولا واليهاب بصير آخر اذ ذلك قالوا اياكم والنيران المحرقات وانما أرادوا بذلك نفي
 الآفات التي معها فتجمع على الجسد آفتين فتكون أسرع لهلاكه وكذلك كل شيء
 انما يتلاشى ويفسد من ذاته لتضاد طبائعه واختلافه فيتوسط بين شيئين فلم يجد ما يقويه
 ويعينه الا قهرته الآفة وأهلكته واعلم ان الحكماء كاهذا كرت ترداد الارواح على
 الاجساد مرارا ليكون ألزم اليها وأقوى على قتال النار اذا هي باشرتها عند الالفة
 أعني بذلك النار العنصرية فاعلمه * ولنقل الآن على الحجر الذي يمكن منه العمل على
 ما ذكرته الفلاسفة فقد اختلفوا فيه فمنهم من زعم أنه في الحيوان ومنهم من زعم أنه في
 النبات ومنهم من زعم أنه في المعادن ومنهم من زعم أنه في الجميع وهذه الدعاوى ليست
 بنا حاجة الى استقصائهم او مناظرة أهلها عليهم لان الكلام بطول جدا وقد فات فيما
 تقدم ان العمل يكون في كل شيء بالقوة لان الطبائع موجودة في كل شيء فهو كذلك فنريد
 ان نعلم من أي شيء يكون العمل بالقوة والفعل فنقصد الى ما قاله الحراني ان الصبغ

كله أحد صبغين أما صبغ جسد كالزعفران في الثوب الأبيض حتى يحول فيه وهو
مضمحل منتقض التركيب والصبغ الثاني تقلب الجوهر من جوهر نفسه إلى جوهر
غيره ولونه كتقلب الشجر بل التراب إلى نفسه وقلب الحيوان والنبات إلى نفسه حتى
يصير التراب نباتا أو النبات حيوانا ولا يكون إلا بروح الحى واليكيان الفاعل الذى له
تولد الاجرام وقلب الاعيان فاذا كان هذا هكذا فنقول ان العمل لا بد ان يكون
أما فى الحيوان وأما فى النبات وبرهان ذلك انهم مطبوعان على الغذاء وبه قوامهما
وتماهما فأما النبات فليس فيه ما فى الحيوان من اللطافة والقوة ولذلك قل تحوض
الحكاه فيه وأما الحيوان فهو آخر الاستحالات الثلاث ونهايتها وذلك ان المعدن
يستحيل نباتا والنبات يستحيل حيوانا والحيوان لا يستحيل الى شئ هو أظف منه
الا أن ينعكس راجعا الى الغلظ وأنه أيضا لا يوجد فى العالم شئ تتعاقب به الروح الحية
غيره والروح أظف ما فى العالم ولم تتعاقب الروح بالحيوان الا بشا كانه اياها فأما الروح
التي فى النبات فانها يسيرة في الغلظ وكتنافة وهي مع ذلك مستغرقة كامنة فيه
لغاطها وغلظ جسد النبات فلم يقدر على الحركة لغلظه وغلظ روحه والروح المتحركة
أظف من الروح الكامنة كثيرا وذلك ان المتحركة لها قبول الغذاء والتنقل والتنفس
وليس للكامنة غير قبول الغذاء وحده ولا تجرى اذا قيست بالروح الحية الا كالارض
عند الماء كذلك النبات عند الحيوان فالعمل فى الحيوان أعلى وأرفع وأهون وأيسر
فينبغى للعاقل اذا عرف ذلك أن يجرب ما كان سهلا ويترك ما يخشى فيه عسرا . واعلم
أن الحيوان عند الحكماء ينقسم أقساما من الالتهات التي هي الطبائع والحديشة التي
هي الموالييد وهذا معروف متيسر الفهم فلذلك قسمت الحكماء العناصر والموالييد
أقساماً حية وأقساماً ميتة فجعلوا كل متحرك فاعلا حيا وكل ساكن مفعولا ميتا . فسموا
ذلك فى جميع الاشياء وفى الاجساد الذائبة وفى العقاقير المعدنية فسموا كل شئ يذوب
فى النار ويطبر ويشتعل حيا وما كان على خلاف ذلك سموه ميتا فأما الحيوان
والنبات فسموا كل ما انفصل منها طبائع أربعا حيا وما لم يتفصل سموه ميتا ثم انهم
طلبوا جميع الاقسام الحية فلم يجدوا الوفاق هذه الصناعة مما يتفصل فصلا أربعة
ظاهرة للعيان ولم يجدوه غير الحجر الذى فى الحيوان فبصنوا عن جنسه حتى عرفوه
وأخذوه ودبروه فتكليفهم منه الذى أرادوا وقد يتكليف مثل هذا فى المعادن
والنبات بعد جمع العقاقير لغلظها ثم تفصل بعد ذلك فأما النبات فنه ما يتفصل ببعض
هذه الفصول مثل الاشنان وأما المعادن ففيها أجساد وأرواح وأنفاس اذا مزجت
ودبرت كان منها ما له تأثير قد دبرنا كذلك فكان الحيوان منها أعلى وأرفع

وتدبيره أسهل وأيسر فينبغي لك أن تعلم ما هو الحجر الموجود في الحيوان وطريق وجوده
أنا أيضاً أن الحيوان أرفع المواليد وكذا ما تركب منه فهو أطف منه كالنبات من
الأرض وإنما كان النبات أطف من الأرض لأنه إنما يكون من جوهره الصافي
وجسده اللطيف فوجب له بذلك اللطافة والرقّة وكذا هذا الحجر الحيواني بمنزلة النبات
في التراب وبالجملة فإنه ليس في الحيوان شيء يتصل بطبائع أربعا غيره فافهم هذا القول
فإنه لا يكاد يجتني الأعمى جاهل بين الجهالة ومن لا عقل له فقد أخبرتك ماهية هذا الحجر
وأعلمت جنسه وأنا أبين لك وجوه تدبيره حتى يكمل الذي شرطناه على أنفسنا من
الانصاف إن شاء الله سبحانه (التدبير على بركة الله) هذا الحجر الكريم فاودعه القرعة
والاتباق وفصل طبائعه الأربعة التي هي النار والهواء والأرض والماء وهي الجسد
والروح والنفس والصبغ فاذا عززت الماء عن التراب والهواء عن النار فارفع كل
واحد في إناءه على حدة وخذ الهابط أسفل الإناء وهو التفل فاغسله بالنار الحارة حتى
تذهب النار عنه سواده ويزول غلظه وجفائه ويبيضه تبييضاً محكماً وطير عنه فضول
الرطوبات المستحقة فيه فإنه يصير عند ذلك ماءً أبيض لا ظلمة فيه ولا رشح ولا تضاد ثم
اعمد إلى تلك الطبائع الأولى الصاعدة منه فطهرها أيضاً من السواد والتضاد وكرر عليها
الغسل والتعصيد حتى تلتفت وترق وتصفو فاذا فعلت ذلك فقد فتح الله عليك فابدأ
بالتركيب الذي عليه مدار العمل وذلك أن التركيب لا يكون إلا بالتزويج والتعفين
فأما التزويج فهو اختلاط اللطيف بالغلظ وأما التعفين فهو التمشية والسحق حتى
يختلط بعضه ببعض ويصير شيئاً واحداً لا اختلاف فيه ولا نقصان بمنزلة الامتزاج بالماء
فعند ذلك يقوى الغلظ على امسالك اللطيف وتقوى الروح على مقابلة النار وتصب
أبها وتقوى النفس على الغوص في الأجساد والديب فيها وإنما وجد ذلك بعد
التركيب لأن الجسد المحلول لما ازدوج بالروح ما زجه بجميع أجزائه ودخل بعضها في
بعض تشاكها فصار شيئاً واحداً ووجب من ذلك أن يعرض للروح من الصلاح
والفساد والبقاء والنبوت ما يعرض للجسد لموضع الامتزاج وكذلك النفس إذا
امتزجت بهما ودخلت فيهما بمخدمة التدبير اختلطت أجزاؤها بجميع أجزاء
الآخرين أعني الروح والجسد وصارت هي وهما شيئاً واحداً لا اختلاف فيه بمنزلة
الجزء الكلي الذي سلت طبائعه وانفقت أجزاؤه فاذا لقي هذا المركب الجسد المحلول
وألح عليه النار وأظهر ما فيه من الرطوبة على وجهه ذاب في الجسد المحلول ومن
شان الرطوبة الاشتعال وتعلق النار به فاذا أرادت النار التعلق به أمنه من
الاتحاد بالنفس مما زجه الماء لها فان النار لا تهد بالدهن حتى يكون خالصاً وكذلك

الماء من شأنه النفور من النار فاذا ألحقت عليه النار وأرادت تطهيره حسب الجسد
اليابس الممازج له في جوفه فذعه من الطيران فكان الجسد علة لامتثال الماء والماء
علة لبقاء الدهن والدهن علة لتببات الصبغ والصبغ علة لظهور الدهن واطهار
الدهنية في الاشياء المنظمة التي لانورهاها ولا حياة فيها فهذا هو الجسد المستقيم وهكذا
يكون العمل وهذه التصفية التي سألت عنها وهي التي سميت بالحكمة بيضة واياها
يعنون لا بيضة الدجاج * واعلم أن الحكمة لم تسمها بهذا الاسم لغير معنى بل أشبهتها
واقدمت مسلمة عن ذلك يوما وليس عنده غيري فقلت له أيها الحكيم الفاضل اخبرني
لاي شئ سميت الحكمة مركب الحيوان بيضة اختيارا منهم لذلك أم لمعنى دعاهم اليه
فقال بل لمعنى عامض فقلت أيها الحكيم وما ظهر لهم من ذلك من المنفعة والاستدلال
على الصناعة حتى شبهوها وسموها بيضة فقال لشبهها وقرابتها من المركب ففكر فيه
فانه سيظهر لك معناه فبقيت بين يديه مفكرا لا أقدر على الوصول الى معناه فلما رأى
ما لي من المفكروان نفسي قد مضت فيها أخذ بعضدي وهزني هزة خفيفة وقال لي
يا أبا بكر ذلك للنسبة التي بينهما في كية الالوان عند امتزاج الطبائع وتأليفها فلما قال
ذلك انجلت عن الظلمة وأضاء لي نور قلبي وقوى عقلي على فهمه فنهضت شاكر الله عليه
الى منزلي وأقت على ذلك شكلا هندسيا يبرهن به على صحة ما قاله مسلمة وأنا واضعها
في هذا الكتاب مثال ذلك أن المركب اذا تم وكل كان نسبة ما فيه من طبيعة الهواء الى
ما في البيضة من طبيعة الهواء كنسبة ما في المركب من طبيعة النار الى ما في البيضة
من طبيعة النار وكذلك الطبيعتان الاخرتان الارض والماء فأقول ان كل شئين
متناسين على هذه الصفة فهما متشابهان ومثال ذلك أن تجعل لسطح البيضة هزوح
فاذا أردنا ذلك فانا نأخذ أقل طبائع المركب وهي طبيعة اليبوسة ونضيف اليها مثالا
من طبيعة الرطوبة ونديرهما حتى تنشف طبيعة اليبوسة طبيعة الرطوبة وتقبل
قوتها وكان في هذا الكلام رمز اول لكنه لا يخفى عليك ثم تحمل عليهما جميعا مثلها
من الروح وهو الماء فيكون الجميع ستة أمثال ثم تحمل على الجميع بعد التدبير مثلا من
طبيعة الهواء التي هي النفس وذلك ثلاثة أجزاء فيكون الجميع تسعة أمثال اليبوسة
بالقوة وتجعل تحت كل ضلعين من المركب الذي طبيعته محبطة بسطح المركب
طبيعتين فتجعل أولا الضلعين المحيطين بسطح طبيعة الماء وطبيعة الهواء وهما
ضلعان ح د وسطح أ ب ج د وكذلك الضلعان المحيطان بسطح البيضة الاذان هما الماء
والهواء ضلعاه ز و ح فاقول ان سطح أ ب ج د يشبه سطح ه ز و ح طبيعة الهواء التي تسمى
نفسا وكذلك ب ج د من سطح المركب والحكمة لم تسم شيئا باسم شئ الا لشبهه به

والكلمات التي سألت عن شرحها الارض المقدسة وهي المنعقدة من الطائع العلوية
 والسفلية والنحاس هو الذي أخرج سواده وقطع حتى صار هباء ثم جرب الزاج حتى صار
 نحاسيا والمغنيب يا حجرهم الذي تجمد فيه الارواح وتخرج به الطبيعة العلوية التي
 تستجيب فيها الارواح لتقابل عليها الذرات الفرفرة لون أسمر فان يحدته الكيان والرماس
 حجر له ثلاث قوى مختلفة الشخوص ولكنها متشاكلة ومتجانسة فالواحدة روحانية
 نيرة صافية وهي الناعلة والناية نفسانية وهي متحركة حساسة غير أنها أغلظ من
 الاولى ومركزها دون مركز الاولى والثالثة قوة أرضية حاسة قابضة منعكسة الى مركز
 الارض لتقابلها وهي الماسكة الروحانية والنفسانية جميعا والمحيط بها وأما سائر
 الباقية فتبدعة ومخترة الباسا على الجاهل ومن عرف المقدمات استغنى عن غيرها
 * فهذا جميع ما سألتني عنه وقد بعثت به اليك مفسرا وزجوا بتوفيق الله أن تبلغ
 أملاك والسلام انتهى كلام ابن بشرون وهو من كبار تلاميذ مسلمة المجر بطي شيخ الاندلس
 في علوم الكيمياء والسيما والسحر في القرن الثالث وما بعده * وأنت ترى كيف
 صرف ألقاظهم كلها في الصناعات الى الرمز والالغاز التي لا تكاد تبين ولا تعرف
 وذلك دليل على أنها ليست بصناعة طبيعية * والذي يجب أن يعتد في أمر الكيمياء
 وهو الحق الذي يعضده الواقع أنها من جنس آثار النفوس الروحانية وتصرقها في
 عالم الطبيعة امام نوع الكرامة ان كانت النفوس خيرة أو من نوع السحر ان كانت
 النفوس شريرة فاجرة فأما الكرامة فظاهرة وأما السحر فلان الساحر كما ثبت في مكان
 تحقيقه يقلب الاعيان المادية بقوته السحرية ولا بد له مع ذلك عندهم من مادة يقع
 فعله السحري فيها كخلق بعض الحيوانات من مادة التراب أو الشجر والنبات وبالجملة
 من غير مادتها المخصوصة بها كما وقع لسحرة فرعون في الحبال والعصى وكما ينقل عن
 سحرة السودان والهنود في قاصبة الجنوب والترك في قاصبة الشمال انهم يسحرون
 الجولامطار وغير ذلك * ولما كانت هذه تخليقا للذهب في غير مادته الخاصة به
 كان من قبيل السحر والمتكاملون فيه من اعلام الحكماء مثل جابر ومسلمة ومن كان
 قبلهم من حكماء الامم انما نحو هذا المنحى ولهذا كان كلامهم فيه الغار احذرا
 عليها من انكار الشرائع على السحر وأنواعه لأن ذلك يرجع الى الضميمة بها كما هو
 رأى من لم يذهب الى التحقيق في ذلك وانظر كيف سمي مسلمة كتابه في هارتبة الحكيم
 وسمى كتابه في السحر والطلسمات غاية الحكيم اشارة الى عموم موضوع الغاية
 وخصوص موضوع هذه لان الغاية أعلى من الرتبة فكانت مسائل الرتبة بعض من
 مسائل الغاية وتشاركها في الموضوعات ومن كلامه في الفين يتبين ما قلناه ونحن نبين

فيماء بعد غلط من يزعم ان مدارك هذه الامر بالصناعة الطبيعية والله العالم الخبير

٢٥ (فصل في ابطال الفلسفة وفساد منتحلها)

هذا الفصل وما بعده مهم لان هذه العلوم عارضة في العمران كثيرة في المدن وضررها في الدين كثير فوجب ان يصدع بشأنهم ويكشف عن المعتقد الحق فيها وذلك ان قوما من عقلاء النوع الانساني زعموا ان الوجود كله الحسي منه وما وراء الحسي تدرك ذواته وأحواله بأسبابها وعللها بالانظار الفكرية والاقبسية العقلية وأن تصحيح العقائد الايمانية من قبل النظر لا من جهة السمع فانها بعض من مدارك العقل وهؤلاء يسمون فلاسفة جمع فيلسوف وهو باللسان اليوناني محب الحكمة فبحثوا عن ذلك وشروا له وحووا على اصابة الغرض منه ووضعوا قانونا يهتدى به العقل في نظره الى التمييز بين الحق والباطل وسموه بالمنطق ومحصل ذلك أن النظر الذي يقيد تمييز الحق من الباطل انما هو للذهن في المعاني المنتزعة من الموجودات الشخصية فيجرد منها اولاً صوراً منطبقة على جميع الاشخاص كما ينطبق الطابع على جميع النقوش التي ترسمها في طرأ وشمع وهذه المجردة من المحسوسات تسمى المعقولات الاوائل ثم تجرد من تلك المعاني الكلية اذا كانت مشتركة مع معاني أخرى وقد عجزت عنها في الذهن فتجرد منها معاني أخرى وهي التي اشتركت بها ثم تجرد ثانياً ان شاركها غير وثالثاً الى أن ينتهي التجريد الى المعاني البسيطة الكلية المنطبقة على جميع المعاني والاشخاص ولا يكون منها تجريد بعده - ذاء هي الاجناس العالية وهذه المجردات كلها من غير المحسوسات هي من حيث تأليف بعضها مع بعض لتحصيل العلوم منها تسمى المعقولات الثواني فاذا نظر الفكر في هذه المعقولات المجردة وطلب تصور الوجود كما هو فلا بد للذهن من اضافة بعضها الى بعض ونفي بعضها عن بعض بالبرهان العقلي اليقيني ليحصل تصور الوجود تصوراً صحيحاً مطابقاً اذا كان ذلك بقانون صحيح كما ترصن التصديق الذي هو تلك الاضافة والحكم متقدم عندهم على صنف التصور في النهاية والتصور متقدم عليه في البداية والتعليم لان التصور التام عندهم هو غاية لطلب الادراك وانما التصديق وسيله له وما تسمعه في كتب المنطقيين من تقدم التصور وتوقف التصديق عليه فبمعنى الشعور لا بمعنى العلم التام وهذا هو مذهب كبيرهم ارسطو ثم يزعمون أن السعادة في ادراك الموجودات كلها ما في الحس وما وراء الحس - هذا النظر وتلك البراهين * وحاصل مداركهم في الوجود على الجملة وما آلت اليه وهو الذي فزعوا عليه قضايا انظارهم أنهم عثروا اولاً على الجسم

السفلى بجمجم الشهود والحس ثم ترقى ادراكهم قليلا فتشعر و بوجود النفس من قبل الحركة والحس في الحيوانات ثم أحسوا من قوى النفس بساطان العقل ووقف ادراكهم فتقضوا على الجسم العالى السماوى بنحو من القضاء على أمر الذات الانسانية ووجب عندهم أن يكون للفلك نفس وعقل كالأنسان ثم انهوا ذلك نهاية عدد الآحاد وهى العشر تسع مفصلة ذواتها جبل وواحد أقل مفرد وهو العاشر ويرى عمون أن السعادة فى ادراك الوجود على هذا النحو من القضاء مع تهذيب النفس وتخليقها بالفضائل وان ذلك ممكن للإنسان ولو لم يرد شرع لتمييزه بين الفضيلة والرذيلة من الأفعال يقتضى عقله ونظره ويهمله الى المحمود منها واجتنابه للمذموم بفطرته وان ذلك اذا حصل للنفس حصلت لها البهجة واللذة وان الجهل بذلك هو الشقاء السرمدى وهذا عندهم هو معنى النعيم والعذاب فى الآخرة الى خبط لهم فى تفاصيل ذلك معروف من كلماتهم وامام هذه المذاهب الذى حصل مسائلها ودون علمها وسطر حجاجها فيما بلغنا فى هذه الاحقاب هو ارسطو المقدونى من أهل مقدونية من بلاد الروم من تلاميذ أفلاطون وهو معلم الاسكندرو ويسمونه المعلم الاول على الاطلاق يعمون معلم صناعة المنطق اذ لم تكن قبله مهذبة وهو أقول من رتب قانونها واستوفى مسائلها وأحسن بسطها وراقدها حسن فى ذلك القانون ماشاء لو تكذبل به بقصد هم فى الالهيات ثم كان من بعده فى الاسلام من اخذ بتلك المذاهب واتبع فيها رأيه حذو النعل بالنعل الا فى القليل وذلك أن كتب أوائل المتقدمين لما ترجعوا الخلفاء من بنى العباس من اللسان اليونانى الى اللسان العربى تصفحها كثير من أهل الملة وأخذ من مذاهبهم من أضله الله من متحملى العلوم ويجادلوا عنها واختلفوا فى مسائل من تفاربعها وكان من أشهرهم أبو نصر الفارابى فى المائة الرابعة له هدى سيف الدولة وأبو على بن سينا فى المائة الخامسة له هدى نظام الملك من بنى بويه باصهبان وغيرهما * واعلم أن هذا الرأى الذى ذهبوا اليه باطل بجميع وجوهه فأما اسنادهم الموجودات كلها الى العقل الاول واكتفاؤهم به فى الترقى الى الواجب فهو قصور عما وراء ذلك من رتب خالق الله فالوجود أوسع نطاقا من ذلك ويخلق ما لا تعلمون وكأنهم فى اقتصارهم على اثبات العقل فقط والغفلة عما وراءه بمنابة الطبيعيين المنتصرين على اثبات الاجسام خاصة المعرضين عن النقل والعقل المعتقدين أنه ليس وراء الجسم فى حكمة الله شئ وأما البراهين التى يزعجونها على مدعياتهم فى الموجودات ويعرضونها على معيار المنطق وقانونه فهى قاصرة وغير وافيه بالغرض أما ما كان منها فى الموجودات الجسمانية ويسمونه العلم الطبيعى فوجه قصوره أن المطابقة بين تلك النتائج الذهنية

التي تستخرج بالحدود والاقبسة كما في زعمهم وبين ما في الخارج غير يقيني لان تلك
 احكام ذهنية كلية عامة والموجودات الخارجية متشخصة بآثارها واعدل في المواد
 ما يمنع من مطابقة الذهني الكلي للخارجي الشخصي اللهم الا ما يشهد له الحس من
 ذلك فدلله شهوده لانك البراهين فابن اليقين الذي يجدونه فيها وربما يكون تصرف
 الذهن أيضا في المعقولات الاول المطابقة للشخصيات بالصورة الخيالية لاني المعقولات
 الثواني التي تجردها في الرتبة الثانية فيكون الحكم حينئذ يقينا بمثابة المحسوسات
 اذ المعقولات الاول اقرب الى مطابقة الخارج الكمال الانطباع فيها فنسلم لهم حينئذ
 دعاويهم في ذلك الا انه ينبغي لنا الاعراض عن النظر فيها اذ هو من ترك المسلم لما
 لا يعنيه فان مسائل الطبيعيات لا تهمننا في ديننا ولا معاشنا فوجب علينا تركها *
 واما ما كان منها في الموجودات التي وراء الحس وهي الروحانيات ويسمونه العلم الالهي
 وعلم ما بعد الطبيعة فان ذواتها مجهولة راسا ولا يمكن التوصل اليها ولا البرهان عليها
 لان تجريد المعقولات من الموجودات الخارجية الشخصية انما هو ممكن فيما هو
 مدرك لنا ونحن لا ندرك الذوات الروحانية حتى نجردها عن ماهيات أخرى بحجاب
 الحس بيننا وبينها فلا يتأتى لنا برهان عليها ولا مدرك لنا في اثبات وجودها على الجملة الا
 ما نجد بين جنينا من أمر النفس الانسانية وأحوال مداركها وخصوصا في الرؤيا
 التي هي وجدانية لكل أحد وما وراء ذلك من حقيقة واصفاتها أمر غامض لا سبيل
 الى الوقوف عليه وقد صرح بذلك محققوهم حيث ذهبوا الى أن ما لا مادة له لا يمكن
 البرهان عليه لان مقدمات البرهان من شرطها أن تكون ذاتية وقال كبيرهم
 افلاطون ان الالهيات لا يوصل فيها الي يقين وانما يقال فيها بالاحق والاولى يعني الظن
 واذ كانا نحصل بعد التعب والنصب على الظن فقط فكيف بنا الظن الذي كان أو لا فأي
 فائدة لهذه العلوم والاشتغال بها ونحن انما عنينا بتناقصهصيل اليقين فيما وراء الحس من
 الموجودات وهذه هي غاية الافكار الانسانية عندهم وأما قولهم ان السعادة في ادراك
 الموجودات على ما هي عليه بتلك البراهين فقول مزيف مردود وتفسيره أن الانسان
 مركب من جزأين أحدهما جسماني والآخر روحاني فمترج به ولكل واحد من الجزأين
 مدارك مختصة به والمدرك فيهما واحد وهو الجزء الروحاني يدرك تارة مدارك روحانية
 وتارة مدارك جسمانية الا أن المدارك الروحانية يدركها بذاته بغير واسطة والمدارك
 الجسمانية بواسطة آلات الجسم من الدماغ والحواس وكل مدرك فله ابتهاج بما يدركه
 واعتبره به حال الصبي في أول مداركه الجسمانية التي هي بواسطة كيف يتبرج بما يصره
 من الضوء وبما يسمعه من الاصوات فلا شك أن الابتهاج بالادراك الذي للنفس من

ذاتها بغير واسطة يكون أشد وأذف النفس الروحانية إذا شعرت بأدراكها الذي لها من ذاتها بغير واسطة حصل لها ابتهاج ولذة لا يعبر عنها وهذا الإدراك لا يحصل بنظر ولا علم وإنما يحصل بكشف حجاب الحس ونسيان المدارك الجسمانية بالجملة والمتصوفة كثيرا ما يعنون بمحصول هذا الإدراك لنفس بمحصول هذه البهجة فيحاولون بالرياضة إمامة القوى الجسمانية ومداركها حتى السكر من الدماغ ليحصل للنفس ادراكها الذي لها من ذاتها عند زوال الشواغب والموانع الجسمانية فيحصل لهم بهجة ولذة لا يعبر عنها وهذا الذي زعموه بتقدير صحته مسلم لهم وهو مع ذلك غير واف به تصودهم فأما قولهم ان البراهين والأدلة العقلية محصلة لهذا النوع من الإدراك والابتهاج عنه غباطل كما رأيتهم إذا البراهين والأدلة من جملة المدارك الجسمانية لانها بالقوى الدماغية من الخيال والفكر والذكرو نحن أول شئ نعلم في تحصيل هذا الإدراك إمامة هذه القوى الدماغية كلها لانها منازعة له فادحة فيه وتجد الماهر منهم عاكفا على كتاب الشفاء والإشارات والنجماء وتلاخيص ابن رشد للنص من تأليف أرسطو وغيره يعثر أوراقها ويتوثق من براهينها ويلتمس هذا القسط من السعادة فيها ولا يعلم أنه يستكثر بذلك من الموانع عنها ومستهندهم في ذلك ما يتقلونه عن أرسطو والفقارابي وابن سينا أن من حصل له إدراك العقل الفعال واتصل به في حياته فقد حصل حظ من هذه السعادة والعقل الفعال عندهم عبارة عن أول رتبة ينكشف عنها الحس من رتب الروحانيات ويحملون الاتصال بالعقل الفعال على الإدراك الأعلى وقد رأيت فسادهم وإنما يعنى أرسطو وأصحابه بذلك الاتصال والإدراك النفس الذي لها من ذاتها بغير واسطة وهو لا يحصل إلا بكشف حجاب الحس وأما قولهم ان البهجة الناشئة عن هذا الإدراك هي عين السعادة الموعود بها فباطل أيضا لاننا نأتمنئ لنابجا قتروه أن وراء الحس مدركا آخر للنفس من غير واسطة وانها ابتهاج بأدراكها ذلك ابتهاجا شديدا وذلك لا يعنى انسانيه عين السعادة الاخرية ولا يتبدل هي من جملة الملاذات التي لتلك السعادة وأما قولهم ان السعادة في إدراك هذه الموجودات على ما هي عليه فقول باطل مبنى على ما كنا قدمناه في أصل التوحيد من الاوهام والاغلاط في أن الوجود عند كل مدرك منحصر في مداركه وبيننا فساد ذلك وأن الوجود أوسع من أن يحاط به أو يستوفى إدراكه بجملة روحانيا أو جسمانيا والذي يحصل من جميع ما قترناه من مذاهبهم أن الجزء الروحاني اذا فارق القوى الجسمانية أدرك إدراكا ذاتيا له مختصا بصنف من المدارك وهي الموجودات التي أحاط بها علمنا وليس بهتمام الإدراك في الموجودات كلها اذ لم تنحصر وانها يتبجح بذلك النحوم الإدراك ابتهاجا شديدا كما

يتنجح الصبي بمداركة الحسية في أول نشوه ومن لنا بعد ذلك بأدراك جميع الموجودات
 أو بحصول السعادة التي وعدنا بها الشارع ان لم نعمل لها هيئات المتعدون
 وأما قولهم ان الانسان مستعمل بتهديب نفسه واصلاحها بلا بسطة المحمود من الخلق
 ومجانبة المذموم فأمر مبني على أن ابتهاج النفس بأدراكها الذي لها من ذاتها هو عين
 السعادة الموعود بها لان الرزائل عائدة للنفس عن تمام ادراكها ذلك بما يحصل لها من
 الملكات الجسمانية والوانها وقد بينا ان أثر السعادة والشقاوة من وراء الادراكات
 الجسمانية والروحانية فهذا التهديب الذي توصلوا الى معرفته انما نفعه في البهجة
 الناشئة عن الادراك الروحاني فقط الذي هو على مقاييس وقوانين وأما ما وراء ذلك
 من السعادة التي وعدنا بها الشارع على امتثال ما أمر به من الاعمال والاخلاق
 فأمر لا يحيط به مدارك المدركين وقد تنبه لذلك زعيمهم أبو علي بن سينا فقال في كتاب
 المبدأ والمعاد ما معناه ان المعاد الروحاني وأحواله هو مما يتوصل اليه بالبراهين العقلية
 والمقاييس لانه على نسبة طبيعية محفوظة ووتيرة واحدة فلنا في البراهين عليه سعة وأما
 المعاد الجسماني وأحواله فلا يمكن ادراكه بالبرهان لانه ليس على نسبة واحدة وقد
 بسطته لنا الشريعة الحقة المحمدية فليتنظر فيها ولنرجع في أحواله اليها فهذا العلم كما
 رأيت غير وافي بمقاصدهم التي حوّموا عليها مع ما فيه من مخالفة الشرائع وظواهرها
 وليس له فيما علمنا الاثرة واحدة وهي شهذالذهن في ترتيب الادلة والحجج لتحصيل
 ملكة الجود والصواب في البراهين وذلك ان نظم المقاييس وتركيبها على وجه
 الاحكام والاتقان هو كما شرطوه في صناعتهم المنطقية وقولهم بذلك في علومهم الطبيعية
 وهم كثيرا ما يستعملونها في علومهم الحكمية من الطبيعيات والتعاليم وما بعدها
 فيستولى الناظر فيها بكثرة استعمال البراهين بشروطها على ملكة الاتقان والصواب
 في الحجج والاستدلالات لانها وان كانت غير وافية بقصودهم فهي أسخ ما علمناه من
 قوانين الاقار هذه هي ثمرة هذه الصناعة مع الاطلاع على مذاهب أهل العلم وآرائهم
 ومضارها ما علمت فليكن الناظر فيها متحرزا بجهده من معاطبها وليكن نظر من ينظر فيها
 بعد الامتلاء من الشرعيات والاطلاع على التفسير والفقه ولا يكين أحد عليها وهو
 خلون علوم الملة فقل أن بسلم لذلك من معاطبها والله الموفق للصواب وللحق والهادي
 اليه وما كنا ننتدى لولا أن هدانا الله

٢٦ (فصل في ابطال صناعة النجوم وضعف مداركها وفساد غايتها)

هذه الصناعة يزعم أصحابها أنهم يعرفون بها الكائنات في عالم العناصر قبل حدوثها

من قبل معرفة قوى الكواكب وتأثيرها في المولدات العنصرية مفردة ومجمعة
فتكون لذلك أوضاع الافلاك والكواكب دالة على ما يحدث من نوع نوع من أنواع
الكائنات الكلية والخصية فالمتقدمون منهم يرون أن معرفة قوى الكواكب
وتأثيراتها بالتجربة وهو أمر تقصر الاعمار كما لو اجتمعت عن تحصيله اذا التجربة
انما تحصل في المرات المتعددة بالتكرار ليحصل عنها العلم والظن وأدوار الكواكب
منها ما هو طويل الزمن فيحتاج تكرره الى آما دواحقاب متطاولة يتقاصر عنها ما هو
طويل من أعمار العالم وربما ذهب ضيفا منهم الى أن معرفة قوى الكواكب
وتأثيراتها كانت بالوحى وهو رأى فائل وقد كفونا مؤنة ابطاله ومن أوضح الادلة فيه
أن تعلم أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام أبعدا الناس عن الصنائع وأنهم لا يتعرضون
لاخبار عن الغيب الا أن يكون عن الله فكيف يدعون استنباطه بالصناعة ويشيرون
بذلك انابهم من الخلق وأما بطليموس ومن تبعه من المتأخرين فيرون أن دلالة
الكواكب على ذلك دلالة طبيعية من قبل مزاج يحصل للكواكب في الكائنات
العنصرية قال لان فعل النيرين وأثره ما في العنصرينات ظاهرا لا يسع أحد ابعده
مثل فعل الشمس في تبدل الفصول وأمر جتها ونضج الثمار والزرع وغير ذلك وفعل
انقمر في الرطوبات والماء وانضاج المواد المتعفنة وفواكه القناه وسائر أفعاله ثم قال
ولنا فيما بعده ما من الكواكب طريقان الاولى القلب لمن نقل ذلك عنه
من أئمة الصناعة الا أنه غير مقنع للنفس الشائبة الحدس والتجربة بقياس كل
واحد منها الى النير الاعظم الذى عرفنا طبيعته وأثره معرفة ظاهرة فنظر هل يزيد
ذلك الكوكب عند التران في قوته ومزاجه فتعرف موافقته له في الطبيعة أو ينقص
عنها فتعرف مضادته ثم اذا عرفنا قواها مفردة عرفنا ما مركبة وذلك عند تناظرها
بأشكال التثليث والتربيع وغيرها ما رة معرفة ذلك من قبل طبائع البروج بالقياس
أيضا الى النير الاعظم واذا عرفنا قوى الكواكب كما هي مؤثرة في الهواء وذلك ظاهر
والمزاج الذى يحصل منها للهواء يحصل لما تحتها من المولدات وتخلق به النطف والبرز
فتصير حال البدن المتككون عنها والنفس المتعلقة به القانضة عليه المكتسبة
لما لها منه ولما يتبع النفس والبدن من الاحوال لان كفيات البيرة والنطفة
كفيات لما يتولد عنها وينشأ منها قال وهو مع ذلك ظنى وليس من اليقين في شئ وليس
هو أيضا من القضاء الالهى يعنى القدر انما هو من جملة الاسباب الطبيعية للكائن
والقضاء الالهى سابق على كل شئ هذا يحصل كلام بطليموس وأصحابه وهو منصوص
في كتابه الاربع وغيره ومنه يتبين ضعف مدرك هذه الصناعة وذلك أن العلم الكائن

أو الظن به انما يحصل عن العلم بجملة أسبابه من الفاعل والقابل والصورة والغاية
 على ما تبين في موضعه والقوى النجومية على ما قرره انما هي فاعلة فقط والجزء
 العنصري هو القابل ثم ان القوى النجومية ليست هي الفاعل بجملة قابل هناك قوى
 أخرى فاعلة معها في الجزء المادي مثل قوة التوايد للاب وانواع التي في النطفة
 وقوى الخاصة التي تميزها صنف صنف من النوع وغير ذلك فالقوى النجومية اذا
 حصل كمالها وحصل العلم فيها انما هي فاعل واحد من جملة الاسباب الفاعلة للكائن ثم
 انه يشترط مع العلم بقوى النجوم وتأثيراتها مزيد حدس وتخمين وحينئذ يحصل عنده
 الظن بوقوع الكائن والحدس والتخمين قوى للذاظر في فكره وليس من حال الكائن
 ولا من أصول الصناعة فاذا فقد هذا الحدس والتخمين رجعت ادراجها عن الظن الى
 الشك هذا اذا حصل العلم بالقوى النجومية على سداده ولم تترضه آفة وهذا معوز لما
 فيه من معرفة حسابات الكواكب في سيرها التي تعرف به أوضاعها ولما ان اختصاص
 كل كوكب بقوة لا دليل عليه ومدرك بطليموس في اثبات القوى للكواكب الخمسة
 بقياسها الى الشمس مدرك ضعيف لان قوة الشمس غالبية لجميع القوى من الكواكب
 ومستولية عليها فقل أن يشعر بالزيادة فيها وانقصان منها عند المقارنة كما قال وهذه
 كلها فادحة في تعريف الكائنات الواقعة في عالم العناصر بهذه الصناعة ثم ان تأثير
 الكواكب فيما تحتها باطل اذ قد تبين في باب التوحيد أن لفاعل الا الله بطريق
 استدلالى كما رأيت واحتج له أهل علم الكلام بما هو غنى عن البيان من أن اسناد الاسباب
 الى المسببات مجهول الكيفية والعقل متم على ما يقضى به فيما يظهر بادي الرأي من
 التأثير فلعل استنادها على غير صورة التأثير المتعارف والقدرة الالهية رابطة بينهما
 كما ربطت جميع الكائنات علوا وسفلا سببا والشرع يرد الحوادث كلها الى قدرة الله
 تعالى ويرأى مما سوى ذلك والنبوات أيضا منكرة لشأن النجوم وتأثيراتها واستقراء
 الشرعيات شاهد بذلك في مثل قوله ان الشمس والقمر لا يخسفان ماوت أحد ولا الحيان
 وفي قوله أصبح من عبادة مؤمن بي وكافر بي فاما من قال مطرنا بفضل الله ورحمته
 فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب وأما من قال مطرنا بنوء كذا فذلك كافر بي مؤمن
 بالكواكب الحديث الصحيح فتدبان لك بطلان هذه الصناعة من طريق الشرع
 وضعف مداركها مع ذلك من طريق العدل مع مالها من المضار في العمران الانساني
 بما تعث في عقائد العوام من الفساد اذا اتفق الصدق من احكامها في بعض الاحايين
 اتساقا لا يرجع الى تعليل ولا تحقيق فيلهمج بذلك من لا معرفة له ويظن اطراد الصدق
 في سائر احكامها وليس كذلك فيقع في رد الاشياء الى غير خالقها ثم ما ينشأ عنها كثيرا

في الدول من توقع القواطع وما يبعث عليه ذلك التوقع من تطاول الاعداء والمتربصين
بالدونة الى الفتك والثورة وقد شاهدنا من ذلك كثيرا فينبغي أن تحظر هذه الصناعة على
جميع أهل العمران لما ينشأ عنها من المضار في الدين والدول ولا يقدح في ذلك كون
وجودها طبيعيا للبشر بمقتضى مداركهم وعلومهم فالخير والشر طبيعتان موجودتان
في العالم لا يمكن نزعهما وانما يتعلق التكليف بأسباب حصولهما فيتعين السعي
في اكتساب الخير بأسبابه ودفع أسباب الشر والمضار هذا هو الواجب على من عرف
مفاسده هذا العلم ومضاره وليعلم من ذلك أنهم لو ان كانت صحيحة في نفسهم لافلا يمكن
أحد من أهل الملة تصويل علمها ولا ملكتها بل ان نظرفها ناظر ووطن الاحاطة بهم فهو
في غاية القصور في نفس الامر فان الشر بعبء لما حظرت النظر فيها فقد الاجتماع من
أهل العمران لقراءتها والتعليق لتعليمها او صار المولع بها من الناس وهم الاقل وأقل
من الاقل انما يطالع كتبها ومقالاتهم في كسر بيتهم متسترا عن الناس وتحت ريقه
الجهل ورمع تشعب الصناعات وكثرة فروعها واعتياصها على الفهم فكيف يحصل منها
على طائفتين ونحن نجد الفقه الذي عم نفعه دينا ودنيا وسهلت ما أخذ من الكتاب
والسنة وعكف الجمهور على قراءته وتعليمه ثم بعد التحقيق والتجميع وطول المداينة
وكثرة الجبال وتعددها انما يحدق فيه الواحد بعد الواحد في الاعصار والابمال
فكيف يعلم جمهور الشر بعبء مضر وبذونه سدا الحظر والحرمان مكتوم عن الجمهور
صعب المأخذ محتاج بعد الممارسة والتحصيل لا صغوله وفروعه الى مزيد حدس وتخبين
يكتمه فان به من الناظر فإين التحصيل والحدق فيه مع هذه كلها ومدعى ذلك من الناس
سرد ودعلى عقبه ولا شاهد له يقوم بذلك لغرابة الفن بين أهل الملة وقلة جلته فاعتبر
ذلك تمييز لك صحة ما ذهبنا اليه والله أعلم بالغيب فلا يظهر على غيبه أحدا * وما
وقع في هـ هذا المعنى لبعض أصحابنا من أهل العصر عندما غلب العرب على اكر السلطان
أبي الحسن وحاصروه بالقيروان وكثرا رجاف الفريقة بين الاولياء والاعداء وقال في ذلك
أبو القاسم الرواحي من شعراء أهل تونس

أستغفر الله ككل حين * قد ذهب العيش والهنا
أصبح في تونس وأمسي * والصبح لله والمساء
الخوف والجوع والمنابا * يحدتها الهرج والوباء
والناس في مربة وحرب * وما عسى يتقع المرء
فاجدى ترى عليا * حل به الهلك والتواء
وآخر قال سوف يأتي * به اليكم صبارخاء

والله من فوق ذارها هذا • يقضى لعبديه ما يشاء
 ياراصد الخنس الجوارى • ما فعلت هذه السماء
 مطلقونا وقصد زعمتم • أنكم اليوم أملياء
 من زخيم على خيس • وجاء سبت وأربعاء
 ونصف شهر وعشرون • وثالث ضمه القضاء
 ولا ترى غير زور قول • أذالك جهل أم ازدراء
 انا الى الله قد علمنا • أن ليس يستدفع القضاء
 رضيت بالله لى الهـ • حسبكم البدر أوزكاه
 ما هذه الا فهم السوارى • الا عباد بدأ واماء
 يقضى عليها وليس تقضى • وماله فى الورى اقتضاء
 ضلت عن قول ترى قد بما • ماشأنه الحرم والنماء
 وحكمت فى الوجود طبعها • يحدته الماء والهواء
 لم ترحسوا ازاء مر • تغذوه موتربته وماء
 الله ربي ولست أدري • ما الجوهر الفرد والحلاء
 ولا الهـ يقول التى تنادى • مالى عن صورة عراء
 ولا وجود ولا انعدام • ولا ثبوت ولا اتناء
 ولست أدري ما الكسب الا • ما جلب البيع والشراء
 وانما مذهبى ودينى • ما كان والناس اولياء
 اذ لا فصول ولا أصول • ولا جدال ولا ارتياء
 ما تبع الهدى وواقفينا • يا حبيذا كان الاقتفاء
 كانوا كما يعلمون منهم • ولم يكن ذلك الهـ ذاء
 يا أشعري الزمان انى • أشعرنى الصيف والشتاء
 أنا أجرى بالشر شرا • والخير عن مثله جزاء
 وانى ان أكن مطيعا • قرب أعصى ولى رجاء
 وانى تحت حكم بار • أطاعه العرش والثراء
 ليس باسـ تطاركم واسكن • أتأحه الحكم والقضاء
 لو حدثت الأشعري عن • له الى رأيه انتمـ
 فكان أخبرهـ بانى • مما يقولونه بسراء

اعلم ان كثيرا من العاجزين عن معاشهم تحماهم المطامع على انفعال هذه الصناعات
ويرون انها احد مذاهب المعاش ووجوهه وان اقتناء المال منها أسير وأسهل على
مبتغيه فبره ~~ك~~ يكون فيها من المتاعب والمشاق ومعاناة الصعاب وعسف المحاكم
وخسارة الاموال في النفقات زيادة على النيل من غرضه والعطب آخر اذا ظهر على
خيبة وهم يحسبون انهم يحسنون صنعا وانما اطعمهم في ذلك رؤية ان المعادن
تستحيل وينقلب بعضها الى بعض للمادة المشتركة فيما ولون بالعلاج صيرورة الفضة
ذهبا والنحاس والقصدير فضة ويحسبون انها من تمكثات عالم الطبيعة واهم في علاج
ذلك طرق مختلفة لاختلاف مذاهبهم في التدبير وصورته وفي المادة الموضوعه عندهم
للعلاج المسماة عندهم بالبحر المكترم هل هي العذرة أو الدم أو الشعر أو البيض أو كذا
أو كذا مما سوى ذلك وجهه التدبير عندهم بعد تعين المادة ان تهى بالفهر على حجر صلد
أملس وتسمى أثناء امهاتها بالماء بعد ان يضاف اليها من العقاقير والادوية ما يناسب
القصدها ويؤثر في انقلابها الى المعدن المطلوب ثم تجفف بالشمس من بعد السقي أو
تطبخ بالنار أو تصعد أو تكسر لاستخراج مائها أو ترابها فاذا رضى بذلك كله من علاجها
وتم تدبيره على ما اقتضته أصول صنعته حصل من ذلك ككله تراب أو مائع يسمونه
الاكسبروزيمون انه اذا ألقى على الفضة المحماة بالنار عادت ذهبا والنحاس المحمي
بالنار عادت فضة على حسب ما قصد به في عمله ويزعم المحققون منهم ان ذلك الاكسبرمادة
مركبة من العناصر الاربعة حصل فيها بذلك العلاج الخاص والتدبير مزاج ذو قوى
طبيعية تصرف ما حصلت فيه اليها وتقلبه الى صورتها ومن اجها وتثبت فيه ما حصل
فيها من الكيفيات والقوى كالخبرة للخبر تقلب العجين الى ذاتها وتعمل فيه ما حصل لها
من الانفشاش والهشاشة ليحسن هضمه في المعدة ويستحيل سريعا الى الغذاء وكذا
اكسبر الذهب والفضة فيما يحصل فيه من المعادن بصرفه اليها او يقلبه الى صورتها
هذا محصل زعمهم على الجملة فتجدهم عاكفين على هذا العلاج يتبعون الرزق والمعاش فيه
ويتناقلون أحكامه وقواعده من كتب لائمة الصناعات من قبلهم يتداولونها بينهم
ويتناظرون في فهم لغوزها وكشف أسرارها الذي في الاكثر تشبه المعنى كالكيف
جابر بن حيان في رسائله السبعين ومسلمة الجربطى في كتابه رتبة الحكيم والطفراني
والغريبي في قصائده العربية في اجادة النظم وأمثالها ولا يحلون من بعد هذا كاه بطائل
منها * فاوضت يوما شيخنا أبا البركات التلغيني كبير مشيخة الاندلس في مثل ذلك
ووقفته على بعض التاليف فيها فتصفحها طويلا ثم رده الى وقال لي وأنا ايضا من له

أن لا يعود الى بيته الا بالحيبة ثم منهم من يقتصر في ذلك على الدلسة فقط اما الظاهرة
كتمويه الفضة بالذهب أو النحاس بالفضة أو خلطها ما على نسبة جزء أو جزأين أو ثلاثة
أو الخضة كالقواء الشبه بين المعادن بالصناعة مثل تبييض النحاس وتليينه بالزوق
المصعد فيجى جسم معدني شبيه بالفضة ويخفى الاعلى النقاد المهرة فيقدر أصحاب هذه
الدلس مع دلستهم هذه سكة يبرونهم في الناس ويطبعونها بطابع السلطان عوبها
على الجهور بالطلاص وهو لاء أخس الناس حرفة وأسوأهم عاقبة لتلبسهم بسرقة
أموال الناس فان صاحب هذه الدلسة انما هو يدفع نحاسا في الفضة وفضة في الذهب
ليستخاصها لنفسه فهو سارق أو أشتر من السارق ومعظم هذا الصنف ليدنا بالمغرب من
طابرة البربر المتبذين باطراف البقاع ومساكن الانعام يا ورون الى ما وجد البادية
ويجوهون على الاغنياء منهم بأن بأيديهم صناعة الذهب والفضة والنفوس مولعة
بجمعها والاستهلاك في طلبها ما فيحصلون من ذلك على معاش ثم يبي في ذلك عندهم تحت
الخوف والرقبة الى أن يظهر العجز وتقع الفضيحة فيفترون الى موضع آخر ويستجدون
حالا أخرى في استهوا بعض أهل الدنيا باطماعهم فيما لديهم ولا يزالون كذلك في ابتغاء
معاشهم وهذا الصنف لا كلام معهم لانهم بلغوا الغاية في الجهل والرداءة والاحتراف
بالسرقة ولا حاسم لعلمهم الا اشتداد الحكم عليهم وتناولهم من حيث كانوا وقطع أيديهم
متى ظهر واعلى شأنهم لان فيه افساد السكة التي تم بها البلوى وهي متمون الناس كافة
والسلطان مكلف باصلاحها والاحتياط عليها والاشتداد على فسادها وأما من اتحل
هذه الصناعة ولم يرض بحال الدلسة بل استنكف عنها وزه نفسه عن افساد سكة
المسلمين ونقودهم وانما يطلب احالة الفضة للذهب والرصاص والنحاس والقردير الى
الفضة بذلك النجوم من العلاج وبالا كبر الخاصل عنده فلنأمع هؤلاء المتكلم وبحث
في مداركهم لذلك مع انما لانعلم أن أحد امن أهل العلم تم له هذا الغرض أو حصل منه
على بغية انما ذهب أعمارهم في التدبير والفهز والصلابة والتصعيد والتكليس
واختيار الاخطار بجمع العقاقير والبحث عنها ويناقلون في ذلك حكايات وقعت لغيرهم
عن تم له الغرض منها أو وقف على الوصول يقنعون باسماها مارا لمفاوضة فيها ولا
يسلميون في تصديقها شأن الكلفين المغرمين بوساوس الاخبار فيما يكفون به فاذا
سئلوا عن تحقيق ذلك بالمعينة أنكره وقالوا انما عنار لم نر هكذا شأنهم في كل عصر
وجيل واعلم أن اتحال هذه الصناعة قديم في العالم وقد تكلم الناس فيها من المتقدمين
والمؤخرين فلننقل مذاهبهم في ذلك ثم تلوه بما يظهر فيها من التحقيق الذي علمه الامر
في نفسه منقول ان مبنى الكلام في هذه الصناعة عند الحكماء على حال المعادن السبعة

المنطوقة وهي الذهب والفضة والرماس والقزدير والنحاس والحديد والحارصين
هل هي مختلفات بالفصول وكلها أنواع فائنة بأنفسها وأنها مختلفة بنحو خاص من
الكيفيات وهي كلها أصناف أنواع واحد فالذي ذهب إليه أبو نصر الفارابي وتابعه
عليه حكاه الأندلس أنها نوع واحد وأن اختلافها إنما هو بالكيفيات من الرطوبة
واليبوسة واللين والصلابة والألوان من الصفرة والبياض والسواد وهي ~~ك~~كها
أصناف لذلك النوع الواحد والذي ذهب إليه ابن سينا وتابعه عليه حكاه المشرف
أنها مختلفة بالفصول وأنها أنواع متباينة كل واحد منها قائم بنفسه متحقق بحقيقته
له فصل وجنس شأن سائر الأنواع وبني أبو نصر الفارابي على مذهبه في اتفاقها بالنوع
إمكان انقلاب بعضها إلى بعض لا يمكن تبديل الأعراض حيث تدو علاجها بالصنعة
فإن هذا الوجه كانت صناعة الكيمياء عنده ممكنة سهلة المأخذ وبني أبو علي ابن سينا
على مذهبه في اختلافها بالنوع إنكاره هذه الصنعة واستحالة وجودها بناء على أن
الفصل لا سبيل بالصناعة إليه وإنما يخلقه خالق الأشياء ومقدرها وهو الله عز وجل
والفصول مجهولة الحقائق رأينا بالتصور فكيف يحاول انقلابها بالصنعة وغلطه
الطغرائي من أكابر أهل هذه الصناعة في هذا القول ورد عليه بأن التدبير والعلاج
ليس في تخليق الفصل وإبداعه وإنما هو في أعداد المادة لقبوله خاصة والفصل يأتي
من بعد الأعداد من لدن خالقه وبارئها كما يفيض النور على الأجسام بالقل والامهات
ولا حاجة بنا في ذلك إلى تصوره ومعرفة قال وأدراكنا قد عثرنا على تخليق بعض
الحيوانات مع الجهل بفصولها مثل العقرب من التراب والنتن ومثل الحيات المتكونة
من الشعر ومثل ما ذكره أصحاب الفلاحة من تكوير النحل إذا فقدت من هاجيل
البقر وتكوير القصب من قرون ذوات الطلف وتصبيره سكرًا بمحشوا القرون بالعسل
بين يدي ذلك الفحل للقرون فما المانع إذا من العثور على مثل ذلك في الذهب والفضة
فتتخذ مادة تصيرها للتدبير بعد أن يكون فيها استعداد أقل لقبول صورة الذهب
والفضة ثم تحاولها بالعلاج إلى أن يتم فيها الاستعداد لقبول فصلها انتهى كلام
الطغرائي بعنايه وهذا الذي ذكره في الرد على ابن سينا صحيح لكن إننا في الرد على أهل هذه
الصناعة أخذنا غير تبين منه استحالة وجودها وبطلان مزعمهم أجمعين لا الطغرائي
ولا ابن سينا وذلك أن حاصل علاجهم انهم بعد الوقوف على المادة المستعدة
بالاستعداد الأول يجعلونها موضوعا ومحاذون في تدبيرها وعلاجها تدبير الطبيعة
في الجسم المعدني حتى أحاطت ذهبا وفضة وبضائع القوي الفاعلة والمنفعله ليرتفع في
زمان أقصر لأنه تبين في موضعه أن مضاعفة قوة الفاعل تنقص من زمن فعله وتبين أن

الذهب انما يتم كونه في معدنه بعد ألف وثمانين من السنين دورة الشمس الكبرى فاذا
تضاعفت القوى والكيفيات في العلاج كان زمن كونه أقصر من ذلك ضرورة على
ما قلناه أو يتحزون بعلاجهم ذلك حصول صورة مزاجية لتلك المادة تصيرها كالخبرة
فتفعل في الجسم المعالج الافاعيل المطلوبة في حالته وذلك هو الاكسير على ما تقدم *
واعلم أن كل متكون من المولدات العنصرية فلا بد فيه من اجتماع العناصر الاربعة على
نسبة متفاوتة اذ لو كانت متكافئة في النسبة لما تم اهتزازها فلا بد من الجزء الغالب
على الكل ولا بد في كل عتج من المولدات من حرارة غريزية هي الفاعلة لكونه الحافظة
اصورته ثم كل متكون في زمان فلا بد من اختلاف أطواره وانتقاله في زمن التكوين
من طور الى طور حتى ينتهي الى غايته وانظر شأن الانسان في طور النطفة ثم العاقبة ثم
المضغة ثم التصوير ثم الجنين ثم المولود ثم الرضيع ثم ثم الى نهايته ونسب الاجزاء
في كل طور تختلف في مقاديرها وكيفياتها والالكان الطور بعينه الاول هو الاخر
وكذا الحرارة الغريزية في كل طور مخالفة لها في الطور الاخر فانظر الى الذهب
ما يكون له في معدنه من الاطوار منذ ألف سنة وثمانين وما ينتقل فيه من الاحوال
فيحتاج صاحب الكيمياء الى ان يساوق فعل الطبيعة في المعدن ويحاذيه بتدبيره وعلاجه
الى ان يتم ومن شرط الصناعة ابدان صور ما يقصد اليه بالصناعة فن الامثال السائرة
للحكاه اول العمل آخر الفكرة وآخر الفكرة اول العمل فلا بد من تصور هذه
الحالات للذهب في احواله المتعددة ونسبها المتفاوتة في كل طور واختلاف الحمار
الغريزي عند اختلافها ومقدار الزمان في كل طور وما ينوب عنه من مقدار القوى
المضاعفة ويقوم مقامه حتى يحاذي بذلك كله فعل الطبيعة في المعدن أو تعدل بعض
المواد صورة مزاجية تكون كصورة الخبرة للخبرة تفعل في هذه المادة بالمناسبة لقواها
ومقاديرها وهذه كلها انما يحصرها العلم المحيط والعلوم البشرية قاصرة عن ذلك وانما
حال من يدعى حصوله على الذهب بهذه الصنعة بمشابهة من يدعى بالصنعة تخليق انسان
من المني ونحن اذا سلمنا الاحاطة بأجزائه ونسبته وأطواره وكيفية تخليقه في رحم
وعلم ذلك علما محصلا بفاصله حتى لا يشذ منه شيء عن علمه سلمنا له تخليق هذا الانسان
وأني له ذلك * ولنقرب هذا البرهان بالاختصار ليسهل فهمه فنقول حاصل صناعة
الكيمياء ما يدعون به هذا التدبير انه مساوقة الطبيعة المعدنية بالفعل الصناعي
ومحاذاتها الى ان يتم ككون الجسم المعدني أو تخليق مادة بقوى وافعال وصورة
مزاجية تفعل في الجسم فبالطبيعة ما قصيره وتقلبه الى صورتها والفعل الصناعي
مسوف بتصورات احوال الطبيعة المعدنية التي يقصد مساوقتها ومحاذاتها وفعل

المادة ذات القوى فيها تصور مفصلا واحدة بعد أخرى وتلك الاحوال لانهاية لها
 والعلم البشري عاجز عن الاحاطة بمادونها وهو بمثابة من يقصد تخليق انسان
 او حيوان او نبات هذا المحصل هذا البرهان وهو اوثق ما علمته وايسر الاستحالة فيه
 من جهة الفصول كما رأيت ولا من الطبيعة انما هو من تعذر الاحاطة وقصور البشر عنها
 وما ذكره ابن سينا بعزل عن ذلك وله وجه آخر في الاستحالة من جهة غايته وذلك ان
 حكمة الله في الخبيرين وندورهم انهم ما قيم لمكاسب الناس ومقولاتهم فلو حصل عليهما
 بالصنعة لبطلت حكمة الله في ذلك وكثر وجودهما حتى لا يحصل أحد من اقتنائهما
 على شيء وله وجه آخر من الاستحالة أيضا وهو ان الطبيعة لا تترك اقرب الطرق في أفعالها
 وترتكب الاعوص والابعد فلو كان هذا الطريق الصناعي الذي يزعمون أنه صحيح
 وأنه اقرب من طريق الطبيعة في معدنها اقل زمانا لما تركته الطبيعة الى طريقها
 الذي سلكته في كون النضة والذهب وتخليقهما وأما تشبيه الطفران في هذا التدبير بما
 عثر عليه من مفردات لامثاله في الطبيعة كالعقرب والنحل والحية وتخليقها فامر صحيح
 في هذه ادى اليه العثور كما زعمه وأما الكيمياء فلم يقل عن أحد من أهل العلم أنه عثر عليها
 ولا على طريقها وما زال متحلوها يخبطون فيها خبط عشواء الى هلم جزا ولا يظفرون
 الا بالحكايات الكاذبة ولو دح ذلك لاحد منهم لحفظه عنه اولاده او تلميذه وأصحابه
 وتوقل في الاصدقاء وضمن تصديقه صحة العمل بعده الى أن يتشرو ويبلغ البناء والى
 غيرنا وأما قولهم ان الاكسيرا بنسابة الخيرة وانه عمر ككب يحيل ما يحصل فيه
 ويقبله الى ذلك فاعلم ان الخيرة انما تلب العجين وتعد له الهضم وهو فساد والفساد في
 المواد سهل يقع بأيسر شيء من الافعال والطبائع والمطلوب بالاكسيرا قلب المعدن الى
 مادوا شرف منه وأعلى فهو تكوين وصلاح والتكوين أصعب من الفساد فلا
 يقاس الاكسيرا بالخيرة وتحقيق الامر في ذلك ان الكيمياء انصح وجودها كما تزعم
 الحكماء المتكلمون فيها مثل جابر بن حيان ومسلمة بن أحمد المجرى طي وأمثالهم فليست
 من باب الصنائع الطبيعية ولا تم بأمر صناعي وايسر كلامهم فيها من منى
 الطبيعيات انما هو من منى كلامهم في الامور السخرية وسائر الخوارق وما كان من
 ذلك للعلاج وغيره وقد ذكر مسلمة في كتاب الغاية ما يشبه ذلك وكلامه فيها في كتاب رتبة
 الحكيم من هذا المنهى وهذا كلام جابر في رسالته ونحو كلامهم فيه معروف ولا حاجة
 بنا الى شرحه وبالجملة فامرها عندهم من كليات المواد الخارجة عن حكم الصنائع فكما
 لا يتدبر ما منه الخشب والحيوان في يوم أو شهر خشبا أو حيوانا فيما عدا مجرى تخليقه
 كذلك لا يتدبر ذهب من مادة الذهب في يوم ولا شهر ولا يتغير طريق عادته الا بارفادى

وراء عالم الطبائع وعمل الصنائع فكذلك من طلب الكيمياء طلبا صناعا ضيع ماله وعمله ويقال لهذا التدبير الصناعي التدبير العقيم لان نيلها ان كان صحيحا فهو واقع مما وراء الطبائع والصنائع فهو كالمشي على الماء وامتطاء الهواء والنفوذ في كنانة الاجساد ونحو ذلك من كرامات الالوية الخارقة للمادة او مثل تخليق الطير ونحوها من معجزات الانبياء قال تعالى واذ تخلق من الطين كهيئة الطير اذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى وعلى ذلك فسبيل تسييرها مختلف بحسب حال من يوتئها فربما أوتئها الصالح ويوتئها غيره فتكون عنده معارة وربما أوتئها الصالح ولا يملك ايتاءها فلا تتم في يد غيره ومن هذا الباب يكون عملها سحريا فقد تبين أنها انما تقع بتأثيرات النفوس وخوارق العادة اما معجزة أو كرامة أو سحر اول هذا كان كلام الحكماء كالمهم فيها الغاز لا ينظر بحقيقته الا من خاض لجة من علم السحر واطلع على تصرفات النفس في عالم الطبيعة وأمور خرق العادة غير منحصرة ولا يقصد أحد الى تحصيلها والله بما يعملون محيط وأكثر ما يحصل على التماس هذه الصناعة واتحاليها هو كما قلناه المعجز من الطرق الطبيعية للمعاش وابتغائه من غير وجوهه الطبيعية كالفلاحة والتجارة والصناعة فيستصعب العاجز ابتغائه من هذه ويروم الحصول على الكثير من المال دفعة بوجوه غير طبيعية من الكيمياء وغيرها وأكثر من يعنى بذلك الفقراء من أهل العمران حتى في الحكماء المتكلمين في انكارها واستحالاتها فان ابن سينا القائل باستحالاتها كان عليه الوزراء فكان من أهل الغنى والثروة والفارابي القائل بإمكانها كان من أهل الفقر الذين يعوزهم أدنى بلغة من المعاش وأسبابه وهذه تهمة ظاهرة في انظار النفوس المولعة بطرقها واتحاليها زان الله الرزاق ذو القوة المتين لا رب سواه

٢٨ (فصل في ان كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل)

(اعلم) أنه مما أضر بالناس في تحصيل العلم والوقوف على غايته كثرة التأليف واختلاف الاصطلاحات في التعليم وتعدد طرقها ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك وحينئذ يسلم له منصب التحصيل فيحتاج المتعلم الى حفظها كلها أو أكثرها ومراعاة طرقها اولاني عمره بما كتب في صناعة واحدة اذا تجرد لها فيقع القصور ولا يتدون رتبة النحصيل ويمثل ذلك من شأن الفقه في المذهب المالكي بكتاب المدونة مثلا وما كتب عليه من الشروحات الفقهية مثل كتاب ابن يونس واللغوي وابن بشر والتنبيهات والمنتديات والبيان والتحصيل على العتبية وكذلك كتاب ابن الحاجب وما كتب عليه ثم انه يحتاج الى تمييز الطريقة القبر وانية من القرطبية

والبغدادية والمصرية وطرق المتأخرين عنهم والاحاطة بذلك كله وحينئذ يسلم له
 منصب الفتيا وهي كلها متكررة والمعنى واحد والمتعلم مطالب باستحضار جميعها وتمييز
 ما بينها والعمر ينقض في واحد منها ولو اقتصر المعلمون بالتعلمين على المسائل الذهبية
 فقط لسكان الامر بدون ذلك بكثير وكان التعليم سهلا وما أخذه قريبا ولكنه داء لا يرتفع
 لاستقرار العوائد عليه فصارت كالطبيعة التي لا يمكن نقاها ولا تحويلها ويثمل أيضا
 علم العربية من كتاب سيبويه وجميع ما كتب عليه وطرق البصريين والكوفيين
 والبغداديين والاندلسيين من بعدهم وطرق المتقدمين والمتأخرين مثل ابن الحاجب
 وابن مالك وجميع ما كتب في ذلك وكيف يطالب به المتعلم وينقض عمره دونه
 ولا يطمع أحد في الغاية منه الا في القليل النادر مثل ما وصل اليها بالمغرب لهذا العهد
 من تآليف رجل من أهل صناعة العربية من أهل مصر يعرف بابن هشام طهر بن
 كلامه فيها انه استولى على غاية من ملكة تلك الصناعة لم تحصل الا لسيبويه وابن جنى
 وأهل طبقة العظم ملكته وما أحاط به من أصول ذلك الفن وتفاريعه وحسن تصرفه
 فيه ودل ذلك على أن الفضل ليس منحصرا في المتقدمين سيبويه مع ما قدمناه من كثرة
 الشواغب بتعدد المذاهب والطرق والتآليف ولكن فضل الله يؤتبه من يشاء وهذا
 نادر نوارد الوجود والافاضة ان المتعلم ولو قطع عمره في هذا كله فلا يني له بتحصيل
 علم العربية مثلا الذي هو آلة من الآلات ووسيلة فكيف يكون في المقصود الذي هو
 الثمرة ولكن الله يهدي من يشاء

٢٩ (فصل في ان كثرة الاختصارات المؤلفة في العلوم مخلة بالتعليم)

ذهب كثير من المتأخرين الى اختصار الطرق والانحاء في العلوم يواعون بها ويدقنون
 منها برناجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الافاظ
 وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة من ذلك الفن وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسرا
 على الفهم وربما عدوا الى الكتب الامهات المطولة في الفنون للتفسير والبيان
 فاختصروها تقريرا للحنظ كما فعل ابن الحاجب في النظم وأصول النظم وابن مالك في
 العربية والخوفجي في المنطق وأمثالهم وهو فساد في التعليم وفيه اخلاص بالتحصيل
 وذلك لان فيه تخالفا على المبتدئ بالقائه الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها
 بعد وهو من سوء التعليم كما سيأتي ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم يتسع افضا
 الاختصار العويصة للنهم بتراحم المعاني عليها وصعوبة استخراج المسائل من بينها
 لان أفاظ المختصرات تجدها لاجل ذلك صعبة عويصة فينقطع في فهمها حاط صالح

عن الوقت ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم في تلك المختصرات اذا تم على سداده ولم تعقبه آفة فهي ملكة فاصرة عن الملكات التي تحصل من الموضوعات البسيطة المطولة بكثرة ما يقع في تلك من التكرار والاحالة المفيد من حصول الملكة التامة واذا اقتصر على التكرار قصرت الملكة لقلته كشأن هذه الموضوعات المختصرة فقصدوا الى تسهيل الحفظ على المتعلمين فأرسلوا كتبهم صوابا يقطعهم عن تحصيل الملكات النافعة وتمكنها ومن يهدي الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له والله سبحانه وتعالى أعلم

٣٠ (فصل في وجه الصواب في تعليم العلوم وطريق افادته)

(اعلم) أن تلقين العلوم للمتعلمين انما يكون مفيدا اذا كان على التدرج بحيث ينفى قليلا قليلا يلقي عليه اول مسائل من كل باب من الفن هي اصول ذلك الباب ويقرب له في شرحها على سبيل الاجمال ويراعى في ذلك قوة عقله واستعداده لقبول ما يرد عليه حتى ينتهي الى آخر الفن وعند ذلك يحصل له ملكة في ذلك العلم الا انها جزئية وضعيفة وغايتها انها هيأته لفهم الفن وتحصيل مسائله ثم يرجع به الى الفن ثانية فترفعه في التلقين عن تلك الرتبة الى أعلى منها ويستوفى الشرح والبيان ويخرج عن الاجمال ويذكر له ما هنالك من الخلاف ووجهه الى أن ينتهي الى آخر الفن فتعود ملكته ثم يرجع به وقد شد فلا يترك عوينا ولا مهما ولا متعة الا وضحه وفتح له مقننه فيخلص من الفن وقد استولى على ملكته هذا وجه التعليم المفيد وهو كما رأيت انما يحصل في ثلاث تكرارات وقد يحصل للبعض في أقل من ذلك بحسب ما يخلق له ويتيسر عليه وقد شاهدنا كثيرا من المعلمين لهذا العهد الذي أدركنا يجهدون طرق التعليم واذا تدهن ويحضرون المتعلم في أول تعليمه المسائل المقفلة من العلم ويطالبونه باحضار ذهنه في حلها ويحسبون ذلك مراعاة التعليم وصوابا فيه ويكلفونه رمي ذلك وتخصيله ويخلطون عليه بما يلقون له من غايات الفنون في مباديها وقبل أن يستعدا فهمها فان قبول العلم والاستعدادات لفهمه تنشا تدريجا ويكون المتعلم أول الامر عاجزا عن الفهم بالجملة الا في الاقل وعلى سبيل التقريب والاجاز وبالامثال الحسية ثم لا يزال الاستعداد فيه يتدرج قليلا قليلا بخلافه مسائل ذلك الفن وتكرارها عليه والاتقال فيها من التقريب الى الاستيعاب الذي فوقه حتى تتم الملكة في الاستعداد ثم في التحصيل ويحيط هو بمسائل الفن واذا القيت عليه الغايات في البدايات وهو حيث عاجز عن الفهم والوعي ويبعد عن الاستعداد له كل ذهنه عنها وحسب ذلك من صعوبة العلم في نفسه فتكامل عنه وانحرف عن قبوله وتمادي في هجرانه وانما

أني ذلك من سوء التعليم ولا ينبغي للمعلم أن يزيد متعلمه على فهم كتابه الذي أكب على
التعليم منه بحسب طاقته وعلى نسبة قبوله للتعليم مبتدئاً كان أو منتهياً ولا يخاط
مسائل الكتاب بغيرها حتى يعيه من أوله إلى آخره ويحصل اغراضه ويستولي منه
على ملكة تهيئها لتفذي غيره لأن المتعلم إذا حصل ملكة ما في علم من العلوم استعديبها
لقبول ما بقي وحصل له نشاط في طلب المزيد والنهوض إلى ما فوق حتى يستولي على
غايات العلم وإذا خاط عليه الأمر بعجز عن الفهم وأدركه الكلال وانطمس فكره
ويئس من التحصيل وهجر العلم والتعليم والله يهدي من يشاء وكذلك ينبغي لك
أن لا تطول على المتعلم في الفن الواحد بتفريق المجالس وتقطيع ما بينه لأنه ذريعة
إلى الانبساط وانقطاع مسائل الفن بعضها من بعض فيعسر حصول الملكة بتفريقها
وإذا كانت أوائل العلم وأواخره حاضرة عند الفكرة بجانبه للنسيان كانت الملكة
أيسر حصولاً وأحكم ارتباطاً وأقرب صبغة لأن الملكات إنما تحصل بتتابع الفعل
وتكراره وإذا توسى الفعل تنوسيت الملكة الناشئة منه والله علمكم ما لم تكونوا
تعلمون ومن المذاهب الجميلة والطرق الواجبة في التعليم أن لا يخلط على المتعلم علمان
معافانه حينئذ قل أن يظفر بواحد منهما لما فيه من تقسيم البال وانصرافه عن كل
واحد منهما إلى تفهم الآخر فيستغلقان معاً ويستصعبان ويعود منهما بالخطية وإذا
تفرغ الفكر لتعليم ما هو بسبيله مقتصر اعلمه فرعاً كان ذلك أجدر بنحصيله والله
سبحانه وتعالى الموفق للصواب

(فصل) واعلم أيها المتعلم أنني أتخفك بفائدة في تعلمك فان تلقيتها بالقبول وأمسكتها
بإيد الصناعة نظرت بك كثر عظيم وذخيرة شريفة وأقدم لك مقدمة تعينك
في فهمها وذلك ان الفكر الانساني طبيعة مخصوصة فطرها الله كما فطر سائر
مبتدعاته وهو وجدان حركة للنفس في البطن الاوسط من الدماغ تارة يكون
مبدأً للأفعال الانسانية على نظام وترتيب وتارة يكون مبدأً لعلم ما لم يكن حاصله بأن
يتوجه إلى المطلوب وقد تصور طرفيه ويروم نفسه أو إثباته فيلوح له الوسط الذي
يجمع بينهما ما أسرع من لمح البصر ان كان واحداً وينتقل إلى المحصول آخر ان كان
متعددًا ويصير إلى الظفر بمطوبه هذا شأن هذه الطبيعة الفكرية التي تعزبها
البشر من بين سائر الحيوانات ثم الصناعة المنطقية هي كيفية فعل هذه الطبيعة
الفكرية النظرية تصفه لتعلم سداده من خطئه لأنها وان كان الصواب لها ذاتياً إلا
أنه قد يعرض لها الخطأ في الأقل من تصور الطرفين على غير صورتهم من اشتباه
الهيئات في نظم القضايا وترتيبها للنساج فتعين المناطق للتخلص من ورطة هذا الفساد

اذا عرض فالمنطق اذا امر صناعى مساوق للطبيعة الفكرية ومنطبق على صورة
 فعلها ولكونه امر اصناعيا استغنى عنه في الاكثر ولذلك نجد كثيرا من فحول النظر
 في الخلدقة يحصلون على المطالب في العلوم دون صناعة المنطق ولا سيما مع صدق النية
 والتعرض لرحمة الله فان ذلك أعظم معنى ويسلكون بالطبيعة الفكرية على سدادها
 فيفضى بالطبع الى حصول الوسط والاهم بالمطلوب كما فطرها الله عليه ثم من دون هذا
 الامر الصناعى الذى هو المنطق مقدمة أخرى من التعلم وهى معرفة الالفاظ
 ودلائلها على المعانى الذهنية تردها من مشافهة الرسوم بالكتاب ومشافهة اللسان
 بالخطاب فلا بد أيها المتعلم من مجاوزتك هذه الحجب كلها الى الفكر فى مطلوبك فأولا
 دلالة الكتابة المرسومة على الالفاظ المقولة وهى أخفها ثم دلالة الالفاظ المقولة على
 المعانى المطلوبة ثم القوانين فى ترتيب المعانى للاستدلال فى قوائمه المعروفة فى صناعة
 المنطق ثم تلك المعانى مجردة فى الفكر اشتراطا يقتضيه بالمطلوب بالطبيعة الفكرية
 بالتعرض لرحمة الله ومواهبه وليس كل أحد يتجاوز هذه المراتب بسرعة ولا يقطع
 هذه الحجب فى التعليم بسهولة بل ربما وقف الدهر فى حجب الالفاظ بالمناقشات أو عثر
 فى اشتراك الادلة بشغب الجدال والشبهات وقعد عن تحصيل المطلوب ولم يكدي تخصص
 من تلك الغمرة الا قليلا من هداية الله فاذا ابتليت بمثل ذلك وعرض لك ارتباك فى
 فهمك أو تشعب بالشبهات فى ذهنك فاطرح ذلك واتبذ حجب الالفاظ وعوائق
 الشبهات واترك الامر الصناعى جملة واخلص الى فضاء الفكر الطبيعى الذى فطرت
 عليه وسرح نظرك فيه وقرع ذهنك فيه للفوس على مرامك منه واضعها حيث
 وضعها أكبر النظائر بلك مستعرضا للفتح من الله كما فتح عليهم من ذهنهم من رحمة
 وعلمهم ما لم يكونوا يعلمون فاذا فعت ذلك أشرفت عليك أنوار الفتح من الله بالظفر
 بمطلوبك وحصل الامام الوسط الذى جده الله من مقتضيات هذا الفكر ونظره عليه
 كما قلناه وحينئذ فارجع به الى قوابل الادلة وصورها فأفرغه فيها ووفه حقه من
 القانون الصناعى ثم اكسه صور الالفاظ وأبرزه الى عالم الخطاب والمشافهة وثيق
 العرى صحيح البنيان * وأما ان وقفت عند المناقشة والشبهة فى الادلة الصناعية
 وتعميص صوابها من خطئها وهذه أمور صناعية وضعية تستوى جهاتها المتعددة
 وتتشابه لاجل الوضع والاصطلاح فلا تتميز جهة الحق منها اذ جهة الحق انما تستبين اذا
 كانت بالطبع فيستتر ما حصل من الشك والارتباك وتسدل الحجب على المطلوب
 وتقعده بالناظر عن تحصيله وهذا شأن الاكثريين من النظائر والمتأخرين سيما من
 سبقت له بعمه فى اسانه فربطت عن ذهنه ومن حصل له شغب بالقانون المنطقي تعصب

له فاعتقد أنه الذريعة الى ادراك الحق بالطبع فيقع في الحيرة بين شبه الادلة وشكوكها
ولا يكاد يخلص منها والذريعة الى ادراك الحق بالطبع انما هو الفكر الطبيعي كما قلناه
اذا جرد عن جميع الاوهام وتعرض الناظر فيه الى رحمة الله تعالى وأما المنطق فانما
هو واصف افعل هذا الفكر فيساوقه لذلك في الاكثر فاعتبر ذلك واستمطر رحمة الله
تعالى متى أعوزك فهم المسائل تشرق عليك أنواره بالالهام الى الصواب والله الهادي
الى رحمة وما العلم الا من عند الله

٣١ (فصل في أن العلوم الالهية لا توسع فيها الا نظار ولا تفرع المسائل)

(اعلم) أن العلوم المتعارفة بين أهل العمران على صنفين علوم مقصودة بالذات
كالشرعيات من التفسير والحديث والفقهاء وعلم الكلام وكالطبيعيات والاهليات
من الفلسفة وعلوم هي آية توسيلة لهذه العلوم كالعربية والحساب وغيرهما
للشرعيات وكانطبق للفلسفة وربما كان آلة لعلم الكلام ولاصول الفقه على طريقة
المتأخرين فاما العلوم التي هي مقاصد فلا حرج في توسعة الكلام فيها وتفرع المسائل
وانه كشاف الادلة والانتظار فان ذلك يزيد طابها تمكنا في ملكته وايضا طالعانيها
المقصودة واما العلوم التي هي آلة لغيرها مثل العربية والمنطق وأمثالها فلا ينبغي أن
ينظر فيها الا من حيث هي آلة لذلك الغيرة قط ولا يوسع فيها الكلام ولا تفرع المسائل
لان ذلك مخرج لها عن المقصود اذا المقصود منها ما هي آلة له لا غير فكما خرجت عن
ذلك خرجت عن المقصود وصار الاشتغال بها القوامع ما فيه من صعوبة بالحصول على
ملكته بطولها وكثرة فروعها وربما يكون ذلك عائقا عن فهمه بل العلوم المقصودة
بالذات لطول وساقطها مع أن شأنها أهم والعمر يقصر عن تحصيل الجميع على هذه
الصورة فيكون الاشتغال بهذه العلوم الالهية تضيقا للعمر وشغلا عما لا يعني وهذا
كما فعل المتأخرون في صناعة النحو وصناعة المنطق وأصول الفقه لانهم أوسعوا دائرة
الكلام فيها وأكثروا من التفاريع والاستدلالات بما أخرجها عن كونها آلة
وصيرها من المقاصد وربما يقع فيها انتظار لا حاجة بها في العلوم المقصودة فهي من نوع
الغفروهي أيضا ضرورة بالمتعلمين على الاطلاق لان المتعلمين اهتمامهم بالعلوم المقصودة أكثر
من اهتمامهم بوسائلها فاذا قطعوا العمر في تحصيل الوسائل فتى يظفرون بالمقاصد فلماذا
يجب على المتعلمين هذه العلوم الالهية أن لا يستجروا في شأنها وينهوا المتعلم على
الفرض منها وبقوا به عنده فمن نزعت به همته بعد ذلك الى شيء من التوغل فليبرق له
ما شاء من المراتي صعبا أو سهلا وكل ميسر لما خلق له

(اعلم) أن تعليم الولدان للقرآن شعرا من شعرا الدين أخذ به أهل الملة ودرجوا عليه في جميع أمصارهم لما يبق فيه إلى القلوب من روح الايمان وقائده من آيات القرآن وبعض متون الاحاديث وصار القرآن أصل التعليم الذي ينبت عليه ما يحصل بعد من الملكات وسبب ذلك أن تعليم الصغرا أشد رسوخا وهو أصل لما بعده لان السابق الاول للقلوب كالاساس للملكات وعلى حسب الاساس وأساليبه يكون حال ما ينبت عليه واختلفت طرقهم في تعليم القرآن للولدان باختلاف فهمم باعتبار ما ينشأ عن ذلك التعليم من الملكات فانما أهل المغرب فذهبهم في الولدان الاقتصار على تعليم القرآن فقط وأخذهم أثناء المدايسة بالرسم ومثله واختلاف جملة القرآن فيه لا يجاوزون ذلك بسواه في شئ من مجالس تعليمهم لامن حديث ولا من فقه ولا من شعر ولا من كلام العرب الى أن يحذف فيه أو ينقطع دونه فيكون انقطاعه في الغالب انقطاعا عن العلم بالجملة وهذا مذهب أهل الامصار بالمغرب ومن تبعهم من قرى البربر وأم المغرب في ولدانهم الى أن يجاوزوا حد البلوغ الى الشبيبة وكذا في الكبير اذا راجع مدايسة القرآن بعد طائفة من عمره فهم لذلك أقوم على رسم القرآن وحفظه من سواهم وأما أهل الاندلس فذهبهم تعليم القرآن والكتاب من حيث هو وهذا هو الذي يراعونه في التعليم الا أنه لما كان القرآن أصل ذلك وأسسه ومنبع الدين والعلوم جعلوه أصل في التعليم فلا يقتصرون لذلك عليه فقط بل يحاطون في تعليمهم للولدان رواية الشعر في الغالب والترسل وأخذهم بقوانين العربية وحفظها وتجويد انماط والكتاب ولا تختص عنايتهم في التعليم بالقرآن دون هذه بل عنايتهم فيه بالخط أكثر من جميعها الى أن يخرج الولد من عمر البلوغ الى الشبيبة وقد شدت بعض الشئ في العربية والشعر والبصر بما ورز في الخط والكتاب وتعلق بأذيال العلم على الجملة لو كان فيها سند لتعليم العلوم الكتم بنقطه ون عند ذلك لانتطاع منه التعليم في آفاقهم ولا يحصل بأيديهم الا ما حصل من ذلك التعليم الاول وفيه كفاية لمن أرشده الله تعالى واستعداد اذا وجد العلم وأما أهل افريقية فيعلمون في تعليمهم للولدان القرآن بالحديث في الغالب ومدايسة قوانين العلوم وتلقين بعض مسائلها الا أن عنايتهم بالقرآن واستظهار الولدان آياته ووقوفهم على اختلاف رواياته وقراءته أكثر مما سواهم وعنايتهم بالخط تبع لذلك وبالجملة فطريقهم في تعليم القرآن أقرب الى طريقه أهل الاندلس لان سند طريقهم في ذلك متصل بشيخة الاندلس الذين أجازوا عند تغلب النصارى على

شرق الاندلس واستقرت وابتونس ومنهم أخذوا ولادتهم بعد ذلك وأما أهل المشرق
فيخلطون في التعليم كذلك على ما بلغنا ولا أدري بم عنيتهم منها والذي ينقل لنا أن
عنيتهم بدراسة القرآن وحفظ العلم وقوانينه في زمن الشيبية ولا يخطون بتعليم الخط
بل اتعلم الخط عندهم قانون ومعلمون له على انفراد كما تعلم سائر الصنائع ولا يتداولونها
في مكاتب الصبيان واذا كتبوا لهم الألواح فخط قاصر عن الاجادة ومن أراد تعلم الخط
فعلى قـدر ما يسخ له بعد ذلك من الهـمة في طلبه ويتغيبه من أهل مصنعة فأما أهل
افريقية والمغرب فأفادهم الاقتصار على القرآن القصور عن ملكة الانسان بجملة وذلك
أن القرآن لا ينشأ عنه في الغالب ملكة لما أن البشره صروفون عن الاتيان بمثله فهم
مصرفون لذلك عن الاستعمال على أساليبه والاحتذاء به ما وليس لهم ملكة في غير
أساليبه فلا يحصل اصاحبه ملكة في اللسان العربي وحظه الجود في العبارات وقلة
التصرف في الكلام وربما كان أهل افريقية في ذلك أخف من أهل المغرب لما
يخلطون في تعليمهم القرآن بعبارات العلوم في قوانينها كما قلنا فيقتـدرون على شيء من
التصرف ومحاذاة المثل بالمثل الا أن ملكتهم في ذلك قاصرة عن البلاغة لما أن أكثر
مخوفهم عبارات العلوم النازلة عن البلاغة كما سيأتي في فصله وأما أهل الاندلس
فأفادهم التفتن في التعليم وكثرة رواية الشعر والترسل ومدارسة العربية من أول
العمر حصول ملكة صاروا بها أعرف في اللسان العربي وقصروا في سائر العلوم ابعدهم
عن مدارسة القرآن والحديث الذي هو أصل العلوم وأساسها فكانوا لذلك أهل حظ
وأدب بارع ومقصر على حسب ما يكون التعليم الثاني من بعد تعليم الصبا واقتد به
القاضي أبو بكر بن العربي في كتاب رحلته الى طر بـقـة غربية في وجه التعليم وأعاد
في ذلك وأبدأ وقدم تعليم العربية والشعر على سائر العلوم كما هو مذهب أهل الاندلس
قال لان الشعر ديوان العرب ويدعو الى تقديمه وتعليم العربية في التعليم ضرورة فساد
اللغة ثم ينتقل منه الى الحساب فيتمرن فيه حتى يرى القوانين ثم ينتقل الى درس
القرآن فانه يتيسر عليه بهذه المقدمة ثم قال وباعقله أهل بلادنا في أن يؤخذ الصبي
بكتاب الله في أول أمره يقرأ ما لا يفهم وينصب في أمر غيره أهم عليه ثم قال ينظر في
أصول الدين ثم أصول الفقه ثم الجدل ثم الحديث وعلومه ونحوه مع ذلك أن يخط في
التعليم علمان الا أن يكون المتعلم قابلا لذلك بجودة الفهم والنشاط هذا ما أشار اليه
القاضي أبو بكر رحمه الله وهو لا يمرى مذهب حسن الا أن العوائد لا تساعد عليه وهي
أملك بالاحوال ووجه ما اختصت به العوائد من تقدم دراسة القرآن ايشارة للتبرك
والثواب وخشية ما يعرض للولد في جنون الصبا من الآفات والقواطع عن العلم

فيفونه القرآن لانه مادام في الحجر منقاد للحكم فاذا تجاوز البلوغ وانحل من ربة
القهر فربما هفت به رياح الشجيرة فالقتته بساحل البطالة فيغتمون في زمان الحجر
وربة الحكم تحصيل القرآن لئلا يذهب خلوا منه ولو حصل اليقين باستمراره في طلب
العلم وقبوله التعليم لكان هذا المذهب الذي ذكره القاضي أولى ما أخذ به أهل المغرب
والشرق ولكن الله يحكم ما يشاء لا معقب لحكمه سبحانه

٣٣ (فصل في ان الشدة على المتعلمين مضرّة مهم)

وذلك أن ارهاق الحد في التعليم مضر بالمتعلم سيما في أصغر الولد لانه من سوء الملكة
ومن كان مر به بالعنف والقهر من المتعلمين أو الممالئك أو الخدم سطا به القهر وضيق
على النفس في انبساطها وذهب بنشاطها ودعاها الى الكسل وحل على الكذب
والخبث وهو التظاهر بغير ما في ضميره خوفا من انبساط الايدي بالقهر عليه وعمله
المكروا الخديعة لذلك وصارت له هذه عادة وخلقاً وفسدت معاني الانسانية التي له من
حيث الاجتماع والتمرن وهي الحجة والمدافعة عن نفسه ومنزله وصار عبداً على غيره في
ذلك بل وكسبت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل فانقبضت عن غايتها
ومدى انساقتها فارتكس وعاد في أسفل السافلين وهكذا وقع لكل أمة حصلت في
قبضة القهر ونال منها العسف واعتبره في كل من يملك أمره عليه ولا تكون الملكة
الكافله له ربة به وتجذب ذلك فيهم استقراره وانظره في اليهود وما حصل بذلك فيهم من
خلق السوء حتى انهم يوصفون في كل أفق وعصر بالخرج ومعناه في الاصطلاح
المشهور الخباث والكيد وسببه ما قلناه فينبغي للمعلم في متعلمه والوالد في ولده
أن لا يستبدوا عليهم في التأديب وقد قال محمد بن أبي زيد في كتابه الذي أنفه في حكم
المعلمين والمتعلمين لا ينبغي لمؤدب الصبيان أن يزيدي في ضربهم اذا احتاجوا اليه على
ثلاثة أسواط شياً ومن كلام عمر رضي الله عنه من لم يؤدبه الشرع لا أدبه الله حرصاً على
صون النفوس عن مذلة التأديب وعلماً بأن المقدر الذي عينه الشرع لذلك أملك
له فانه أعلم بعصيته ومن أحسن مذاهب التعليم ما تقدم به الرشيد للمعلم ولده محمد
الامين فقال يا أحران أمير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وغرة قلبه فصير يدك عليه
مبسوطة وطاعته لك واجبة فكن له بحيث وضعك أمير المؤمنين أقرنه القرآن وعرفه
الاخبار ورواه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدنه وامنع من
التمحك الا في أوقانه وخذه به عظيم مشايخ بني هاشم اذا دخلوا عليه ورفع مجالس
القواد اذا حضر واجلسه ولا تترن بك ساعة الا وانت مغتم فائدة تفيده اياه من غير

أن تحزبه فتمت ذهنه ولا تمنع في مسامحته فيستجلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت
بالقرب والملاينة فان أباهما فعليك بالشدّة والغلظة انتهى

٣٤ (فصل في ان المرحلة في طلب العلوم و لقاء المشيخة مزيد كال في التعليم)

والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما يتحلون به من المذاهب
والفضائل نارة علم وتعلّم وإلقاء وتارة محاسبة وتاقينا بالمباشرة الآن حصول
الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا فعلى قدر كثرة الشيوخ
يكون حصول الملكات ورسوخها والاصطلاحات أيضا في تعليم العلوم مخلطة على
التعلم حتى لقد يظن كثير منهم أنها جزء من العلم ولا يدفع عنه ذلك المباشرة
لاختلاف الطرق فيعلم المعلمين فلقاء أهل العلوم وتعدد المشايخ يفيد تمييز
الاصطلاحات بما يرام من اختلاف طرقهم فيها فيجزد العلم عنها ويعلم أنها انحاء تعليم
وطرق توصيل وتنهض قواه الى الرسوخ والاستحكام في الملكات ويصح معارفه
ويميزها عن سواها مع تقوية ملكته بالمباشرة والتلقين وكثرتهما من المشيخة عند
تعددهم وتنوعهم وهذا المن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها في
طلب العلم لا كساب القوائد والكمال بقاء المشايخ ومباشرة الرجال والله يهدي من
يشاء الى صراط مستقيم

٣٥ (فصل في ان العلماء من بين البشر أبعد عن السياسة ومذاهبها)

والسبب في ذلك أنهم معتادون النظر الفكري والغوص على المعاني واتزاعها من
المحسوسات وتجريد ما في الذهن أمورا كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم لا بخصوص
مادة ولا شخص ولا جيل ولا أمة ولا صنف من الناس ويطبّقون من بعد ذلك الكلي
على الخارجيات وأيضا يقيسون الأمور على أشباهها وأمثالها بما اعتادوا من القياس
الفقهية فلا تزال أحكامهم وأنظارهم كلها في الذهن ولا تصير الى المطابقة الا بعد الفراغ
من البحث والنظر ولا تصير بالجملة الى مطابقة وانما يتفرّع ما في الخارج عما في الذهن
من ذلك كالأحكام الشرعية فأنها فروع عما في المحفوظ من أدلة الكتاب والسنة
فتطلب مطابقة ما في الخارج لها عكس الاظهار في العلوم العقلية التي تطلب في صحتها
مطابقة ما في الخارج فهم متعودون في سائر أنظارهم الأمر الذهنية والانتظار
الفكرية لا يعرفون سواها والسياسة يحتاج صاحبها الى مراعاة ما في الخارج وما يلحقها
من الأحوال ويتبعها فانها خفية ولعل أن يكون فيها ما يمنع من الحقائق شبه أو مثال
ويتناقض الكلي الذي يحاول تطبيقه عليها ولا يقاس شيء من أحوال العجرات على

الاخراج كما اشتبه في أمر واحد فلعلمهما اختلافهما في أمور فتكون العلماء لاجل ما تعودوه من تعميم الاحكام وقياس الامور ببعضها على بعض اذا نظر وافي السياسة أفرغوا ذلك في قالب انظارهم ونوع استدلالهم فيقعون في الغلط كثيرا ولا يؤمن عليهم ويلحق بهم أهل الذكاء والكيس من أهل العلم لانهم ينزعون بثقوب أذهانهم الى مثل شأن الفقهاء من الغوص على المعاني والقياس والمحاكاة فيقعون في الغلط والعمى السليم الطبع المتوسط الكيس اقصر وفكره عن ذلك و عدم اعتماده اياه يقتصر لكل مادة على حكمها وفي كل صنف من الاحول والاشخاص على ما يختص به ولا يهدى المحسوس بقياس ولا تعميم ولا يفارق في أكثر نظره المواد المحسوسة ولا يجاوزها في ذهنه كالسابع لا يفارق البر عند الموح قال الشاعر
فلا توغلن اذا ما سمحت • فان السلامة في الساحل

فيكون مأمونا من النظر في سياسته مستقيم النظر في معاملة أبنائه جنسه فيجس من معاشه وتندفع آفاته ومضارته باستقامة نظره وفوق كل ذي علم علم ومن هنا يتبين أن صناعة المنطق غير مأمونة الغلط لكثرة ما فيها من الاتزاع وبهدها عن المحسوس فانها تنظر في المعقولات الثواني ولعل المواد فيها ما يمنع تلك الاحكام وينافيها عند مراعاة التطبيق اليقيني وأما النظر في المعقولات الاول وهي التي تجربها تريب فليس كذلك لانها خيالية وصور المحسوسات حافظة مؤذنة بتصديق انطباقه والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٦ (فصل في ان حملة العلم في الاسلام اكثرهم العجم)

من الغريب الواقع أن حملة العلم في الملة الاسلامية أصغرهم العجم لامن العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية الا في القليل النادر وان كان منهم العربي في نسبه فهو عجمي في لغته ومرباه ومشيجته مع أن الملة عربية وصاحب شريعته عربي والسبب في ذلك أن الملة في أولها لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى احوال السداجة والبدارة وانما أحكام الشريعة التي هي أوامر الله ونواهيه كان الرجال ينقلونها في صدورهم وقد عرفوا ما أخذها من الكتاب والسنة بما تلقوه من صاحب الشرع وأصحابه والقوم يومئذ عرب لم يعرفوا أمر التعليم والتأليف والتدوين ولا دفعوا اليه ولا دعوتهم اليه حاجة وجرى الأمر على ذلك زمن الصحابة والتابعين وكانوا يسمون المختصين بحمل ذلك ونقله القراء أي الذين يقرؤون الكتاب وليسوا أئمة لان الأمة يومئذ صفة عامة في الصحابة بما كانوا عر باقبل لحمة القرآن يومئذ قراء اشارة الى

هذا فهم قراء الكتاب الله والسنة المأثورة عن الله لانهم لم يعرفوا الاحكام الشرعية
 الا منه ومن الحديث الذي هو في غالب موارد تفسيره وشرح قال صلى الله عليه وسلم
 تركت فيكم امرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما كتاب الله وسنتي فلما بعد النقل من لدن
 دولة الرشيد فابعد احتياج الى وضع التفسير القرآني وتقييد الحديث مخافة ضياعه
 ثم احتياج الى معرفة الاسانيد وتعديل الناقبين للتمييز بين الصحيح من الاسانيد وما دونه ثم
 كثرة استخراج احكام الواقعة من الكتاب والسنة وفسد مع ذلك اللسان فاحتج
 الى وضع القوانين النحوية وصارت العلوم الشرعية كلها ملكات في الاستنباطات
 والاستخراج والتنظير والقياس واحتاجت الى علوم أخرى وهي وسائل لها من معرفة
 قوانين العربية وقوانين الاستنباط والقياس والذب عن العقائد اليمانية بالادلة
 لكثرة البدع والالحاد فصارت هذه العلوم كلها علوم ما ذات ملكات محتاجة الى التعاليم
 فاندرجت في جملة الصنائع وقد كادت منارات الصنائع من متعل الحضر وأن العرب
 أبعد الناس عنها فصارت العلوم لذلك حضرية وبعدها عنها العرب وعن سوقها والحضر
 لذلك العهد هم العجم أودن في معانهم من الموالى وأعمال الحواضر الذين هم يومئذ
 تبع للعجم في الحضارة وأحوالها من الصنائع والحرف لانهم أقوم على ذلك للحضارة
 الراضة فيهم منذ دولة الفرس فكان صاحب صناعة النحوسيبويه والفارسي من
 بعده والزجاج من بعدهما وكنهم عجم في أنسابهم وانما ربوا في اللسان العربي
 فاكسبوه بالمربي ومخالطة العرب وصبروه قرائن وفنالم من بعدهم وكذا جملة الحديث
 الذين حفظوه عن أهل الاسلام أكثرهم عجم أو مستعجمون بال لغة والمربي وكان علماء
 أصول الفقه كلهم عجم كما يعرف وكذا جملة علم الكلام وكذا أكثر المفسرين ولم يبق
 بحفظ العلم وتدوينه الا الاعاجم وظهر مصداق قوله صلى الله عليه وسلم لو تعلق العلم
 بأكف السماء لانه قوم من أهل فارس وأما العرب الذين أدركوا هذه الحضارة
 وسوقها وخرجوا اليها عن البداوة فشفقتهم الرماية في الدولة العباسية وما دفعوا اليه
 من القيام بالملك عن القيام بالعلم والنظر فيه فانهم كانوا أهل الدولة وحاميتها وأولى
 سياستها مع ما يلحقهم من الانفة عن اتحال العلم حينئذ بما صار من جملة الصنائع
 والرؤساء أبدأ يستنكفون عن الصنائع والمهن وما يجزأها ودفعوا ذلك الى من قام به
 من العجم والمولدين وما زانوا يرون لهم حق القيام به فانه دينهم وعلومهم ولا يحتقرون
 حملتها كل الاحتقار حتى اذا خرج الامر من العرب جملة وصار للعجم صارت العلوم
 الشرعية غريبة النسبة عند أهل الملك بما هم عليه من البعد عن نسبتها وامتن حملتها
 بما روت أنهم بعد اعانهم مستغنين بما لا يعنى ولا يجدى عنهم في الملك والسياسة كما

ذكرناه في نقل المراتب الدينية فهو هذا الذي قررناه هو السبب في أن جملة الشريعة
أوعايتهم من العجم وأما العلوم العقلية أيضا فلم تظهر في الملة إلا بعد أن تميز جملة العلم
وموافوه واستقر العلم كله صناعة فاختصت بالعجم وتركتها للعرب وانصرفوا عن
انتهاها فلم يحملها إلا العربون من العجم شأن الصنائع كما قلناه أولا فلم يزل ذلك في
الإصاير مادامت الحضارة في العجم وبلادهم من العراق وخراسان وما وراء النهر فلما
خربت تلك الإصاير وذهبت منها الحضارة التي هي سر الله في حصول العلم والصنائع
ذهب العلم من العجم جملة لما شملهم من البداوة واختص العلم بالإصاير الموفورة
الحضارة ولا أوفر اليوم في الحضارة من مصر فهي أم العالم وإيوان الإسلام وينبوع
العلم والصنائع وبقي بعض الحضارة فيما وراء النهر لما هنالك من الحضارة بالدولة التي
فيها فلهم بذلك حصة من العلوم والصنائع لا تنكر وقد داننا على ذلك كلام بعض علمائهم
في تأليف وصلت إلينا إلى هذه البلاد وهو سعد الدين التفتازاني وأما غيره من العجم
فلم نزلهم من بعد الإمام بن الخطيب ونصير الدين الطوسي كلاما يعول على نهايته في
الإصابة فاعتبر بذلك وتأمله ترغيبا في أحوال الخليفة والله يخلق ما يشاء لا اله الا هو
وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير وحسبنا الله ونعم الوكيل
والحمد لله

٣٧ (فصل في علوم اللسان العربي)

أركانه أربعة وهي اللغة والنحو والبيان والادب ومعرفة ما ضرورية على أهل الشريعة
اذمأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهي بلغة العرب ونقلتها من
الصحابة والتابعين عرب وشرح مشكلاتهم من لغاتهم فلا بد من معرفة العلوم
المتعلقة بهذا اللسان لمن أراد علم الشريعة وتفاوت في التأكيديتفاوت مراتبها في
التوفيق بمقصود الكلام حسب ما يتبين في الكلام عليها افتناؤا والذي يتحصل أن الأهم
المقدم منها هو النحو واذبه يتبين أصول المقاصد بالدلالة فيعرف الفاعل من المفعول
والمبتدأ من الخبر ولولا جهل أصل الافادة وكان من حق علم اللغة التقدم لولا أن أكثر
الأوضاع باقية في موضوعاتها لم تتغير بخلاف الأعراب الدال على الاسم ناد والمسمى
والمسند إليه فانه تغير بالجملة ولم يبق له أثر فلذلك كان علم النحو أهم من اللغة اذ في جهله
الإخلال بالتفاهم جملة وليست كذلك اللغة والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

(علم النحو)

اعلم أن اللغة في المعارف هي عبارة المتكلم عن مقصوده وتلك العبارة فعل لسانى فلا

بدأن تصير ملكة متفرقة في العضو الفاعل لها وهو اللسان وهو في كل أمة بحسب
 اصطلاحاتهم وكانت الملكة الحاصلة للعرب من ذلك أحد من الملكات وأوضحها ابانة
 عن المقاصد دلالة غير الكلمات فيها على كثير من المعاني مثل الحركات التي تعين
 الفاعل من المفعول من المجرور أعني المضاف ومثل الحروف التي تفضي بالافعال الى
 الذوات من غير تكاف ألقاظ أخرى وليس يوجد ذلك الا في لغة العرب وأما غيرها من
 اللغات فكل معنى أو حال لا يتلوه من ألقاظ تخصه بالدلالة ولذلك نجد كلام العجم في
 مخاطباتهم أطول مما نقره بكلام العرب وهذا هو معنى قوله صلى الله عليه وسلم
 أوتيت جوامع الكلام واختصر لي الكلام اختصارا فصا للعرش في لغتهم والحركات
 والهيئات أي الاوضاع اعتبارا في الدلالة على المقصود غير متكلفتين فيه اصناعة
 يستفيدون ذلك منها انما هي ملكة في السننهم يأخذها الآخر عن الاول كما تأخذ
 صديقاتها هذا العهد لغاتنا فلما جاء الاسلام وفارقوا الجبار لطلب الملك الذي كان في
 أيدي الامم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى اليها السمع من المخانقات
 التي للمتعر بين والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى اليها مما يغيرها
 لجنوحها اليه باعتبار السمع وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأسا
 وبطول العهد به فبغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستنبطوا من مجاري كلامهم
 قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكلمات والقواعد يقيسون عليها سائر أنواع الكلام
 ويلحقون الاشباه بالاشباه مثل أن الفاعل مرفوع والمفعول منصوب والمبتدأ
 مرفوع ثم رأوا تغير الدلالة بتغير حركات هذه الكلمات فاصطلحوا على تسميته اعرابا
 وتسمية المرجب لذلك التغير عاملا وأمثال ذلك وصارت كلها اصطلاحات خاصة
 بهم ففقدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة واصطلحوا على تسميتها بعلم النحو
 وأقول من كتب فيها أبو الاسود الدؤلي من بني كنانة ويقال بإشارة على رضى الله عنه
 لأنه رأى تغير الملكة فأشار عليه بحفظها فنزع الى ضبطها بالقوانين الحاضرة المستقرأة
 ثم كتب فيها الناس من بعده الى أن انتهت الى الخليل بن أحمد الفراهيدي أيام
 الرشيد أوجب ما كان الناس اليها الذهاب تلك الملكة من العرب فهدب الصناعة وكل
 أبوابها وأخذها عنه سيبويه فيكمل تقاريعها واستكثر من أدلتها وشواهدا ووضع
 فيها كتابه المشهور الذي صار اما لكل ما كتب فيها من بعده ثم وضع أبو علي الفارسي
 وأبو القاسم الزجاج كتابا مختصرة للمتعلمين يحدون فيها حذوا الامام في كتابه ثم طال
 الكلام في هذه الصناعة وحدث الخلاف بين أهلها في الكوفة والبصرة المصرين
 القديين للعرب وكثرت الأدلة والجدال بينهم وتباينت الطرق في التعليم وكثر الاختلاف

في اعراب ~~ص~~ كثير من آي القرآن باختلافهم في تلك القواعد وطال ذلك على المتعلمين
 وجاء المتأخرون بمذاهبهم في الاختصار فاقتصروا كثيرا من ذلك الطول مع استيعابهم
 لجميع ما نقل كما فعله ابن مالك في كتاب التسهيل وأمثاله أو اقتصارهم على المبادئ
 للمتعلمين كما فعله الزمخشري في المفصل وابن الحاجب في المقدمة له وربما نظموا ذلك
 نظما مثل ابن مالك في الارجوزتين الكبرى والصغرى وابن معطي في الارجوزة
 الالفية وبالجملة فالتا كيف في هذا القرن أكثر من أن تحصى أو يحاط به أو طرق
 التعليم فيها مختلفة فطريقة المتقدمين مغايرة لطريقة المتأخرين والصكوفيون
 والبصريون والبغداديون والاندلسيون مختلفة طرقهم كذلك وقد كادت هذه
 الصناعة أن تؤذن بالذهاب لما رأينا من النقص في سائر العلوم والصناعات بتناقص
 العمران ووصل البناء بالمغرب لهذه العصور ديوان من مصر منسوب الى جمال الدين
 ابن هشام من علمائها استوفى فيه أحكام الاعراب مجمل ومفصلة وتكلم على الحروف
 والمفردات والجل وحذف ما في الصناعة من المتكرر في أكثر أبوابها وسماه بالمغنى في
 الاعراب وأشار الى ~~ن~~ اعراب القرآن كلها ووسطها بأبواب وفصول وقواعد
 انتظمت سائرها فوقنا منه على علم جم يشهد بعلو قدره في هذه الصناعة ووفور بضاعته
 منها وكانه ينحوي طريقته منحة أهل الموصل الذين اقتفوا أثر ابن جنى واتبعوا
 مصطلح تعليمه فأتى من ذلك بشي عجيب دال على قوة ملكته وإطلاعه والله يزيد في
 الخلق ما يشاء

(علم اللغة)

هذا العلم هو بيان الموضوعات اللغوية وذلك أنه لما فسدت ملكة اللسان العربي في
 الحركات المسماة عند أهل النحويين بالاعراب واستتبقت القوانين لحفظها كما قلناه ثم
 استمر ذلك الفساد بعباسة الهجم ومخالطتهم حتى تأذى الفساد الى موضوعات الالفاظ
 فاستعمل كثير من كلام العرب في غير موضوعه عندهم ميلا مع هجنة المتعربين في
 اصطلاحاتهم المخالفة لصريح العربية فاحتج الى حفظ الموضوعات اللغوية بالكتاب
 والتدوين خشية الدروم وما ينشأ عنه من الجهل بالقرآن والحديث فشمركثير من
 أئمة اللسان لذلك وأملوا فيه الدواوين وكان سابق الحلبة في ذلك الخليل بن أحمد
 القراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها من الثنائي
 والثلاثي والرابع والخامس وهو غاية ما ينتهي اليه التركيب في اللسان العربي وتأتى
 له حصر ذلك بوجوه عديدة حاسرة وذلك أن جملة الكلمات الثنائية تخرج من جميع

الاعداد على التوالي من واحد الى سبعة وعشرين وهو دون نهاية حروف المعجم
بواحد لان الحرف الواحد منها يؤخذ مع كل واحد من السبعة والعشرين
فتكون سبعة وعشرين كلمة ثنائية ثم يؤخذ الثاني مع الستة والعشرين كذلك ثم
الثالث والرابع ثم يؤخذ السابع والعشرون مع الثامن والعشرين فيكون واحدا
فتكون كلها اعدادا على التوالي العدد من واحد الى سبعة وعشرين فيجمع كما هي
بالعمل المعروف عند أهل الحساب ثم تضاعف لاجل قلب الثنائي لان التقديم
والتأخير بين الحروف معتبر في التركيب فيكون الخارج جملة الثنائيات وتخرج
الثلاثيات من ضرب عدد الثنائيات فيما يجمع من واحد الى ستة وعشرين لان كل
ثنائية يزيد عليها حرفا فتكون ثلاثية فتكون الثنائية بمنزلة الحرف الواحد مع كل
واحد من الحروف الباقية وهي ستة وعشرون حرفا بعد الثنائية فيجمع من واحد الى
ستة وعشرين على التوالي العدد ويضرب فيه جملة الثنائيات ثم تضرب الخارج في
ستة جملة مقلوبات الكلمة الثلاثية فيخرج مجموع تراكيبيها من حروف المعجم وكذلك
في الرباعي والخماسي فانحصرت في التراكيب بهذا الوجه ورتب أبوابه على حروف
المعجم بالترتيب المتعارف واعتمد فيه ترتيب الخارج فبدأ بحروف الحلق ثم ما بعده من
حروف الخنك ثم الاضراس ثم الشفة وجعل حروف العلة آخر وهي الحروف
الهوائية وبدأ من حروف الحلق بالعين لانه الاقصى منها فلذلك سمي كتابه بالعين لان
المتقدمين كانوا يذهبون في تسمية دواوينهم الى مثل هذا وهو تسميته بأول ما يقع فيه من
الكلمات والالفاظ ثم بين المهمل منها من المستعمل وكان المهمل في الرباعي والخماسي
أكثر لقله استعمال العرب له لثقله ولحق به الثنائي لقله دورانه وكان الاستعمال في
الثلاثي أغلب فكانت أوضاعه أكثر دورانه وضمن الخليل ذلك كله في كتاب العين
واستوعبه أحسن استيعاب وأوعاه وجاء أبو بكر الزبيدي وكتب لهشام المؤيد
بالاندلس في المائة الرابعة فاختصره مع المحافظة على الاستيعاب وحذف منه المهمل
كله وكثيرا من شواهد المستعمل ونلخصه للحفظ أحسن تلخيص وألف الجوهري
من المشاركة كتاب الصحاح على الترتيب المتعارف لحروف المعجم فجعل البداية منها
بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الاخير من الكلمة لاضطرار الناس
في الاكتر الى أواخر الكلام وحصر الالة اقتداء بهصرا الخليل ثم ألف فيها من الاندلسيين
ابن سبيد من أهل دانية في دولة علي بن مجاهد كتاب المحكم على ذلك المنهج من
الاستيعاب وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم
وتصار فيها فجاء من أحسن الدواوين ونلخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر

من ملوك الدولة الحفصية بتونس وقلب ترتيبه الى ترتيب كتاب الصحاح في اعتباراً واعر
الكلام وبناء التراجم عليهم فكانوا تسمى رجم وسليلى أبوة هذه أصول كتب اللغة فيما
علمناه وهناك مختصرات أخرى مختصة بصنف من الكلام ومستوحاة لبعض الابواب
أولكها الاآت وجه الحصر فيها خفي ووجه الحصر في تلك جلي من قبل التراكيب
كما رأيت ومن الكتب الموضوعية أيضاً في اللغة كتاب الرمنخري في المجاز بين فيه
كل ما تجوزت به العرب من الالفاظ وفيما تجوزت به من المدلولات وهو كتاب شريف
الافادة ثم لما كانت العرب تضع الشيء على العموم ثم تستعمل في الامور الخاصة
الفاظاً أخرى خاصة بها فوق ذلك عندنا بين الوضع والاستعمال واحتياج الى فقه في
اللغة عزيز المأخذ كما وضع الابيض بالوضع العام لكل ما فيه يياض ثم اختص ما فيه
بياض من الخيل بالاشهب ومن الانسان بالازهر ومن الغنم بالاملح حتى صار استعمال
الايض في هذه كاه الحناوخر وجاعن لسان العرب واختص بالتأليف في هذا المنهج
الثعالبي وأفرده في كتاب له سماه فقه اللغة وهو من أكد ما يأخذ به اللغوي نفسه أن
يحرف استعمال العرب عن مواضعه فليس معرفة الوضع الاوّل بكاف في التركيب
حتى يشهد له استعمال العرب لذلك وأكثر ما يحتاج الى ذلك الاديب في فن نظم
وتره حذر من أن يكثر لحنه في الموضوعات اللغوية في مفرداتها وتراكيبها وهو أشد
من اللحن في الاعراب وأغش وكذلك ألف بعض المتأخرين في الالفاظ المشتركة
وتكفل بمصرها وان لم تبلغ الى النهاية في ذلك فهو مستوعب للاكثر وأما المختصرات
الموجودة في هذا الفن المخصوصة بالمتداول من اللغة الكثير الاستعمال تسهيلات لحفظها
على الطالب فكثيرة مثل الالفاظ لابن السكيت والفصيح لشعيب وغيرهما وبعضها
أقل لغة من بعض لاختلاف نظرهم في الهم على الطالب للحفظ والله الخلاق العليم
لاربسواه

(علم البيان)

هذا العلم حادث في الملة بعد علم العربية واللغة وهو من العلوم اللسانية لانه متعلق
بالالفاظ وما تفيد ويقصد به بالدلالة عليه من المعاني وذلك أن الامور التي يقصد
المتكلم بها افادة السامع من كلامه هي اما تصرفات تسند ويسند اليها ويفضي
بعضها الى بعض والدالة على هذه هي المفردات من الاسماء والافعال والحروف واما
تميز المسندات من المسند اليها والازمنة ويندل عليها بتغير الحركات وهو الاعراب
وأبنية الكلمات وهذه كلها هي صناعة النحو ويبقى من الامور المكتشفة بالواقعات

المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين وما يقتضيه حال الفعل وهو محتاج
 الى الدلالة عليه لانه من تمام الافادة واذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الافادة في
 كلامه واذا لم يشتمل على شيء منها فليس من جنس كلام العرب فان كلامهم واسع
 ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الاعراب والابانة ألا ترى أن قولهم زيد
 جاءني مغاير لقولهم جاءني زيد من قبل أن المتقدم منهما هو الالهة عند المتكلم فن قال
 جاءني زيد أفاد أن اهتمامه بالمجيء قبل الشخص المسند اليه ومن قال زيد جاءني أفاد
 أن اهتمامه بالشخص قبل المجيء المسند وكذا التعبير عن أجزاء الجملة بما يناسب المقام
 من وصول أو منهم أو معرفة وكذا تأكيد الاسناد على الجملة كقولهم زيد قائم وان
 زيدا قائم وان زيدا قائم متغايرة كلها في الدلالة وان استوت من طريق الاعراب فان
 الاول العاري عن التأكيد انما يفيد انما الى الذهن والثاني المؤكد بان يفيد المتردد
 والثالث يفيد المنكر فهي مختلفة وكذلك تقول جاءني الرجل ثم تقول مكاه بعينه
 جاءني رجل اذا قصدت بذلك التنكير تعظيمه وأنه رجل لا يعادله أحد من الرجال ثم
 الجملة الاسنادية تكون خبرية وهي التي لها خارج تطابقه أو لا وانشائية وهي التي
 لا خارج لها كالطلب وأنواعه ثم قد يتعين ترك العاطف بين الجملتين اذا كان للثانية محل
 من الاعراب فيشترط بذلك منزلة السابع المفرد نعتا وتوكيد او بدلا بلا عطف أو يتعين
 العطف اذا لم يكن للثانية محل من الاعراب ثم يقتضي المحل الاطناب والايجاز فيورد
 الكلام عليهما ثم قد يدل باللفظ ولا يريد منطوقه ويريد لازمه ان كان مفردا كما تقول زيد
 أسد فلا تريد حقيقة الاسد المنطوقه وانما تريد شجاعته انلازمة وتسميها الى زيد
 وتسمى هذه استعارة وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه كما تقول زيد كسبر
 الرماد وتريد به ما لزم ذلك عنه من الجود وقرى الضيف لان كثرة الرماد ناشئة عنها
 فهي دالة عليهما وهذه كلها دلالة زائدة على دلالة اللفظ المفرد والمركب وانما هي
 هيآت وأحوال لواقعات جعلت للدلالة عليهما أحوال وهيآت في اللفظ كل
 بحسب ما يقتضيه مقامه فاشتمل هذا العلم المسمى بالبيان على البحث عن هذه الدلالات
 التي لهيآت وأحوال والمقامات وجعل على ثلاثة أصناف الصنف الاول يبحث
 فيه عن هذه الهيآت والأحوال التي تطابق باللفظ جميع مقتضيات الحال ويسمى
 علم البلاغة والصنف الثاني يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظي وملزومه وهي
 الاستعارة والكناية كما قلناه ويسمى علم البيان والمقوالم بما حتمنا آخر وهو النظر
 في ترين الكلام وتخصيصه بنوع من التتميق اما بسجع يفصله أو تجنيس يشابه بين
 ألفاظه أو ترصيع يقطع أوزانه أو تورية عن المعنى المقصود بآيها معنى أخفى منه

لاشتر الالفاظ بينهم و أمثال ذلك ويسمى عندهم علم البديع و أطلق على الاصناف الثلاثة عند المحدثين اسم البيان وهو اسم الصنف الثاني لان الاقدمين أول ما تكلموا فيه ثم تلاحت مسائل الفن واحدة بعد أخرى و كتب فيها جعفر بن يحيى و الملاحظ و قدامة و أمثالهم املاآت غير وافية فيها ثم تزل مسائل الفن ~~تكمّل~~ شأفا إلى أن محض السكاكي زبده و هذب مسائله و رتب أبوابه على نحو ما ذكرناه آنفا من الترتيب و ألف كتابه المسمى بالفتح في النحو و التصريف و البيان فجعل هذا الفن من بعض أجزائه و أخذ المتأخرون من كتابه و لمصوا منه أمهات هي المتداولة لهذا العهد كما فعله السكاكي في كتاب التبيان و ابن مالك في كتاب المصباح و جلال الدين القزويني في كتاب الايضاح و التلخيص و هو أصغر حجما من الايضاح و العناية به لهذا العهد عند أهل المشرق في الشرح و التعليل منه أكثر من غيره و بالجملة فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة و سببه و الله أعلم أنه كمال في العلوم اللسانية و الصنائع الكالية توجد في العمران و المشرق و فر عمران من المغرب كما ذكرناه أو نقول لعناية العجم و هم معظم أهل المشرق كتفسير الزمخشري و هو كماه مبني على هذا الفن و هو أصله و انما اختص بأهل المغرب من أصفافه علم البديع خاصة و جعلوه من جملة علوم الادب الشعرية و فترعوا له القابا و عددوا أبوابا و نوعوا أنواعا و زعموا أنهم أحصوها من لسان العرب و انما جعلهم على ذلك الولوع بتزيين الالفاظ و أن علم البديع سهل المأخذ و صعبت عليهم ما أخذ البلاغة و البيان لدقة انظارهما و غموض معانيهما فاجتفوا عنهم ما و عن ألف في البديع من أهل افر يقية ابن رشيق و كتاب العمدة له مشهور و جرى كثير من أهل افر يقية و الاندلس على منعه و اعلم أن غرة هذا الفن انما هي في فهم الابعجاز من القرآن لان ابعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الاحوال منطوقة و مفهومة و هي أعلى مراتب الكلام مع الكمال فيما يختص بالالفاظ في اتقانها و جودة رصفها و تركيبها و هذا هو الابعجاز الذي تقصر الافهام عن دركه و انما يدرك بعض الشيء منه من كان له ذوق بمخالطة اللسان العربي و حصول ملكته فيدرك من ابعجازه على قدر ذوقه فانهذا كانت مدارك العرب الذين سمعوه من مبلغه أعلى مقاما في ذلك لانهم فرسان الكلام و جهابذته و الذوق عندهم موجودا و فرما يكون و أصح و أحوج ما يكون الى هذا الفن المفسرون و أكثر تفاسير المتقدمين غفل عنه حتى ظهر جاراته الزمخشري و وضع كتابه في التفسير و تتبع آي القرآن باحكام هذا الفن بما يبدى البعض من ابعجازه فانقره بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع عند اقتباسها من القرآن بوجوه البلاغة و لاجل هذا يتعامه كثير من

أهل السنة مع وفور بضائته من البلاغة فن أحكم عقائد السنة وشارك في هذا الفن بعض المشاركة حتى يقتدر على الرد عليه من جنس كلامه أو يعلم أنه بدعة فيعرض عنها ولا تضر في معتقده فإنه يتعين عليه النظر في هذا الكتاب للنظر بشئ من الاعجاز مع السلامة من البدع والاهواء والله الهادي من يشاء إلى سواء السبيل

(علم الادب)

هذا العلم لاموضوع له يتطرق في اثبات عوارضه أو نفيها وانما المقصود منه عند أهل اللسان ثمرته وهي الاجادة في فن المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم فيجاءه من ذلك من كلام العرب ما عدا ما تحصل به الكلمة من شاعر عالٍ الطبقة وجمع متساوي في الاجادة ومسائل من اللغة والنحو ومشوثة أثناء ذلك متفرقة به تتقرب منها الناظر في الغالب معظم قوائين العربية مع ذلك بعض من أيام العرب يفهم به ما يقع في أشعارهم منها وكذلك ذكر المهتم من الانساب الشهيرة والاعخبار العامة والمقصود بذلك كله أن لا يخفى على الناظر فيه شئ من كلام العرب وأساليبهم ومناحي بلاغتهم إذا تصفحه لانه لا تحصل الملكة من حفظه الا بعد فهمه فيحتاج إلى تقديم جميع ما يتوقف عليه فهمه ثم انهم اذا أرادوا حذو هذا الفن قالوا الادب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والاخذ من كل علم بطرفه يريدون من علوم اللسان والعلوم الشرعية من حيث متونها فقط وهي القرآن والحديث اذ لا مدخل لغير ذلك من العلوم في كلام العرب الا ما ذهب اليه المتأخرون عند كافتهم بصناعة البديع من التورية في أشعارهم وترسامهم بالاصطلاحات العلمية فاحتاج صاحب هذا الفن حينئذ إلى معرفة اصطلاحات العلوم ليكون قائما على فهمها ومعنا من شيوخنا في مجالس التليم أن أصول هذا الفن وأركانها أربعة دواوين وهي أدب الكتاب لابن قتيبة وكتاب الكامل للمبرد وكتاب البيان والتبيين للجاحظ وكتاب النوادر لابن علي القالي البغدادي وما سوى هذه الأربعة تتبع لها وفروع عنها وكتب المحدثين في ذلك كثيرة وكان الغناء في الصدر الاوّل من أجزاء هذا الفن لما هو تابع للشعر اذ الغناء انما هو طهينه وكان الكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصا على تحصيل أساليب الشعر وفنونه فلم يكن احتمالها فادحا في العدالة والمروءة وقد ألف القاضي أبو الفرج الاصبهاني وهو ما هو كتابه في الاغاني جمع فيه أخبار العرب وأشعارهم وأنسابهم وأيامهم ودواهم وجعل مبناه على الغناء في المائة صوت التي اختارها المغنون للرشيد فاستوعب فيه ذلك أتم امتيعاب ووفاء ولعمري

أنه ديوان العرب وجامع أشتهات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الاحوال ولا يعدل به كتاب في ذلك فيما نعلمه وهو الغاية التي يسهو ليها الاديب وبقف عندها وأنى لهم ما ونحن الآن نرجع بالتعقيب على الاجمال فيما تكلمنا عليه من علوم اللسان والله الهادي للصواب

٣٨ (فصل في ان اللغة ملكة صناعية)

(اعلم) أن اللغات كلها ملكات شبيهة بالصناعة اذ هي ملكات في اللسان للعبارة عن المعاني وجودتها وقصورها بحسب تمام الملكة أو نة صانها وليس ذلك بالنظر الى المفردات وانما هو بالنظر الى التراكيب فاذا حصلت الملكة التامة في تركيب الالفاظ المفردة لتعبر بها عن الاماني المقصودة ومراعاة التأليف الذي يطبق الكلام على مقتضى الحال بلغ المتكلم حينئذ الغاية من افادة مقصوده للسامع وهذا هو معنى البلاغة والملكات لا تحصل الا بتكرار الافعال لان الفعل يقع أو لا وتعود منه للذات صفة ثم تتكرر فتكون حالا ومعنى الحال أنها صفة غير راسخة ثم يزيد التكرار فتكون ملكة أى صفة راسخة فالتكلم من العرب حين كانت ملكته اللغة العربية موجودة فيهم يسمع كلام أهل جيله وأساليتهم في مخاطباتهم وكيفية تعبيرهم عن مقاصدهم كما يسمع الصبي استعمال المفردات في معانيها فيلقنها أولا ثم يسمع التراكيب بعدها فيلقنها كذلك ثم لا يزال سماعهم لذلك يتجدد في كل لحظة ومن كل متكلم واستعماله يتكرر الى أن يصير ذلك ملكة وصفة راسخة ويكون كأحد هم هكذا نصرت الالسن واللغات من جيل الى جيل وتعلمها العجم والاطفال وهذا هو معنى ما نقوله الامامة من أن اللغة للعرب بالطبع أى بالملكة الاولى التي أخذت عنهم ولم يأخذوها عن غيرهم ثم انه لما فسدت هذه الملكة تضر بمخاطبتهم الاعاجم وسبب فسادها أن الناشئ من الجيل صار يسمع في العبارة عن المقاصد كقبيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخاطبين للعرب من غيرهم ويسمع كقبيات العرب أيضا فاختلط عليه الامر وأخذ من هذه وهذه فاستحدث ملكة وكانت ناقصة عن الاولى وهذا معنى فساد اللسان العربي ولهذا كانت لغة قريش أفصح اللغات العربية وأسرحتها البعد هم عن بلاد العجم من جميع جهاتهم ثم اكتنفتهم من نقيف وهذيل وحرارة وبني كنانة وغطفان وبني أسد وبني تميم وأما من بعد عنهم من ربيعة ونظم وجدام وغسان وبادوقضاعة وعرب اليمن المجاورين لامم الفرس والروم والحبشة فلم تكن لغتهم تامة الملكة بمخاطبة الاعاجم وعلى نسبة

بعدهم من قريش كان الاحتجاج بلغاتهم في العمدة والفساد عند أهل الصناعة العربية
والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق

٣٩ (فصل في ان لغة العرب لهذا العهد لغة مستقلة مغايرة للغة مضر وحمير)

وذلك انما نجد هاهنا في بيان المقاصد والوفاء بالدلالة على سنن اللسان المضرى ولم يفقد منها
الادلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول فاعتراضها بالتقديم والتأخير
وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد الا أن البيان والبلاغة في اللسان المضرى
أكثر وأعرف لان اللفاظ بأعيانها دالة على المعاني بأعيانها وبين ما تقتضيه
الاحوال ويسمى بساط الحال محتاجا الى ما يدل عليه وكل معنى لا بد وأن تكتنفه
أحوال تخصه فيجب أن تعتبر تلك الاحوال في تأدية المقصود لانها صفة وتلك
الاحوال في جميع الالسن أكثر ما يدل عليها بالفاظ تخصها بالوضع وأما في
اللسان العربي فأنما يدل عليها بأحوال وكيفيات في تراكيب اللفاظ وتأليفها
من تقديم أو تأخير أو حذف أو حركة اعراب وقيدل عليها بالحروف غير المستقلة
ولذلك تفاوتت طبقات الكلام في اللسان العربي بحسب تفاوت الدلالة على تلك
الكيفيات كما قدمناه فكان الكلام العربي لذلك أو جزوا أقل ألفاظا وعبارة من
جميع الالسن وهذا معنى قوله صلى الله عليه وسلم أنت جوامع الكلم واختصر لي
الكلام اختصارا واعتبر ذلك بما يحكى عن عيسى بن عمر وقد قال له بعض الصحابة انى أجد
في كلام العرب تكرارا في قواهم زيد قائم وان زيدا قائم وان زيدا قائم والمعنى واحد
فتمال له ان معانيها مختلفة فالاول لافادة الخالى الذهن من قيام زيد والثانى لمن سمعه
فأنكره والثالث لمن عرف بالاصرار على انكاره فاختلفت الدلالة باختلاف الاحوال
وما زالت هذه البلاغة والبيان ديدن العرب ومذهبهم لهذا العهد ولا تلتفتن في
ذلك الى خرفسة الصحابة أهل صناعة الاعراب القاصرة مداركهم عن التحقيق حيث
يزعمون أن البلاغة لهذا العهد ذهبت وأن اللسان العربي فسد اعتبارا بما وقع أو آخر
الكلام من فساد الاعراب الذى يتدارسون قواينه وهى مقالة دسها التشيع في طباعهم
وألقاها القصور في أفئدتهم والافئتن نجد اليوم الكثير من ألفاظ العرب لم تزل في
موضوعاتها الاولى والتعبير عن المقاصد والتعاون فيه بتفاوت الابانة موجود في
كلامهم لهذا العهد وألب اللسان وفنونه من النظم والنثر موجود في مخاطباتهم
وفهم الخطيب المصقع في محافلهم ومجامعهم والشاعر المطلق على أساليب
لغتهم والذوق الصحيح والطبع السليم شاهدان بذلك ولم يفقد من أحوال اللسان

المدون الاحركات الاعراب في اواخر الكلم فقط الذي لزم في لسان مضر طريقة
 واحدة ومهيبة معروفة وها هو الاعراب وهو بعض من أحكام اللسان وانما وقعت
 العناية بلسان مضر لما فسد بمخالطتهم الاعاجم حين استولوا على ممالك العراق والشام
 ومصر والمغرب وصارت ملكته على غير الصورة التي كانت اولاً فانقلب لغة أخرى
 وكان القرآن متزلاً به والحديث النبوي منقولاً بلغته وهما أصل الدين والملة تخشى
 تناسيها وانغلاق الافهام عنهما بقدر ان اللسان الذي تنزلاً به فاحتج الى تدوين
 أحكامه ووضع مقاييسه واستنباط قوانينه وصار علم اذافصول وأبواب ومقدمات
 ومسائل سماه أهل لغة العرب وصناعة العربية فأصبح فناً محققاً وعلماً مكتوباً ووسلاً
 الى فهم كتاب الله وسنة رسوله وافيها ولعلنا لو اعتمدنا بهذا اللسان العربي لهذا الهدى
 واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الاعرابية في دلالتها بأمر آخر موجوده
 فيه فتكون لها قوانين تخصها واهلها تكون في اواخره على غير المنهاج الاول في لغة
 مصرية اللغات وملاكتها مجازاً ولقد كان اللسان المصري مع اللسان الحميري بهذه
 المثابة وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته تشهد
 بذلك الانتقال الموجب وولدنا خلافاً لمن يجعله القصور على أنهم ما لغة واحدة ويلتزم
 اجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضربية بقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق
 القيل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا وليس ذلك بصحيح ولغة حمير
 لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات اعرابها كما
 هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر الا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة كما
 قلنا حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء وليس عندنا لهذا العهد ما يحملنا على مثل
 ذلك ويدعونا اليه وعمار وقع في لغة هذا الجيل العربي لهذا العهد حيث كانوا من الاقطار
 شأنهم في النطق بالقاف فانهم لا ينطقون بها من مخرج القاف عند أهل الامصار
 كما هو مذكور في كتب العربية انه من أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الاعلى
 وما ينطقون بها أي من مخرج الكاف وان كان أسفل من موضع القاف وما يليه
 من الحنك الاعلى كما هي بر يجيئون بها متوسطة بين الكاف والقاف وهو موجود
 للجيل أجمع حيث كانوا من غرب أو شرق حتى صار ذلك علامة عليهم من بين الامم
 والاجيال ومختصاً بهم لا يشاركونهم فيها غيرهم حتى ان من يريد التعرّب والاتساق
 الى الجيل والدخول فيه يحاكيهم في النطق بهم وعندهم أنه انما يتميزا العربي الصحيح
 من الدخيل في العربية والحضري بالنطق بهذه القاف ويظهر بذلك أنهم اللغة
 مضر بعينها فان هذا الجيل الباقيين معظمهم ورؤساؤهم شرقاً وغرباً في ولد منصور بن

عكرمة بن خصفة بن قيس بن عبد لان من سليم بن منصور ومن بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور وهم لهذا العهد أكثر الامم في المعمور وأغلبهم وهم من أعقاب مضر وسائر الجليل منهم في النطاق بهذه القاف أسوة وهذه اللغة يتدعها هذا الجليل بل هي متوارثة فيهم متعاقبة ويظهر من ذلك أنها لغة مضر الاولين ولعلها لغة النبي صلى الله عليه وسلم بعينها وقد ادعى ذلك فقهاء أهل البيت وزعموا أن من قرأ في أم القرآن اهدنا الصراط المستقيم بغير القاف التي اهدنا الجليل فقد لحن وأفسد صلته ولم أدر من أين جاء هذا فان لغة أهل الامصار أيضا لم يستحدثوها وانما تناقلوها من لدن سلفهم وكان أكثرهم من مضر لما نزلوا الامصار من لدن الفتح وأهل الجليل أيضا لم يستحدثوها الا أنهم أبعد من مخالطة الاعاجم من أهل الامصار فهذا يرجح فيما يوجد من اللغة لديهم أنه من لغة سلفهم هذا مع اتفاق أهل الجليل كلهم شرقا وغربا في النطق بها وأنها الخاصة التي تميزها العربي من الهجين والحضري فتفهم ذلك والله الهادي المبين

٤ (فصل في ان لغة أهل الحضرة والامصار لغة قائمين بنفسها مخالفة للغة مضر)

اعلم أن عرف التخاطب في الامصار وبين الحضرة ليس بلغة مضر القديمة ولا بلغة أهل الجليل بل هي لغة أخرى قائمة بنفسها بعدة عن لغة مضر وعن لغة هذا الجليل العربي الذي لعهدنا وهي عن لغة مضر أبعد فاما أنها لغة قائمة بنفسها فهو ظاهر يشهد له ما فيها من التغاير الذي بعد عند صناعة أهل النحول لنا وهي مع ذلك تختلف باختلاف الامصار في اصطلاحاتهم فلغة أهل المشرق مبينة بعض الشيء للغة أهل المغرب وكذا أهل الاندلس معهم ما وكل منهم متصل بلغته الى تأدية مقصوده والابانة عما في نفسه وهذا معنى اللسان واللغة وفقدان الاعراب ليس بضائر لهم كما قلناه في لغة العرب لهذا العهد واما أنها أبعد عن اللسان الاول من لغة هذا الجليل فلا تن البعد عن اللسان انما هو بمخالطة الهجة فنخالط العجم أكثر كانت لغته عن ذلك اللسان الاصلى أبعد لان الملكة انما تحصل بالتعليم كما قلناه وهذه ملكة ممتزجة من الملكة الاولى التي كانت للعرب ومن الملكة الثانية التي للعجم فعلى مقدار ما يسمعون من الهجة ويربون عليه يبعدون عن الملكة الاولى واعتبر بذلك في امصار افرريقية والمغرب والاندلس والمشرق اما افرريقية والمغرب فخالطت العرب فيها البرابرة من العجم بوفور عمرانها بهم ولم يكديخلو عنهم مصر ولا جيل فغلبت الهجة فيها على اللسان العربي لذي كان لهم وصارت لغة أخرى ممتزجة والهجة فيها أغلب لما ذكرناه فبقي عن اللسان الاول أبعد

وكذا المشرق لما غلب العرب على أعمه من فارس والتركية في الطوهم وتداولت بينهم لغاتهم في الأكرة والفلاحين والسبي الذين اتخذوهم خولا ودايات وأظناراً ومراضع ففسدت لغتهم بفساد الملكة حتى انقلبت لغة أخرى وكذلك أهل الأندلس مع عجم الجلائقة والأفريقية وصار أهل الأمصار كما هم من هذه الأقاليم أهل لغة أخرى مخصوصة بهم تخالف لغة مصر ويخالف أيضاً بعضهم بعضاً كما ذكره وكانها لغة أخرى لاستحكام ملكتها في أجيالهم والله يخلق ما يشاء ويقدر

٤١ (فصل في تعليم اللسان المضرى)

اعلم أن ملكة اللسان المضرى لهذا العهد قد ذهبت وفسدت ولغة أهل الجبل كلهم مغارة للغة مصر التي نزل بها القرآن وانما هي لغة أخرى من امتزاج الهمجة بها كما قدمناه الآن اللغات لما كانت ملكات كما مر كان تعلمها كما شأن سائر الملكات ووجه التعليم لمن يتلقى هذه الملكة ويروم تحصيلها أن يأخذ نفسه بحفظ كلامهم القديم الجارى على أساليبهم من القرآن والحديث وكلام السلف ومخاطبات فحول العرب في أوجاعهم وأشعارهم وكلمات المولدين أيضاً في سائر فنونهم حتى يتزل لكثرة حفظه لكلامهم من المنظوم والمنثور منزلة من نشأ بينهم ولقن العبارة عن المقاصد منهم ثم يتصرف بعد ذلك في التعبير عما في ضميره على حسب عباراتهم وتأليف كلماتهم وما وعاها وحفظه من أساليبهم وترتيب ألفاظهم فتحصل له هذه الملكة بهذا الحفظ والاستعمال ويرداد بكثرتهما رسوخاً وقوة ويحتاج مع ذلك إلى سلامة الطبع والتفهيم الحسن لمنازع العرب وأساليبهم في التراكيب ومراعاة التطبيق بينها وبين مقتضيات الأحوال والذوق يشهد بذلك وهو ينشأ ما بين هذه الملكة والطبع السليم في ما كما نذكر وعلى قدر المحفوظ وكثرة الاستعمال تكون جودة المقول المصنوع نظماً ونثراً ومن حصل على هذه الملكات فقد حصل على لغة ضرورية وهو الناقد البصير بالبلاغة فيها وهكذا ينبغي أن يكون تعلمها والله يهدي من يشاء بفضل وكرمه

٤٢ (فصل في ان ملكة هذا اللسان غير صناعة العربية ومستغنية عنها في التعليم)

والسبب في ذلك أن صناعة العربية انما هي معرفة قوانين هذه الملكة ومقاييسها خاصة فهو علم بكيفية لانفس كيفية فليست نفس الملكة وانما هي بمثابة من يعرف صناعة من الصنائع علماً ولا يحكمها عملاً مثل أن يقول بصير بالخطاطة غير محكم للمكتبة في التعبير عن بعض أنواع الخطاطة هي أن يدخل الخطيط في ثورت الأبرة ثم يفرزها في لفتى الثوب بجمعة من ويخرجها من الجانب الآخر بمقدار كذا ثم يردّها إلى حيث

ابتدأت ويحزبها قدام منفذها الاول بمطرح ما بين التبيين الاولين ثم يتبادى
على ذلك الى آخر العمل ويعطى صورة الحيك والتبني والتفتيح وسائر أنواع الحياطة
وأعمالها وهو اذا اطرب أن يعمل ذلك بيده لا يحكم منه شيئا وكذا لو سئل عالم بالحجارة
عن تفصيل الخشب فيقول هو أن تضع المنشار على رأس الخشبة وتمسك بطرفه وآخر
قبالك تمسك بطرفه الآخر وتعاقبانه بنسك وأطرافه المضرسة المحددة تنقطع ما مرت
عليه ذاهبة وجائبة الى أن ينتهي الى آخر الخشبة وهو لو طولب به هذا العمل أو شئ
منه لم يحكمه وهكذا العلم بقوانين الاعراب مع هذه الملكة في نفس ما فان العلم بقوانين
الاعراب انما هو علم بكيفية العمل وليس هو نفس العمل ولذلك نجد كثيرا من جهابذة
النحاة والمهرة في صناعة العربية المحيطين علماتك القوانين اذا سئل في كتابة سطرين
الى أخيه أو ذى مودته أو شكوى ظلامه أو قصد من قصوده أخطأ فيها عن الصواب
وأكثر من اللحن ولم يجد تأليف الكلام لذلك والعبارة عن المقصود على أساليب اللسان
العربي وكذا نجد كثيرا من يحسن هذه الملكة ويحيد الفنين من المنظوم والمنثور وهو
لا يحسن اعراب الفاعل من المشعول ولا المرفوع من المجرور ولا شيئا من قواني
صناعة العربية فمن هذا تعلم أن تلك الملكة هي غير صناعة العربية وأنهم استغنية عنها
بالجمل وقد نجد بعض المهرة في صناعة الاعراب بصيرا بحال هذه الملكة وهو قليل
واتفاقي وأكثر ما يقع للمخاطبين اكتاب سيويه فإنه لم يقتصر على قواني الاعراب
فقط بل ملاء كتابه من أمثال العرب وشواهد أشعارهم وعباراتهم فكان فيه جزء
صالح من تعليم هذه الملكة فتجد العاكف عليه والمحصل له قد حصل على حظ من كلام
العرب واندرج في محفوظه في أماكنه وفاضل حاجاته وتنبه به ان أن الملكة
فاستوفى تعليمها فكان أبلغ في الافادة ومن هؤلاء المخاطبين اكتاب سيويه من يغفل
عن التفطن لهذا فيحصل على علم اللسان صناعة ولا يحصل عليه ملكة وأما المخاطبون
لكتب المتأخرين العارية عن ذلك الامن القواني النحوية مجردة عن أشعار العرب
وكلامهم فقلما يشعرون لذلك بأمر هذه الملكة أو يتنبهون اشأنها فتجدهم يحسبون
أنهم قد حصلوا على رتبة في لسان العرب وهم أبعد الناس عن أهل صناعة العربية
بالاندلس ومعلوها أقرب الى تحصيل هذه الملكة وتعليمها من سواهم اقيامهم فيها على
شواهد العرب وأمنالهم والتفقه في اشياء كثيرة من التراكيب في مجالس تعليمهم
بسبب انهم ابتدئوا كثير من الملكة أثناء التعليم فتقطع النفس لها وتسهل على
تحصيلها وقبولها وأما من سواهم من أهل المغرب وافريقية وغيرهم فأجروا صناعة
العربية مجرى العلوم بحشا وقطعوا النظر عن التفقه في تراكيب كلام العرب

الآن أعربوا شاهد أو رجوا مذهباً من جهة الاقتضاه الذهني لامن جهة محامل
 اللسان ترا كيف أصبحت صناعة العربية كلنهما من جملة قوائين انطق العقلية
 أو الجدل وبعثت عن مناحي اللسان وملكته ومادلك الاعدوا لهم عن البحث في
 تراهد اللسان ترا كيفهم وتيزاً ساليه وعظمتهم عن المران في ذلك للمتعلم فهو
 أحسن ما تصيد الملكة في اللسان وتلك القوائين انما هي وسائل للتعليم لكتهم أجروها
 على غير ما قصد بها وأصاروها على اجتناب بعد و عن غيرتها وتعلم مما قررناه في هذا الباب
 أن حصول ملكة اللسان العربي انما هي بكثرة الحفظ من كلام العرب حتى يرتسم في
 خياله المتوالي لدى نسجوا عليه ترا كيفهم فينسج هو عليه ويتزل بذلك منزلة من نشأ
 معهم وخالط عباراتهم في كلامهم حتى حصلت له الملكة المستقررة في العبارة عن
 انما صد على نحو كلامهم والله مقدر الامور كلها والله أعلم بالغيب

٤٣ فص في تفسير الذوق في مصطلح اهل البيان وتحقيق معناه
 وبيان ان لا يحصل غالباً للمستعربين من العجم

اعلم أن لفظة الذوق تدأونها المعنون بقنون البيان ومعناها حصول ملكة البلاغة
 للسان وقدمت تفسير البلاغة وأنها مطابقة الكلام للمعنى من جميع وجوهه بخواص
 تقع للترا كيب في افادة ذلك فالتمسك بلسان العرب والبليغ فيه يتصرى الهيئة
 المقيدة لذلك على أساليب العرب وانما مخاطبتهم وينظم الكلام على ذلك الوجه
 جهده فاذا اتهمت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملكة في نظم الكلام على
 ذلك الوجه وسهل عليه أمر التركيب حتى لا يكاد ينحرف فيه غير معنى البلاغة التي للعرب
 وان سمع ترا كيباً غير جار على ذلك المنهى محج ونباعته سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر
 الا بما استفاده من حصول هذه الملكة فان الملكات اذا استقرت ورخت في محالها
 ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل ولذلك يظن كثير من المغفلين من لم يعرف شأن
 الملكات أن الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ويقول كانت
 العرب تنطق بالطبع وليس كذلك وانما هي ملكة انسانية في نظم الكلام تمكنت
 ورخت فظهرت في بادئ الرأي أنها جبلة وطبع وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل
 بممارسة كذا العرب وتكريره على السمع والتفطن لخواص ترا كيبه وليست تحصل
 بمعرفة القوائين العملية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان فان هذه القوائين
 انما تصيد علماء بذلك اللسان ولا تصيد حصول الملكة بالفعل في محالها وقد مر ذلك
 واذا اتقر ذلك فلكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجود النظم وحسن

التركيب الموافق اتركيب العرب في لغتهم ونظم كلامهم ولورام صاحب هذه الملكة
جدا عن هذا السبيل المعينة والتركيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقه عليه
لسانه لانه لا يبتاعه ولا تهدي به اليه ملكته الراضة عنده واذا عرض عليه الكلام
ماثدا عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس
من كلام العرب الذين مارس كلامهم وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما تصنع أهل
القوانين النحوية والبيانية فان ذلك استدلال بما حصل من اقوانين المفادة
بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم
ومثاله لو فرضنا صبيا من صبيانهم نشأ وربى في جبلهم فانه يتعلم لغتهم ويحكم شأن
الاعراب والبلاغة فيها حتى يستولى على غايتها وليس من العلم القانوني في شيء وانما هو
بمصول هذه الملكة في لسانه ونطقه وكذلك تحصل هذه الملكة لمن بعد ذلك الجليل بحفظ
كلامهم وأشعارهم وخطبهم والمداومة على ذلك بحيث يحصل الملكة ويصير كواحد
من نشأ في جبلهم وربى بين أجيالهم والقوانين يعزل عن هذا واستعير له هذه الملكة عندما
ترسخ وتستقر اسم الذوق الذي اصطلح عليه أهل صناعة البيان وانما هو موضوع
لادراك الطعوم امكن لما كان محل هذه الملكة في اللسان من حيث النطق بالكلام كما
هو محل لادراك الطعوم استعير له اسمها وأيضا فهو وجداني اللسان كما أن الطعوم
محموسة له ذقيل له ذوق واذا تبين لك ذلك علمت منه أن الاعاجم الداخلين في اللسان
العربي الطارئين عليه المضطرين الى النطق به لمخالطة أهله كالفرس والروم والتركي
بالمشرق وكالبربر بالمغرب فانه لا يحصل لهم هذا الذوق لقصور حظهم في هذه الملكة
التي قررنا أمرها الآن قصارا هم بعد طائفة من الامم وسبق ملكة أخرى الى اللسان
وهي لغاتهم أن يعتنوا بما يتداوله أهل مصر بينهم في المحاوراة من مفرد ومركب لما
يضطرون اليه من ذلك وهذه الملكة قد ذهبت لاهل الامصار وبعدها عنها كما تقدم وانما
لهم في ذلك ملكة أخرى وايسر هي ملكة اللسان المطوية ومن عرف تلك الملكة
من القوانين المسطرة في الكتب فليس من تحصيل الملكة في شيء انما حصل أحكامها
كما عرفت وانما تحصل هذه الملكة بالممارسة والاعتقاد والتكرار لكلام العرب فان
عرض لك ما سمعته من أن سيديو به والفراسي والزنخشرى وأمثالهم من فرسان
الكلام كانوا أعما مع حصول هذه الملكة لهم فاعلم أن أولئك القوم الذين تسمع عنهم
انما كانوا عجماء في نسبهم فقط وأما المربي والنشأة فكانت بين أهل هذه الملكة من
العرب ومن تعلمها منهم فاستولوا بذلك من الكلام على غاية لا وراهوا وكانهم في أول
نشأتهم من العرب الذين نشأوا في أجيالهم حتى أدركوا كنه اللغة وصاروا من أهلها

وهم وان كانوا بجمما في النسب فليسوا بأجمام في اللغة والكلام لانهم أدر كوا الملة في
 عنقوانها واللغة في شبايم اولم تذهب آثارا الملكة ولا من أهل الامصار ثم عكفوا على
 الممارسة والمدارسة لكلام العرب حتى استولوا على غايته واليوم الواحد من العجم
 اذا خاطأ أهل اللسان العربي بالامصار فأقول ما يجد تلك الملكة المقصودة من اللسان
 العربي فتمحبة الاثار ويجدهم ملكتهم الخاصة بهم ملكة أخرى مخالفة لملكة اللسان
 العربي ثم اذا فرضنا أنه أقبل على الممارسة لكلام العرب وأشعارهم بالممارسة
 والحفظ يستفيد تحصلها فقل أن يحصل له ما قدمناه من أن الملكة اذا سبقتها ملكة
 أخرى في المحل فلا تحصل الاناقصة مخدوشة وان فرضنا بجمما في النسب سلم من مخالطة
 اللسان العجمي بالكلمة وذهب الى تعلم هذه الملكة بالمدارسة فربما يحصل له ذلك لكنه
 من الندور بحيث لا يخفى عليك بما تقرر وربما يدعى كثير ممن يتظر في هذه القوانين
 البيانية حصول هذا الذوق لهم وهو غلط أو مغالطة وانما حصلت له الملكة ان
 حصلت في تلك القوانين البيانية وليست من ملكة لعبارة في شيء والله يهدي من يشاء
 الى صراط مستقيم

٤ فصل في ان اهل الامصار على الاطلاق قاصرون في تحصيل هذه الملكة اللسانية التي
 تستفاد بالتعليم ومن كان منهم ابعد عن اللسان العربي كان حصولها اصعب واعسر

والسبب في ذلك ما سبق الى المتعلم من حصول ملكة منافية للملكة المطلوبة بما
 سبق اليه من اللسان الحضري الذي أفادته الهجة حتى نزل به اللسان عن ملكته
 الاولى الى ملكة أخرى هي لغة الحضراهم هذا العهد واهذا نجد المعلمين يذهبون الى
 المسابحة بتعليم اللسان للولدان وتعتقد النحاة أن هذه المسابقة بصناعتهم وليس كذلك
 وانما هي بتعليم هذه الملكة بمخالطة اللسان وكلام العرب ثم صناعة النحو أقرب الى
 مخالطة ذلك وما كان من لغات أهل الامصار أعرق في الهجة وأبعد عن لسان مضر
 فصر بصاحبه عن تعلم اللغة المضرية وحصول ملكتها يمكن المنافاة حينئذ واعتبر
 ذلك في أهل الامصار فأهل افريقية والمغرب لما كانوا أعرق في الهجة وأبعد عن
 اللسان الاقرب كان اهمهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم واقد نقل ابن الرقي
 أن بعض كتاب القبروان كتب الى صاحب له يا أخى ومن لا عدت فتدعه أعلمني أبو سعيد
 كلاما لك كنت ذكرت أنك تكون مع الذين تأتي وعاقنا اليوم فلم يتبها لنا الخروج
 وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين فتد كذبوا هذا باطلا ليس من هذا حرفا واحدا
 وكأبي اليك وأنا مشتاق اليك ان شاء الله وهكذا كانت ملكتهم في اللسان المضرى

شبيه ما ذكرنا وكذلك أشعارهم كانت بيّنة عن الملكة نازلة عن الطائفة ولم تزل كذلك
لهذا العهد ودواها - زاما كان باقر بقرية من مشاهير الشعراء الا ابن رشيقي وابن شريف
وأكثر ما يكون فيها الشعراء طارئين عليها ولم تزل طائفة منهم في البلاغة حتى الآن ماثلة
الى القصور وأهل الاندلس أقرب منهم الى تحصيل هذه الملكة بكثرة معاناتهم
وامتلائهم من المحفوظات اللغوية نظاما ونثر وكان فيهم ابن حبان الموزع امام أهل
الصناعة في هذه الملكة ورافع الرابية لهم فيها وابن عمه دربه والقاضي وأمثالهم من
شعراء بولن الطوائف لما زخرت فيها بحار اللسان والادب ونداول ذلك فيهم من
المستبين حتى سكن الانقضاء والجلاء أيام تغلب النصرانية وشغلوا عن تعلم ذلك
وتأقص العمارة ان قناتقص ذلك شأن الصنائع كاه فقصرت الملكة فيهم عن شأنها حتى
بلغت الحضيض وكان من آخرهم صالح بن شريف ومالك بن المرحل من تلاميذ العاقبة
الاشييين بسببته وكتاب دولة ابن الاحمر في أوقاها وألفت الاندلس أفلاذ كبسدها من
أهل تلك الملكة بالجلاء الى العدو بعد دولة الاشيينية الى سببته ومن شرق الاندلس الى
افريقية ولم يلبثوا الى أن انقضوا وانقاع سبب تعليمهم في هذه الصناعة لعدم قبول
العدو لها وصعوبتها عليهم بعوج السببهم ورسوخهم في العجة البربرية وهي منافية
لما قلناه ثم عادت الملكة من بعد ذلك الى الاندلس كما كانت ونجم بها ابن بشر بن وابن
جابر وابن الجباب وطبقتهم ثم ابراهيم الساحلي الطاريجي وطبقتهم وقفاهم ابن الخطيب
من بعدهم الهالك هذا العهد شهيد ابعباية أعدائه وكان له في اللسان ملكة لا تدرك
وتابع أثره تايده بعد وبالجولة فنشأ هذه الملكة بالاندلس أكثر وتعليقها أيسر وأهل
معانم عليه هذا العهد كما قدمنا من معاناة علوم اللسان ومحافظة عليهم على علوم
الادب وسبب تعليمها ولأن أهل اللسان العجمي الذين تفسد ملكتهم انما هم طارئون
عليهم وليست عجمهم أعلا للغة أهل الاندلس والبربر في هذه العدو وهم أهلها
ولانهم لسانهم الا في الامصار فقط وهم فيها مغمسون في بحر عجمتهم ووطائنتهم
البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم بخلاف أهل الاندلس واعتبر ذلك
بجمال أهل المشرق لعهد الدولة الاموية والعباسية فكان شأنهم شأن أهل الاندلس في
تمام هذه الملكة واجادتهم بالعدو لذلك العهد عن الاعاجم ومخاطبتهم الا في النمل فكان
أمر هذه الملكة في ذلك العهد أقوم وكان فحول الشعراء وان كتابا وفرت وتوفر العرب
وأثباتهم بالمشرق وانظر ما اشتمل عليه كتاب الاغانى من نظمهم ونثرهم فان ذلك الكتاب
هو كتاب العرب وديوانهم وفيه لغتهم وأخبارهم وابامهم وملكهم العربية وسيرتهم وآثار
خلفائهم وملوكهم وأشعارهم وغنائهم وسائر مغانيهم له فلا كتاب أوسع منه لاحوال

العرب وبقي أمر هذه المملكة مستحكماً في المشرق في الدولتين وربما كانت فيهم أبلغ من سواهم ممن كان في الجاهلية كما ذكره بعد حتى تلاشى أمر العرب ودرست لغتهم وفسد كلامهم وانقضى أمرهم ودولتهم وصار الأمر للأعاجم والملوك في أيديهم والتغلب لهم وذلك في دولة الديلم والسلاجوقية وخاطوا أهل الأمصار والحواضر حتى بعدوا عن اللسان العربي وملاكنه وصار متعلمها منهم مقصراً عن تحصيلها وعلى ذلك نجد لسانهم لهذا العهد في فن المنظوم والمنثور وان كانوا أكثرين منه والله يخلق ما يشاء ويختار والله سبحانه وتعالى أعلم وبه التوفيق لأرب سواه

٤٥ (فصل في انقسام الكلام الى فني النظم والنثر)

(اعلم) أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روى واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون وكل واحد من الفنين يشمل على فنون ومذاهب في الكلام فأما الشعر فنه المدح والهجاء والرثاء وأما النثر فنه السجع الذي يوتى به قطعاً ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً ومنه المرسل وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل ارسالاً من غير تقييد بقافية ولا غيرها ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم وأما القرآن وان كان من المنثور إلا أنه خارج عن الوصفين وليس يسمى مرسل مطلقاً ولا سجعاً بل تفصيل آيات ينتهي الى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ويثنى من غير التزام حرف يكون سجعاً ولا قافية وهو معنى قوله تعالى الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم وقال قد فصلنا الآيات ويسمى آخر الآيات منها فواصل إذ ليست أسجاعاً ولا التزام فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قوافٍ واطلق اسم المثاني على آيات القرآن كلها على العموم لما ذكرناه واختصت بأم القرآن للغلبة فيها كالجم للثريا ولهذا سميت السبع المثاني وانظر هذا مع ما قاله المفسرون في تعليل تسميتها بالمثاني يشهد لك الحق برجحان ما قلناه واعلم أن لكل واحد من هذه الفنون أساليب تختص به عند أهلها لا تصلح للفن الآخر ولا تستعمل فيه مثل النسب المختص بالشعر والحمد والدعاء المختص بالخطب والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك وقد استعمات المتأخرون أماليب الشعر وموازينه في المنثور من كثرة الاسجاع والتزام التقفية وتقديم النسب بين يدي الأغراض وصار هذا المنثور إذا تأتته من باب الشعر وفنه ولم يفترقالا في الوزن واستقر

المتأخرون من الكتاب على هذه الطريقة واستعملوها في المخاطبات السلطانية
 وقصروا الاستعمال في المنشور كله على هذا الفن الذي ارتضوه وخطوا الاساليب
 فيه وهجروا المرسل وتناسوه وخصوصاً أهل المشرق. وصارت المخاطبات السلطانية
 لهذا العهد عند الكتاب الغفل جارية على هذا الاسلوب الذي أشرنا اليه وهو غير
 صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال من أحوال
 المخاطب والمخاطب وهذا الفن المنشور المقني أدخل المتأخرون فيه أساليب الشعر
 فوجب أن تنزه المخاطبات السلطانية عنه إذا سلب الشعر تنقيها للوزعية وخط
 الحد بالهزل والاطناب في الاوصاف وضرب الامثال وكثرة التشبيهات والاستعارات
 حيث لا تدعو ضرورة الى ذلك في الخطاب والتزام التقية أيضاً من اللوزعة والتزيين
 وجلال الملك والسلطان وخطاب الجمهور وعن الملوك بالترهيب والترهيب ينافي ذلك
 ويأينيه والمحمود في المخاطبات السلطانية الترسل وهو اطلاق الكلام وارساله من غير
 تجميع الا في الاقل النادر وحيث ترسله الملكة ارسالا من غير تكلفه ثم اعطاء
 الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فان المقامات مختلفة ولكل مقام أسلوب
 يخصه من اطناب أو ايجاز أو حذف أو اثبات أو تصريح أو اشارة وكناية واستعارة
 وأما اجراء المخاطبات السلطانية على هذا النحو الذي هو على أساليب الشعر فذموم
 وما حل عليه أهل العصر الاستيلاء العجبة على السننهم وقصورهم لذلك عن اعطاء
 الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال فمجزوا عن الكلام المرسل ابعد أمده في
 البلاغة وانفساح خطوبه وولعوا بهذا المصعب يلقون به ما نقصهم من تطبيق
 الكلام على المقهور ودوم مقتضى الحال فيه ويجبرونه بذلك القدر من التزيين بالاسجاع
 والالقاء البديعة ويفعلون مما سوى ذلك وأكثر من أخذ به هذا الفن وبالغ فيه في
 سائر أنحاء كلامهم كتاب المشرق وشعراؤه لهذا العهد حتى انهم ليخلون بالاعراب في
 الكلمات والتصريف اذا دخلت لهم في تهنيس أو مطابقة لا يجهة عما ن معها فيرجحون
 ذلك الصنف من التهنيس ويدعون الاعراب ويفسدون بنية الكلمة عماها تصلاف
 التهنيس فتأمل ذلك بما قد مناه لك تقف على صحة ما ذكرناه والله الموفق للصواب بمنه
 وكرمه والله تعالى أعلم

٤٦ (فصل في انه لا تتفق الاجادة في فني المنظوم والمنثور معاً الا للاقل)

والسبب في ذلك أنه كما ينادى ملكة في اللسان فاذا نسبت الى محله ملكة أخرى قصرت
 بالمحمل عن تمام الملكة اللاحقة لان تمام الملكات وحصولها للطبائع التي على الفطرة

الاولى أسهل وأيسر واذا تقدمت مملكة أخرى كانت منازعة لها في المدة القابلة وعاقبة عن سرعة القبول فوعدت المناقاة وتعذر التمام في المملكة وهذا موجود في الملكات الصناعية كلها على الاطلاق وقد برهننا عليه في موضعه فهو من هذا البرهان فاعتبر مثله في اللغات فانها ملكات اللسان وهي بمنزلة الصناعة وانظر من تقدم له شيء من الهمزة كيف يكون قاصرا في اللسان العربي أبدا فالاجمعي الذي سبق له اللغة الفارسية لا يستولي على ملكة اللسان العربي ولا يزال قاصرا فيه ولو تعلمه وعلمه وكذا البربري والرومي والافرنجي قل أن تجد أحدا منهم محكما لملكه اللسان العربي وما ذلك الا لما سبق الى ألسنتهم من ملكة اللسان الا تخرج حق ان طالب العلم من أهل هذه اللسان اذا طالبه بين أهل اللسان العربي جاء مقصرا في معارفه عن الغاية والتحصيل وما أتى الا من قبل اللسان وقد تقدم لك من قبل أن اللسان واللغات شبيهة بالصنائع وقد تقدم لك أن الصنائع وملكاتها لا تزدهم وان من سبق له اجادة في صناعة فقل أن يجيد أخرى ويستولي فيها على الغاية والله خلقكم وما تم عملون

٤٧ (فصل في صناعة الشعر ووجه تعلمه)

هذا الفن من فنون كلام العرب وهو المسمى بالشعر عندهم ويوجد في سائر اللغات الا أنا الا انما تسلكم في الشعر الذي للعرب فان أمكن أن تجد فيه أهل اللسان الاخرى مقصودهم من كلامهم والافاكل لسان أحكام في البلاغة تخصه وهو في لسان العرب غريب النزعة عزيز المنحى اذ هو كلام مفصل تطعما قطعاً متساوية في الوزن متهددة في الحرف الاخير من كل قطعة وتسمى كل قطعة من هذه القطعات عندهم بيتا ويسمى الحرف الاخير الذي تتفق فيه روياء وقافية ويسمى جملة الكلام الى آخره قصيدة وكلمة وينفرد كل بيت منه بافادته في تراكيبه حتى كأنه كلام وحده مستقل عما قبله وما بعده واذا أفرد كان تاما في بابيه في مدح أو تشييب أو رثاء فيحصرص الشاعر على اعطاء ذلك البيت ما يستقل في افادته ثم يستأنف في البيت الاخر كلاما آخر كذلك ويستطرد للخروج من فن الى فن ومن مقصود الى مقصود بان يوطئ المقصود الاول ومعانيه الى أن تناسب المقصود الثاني ويبعد الكلام عن التنافر كما يستطرد من التشييب الى المدح ومن وصف البيداء والطلول الى وصف الركاب أو الخيل أو الطيف ومن وصف المدوح الى وصف قومه وعساكره ومن التفجع والعزاء في الرثاء الى التأثر وأمثال ذلك ويراعى فيه اتفاق القصيدة كلها في الوزن الواحد جذرا من أن يتساهل الطبع في الخروج من وزن الى وزن يقاربه فقد يعني ذلك من اجل المقاربة

على كثير من الناس ولهذه الموازين شروط وأحكام تضمنها علم العروض وليس كل وزن يتفق في الطبع استعملته العرب في هـ هذا الفن وانما هي أوزان مخصوصة تسمى أهل تلك الصناعة البحور وقد حصروها في خمسة عشر مجرا بمعنى انهم لم يجدوا للعرب في غيرها من الموازين الطبيعية نظما * واعلم ان فن الشعر من بين الكلام كان شريفا عند العرب ولذلك جعلوه ديوان علومهم واخبارهم وشاهد صوابهم وخطأهم وأصلا يرجعون اليه في الكثير من علومهم وحكمهم وكانت ملكته مستحكمة فيهم شأن الملكات كاهلها والملكات اللسانيات كلها انما تكتسب بالصناعة والارتياض في كلامهم حتى يحصل شبه في تلك الملكة والشعر من بين فنون الكلام صعب المأخذ على من يريد اكتساب ملكته بالصناعة من المتأخرين لاستقلال كل بيت منه بأنه كلام تام في مقصوده ويصلح أن يتفرد دون ما سواه فيحتاج من أجل ذلك الى نوع تلطف في تلك الملكة حتى يفرع الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له في ذلك المنهج من شعر العرب ويبرزه مستقلا بنفسه ثم يأتي بيت آخر كذلك ثم بيت ويستكمل الفنون الوافية بمقصوده ثم يناسب بين البيوت في موالاتها بعضها مع بعض بحسب اختلاف الفنون التي في القصيدة ولصعوبة منحاه وغرابة فنه كان محكما للقرايح في استجداء أساليبه وشخص الافكار في تنزيل الكلام في قوالبه ولا يكتفي فيه ملكة الكلام العربي على الاطلاق بل يحتاج بخصوصه الى تلافيف ومحاولات في رعاية الاساليب التي اختصتها العرب بها واستعمالها وان ذكر هنا ملوك الاسلوب عند أهل هذه الصناعة وما يريدون بها في اطلاقهم فاعلم انها عبارة عندهم عن المنوال الذي يندرج فيه التراكيب أو القالب الذي يفرغ فيه ولا يرجع الى الكلام باعتبار افادته أصل المعنى الذي هو وظيفة الاعراب ولا باعتبار افادته كمال المعنى من خواص التراكيب الذي هو وظيفة البلاغة والبيان ولا باعتبار الوزن كما استعمله العرب فيه الذي هو وظيفة العروض فهذه العلوم الثلاثة خارجة عن هذه الصناعة الشعرية وانما يرجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص وتلك الصورة يتزعمها الذهن من أعين التراكيب وأشخاصها ويصبرها في الخيال كلقالب أو المنوال ثم ينتقى التراكيب الصحيحة عند العرب باعتبار الاعراب والبيان فيرصها فيه رصا كما يفعل البناء في القالب أو النسيج في المنوال حتى يتسع القالب بحصول التراكيب الوافية بمقصود الكلام ويقع على الصورة الصحيحة باعتبار ملكة اللسان العربي فيسه فان لكل فن من الكلام أساليب تتخصص به وتوجد فيه على أنحاء مختلفة فـ سؤال الطول في الشعر يكون بخطاب الطول كقوله

• بادارية بالعداء فالسند • ويصكون باستدعاء العصب للوقوف والسؤال
 كقوله • قفانسال الدار التي خف أهلها • أو باستبكا العصب على الطلل
 كقوله • قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل • أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب
 غير معين كقوله • ألم تسأل فتضربك الرسوم • ومثل تحية الطول بالامر لمخاطب
 غير معين بتحيته كقوله • حتى الديار بجانب الغزل • أو بالدعاء لها بالسقيا
 كقوله

اسقى طولهم أجنس حديم • وغدت عليهم نضرة وزهيم

أوسواله السقيا لها من البرق كقوله

يأبرق طالع منزلا بالبرق • واحد السحاب لها حداء الاينق

أو مثل التقيع في الخزع باستدعاء البكا كقوله

كذا قليجل الخطب وليقدع الامر • وليس لعين لم يقض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله • أرأيت من حملوا على الاعواد • أو بالتسجيل على
 الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله

منابت العشب لاحام ولاراع • مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالانكار على من لم يتقبح له من الجمادات كقول الخارجية

أي اشجر الخابور مال الثمورقا • كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله

ألقي الرماح ربيعة بن نزار • أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك كثير في سائر فنون الكلام ومذاهبه وتتظم التراكيب فيه بالجل وغير
 الجمل انشائية وخبرية اسمية وفعلية متفقة وغيره تفقة فصوله وموصولة على ما هو
 شأن التراكيب في الكلام العربي في مكان كل كلمة من الاخرى يعرفك فيه مائة فقهه
 بالارتياض في أشعار العرب من القالب الكلي المجرى في الذهن من التراكيب المعينة
 التي ينطبق ذلك القالب على جميعها فان مؤلف الكلام هو ككاتبها أو النسيج
 والصورة الذهنية المنطبقة كلقالب الذي يبنى فيه أو المنوال الذي ينسج عليه فان
 خرج عن القالب في بنائه أو على المنوال في نسجه كان فاسدا ولا تقول ان معرفة
 قوانين البلاغة كافية في ذلك لاننا نقول قوانين البلاغة انما هي قواعد علمية قياسية
 تفيد جواز استعمال التراكيب على هيأتها الخاصة بالقياس وهو قياس على جميع
 مطردها هو قياس القوانين الاعرابية وهذه الاساليب التي نحن نقتردها ليست من
 القياس في شئ انما هي هيئة ترسخ في النفس من تتبع التراكيب في شعر العرب

لجرىانها على اللسان حتى تستحكم صورتها في تفيد بها العمل على منالها والاحتذاء
 بها في كل تركيب من الشعر كما قدمنا ذلك في الكلام باطلاق وان القوانين العلمية من
 العربية والبيان لا تفيد تعليمه بوجه وايس كل ما يصح في قياس كلام العرب وقوانينه
 العلمية استعماله وانما المستعمل عندهم من ذلك انحاء معروفة بطباع عليها الحافظون
 لكلامهم تندرج صورتها تحت تلك القوانين القياسية فاذا نظر في شعر العرب على
 هذا النحو وبهذه الاساليب الذهنية التي تصير كالقوابل كان نظرا في المستعمل من
 تراكيبهم لا يما يقتضيه القياس ولهذا قلنا ان المحصل لهذه القوابل في الذهن انما
 هو حفظ اشعار العرب وكلامهم وهذه القوابل كما تكون في المنظوم تكون في
 المنثور فان العرب استعملوا كلامهم في الكلام الفين وجاءوا به مفصلا في النوعين
 في الشعر باقطع الموزونة والقوافل المقيمة واستقلال الكلام في كل قطعة وفي
 المنثور يعتبرون الموازنة والتشابه بين القطع غالباً وقد يقيدونه بالاسجاع وقد
 يرسلونه وكل واحدة من هذه معروفة في لسان العرب والمستعمل منها عندهم هو
 الذي بيني مؤلف الكلام عليه تأليفه ولا يعرفه الا من حفظ كلامهم حتى يتجرد في
 ذهنه من القوابل المعينة الشخصية قال كلي مطلق يحذف حذوه في التأليف كما
 يحذف البناء على القالب والنساج على المنوال فلماذا كان من تأليف الكلام منفردا
 عن نظر النحوي والبياني والعروضي نعم ان مراعاة قوائن هذه العلوم شرط فيه
 لا يتم بدونها فاذا تحصلت هذه الصفات كلها في الكلام اختص بنوع من النظرات طيف
 في هذه القوابل التي يسمونها اساليب ولا يقيد الا حفظ كلام العرب نظما ونثرا
 واذا تقرر معنى الاسلوب ما هو فلنذكر بعده حذوا ورسم الشعر به تفهم حقيقته
 على صعوبة هذا الغرض فانما نقف عليه لاحد من المتقدمين فيما رأيناه وقول
 العروضيين في حذوه انه الكلام الموزون المقفى ليس بمثل هذا الشعر الذي نحر بصدده
 ولا رسم له وصناعتهم انما تنظر في الشعر باعتبار ما فيه من الاعراب والبلاغة والوزن
 والقوابل الخاصة فلا جرم ان حذوهم ذلك لا يصلح له عندنا فلا بد من تعريف يعطينا
 حقيقته من هذه الحيثية فنقول الشعر هو الكلام البليغ المبني على الاستعارة
 والاصناف المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي مستقل بكل جزء منها في
 غرضه ومقصده عما قبله وبعده الجاري على اساليب العرب المخصوصة به فقولنا
 الكلام البليغ جنس وقولنا المبني على الاستعارة والاصناف فصل عما يتناول من هذه
 فانه في الغالب ليس بشعر وقولنا المفصل بأجزاء متفقة في الوزن والروي فصل له عن
 الكلام المنثور الذي ليس بشعر عند الكل وقولنا مستقل بكل جزء منها في غرضه

ومقصده عما قبله وبعده بيان للحقيقة لان الشعر لا تكون أبيانه الا كذلك ولم ينصل
به شيء وقولنا الجارى على الاساليب المخصوصة به فصل له عما لم يجرم منه على اساليب
العرب المعروفة فانه حينئذ لا يكون شعرا انما هو كلام منظوم لان الشعر له اساليب
مقصده لا تكون للمشهور وكذا اساليب المنشور لا تكون للشعر فاما كان من الكلام
منظوما وليس على تلك الاساليب فلا يكون شعرا وبهذا الاعتبار كان الكثير من
اقتناء من شيوخنا في هذه الصناعة الادبية يرون ان نظم المتنبي والمعري ليس هو من
الشعر في شيء لانهم ما يجربوا على اساليب العرب من الامم عندهم يرى ان الشعر يوجد
للعرب وغيرهم ومن يرى انه لا يوجد لغيرهم فلا يحتاج الى ذلك ويقول مكانه الجارى على
الاساليب المخصوصة واذ قد فرغنا من الكلام على حقيقة الشعر فلنرجع الى الكلام
في كيفية عمله فنقول * اعلم ان لعمل الشعر واحكام صناعته شروطا اولها الحفظ من
جنسه أى من جنس شعر العرب حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على مثلها ويتخير
المحفوظ من الخزانة الكثير الاساليب وهذا المحفوظ المختار اقل ما يمكن فيه شعر
شاعر من النحول الاسلامي مثل ابن ابي ربيعة وكثير وذي الرمة وجرير وأبي نواس
وحبيب والبهري والرضي وأبي فراس وأكثره شعر كتاب الاغاني لانه جمع شعرا أهل
الطبقة الالامية كاه والمختار من شعر الجاهلية ومن كان خاليا من المحفوظ فنظمه
فأصردى ولا يعطيه الرونق والحلاوة الا كثرة المحفوظ فن قل حفظه أو عدم لم
يكن له شعر وانما هو نظم ما قاط واجتناب الشعر أولى من لم يكن له محفوظ ثم بعد
الامتلاء من الحفظ وشهد القرية للنسج على المنوال يقبل على النظم وبالاكثر منه
تستحكم ملكته وترسخ وربما يقال ان من شرطه نسيان ذلك المحفوظ اتضح رسومه
الحرفية الظاهرة اذ هي صادة عن استعمالها بعينها فاذا نسيها وقد تكيفت النفس بها
انتقش الاسلوب فيها كأنه منوال يأخذ بالنسج عليه بأمثالها من كلمات أخرى
ضرورية ثم لا بد له من الحلاوة واستجماعة المكان المنظور فيه من المياه والازهار وكذا
المسروع لاستنارة القرية باستجماعها وتنشيطها بلاذ السرور ثم مع هذا كله فشرطه
أن يكون على جسام ونشاط فذلك أجمع له وأنشط للقرية أن تأتي بمثل ذلك المنوال
الذي في حفظه قالوا وخيرا الاوقات لذلك أوقات البكر عند الهبوب من النوم وفراغ
المعدة ونشاط الفكر وفي هؤلاء الجاهم وربما قالوا ان من بواعثه العشق والانشاء ذكر
ذلك ابن رشيق في كتاب العمدة وهو الكتاب الذي انقده بهذه الصناعة واعطاء حقاها
ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله قالوا فان استصعب عليه بعد هذا كله فليتركه
الى وقت آخر ولا يكره نفسه عليه وليكن بنا البيت على القافية من أول صوغه ونسجه

بعضها وبين الكلام عليهما الى آخره لانه ان غفل عن بناء البيت على القافية صعب
 عليه وضعها في محالها فربما تجيء نافرة قلقه واذا سمع الخاطر بالبيت ولم يناسب الذي
 عنده فليتركه الى موضعه الا ليق به فان كل بيت مستقل بنفسه ولم يبق الا المناسبة
 فليخبر فيها كما يشاء ويراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ولا يرضى به على
 الترتيب اذ لم يبلغ الاجادة فان الانسان مفتون بشعره اذ هو نبات فكروه واخترع
 قريحته ولا يستعمل فيه من الكلام الا الافصح من التراكيب والخالص من
 الضرورات اللسانية فليجربها فانها تنزل بالكلام عن طبقة البلاغة وقد حذر أئمة
 اللسان عن المولد ارتكاب الضرورة اذ هو في سعة منها بالعدول عنها الى الطريقة
 المثلى من الملكة ويجتنب أيضا المعقد من التراكيب جهده وانما يقصد منها ما كانت
 معانيه تسابق ألفاظه الى الفهم وكذلك كثرة المعاني في البيت الواحد فان فيه نوع
 تعقيد على الفهم وانما المختار منه ما كانت ألفاظه طبعا على معانيه أو وفي فان كانت
 المعاني كثيرة كان حشوا واستعمل الذهن بالغوص عليها فنفع الذوق عن استيفاء
 مدركه من البلاغة ولا يكون الشعر سهلا الا اذا كانت معانيه تسابق ألفاظه الى
 الذهن وهذا كان شيوخنا رحمهم الله يعيبون شعرا أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق
 الاندلس لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد كما كانوا يعيبون شعرا المتنبي
 والمعري بعدم النج على الاساليب العربية كما ترف كان شعرهما كلاما منظوما نازلا
 عن طبقة الشعر والحكاكم بذلك هو الذوق وليجتنب الشاعر أيضا الحوشي من الالفاظ
 والمقصر وكذلك السوقي المبتذل بالتداول بالاستعمال فانه ينزل بالكلام عن
 طبقة البلاغة أيضا فيصير مبتذلا ويقترب من عدم الافادة ~~كقولهم~~ التوارحارة
 والسماء فوقنا وبمقدار ما يقترب من طبقة عدم الافادة يبعد عن رتبة البلاغة اذ هما
 طرفان ولهذا كان الشعر في الربائيات والنبويات قليل الاجادة في الغالب ولا يحذف
 فيه الا الفعول وفي القليل على العشر لان معانيها متداولة بين الجمهور فتصير مبتذلة
 لذلك واذا تعذر الشعر بعد هذا كله فليراوضه ويعاوده فان القريحة مثل الضرع عيذ
 بالامتراء ويجوز بالترك والاهمال وبالجملة فهذه الصناعة وتعلمها مستوفى في كتاب العمدة
 لابن رشيق وقد ذكرنا منها ما حضرنا بحسب الجهد ومن اراد استيفاء ذلك فعليه بذلك
 الكتاب فقيه البغية من ذلك وهذه نبذة كافية والله المعين وقد نظم الناس في أمر هذه
 الصناعة الشعرية ما يجب فيها ومن أحسن ما قيل في ذلك وأظنه لابن رشيق
 لعن الله صنعة الشعر ماذا * من صنوف الجهال منه لقينا
 يؤثرون الغريب منه على ما * كان سهلا للسامع من مينا

ويرون الممال معنى صحيجا * ونخسيس الكلام شيئا تمينا
 يجهلون الصواب منه ولا يد * رون للجهل انهم يجهلون
 فهم عند من سوانا - لامو * ن وفي الحق عندنا يعذرونا
 انما الشعر ما يناسب في النظم * م وان كان في الصفات فنونا
 فأتى بعضه بشا كل بعضا * وأقامت له الصدور المتونا
 كل معنى أتاك منه على ما * تمني ولم يكن أو يكونا
 قتنا هي من البيان إلى أن * كاد نسا بين لناظرينا
 فكان الالفاظ منه وجوه * والمعاني ركن فيها عيوننا
 ان ما في المرام حسب الاماني * يتحلى بحسنه المتشدونا
 فاذا ما مدحت بالشعر حرا * رمت فيه مذاهب المثنينا
 فجعلت النسيب سهلا قريبا * وجهلت المديح صفا مينا
 وتعليت ما يهجن في السمع * وان كان لفظه موزونا
 واذا ما عرضته بهجا * عبت فيه مذاهب المرقينا
 فجعلت التصريح منه دواء * وجهات التعريض داء دينا
 واذا ما بكت فيه على العا * دين يوم اللبين والظاعينا
 حلت دون الامي وذلات ما كا * ن من الدمع في العيون مصونا
 ثم ان كنت عاتبا جئت بالوء * دوعيدا وبالصه - وبة لينا
 فتركت الذي عبت عليه * حذرا آمناء عزيرامينا
 وأصح القريض ما قارب النظم * م وان كان وانها مستينا
 فاذا قبل أطمع الناس طرا * واذا ريم أجم - زالمجزينا
 ومن ذلك أيضا قول بعضهم

الشعر ما قومت ربع صدوره * وشددت بالتهذيب أس متونه
 ورأت بالاطناب شهب صدوعه * وقفت بالايجاز عور عيونه
 وجهت بين قريبه وبعيده * وجهت بين محبه ومهينه
 واذا مدحت به جوادا ماجدا * وقضيت به بالشكر حق ديونه
 أصفيت به بتفتش ورضيته * وخصصته بخطيره وثمينه
 فيكون جزلا في مساق صوفه * ويكون سهلا في اتفاق فنونه
 واذا بكت به الدبار وأهلها * أجريت للمعزون ماء شوره
 واذا أردت كناية عن رية * ياينت بين ظهوره وبطونه

فجاءت سامعه بشوب شكوكه * بثبوتونه وظنونته يقينه

٤٨ (فصل في ان صناعة النظم والنثر انما هي في الالفاظ لا في المعاني)

(اعلم) أن صناعة الكلام نظاما ونثرا انما هي في الالفاظ لا في المعاني وانما المعاني تبع لها وهي أصل فالصانع الذي يحاول ملكة الكلام في النظم والنثر انما يحاولها في الالفاظ بحفظ أمثالها من كلام العرب ليعتاد استعماله ويجريه على لسانه حتى تستقر له الملكة في لسان مضر ويتخلص من الهمجة التي ربي عليها في جيله ويفرض نفسه مثل وليد ينشأ في جيل العرب ويلقن لغتهم كما يلقن الصبي حتى يصير كأنه واحد منهم في لسانهم وذلك انما قدمنا أن للسان ملكة من الملكات في النطق يحاول تحصيلها بتكرارها على اللسان حتى تحصل والذي في اللسان والنطق انما هو الالفاظ وانما المعاني فهي في الغماز وأيضاً فالمعاني موجودة عند كل واحد وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا يحتاج الى صناعة وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج للصناعة كما قلناه وهو بمثابة القوالب للمعاني فكما ان الاواني التي يعترف بها الماء من البحر منها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف والماء واحد في نفسه يختلف الجودة في الاواني المملوءة بالماء باختلاف جنسها لا باختلاف الماء كذلك جودة اللغة وبلاغتها في الاستعمال تختلف باختلاف طبقات الكلام في تأليف باعتبار تطبيقه على المقاصد والمعاني واحدة في نفسها وانما الجاهل بتأليف الكلام وأساليبه على مقتضى ملكة اللسان اذا حاول العبارة عن مقصوده ولم يحسن بمشابه المقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه والله يعلمكم ما لم تكونوا تعلمون

٤٩ (فصل في ان حصول هذه الملكة بكثرة الحفظ وجودتها بجودة المحفوظ)

قد قدمنا انه لا بد من كثرة الحفظ ان يروم تعلم اللسان العربي وعلى قدر جودة المحفوظ وطبقته في جنسه وكثرتهم من قلته تكون جودة الملكة الخاصة له عنه للمحافظ من كان محفوظه شعر حبيب أو العتابي أو ابن المعتز أو ابن هاني أو الشريف الرضي أو رسائل ابن المقفع أو سهل بن هرون أو ابن الزيات أو البديع أو الصامى تكون ملكته أجود وأعلى مقاماً ورتبة في البلاغة ممن يحفظ شعر ابن سهل من المتأخرين أو ابن النبية أو ترسل البيهقي أو العماد الاصبهاني لتزول طبقته هؤلاء عن أولئك يظهر ذلك للبصير الناقد صاحب الذوق وعلى منتهى جودة المحفوظ أو المجموع تكون جودة الاستعمال من بعده ثم اجادة الملكة من بعدهما فبارتقاء المحفوظ في طبقته من

الكلام ترتقى الملكة الحاصلة لان الطبع انما ينسج على منوالها وتموقوى الملكة بتغذيتها وذلك ان النفس وان كانت في جبلتها واحدة بالنوع فهي تختلف في البشر بالقوة والضعف في الادراكات واختلافها انما هو باختلاف ما يرد عليها من الادراكات والملكات والالوان التي تكفيها من خارج فبهذه يتم وجودها وتخرج من القوة الى الفعل صورتها والملكات التي تحصل لها انما تحصل على التدريج كما قدمناه فالملكة الشعرية تنشأ بحفظ الشعر وملكة الكتابة بحفظ الاسماع والترسيل والعمليّة بمخالطة العلوم والادراكات والاجتهاد والانظار والفقهيّة بمخالطة الفقه وتنظيم المسائل وتفريدها وتخرج الفروع على الاصول والتصوفية الرابضة بالعبادات والاذكار وتعطيل الحواس الظاهرة بالخلوة والانفراد عن الخلق ما استطاع حتى تحصل له ملكة الرجوع الى حسه الباطن وروحه وينقلب رانيا وكذا سائرها وللنفس في كل واحد منها لون تتكيف به وعلى حسب ما نشأت الملكة عليه من جودة أو رداءة تكون تلك الملكة في نفسها بملكة البلاغة العالية الطبقة في جنسها انما تحصل بحفظ العالي في طبقة من الكلام ولهذا كان الفقهاء وأهل العلوم كلهم قاصرين في البلاغة وما ذلك الا لما يسبق الى محفوظهم ويمتلي به من القوانين العمليّة والعبارات الفقهيّة الخارجة عن أسلوب البلاغة والنازلة عن الطبقة لان العبارات عن القوانين والعلوم لاحظ لها في البلاغة فاذا سبق ذلك المحفوظ الى الفكر وكثرت وتلقنت به النفس جاءت الملكة الناشئة عنه في غاية القصور وانحرفت عباراته عن أساليب العرب في كلامهم وهذا كذا نجد شعر الفقهاء والنحاة والمتكلمين والنظار وغيرهم ممن لم يمتلي من حفظ النقي الحزمن كلام العرب (أخبرني) صاحبنا الفاضل أبو القاسم بن رضوان كاتب العلامة بالدولة المرينية قال ذاكرت يوما صاحبنا أبا العباس بن شعيب كاتب السلطان أبي الحسن وكان المقدم في البصر باللسان لعهد فأنشدته مطلع قصيدة ابن النحوي ولم أنسبها له وهو هذا

لم أدر حين وقفت بالاطلال * ما الفرق بين جديدها والبالى
فقال لي على البديهة هذا شعر نفسيه فقلت له ومن أين لك ذلك قال من قوله ما الفرق
اذهي من عبارات الفقهاء وليست من أساليب كلام العرب فقلت له الله أبوك انه ابن
النحوي * وأما الكتاب والشعراء فليسوا كذلك لتخبرهم في محفوظهم ومخالطتهم
كلام العرب وأسايبهم في الترسيل واتقائهم له الجيد من الكلام * ذاكرت يوما
صاحبنا أبا عبد الله بن الخطيب وزير الملوك بالاندلس من بني الاحمر وكان الصدر المقدم
في الشعر والكتابة فقلت له أجد استصعابا على في نظم الشعر متى رمته مع بصري به

وحفظني للجيد من الكلام من القرآن والحديث وفنون من كلام العرب وان كان
 محفوظي قليلا وانما أتيت والله أعلم من قبل ما حصل في حفظي من الاشعار العلمية
 والقوانين التأليفية فاني حفظت قصيدتي الشاطبي الكبرى والصغرى في القراءات
 وتدارست كتابي ابن الحاجب في الازقة والاصول وجمال الخونجي في المنطق وبعض كتاب
 التسهيل وكثيرا من قوانين التعليم في المجالس فامتلا محفوظي من ذلك وخذش وجه
 الملكة التي استهددت لها بالهذون الجيد من القرآن والحديث وكلام العرب فعاق
 القرية عن بلوغها فنظر الى ساعة مجيئها ثم قال لله أنت وهل يقول هذا الامثلك *
 ويظهر لك من هذا الفصل وما تقر فيه سر آخر وهو اعطاء السبب في أن كلام
 الاسلاميين من العرب اهل طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منشورهم
 ومنظومهم فانما نجد شعر حسان بن ثابت وعمر بن أبي ربيعة والحطيئة وجرير والفرزدق
 ونصيب وغزلان ذي الرمة والاحوص وبنو بشر ثم كلام السلف من العرب في الدولة
 الاموية وصدر من الدولة العباسية في خطبهم وترسلهم ومحاوراتهم لاولئك ارفع طبقة
 في البلاغة من شعر النابغة وعنترة وابن كثوم وزهير وعلقمة بن عبدة وطرفة بن العبد
 ومن كلام الجاهلية في منشورهم ومحاوراتهم والطبع السليم والذوق الصحيح شاهدان
 بذلك للناقد البصير بالبلاغة والسبب في ذلك ان هؤلاء الذين أدركوا الاسلام ساءوا
 الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث اللذين عجز البشر عن الاتيان بمثليهما
 لكونها ولجت في قلوبهم ونشأت على أساليبها ثم هم فنضت طباعهم وارتقت
 ملكاتهم في البلاغة على ملكات من قبلهم من اهل الجاهلية ممن لم يسمع هذه الطبقة
 ولانشأ عليها فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأصنى رونقا من أولئك
 وأرصف مني وأعدل توفيقا بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة وتأنل ذلك
 يشهد لك به ذوقك ان كنت من اهل الذوق والتبصر بالبلاغة * واقدمت يوما
 شيخنا الشريف أبا القاسم قاضي غرناطة اهدانا وكان شيخ هذه الصناعة أخذ بسببته
 عن جماعة من مشيختنا من تلاميذ الشلوين واستبحر في علم اللسان وجاء من وراء الغاية
 فيه فسألته يوما ما بال العرب الاسلاميين اهل طبقة في البلاغة من الجاهليين ولم يكن
 ليستمكر ذلك بذوقه فسكت طويلا ثم قال لي والله ما أدري نقلت أعرض عليك شيئا
 ظهر لي في ذلك واعلم السبب فيه وذكرت له هذا الذي كتبت فسكت مجيبا ثم قال لي
 يا فقيه هذا كلام من حقه أن يكتب بالذهب وكان من بعده ايوثر محلي : بصيخ في مجالس
 التعليم الى قولي ويشهد لي بالنباهة في العلوم والله خلق الانسان وعلمه البيان

فصل في ترفع اهل المراتب عن احتمال الشرف

(اعلم) أن الشعر كان ديوانا للعرب فيه علومهم وأخبارهم وحكمهم وكان رؤساء العرب منافسين فيه وكانوا يقفون بسوق عكاظ لأنشاده وعرض كل واحد منهم ديباجته على غول الشان وأهل البصر لتمييز حوله حتى انتهوا إلى المنساعة في تعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم كما فعل امرؤ القيس بن حجر والنابغة الذبياني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والاعشى وغيرهم من أصحاب العلاقات السبع فإنه انما كان يتومل إلى تعليق الشعر بها من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصيته ومكانه في مصر على ما قيل في سبب تسميتها بالعلاقات ثم انصرف العرب عن ذلك أول الاسلام بما شغلهم من أمر الدين والنبوة والوحى وما أدهشهم من أساليب القرآن ونظمه فأخروا عن ذلك وسكتوا عن الخوض في النظم والنثر زمانا ثم استقر ذلك وأونس الرشد من الملة ولم ينزل الوحى في تحريم الشعر وحظره وسمعه النبي صلى الله عليه وسلم وأثاب عليه فرجعوا حينئذ إلى ديدنهم منه وكان لعمر بن أبي ربيعة كبير قريش لذلك العهد مقامات فيه عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيرا ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستملاءه ومجيباه ثم جاء من بعد ذلك الملك والدولة العزيزة وتقرّب اليهم العرب بأشعارهم يمدحونهم بها ويحيزهم الخلفاء بأعظم الجوائز على نسبة الجوده في أشعارهم ومكانهم من قومهم ويحرصون على استهداء أشعارهم يطالعون منها على الآثار والأخبار واللغة وشرف اللسان والعرب يطالبون وليدهم بحفظها ولم يزل هذا الشأن أيام بنى أمية وصدر من دولة بنى العباس وانظر ما نقله صاحب العقد في ساهرة الرشيد للادعي في باب الشعر والشعراء فجد ما كان عليه الرشيد من المعرفة بذلك والرسوخ فيه والعناية بانتماله والتبصر بجيد الكلام ورديته وكثرة محنوظه منه ثم جاء خلق من بعدهم لم يكن اللسان لسانهم من أجل الجهلة وتقصيرها باللسان وانما تعلموه صناعة ثم مدحوا بأشعارهم أمراء العجم الذين ليس اللسان لهم طالبين معروفهم فقط لاسوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب والبهترى والمتنبى وابن هاني ومن بعدهم إلى هلم جزا فصار عرض الشعر في الغالب انما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للاقوان كما ذكرناه آنفا وأنف منه لذلك أهل الهم والمراتب من المتأخرين وتغير الحال وأصبح تعاطيه هجنة في الرياسة ومدته لاهل المناصب الكبيرة والله مقلب الليل والنهار

٥١ (فصل في اشعار العرب واهل الامصار لهذا العهد)

(اعلم) ان الشعر لا يختص باللسان العربي فقط بل هو موجود في كل لغة سواء كانت

عربية أو عجمية وقد كان في الفرس شعراء وفي يونان كذلك وذكر منهم ارسطو في كتاب
 المنطق أو ميروس الشاعر وأثنى عليه وكان في حبراً أيضاً شعراء. ثم تدمون ولما فسد
 لسان مضر ولغتهم التي دوتت مقاييسها وقوانين اعرابها وفسدت اللغات من بعد
 بحسب ما خالطها وما زجها من العجمة فكانت تحيل العرب بأنفسهم لغة خالفت لغة
 سلفهم من مضر في الاعراب جملة وفي كثير من الموضوعات اللغوية وبناء الكلمات
 وكذلك الحضرة أهل الامصار نشأت فيهم لغة أخرى خالفت لسان مضر في الاعراب وأكثرت
 الاوضاع والتصاريف وخالفت أيضاً لغة الجليل من العرب لهذا العهد واختلفت
 هي في نفسها بحسب اصطلحات أهل الآفاق فلاهل الشرق وأمهارة لغة غير لغة
 أهل المغرب وأمهارة وتخالفت أيضاً لغة أهل الاندلس وأمهارة ثم لما كان الشعر
 موجوداً بالطبع في أهل كل لسان لان الموازين على نسبة واحدة في اعداد المتحركات
 والسواكن وتقابلها موجودة في طباع البشر فلم يهجر الشعر بفقدان لغة واحدة وهي
 لغة مضر الذين كانوا يقولون وفرسان ميدانه حسبما اشتهر بين أهل الخليفة بل كل جيل
 وأهل كل لغة من العرب المستعجمين والحضرة أهل الامصار يتعاطون منه ما يطاوعهم
 في اتحاله ووصف بنائه على مهيج كلامهم فأتا العرب أهل هذا الجليل المستعجمون عن
 لغة سلفهم من مضر فيقرضون الشعر لهذا العهد في سائر الاعاير يض على ما كان عليه
 سلفهم المستعربون ويأتون منه بالمطولات مستحثة على مذاهب الشعر وأغراضه من
 النسيب والمدح والرثاء والهجاء ويستطردون في الخروج من فن الى فن في الكلام
 وربما هجموا على المقصود لا قول كلامهم وأكثر ابتدائهم في قصائدهم باسم الشاعر ثم بعد
 ذلك ينسبون فأهل أمصار المغرب من العرب يسمون هذه القصائد بالاصحاحات نسبة
 الى الاسمى راوية العرب في أشعارهم وأهل المشرق من العرب يسمون هذا النوع من
 الشعر بالبدوي وربما يلحنون فيه الحاناً بسيطة لا على طريقة الصناعة الموسيقية ثم
 يغنون به ويسمون الغناء به باسم الحوراني نسبة الى حوران من أطراف العراق
 والشام وهي من منازل العرب البادية ومساكنهم الى هذا العهد ولهم فن آخر كثير
 التداول في نظمهم يسمون به معصبا على أربعة أجزائها الثلاث في روي
 ويلتزمون القافية الرابعة في كل بيت الى آخر القصيدة شبيهاً بالمربع والخمس الذي
 أحدثه المتأخرون من المولدين ولهؤلاء العرب في هذا الشعر بلاغة فائقة وفيهم النحول
 والمتأخرون والكثير من المنتحلين للعلوم لهذا العهد وخصوصاً علم اللسان يستنكرون
 هذه الفنون التي لهم اذا سمعها ويحج نظمهم اذا أنشد ويعتقد أن ذوقه انما يتابعها
 لاستحسانها وفقدان الاعراب منها وهذا الخاطئ من فقدان الملكة في لغتهم فلو حصلت

له ملكة من ملكاتهم لشهدله طبعه وذوقه بلاغتها ان كان سليمان من الآفات في فطرته
وتطره والافالاعراب لا مدخل له في البلاغة انما البلاغة مطابقة الكلام للمقصود
ولمقتضى الحال من الوجود فيه سواء كان الرفع الاعلى الفاعل والنصب الاعلى
المفعول أو بالعكس وانما يدل على ذلك قرائن الكلام كما هو لغتهم هذه فالدلالة بحسب
ما يصطلح عليه أهل الملكة فاذا عرف اصطلاح في ملكة واشتهرت بصحت الدلالة واذا
طابقت تلك الدلالة المقصود ومقتضى الحال صحت البلاغة ولا عبرة بقوانين النحاة
في ذلك وأساليب الشعر وفنونه موجودة في أشعارهم هذه ما عدا حركات الأعراب
في أواخر الكلم فان غالب كلماتهم موقوفة الآخر وتميز عندهم الفاعل من المفعول
والمبتدأ من الخبر بقرائن الكلام لا بحركات الأعراب فن أشعارهم على لسان
الشريف بن هاشم يكي الجازية بنت سرحان و يذكر ظعنهم مع قومها الى المغرب

- قال الشريف ابن هاشم على * ترى كبدى حراشكت من زفة يبرها
يهزل للاعلام ابن مارأت خاطرى * يرداعلام البدوي يلقى عصيرها
وماذا اشكت الروح مما طرأها * عذاب ودائع تلف الله خيرها
بحسن قطاع عامرى ضميرها * طوى وهند جاني ذكيرها
وعادت كما خوارة في يد غاسل * على مثل شوك الطلع عقدوا يسيرها
تجابدوها اثنين والنزع بينهم * على شول لعبيه والمعاني جبرها
وباتت دموع العين ذارقات لسانها * شبيه دوار السواني يدبرها
تدارك منها الجثم حذر اورادها * مروان يجي ميترا بكما من صبيرها
لصبي من القيعان من جانب الصفا * عبون ولهمان البرق في غدبرها
ها أيقنى منى سنا بكت غدوة * بغداد فاحت منى حتى فقيرها
ونادى المنادى بالرحيل وشدوا * وعرج غاربها على مستعيرها
وشد لها الادهم دياب بن غانم * على يد ماضى وايد مقرب مبرها
وقال لهم حسن بن سرحان غزبوا * وسوقوا النجوع ان كان ناهو غبرها
ويد نص وسده سها بالتساع * وباليمين لا يجعدوا في صغبرها
غدرنى زمان السفع من عابس الوغى * وما كان برى من حيروه يبرها
غدرنى وهو زعم صديقي وصاحبى * وناليسه ما من درى ما يدبرها
ورجع يقول لهم بلاد ابن هاشم * لخير البلاد المعطشة ما يجبرها
حرام على باب بغداد وأرضها * داخل ولا عائد له من يبرها
فصدق درى مرز بلاد ابن هاشم * على الشمس اوحول الغطام من هجيرها

وبانت نيران العذارى قوادح * فخرتوا ببحر حان فيبزو أسيرها
ومن قولهم في رثاء أمير زنانه أبي سعدة البقرى مقارعهم بأفريقية وأرض الزاب
ورثاؤهم له على جهة التهكم

تقول فتاة الحى سعدى وهاضها * ولها في ظعون الباكين هو بل
أيا سائل عن قبر الزناني خليفه * هذا النعت منى لا تكون هبيل
تراه العالى الواردات وفوقه * من الربط عيساوى بناه طور بل
وله عييل الصور من سائر النقا * به الواد شرقا والبراع دلييل
أيلهف كبدى على الزناني خليفه * قد كان لاهقاب الجياد سليل
قبيل فق الهيجا دياب بن غانم * جراحه كفواه المزاد تسيل
يا جازنات الزناني خليفه * لا ترحل الآن يريد رحيل
وبالامر رحلتنا ثلاثين مرة * وهشرا وستاني النهار قليل
ومن قولهم على لسان الشريفة بن هاشم يذكر عتابا وقع بينه وبين ماضى بن مقرب
تسدى لى ماضى الجياد وقال لى * أيا شكر ما احناشى عليك رضاش
أيا شكر عدى مابقي وديتنا * ورا ناعرب رب عرب بالابسين غماش
نحن عدينا فاصاد فواما قضى لنا * كما صادفت طم الزناد طشاش
باعدنا يا شكر عدى لبر سلامه * لتجد ومن عمر بلاد عاش
ان كانت بنت سيدهم بأرضهم * هي العرب ما ردنا لهن طباش
ومن قولهم في ذكر رحلتهم الى الغرب وغلبهم زنانه عليه

وأى جميل ضاع لى فى الشريفة بن هاشم * وأى جميل ضاع قبل جميلها
أنا كنت انا وياه فى زهو بيتنا * هناني حبه ما عناني دايها
وهدت كاني شارب من مدامة * من الحرقهوة ما قدر من جميلها
أو مثل شطامات مضمون كبدها * غريباهى مدوخه عن قبيلها
أناها زمان السوء حتى ادوخت * وهى بين عرب غافلا عن زيارها
كذلك أناها لحانى من الوحى * شاكى بكبد باديا من عليها
وأمرت قوى بالرحيل وبعكروا * وقوا وشداد الحوايا جميلها
فعدنا سبعة أيام محبوس فجعنا * والبدومات رفع عمود يقبلها
تظلل على احداث الثنايا سوارى * يضل الحرفوق التصاوى نصيلها
ومن شعر سلطان بن مظفر بن يحيى من الزواودة أحد بطون رباح وأهل الرياسة فيهم
يقولها وهو معتقل بالمهدية في مجن الامير أبى زكريا بن أبى حنص أول ملوك افريقية

- يقول وفي نوح الدجاجة ذهبه * حرام على أجدان عميق منامها
 أي من لقي حالف الوجد والاسى * وروحاهاى طال ما فى مقامها
 حجازية بدويه عربية * عداوية ولها بعيدا مرامها
 مولعة بالبدو لا تألف القرى * سوا عابيل الوعد ابوالى خيامها
 عمان ومشتها بها كل سرية * محبوة بها ولها صحبح غرامها
 ومرباعها عشب الاراضى من الحيا * لوانى من الحور الحلايا حرامها
 تسوق بسوق العين مما تداركت * عليها من الذهب الوارى غمامها
 وماذا بكت بالما وماذا تبلطت * عيون عذارى المزن عذابا جامها
 كان عروس البكر لاحت ثيابها * عليها ومن نور الاقاصى حرامها
 فلاة ودهنا واتساع ومنسة * ومرعى سوى ما فى مراعى نعامها
 ومشروبها من محض اللبن شولها * عليهم ومن لحم الحواري طعامها
 تعاتب على الابواب والموقف الذى * يشيب الفم مما يقامى زحمها
 سقى الله هذا الوادى المشجر بالحيا * وبلا ويصحبى ما بلى من رمامها
 فكافاتها بالود منى وليتقى * ظفرت بأيام مضت فى ركابها
 لبالى أقواس الصبا فى سواعدى * اذاقت لا تخطى من ايدى سهامها
 وفرسى عديدا تحت مرجى مسافة * زمان الصبا مرجا وبيدى بلعامها
 وكم من رداح أسهرتى ولم أرى * من انطلق أبهى من نظام ابتسامها
 وكم خيرا من كاعب مرجحة * مطرزة الاجفان باهى وشامها
 وصفقت من وجدى عليها طريجة * بكى ولم ينسى جندها اذ ماها
 ونار يخطب الوجد توهم فى الحشى * وتوجج لا يطفأ من الما نرامها
 أي من وعدتى الوعد هذا الى متى * فنى العمر فى دار عماني ظلامها
 ولكن رأيت الشمس تكسف ساعة * ويغنى عليها ثم يسرى عامها
 بنود ورايات من السعد أقبلت * الينا بعون الله يهفو عمامها
 أرى فى القلايا العين أظعان عزوتى * ورعى على كنى وسبرى امامها
 بجر عاتق النوق من هو ذشامس * أحب بلاد الله عندي حشامها
 الى منزل بالجعفرية للذى * مقيم بها ما للنعدي مقامها
 وتاقى سراة من هلال بن عامر * بزبل الصدا والقل عنى سلامها
 بهم تضرب الامثال شرقا وغربا * اذا قاتلوا قوماسر يع انهمامها

عليهم ومن هولى جاهم تحية * من الدهر ما غنى بقية جملها
 فدع ذا ولا تأسف على سالف مضي * ترى الدنيا ما دامت لا حدد واماها
 ومن أشعار المتأخرين منهم قول خالد بن حمزة بن عمر شيخ الكعوب من أولاد أبي الليث
 يعاتب أقتالهم أولاد مهلهل ويحيب شاعرهم شبلى بن مسكينة بن مهلهل عن أبيات تفر
 عليهم فيها بقومه

يقول وذا قول المصاب الذى نشأ * قوارع قيعان يعانى صعباها
 يريح بها حادى المصاب اذا اتقى * فنونا من انشاد القوافى عرابها
 محسرة مختارة من نشادنا * تصدى بها تام الوشاملتها بها
 مضربلة عن ناقد فى غضوننا * محكمة القيعان دابى ودابها
 وهى بتذكارى لها يادوى الندى * قوارع من شبلى وهذى جوابها
 اشبل جنينا من حبال طرائقا * فراح يريح الموجهين الغنابها
 نغرت ولم تقصرو لا أنت عادى * سوى قلت فى جمهورها ما أعابها
 اقولك فى أم التين بن حمزة * وحامى حماها عاديات حرابها
 أمانت علم انه قامها بعد مالتى * رصاص بن يحيى وعلاق دابها
 شهابا من أهل الامر يا شبلى غارق * وهل ريت من جالوغى واصطلى بها
 شواهد طفاها أضرت بعد طغية * وأثنا طفاها حاسر الأهابها
 واضرم بهد الطفيتين التى صحت * نعا الى بيت المنايفتى بها
 كما كان هو يطالب على داجنيت * رجال بن كعب الذى يتى بها

ومنها فى العتاب

وليد انعتبوا أنا غنى لاني * غنيت به لاق الثنا واعتصابها
 على ونا دفع بها كل مبضع * بالاسياق نتاش الصد من رقابها
 فان كانت الاملاك بغت عرابس * علينا باطراف القنا اختصابها
 ولا تقصرها الارهاق ودبيل * وزرق السبابا والمطايا ركا بها
 بنى عمنا ما ترضى الذل علة * نسر كالسنة الحناش انسلابها
 وهى عالما بان المنايا تقبلها * بلا شك والدينا سرب انقلابها

ومنها فى وصف الطعاش

نظعن تطوع البید لا تحتشى العدا * فتوف بحروبنا مخوف جنابها
 ترى العين فيها قل لشبل عراف * وكل مهاة محتظيها ربابها
 ترى أهلها اغض الصباح أن يقلها * بكل حلوب الجوف ماست بابها

لها كل يوم في الارامى قتائل * ورا الفاجر المزوح عضو اصباها
ومن قواهم في الامثال الحكيمية

وطلبك في المنوع منك - فاهة * ومدك عن صدعك صواب
اذا ريت ناسا يغلقوا عنك بابهم * ظهور المطايا يفتح الله باب
ومن قول شبل يذكر اتساب الكعوب الى برجم

فشايب وشباب من اولاد برجم * جميع البرايا تشكى من شهادهما
ومن قوله يعاتب اخوانه في موالاته شيخ الموحدين ابي محمد بن تافراكين المستبد بحجابة
السلطان تونس على سلطانهم كقوله ابي اسحق ابن السلطان ابي يحيى وذلك فيما
نرب من عصرنا

يقول بلاجهل فنى الجود خالد * مقالة قوال وقال صواب
مقالة حيران بذهن ولم يكن * هريجا ولا فيما يقول ذهاب
تهجيت معنا نايها الحاجبة * ولا هرج ينقاد منه معاب
وليت بها كبدى وهى نعم صاحبه * حزينة فكري والحزين يصاب
نفوحت بادى شرحها عن ما آرب * جرت من رجال فى القبيل فراب
بنى كعب أدنى الاقر بين لدمنا * بنى عم من شايب وشباب
جرى عند فتح الوطن خال بعضهم * مصافاة ودوانساع جناب
وبعضهم - مملنا له عن خيمه * كما بعساوا قولى يقينه صاب
وبعضهم مومر هوب من بعض ملكنا * ضرابا وفي حتر الظاهر كتاب
وبعضهم موجا ناجر يها سميت * خواطرنا للتزيرى ل وهاب
وبعضهم وتطارقنا بسوة * نقهنا حتى ما معنا به سلب
رجع فنتهى مما سلفنا اتيجه * مرارادى فى بعض المرار يهاب
وبعضهم وشاكي من اوغاد قادر * خلق عنه فى احكام السقات باب
فهمنا عنه واقتضى منه مورد * على كره مولى الباني ودياب
ونحن على دافى المدان طلب العلا * لهم ما حططنا للنجور نقاب
وحزنا حى وطن بترشيش بعدما * نفقنا عليها - بقا ورقاب
ومهد من الاملاك ما كان خارج * على احكام والى امرها اله ناب
بردع قروم من قروم قبيلنا * بنى كعب لاواها الانريم وطاب
جرينا بهم عن كل تاليف فى العدا * وقنا لهم عن كل قبيل مناب
الى ان عاد من لا كان فيهم بيمه * ريبا وخيرانه عليه نصاب

وركبوا البيا الممثنات من أهلها • ولبسوا من أنواع الحرير ثياب
وساقوا المطايا بالشر الانسواله • جاهيرما يغلوبها بجلاب
وكسبوا من أصناف السه ايدنا ر • فظام لحزات الزمان تصاب
وعادوا نظير البرمكين قبل دا • والا هلالا في زمان دياب
وكانوا النادر على الكل مهمة • الى أن بان من نار العد وشهاب
خلوا الدار في جنح الظلام ولا اتقوا • ملاه ولادار الكرام ضباب
كسوا الحى جلاب البهيم لستره • وهم لودرو والبوا قبيح جباب
لذلك منهم حابس مدار القنا • ذهل حلى ان كان عقله ضباب
يظن ظنونا ليس نحن بأهلها • تمنى يكن له في السماح شعاب
خطاهو ومن وانا في سوطنه • بالاثبات من ظن القبايح عاب
فواعزوني ان الفنى بو محمد • وهوب لآلاف بغير حساب
وبرحت الاوغا منه ويحسبوا • بروحه ما يحيى بروح حساب
حروا يدالبوا تحت السحاب شرايح • لقوا كل ما يستاملوه مراب
وهو لو عطى ما كان للراى عارف • ولا كان في قلبه عطاء صواب
وان نحن ما نستاملوا عنه راحة • وانه باسهم التلاف مصاب
وان ما وطا ترشيش يضياق ومعها • عليه ويمشى بالقزوع لزاب
وانه منها عن قريب مفاصل • خنوج عناز هو الهاوقباب
وعن فائنات العارف ييض غوايح • ربوا خلف استار وخلف حجاب
يتيه اذا تاهوا ويصبوا اذا صبوا • بهسن قوائن وصوت رباب
يضاه من عدم اليقين وربما • بطارح حتى ما كانه شباب
بهم حازله زمه وطوع أوامر • ولذة ما كول وطيب شراب
حرام على ابن تافرا كين ماضى • من الود الا ما ل بحراب
وان كان له عقل رجيع وفطنة • يلجج في اليم الغريق غراب
وأما البدا لا بدها من فيا عمل • كبار الى أن تبتى الرجال كباب
ويحمى به اسوق علينا سلاعه • ويحمار موصوف القنا وجعاب
ويسمى غلام طالب ريج ملكا • ندوما ولا يمسى صحيج بناب
أباوا كين الخبز تبغوا ادامه • غلطنوا أدمتوا فى السموم لباب
ومن شعر على بن عمر بن ابراهيم من رؤساء بني عامر لهذا العهد أحد بطون زغبة
يعاتب بنى عمه المطاولين الى رباسته

محبرة كالكدر في يد صانع * اذا كان في سلك الحرير نظام
 اياها منها فيه أسباب ماضى * وشاء تبارك والضعون تسام
 غدا منه لام الحى حين وانشطت * عصاها ولا صنداع طيسه حكاه
 ولا تكن ضميرى يوم بان بهم الينا * تبرم على شوك القتاد برام
 والا كابرص التهاى قوادح * وبين عواج الكائنات ضرام
 والا لكان القلب في يد قابض * آتاهم بمنشار القطيع غشام
 لما قلت سمان شقا الين زارنى * اذا كان ينادى بالفرافوخام
 الا يا ربوع كان بالامس عامر * بجي وحده والقطين لمام
 وغيد تدانى للخطافى ملاعب * دجى الليل فيهم ساهرون بام
 ونم بشوف الناظرين اتعاهها * لنا ما بدامن مهرق وهك نظام
 وعرو دبا معها اليسد عولس رجا * واطلاق من شرب المها ونعام
 واليوم ما فيها سوى اليوم حولها * ينوح على اطلالها وخيام
 وقفناهم بطورا طويلا نسالها * بعين سخيذ او الدموع مجام
 ولا صحتى منها سوى وحش خاطرى * وسقى من أسباب ان عرفت او هام
 ومن بعد ذاتى لمنصور بو على * سلام ومن بعد السلام سلام
 وقولوا له يا ابو الوفا كلح رأيتكم * دخلتم بجمور غامقات دهام
 زواخر ما تنقاس بالعود انما * لها سبيلات على الفضاوا كرام
 ولا تقفون فيها قبا سايديكم * وليس الجهور الطامينات تعام
 وعانوا على هلكاتكم في ورودها * من الناس عدمان العقول اتمام
 ابا عزوة ركبوا الضلالة ولالهم * قرار ولا دنيا له من دوام
 الاعناهم لو ترى كيف رأيتهم * مثل سرور فلاه ماله من تمام
 خلوا القنار بقوا في مرقب العلا * مواضع ما هيا لهم مقام
 وحق النى والبيت واركانه الذى * وما زارها في كل دهر و عام
 لبر اللبائى فيه ان طالت الحيا * يذوقون من خط الكساع مدام
 ولا برهاتنى البوادي عواكف * بكل ردينى مطرب و حسام
 وكل مسافة كالسد اياه عابر * عليها من اولاد الكرام غلام
 وكل كيت يكتمص عض نابه * يظل بصارع فى العنان لحام
 وتعمل بنا الارض العقيمدة * وتولانا من كل ضيق نظام
 بالابطال والقود الهجان وبالقنا * لها وقت وجنات اليسد ورزحام

أنجدهني وأنا عقيب نفودها * وفي سن رمحي للحروب علام
 ونحن كأضراس المواقي بنجكم * حتى يقاضوا من ديون غرام
 متى كان يوم القحط يامر أبو علي * يلقي سباعيا صايرين قدام
 كذلك يوجهوا إلى السير ابنته * وخلى الجياد العاليات تنام
 وخلى رجالا لا يرى الضيم جارهم * ولا يجمعوا بدهي العدو زمام
 الأبقمورها وعقد بؤسهم * وهم عذرعنه دائما ودوام
 وكم نار طهنها على البدوسابق * ما بين صحاصيح وما بين حسام
 فقي نار قطار الصوي يومنا على * لنا أرض ترك الطاعنين زمام
 وكم ذابحيبوا اثرها من غنمة * حليف النبا سماع كل غيام
 وان جافا جفوه الملوذ ووسعوا * غدا طبعه يجدي عليه قيام
 عليكم سلام الله من لسن فاهم * ما غنت الورقا وناح حلم
 ومن شر عرب غمر بنواحي حوران لامرأة قتل زوجها فبعثت إلى اخلافه من قيس
 تغريم بطلب ناره تقول

تقول فتاة الحمى أم سلامه * بعين أراع الله من لارني لها
 تبيت بطول الليل ما نالف الكرى * موجعة كان الشقافي بحالها
 على ما جرى في دارها وبوعيا لها * بلطفة عين البين غير حالها
 فقد تاروى شهاب الدين يا قيس كلهم * ونغوا عن أخذ النار ما ذامقالها
 أنا قلت اذا ورد الكتاب يسرني * ويرد من نيران قلبي نبالها
 أيا حين تسريح الذوائب والحمى * وييض العذارى ما حيتوا بحالها

(الموشحات والازجال للاندلس)

وأما أهل الاندلس فلما كثرت شهر في قطرهم وتهدبت منا حبه وفتونه وباع التيق فيه
 الغاية استحدث المتأخرون منهم فنامنه وهو بالموشح ينظمونه أسماطاً - سماطاً وأغصانا
 اغصانا يكترون منها ومن أعاربها المختلفة ويسمون المتعدده منها بيتا واحدا ويلتزمون
 عند قوا في تلك الاغصان وأوزانها متتالبا فيما بعد إلى آخر القطعة وأكثرت انتهى
 عندهم إلى سبعة أبيات ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الاغراض
 والمذاهب وينسبون فيها ويعدحون كما يفعل في القصائد وتجاروا في ذلك إلى الغاية
 واستظرفه الناس بجله الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه وكان المخترع
 لها بجزيرة الاندلس مقدم بن معافر الفربري من شعراء الامير عبد الله بن محمد المرواني

وأخذ ذلك عنده أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد ولم يظهر له جامع
التأخرين ذكر وكسدت موشحاتهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القزاز
شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المرية وقد ذكر الأعمى البطليوسى أنه سمع أبا بكر بن
زهير يقول كل الوشاحين عيال على عبادة القزاز فيما اتفق له من قوله

بدر تم * شمس ضحا * غصن نقا * مسك شم
ما أتم * ما أوضحا * ما أورقا * ما أنم
لاجرم * من لحما * قد عشقا * قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصريه الذين كانوا في زمن الطوائف * وجاء
مصلبا خلفه منهم ابن ارفع راس شاعر المأمون ابن ذى النون صاحب طليطلة قالوا
وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له حيث يقول

الهد قد ترنم * بابدع تطين * وسقت المذائب * رياض البساتين

وفي انتهائه حيث يقول

تخطروا لتسلم * عسالة المأمون * مروع الكتاب * يحيى بن ذى النون
ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملتين فظهرت لهم البدائع وسابق فرسان حلبتهم
الأعمى الطليطلى ثم يحيى ابن بتي وطلطلي من الموشحات المهدية قوله

ككيف السبيل الى * صبرى وفي المعالم أشجان

والركب في وسط القلا * بانخر والنواجم قدبان

وذكر غير واحد من المشايخ أن أهل هذا الشأن بالاندلس يذكرون أن جماعة من
الوشاحين اجتمعوا في مجلس بأشبيلية وكان كل واحد منهم اصطنع موشحة وتأتق فيها
فتقدم الأعمى الطليطلى للاثاد فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله

ضاحك عن بجان * سافر عن در * ضاق عنه الزمان * وحواء صدرى

صرف ابن بتي موشحته وتبعه الباقيون وذكر الأعمى البطليوسى أنه سمع ابن زهير يقول
ما حسدت قط وشاحا على قول الابن بتي حين وقع له

أما ترى أحمد * في مجده العالى لا يلقى * أطلعه القرب * فأرنا مثله يامشرف
وكان في عصرهما على الموشحين المطبوعين أبو بكر الأبيض وكان في عصرهما أيضا
الحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين المعروفة ومن الحكايات المشهورة أنه حضر

مجلس مخدومه ابن تفلوت صاحب مرقطة فالتقى على بعض قيناته موشحته

جزر الذيل أيماجر * وصل الشكر منك بالشكر

نظرب المدوح لذلك فلما ختمها بقوله

عقد الله راية النصر * لامير العلاء أبي بكر

فلما طرق ذلك التلحين سمع ابن تينلويت صاح واطرباه وشق ثيابه وقال ما أحسن ما بدأت وما ختمت وولف بالايمن المغلطة لايشي ابن باجة الى داره الاعلى الذهب تخاف الحكيم سوء العاقبة فاحتمل بأن جعل ذهباً في نهله وشي عليه * وذكر أبو الخطاب بن زهرانه جرى في مجلس أبي بكر بن زهيره كراي بكر الايض الوشاح المتقدم الذكر فقص منه بعض الحاضرين فقال كيف تغص من يقول

مالذي شرب راح * على رياض الاتاح * لولا هضم الوشاح * اذا أسي في الصباح
أوفى الاصيل * أضحى يقول * ما للشمول * لعامت خبتي
وللشمس ال * هبت فالي * عن اعتدال * ضمه بردي
عما أباد القلوبا * يشي انامستريا * بالخطه ردتوبا * وبالماء الشنبيا
برد غابيل * صب هليل * لا يستحيل * فيه عن عهدي
ولا يزال * في ككل حال * يرجو الوصال * وهو في الصدة

واشتهر به دهولاه في صدر دولة الموحدين محمد بن أبي الفضل بن شرف قال الحسن بن
دويده رأيت حاتم بن سعيد على هذا الافتتاح شمس قاربت بدرا * راح ونديم
وابن جرودس الذي له باليلة الوصل والمعود * بالله عودي
وابن موهل الذي له * ما الهيد في حله وطاق * وشم طيب

وانما العيد في التلاق * مع الحبيب

وأبو اسحق الرويني قال ابن سعيد سمعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول انه دخل على
ابن زهير وقد أسن وعليه زي البادية اذ كان يسكن بحمصن استيه فلم يعرفه فجلس
حيث انتهى به المجلس وجرت المحاضرة فأنشد لنفسه موشحة وقع فيها

كحل الدجى يجرى * من قلة القجر * على الصباح

ومعصم النهر * في حلال خضر * من البطاح

فصعرك ابن زهير وقال أنت تقول هذا قال اختر قال ومن تكون فعرفه فقال ارتفع
فوالله ما عرفتك قال ابن سعيد وسابق الطلبة التي أدركت هولاه أبو بكر بن زهير وقد
شرقت موشحانه وغربت قال وممعت أبا الحسن سهل بن مالك يقول قبل لابن زهير

لو قيل لك ما أبدع وأرفع ما وقع لك في التوشيح قال كنت أقول

ماللموله * من سكره لا يفتق * باله سكرانا

من غير خمر * ماللك كئيب المشوق * يندب الاوطانا

هل تستعاد * أيامنا بالخلج * وليالينا

أونستفاد * من النسيم الأريج * مسك دارينا
واد يكاد * حسن المكان البهيج * أن يحينسا
ونهر ظله * دوح عليه أيق * مورق فينان
والماء يجرى * وعام وغسريق * من جنى الريحان
واشتهر بهده ابن حيون الذي له من الزجل المشهور قوله
تفوق بينهم كل حين * بما سبب من يدوعين

ويشذ في القصيد

عافت ملج علمت راى * فليس يحل ساع من قتال
ويعمل بنى العينين منامى * ما يعمل فينا بنى التبال
واشتهر معهما يومئذ بفرناطة المهر بن الفرس قال ابن سعيد ولما سمع ابن زهير قوله
فه ما كان من يوم بهيج * بنهر حص على تلك المروح
ثم انعطفا على فم الخليج * نفص في حانه مسك الختم
عن عبيد زانه صافي المدام * ورد الاصيل ضمه كف الظلام
قال ابن زهير كنا نحن عند هذا الرداء وكان معه في بلدة مطارف * أخبر ابن سعيد عن
والده أن مطرفا هذا دخل على ابن الفرس فقام له وأكسرمه فقال لا تفعل فقال ابن
الفرس كيف لا أقوم لمن يقول

قلوب مصائب * بأحظاظ نصيب * فقل كيف يبقى بلا وجد
وبعد هذا ابن جرمون بمرسية * ذكر ابن الراسين أن يحيى الخزرجي دخل عليه
في مجلسه فأنشده موشمة لنفسه فقال له ابن جرمون لا يكون الموشع بموشع حتى يكون
عاريا عن التكلف قال على مثل ماذا قال على مثل قولي

ياهاجرى هل الى الوصال * منذ سبيى ل
أوهل ترى عن هو الهمالى * قلب العليى ل
وأبو الحسن سهل بن مالك بفرناطة * قال ابن سعيد كان والدى يعجب بقوله
ان سبل الصباح في الشرق * عاد بهجرا في أجمع الافق * فتداعت نوادب الورق
أتراها خافت من الفرق * فبكت سحرة على الورق
واشتهر بأشيلية لذلك العهد أبو الحسن بن الفضل قال ابن سعيد عن والده سمعت سهل
ابن مالك يقول يا ابن الفضل لك على الوشاحين الفضل بقولك
واحسرتنا لزمان مضى * عشية بان الهوى وانقضى
وأفردت بالرغم لا بالرضى * وبت على جرات الغضى

أعانق بالفكر تلك الطاول * وألثم بالوهم تلك الرسوم
قال وسمعت أبا بكر بن الصابوني ينشد الاستاذ أبا الحسن الزجاج موشحاته غير ماهرة
فما سمعته يقول له الله ذلك الأفي قوله

قسما بالهوى لذي حجر * مالليل المشوق من فجر
نجد الصبح أيمر بطرد * مالليلي فيما أظن غد * سحر بالليل انك الأبد
أونطعت قوادم النسر * فنبجوم السماء لأنسرى
ومن موشحات ابن الصابوني قوله

ما حال صبذي ضني واكتاب * أمرضه بار ياتاه الطبيب
عامله محبوبه باجتباب * ثم اقتدى فيه الكرى بالحبيب
بفضا جفوني النوم الكنى * لم أبكه إلا لقد انجبال
وذا الوصال اليوم قد غزني * منه كاشا مرساء الوصال
فلمست باللائم من صـدني * بصورة الحني ولا بالنال
واشتهر بين أهل العدو ابن خلف الجزايري صاحب الموشحة المنهورة
يد الأصباح قد قدحت * زناد الأنوار * في مجامر الزهر
وابن هزرا الجباني وله من موشحة

نغر الزمان موافق * حبالك منه بايتسام
ومن محاسن الموشحات للمتأخرين موشحة ابن سهل شاعر أشبيلية زميتة من بعد ما
فمنها قوله

هل دري ظبي الحني أن قد حني * قلب صب حله عن مكدس
فهو في نار وضيق مثل ما * لعين ربح الصبا بالقبس
وقد نسج على منواله فيها صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب
لعصره وقد مر ذكره فقال

جادك الغيث إذا الغيث هـ ما * بازمان الوصل بالانداس
لم يكن وصلك الأحلى * في الكرى أو خلسة المختلس
أذيقول الدهر أسباب الحني * تنقل الخطوء على ما ترسم
زمر ابين فـرادى وثني * مثل ما يدع والوفود الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا * فسنا الأزهار فيه تبسم
وروى النعمان عن ماء السماء * كيف يروى مالك عن أنس
فكساه الحسن ثوبا معلا * بزدهي منه بأبهى مجلس

في ليل ككتت سر الهوى * بالاجى لولان ومن القدر
 مال نجم الكاس فيها وهوى * مستقيم السير سعد الاثر
 وطرفا فيه من عيب سوى * انه من كل البصر
 حين لذ النوم منا أو كما * هجم الصبح فحوم الحرس
 غارت الشهب بنا أو ربما * أثرت فينا عيون الترحس
 أى شئ لامرئ قد خلاصا * فمكون الروض قد كثر فيه
 تنهب الازهار فيه الفرصا * أمنت من مكره ما تنقيه
 فاذا الماء تناجى والحصا * وخلا كل خليل بأخيه
 تبصر الورد غيورا بدما * يكتسى من غيظه ما يكتسى
 وترى الآس ليبيافه ما * يسرق الدمع بأدنى فرس
 يا أهيل الحى من وادى الفضى * وبقلى مسكن أنتم به
 ضاق عن وجدى بكم رحب الفضا * لا أبالى شرقه من غربه
 فأعبدوا عهد أنس قد منى * تنقذوا عائلتكم من كربه
 واتقوا الله وأحبوا مغرما * ينسلاشى نفسا فى نفس
 حبس القلب علىكم كرما * أفترضون خراب الحبس
 وبقلى بيكم ومقرب * باحاديث المني وهو بعيد
 قد راطع منه المغرب * شقوة المغرى به وهو سعيد
 قد تساوى محسن أو مذنب * فى هواه بين وعد ووعيد
 ساحر المقله معسول الدمى * جال فى النفس مجال النفس
 سدد السهم وسمى ورمى * بضواذى نهبه المفترس
 ان يهكن جاره خاب الامل * رفواد اصب بان شوق يذوب
 فهسول النفس حبيب أول * ايس فى الحب لمحبوب ذنوب
 أمره معتمل متمثل * فى ضلوع قد براهاوة لوب
 حكم اللعظ بها فاحتكما * لم يراقب فى ضعاف الاتس
 ينصف المظلوم من ظلما * ويجازى البرئ منها والسي
 ما قلبي ككبا هبت صبا * عاده عيد من الشوق جديد
 كان فى اللوح له مكتبا * قوله ان عذابي لشديد
 جلب الهسم له والوصبا * فهو لا شجان فى جهد جديد
 لا عجب فى أضلعي قد أضرما * فهو نار فى هشيم اليبس

لم تدع من مهجتي الا الدما * كبقاء الصبح بعد الغلس
سلى يانفس في حكم القضا * واهري الوقت برجي ومنتاب
واتركي ذكرى زمان قد مضى * بين عتي قد تقضت وعتاب
واصر في القول الى المولى الرضى * ملهم التوفيق في أم الكتاب
الكريم المتسهي والمنتى * أسد السرح و بدر الهاس
ينزل النصر عليه مثل ما * ينزل الوحي بروح القدس
وأما المشاركة فالتكلف ظاهر على ما عانوه من الموشحات ومن أحسن ما وقع لهم
في ذلك موشحة ابن سنا الملك المصري اشتهرت شرقا وغربا وأولها
يا حبيبي ارفع حجاب النور * عن العسذار
تنظر المسك على الكافور * في جانسار

كالي يا صعب تيجان الربى بالحلى * واجعلى سوارها من عطف الجدول
ولمشاع فن التوشيح في أهل الادلس وأخذ به الجمهور اسلاسته وتتميق كلامه وترصيع
أجزائه نصبت العامة من أهل الامصار على منواله ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية
من غير أن يلتزموا فيها اعرابا واستخدموه فناسموه بالزجل والتزموا النظم فيه على
مناحيهم الى هذا العهد فخا وفيه بالغرائب واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم
المستحبة * وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قرمان وان كانت
قبلت قبله بالاندلس لكن لم يظهر حلاها ولا ان سبكت ما فيها واشتهرت رشاقتها الا في
زمانه وكان لعهد الملتين وهو امام الزجالين على الاطلاق قال ابن سعيد ورأيت أزجاله
مروية بيغداد أكثر مما رأيتها بجواضر المغرب قال وسمعت أبا الحسن بن جدر
الاشبيلي امام الزجالين في عصرنا يقول ما وقع لاحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن
قرمان شيخ الصناعة وقد خرج الى منزله مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش
وأمامهم تمثال أسد من رخام يصب الماء من فيه على صفائح من الحجر مدرجة فقال

وعريش قد قام على دكان * بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان * في غلظ ساق
وفتح فيه بحال انسان * فيه الفواق
وانطلق يجري على الصفاح * ولقى الصباح

وكان ابن قرمان مع أنه قرطبي الدار كثيرا ما يتردد الى اشبيلية ويبيت بنهرها فاتفق أن
اجتمع ذات يوم جماعة من اعلام هذا الشأن وقد ركبوا في النهر للترفة ومعهم غلام
جبل الصورة من سروات أهل البلد ويوتهم وكانوا مجتمعين في زورق للصيد فظاهوا

في وصف الحال و بدأ منهم عيسى البلدي فقال

يطمع بالخلاص قلبي وقد فاتو * وقد ضمو عشقو بسهماؤ
تراد قد حصل مسكين جلاتو * فقلق ولذلك أمر عظيم صابانو
توحش الجفون الكحل اذا عاتو * وذيك الجفون الكحل ابلاتو

ثم قال أبو عمرو بن الزاهر الاشيلي

نشب والهوى من بلج فيه ينشب * ترى اش كان دعاه يشق ويتعذب
مع العشق قام في مالو يلعب * وخلق كشيء يرمن ذا اللعب ماتو

ثم قال أبو الحسن المقرئ الداني

نهار ملج تعجبي أوصافو * شراب وملاح من حولي طافو
والمعلمين يقولوا بصفاؤ * والنوري أخرى بمقالاتو

ثم قال أبو بكر بن مرتين

الحق يريد حديث ثعالى عاد * في الواد الجبر والمتره والصاد
تتبه حيتان ذلك الذي بصطاد * قلوب الوري هو في شيكاتو

ثم قال أبو بكر بن قرمان

اذا شمرا كما مورميا * ترى النور يرشق لذيك الجيا
وليس مراد وأن يقع فيها * الا ان يقبل يديداتو
وكان في عصرهم بشرق الاندلس محامد الاسود وله محاسن من الزجل منها قوله
قد كنت مشربوا اختشيت الشيب * وردني ذا العشق لامر صعب
يقول فيه

حين تنظر انطقا الشريف البهي * تنتهي في الحمره الى ما تنتهي
يا طالب الكيمياء في عيني هي * تنظر بها الفضة ترجع ذهب
وجاءت بعدهم حلبة كان سابقها مدخيس وقعت له العجائب في هذه الطريقة فن قوله
في زجله المشهور

ورذاذدق يسزل * وشعاع لشمس يضرب

فتري الواحد يفضض * وتري الآخر يذهب

والنبات يشرب ويسكر * والغصون ترقص وتطرب

وتريد تعجبى النساء * ثم تسخبي وتهرب

ومن محاسن أزجله قوله

لاح الضياء والتجوم حيارى * فقم بنا نزرع العكسل

شربت ممزوجا من قسراعا * أحلى هي عندي من العسل
 يامن يابني ككما تقلد * قاسدك الله بما تقول
 يقول بان الذنوب مولد * وأنه يفسد العقول
 لارض الخبز يكون لك ارشد * اش ما افسدك لذا الفضول
 مرأنت للحج والزيارة * ودعني في الشرب منهمل
 من ليس لو قدره ولا استطاعا * النية ابلغ من العمل
 وظهر بعده هؤلاء بشيعة ابن جحر الذي فضل على الزجالين في فتح ميورقة بالزجل الذي
 أوله هذا

من عاند التوحيد بالسيف يحق * أنابري من يعاند الحق
 قال ابن سعيد لقبته واقبت تليذه المعمع صاحب الزجل المشهور الذي أوله
 باليتني ان رأيت حبيبي * أقبل اذنوب الرسيلا
 ليس أخذ عنق الغزيريل * وأشرق فم الخيلا
 ثم جاء من بعدهم أبو الحسن سهل بن مالك امام الادب ثم من بعدهم هذه العصور
 صاحبنا الوزير أبو عبد الله بن الخطيب امام النظم والمثرفي الملّة الاسلامية من غير
 مدافع من محاسنه في هذه الطريقة

امزج الاكواس واملأني تجدد * ما خلق المال الا أن يبدد
 ومن قوله على طريقة له وفيه وينحومني الششترى منهم
 بين طلوع ونزول * اختلطت بالغزول * ومضى من لم يكن * وبق من لم يزول
 ومن محاسنه أيضا قوله في ذلك المعنى
 البعد عنك يابني أعظم مصابي * وحين حصل لي قربك نسيت قرابي
 وكان لعصر الوزير ابن الخطيب بالاندلس محمد بن عبد العظيم من أهل وادي آس وكان
 اماما في هذه الطريقة وله من زجل يعارض به مدغيس في قوله
 لاح الضياء والنجوم حيارى * بقوله

حل المجون يا أهل الشطارا * مذحلت الشمس بالحل
 جددوا كل يوم خلاعا * لا تجعلوا اسمها عيل
 اليها يتخلعوا في سبيل * على خضورة ذاك النبات
 وصل بغداد واجتياز النيل * أحسن عندي في ذيك الجهات
 وطاقتها أصلح من اربعين ميل * ان صرت الريح عليه وجات
 لم يلق الغيب ارامارا * ولا بمقدار ما يكتمل

وكيف ولا فيه موضع رفاعا * الا ويسرح فيه النحل
وهذه الطريقة الزجلية لهذا العهد هي فن العاتة بالاندلس من الشعر وفيها نطههم
حتى انهم اينظرون بهما في اثار البهور الخمسة عشر لكن بلغتهم العاتية ويسمونه الشعر
الزجلى مثل قول شاعرهم

لى دهر به شق جفونك وسنين * وانت لاشقة ولا قلب يلين
حتى ترى قلبى من أجلك كين رجوع * صنعة السكة ما بين الحدادين
الدموع ترشش والنار تلتهب * والمطارق من شمال ومن عين
خلق الله النصارى للغة زو * وانت تغزوني في قلوب العاشقين
وكان من المجيدى هذه الطريقة لا قول هذه المائة الا ديب أبو عبد الله الألويسى وله
من تصيدته يدح فيها السلطان ابن الأحمر

طل الصباح قم ياندى شربوا * ونصه كونه بعد ما نطرو
سيكة الفجر أحت شققا * فى يلق الليل وقوم قلبه و
ترى غبارا خالص أبيض نقى * فضه هولكن الشفق ذهبو
وسقوا وكروا عند البشر * نور الجفون من نورها تكسبو
فهو النهار يا صاحبي لمة عاش * عيش الفتى فيه بالله ما أطيبو
والليل نصا للقبيل والعناق * على سرير الوصل يتقابو
جاد الزمان من بعد ما كان بخيل * واش كقتله من يريه عسرو
كما جرع مر وفيما قد مضى * يشرب سواه وبيا كل طيبو
قال الرقيب يا أدبا لا شذا * فى الشرب والعشق ترى تنجبو
وتعجبوا عذلى من ذا الخبر * قلت يا قوم بما تعجبوا
يعشق ملج الأرقيق الطباع * علاش تكفروا بالله أو تكنبوا
لبس بريح الحس الأشاعر أديب * بغض بكرو ويدع ثيبو
أما الكاس فحرام نعم هو حرام * على الذى ما يدري كيف يشربوا
ويد الذى يحسن حسابه ولم * يقدر يحسن الفاظ أن يجلبوا
وأهل العقل والفكر والمجون * بغفر ذنوبهم لهذا ان أذنبوا
ظبي بهى فيها بطنى الجمر * وقلبي فى جمر الغضى يلهبو
غزال بهى ينظر قلوب الأسود * ومالههم قبل النظر يذهبوا
ثم يحببهم اذا ابتسم بضحكوا * ويفرحوا من بعد ما يندبوا
فويم كالحاتم ونغر نقى * خطيب الأمة لا قبل يخطبو

جوهر و مرجان أى عقد يا فلان * قد صدق فقه الناظم ولم يتقبوا
 وشارب اخضر ير يد لاش ير يد * من شبهه بالمسك قد عيبوا
 يسبل دلال مثل جناح الغراب * لبالي هجرى منه يسـ تغربوا
 على بدن أبيض بلون الحليب * ماقط راعى لغـمـm
 وزوج هندات ما علمت قبلها * دينك الصـلاياريت ما أصلبو
 تحت العكاكن منها خصر ارقيق * من رقتو يخنى اذا تطلبو
 أرق هو من دنى فيما تقول * جديد عنك حق ما أكذبو
 أى دين بقلى عال و أى عقل * من تبعك من ذا و ذاتسلبو
 تحمل ارداف يقال كالرقيب * حين ينظر العاشق و حين يرقبو
 ان لم يقم غـدر أو ينقشع * فى طرف ديسا والبشر تطلبو
 يصير ليلك المكان حين تجى * وحين تغيب ترجع فى معنى تبو
 محاسنك مثل خصال الامير * أو الرسل من هو الذى يحسبو
 عماد الامصار و فصيح العرب * من فصاحة لفظه يتقربوا
 بحمل العلم ان فرد و العمل * ومع بديع الشعر ما أكتبو
 فى الصدر بالرح ما أطمعه * وفى الرقاب بالسيف ما أضربو
 من السماء بحمد فى أربع صفات * فمن يعد قلبى أو يحسبو
 الشمس نور و القمر همتو * والقيث جود و النجوم منصبو
 يركب جواد الجود و يطلق عنان * الاغنيا و الجنـد حين يركبوا
 من خلعتو و يلبس كل يوم بطيب * منه بنات المعالى تطيبوا
 نعمتو و تظهر على كل من يبيبه * قاصد و وارد قط ما خيبوا
 قد أظـهـر الحق و كان فى حجاب * لاش بقدر الباطل بعد ما يحسبو
 وقد بنى بالسرى كمن التقى * من بعد ما كان الزمان خربو
 تخاف حين تلقاه كما ترجميه * فمع سماحة وجهه ما أسيبو
 يلقي الحروب ضاحكا و هى عابسه * غلاب هو لاشى فى الدنيا يغلبو
 اذا جبد سيفه ما بين الردود * فليس شئ يفنى من يضربو
 وهو سمى المصطفى و الاله * للسلطنة اختار و واستخبو
 تراه خليفة أمير المؤمنين * يقود جيوش و يزين موكبو
 لذى الامارة تخضع الرؤس * نعم وفى تقبيل يديه رغـمـمـمـm
 بيتـهـمـمـمـمـمـمـمـمـمـمـm بقى بدور الزمان * بطلعوا فى الجسد ولا يفربوا

وفي المعالي والشرف يعدو • وفي التواضع والحياء يقربو
 والله يقيهم مادار القلك • وأشرق شمسهم ولاح كوكبو
 وما يغني ذا القصيد في عروض • يا شمس خدر مالها مغربو
 ثم استحدث أهل الامصار بالمغرب فنا آخر من الشعر في أعاريض مزدوجة كلوشع
 نظموا فيه بلغتهم الحضرية أيضا وسموه عروض البلد وكان أول من استحدثه فيهم
 رجل من أهل الادلس نزل بقاس يعرف بابن عمير فنظم قطعة على طريقة الموشح ولم
 يخرج فيها عن مذاهب الاعراب مطلعها

أبكاني بشاطى الثهرونوح الحمام • على الفصن في البستان قريب الصباح
 وكف السحر بمحومداد الظلام • وماء الذي يسدي يجري بشغرا الاقحاح
 باكرت الرياض والطلل فيها افتراق • سر الجواهر في نخبور الجوار
 ودمع النواجر نهرق انهرق • يحاصكي ثعابين حلفت بالثمار
 لو ابا الغصون خلت على كل ساق • ودار الجميع بالروض دور السوار
 وأبدي الندى تغرق جيوب الكمام • ويحصل نسيم المسك عنها رياح
 وعاج الصبا يطلى بمسك الغمام • وجسر التسيم ذبلو عليها وفاح
 رأيت الحمام بين الورق في القصب • قد ابتلت أرياشو بقطر الندى
 تنوح مثل ذلك المستهام الغريب • قد التفت من تو بو الجسد في ردا
 ولكن بما أحمر وساق وخضب • يتطم سلوكه جوهر ويتقلدا
 جلس بين الاغصان جلسة المستهام • جناحا توسد والتوى في جناح
 وصار يشكي ما في القواد من غرام • منها ضم منقاره لصدره وصاح
 قلت يا حمام احرمت عيني الهجوع • أراك ماتزال تبكي بدمع صفوح
 قال لي بكيت حتى صفت لي الدموع • بلا دمع نسبي طول حياتي تنوح
 على فرخ طار لي لم يكن لورجوع • ألفت البكا والحزن من عهد نوح
 كذا هو الوفا وكذا هو الزمام • انظر جفون صارت بحال الجراح
 وانتم من بكى منكم اذا تم عام • يقول عناني ذا البكا والنواح
 قلت يا حمام لو خضت ببحر الضنى • كنت تبكي وترثي لي بدمع هبون
 ولو كان قلبك ما يقبلني أنا • ما كان يصير تحتك فروع الغصون
 اليوم تقاسي الهجر كم من سنا • حتى لاسبيل جمله تراني العيون
 وما كسا جسدي النحول والسقام • أخفاني نحولي عن عيون اللواح
 لو جنتي المنيا كان يموت في المقام • ومن مات بعد دابة لم لقد استراح

قال لي لو رقدت لاوراق الرماض * من خوفي عليه ودالنفوس للقواد
وتخضبت من دمي وذالالبياض * طوف العهد في عنقي ليوم التناد
أما طرف منقاري حديثواستفاض * باطراف البلد والجسم صار في الرماد
فاستعسنة أهل فاس وولعوا به ونظموا على طريقته وتركوا الاعراب التي ليس من
شأنهم وكدر جماعه بينهم واستعمل فيه كثير منهم ونوعوه صنفا في المزدوج والكارى
والمعبة والغزل واختلفت أسماءها باختلاف ازدواجها وملاحظاتهم فيلغز
المزدوج ما قاله ابن شجاع من غولهم وهو من أهل تازا

المال زينة الدنيا وعز النفوس * يهي وجوها ليس هي باها
فها كل من هو كبير الفلوس * ولوه الكلام والرتبة العاليا
بكبر من كرمالو ولو كان صغير * ويصغر عزيز القوم اذ يقتقر
من ذا ينطبق صدري ومن ذا يصبر * يكاد يتفجع لولا ازجوع للقدر
حتى يلجبي من هوني قومو كبير * لمن لا أصل عند وولا لو خطر
لذا ينبغي يحزن على ذى العكوس * ويصبع عليه توب فراش صافيا
التي صارت الاذنان امام الرؤس * وصار يستفيد الواد من الساقيا
ضعف الناس على ذا وفسد الزمان * ما يدروا على من يكثروا اذا العتاب
التي صار فلان يصبح باؤ فلان * ولورايت صكيف يرتد الجواب
عشنا والسلام حتى رأينا عيان * أفتاس السلاطين في جلود الكلاب
بكار النفوس جدا ضعف الاسوس * هم ناحيا والمجد في ناحيا
يروا أنهم والناس يروهم تيوس * وجوه البلد والعمدة الراسيا
ومن مذاهم قول ابن شجاع منهم في بعض مزدوجاته

تعب من تبع قلبو ملاح ذا الزمان * اهل يافلان لا يلعب الحسن فيك
ما منهم ملج عاهد الاوخان * قليل من عليه تحبس ويحبس عليك
يهبوا على العناق ويتمنوا * ويستعمدوا تقطيع قلوب الرجال
وان واصلوا من حينهم يقطعوا * وان عاهدوا خا نوعا على كل حال
ملج كان هويتو وشت قلبي معو * وصبرت من خدى لقد موعا
ومهدت لومن وسط قلبي مكان * وقلت لقلبي اكرم لمن حل فيك
وهون عليك ما يعتريك من هوان * فلا بد من هول الهوى يعتريك
حكمتوا على واراضيت بأمير * فلاو كان يرى حلك اذا يصرو
يرجع مثل درحولي بوجه القدير * مرديه ويتعطس بحال انحسروا

وتعلمت من ساعا بسن الضمير * ويقهم مراد و قبل أن يذكرو
ويجئ في مطلق لوان كان * عصر في الربيع أو في اللبالي يربك
ويشئ بسوق كان ولو باصبهان * وابش ما يقل يحتاج يقل لو يصبك
حتى أتى على آخرها * وكان منهم على بن المؤذن سلمان * وكان لهذه العصور القرية مر
فولهم بزدهون من ضواحي مكاسة رجل يعرف بالكفيف أبداع في مذاهب هذا الفن
ومن أحسن ما علق له بمحفوطي قوله في رحلة السلطان أبي الحسن وبني مرين إلى
أفريقية بصف هزيمتهم بالقيروان ويعزيم عنها ويونسهم بما وقع انهم بعد أن
عيهم على غزاتهم إلى أفريقية في ملعبة من فنون هذه الطريقة يقول في مفتحها وهو
من أبداع مذاهب البلاغة في الأشعار بالمقصد في مطامع الكلام واقتناحه ويسمى
بإعارة الاستهلال

سجان مالك خواطر الامرا * ونواصبها في كل حين وزمان
ان طعناه عطفهم لنا قسرا * وان عصيناها عاقب بكل هوان
إلى أن يقول في السؤال عن جيوش المغرب بعد التلخص

كن مرعى قل ولانكن راعي * فالراعي عن رعيته مسؤل
واستفتح بالصلاة على الداعي * للاسلام والرضا السني المكمول
على الخلفاء الراشدين والاتباع * واذكر بعدهم اذا تحب وقول
أجمابا تحلوا العسرا * ودوامرح البلاد مع سكان
عسكرفاس المنيرة الغرا * وينسارت بو عزائم السلطان
أجمابا بالنبي الذي زرم * وقطعتم لوكلا كل البيدا
عن جيش الغرب حين يسألكم * المتلوف في أفريقية السودا
ومن كن بالعطابا يزودكم * ويندع بريه الجازر غدا
قام قل للسد صادف الجزرا * ويحز شوط بعد ما يخفان
وزن كردوم وتهب في الغبرا * أي ما زاد غزالهم سجان
لو كان ما بين تونس الغبرا * وبلاد الغرب سد السكندر
مبني من شرقها إلى غربا * طبقا بحمد اوثان يا بصفر
لا بد الطير أن تجيب نبا * أو يأتي الريح عنهم بفرد خبر
مأعوصها من أمور وباشرا * لوتقرا كل يوم على الديوان
لجرت بالدم وانصدع حجرا * وهوت الخراب وخافت الغزلان
أدري بعقلك الفحاص * وتفكر لي بخاطر كجمعا

ان كان تعلم جام ولارقاص * عن السلطان شهر وقبله سبعا
تظهر عند المهين القصاص * وعلا مات تشر على الصما
الاقوم عارين فلا ستر * مجهولين لا مكان ولا امكان
ما يدروا كيف بصوروا كسرا * وكيف دخلوا مدينة القيروان
امولاي ابوالحسن خطينا الباب * قضية سبينا الى تونس
فقنا كما على الجريد والزاب * واشك في اعراب افريقيا القويس
ما بلغك من عمرفتي الخطاب * الفاروق فاتح القرى المولس
ملك الشام والحجاز وناج كسرى * وفتح من افريقيا وصكان
رد ولدت لو ككزه ذكرى * ونقل فيها تفرق الاخوان
هذا الفاروق مردى الاعوان * صرح في افريقيا بالتصريح
وبقت حتى الى زمن عثمان * وقصها ابن الزبير عن نعيم
لمن دخلت غنائها الديوان * مات عثمان وانقلب علينا الريح
وافترق الناس على ثلاثة امرا * وبنى ما هولاء كوت عنوان
اذا كان ذاق في مدة البرا * اش نعمل في اواخر الازمان
واصحاب الحضرة في مكاسانا * وفي تاريخ كائنا وككبوانا
تذكر في صحتها آياتنا * شق وسطح وابن مرانا
ان مرين اذا تكفرا آياتنا * بلحدا وتونس قد سقط بناينا
قد ذكرنا ما قال سيد الوزرا * عيسى بن الحسن الرفيع الشان
قال لي رايت وانا اذا ادرى * لكن اذا جاء القدر عبت الاعيان
وبقول لك مدهى المرينيا * من حضرة فاس الى عرب دياب
اراد المولى بموت ابن يحيى * سلطان تونس وصاحب الابواب
ثم اخذ في ترحيل السلطان وجيوشه الى آخر رحلته ومنتهى امره مع اعراب افريقية
وانى فيها بكل غريبة من الابداع واما اهل تونس فاستعدوا في الملعبه ايضا على لغتهم
الحضرية الا ان اكثره ردى ولم يعلق بحفظى منه شي لردائه • وكان لعامة بغداد
ايضا فن من الشمر يسعونه المواليا وتحنه فنون كثيرة يسعون منها القوما وكان
ومنه مفردومنه في بيتين ويسمونه دويت على الاختلافات المعبرة عندهم في كل واحد
منها وغالبها مزدوجة من اربعة اغصان وتبعهم في ذلك اهل مصر القاهرة وانوا فيها
بالغرائب وتجر وافيا في اساليب البلاغة بمقتضى لغتهم الحضرية فجاءوا بالعجائب
ومن اعجب ما علق بحفظى منه قول شاعرهم

هذا جراح طريا • والسماتنضج
وقا تلي يا أخيا • في القلايمرح
قالوا وناخذ بشارك • قلت ذا أقمج

ولغيره

طرقت باب الخبا فالت من الطارق • فقلت مقصون لانا هب ولا سارق
تسبت لاح لي من ثغرها بارق • رجعت حيران في بحر ادعى غارق

ولغيره

عهدي بها وهي لا تأمن على العين • وان شكوت الهوى قالت فدتك العين
لمن تعني لها غيري غليم زين • ذكرتها العهد قالت لك على دين
ولغيره في وصف الحشيش

دي خمر صرف التي عهدي بها باقي • تغني عن الخمر والخمار والساق
قبا ومن خبها تهمل على احراق • خبيتها في الحشى طلت من احراق

ولغيره

يا من وما لولا لطفال المحبة مع • كم توجد القلب بالهجران أوه أح
أودعت قلبي حوس والتصريح • كل الوري كخ في عيني ونخصك دح

ولغيره

ناديتها ومشيبي قد طواني طي • جودي على بقبلة في الهوى يامي
قالت وقللي كوت داخل فوادى كي • ما هكذا القطن يحشى فتم من هوسى

ولغيره

راني ايتسم سبقت سحب ادعى برقه • ما ط اللثام تبدي بدر في شرقه
اسبل دجى الشعر تاه القلب في طرفه • رجع هدا نا بنحيط الصبح من فرقه

ولغيره

يا حادى العيس ازجر بالمطاي ازر • وقف على منزل احبابي قبيل الفجر
وصبح في حيسم يامن يريد الاجر • ينهض يصلى على ميت قبيل الهجر

ولغيره

عيني التي كنت أوتها كم بهياتت • ترعى النجوم وبالتمسهداقتات
وأسهم البين صابتي ولاقات • وسلوني عظم الله أجر كم ماتت

ولغيره

هويت في قنطرتكم باملاح الحكر • غزال يلى الاسود الضار يا بالسكر

غصن اذا ما انثى يسي البنات البكر * وان تهلل فاللبدر عند و ذكر
ومن الذي يسمونه دويت

قد أقسم من أحبه بالبارى * أن يبعث طيفه مع الاسفار

ياتار شوق به فاتقدي * ليلافعنا بهتدي بالنار

واعلم أن الاذواق في معرفة البلاغة كلها انما تحصل لمن خالط تلك اللغة وكذا استعماله
لها ومخاطبته بين أجيالها حتى يحصل ما كتبت كما قلناه في الآية العربية فلا الاندلسي
بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر أهل الاندلس
والمشرق ولا المشرق بالبلاغة التي في شعر أهل الاندلس والمغرب لان اللسان
الحضري ذرأ كيبه مختلفة فيهم وكل واحد منهم مدرك للبلاغة لغته وذائق محاسن
الشعر من أهل جلده وفي خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم
آيات * وقد كدنا أن نخرج عن الغرض وعزمننا أن نقبض العنان عن القول في هذا
الكتاب الا اول الذي هو طبيعة العمران وما به عرض فيه وقد استوفينا من مسائله
ما حسبناه كفاية ولعل من يأتي بعدنا ممن يؤيده الله بفكر صحيح وعلم مبين يغوص
من مسائله على أكثر مما كتبنا فليس على مستنبط الفن احصاء مسائله وانما عليه
تعيين موضع العلم وتنويع فصوله وما ينسلكم فيه والمتأخرون يطعمون المسائل من بعده
شأننا الى أن يكمل والله يعلم وأنتم لا تعلمون

قال مؤلف الكتاب عفا الله عنه أتمت هذا الجزء الا اول بالوضع والتأليف قبل التنقيح
والتهذيب في مدة خمسة أشهر آخرها منتصف تمام تسعة وسبعين وسبعمائة ثم نقيحته بعد
ذلك وهذبتة وألحقت به تواريح الامم كما ذكرت في قوله وشرطته وما اعلم الامن عند
الله العزيز الحكيم

تم طبع الجزء الا اول المعروف بمقدمة ابن خلدون

ويليه الجزء الثاني اوله الكتاب الثاني في

اخبار العرب وأجيالهم ودولهم

منه مبدأ الخليقة

الى هذا

العهد

م

٧	المقدمة في فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه والاماع لما يعرض للمؤرخين من المغالط والاوهام وذكري من أسبابها
٢٩	الكتاب الاول في طبيعة العمران في الخليفة وما يعرض فيها من البدو والحض والتغلب والكسب والمعاش والصنائع والعلوم ونحوها وما لذلك من العا والاسباب (وفيه ست فصول كبار)
٣٤	الفصل الاول من الكتاب الاول في العمران البشري على الجملة وفي مقدمات
٣٤	المقدمة الاولى في أن الاجتماع الانساني ضروري
٣٦	المقدمة الثانية في قسط العمران من الارض والاشارة الى بعض ما فيه
٤٠	الاشجار والانهار والاقليم تكملة لهذه المقدمة الثانية في أن الربع الشمالي من الارض أكثر عمراناً الربع الجنوبي وذكر السبب في ذلك
٤٣	تفصيل الكلام على هذه الجغرافيا
٤٤	الاقليم الاول
٤٨	الاقليم الثاني
٤٩	الاقليم الثالث
٥٥	الاقليم الرابع
٦٠	الاقليم الخامس
٦٥	الاقليم السادس
٦٧	الاقليم السابع
٦٩	المقدمة الثالثة في المعدل من الاقاليم والمنحرف وتأثير الهواء في ألوان البشر والكثير من أحوالهم
٧٢	المقدمة الرابعة في أثر الهواء في أخلاق البشر
٧٣	المقدمة الخامسة في اختلاف أحوال العمران في تلحيب والجوع وما يترتب عن ذلك من الآثار في أبدان البشر وأخلاقهم
٧٧	المقدمة السادسة في أصناف المدركين للغيب من البشر بالفطرة أو بالرباطة ويتقدمه الكلام في الوحي والرويا

٨٠ حقيقة النبوة والكهانة والرؤيا وشأن العرافين وغير ذلك من مدارك الغيب

١٠١ الفصل الثاني من الكتاب الأول في العمران البدوي والامم الوحشية
والتبائل وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه اصول وتهيدات

١٠١ فصل في أن أجيال البدو والحضر طبيعية

١٠٢ فصل في أن جيل العرب في الخلقة طبيعي

١٠٣ فصل في أن البدو أقدم من الحضرة وسابق عليه وان البادية أصل العمران
والامصار مدد لها

١٠٣ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضرة

١٠٥ فصل في أن أهل البدو أقرب الى الشجاعة من أهل الحضرة

١٠٦ فصل في أن معاناة أهل الحضرة لا يحكم مقصد لباس فيهم ذاهبة بالمنفعة منهم

١٠٧ فصل في أن سكنى البدو لا يكون الا للتبائل أهل العصبية

١٠٨ فصل في أن العصبية انما تكون من الانتحام بالنسب أو ما في معناه

١٠٩ فصل في أن السريخ من النسب انما يوجد لامتو حشيش في انقتر من العرب
ومن في معانهم

١١٠ فصل في اختلاط الانساب كيف يقع

١١٠ فصل في أن الرئاسة لا تزال في نصابها المخصوص من أهل العصبية

١١١ فصل في أن الرئاسة على أهل العصبية لا تكون في غير نسبهم

١١٢ فصل في أن البيت والشرف بالاصالة والحنيفية لأهل العصبية ويكون لغيرهم
باجاز والشبه

١١٣ فصل في أن البيت والشرف لانه والى زأهل الاصطناع انما هو عوالبهم
لاباناسهم

١١٤ فصل في أن نهاية الخصب في العقب الواحد أربعة آله

١١٦ فصل في أن الامم الوحشية أقدر على التغلب من سواها

١١٧ فصل في أن الغاية التي تجرى اليها العصبية هي المنان

١١٨ فصل في أن من عوائق الملك حصول الترف وانعماس القبيل في النعيم

١١٨ فصل في أن من عوائق الملك حصول المذلة للقبيل والانقياد الى سواهم

١١٩ فصل في أن من علامات الملك التناؤس في الخلال الحميدة وبالعكس

١٢١ فصل في أنه اذا كانت الامة وحشية كان ملكها أوسع

- ١٢٢ فصل في أن الملك اذا ذهب عن بعض الشعوب من أمة فلا بد من عودته الى
شعب آخر منها ما دامت لهم العصبية
- ١٢٣ فصل في أن الغلوب بمواعيد بالاقتراب بالغالب في شعاره وزبه ونخلته وسائر
أحواله وعوائده
- ١٢٤ فصل في أن الامة اذا غلبت وصارت في ملك غيرها أسرع اليها القضاء
- ١٢٥ فصل في أن العرب لا يتغلبون الا على البسائط
- ١٢٥ فصل في أن العرب اذا تغلبوا على اوطان أسرع اليها الخراب
- ١٢٦ فصل في أن العرب لا يحصل لهم الملك الا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر
عظيم من الدين على الجملة
- ١٢٧ فصل في أن العرب أبعد الامم عن سياسة الملك
- ١٢٨ فصل في أن البوادي من القبائل والعصائب مغلوبين لاهل الامصار
-
- ١٢٩ الفصل الثالث من الكتاب الاوّل في الدول العاتية والملك والخلافة والمراتب
السلطانية وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه قواعد ومقدمات
-
- ١٢٩ فصل في أن الملك والدولة العاتية انما يحصل بالتبيل والعصبية
- ١٢٩ فصل في أنه اذا استقرت الدولة وتهدت فقد تستغنى عن العصبية
- ١٣١ فصل في أنه قد يحدث لبعض أهل النصاب الملكي دولة تستغنى عن العصبية
- ١٣٢ فصل في أن الدول العاتية الاستيلاء العظيمة الملك أصاها الدين اتمام نبوة
أو دعوة حق
- ١٣٢ فصل في أن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي
كانت لها من عدد
- ١٣٣ فصل في أن الدعوة الدينية من غير عصبية لا تتم
- ١٣٥ فصل في أن كل دولة لها حصّة من الممالك والاطان لا تزيد عليها
- ١٣٦ فصل في أن عظم الدولة واتساع نطاقها وطول أمدها على نسبة التّين بمافي
القلة والكثرة
- ١٣٧ فصل في أن الاوطان الكثيرة القبائل والعصائب قل أن تستحكم فيها دولة
- ١٣٩ فصل في أن من طبيعة الملك الانفراد بالمجد
- ١٣٩ فصل في أن من طبيعة الملك الترف
- ١٤٠ فصل في أن من طبيعة الملك الدعوة والسكون

	صفحة
فصل في أنه اذا استحكمت طبيعة الملك من الاتفراد بالهد وحصول الترف	١٤٠
والدعة أقبلت الدولة على الهرم	
فصل في أن الدولة لها أعمار طبيعية كالإنسان	١٤٢
فصل في انتقال الدولة من البداوة الى الحضارة	١٤٤
فصل في أن الترف يزيد الدولة في أولها اقوة الى قوتها	١٤٦
فصل في أطوار الدولة واختلاف أحوالها وخلق أهلها باختلاف الاطوار	١٤٦
فصل في أن آثار الدولة كلها على نسبة قوتها في أصلها	١٤٨
فصل في استظهار صاحب الدولة على قومه وأهل عصيته بالموالى والمصطنعين	١٥٢
فصل في أحوال الموالى والمصطنعين في الدول	١٥٣
فصل فيما يعرض في الدول من حجر السلطان والاستبداد عليه	١٥٥
فصل في أن المتغلبين على السلطان لا يشاركونه في اللقب الخاص بالملك	١٥٥
فصل في حقيقة الملك وأصنافه	١٥٦
فصل في أن أرهاق الخدم ضرر بالملك ومفسده في الأكثر	١٥٧
فصل في معنى الخلافة والامامة	١٥٨
فصل في اختلاف الامة في حكم هذا المنصب وشروطه	١٥٩
فصل في مذاهب الشيعة في حكم الامامة	١٦٤
فصل في انقلاب الخلافة الى الملك	١٦٨
فصل في معنى البيعة	١٧٤
فصل في ولاية العهد	١٧٥
فصل في الخطط الدينية للخلافة	١٨٢
فصل في اللقب بأمر المؤمنين وأنه من سمات الخلافة وهو محدث منذ عهد	١٨٩
الخلفاء	
فصل في شرح اسم البابا والبطريرك في الملة النصرانية واسم الكوهن عند	١٩٢
اليهود	
فصل في مراتب الملك والسلطان وألقابها	١٩٥
ديوان الاعمال والجبليات	٢٠٢
ديوان الرسائل والكتابة	٢٠٥
قيادة الاساطيل (وهي سفائن الحرب)	٢١٠

- ٢١٤ فصل في التفاوت بين مراتب السيف والقلم في الدول
- ٢١٥ فصل في شارات الملك والسلطان الخاصة به
- ٢١٧ السرير والمنبر والتخت والكرسي
- ٢١٧ السكة
- ٢٢٠ الخاتم
- ٢٢٢ الطراز
- ٢٢٣ الفساطيط والسياح
- ٢٢٤ المقصورة للصلاة والدعاء في الخطبة
- ٢٢٦ فصل في الحروب ومذاهب الامم في ترتيبها
- ٢٢٧ فصل ومن مذاهب أهل الكفر والفرق في الحروب ضرب المصاف وراء
عسكرهم الخ
- ٢٢٩ فصل ولما ذكرنا من ضرب المصاف وراء العساكر وتأكده في قتال الكفر
والفرصا رملوك المغرب يتخذون طائفة من الافرنج في جندهم الخ
- ٢٢٩ فصل وبلغنا ان أم الترك لهذا العهد قتالهم مناضلة بالسهم
- ٢٢٩ فصل وكان من مذاهب الاول في حروبهم حفر الخنادق على معسكرهم الخ
- ٢٢٣ فصل في الجباية وسبب قتلها وكثرتها
- ٢٣٤ فصل في ضرب المكوس اواخر الدولة
- ٢٣٤ فصل في ان التجارة من السلطان مضرّة بالرعايا مفسدة للجباية
- ٢٣٦ فصل في أن ثروة السلطان وحاشيته انما تكون في وسط الدولة
- ٢٣٧ فصل ولما يتوقعه أهل الدولة من أمثال هذه المعاطب صار الكثر منهم
ينزعون الى الفرار عن الرتب والتخلص من ربة السلطان الخ
- ٢٣٩ فصل في أن نقص العطاء من السلطان نقص في الجباية
- ٢٣٩ فصل في أن الظلم مؤذن بخراب العمران
- ٢٤١ فصل ومن أشد الظلمات وأعظمها في افساد العمران تكليف الاعمال
وتسخير الرعايا بغير حق
- ٢٤٢ فصل وأعظم من ذلك في الظلم وفساد العمران والدولة التسلط على أموال
الناس بشراء ما بين أيديهم بأبخس الاثمان
- ٢٤٣ فصل في الحجاب كيف يقع في الدول وأنه يعظم عند الهرم

- ٢٤٤ فصل في انقسام الدولة الواحدة بدولتين
 ٢٤٥ فصل في أن الهرم اذا نزل بالدولة لا يرتفع
 ٢٤٦ فصل في كيفية طروق الخلل للدولة
 ٢٤٩ فصل في حدوث الدولة وتجدد ها كيف يقع
 ٢٤٩ فصل في أن الدولة المستجدة انما تستولى على الدولة المستقرة بالمطاوله
 لا بالمناجزة
 ٢٥٢ فصل في وفور العمران آخر الدولة وما يقع فيها من كثرة الموتان والجماعات
 ٢٥٣ فصل في أن العمران البشرى لا بد له من سياسة ينتظم بها أمره
 ٢٦٠ فصل في أمر الفاطمي وما يذهب اليه الناس في شأنه وكشف الغطاء عن ذلك
 ٢٧٥ فصل في ابتداء الدول والامم وفيه الكلام على الملاحم والكشف عن معنى
 الجفر

٢٨٦ الفصل الرابع من الكتاب الاوّل في البلدان والامصار وسائر العمران
 وما يعرض في ذلك من الاحوال وفيه سوابق ولواحق

- ٢٨٦ فصل في أن الدول أقدم من المدن والامصار وانما انما توجد ثانياً عن الملك
 ٢٨٧ فصل في أن الملك يدعو الى نزول الامصار
 ٢٨٨ فصل في أن المدن العظيمة والهياكل المرتفعة انما يبنيها الملك الكثير
 ٢٨٩ فصل في أن الهياكل العظيمة جدا لا تستقل بيناها الدولة الواحدة
 ٢٩٠ فصل في ما يجب مراعاته في أوضاع المدن وما يحدث اذا غفل عن تلك المراعاة
 ٢٩٢ فصل في عمارات في بلاد الساحلية التي على البحر أن تكون في جبل
 أو تكون بين أمة من الامم الخ
 ٢٩٢ فصل في المساجد والبيوت العظيمة في العالم
 ٢٩٨ فصل في أن المدن والامصار بافر بقية والمغرب قلادة
 ٢٩٩ فصل في أن المباني والامانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها والى
 من كان قبلها من الدول
 ٣٠٠ فصل في أن المباني التي كانت تحتها العرب يسرع اليها الخراب الا في الاقل
 ٣٠٠ فصل في مبادئ الخراب في الامصار
 ٣٠١ فصل في أن تفاضل الامصار والمدن في كثرة الرفه لاهلها ونفاق الاسواق انما
 هو في تفاضل عمرانها في الكثرة والقلّة

- ٣٠٣ فصل في أسعار المدن
 ٣٠٥ فصل في قصور أهل البادية عن سكنى المصر الكثير العمران
 ٣٠٥ فصل في أن الاقطار في اختلاف أحوالها بأزرفه والفقير مثل الامصار
 ٣٠٧ فصل في تأثر العقار والضياع في الامصار وحال فوائدها ومستغلاتها
 ٣٠٨ فصل في حاجات المتمدنين من أهل الامصار الى الجاه والمدافعة
 ٣٠٨ فصل في أن الحضارة في الامصار من قبل الدول وأنه تترسخ بانصاف الدولة
 ورسوخها
 ٣١٠ فصل في أن الحضارة غاية العمران ونهاية عمره وأنها وذنة بفساده
 ٣١٣ فصل في أن الامصار التي تكون كراسي للملك بحرب بخراب الدولة وانتقاضها
 ٣١٥ فصل في اختصاص بعض الامصار ببعض الصناعات دون بعض
 ٣١٥ فصل في وجود العصبية في الامصار وتغلب بعضهم على بعض
 ٣١٧ فصل في لغات أهل الامصار

٣١٨ الفصل الخامس من الكتاب الاول في المعاش ووجوهه من الكسب
 والصناعات وما يمرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مسائل

٣١٨ فصل في حقيقة الرزق والكسب وشرحه - ما وأن الكسب هو قيمة الاعمال
 البشرية

- ٣٢٠ فصل في وجوه المعاش وأصنافه ومذاهبه
 ٣٢١ فصل في أن الخدمة ابست من المعاش الطبيعي
 ٣٢١ فصل في أن ابتغاء الاموال من الدفائن والكنوز ليس بمعاش طبيعي
 ٣٢٥ فصل في أن الجاه مفيد للامال
 ٣٢٦ فصل في أن العادة والكسب انما يحصل غالباً لأهل الخسوع والتلق وأن
 هذا الخلق من أسباب السعادة
 ٣٢٨ فصل في أن القائلين بأموال الدين من القضاء والقبض والتدريس والامامة
 والخطابة والاذان ونحو ذلك لانهم يزعمون في الغالب
 ٣٢٩ فصل في أن الفلاح من معاش المستغنين وأهل العافية من البدو
 ٣٣٠ فصل في معنى التجارة ومذاهبها وأصنافها
 ٣٣٠ فصل في أي أصناف الناس يحترف بالتجارة وأيهم ينبغي له اجتناب حرفها
 ٣٣١ فصل في أن خلق التجار نازلة عن خلق الاشراف والملوك

	صفحة
فصل في نقل التاجر للملح	٢٢١
فصل في الاحتكار	٢٢٢
فصل في أن يخص الاسعار مضرًا بالمحترفين بالرخص	٢٢٢
فصل في أن خلق التجارة نازلة عن خلق الرؤساء وبعيدة من المروءة	٢٢٣
فصل في أن الصنائع لا بد لها من المعلم	٢٢٤
فصل في أن الصنائع انما تكمل بكمال العمران الحضري وكونه	٢٢٥
فصل في أن رسوخ الصنائع في الامصار انما هو برسوخ الحضارة وطول أمدها	٢٢٥
فصل في أن الصنائع انما تستجد وتكثر اذا كثر طالها	٢٢٧
فصل في أن الامصار اذا قاربت الخراب انتقضت منها الصنائع	٢٢٧
فصل في أن العرب أبعد الناس عن الصنائع	٢٢٧
فصل في ان من حصت له ملك في صناعة فقل أن يجيد بعدها ملكة أخرى	٢٢٨
فصل في الاشارة الى أمهات الصنائع	٢٢٩
فصل في صناعة الفلاحة	٢٢٩
فصل في صناعة البناء	٢٢٩
فصل في صناعة التجارة	٢٤٢
فصل في صناعة الحياكة والخياطة	٢٤٣
فصل في صناعة التوليد	٢٤٤
فصل في صناعة الطب وأنها محتاج اليها في الحواضر والامصار دون البادية	٢٤٦
فصل في أن الخط والكتابة من عداد الصنائع الانسانية	٢٤٨
فصل في صناعة الوراقة	٢٥٢
فصل في صناعة الغناء	٢٥٢
فصل في أن الصنائع تكسب صاحبها عقلا وخصوصا الكتابة والحساب	٢٥٨
<hr/>	
الفصل السادس من الكتاب الاقل في العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه	٢٥٨
وسائر وجوهه وما يعرض في ذلك كله من الاحوال وفيه مقدمة ولواحق	
<hr/>	
فصل في أن العلم والتعليم طبيعي في العمران البشري	٢٥٨
فصل في أن التعليم للعلم من جملة الصنائع	٢٥٩
فصل في أن العلوم انما تكبر حيث يكبر العمران وتعمم الحضارة	٢٦٢
فصل في أصناف العلوم الواقعة في العمران لهذا العهد	٢٦٢

	صحيفة
٣٦٥	علوم القرآن من التفسير والقراءات
٣٦٨	علوم الحديث
٣٧٢	علوم الفقه وما يتبعه من الفرائض
٣٧٦	علم الفرائض
٣٧٧	أصول الفقه وما يتعلق به من الجدل والخلافات
٣٨٢	علم الكلام
٣٩٠	علم التصوف
٣٩٦	علم تعبير الرؤيا
٣٩٩	العلوم العقلية وأصنافها
٤٠٢	العلوم العددية
٤٠٢	ومن فروع علم العدد صناعة الحساب
٤٠٢	ومن فروع الجبر والمقابلة
٤٠٤	ومن فروع أيضا المعاملات
٤٠٤	ومن فروع أيضا الفرائض
٤٠٥	العلوم الهندسية
٤٠٦	ومن فروع هذا الفن الهندسة المنصرفة بالاشكال الكرية والمخروطات
٤٠٦	المنظر من فروع الهندسة
٤٠٦	ومن فروع الهندسة المساحة
٤٠٦	علم الهيئة
٤٠٧	ومن فروع علم الازياج
٤٠٨	علم المنطق
٤١٠	الطبيعيات
٤١١	علم الطب
٤١٢	فصل والبادية من أهل العمران طب ينونه في غالب الامر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص الخ
٤١٢	الفلاحة
٤١٣	علم الالهيات
٤١٥	علم السحر والطلسمات



شَافِي
ابن حَكِيمٍ

المَسِي

بِحَاكِيهِ لِيَبْرَ، وَدِيَوَانِ الْمَسِي وَالْمَسِي وَالْمَسِي وَالْمَسِي

وَمِنْ حَاكِيهِمْ مِنْ دِيَوَانِ الشَّيْطَانِ الْاَكْبَرِ

بِحَاكِيهِ لِيَبْرَ وَالْمَسِي وَالْمَسِي وَالْمَسِي وَالْمَسِي

الْمَسِي وَالْمَسِي

لِجُلْدِ الْاَوَّلِ

بِحَاكِيهِ لِيَبْرَ وَالْمَسِي وَالْمَسِي وَالْمَسِي

بِحَاكِيهِ لِيَبْرَ - لِيَبْرَ